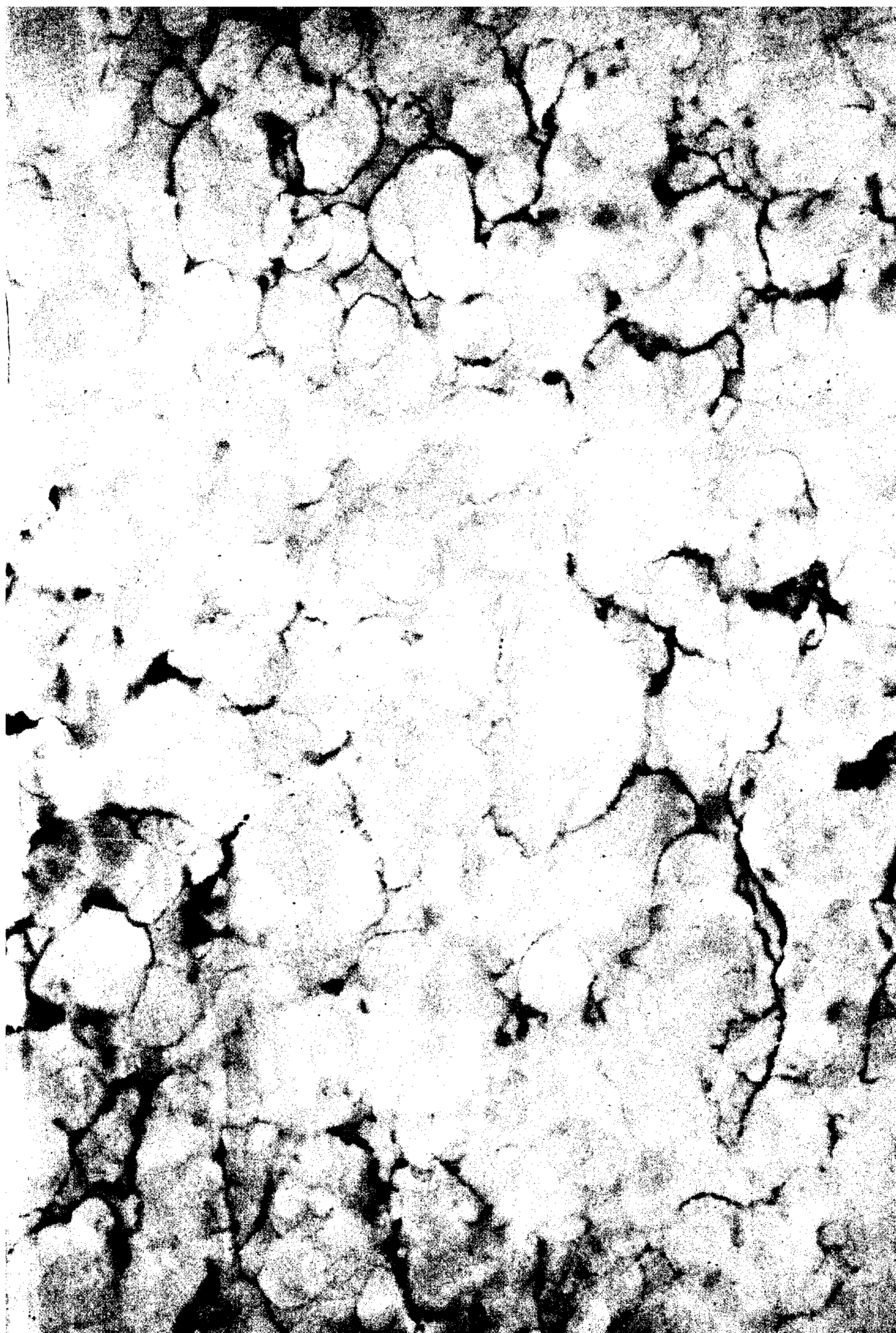
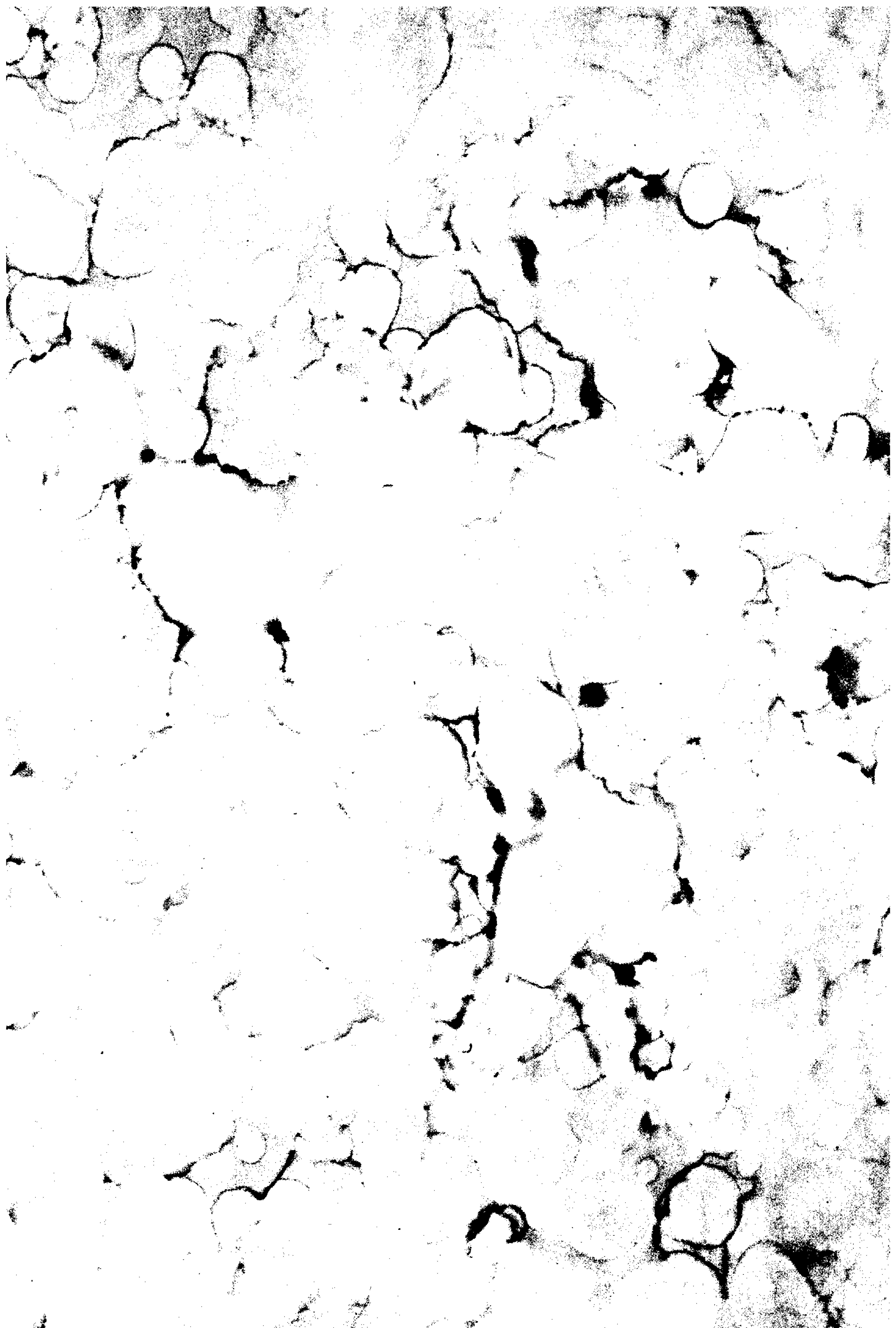
محمد تقي المدرسي

المنطق الإسلامي

أصوله ومناهجه

دار الجيل





محمد تقي المدرسي

المنطق الإسلامي
أصوله ومناهجه

دار الجيل
بيروت

الطبعة الاولى
١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله

حين تفقد الأمة شخصيتها ، فليس ـ بينها وبين نهايتها ـ الا خطوة واحدة .

اذ الانسان يعمل من أجل ذاته وبقواه الذاتية . وحين يفقد التحسس بذاته او الثقة بها فبماذا ولماذا يعمل ؟

كذلك الأمة تعمل ـ كأمة ـ من أجل شخصيتها . وبما لديها من طاقات مادية وروحية فاذا ضاعت الشخصية ـ فلماذا وبماذا العمل ؟

ان شخصية الأمة هي روحها الجماعية التي يستوحي منها كل فرد من ابنائها العزيمة والامل ..

حين يعشق الفلاح أرضه التي يحرثها ويداعبها حتى تخضر وتنتج لا يحب التراب، كمادة جامدة، بل كرمز للأمة التي عاشوا ولا يزالون عليها..

وحين يتعامل العامل مع آلات مصنعه ، وينسجم معها كأنه في جوقة موسيقية .. فليس يتعامل مع الحديد .. انما مع البشر الذين سوف ينتفعون بها .

والجندي حين يحتضن بندقيته ويقبلها ويخف لعربته المسلحة . ويقذف بنفسه في هوات الموت .. فليس لانه يعشق الموت ، او يعبد النار التي في السلاح انما لانها رمز امته التي يتحسس بروحها تجري في عروقه فتملئها عزيمة وأملا .

والرئيس الذي يكب على اوراق مكتبه يضيع بينها، كأنه السمكة تسبح في نهر الافكار .. يشعل السيجارة بعد السيجارة . ويعتصر مخه وقلبه حتى يتخذ قرارا صائبا ، يخدم به أمته ..

انه يحب هذه الامة ويشعر ان ذاته تذوب في كيانها الموحد .

ان حبلا قويا يشد هؤلاء الى بعضهم وروحا واحدة تجمع قلوبهم وتضيئها بقنديل الامل .

ولكن اذا ضاعت شخصية الامة ولم يعد يشعر ابناؤها بالروح الواحدة التي تجمعها فان كل واحد سيتخذ طريقا مختلفا . وسيشعر الجميع بالضعف والعجز والهزيمة . والسؤال ما هي شخصية الامة وباي شيء تتكون ؟ الجواب :

ان وحدة القيم والثقافة ، والاشتراك في الهدف والتاريخ هي حدود شخصية الامة المتميزة ..

فمن دون الثقافة الواحدة ذات القيم السامية والثابتة التي يؤمن بها الجميع ايمانا راسخا يبعثهم على العطاء من أجلها والتضحية لها بكل شيء يسقط الجدار المعنوي لبناء الامة .

ومن دون الهدف ، ذو التجربة التاريخية ، الذي يكون نقطة ارتكاز لنشاطات الامة ، ينهار الجدار المادي لبناء الامة .

واننا ـ كمسلمين ـ نتعرض اليوم لتهديد حقيقي بضياع شخصيتنا المتميزة وربما لأول مرة في تاريخنا الممتد اربعة عشر قرنا .

ان المسلمين يبحثون اليوم عن هوية ، انهم يبحثون ـ في فراغ ـ عن شيء يتشبثون به ولكنهم لا يجدوه ولن يجدوه ما داموا بعيدين عن دينهم وتراثهم .

واذا عادوا الى الاسلام ـ كدين وتاريخ ـ فسوف يجدونه اكثر من مجرد هوية انه الكنز الحقيقي الذي لا ينفد .

انه المعدن الذي لم يستثمر الا قليلا واذا استثمر أعطى الكثير بفضل غناه الروحي وقيمه الانسانية ومناهجه الحكيمة .

ولكن الاسلام الذي نريده منطلق حضارة واطار شخصية ليس اسلام المسلمين الذي حولوه الى قشور فارغة (مساجد بلا مصلين / صلاة بلا خشوع / خشوع بلا فهم و .. و ..) .

او الى ارهاب فكري تمارسه الرجعية ضد التقدم والانطلاق .

او الى افكار تبريرية تواكلية لتقاعسهم وعجزهم .

او الى سلاح سياسي يشهره المستغلون ضد المعدمين والمحرومين ؟
كلا

انما هو الاسلام الذي امر به القرآن ولخصته تجارب الأمة في قرون التقدم والانطلاق .

اسلام المناضلين من اجل فك الناس عن عبادة الناس الى توحيد الله.
اسلام التطور والاصلاح

ان ممارسات المسلمين في التاريخ ـ كممارسات المسلمين اليوم ـ ليست كل احتمالات الحضارة الاسلامية بل ان بعضها غطاء يخفي اشراق الاسلام الحقيقي .

ان الاسلام الحق .. يمكن ان يعطي الانسانية حضارة روحية مادية عظيمة المنفعة والروعة .

ان الحضارة الغربية ليست الشوط الاخير في تقدم الانسان ، ولا النموذج الاسمى لحياته .

وعلينا ان نستخرج من « كنوز الاسلام » حضارة أسمى ..

ولكن من الذي يجب ان يفعل لنا ذلك ؟

هناك طائفتان ـ هما رجال الدين حين يصبحون رجال علم ورجال العلم حين يصبحون رجال دين .

ولنا مع كل واحد منهما كلمة ..

كلمة الى رجال الدين

معذرة يا رجال الدين الافاضل انها كلمة اعتبرها نقدا ذاتيا وارجو ان تقبل على هذا الاساس .

الاسلام الذي تتشرفون به، هو دين العلم، والمجامع الدينية (الحوزات) هي التي خرجت كبار علماء المسلمين في مختلف الاختصاصات .

فلماذا انكفئت المجامع العلمية على ذاتها ورأت ان مسئوليتها تنحصر في اعادة صياغة افكارها دون اي انفتاح على افكار العالم من حولها .

لماذا لم تطعّم الحوزات الدينية مناهجها بالجديد الجيد من مناهج العلوم الحديثة او لا اقل لماذا لم تطور هي مناهجها بما يتناسب مع تقدم العصر والسرعة الهائلة فيه ؟!

الحدود الغامضة بين الاصالة والتقليد

قد يقال ـ بحق ـ : ان العملية ليست بهذه البساطة ، اذ التطوير ان كان ، يرتبط ارتباطا وثيقا بالحدود الغامضة والدقيقة التي تفصل بين الاصالة والتقليد . بين ما يجب ان يبقى وما يجب ان يطوّر .

وبالتالي ، بين القضايا المتعلقة بالقيم الثابتة التي لا يجوز التنازل عنها تحت ضغط اي الظروف ، وبين التقاليد البالية التي لصقت بها في غفلة من الوعي ، او القضايا التي كانت صالحة في يوم ، ثم اصبحت من مخلفات العصور الاولى ..

وليس من حق كل من هب ودب ، ان يعين هـذه الحدود الدقيقة . لانه بحاجة الى معرفة شاملة بالعصر ومتغيراته من جهة ، وبالدين ـ القيم الثابتة منه ، والمواضيع المتغيرة ـ من جهة اخرى .

ثم لحساسية هذه القضايا يختلف فيها الناس اختلافا كبيرا فالامر الذي هو ـ في رأي احـد المفكرين ـ من صميم الديـن فاذا تغير اطبقـت السماوات على الارض . انه بالذات . تقليد اعمى ـ في رأي جماعة اخرى ـ ويخالف الدين ، والدين بريء منه . مثلا محـل المرأة ، هل هو البيـت فقط ، أم رحاب الحياة كلها ؟..

فريق من الناس لا يكفون عن الصراخ بأن الله والقرآن ، والرسول ، والمسلمون ، يقولون ان المرأة يجب الا تخرج من حدود البيت ..

بينما فريق آخر ، يقولون ـ بكل ثقة وقناعة : ان الاسلام يفـرض على المرأة الاحتشام ثم يوجب عليها ان تساهم في بناء الحياة ابتداء من البيت وانتهاء بالاصلاح السياسي .

وهؤلاء واولئك ، يقدّمون معا ، شواهد وادلة عديدة ، وجذر المشكلة ان الدين اختلط عندنا بالتقاليـد . والقرآن (حمال ذو وجـوه) يفسّر بالاهواء . وفي هذا الجو .. يتطرف الـذين يريدون الاصلاح فيتجـاوزون حدود الاصالة ويتطرفون في التمـرد على الماضي بخـيره وشره ، بقيمـه الصالحة وتقاليده البالية .

ويكفرون ـ بالتالي ـ حتى بالشخصية المتميزة للامة .

كل هذا القول صحيح ، ولكن السؤال هو : لماذا ـ اذاً ـ لا تنعقـد مؤتمرات تعالج هذه المشكلة بالذات . ولماذا لا تعطى لهذه المشكلة الاولوية . عوضا عن القضايا الجانبية . لماذا لا تصرف من اجل حلها الطـاقات الهائلة

(المادية والمعنوية) التي تصرف في اعادة صياغة الافكار الماضية بقوالب جديدة . وحتى اعادة طباعتها بذات الاساليب ...

الغلو في الدين حرام

ويزعم فريق منهم ان الطريق الصحيح للمحافظة على الدين . هي اضافة اشياء الى الدين (احتياطا) عليه ، فمثلا انهم يقولون : لنحافظ على التقاليد التي كانت قديمة وبالية . لكي لا يجرؤ احد على نقد القيم الصحيحة .

ولكن يجب على هؤلاء ان يتنبهوا : الى ان الزيادة في الدين حرام لانها نوع من الغلو الممنوع ان الغلو في الدين هو المسئول المباشر عن تمرد طائفة كبيرة من الناس على الدين . اذ انهم يرون - بالعقل والتجربة - فساد مجموعة من الاحكام والتقاليد ، التي الصقها الجاهلون بالدين ، فيزعمون ان الدين كله هكذا . ويقولون الافضل ان نكفر بالمجموع - حتى لا يفرض علينا احكام وتقاليد بالية او مضرة .

فمثلا ، حين يحرم ادعياء الدين دراسة العلم الحديث ، ويحرم - الى جانبه - تقليد الغرب في فنونه ، وانظمته ..

فان طائفة من الناس يجدون ان قبولهم بالدين يحرمهم من نعم العلم - فيفضلون الاخذ بتقاليد الغرب وفنونه - لكي يتسنى لهم الاخذ بعلمه ..

وفي العالم المسيحي كان الغلو في الدين هو السبب المباشر لانتهاء سيطرة الكنيسة وتحول الناس الى الالحاد .

وحين تراجعت الكنيسة - تحت ضغط الظروف - عن اضافاتها اللامعقولة الى الدين - عاد العالم الغربي الى المسيحية ، من هنا غضب الله على طائفة من الناس لانهم حرّمرا ما أحل الله لهم .. وقال :

قل من حرّم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لعلهم يعلمون .

قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لا تعلمون (٣٢ - ٣٣ الاعراف) .

وقـال :

قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرّم هذا ، فان شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع اهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون (١٥٠ / الانعام) .

وقال عن المشركين الذين حرّموا على انفسهم ما أحـل الله لهـم . قـال :

قد خسر الذين قتلوا اولادهم سفها بغير علم وحرّموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين (١٤٠ / الانعام) .

ان التحريم بحاجة الى نص كما الايجاب ولا يجوز ان نضيف الىالدين أشياء زائدة لتكون درعا واقية للدين الصحيح فلرب زيادة نقيصة .

الاسلام دين التطور

وانما لم يبين الله سبحانه في القرآن الكريم الا احكاما قليلة . وركز ـ في بقية آياته ـ على مجموعة قليلة من القيم التي اراد ترسيخها في ذهنية الامة بشكل كامل .

انما فعل ذلك ليفتح امام الامة ابواب التطور ..

والنبي محمد (ص) لم يكتب لنا اسفـارا مطولـة في التشريع انمـا بيّن اصول العلم والحكمة ورسخ قيم القرآن بتشريعاته الرشيدة ثم وجه الامة الى خلفاءه المعصومين فقال : اني تارك فيكم الثقلين كتابالله وعترتي اهل بيتي ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا .

وخلفاء الرسول (ص) لم يؤلفوا كتبا مطولة في الاحكام الفقهية . انما قالوا علينا بالاصول ، وعليكم بالفروع ووجهوا الامة من بعدهم الى الفقهاء وقالوا : « واما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها الى رواة احاديثنا » .

كل ذلك لذات الهدف وهو : فتح ابواب التطور امام الامة .

وليس من الصحيح طرح النظريات العامـة التي تسبح في فراغ كأنها كليات ابو البقا .

اذ ان طرح النظريات هكذا ومن دون تحويلها الى برامج عملية لا بد ان يتم لواحد من عاملين :

١ ـ فاما لان النظرية ذاتهـا غير واقعية وتشبه نظريـات المدينـة

الفاضلة للفارابي في انها تصلح أن تكون امنيات حلوة ولكن لا تصلح انتصبح خططا للعمل وانظمة للتطبيق .

٢ ــ وأما لان صاحب تلك النظريات لا يعرف كيف يجب ان تنفذ على متغيرات الحياة .

ويبدو ان اكثر الكتابات الدينية العامة هي من النوع الثاني .

واذاً ــ اذا كان صاحب النظرية والمفروض فيه ان يكون اختصاصيا في امرها لا يعرف طريقة تنفيذها اذاً فكيف ينتظر من الناس العاديين ان يعرفوها .

ولكن السؤال : هل نحن طورنا ــ حسب مسئوليتنا الدينية ــ الاحكام وفق متغيرات العصر ..؟

أم تمسكنا بالجانب الثابت من الشريعةوضخمناها الى ابعد حد ممكن. واعدنا صياغته من جيل الى جيل .. اما المتغيرات فتركناها لاجتهادات الناس ..

ما هو الاقتصاد الاسلامي . وكيف ينبغي ان يتم توزيع الثروة .

كيف يجب ان ننمي ثروتنا القومية ؟.

ما هي القوانين التي تنظم علاقة العامل برب العمل .. وهل يجب ان يشارك العمال في الارباح .؟ وكم ولماذا .. وهل للعمال ضمان اجتماعي؟

ما هو حكم الدين في الاراضي . فهل يجوز تقسيمها على الفلاحين اذا اقتضت الضرورة القصوى لاستقلال بلادنا الاقتصادي ومتى تكون حالة الضرورة .. وهل نحن الان في تلك الحالة ؟.

ما هي انظمة الآمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. ما هي الوسائل السليمة التي يجب اتباعها اليوم . هل يجوز الاصلاح السياسي المسلح . أم يجب ان يكون مجرد عمل صامت . أم . عصيان مدني ؟.

كيف يجب مقاومة الاحتلال ما هي عناصر النجاح فيها ؟

كيف يجب ان يبنى المجتمع ؟ وكيف نوجد فيه الديناميكية ؟ كيف نجعله مجتمعا متقدما ؟. كيف نحافظ على القيم التي تسود عليه ؟.

ما هي تفاصيل البرنامج الاخلاقي التي يجب ان يتقيد به الانسان المؤمن . هل هي المرونة او التصلب ومتى المرونة ومتى التصلب . وهل هي الانعزال ؟ ام الانفتاح . ومتى هذا ومتى ذاك ؟.

ان مئات الاسئلة العريضة حائرة اليوم وتتطلب اجوبة صحيحة وواقعية وواضحة . فأنى لنا بذلك .

لو لم تصبح القضايا اليومية الملحة هي محور الدراسة . ولم نعالجها بشجاعة وحكمة . والتضحية بكثير من التقاليد التي اصبحت عندنا دينا ومعنا مقدسات . فان عقابنا سيكون عسيرا امام الله . والتاريخ ..

وأن مسئوليتنا ليست في اعادة الكتابة ، لمشاكل من قبلنا واعادةالحل او البحث عن مشاكل لا وجود لها .

ليس من الصحيح بيان الافتراضات اذا كان هكذا فـ . هكذا . وان كان كذلك . فهذا .. علينا : ان نعطي رأيا ثابتا . وواضحا ومحددا .. ونقول :

الصحيح بيان الافتراضات اذا كان هكذا فهكذا . وأن كان كذلك . فهذا .. علينا : ان نعطي رأيا ثابتا . وواضحا ومحددا .. ونقول :

لان الامر هكذا . فالحكم هكذا وكفى .. وهذا ـ بالطبع ـ بحاجة الى علم واسع لا بالكتب بل بالحياة ـ بكل تفاصيلها .. ان هذه وليست غيرها هي مسئولية الفقيه .

والا .. فكان يكفينا ان نعيد طباعة كتاب فقهي قديم مرة كل عام ونطبقه ، اننا لا نحتاج الى نسخ اخرى للكتب الفقهية يا فقهاء القرن العشرين !

ان المغالاة في التحذر قد يسبب في اخراج الناس من الدين رأساولذلك يصبح في بعض الاوقات اشد ضررا من اللامبالاة في الدين، ولذلك كرهالله . عمل المارقين المغضوب عليهم كما لم لا يرض عن القاسطين . الضالين .

اننا بحاجة الى من يعرف السياسة ويعرف الدين ويعطينا رؤية دينية تجاه مشاكلنا السياسية .

وبحاجة الى من يعرف الاقتصاد . ويعرف بصائر الدين فيه . ووفق تلك البصائر يحل لنا قضايانا ومشاكلنا الاقتصادية .

وبحاجة الى من يعرف الثقافة . الحديثة وتياراتها في التربية وعلم النفس ـ بفروعه العديدة ـ والادب والفن ثم يعطينا نتيجة بحوثه .. آنئذ طالبونا بتطبيق الاسلام . فمن بدله من بعدما سمعه فانما أثمه على الذين يبدلونه .

وبالطبع لو لم تتغير مناهج الدراسة واهتمامات الدارسين ومحاور حلقات المناقشة في المجاميع الدينية ـ لا يستطيع رجال الدين القيام بهذه المهام الجسام ..

ولكن من يغير مناهج الدراسة ..؟ نحن بانتظار ذلك الرجل الشجاع الحكيم ..

مسؤولية رجال العلم

وانتم يا رجال العلم! لماذا لا تصبحون رجال دين ـ ايضا ـ فستوحوا من الدين روحه ورؤاه ومن الواقع علمه وخبرته ، وتقدموا للناس برامج واقعية دينية .

صحيح ان دراستكم كانت في الجامعات الاجنبية . وهي لا تؤهلكم للكتابة عن الدين . وعن ثقافة الامة الاصيلة .

وصحيح انكم ـ حين تعزمون على دراسة موضوع معين ستجعل المكتبة الاجنبية امامكم كل ما تحتاجون اليها من دراسات ووثائق ومراجع و.و. بينما لا توفر المكتبة الاسلامية لكم الا قليلا من الافكار المثبوتة في مراجع قديمة . ذات طباعة رديئة .. ولغة صعبة الفهم .

الا ان رجل العلم ينبغي ان يكون مبدعا . ويخرج من الارض الميتة زرعا بجهوده التي لا تعرف الكلل ..

وصحيح انكم سوف تتعرضون لهجوم من ادعياء الدين الذين يمارسون الارهاب الفكري . ولكن يجب مقاومة هذا الارهاب لان الاستسلام للارهاب جريمة لا تغتفر . لانه يشجع على المزيد منه ان الله لم يجعل من انبيائه العظام ـ (حتى جبر الناس على الدين) . وقال للرسول الاعظم ـ محمد صلى الله عليه وآله :

ليس لك من الامر شيء .
افأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين .
لا اكراه في الدين

فكيف يأتي رجل لا يعرف من الدين شيئا كثيرا لينصب نفسه حاكما على الدين ويشهر من الدين سلاحا ضد كل من خالف اراءه او بالاحرى خالف مصالحه الشخصية التي سرعان ما يجعلها دينا .

ان هذا السلاح هو الذي كان عقبة في طريق تقدم المسلمين والذين

استشهد به ــ خبرة ابنــاء الامة .. منذ عهــد الامام الحسين (ع) سبط رسول الله (ص) .

وعلى رجال العلم ان يقاوموا هذا السلاح في بلادنا كما حاربــوه فــي اوربا وقد فقد هو ايضا دوره في عصر الفضاء ..

يبقى سلاح التشهير بالدين ان هناك طائفة من المتــأثرين بالغــرب . سيرفعون اصواتهم ضد رجال العلم الذين يدافعون عن الدين . ويتهمونهم بألف تهمة وتهمة .

طبعا ليس ضمن تلك التهم تهمة التقليد للغرب . وتسريب ثقــافاته الدخيلة الى الامة ..

ولكن يجب ان نقول لهؤلاء ..

الذين لا يعجبهم عودة زميل لهم الى اصالته الدينية . نقول لهم كلمة عتاب واحدة هي :

هل العقل في اجازة ؟

بالرغم من ان العلم الحديث . علم واقعي قبل ان يكون نظريا ولذلك فهو يراعي الاختلافات الواسعة التي توجد في طبيعة الناس .

فان هذه الطبقة من رجال العلم عندنا لا يكفون عن تقليد العالم الغربي او العالم الشرقي ــ كل حسب دراسته ــ دون تفكير بالاختلافات الواسعة التي تجعل منا غير الغرب وغير الشرق .

فمثلا انهم يتحدثون لنا عن مشــاكل الصناعة . او عــن طريقة منــع استغلال اصحاب المصانع للعمال .. بينما لا توجد لدينــا صناعة بمعنى الكلمة ...

ويتحدثون لنــا عــن مشكلة الانسان ذو البعد الواحد فــي العــالم الصناعي .

في الوقت الذي نعيش التطرف في التشتت حيث نحتــاج الى لملمــة جوانبنا في اطارات محدودة ، فبينما في الغرب ترى العامل في المصنع يتحول شيئا فشيئا الى جزء من المصنع حيث يتحول المصنع عنده كبقرة الهنــود الى الهة تعبد وبذلك تتحجم كل طاقاته ضمن هذا المصنع الصغير .. ويطلع عليه « هربرت ماركوز » بكتابه الانســان ذو البعد الواحد ينبهه الــى هذه الحالة المزرية التي انتهى اليها . ويأمره بعدم الافراط في التركيز .

اما هنا فنحن نعيش عالم التشتت المطلق حيث لا مصنع لدينا . ولا تنظيم دقيق ولا هم يحزنون .. فمن المضحك ان يأتي كاتب وينصحنا بعدم التركيز ..

اننا نترجم — من حيث نشعر او لا نشعر — ثقافة الغرب في عبارات عربية دون ان نحكم عقولنا فيما تنفع وما تضر كأن العقل في اجازة ..

وحين ينعكس التقليد على الجوانب العملية . تكون ادهى واغرب .. ففي احدى دول الخليج حيث يمتد الصيف اكثر من ٩ اشهر .. وحيث يعتبر اهلها الشمس عدوهم رقم واحد ..

كلفت احدى الشركات ببناء مدارس للاطفال .. وحسب وصية المهندسين المتعلمين في بريطانيا .. ثم بناء المدارس ..

بريطانيا .. هي بلاد الضباب ، الشمس هناك محبوبة الجماهير . الاولى .. هناك. لا بد ان تبنى البنايات بشكل تستوعب نوافذها اكبر كمية ممكنة من اشعة الشمس .

وهكذا قلد مهندسوا هذه الشركة البريطانيين في تعرضهم للشمس..

فاذا بالمدارس تعكس على الطلاب الشمس وتمنعهم من الدراسة ..

وفي بلد خليجي آخر ، حيث البرد الصحراوي القارص ، ايام الشتاء. والحر والرطوبة ايام الصيف .. وحيث لا ربيع ولا خريف ..

هناك .. يخصص المهندسون للشرفات مساحات كبيرة تقليدا للمناطق التي تتمتع بفصول طبيعية يستفاد فيها من الشرفات ..

ولقد رايت مهندسا ، صمم فيلا لعائلة محافظة ، جعل جدران الطابق الاعلى منه من الزجاج ... بيد ان هذه العائلة كانت تسدل الستائر . من وراء الزجاج ليل نهار .. محافظة على تقاليدها الدينية في التستر.. حسنا فماذا نفع الزجاج ؟

واذا تركت الهندسة الى الطب رايت شيئا يشبه ذلك ..

ان ابسط قواعد الطب . هي معرفة اوضاع المريض الصحية .. وحين تكون دراسة الطبيب في بلاد غريبة . ثم لا يكملها بالتعرف على بلاده التي يريد ان يمارس فيها مهنته ، فكيف — يا ترى — يقدر على معالجة المرضى ..

واذا تركنا الثقافة والطب والهندسة الى التربية والاقتصاد . والسياسة . كانت مظاهر النشوز وعدم التناسب اكثر بروزا واشد غرابة.

كل ذلك يعود ـ ببساطة ـ الى ان رجال العلم عندنا قليلا ما يبدعون.

ان اخطر حالة تصيب الانسان . هي حالة فقدان الثقة بالذات . ورجال العلم اصيبوا بهذه الحالة مع الاسف . انهم انبهروا كليا بمظاهر الحضارة الغربية ، وتركوا وراء ظهورهم كنوزا لا تنفذ من امكاناتهم الذاتية ..

ان الحل الوحيد لهؤلاء هو العودة ـ من جهة ـ الى التراث حيث يجدون فيه . ما يعيد اليهم ثقتهم بانفسهم .

ثم ـ من جهة اخرى ، مباشرة الواقع والتعامل معه مباشرة ، وليس وراء حجب الكتب والدراسات .

من اجل شخصيتنا الضائعة

ان على رجال العلم ان يعملوا لاحياء شخصيتنا الضائعة . بين تقليد المتزمتين للماضي . وتقليد المتمردين للاجنبي ..

عليهم ان يؤسسوا لنا حياة جديدة .. تكون حياتنا نحن لا هي حياة من مضى من ابائنا . ولا هي حياة الغرباء عنا .

ولا تكون كذلك الا اذا ـ راعينا في مقياسنا ثلاثة اشياء اساسية :

١) اصالة القيم .. ونعني بها . ترسيخ الايمان . والحق . والحرية والعدالة الاجتماعية .

وكل القيم التي اجمعت عليها نصوص ديننا وتجارب امتنا . وتهدي اليها عقولنا ..

ان القيم ذاتها مقبولة . اما طريقة تجسيد هذه القيم تاريخيا . فهي غير ضرورية .

فمثلا : ان الحرية . ذاتها قيمة اساسية يجب الاهتمام بها . اما الاساليب التي امنت لنا الحرية . فهي قد لا تكون نافعة اليوم .. او قد تكون ضارة اذ ان البشرية ابتدعت اساليب افضل منها ..

٢) واقعية التشريع

والتشريع يجب ان يستلهم من الواقع الراهن . بما فيه من اختلاف وتفاوت . شريطة ان تكون القيم الاصيلة هي المحتوى الحقيقي لهذه الواقعية ..

علينا ان نتوخى تطبيق (العدل) . ولكن كيف ؟ : بالتشريع الذي يؤمن ـ ضمن كل واقعة بالذات ـ اكبر نسبة ممكنة من قيمة (العدل) .

ان دراسة الواقع ، ومتغيراته ، وحاجاته ، هو اهم ، من دراسة القيم ذاتها .. اذ القيم واضحة . والتعرف عليها ميسور . انما متغيرات

الواقع غامضة وكثيرة .

٢٣ ــ مغزى التجارب الحديثة .

العلم الحديث ، خلاصة تجارب .. وعلينا ان ننفتح عليها . ولكن قبل ذلك علينا ان نميز بين قشور التجارب ولبابها . بين المغزى الحقيقي للتجربة . وبين الاطار الذي وضع فيه هذا المغزى ..

ان هذه العملية الشاقة ــ ذات الابعاد الثلاثة ــ هي المسئولية الملقاة على كاهل رجال العلم اليوم .

المنطق .. وسيلة التقييم السليم

وبالطبع سيكون المنطق وسيلتنا الى التقييم السليم سواء على صعيد القيم لفرزها عن تطبيقاتها الماضية . ولفصلها ــ بالتالي ــ عما لصقت بها من تقاليد بالية .

او على صعيد واقعية التشريع او على صعيد الانفتاح على مغزى التجارب .

اذ من دون المنطق السليم . كيف يتسنى لك ــ استثمار عقلك ، وتوجيه تفكيرك .

اننا نخسر كثيرا بتخلفنا الذي دام اكثر من اللازم ، وليس من المعقول الاستمرار فيه. ولكن كيف نفتح ابواب الحضارة على انفسنا..؟ في اعتقادي.. ان اية حضارة لا تبدأ . الا بتكامل عاملين ، العقل والروح ــ الدماغ والقلب ــ الفكر والارادة . وبالتالي العلم والايمان ..

والمنطق . هو وسيلة العقل .. وبالرغم من اني ارى ان العقل يأتي متأخرا عن الروح .. لانه لولا الروح . لولا الارادة . لولا القلب الحي . والضمير اليقظ .. لولا الايمان . لا يتحرك العقل .. لانه لا يجد حاجة الى التحرك ..

ولكن الايمان وحده لا يكفي . انه كطائر بجناح واحد . كرجل يملك القوة .. يملك الرجل واليد . والنشاط . ولكنه لا يملك العين .. انه بالطبع لا يستطيع ان يتحرك ..

وفي العالم الغربي . تأخر العقل عن الروح . الا انه قام بدور بارز فلولا اندفاع بيكون الى هدم اصنام الماضي . ثم مناهج ديكارت في تقييم العقل . ثم مقولات كانت ..

ثم اكتشافات الرياضيين والمنطقيين وفي طليعتهم لابينتس. لما استطاع الغرب وضع قنوات تستوعب اندفاعه .. ولما قدر بالتالي من صنع الحضارة الحديثة .

والمنطق يجب ان يدخل في كل حقل من حقول حياتنا ليوجهه الى حيث المصلحة الاكيدة ..

فابتداء من ادارة البيت . وتربية الاولاد ومرورا باختيار العمل المناسب . وانتهاء بالاصلاح الاجتماعي .. يجب ان نستلهم من المنطق الطريقة الحكيمة ...

وحيث نحكم العقل والمنطق السليم .. يسهل علينا الإتحاد . والتعاون ، اذ ان كثيراً من الاختلافات تنشأ من الجهل بالقياس السليم .

لهذه الاسباب اخترت هذه المرة الكتابة عن المنطق .

ولقد اردت ان يكون الكتاب جامعا ، لكافة ما يرتبط بتوخي الصحيح وتجنب الخطأ .. ولكن السؤال : هل وفقت لذلك .؟

الواقع بالرغم من اني قضيت سنين من عمري في كتابته . لم استطع تنفيذ المخطط الذي رسمته للكتاب .. وبقيت امامي افكار وملاحظات كثيرة . لم تجد طريقها الى الكتاب .. واني ارجو الله تعالى ان يوفقني او يوفق كاتبا غيري لاكمال المسيرة ..

وعلى الله قصد السبيل

تقي المدرسي

بيروت ١٩٧٧/٧/٦
الموافق ٢٠/رجب/١٣٩٧

المنطق الإسلامي أصوله ومناهجه

القسم الاول عن : تطور الفكر المنطقي
القسم الثاني عن : اصول المنطق الاسلامي
القسم الثالث : كيف نتجنب الخطأ
القسم الرابع : كيف نختار المنهج السليم
القسم الخامس عن : مناهج الاستقراء
القسم السادس عن : مناهج العلوم الانسانية
القسم السابع عن : مناهج القياس

بحوث تمهيدية

السؤال الحائر

السؤال الذي اقض مضجع المفكرين وكشف عن قصور الفكر منذ ان كان فكر وكان مفكرون .

السؤال الذي أثاره الفلاسفة والمتكلمون على أنفسهم ، وحاولوا محاولات شتى في سبيل معرفة جواب حاسم له فلم يفلحوا !! او بالاحرى لم يحرزوا كل الفلاح .

السؤال يقول « كيف يتجنب الخطأ » والذي يواجهه الفيلسوف.. قبل ان يواجه اي سؤال آخر ، ففي عصر الاغريق حيث اختلف الفكر وتناقضت النظريات ، وتطرفت الفلاسفة ذات اليمين وذات الشمال .

فرض هذا السؤال نفسه كأشد ضرورة تفرض ، فتصدى لها « ارسطو » ووضع منطقه المعروف والذي هيمن على فكر الانسان اكثر من اربعة وعشرين قرنا .

وتبناه تابعوا الاديان ، جاعلين منه قاعدة دينية لا تتزلزل ولا تميد حتى المسلمون ، تبنوه ولا يزالون .

ثم كانت الثورة التي فجرتها اوربا في القرن السابع عشر الميلادي ، وأرادت أن تنسف كل قديم .. وبصورة خاصة أفكار القدماء وطريقة تفكيرهم .

وفي مقدمة كل ذلك المنطق الكلاسيكي الارسطي .

وخاض عالم الفكر معركة الثورة .. على أرض فرنسا وبريطانيا . فجعلت الافكار في حيرة والمفكرين في ابداع .

وتمخضت المعركة عن ميلاد منطق جديد : منطق ديكارت .

وأسرعت الاحـداث وخلفت في مسيرة الفكـر منخفضات وتلالا ، واشتبك الفكر في اكثر من معركة على اكثر من صعيد .

وبتقدم الحضارة ، وسرعة انكشاف الاسرار، وزيادة ايمان العصري بفكره وازدرائه بالقديم ، البعيد عن معطيات عصره .

وبتحليل النور ، وغزو الفضاء ، وفلق الذرة ، عمت فوضى فكرية اخرى ، تمخضت عن منطق آخر يدعى بالمنطق الديالكتيكي .

كل ذلـك استجابة لضرورة السؤال الذي يفرض نفسه في ظروف الفوضى حيث تختلف الآراء وتتضـارب : كيف نجـد الصحيح وكيف نتجنب الخطأ ؟

والموضوع الـذي بين يديك . اجـابة أخرى عن هذا السؤال . ولكنه يفترق في اجابته عن سائر الفلاسفة والمفكرين في اجاباتهم .

يفترق عنها بوجهين :

الاول : ان كاتبه لا يحاول ان يكون له ابداع في هذا المجـال . بقدر ما يبذل جهده . لأن يكون مكتشفا عن اجابة موجودة بالفعـل ، ولكنها في أضلع الكتب او بين صدور نصوص ، عن جواب للاسلام ــ الدين الذي يعالج كل مشاكل الانسان الفكرية ومنها هذه المشكلـة ــ جواب يختلف طبعا عن جواب ارسطو وديكارت وهيجل ، جواب جديد رغم انه نزل من السماء قبل اربعة عشر قرنا .

الثاني : يحتوي الموضوع على عرض موجـز وواضح للاجوبـة الاخرى التي قدمها كل من ارسطو وديكارت وهيجل ورائدوا الفلسفة القديمة والحديثة الآخرين .

وههنا نقطة ملفتة للنظر : هي ان المنطق الذي سوف نستخرجه من الكتاب والسنة ، ونستدل عليه بآيات الكتاب وأحاديث السنة كما نستدل له بالعقل .

هذا المنطق ربما وجد اكثر القراء الكرام كثيرا من بنوده في الايات والروايات . ولكن لم ينتبهوا الى واقعه . وان من الممكن ان يستفيدوا منه في مجالات فكرية وعلمية . وبتعبير آخر لم يتوجهوا الى ان هذا القرآن ليس فقط كتابا مقدسا . يجب ان يراعي الفرد نصوصه في الاحكام الشرعية . او يصغي الى توجيهاته ، او يتمتع بقصصه وحكمه . بل اكثر من كل ذلك .

كتاب علم . وحكمة وضياء ونور يجب ان يدرس بالتدبر والتفكر . قبل أن يدرس بالتفسير والتأويل .

ومن هنا فان « المنطق الاسلامي » كان موجودا بالفعل في النصوص الشرعية .

ولكن المسلمين لم يحاولوا طيلة هذه القرون المتمادية ، ان يفهموه او يعرفوه ، زعما منهم ان باستطاعتهم الاستغناء عنه بمنطق ارسطو ، وبما ان الاختلاف الذي مزق شمل المسلمين . دل على عجز المنطق الارسطي عن رفع الاختلاف . وعن تحري الصحيح بين المختلفات. وأيد ذلك انهيار المباني العلمية التي كان يحسبها علماء المسلمين حقائق مسلمة بفضل المنطق الارسطي . انهياره في العصر الحديث على يد الفلاسفة الجدد ، اصبح المسلمون في زوبعة رهيبة ذهبت بضوء عقولهم .. وخلفتهم غثاء تجري مع الناس ، دون أصالة واستقلال .

ويلاحظ ذلك بوضوح بين كتاب المسلمين الذين قد يتبعون منطق ارسطو وقد يؤيدون افكار ديكارت وفي نفس الوقت يمتدحون هيجل ويشيدون بماركس ولو انهم عرفوا منطق القرآن اذاً لكفاهم عن كل ذلك .

المنطق .. تعريف الكلمة وتعريف العلم

تعريف الكلمة

كلمة المنطق ـ آتية من مادة النطق على صيغة (المفعل) اسم آله ، فكما المَنجل ـ والمُنخل ـ والمِصفاة و .. و .. هي أسماء للوسيلة التي يتم بها فعل القطع والنخل والتصفية فكذلك المنطق اسم للوسيلة التي يتم بها النطق .

والنطق يختلف عن التلفظ والتكلم في انه لا يعني كل صوت صادر عن الحلق ، انما يعني ذلك اللفظ المنظم الذي يعبر عن مفهوم .

وقد كان الأدب العربي يستخدم المنطق في اللفظ الذي يعبر عن معنى منظم فمثلا حين ألّف ابن السكيت كتابا عن البحوث اللغوية ، وسماه بـ (اصلاح المنطق) لم يكن يعني بذلك اصلاح اللفظ ، بقدر ما كان يعني اصلاح الكلام الذي يعكس المعنى ليكون أفضل تعبير عنه .

ولقد استخدم الفلاسفة المسلمون هذه الكلمة (المنطق) ترجمة فيما يبدو لي لكلمة (الآلة) او (الأداة) « التي استخدمها ارسطو للدلالة على المنطق » [1] .

وعن طريق التوسع في الكلمة أخذت لفظة المنطق تتسع لمفهوم العقل او الفهم او ما أشبه .

فحيث قالت الفلاسفة المسلمون التابعون لنظريات الاغريق حين

---

(١) علم الاجتماع والفلسفة ، الجزء الاول (ص/٤٣) .

قالوا ، الانسان حيوان ناطق فانما عنوا بهذه الكلمة (النطق) المعارف والعلوم ، وليست (خاصة) القدرة على التحدث •

ولذلك عبروا عن العقل بـ (النفس الناطقة) لأنها مستكملة في جوهرها عقل بالفعل (١) •

فكان تعبيرهم بـ (الانسان حيوان ناطق) دليلا على ان مرادهم من النطق العقل ، وعلى ان كلمة المنطق ، تعني عندهم أداة العقل او أداة العلم كما قال (ارسطو) •

(لوجي)

واما كلمة (لوجي) التي تعبر عن المنطق في اللغات الاوربية ، فانها تعني أيضا معنى كلمة المنطق ، ويبدو ان استعارة الكلمة من الأصل اليوناني : (لوجوي / Logie) يبدو موفقا ، اذ انها أخذت تتوسع لتعني مفهوم العقل او العلم ، الذي يعبر عنه المنطق او الكلام •

وحيث أن كلمة (لوجي) ، أخذت معنى العلم استخدمت في التعبير عن كل عملية عقلية منتظمة فاذا بالكلمة تدخل في لفظ كل علم من العلوم، فمثلا نقول بيولوجي لعلم الحياة وسسيولوجي لعلم الاجتماع ، وفسيولوجي لعلم وظائف الاعضاء •

٢ ـ تعريف العلم

ما هو المنطق ••؟؟ قبل الاجابة على هذا السؤال الذي كثرت الاجابات عليه ، لا بد ان نعرف ان طبيعة أي علم تحدد الغاية منه ، قبل أن يحدده موضوعه ، فكلما كانت الغاية مختلفة بين دراسة وأخرى وبحث وآخر ، فان كل دراسة تمت بعلمٍ خاص ، حتى وان كان الموضوع واحدا ما دامت الغاية مختلفة •

---

(١) ميزان المطالب (ص/٦٦) الجزء الثالث •

فعلم النحو يشترك مع علم الصرف وعلم متن اللغة وعلم البلاغـة و • و • و • في الموضوع اذ الكلمة العربية هي موضوع كل هذه العلوم الان كل علم يختلف عن غيره في الغاية المتوخاة منه •

وغاية العلم والهدف المتوخى منه لا يفرق فقط بين العلم والآخر ، وانما يجمع أيضا بين موضوعات شتى كلها تخدم تلك الغاية •

فاذا سألنا أنفسنا ما هي الرابطة بين الحديث عن المسند والمسنـد اليه وبين الحديث عن النواسخ (كان واخواتها ، وانّ واخواتها) في علم النحو لأجبنا على الفور ان الرابطـة هي ان البحـث في كلا الموضوعين يحقق هدفا واحدا ، هو معرفة اعراب آخر الكلمة •

ولذلك فان البحثين كلاهما يدخلان في علم واحد هو علم النحـو •

من هنا فعلينا قبل كل شيء أن نعرف الغايـة التي تتوخاها من أي علم قبل أن نخوض في مسألة تعريفه اذ ان ذلك سوف يحدد بشكل قاطع علاقة هذا العلم بسائر العلوم ، وعلاقة موضوعاته بعضها مع بعض •

وفي علم المنطق ، لا بد أن تختلف التعريفات انطلاقا من اختـلاف العلماء في مسألة الغاية من هذا العلم •

ولأننا قد تحدثنا في الفصل الماضي عن ان الغـاية من المنطـق هو تجنب الخطأ •• فاننا نسمح لأنفسنا بالقول (ان المنطق هو علم التجنب عن الخطأ) او هو علم البحث عن الصواب ، او علم البحث ، او البحث في البحث ، او البحث في وسيلة العلم ، او اي تعبير آخر يعطينا نفس هذا المفهـوم •

وهذا يعني ان الصلة بين الموضوعات التي يتحدث عنها المنطق هي صلة الاشتراك في تحقيق هذه الغاية ، وهي التخلص من الخطأ •

فابتداء من معرفة الأخطاء الناشئة من التأثيرات النفسية على الفكر، والتأثيرات الاجتماعية والاقتصادية والتربوية ، والبيولوجية •

ومرورا بمعرفة الأخطاء الناشئة من (طبيعة المنهج) الخاطىء وطرق البحث غير السليمة .

وانتهاء بمعرفة الأخطاء الآتية من صور الفكر والفجوات الناشئة بينهـا .

كل تلك الامور تدخل في رأينا ضمن اختصاصات المنطـق ، اذ ان هذه الموضوعات المتفرقة تشترك في البحث عن البحث ، وتساهم في كيفية تجنب الأخطاء .

وبهذا المفهوم الشامل للمنطق ، يندمج علم المناهج بالمنطق ، اذ ان هذا العلم جانب من جوانب السعي وراء الصواب وتجنب الاخطاء [1] .

وهذا التعريف في المنطق ، يشمل بعد تهـذيب وتعـديل كثيرا من التعريفات الأخرى التي نسردها فيما يلي بايجاز .

١ ـ تعريف ارسطو ،

قال ارسطو عن المنطق بأنه آلة العلم وموضوعه الحقيقي هو العلم نفسه او صورة العلم [٢] . وابن سينا ، احد شراح أرسطو المسلمـون لم يتجاوز هذا التعريف حيث قال : « المنطق هو الصناعة النظريـة التي تعرفنا من أيّ الصور والمواد يكون الحـد الصحيح الـذي يسمـى بالحقيقة حداً ، والقياس الصحيح الذي يسمى برهانا » [٣] .

وقال الساوي ، انه « قانون صناعي عاصم للذهن عن الزلل ، مميز

---

(١) سوف نتحدث ان شاء الله عن المناهج .

(٢) (٣) المنطق الصوري منذ ارسطو حتى عصورنا الحاضرة. د. علي سامي النشار /ص/٥ .

لصواب الرأي عن الخطأ في العقائد بحيث تتوافـق العقول السليمة على صحته .. » (١) .

اما القديس توما الاكويني أحد تابعي أرسطو المسيحيون فقد قال عن المنطق « بأنه الفن الذي يقودنا بنظام وسهولة وبدون خطأ في عمليات العقل الاستدلالية » (٢) .

نقـد التعريـف

ترى ان هذا التعريف الأرسطي ناشيء من فلسفة أرسطو العامة ، التي تفترض ان العلم ينشأ من التصور ولذلك فان المنطـق هو معرفـة الصور التي تؤدي الى التصور وبالتالي يغفـل التعريف ، دور المنطـق التجريبي ، لانه يعرّف بالاساس : منطق أرسطو الشكلي فقط دونسائر أنواع المنطق .

ولكن التعريف لا يغفل بيان الغاية من المنطق وادخاله في التعريف وهو التجنب من الخطأ ، بل لا يغفل التعـريف في بعض عباراته ذكـر الوسيلة التي تحقق هذه الغاية وهي تنظيم الاستدلال .

٢ ـ تعريف مناطقة بورت رويال

بالرغم من ان مناطقة بورت رويـال يعتبرون من المحـدثين الا ان تعريفهم للمنطق لم يبعد عن حدود تعريف الاكويني السابق حيث قالوا ، بأنه هو الفن الذي يقود الفكر أحسن قيادة في معرفة الاشياء سواء اراد ان يتعلمها هو بنفسه أو أن يعلمها للآخرين .

وهناك تعريف آخر للمنطق هو أنه العلم الذي يبحث في النـواحي

(١) المصدر نفسه/ص/٦ .
(٢) المصدر نفسه /ص/٨ .

العامة للفكر الصحيح وموضوعه هو بحث مميزات الحكم لا كظواهر نفسية ولكن كتعبير عن معارفنا ويبحث على الخصوص في تحقيق الشروط التي نستطيع بواسطتها الانتقال من أحكام معينة الى أحكام أخرى تنتج عن تلك الاحكام الاولى (١) .

وتعريف رابييه بأنه علم العمليات التي بواسطتها يتكون العلم ، ويقول (المنطق هو اتفاق شروط العقل مع ذاته واتفاق العقل مع الاشياء) (٢) .

ان هذه التعريفات ، هي الأخرى تستمد من التعريف الصوري أصولها حيث انها :

أ ــ تهتم بصور الفكر وأشكال الاستدلال ، دون أن تهتم بما خلف الصور والاشكال من حقائق . فتناقضات المادة وأسباب الخطأ النفسية والاجتماعية وغيرها لا تهم هذا النوع من المنطق .

ب ــ تهتم بالشروط التي ينبغي توفرها في الفكر والتي يبحث عنها المنطق ، الشكلي وهي : الشروط المجردة والصورية ، التي هي مرتبطة بأنواع القياس .

فالتعريف اذاً هو تعريف نوع واحد من المنطق هو المنطق الصوري.

٣ ــ تعريف ديوي

وتعريف ديوي للمنطق يمثل وجهة نظر مفكر براجماتي ، وهو تعريف فضفاض الا انه قد يتلخص فيما يلي :

ان الصور المنطقية « تنشأ » أصلا خلال اجراءات البحث ــ ولو وضعنا هذا القول في عبارة مألوفة قلنا ان معنى فكرتنا هو انه اذا كان

---

(١) المصدر /ص/١٢ .
(٢) المصدر /ص/١٣ .

البحث في البحث يؤدي بنا الى معرفة الصور المنطقية فان البحث الاول نفسه هو مجال « نشأة » تلك الصور التي يجيء البحث في البحث بعدئذ فيكشف عنها الغطاء [1] .

وبتعبير آخر ان طرائق التفكير تنشأ في بداية امرهـا حين يتعرض الانسان فعلا لمشكلات حقيقية يريد حلها فيحاول (استخـدام) هـذه الوسيلة او تلك حتى تنحل المشكلة القائمة ، فاذا جاء مفكر آخر بعـد ذلك وركز فكره على تلك الطرائق ليفهمها كان بمثابة من يبحث في طرائق البحث الاولية ليلقي عليها الضوء ويجعلها موضوع معرفة ، او بعبـارة اخرى الصور المنطقيـة تنشأ في مجـال العمل ثم يسلط عليهـا الضوء فتعرف [2] .

وبعد ان نعرف تلك الطرائق نسميها بالمنطق وعلى ذلك فكل طريق للبحث ، هو منطق بحد ذاته ، ومنهاج البحث لا يختلف عن المنطـق في شيء .

وان هنالك بحوثا متعددة في تنوعها شاملة في مداها قائمة بيننـا بالفعل ولكل من شاء ان يضعها موضع الفحص ، فالبحث لاي علم مـن العلوم هو منه بمثابة دم الحياة ، ما دام كل شيء وكل صناعة وكل فكرة يخضع لما يقتضيه البحث ، واختصاراً فان الفرض الـذي اتقدم بـه انما يمثل ما هو قائم بالفعل (في شتى العلوم) فلا عبرة بعد ذلك بالريبة التي قد يحاط بها عند تطبيقه على مجال المنطق [3] .

وهذا التعريف يشمل ما يلي :

١ ـ انه يغفل متعمداً ذكر طرق الاستدلال الثابتة التي يكشفعنها

(١) المنطق نظرية البحث . جون ديوي /ص/٥٨ .
(٢) المصدر في مقدمة الدكتور زكي نجيب محمود /ص٥٨/ .
(٣) المصـدر /ص/٥٩ .

المنطق في تعريف ارسطو ، اذ ان ديوي لا يعترف بطرق معينة سلفا للاستدلال والبحث ، بل يعتقد ان هناك طرقا لا تحصى للاستدلال . وقيمة كل طريق تظهر بالنهاية عند الوصول الى النتيجة .

٢ ــ انه يدمج مناهج البحث بالمنطق ، بل بالاحرى يدمج المنطق بمناهج البحث ، ويزعم ان مناهج البحث هي المطلوبة اساسا ، واذا كانت هناك طرق عامة ومبادىء شاملة نسميها بالمنطق ، فانها تابعة لمناهج البحث لا اكثر اذ تهمه النتيجة اكثر من المقدمات ، والهدف من البحث هو الوصول الى الحقيقة حتى اذا كان من طرق غير ثابتة الصحة سلفا .

نقد التعريف

ان اهم بند في تعريف المنطق هو غايته وهو التجنب من الخطأ ، وهو بند مغفول في التعريف السابق بينما هو في الواقع غاية علم المنطق ثم ان انكار البديهيات العقلية ، ذلك الانكار الذي يعتمد عليه مبدأ براجماتزم ، انه غير صحيح بالرغم من ان المزيد من الاعتماد على البديهيات والايمان بها ايمانا مطلقا وبعيدا عن الواقع هو الاخر غير صحيح وعلى اي حال فان هذه البديهيات بحاجة الى ان ننظم علاقتها بين بعضها البعض ، وبينها وبين الواقع الخارجي ، وجزء هام من المنطق يوفي بهذه الحاجة وهو القسم الصوري منه واغفال هذه الحاجة ومن ثم اغفال هذا الجانب من المنطق هو اغفال غير صحيح ، كما فعل ديوي .

علم المناهج

كلمة المنهج مترجمة من كلمة Methode وهي مشتقة من كلمة تعني في اللغة اللاتينية ، البحث او المعرفة .

وتعني اليوم ، طائفة من القواعد والاصول التي تهدف تعبيد طريق

الباحث عن الحقيقة . وتفترق المناهج عن المنطق (لدى من يفرق بينهما) المناهج تعني بالجانب العملي منها . وعليه فان المناهج هي مجال تطبيق نظرية البحث في المنطق .

وكل فرضية او نظرية في المنطق ، توصي بمناهج تكون منسجمة معها ، ولذلك كان هناك مناهج للاستدلال يوصي بها صاحب المنطق الصوري ، واخرى يوصي بها صاحب المنطق العلمي .

ولكن هل المناهج هي هي في كل العلوم ولكل الناس ؟ بالطبع لا .. فما دام المنهج هو السبيل الى معرفة الحقيقة ، وما دامت الحقائق مختلفة والذين يسعون لكشفها مختلفون فان المناهج تختلف من باحث لآخر .

اذ انها آتية من داخل البحث ، فكل بحث يوصي بمناهج تخصه بالرغم من انه يشترك مع سائر البحوث في المناهج العامة ، وهي التي تذكر في علم المناهج .

يقول « كلود برناد » : ولا بد للمجرب ان تختلف عمليات البرهان لديه الى غير نهاية ، وفقا للعلوم المختلفة ، ان روح صاحب التاريخ الطبيعي ليست هي بعينها روح صاحب علم وظائف الاعضاء ، وروح الكيميائي ليست روح الفيزيائي ، والتعاليم النافعة هي وحدها الصادرة عن التفاصيل الخاصة بالممارسة التجريبية في علم معين بالذات [1] .

وبما اننا عرفنا المنطق بانه علم تجنب الاخطاء وبما ان المناهج وسيلة لتجنب الخطأ فان المناهج عندنا جزء من المنطق ، وبهذه الرؤية سوف نعالج المناهج في فصول الكتاب .

---

(١) مناهج البحث العلمي ، ص ٨ .

العلاقـة بـين الفلسفـة والمنطـق

ما هو بداية مسيرة الفكر البشري ، هل هي الفلسفة ام المنطق ..؟

الواقع ان الفلسفة هي مجموعة بحوث فكرية ، تستهل بالبحث عن المعرفة ، مصادرها وقيمتها .. وهذا البحث هو ايضا مستهل البحـوث المنطقية .. فلولا معرفة مصدر المعرفة الصحيحة وقيمتها لمـا استطـاع الانسان ان يخطو اية خطوة لا في حقل الفلسفة ولا في حقل المنطق .

وسواء أدرجنا هذا البحث (البحث عن المعرفـة) في الفلسفـة او المنطق ، فانه بداية مسيرة الفكر البشري ، اما غيره من بحوث الفلسفـة فهي تأتي بعد بحوث المنطق.. اذ انها تستهدف عصمة الانسان من الخطأ.. في كل البحوث والبحوث الفلسفية منها بالطبع .

وجون ديوي ، يرى ان علاقة المنطق بالفلسفة ، كما علاقـة المنطق بالبحث ذاته ، هي علاقة جدلية فكل تغيير في احدهما ينعكس على الآخر ويقول :

« وعلى اية حال فالمنطق من حيث الاصول الاولية لمادتـه ، فرع مشتق من المـذهب الفلسفي بحيث تجيء وجهات النظر المختلفة الـى موضوع دراسته معبرة في النهاية عن فلسفات مختلفة ، ثم تعود النتائج التي ينتهي اليها المنطق فتتخذ اداة لتأييد الفلسفات التي ما كـانت تلك النتائج الا نتائجها . وما يطرء على الذهن هو ان ذلك يؤدي الى التنقص من شأن المنطق بجعله عاجزا عن ان يكون مستقلا بذاته ففي ظاهر الامر، قد يبدو من غير الملائم للنظرية المنطقية ان تتشكل تبعا للمذهب الفلسفي واقعيا او مثاليا .. عقليا او تجريبيا .. ثنائيا او واحديا .. ذريا او كليـا .. عضويا في منحاه الميتافيزيقي .

ومع ذلك ــ فحتى حين لا يفصح المؤلفون في المنطق عن ميـولهم

السابقة في اتجاهاتهم الفلسفية فالتحليل يكشف عن الرابطة (بين تلك الميول وما يذهبون اليه من نظرية منطقية ..) [1] .

ثم يكمل ، ديوى نظريته عن جدلية العلاقة بين المنطق والبحث ذاته، فيقول .

ان الصور المنطقية « تنشأ » اصلا خلال اجراءات البحث [2] .

والواقع أن عملية البحث تفيدنا وضوحا في الرؤية باعتبارها التصاقا بالواقع وممارسة حية له .. الا ان الرؤية الحقيقية لا تأتي مباشرة من الواقع انما من العقل ، اذ العقل هو الذي يضع القواعد لمعرفة الواقع والمنطق هو من العقل فهو الذي يعطينا الرؤية .. ولكن لا مجردة عن الواقع بل ملتصقة به .

وبذلك نعرف ان المنطق والبحث يكتملان لان المنطق يعطينا الرؤية والبحث يبلورها .

وكذلك الفلسفة هي بحوث عقلية ، وواقعية في ذات اللحظة ، اذ ان اي خطوة نخطوها في حقل الفلسفة نعتمد فيها على عكازتين ، على عقل هاد ، وعلى توجيه هذا العقل على الواقع . وبالتالي على بصيرة . وبصر . لا غنى لاحدهما عن الآخر ، ومن هنا فان الفلسفة ملتصقة بالمنطق. كما ان المنطق محتاج الى الفلسفة .

---

(١) المنطق نظرية البحث ، ص ٥٦ .
(٢) المصـــدر ، ص ٥٨ .

فصول الكتاب ومنهجه العام

وفصول الكتاب تتوالى كما يلي

١ ــ تطور الفكر المنطقي ٠

حيث يعالج فيه ثلاثة مواضيع رئيسية هي :

آ ــ دور نشوء المنطق القديم وتكامله ثم انحطاطه ٠

ب ــ المنطق الحديث نشأته ، وتكامله ، ومذاهبه الحالية ، وحاولنا في هذا الفصل ابعاد المنطق عن الفلسفة ، قدر الامكان بالرغم من ارتباطهما العضوي ٠

ثم حاولنا التبسيط قدر الامكان بلغة مفهومة نسبيا ، واخيرا القينا نظرات فاحصة ، على كل نوع من انواع المنطق ٠ كما ابدينا ملاحظاتنا عليها ٠

ج ــ وفي نهاية هذا الفصل القينا نظرة على المنطق الحديث وعما هي الاسألة التي يعالجها والاتجاهات المختلفة ٠ التي تعالج تلك الاسألة٠ واخيرا الصيغة التي انتهى اليها هذا المنطق ٠٠

٢ ــ اصول المنطق الاسلامي

حيث يكمن اهم فصول الكتاب بالرغم من صفحاته المعدودة ٠٠ والسبب ان الكتاب وضع لبيان المنطق الاسلامي قواعده ومناهجه،

وكل ما في الكتاب من بحوث منطقية ، هي بمثابة تمهيد لمعرفة المنطق الاسلامي •

ولكن لماذا اوجزنا الحديث حول هذا المنطق ؟ في هذا الفصل ؟

الواقع : ان طريقة معالجتنا لسائر بحوث المنطق انما كانت ببيان رؤية الاسلام فيها ، وذكر نصوص من القرآن ومن السنة مرتبطة بها •

وهذه كفيلة بتوضيح المنطق الاسلامي ، في كل بحوث الكتاب وانما وضع هذا الفصل ، لوضع قواعد المنطق الاسلامي وبيان خلفياته •

٣ ـ كيف نتجنب الخطأ ؟

لان جزء كبيرا من مشكلة المنطق هي مشكلة نفسية ، آتية من عقد نفسية ، او ضغوط اجتماعية او تربوية ، او حتى ضغوط آتية من تركيب الجهاز العصبي ، وبالتالي من العوامل المادية المؤثرة فيه •

لذلك خصصنا فصلا من الكتاب حول هذا الموضوع بالذات •

ونبحث في هذا الفصل عن تداخل المشكلة الفلسفية بالمشاكل النفسية المؤثرة ، ونبحث عن الغرائز ما هي وهل هي متعددة او واحدة ، وعن الجذور النفسية للخطأ وامتداداتها ، وعن وراثة الافكار من الآباء ، ومعالجة مدى حرية الانسان في رفض الافكار الموروثة •

ثم بحثنا شيئا عن حب التوافق المتجذر في الانسان ، والذي يشكل خلفية المنطق الاجتماعي ، الذي آمن به طائفة من المفكرين •

ثم بحثنا شيئا عن الاخلاق الذميمة ، ومدى تأثيرها على البحث العلمي •

٤ ـ كيف نختار المنهج السليم

يعتبر هذا القسم تمهيدا للفصول القادمة • وهو الحديث عن الاخطاء الآتية من منهج التفكير ، فلختيار المنهج الخاطىء ، او المنهج

الناقص ، يؤثر بصورة حاسمة على نتائج البحث ، ويقضي عليها سلفا بالفشل .

وفي مبتدء الفصل ، عالجنا جذور الاختيار للمنهج والضغوط النفسية التي تكمن وراء عملية الاختيار ، بينما في نهاية الفصل بينا جانبا من تطبيقات الاختيار السيء ، وهو اختيار المنهج الخاطيء او الناقص .

٥ ـ مناهج الاستقراء .

وقد تحدثنا عن هذا الفصل باسهاب ، مما جعله اكبر فصول الكتاب حجما ، ففي المقدمة تحدثنا عن طبيعة المنهج ، ثم تعريف الاستقراء ، ثم قواعد الاستقراء ، من الملاحظة ، والتجربة ، والفرض ، والنظرية وطرق التجربة ، وفكرة السبب ، وطبيعة القانون ،

٦ ـ مناهج العلوم الانسانية

في هذا القسم عالجنا : تطبيقات المنطق الاستقرائي، في علم الاجتماع، وعلم التاريخ ، وقد استوعب البحث مجالا واسعا في هذين العلمين ، وبينا فيه نظرات عديدة للاسلام في مختلف اقسام هذين العلمين الهامين .

٧ ـ مناهج القياس .

وقع هذا الفصل آخر الكتاب ، لاهميته المحدودة في مجال التطبيق، ويتناول المنطق القياسي : المنطق الشكلي الآرسطي ، مع اضافات العلم الحديث ، كما يتناول جوانب من المنطق الرمزي حيث ينتهي الكتاب بعون الله .

منهـج الكتاب

على ضوء النقاط التالية حددنا منهج الكتاب :

١) ضرورة شمول المنطق واحتوائه على كافة انواعــه ومناهجه ، ليضع عند القارىء عقلية نافذة تتجاوز التقسيمات المصطنعة ، وتصل الى روح المنهج السليم للتفكير وللبحث ، وقد يقع الشمول عندنا على حساب الوضوح والشرح ، وهــذا امر وقعنا فيه احيانا بالرغم مــن محاولاتنا الجادة لتجنبه .

٢) ضرورة تطعيم البحوث المنطقية الحديثة برؤى اسلامية اصيلة، ايمانا منا بان هذه العملية تغني الفكر المنطقي الحديث ، بمعانــي جديدة ونافعة تقدر (هذه المعاني) مــن دفع التناقض الظاهري ، بــين انــواع المنطق ، وكشف القواعد العامة ، التي لا بد ان تحتكم اليها هذه الانواع المختلفة من المنطق .

٣) ضرورة الايجاز غير المخل في كتاب يقدم ليكون تمهيدا لبحوث ودراسات اكثر عمقا واتساعا .

وحسبي من هذا الكتاب رجاء رضا الله تعالى ، وان يطرح الكتاب اسئلة جديدة في مجال الفكر .

القسم الاول عن

تطوّر البحث المنطقي

كلمة البدء
المنطق الاغريقي
المنطق الحديث
اتجاهات المنطق الحديث
اراء في المنطق

كلمة البدء

في حديثنا عن تطور المنطق نلقي نظرة على ثلاثة ادوار مـن تطور الفكر المنطقي ؟

١ ــ دور نشوء المنطق القديم .

٢ ــ دور نضوج المنطق القديم .

٣ ــ دور المنطق الحديث . منشأه وواقعه .

وقد وجدنا صعوبة كبيرة في فصل الفكر المنطقي عن الفكر الفلسفي في الوقت الذي كان الاول ــ ام الثاني حيث لا تتكامل النظرة العلميـة بدون معرفتهما جميعا .

ولكن بالرغم من ذلك اجهدنا على ابعاد المنطق عن امه الفلسفة ، لسبب بسيط هو ان حـديثنا في هذا الكتاب يختص بالمنطـق ، وحشر الفلسفة فيه يسبب التشويه والتعقيد .

ونتحدث عن سير الفكر المنطقي ، من ثلاث زوايا :

١ ــ زاوية تاريخية، تحدد مرحلة ــ كل نوع من المنطق ــ الزمنية ــ وتعطينا فكرة عن دورها الايجابي في بناء صرح المعرفة .

٢ ــ زاوية فلسفية ، تبين القاعدة الفكرية التي ينطلق الفكر المنطقي منها ويعتمد عليها في صحتها .

٣ ــ زاوية الهدف ، تشرح الغاية التي استهدفها المنطق .. ذلك لان كل منطق ، نابع من حقل اجتماعي يخلف عليه اثرا واضحا . حتى قـال

دركايم وتابعوه : ان المنطق ليس سوى وجه المجتمع الذي يظهر فيه لذلك يكون من الضروري التلميح بالظروف الاجتماعية التي ترافق تكوين المنطق .

فالمجتمع الاغريقي في عهد سقراط وما نشأ فيه من افكار متناقضة تعتمد على الجدل الفارغ لاثبات الاراء السياسية المتطرفة ، هذا المجتمع كان ذا طابع بين في منطق سقراط ثم افلاطون وارسطو .

فشرح منطق سقراط دون معرفة الزاوية التاريخية منه يبدو ناقصا بعض الشيء .

البحث عن الاصول الفلسفية

ولكن من الاجحاف بحق الفكر القول بان المنطق ظاهرة اجتماعية تماما .. كما ذهب الى ذلك المنطق الاجتماعي . ذلك لانه لا يدعنا نبحث عن نسبة الصحة فيه معتمدين على المقاييس العقلية الثابتة .

ولذلك كان من الواجب . البحث عن الاصول الفلسفية التي تفرع عنها الفكر المنطقي مثلا نظرية المثل الافلاطونية لا بد من معرفتها ولو اجمالا حتى نستطيع فهم منطقه بصورة اعمق . ذلك بالرغم من ان طائفة من العلماء وضعوا افكارهم المنطقية ثم التمسوا لها مبررات فلسفية حسبما يستطيع الباحث تلمس الهدفية في افكارهم المنطقية بوضوح اي تلمس هدف محدد يتطلع نحو اثباته الفيلسوف منذ ان يبدء بشرح افكاره .

معرفة الهدف

ومعرفة هذا المنطق لا يمكن بدون معرفة الهدف منه لانه موظف اساسا في خدمة هذا الهدف .

وهذه هي زاوية الهدف التي لا بد ان تنظر الى كل نوع من المنطق عبرها ..

بيد أنه ليس من الضروري اقحام هذه الزوايا الثلاث في كل منطق، حتى ولو لم يكن فيه وجه منها ، لانه بعيد عن الروح العلمية في البحث ، انما نلتمسها ، فان وجدناها ادرجناها ، والا اعرضنا عنها .

ولا بد ان نسجل اخيرا هذه الملاحظة :

ان الحديث القادم يقتصر على بيان تاريخ المنطق ، فلا يشمل تفاصيل كل منطق : ذلك لانها اذا كانت مفيدة .. فنذكرها عند بيـان المنهج . مع حذف المكررات . والا اعرضنا عنها فالى الدور الاول . للفكر المنطقي الذي يتمثل في المنطق الاغريقي . بابطاله الثلاث سقراط افلاطون ارسطو .

القسم الأول عن تطور البحث المنطقي

البحث الاول عن :

المنطق الاغريقي

كلمة البدء
افلاطون وارسطو
منطق ارسطو والمنطق الرمزي
المسلمون والمنطق الاغريقي

كلمة البـدء

يلاحظ الباحث في تاريخ الاغريق السياسي والاجتماعي ، في الفترة التي ظهرت فيها الفلسفة الافلاطونية ـ الاشراقية ، والمنطـق الارسطي الشكلي ، يلاحظ انه كان يتسم بطابع الفوضى السياسي حيث ظهـرت جماعات وصولية ، كان همها الوحيد بلوغ مصالحهم الخاصةواستخدمت لذلك الديمقراطية المحدودة التي كانت تتمتع بها البلاد الاغريقية انئذ ، كمـا وظفت الفلسفة الرائجة في خدمة اهدافها الرخيصة ،

وكانت الجماعة السوفسطائية من ابرز هذه الجماعات ،

واسم السوفسطاء يعني العالم وكانت تطلق هذه الجماعة على نفسها اسم الحكيم ، ادعاء للثقافة ، وكانت تتخذ اسلوب الجدل الفارغ فـي سبيل دعم نظرياتها ،

ولم تكن تعترف بمقاييس عقلية لذلك كانت تشكك في كل شيء ،

واذا اضطرها الامر راحت تشكك حتى في وجود الاشيـاء وتأتي بالادلة لدعم نظرتها التشكيكية ، ولذلك سميت كل طائفـة مشككـة بالسوفسطائيين ،

ونتج عن ذلك فوضى في الحقل السياسي وارتباك في الحقل الثقافي ،، مما اثار حفيظة المفكرين ـ والذين كان في طليعتهم سقراط ـ لوضع اسس رصينة للسياسة والثقافة تتصدى للجماعات الوصولية ،

فجاء سقراط باسلوب الحوار • وجاء افلاطون بطريق التحليل وجاء ارسطو بمنطقه التركيبي لكي يكونوا تحديا قويا ضد الافكار الوصولية والتي كانت في مقدمتها الافكار السوفسطائية •

١ ــ سقراط ٤٦٩ ــ ٣٩٩ ق م

بما ان السوفسطائيين كانوا يتلاعبون بالالفاظ كأية جماعة وصولية اخرى •

فان سقراط بدء عمله بفن الحوار او حسب تعبير بعضهم ــ فن توحيد المعاني ــ وكان يعتمد هذا الفن على البحث دون ملل عن التعريف الحقيقي للاشياء اي التعريف الذي يعبر عن ماهية الشيء المعرف بغية سد الطريق امام خصومه للتلاعب بلفظ عن طريق استخدامه في غير معناه الدقيق •

وهكذا كان سقراط واضع باب التعريف في المنطق القديم •

ولم يقتصر منطق سقراط في وضع التعاريف بل انه ــ كما يلاحظ في بعض انواع حواره ــ كان يريد البدء بما يعتقد به الخصم ــ ثم ينطلق منه ــ نحو امور تترتب على قوله حتى يصل به ــ عن طرق وجدانية ــ الى الامر المطلوب •

ولهذا نستطيع اعتبار سقراط من الذين آعتمدوا كليا على الاسلوب الوجداني • لمعرفة الاشياء •

ومهما يكن من امر فان منطقه ــ لم يتبلور ــ حتى الى درجة اعتباره منطقا برأسه •

انما نجح في هدفه الذي توخاه وهو اعادة الناس الى افكارهم •• واعطائهم الثقة بوجدانهم عن فوضى السياسة وتشكيك الجدل •

افلاطـون وارسطـو

٢ ـ افلاطون (٤٢٧ ـ ٣٤٧ قم)

واتخذ تلميذ سقراط طريق التحليل لمتابعة مسيرة استاذه ولكنـه اهتدى الى جذر مشكلة التشكيك ، وهو عدم الايمان بالمقائيس العقلية، فحاول وضع فلسفة ترد الاعتبار للعقل ، وذلك عن طريق ايمانه بالمثـل التي اشتهر بها .

وذلك :

يزعم افلاطون ان الانسان عاش بروحه المثالية قبل ان يعيش ببدنه، في عالم المثل الذي كان يعيش فيه ايضا صورة محدودة عـن الاشياء . وهناك عرف مثال الانسان ـ مثل الاشياء . وبتعبير آخر علمـت روح الانسان ـ روح الحقائق .

وبعد ان جاء الى هذا العالم ، نسي بعض ما عرفه من الحقائـق ، وهو بحاجة الى المنبهات الخارجية ، لكي يتذكرها . ولكنه اذا تذكرهـا فهو ليس بحاجة الى مزيد من الادلة تثبت صحة معارفه .

وهكذا استهدفت نظرية المثل الافلاطونية وضع اسس ثابتة للفكر عن طريق اثبات عالم سابق عرف الانسان فيه جميع الاشياء .

وبعد ان وطد قدم العلم على اساس ثابت ـ بزعمه ـ مضى فـي طريق التحليل الذي يوجز في اتخاذ احدى القضايا ، وافتراض انها مسلمة لا ريب فيها بشرط ان تكون القضية منطبقة على الموضوع المبحوث عنه، ثم يستنبط منها النتائج . فاذا كانت نتائج صحيحة عرفت صحة القضية،

واذا كانت فاسدة عرف بطلان القضية ، وهذه الطريقة كثيرة الاستعمال في الرياضة وتسمى بطريقة التفنيد •

واستعار افلاطون من الهندسة برهان الخلف والذي يحتل مكانا بارزا في المنطق •

ولم يزل هنا تطور لم يبلغه افلاطون في منطقه ، اذ انه يدع الحد الاوسط الذي نجده في المنطق الارسطي ، وانه يدع الاختيار للطرف الثاني ، بينما يحاول ارسطو اسكاته بالزامه بالنتيجة •

وحتى نبلغ ارسطو ــ لم يزل المنطق الاغريقي في دور الطفولة ، اذ انه يكتمل على يد ارسطو •

٣ ــ ارسطو

٣٨٤ ــ ٣٢٢ ق٠م

توجهت همة ارسطو الى وضع اسس للفكر سليمة ، بحيث لا تستطيع السفسطة احداث الفوضى في الافكار وفعلا قام بوضع هذه الاسس بالطريقة التالية :

حدد اشكالا للتفكير تعتمد على اظهار الرابط بين فكرة واخرى مشتقة منه •

فمثلا : نحن نعلم ان زيدا واحد من البشر ــ فاذا عرفنا ان كل البشر يموتون • فلا بد ان نعرف ان زيدا ايضا يموت• هذا التفكير بسيط للغاية ولكن ارسطو • يضعه في قالب معين يبرز الواسط بوجه خاص • كالمسيرة المحددة التي تجري خلالها الفكرة فيقول :

زيد بشر ــ وكل بشر يموت ــ فزيد يموت •

وتبعا لوضع هذا الرابط والذي يسميه ارسطو بالحد الاوسط يختلف مدى قوة القالب في تناسبه مع النتيجة الصائبة •

ولكن ارسطو لاحظ عجزاً في قدرة القوالب الفكرية عن أعطـاء النتائج الضرورية دون تحديد دقيق للاشياء ، فاخذ يقسم الالفاظ ويحدد معانيها ، لعـله يتوصل عن طريق هذا التحديد الـى التعريف الحقيقي للاشياء •

ومن هنا كان ارسطو اول من بيَّن ضرورة التمييز بـين الكليـات الخمس ونعني بها الجنس والنوع والفصل والخاصة ، والعرض العام •

تعـريف الجنس

فاذا اعتبرنا الحيوان جنسا فالانسان نوع من انواعه ، والميزة التي تميزه عنه تمييزا قاطعا هي النطق ، وهي ما عبر عنها ارسطو بـ (الفصل) و (الخاصة) هي التي تميز الانسان ــ مثلا ــ عن الحيوان ايضا ــ ولكن ميزتها له ليس فصلا كالنطق بل هي على سبيل المثال كالضحك وهو مـا يدعوه ارسطو بالخاصة ، واما العرض العام فهو لا يميز الانسان عـن سائر الحيوان كالمشي على القدمين •

وخرج ارسطو من هذا ، ان التعريف بالجنس والفصل هو التعريف الجامع المانع ــ كتعريف الانسان بانه حيوان ناطق فهو ينطبق على الناس جميعا وبذلك يكون جامعا لافراده ، وفي الوقت ذاته يمنع سائر الكائنات الحية عن الاشتراك معه في هذا التعريف وبذلك يسمى مانعا •

ولم يعد ارسطو ان بين خصائص التعريف الصحيح ، والتي توجز في ضرورة ادخال الشيء في نوع معين وتمييز هذا النوع ــ عن سائـر الانواع ــ بصفة لا يشترك غيره فيها ابدا • ولكن كيف نعرف هــذه الصفة ؟ كيف نعرف مثلا ان الانسان فقط ينطق وان الخيل فقط تصهل ؟ هذا السؤال الذي يعتبر جوهر المشكلة عند الانسان لم يتعرض له منطق ارسطو ، لذلك اعتبر منطقيا شكليا او صوريا •

فلو اردنا تغيير الالفاظ ــ من حيوان وانسان وناطق •• عن صيغته

الاصلية « الانسان حيوان ناطق » الى رموز فقلنا : ح = أ + ب لم يمنعنا عنه منطق ارسطو • اذ انه يبين فقط العلاقات الدقيقة التي تربط بين حقيقة فرضية واخرى • تماما كالرياضة التي لا تهتم بمحتويات الاشكال بقدر ما تهتم بذاتها •

وقد وضع ارسطو اسما لمنطقة منتزعا من هذه الصفة التي فيه اي صفة الصورية • والاسم هو (لوجيك) والاشتقاق الاصلي لهذا الاسم يعني الكلام ، وسماه ايضا بما يعني آله العلم وهو (اورجانون) •

وقد يكون لفظ (المنطق) بالعربي نابعا من ذات الصفة •

المنطق بعد ارسطو

ونجد تعريف المنطق عند توماس الاكويني في العصور الوسطى بانه، فن يكفل عمليات العقل الاستدلالية قيادة منظمة ميسرة خالية الخطأ• وهذا التعريف شاع في كثير من تابعي المنطق الارسطي •

وهذا التعريف يدل على وظيفة المنطق عند علماء القرون الوسطى وهو توجيه علاقة فكرة باخرى ، من دون تخصيص ذات الفكرة ، وذلك في مقابل المنطق التركيبي الذي يعتني بمادة الفكرة ومصدر معرفتها •

ولم يكن هم المدرسيين اللذين اتبعوا منطق ارسطو فيما بعد لم يكن همهم سوى فهم هذا المنطق • مع المبالغة في الاعتماد عليه حتى نتج من ذلك الاعتقاد بان الصور الفكرية التي وضعها ارسطو ، لكي تحدد علاقات الافكار هي بذاتها افكار تغنيهم عن العلم ، وكان مثلهم في ذلك مثل من يتخذ من الاشكال الهندسية بيتا وهميا ، اعتقادا منه بان هذه الاشكال وحدها تكفي عن المواد التي يجب ان تتشكل بها •

وانما تطور منطق ارسطو بسببين : الاول دخول افكار اسلامية فيه • حسبما سيأتي الحديث عنه ان شاء الله •• الثاني تبدله الى منطق رمزي ، فما هو المنطق الرمزي •

منطق ارسطو كرس ذاته للكشف عن علاقة فكرة باخرى • دون البحث عن مصادر هذه الفكرة فهو يقول مثلا :

اذا كان الانسان ، قادرا بذاته على بلوغ القمر فان زيدا قادر على ذلك ايضا وذلك لان :

الانسان قادر على بلوغ القمر •• وزيد انسان والنتيجة ان زيـدا قادر على ذلك فالعلاقة بين الفكرة الكلية • والفكرة الجزئية • علاقـة ايجابية يفرضها ان الجزئي ــ زيد ــ ضمن افراد الكلي ــ انسان ــ .

ايجاد الرمز لمعرفة العلاقة

فالبحث عن العلاقة هو جوهر منطق ارسطو وهو ايضا جوهرالمنطق الرمزي • الذي يتلخص في انه ما دمنا لا نعتني في المنطق الارسطي بمادة الفكر ومصدره الذي نبع منه • بل نكرس جهـدنا لمعرفة علاقة فكـرة باخرى ــ ما دمنا كذلك فالافضل ايجاد رموز للافكار ، لمعرفة العلاقـة بينها ، دون ذكرها هي ، لان النفس قد تتجه ــ اذا ذكرت الافكـار ــ اليها ، وتترك البحث عن علاقتها ببعضها ، ففي المثل السابق ، ما دمنـا لا نريد البحث حاليا عن صدق هـذه الفكرة (قدرة الانسان على بلـوغ القمر) ، ولا عن صدق هذه الفكرة (زيد من افراد الانسان) • بل انما نريد ان نعرف العلاقة بين هذه الفكرة وتلك ، فالافضل ايجاد رمزين لهما لنركز افكارنا حول علاقتهما ببعضهما فنقـول آ = ب و ح = أ .·. ح = ب •

وهذا كما ترون ذات الصورة التي يشكلها المثال السابق • والذي نجعل بعضهما تحت بعضهما هكذا :

أ = ب « الانسان » « قادر على صعود القمر » ح = ب « زيد » « انسان » النتيجة ح = ب « زيد » قادر على صعود القمر » .

هنا يكون المنطق الرمزي . هو الخطوة التالية في طريــق الكشف عن علاقات الافكار ببعضها .

فالمنطق الرياضي ليس جانبا اخر من المنطق يباين المنطق الارسطي وانما هو منطق صوري في ثوب جديد .

والفائدة الجديدة التي استطعنا تحقيقها من هذا المنطق تتلخص في امرين :

١ ــ القدرة على تحديد العلاقة الدقيقة بين الافكار ، والتي تنعقد حينما تتسابق الافكار فنتمكن انئذ من تحويل الافكار ــ فورا ــ الــى رموز ثم تحديد العلاقات بينها . ثم اعادة فض الرمــوز وتحويلها الى الافكار واخذ النتيجة منها .

٢ ــ القدرة على معرفة عــلاقات جديدة بين الافكار مما افادتنــا السرعة في اجتياز مراحل التفكير الدقيق .

والمعرفة الشاملــة للمنطق الرمزي تعتمد على المامــة كافية بالجبر وقواعدها العديدة .

والذي يعرف الجبر يعرف وجود فرص كبيرة للعقل في البحث عن اساليب جديدة لحل المشاكل الرياضية . وذات الفرص موجودة فــي المنطق الرمزي لايجاد حلول جاهزة وسريعة للمشاكل الفكرية وقد عمــل الفلاسفة والعلماء في سبيل استثمار هذه الفرص وايجاد الحلول المناسبة للمشاكل الفكرية . ولا ريب انهم وفقوا كثيرا في ذلك .

تقييم منطق ارسطو

ولقد تعرض منطق ارسطو لكثير من الهجمات ربما كـانت تحاول مناهضة الافراط في الثقة به خلال الفي عام. ولكن بعيدا عن روح التهجم او الثقة ، يقيم هذا المنطق بانه نظم مسيرة الفكر الانساني في قبال التطرف والفوضى والسفسطة . ولكنه من جهة اخرى . قيد هذا الفكر بتركيزه الكبير على الجانب الصوري منـه اي آنه لم يحاول البحـث عن مصدر الافكار بمقدار ما كرس بحوثه حول علاقة الافكار ببعضها وكان مثلـه مثل من يبذل جهده في جمع الاعداد وتفريقهـا دون ان يفكر فيما وراء هذه الاعداد من حقائق تدل عليها .

فمنطق ارسطو الشكلي باهتمامه بشكل التفكير واغفاله عن البحث عن مادة التفكير وموضوعه سبب تناسي دور السلبيات البشرية التـي تدعو الى الضلالـة كما تناسى دور العقل في تحدي هـذه السلبيات . ولذلك لم يوفق هذا المنطق لاعطاء الانسان مزيدا من التقدم الفكري .

وبسبب من تأثير المنطق الارسطي الشكلي والذي يبرز فيه جانب الاطلاق والعموم ، انطبع المفكرون في القرون الوسطى بطابع الاطـلاق وسرعة انتزاع الكلي من جزئيات صغيرة .

فكان يكفي الواحد منهم ان يلاحظ عدة احداث جزئية .. حـتى يحكم بكلي يشمل ملايين من امثال تلك الاحداث .

ثم تحول المفكرون الى الاعتقاد بان المنطق الارسطي طريق الوصول الى الحقائق . غافلين عن آنه منهج للتفكير .. والتفكير هو الطريـق .. فاخذوا يركبون القياسات بعضها فوق بعضها لعلهم يقفون عليهـا ليروا الحقائق جميعا .

ان القوالب الفكرية . تحولت عند هذا الفريق الى افكار استغنوا بها عن التجربة . بل زعموا بانها تغنيهم حتى عن عقولهم .. وهكذا لفهم الجمود .

وخلاصة القول ، ان منطق ارسطو بالرغم من تنظيم الفكر ، ابتلى بثلاثة نواقص ..

١ ــ تناسي دور السلبيات البشرية في تضليل الفكر .

٢ ــ اطلاقية توجيهه .. مما سبب في ايجاد طابع الاطلاق عند تابعيه .

٣ ــ تحول المنطق الى افكار بينما لم يكن سوى مناهج للتفكير .

المسلمون والمنطق الاغريقي

لا ريب ان الاسلام جاء بروح علمية جديدة تفتحت عن مناهج متطورة للبحث ، ولكن المسلمين لم يستثمروا ــ الا قدرا ضئيلا ــ من امكانات هذه الروح العلمية ، وبنفس المقدار . اختلفت معارفهم عن معارف العصر الذي عايشوه .

بيد ان ذلك لا يعني انهم سلموا تماما من جمود القرون الوسطى الفكري والذي ظهر في المنطق بشكل بارز ، انما يعني انهم كانوا خصوصا في بعض الفترات كانوا يستضيئون بنور القرآن ، وما يهدي اليه من روح البحث العلمي في مجال المنطق التركيبي .

وقد اثرت هذه الروح عميقة في كتب الفقه والرجال . لانها كانت من اختصاص اشد فئات المجتمع المسلم تحفظا وفي كتب الرياضيات نوعا ما لانها لم تستطع التقدم الا بالانفصال عن الفلسفة . وقليلا ما اثرت في العلوم الطبيعية .

بينما كان اثر المنطق الصوري كبيرا في كتب الفلسفة لانها كانت غريبة على الواقع الفكري للمسلمين ، وانما اختص بها ــ بادىء الامر ــ اولئك الذين آثروا الابتعاد عن التعاليم الدينية .

بل لم يحتضن الفلسفة اول الامر سوى الاقليات الدينية في البلاد واسربوها في الثقافة الاسلامية ، عن طريق العلوم المفيدة كالطب والهندسة والفلك .

وبالرغم من ان المناهج العلمية التي جاءت بها تعاليم السماء ، خصوصا في حقل العلوم التجريبية لم تتبلور لدى المسلمين بالرغم من

ذلك فان المسلمين قد جمعوا هذه التعاليم وفرضوا دراستها على طلاب العلوم الدينية كجزء من مناهج دراستهم •

فهناك كتاب آلفه الشيخ عبد الباسط موسى بن محمد العلموي المتوفي في دمشق عام ٩٨١ هجرية ، وسماه « المعيد في ادب المفيد والمستفيد » عالج فيه اسلوب الرواية المعروفة للعلم واساليبها وطرقها وشروطها •

وكتاب مماثل لا يزال يدرس في بعض الجامعات الدينية الفه الشيخ زين الدين العاملي •

وسماه منية المريد في أداب المفيد والمستفيد •

ويوصي هذا الكتاب بافضل التعاليم العلمية • التي يظهر منها مدى تشبع المسلمين بروح المنطق الاسلامي بالرغم من عدم بلورته لديهم •

كما يوصي الكتاب الاول : بطرق مفيدة ، للمناهج العلمية فمثلا يقول : اذا اشترى (المتعلم) كتابا نظر اوله وآخره ووسطه وترتيب ابوابه وقراريسه واعتبر صحته فاذا رأى فيه الحاقا او اصلاحا فانه شاهد له بالصحة ، ولا يهتم بالمبالغة في حسن الخط ، وانما يهتم بصحته وتصحيحه ، وعليه مقابلة الكتاب باصل صحيح موثوق به ، فالمقابلةمتعينة للكتاب العربي الذي يرام النفع به » •

ويرى كثير من مؤرخي الحضارة الغربية ، انها وليدة الروح العلمية التي تسربت الى الغرب من بعض مراكز اشعاع الفكر الاسلامي كالاندلس •

يقول بعضهم في معرض حديثه عن اولى محاولات الفكر الاوروبي للتحرر من شكليات المنطق الارسطي الجامد يقول : وترجع هذه المحاولة الى القرن الثالث عشر الميلادي عندما نقل العرب الروح العلميةوالرياضية الى اوروبا وقد اراد روجر بيكون تحرير معاصريه من التفكير المدرسي والتأليف بين التفكير الرياضي والتجربة •

القسم الأول ـ عن تطور البحث المنطقي

البحث الثاني عن :

المنطق الحديث

كلمة البدء
المذهب الديكارتي في المنطق
اسبينوزا ولايبنتس
لوك والقيمة الحسية
كانت وبرمجة التفكير البشري
فيخته
شيلنك
هيجل .. ونظريته المنطقية

كلمة البدء

لم يكن هم المفكرين في اوربا الى القرن السادس عشر ، سوى اعادة تركيب المنطق الارسطي واعادة هضمه والتدبر فيه .

وكانت المعرفة محصورة لديهم بما تمليه عليهم السلطات الدينية والزمنية ، التي احكمت قبضتها على الجماهير وكان اعلم الناس عندهم افهمهم لافكار السابقين واكثرهم حفظا لنصوصها .

وكانت همة العلماء مشدودة بخدمة التقاليد السائدة والاوضاع السياسية القائمة .

وكانت الكنيسة ، ترمي كل فكرة تحررية . بالالحاد . وبالمشابهة مع المسلمين الذين كانوا يشكلون حسب زعم « الدهماء » اخطر عدو للغرب .

ولكن منذ القرن السادس عشر اخذ الوضع يتطور وتلاحقت التطورات الفكرية والسياسية . في القرن السابع عشر ، ثم الثامن عشر ، حتى انفجرت في الحضارة الغربية الحديثة التي بالرغم من فراغها الروحي الكبير فانها ذات اطار مادي ضخم .

عوامل تطور المنطق

ترى ما هي العوامل التي ادت الى هذه التطورات ؟

هناك عدة عوامل سياسية واجتماعية وفكرية لا يمكننا هنا تحديد الاهم منها فنكتفي بسردها لكي نستطيع فهم خلفية الافكار المنطقية التي ظهرت في الغرب هذه العوامل هي :

بماذا عاد المنهزمون ؟

١ ـ من الناحية السياسية . كانت الحروب الصليبية سببا لافراز حضاري كبير اذ اراد الغرب بسببها اعادة سيطرته على الشرق الاسلامي. ولذلك فان خسارة هذه الحرب كانت ذات صدمة نفسية قوية عند الغرب ايقظته على واقعه المر . وفرضت عليه اعادة النظر في كل مؤسساتها المادية والمعنوية .

لقد عاد المنهزمون ـ في الحروب الصليبية ـ بتجربة واحدة هي ان المسلمين متقدمون عليهم حضاريا ، وبالمقابل فانهم متأخرون حضاريا . فأخذوا يبحثون عن سر تقدم المسلمين وتأخرهم فانتهوا الى نتائج كبيرة . ومتنوعة تلخصت في ان الحرية الفكرية والسياسية ضرورية لاي تقدم .

ولم تستطع السلطات الدينية والسياسية من كبح هذا الشعور الذي اخذ يتنامى حتى ادى الى واقع الحضارة الغربية الراهن .

صحيح ان مسيرة الغرب كانت مختلفة الاتجاه عن مسيرة المسلمين اذ كان الغرب متمحضا في المادية وكان المسلمون يستفيدون من الامكانات الروحية ايضا .

ولكن الغرب انما تعلم السير من المسلمين بالرغم من ان المسلمين انفسهم نسوا السير بعد ان علموا غيرهم بفعل الاكتساح المغولي ـ والغزو الصليبي ـ وضعف الروح الدينية .

كان هذا عاملا خطيرا في ايقاظ الغرب الفكري وهو عامل سياسي في طابعه العام .

حين استقر الفاتحون

٢ ـ وكانت القبائل البدوية تزحف على اوروبا منذ القرن الثالث عشر فتحدث فيها هزات اجتماعية عنيفة فلما استقرت هذه القبائل البدوية في القرن الرابع عشر ظهرت فرصة كبيرة لتحول اجتماعي ضخم وذلك :

اولا ـ لان طبيعة البدو انها لو تحضرت تستطيع القيام بانجازات

رائعة لانهـا قد تعودت على الحيـاة الخشنة القاسية فتتحمـل القسوة الضرورية لبناء اية حضارة .

ثانيا ـ ان العناصر المغلوبة عسكريا تفـكر في ان تربح الحيـاة بالطرق السلمية والهدوء الذي خيم على اوروبا بعد امواج الغزو البدوي كان افضل فرصة للعناصر المغلوبة للقيام بمبادرات عملية . لاستعـادة مراكزها وهكذا كانت الاحوال الاجتماعية في اوروبا مستعدة في القرن الخامس عشر لتحول عظيم .. ظهر فعلا في الافكار الثورية التي انتهت بنشوء الحضارة الاوروبية الراهنة . وهذا هو العامل الاجتماعي .

سقوط قسطنطينه

٣ ـ كانت عاصمة الدولة البيزنطية (قسطنطينية) مجمعـا لخـيرة الفلاسفة المسيحيين واليهود . وبسقوطها بايدي المسلمين ـ نزح عنهـا جميع المفكرين المتواجدين فيها الى البلاد الاوروبية . والتقوا بزملائهم هناك ونشأت من التقائهم نهضة فكرية بطبيعة التلاقح الفكري الـذي يأتي عادة بعد التقاء مدرستين فكريتين ببعضهما .

هذه هي العوامل الثلاثة الرئيسية التي يذكرها المؤرخون للنهضة العلمية في اوروبا .

وقد ابتدأت من اواسط القرن السادس عشر والتي برزت في منطق فرنسيس بيكون ، ورينيه ديكارت ، فبيكون كان يتمتع بآراء جريئـة اعتمد على الاستقراء ودعا باصرار الى تكريس الجهود في العلوم الطبيعية وبيّن اسس التجربـة فيها . وبذلك فتح الطريق الى المنطـق التركيبي وديكارت جاء بفكرة تحويل المنطق الى « علم رياضي » وقـام بتطبيق منطقه على العلوم الطبيعية والفلسفة العليا واحرز نجاحا باهرا بالنسبـة الى عصره .

وتابع المفكرون مسيرة « بيكـون » في تجارب العلوم الطبيعيـة ومسيرة ديكارت في الفلسفة والرياضيات وانتهوا بالمنطق الحديث بقسميه

(المنطق التركيبي • والمنطق الصوري) الى الكمال والآن لنعرف تفصيل هذه المسيرة •

بيكـــون

فرنسيس بيكون (١٥٦٠ ـــ ١٦٢٥م) ثار على الاوضاع القديمـــة في الثقافة بعنف ورمى السابقين بالجهل ونسب جهلهم الى عاملين :

١ ـــ ان مناهجهم لم تك توصلهم الى نتائج عملية (او بـــالاحرى لم يكونوا يهدفون من وراء مناهجهم الوصول الى نتائج عملية) •

٢ ـــ ان المنطق الذي كانوا يعتمدون عليه ، ويستقون منه افكارهم كان المنطق الصوري الذي لا يفيد علما جديداً ، انما ترسيخا للمعلومات السابقة والزاما للخصم بها بل العلم الجديد ، ينشأ من القياس والتعقل • واستخراج الكليات من الجزئيات ، بعد الاستقراء فيها ، وتنويعهـــا ، والتعقل فيها ، وبدون ذلك يظل الاستدلال عقيما • وبدون اساس ثابت•

اخطاء الفلسفة القديمة

وبعد ان بين بيكون عقم الفلسفة القديمة شرع في بنـــاء المنهـــج الصحيح للاستقراء ولكنه قال لا يمكن الوصول اليه بدون معرفةاسباب الخطأ والتخلي عنها فما هي اذا اسباب الخطأ التي يسميها بيكونبالاصنام لانها تتبع بغير فائدة يقول بيكون انها اربعة اصنام •

١ ـــ اصنام الطائفة (او الفرع) وهي مقتضيات طبيعة الانسانالتي تشبه المرآة المنحرفة فتعكس الحقائق بغير صورتها الاصلية •

وعلى الانسان التخلص من صنـــم طبيعته •• حتى يستطيع نيـــل المعرفة الصحيحة •

٢ ـــ اصنام الشخص (الفرد ذاته) وهي التي تفرضها طبيعة الميول

الخاصة بكل واحد منا حيث تسبب هذه الميول الشخصية انحرافـات بعيدة في فكر الانسان •

٣ ــ اصنام السوق ــ اي سوق المعرفة وهي الافكار الخاطئة التي تتسرب الى اذهاننا بسبب العبارات الغامضة فعلينا اذا تنقية العبـارات حتى نستطيع الوصول الى الحقائق •

٤ ــ اصنام المعرض (معرض الافكار القديمة) التي تحتوي افكار الفلاسفة السابقين • وتسبب ضغطا شديدا على اذهاننا وبالتالـي اخطاء جسيمة •

المذهب الديكارتي في المنطق

رينه ديكارت (١٦٥٦ ــ ١٦٩٥) تأخر عمره الثقافي عن بيكــون بربع قرن ولذلك اعتبرت نشاطاته الفكرية من نصيب القرن السابع عشر •

وذهب ديكارت الى مساواة الناس في العقل واختلافهم في مــدى استثماره والسير به في الطريق الصحيح ولذلك فافضل خدمة تسدى الى العلم وضع منهج صحيح له ودعوة الناس اليه • فما هو هذا المنهج ؟

اولا ــ اذا كان مقدار العقل واحدا عند الناس جميعا ، فلا بد ان يكون الذي يتبعه العقل ، ويسير فيه ايضا واحدا • وبالتالي يجــب الا يكون هناك اي فرق بين العلوم المختلفة في المنهج، فأيمنهج موحد يجب ان تسير فيه العلوم جميعا ؟ انه منهج الرياضيات التي تبحث عن الكم ، لانه منهج محدد وواضح• فلذلك يجب بحث جميع العلوم حتى الطبيعيات في ضوء هذا المنهج • وهكذا ادخل ديكارت القياسات الكمية في العلوم الطبيعية ونحن اليوم نعرف ببساطة كيف نحول المرض والقوة والحرارة وما اشبه الى امور مقاسة بالكم (درجة الحرارة) ولكنه في ذلك اليوم كان امرا جديدا بالمرة •

وشرح ديكارت طبيعة ــ منهج الرياضيات ــ وحاول سحبها الى كل حقول العلم ، اعتقادا منه بانه هو ذلك المنهج الواحد الذي يصلح لهداية العقل فما هو منهج الرياضيات ؟

ــ افترض حلا مسبقا لمشكلتك ثم عدد النتائج التي قد تترتب على

هذا الحل على افتراض صحته ثم فتش عن هذه النتائج لترى هل هـي موجودة فعلا ام لا ، مثلا لو كانت المسألة العملية هي : هل الحديد يتمدد بالحرارة ؟ تفترض حلا للمسألة بانه « نعم الحديد يتمدد بالحرارة » فما هي اولى النتائج المترتبة على ذلك ؟ أولى النتائج انه من تمدد الحديد لا بد ان تنعوج السكة الحديدية او تنكسر ايام الحر لانه حديد ممتد او لا بد ان يكون بين قطع الحديد فيها فواصل تظهر ايام الشتاء وتختفي ايام الصيف ، فهذه هي النتيجة المترتبة على الحل المفترض ، ثم نلاحظ الواقع الخارجي فنرى صحة النتيجة خارجا • فنعرف صحة الفرضية واقعا هـذا هو منهج الرياضيات الذي يقترحه ديكارت للعلوم •

يبدأ ديكارت هجوما عنيفا على المنطق الارسطي الذي ينعته بالعقم، بسبب أنه لا يزيدنا علما جديداً • فيقول : ان النتيجة في هذا المنطق ليست سوى صيغة اخرى للمقدمة ، فان كانت المقدمة صحيحة فـان النتيجـة معلومة بصورة آلية • وان كانت احدى المقدمات باطلة ــ فان المنطـق ليس سوى وبال • هكذا يكون منطق ارسطو عقيما عند ديكارت •

منهج ديكـارت

ثم يبين ديكارت منهجه المتدرج الى تحصيل العلم فيضعه في اربع قواعد رئيسية •

الف ــ الاستقلال الفكري « يجب الا اعتقد الا بما يكـون لدي واضحا لا ريب فيه » •

هذا مفاد القاعدة الاولى لديكارت والتي يجزئها الى اربعة بنود :

١ ــ بما ان العلم حضور للاشياء عند النفس ، فان معرفة الانسان بالاشياء تتم بصورة مباشرة مثل رؤية العين للاشياء فليس العلـم قائما بصور عن الاشياء في الذهن كما كان يتصور القدماء بل العلم انما هـو احاطة كشف وشهود •

فكلما كان واضحا عند النفس وضوحا شديدا كان معلوما ، حتى ولو لم يكن واضحا عند القدماء . اذ ان اتباع الاخرين في العلم يشبه الاعمى الذي يقوده الناس .

إذا البند الاول هو رفض افكار السابقين اذا خالفت العلم .

٢ ــ يجب الا اتسرع في الحكم بشيء .

٣ ــ كما ان افكار القدماء تأسر قلب المتعلم حتى يكاد لا يبصر الحقائق كذلك اهواء النفس قد تأسر القلب ولا تدعه يكتشف الحقائق . لذلك يجب التخلص من الاهواء الداخلية .

٤ ــ واخيرا اجعل وجداني حكما على الاشياء بحيث لا اقبل اي شيء الا اذا كان واضحا ماثلا امام وجداني تماما .

التحليــل

باء ــ بما ان علم الانسان اوضح بالبسائط منه بالمركبات فلا بد ان نلتزم بالقاعدة التالية وهي « تحليل الحقيقة الى اكبر قدر ممكن من البسائط » .

وتأتي اهمية التحليل من الغموض الذي يكتشف عادة المسألة المركبة ، بسبب وضوح جزء منه ــ وعدم وضوح جزء اخر بحيث يظل الفكر مترددا بينهما والتحليل ينقذه من هذا التردد ويضع لكل جزء من المسألة ما يناسبه . دون اختلاطه بالجزء الاخر .

التــدرج

جيم ــ ولكن مشكلة التحليل انه يعقد علينا ارتباط اي جزء بآخر ، وهنا لا بد ان نطبق القاعدة الثالثة عند ديكارت لحل هذه المشكلة ، فما هي القاعدة الثالثة « انها ترتيب الفكر والتدرج في البحث عن الواقع الابسط فالابسط » .

الاستقـراء

دال ــ وهنا نستقصي عن كل ما يكشف اي جزء من المسألة حتى نشبعه بحثا وتنقيبا فلا نتحول الى الجزء الثاني الا بعد ان ننتهي مـــن الجزء الاول في البحث •

المهم في منهج ديكارت انه اختار الطريقة الرياضية وخصوصا طريقة الجبر لمعرفة جميع العلوم وكان في ذلك تسهيلا جديدا سبب اكتشافات علمية هائلة •

ولكن بالرغم من ذلك ومن اكتشافات ديكارت العلمية التي تمت على ضوء منهجه الجديد لم يزل في منهج ديكارت العديد من النواقص هي كالتالية :

١ ــ لم يركز ديكارت في منهجه على دور التجربة في فهم الحقائق • مما صبغ منهجه بالصبغة الصورية • واليوم يعد هذا المنهج من المناهـــج الصورية التي اضيفت اليها متممات كثيرة واكملتها •

اختلاف المناهج للعلـوم

٢ ــ تبسيط العلوم يفيد في كثير من الاحايين ولكنه بالرغم من ذلك قد يوصلنا الى طرق مسدودة •• فمثلا لو اردنا البحث عن حقيقة الوجود او العدم او لا نصل الى نتيجة •• فليس الامر كما ذكر ديكارت دائما ، بانه في سبيل البحث عن الحقائق لابد من تبسيطها الى اخر درجة ممكنة ، فان العلم بالبسائط اسهل من العلم بالمركبات كلا فبعض البسائط ، العلم بها مستصعب •

نعم من الافضل تبسيط المسائل الى درجة يسهل علينا البحث عنها•

٣ ــ ثم ان العلوم في لحظة وحدتها في جهة تختلف في جهات عديدة وليس من الصحيح وضع منهج واحد لجميـــع العلوم كما يحاول ذلـــك ديكارت •

ولقد تنبه المتأخرون الى مدى فرق العلوم عن بعضها • فوضعوا لكل واحد منها منهجا بعد الاشارة الى المنهج العام الذي يشمل جميع العلوم •

٤ ــ وهناك نواقص كثيرة في منهج ديكارت وسوف تتضح هــذه النواقص من دراسة سائر فصول هذا الكتاب • حيث بينا فيها اسبــاب الخطأ ومنهج البحث واوضحنا ضرورة استيعاب كل ذلك في سبيل الوصول الى الحقيقة لو امكن الوصول اليها •

المنهج الديكارتي في الفكر الاوربي

كان تأثير ديكارت في الفكر الاوروبي كبيرا الى درجة انه خلف تيارا فلسفيا سمي بـ « ديكارتزم » وانجرف في هذا التيار مفكرون كثيرون .

ولكن لا يعني ذلك ان كل هذا التأثير كان من شخص ديكارت او من فلسفته بل وكان ايضا من عصره ، الذي تململ تحت تأثير شروط معينة ، وحاول النهوض فألتف حول منهج بيكون وديكارت لانه وجدهما انسب المناهج الى نهضته المنشودة .

ولذلك فقد اضاف كل فيلسوف جديدا الى منهج ديكارت قال احدهم ان منطق ديكارت دهليز الحقيقة يجب ان نعبرها ولا نتوقف فيها. وكان في طليعة هؤلاء مابرانش واسبينوزا .

ما برانش

أعتقد مابرانش ١٦٠٨ ــ ١٧١٥ : ان سبب خطأ الانسان اندماج عقله بجسمه وابتلائه بما انطوى عليه الجسم من الخيال الفارغ ومن الرغبات النفسية .

والسؤال كيف تتسبب الحواس في حجب العقل عن الحقيقة ؟. بجيب مابرانش عن هذا السؤال بالقول : ان الهدف الفطري من الحواس. يختلف عن الهدف الذي ينشده الانسان ، ولذلك يتورط الانسان في الخطأ ، ومثله ان يستخدم الانسان المحراث في التكريف ، وذلك لان

الغاية المتوخاة من الحواس بالاصل هي ايجاد علاقة مناسبة بين الجسم والعالم المحيط به ، حتى يبقى الجسم مصونا من الاخطار •• بينما يستخدم البشر حواسه فيما هو وراء هذه الغاية • وهو العلم بحقائق الامور جهلا بانها انما تنقل المظاهر الساذجة ، والاثار السطحية الى ضمير الانسان ، حتى يتجنبها لانها هي غايته الطبيعية • فمثلا ان حواسنا تشعر بالالم ازاء بعض الاثارات الخارجية ، فهل الالم هذا من اثار تلك الامور الخارجية كما تتصور وكما نقول ظاهرا بأن الضرب مؤلم فنسبب الالم الى الضرب ونجعله صفة من صفاته ؟ كلا انما هو من مقتضيات ذواتنا نحن • فهي التي تتأثر بالضرب ولا دخل له بصورة الحياة الخارجية، ونحن انما نعبر عن الضرب بانه مؤلم لبيان نوعية العلاقة التي تربطه باجسامنا •

الصفات والرغبات النفسية

والتوهم سبب اخر من اسباب الخطأ البشري لانه يجعلنا نزعم صحة افكار الاخرين • فنتبعهم بينما هي باطلة وانما تخيلنا خيالا •

واما الرغبات النفسية فانها تولد الحب والبغض في الانسان وهما بدورهما يحجبان نور العقل ويوقعان الفرد في الخطأ •

والصفات النفسية ، اشد اثرا في القلب من الرغبات النفسية • لان الصفة المنحرفة • بذاتها تسبب الخطأ دون واسطة الحب والبغض •

وحتى طاقة الفهم « العقل » فانها قد تتسبب في الخطأ • وذلك لانها بطبيعتها محدودة بينما يزعم الانسان انها قادرة على كشف الاشياء جميعا•

وهذا الغرور سبب خطير من اسباب الخطأ البشري «عند مابرانش»•

ثم يبدء مابرانش بتفصيل منهجه بعد ان يحدد اسباب الخطأ ويوصي الطالب بتجنبها فيقول : يجب ان نطرح اية مسألة بصورة مبسطة والبحث عن الوسائط المشتركة •

وينبغي حذف الزوائد بل نلخص المعلومات بقدر الامكان •

ولا بد ان تتدبر في نوعية ترتيب المعلومات مع بعضها بدقة تامة كما يجب مقابلة المعلومات المركبة مع بعضها لحذف المكررات عنها وكذلك حذف الامور غير المفيدة •• ونكتفي بهذا القدر في تفصيل منطق مابرانش الذي يتشابه في كثير من الامور مع منطق ديكارت • الا انه ينطوي ايضا على بعض السلبيات •

١ ــ فالغموض ــ يكتنف نظريته عن اسباب الخطأ لانه لم يكــن قادرا على بناء اسس كافية لمنطقه ، واليوم وبعد بحوث علم النفس المختلفة نستطيع ان نفقه مواقع الغموض في فلسفة المنهج عند مابرانش •

٢ ــ انه عدد اسباب الخطأ • وجعل منها الفهم (او العقل) بينما العقل لا يدعو الانسان الى ان يتصور كماله : وشموله ، انما جهل الانسان بمحدودية عقله ، وغروره بما لديه من وسيلة ناقصة، هو الذي يجعله يحمل عقله فوق طاقته ويطلب منه ما هو عاجز عنه •

ديكارت يدخل في الفكر الاوربي

وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر دخل منطق ديكارت فــي برنامج الفكر الاوروبي ، بعد ان اضيف اليه بعض العناصر المفيــدة من منطق ارسطو ــ وذلك عندما كتب عالمان يتبعان ديكارت هما (بير نيكل وانتون ارفو) من فرنسا كتابا في المنطق على ضوء فلسفة ديكارت ومنهجه ولا يزال الكتاب متداولا في اوروبا ومرجعا مفيدا هناك •

اسبينوزا ..

من هولندا هذه المرة جاء اسبينوزا الذي عاش بين ١٦٣٢ – ١٦٧٧ واصبح من اكبر فلاسفة اوربا في عصره ونخص رأيه في المنطق بالقول : لما رأيت طرق معرفة الاشياء توجز في اربعة .. افواه الناس (كمعرفة كل شخص بيوم ميلاده) او بالتجربة المجملة (كمعرفة النـاس بان النفط مما يحترق) او بمعرفة الرابطة بين الجزئيات والكليات (كما نعلم بالحرارة بعد العلم بوجود النار) وهذا هو الطريق الثالث الـذي بالرغم من انه افضل مما سبق فان الطريق الرابع افضل منه وهو : الوجدان الذاتـي والشهود الشخصي ، وهو طريق لا يأتيه الخطأ لانه منطبق مع المعلوم ، ويأتي بعلاقة مباشرة بين الفرد والمعلوم ، ولذلك فهو موجب لليقين ، وهو يتعلق بالبسائط والمبادىء الاولية ، وموارده قليلة جدا .

والعلم بالبسائط (اي الطريق الوجداني) واضح ومحدد وموافق مع المعلوم الخارجي ولسنا بحاجة الى حجة تدل على صحته ولهذا فلسنا بحاجة الى البحث عن منهج صحيح للمعرفة .

ان المعرفة هي بذاتها دليل على صحتها . وعلى صحة الطريق المؤدي اليها .. لا العكس .. وبالتالي العلم هو طريق العلم . العلم بالواقع طريق العلم بذلك المنهج الذي يوصلنا اليه . اي على ضوئه نستطيع معرفـة المنهج المؤدي اليه والى غيره .

ثم يضيف قائلا : ان طريق معرفة الحقيقة وتمييز الباطل عنها هـو البحث اولا عن حقيقة واضحة جدا ومتميزة تماما عن الباطل . وكلما كانت الحقيقة واضحة اكثر وضوحا . واشد تمييزا عن الباطل كان افضل لان اساس العلم انئذ يكون اكثر رسوخا ويكون العلم النابع منه اشمل احاطة بالحياة . فما هو ذلك العلم الاول الذي يتعلق بـأوسع الاشياء احاطـة واسماها رتبة ؟.. انه العلم بالله سبحانه . الذي يهدي الى كل علم . لأننا على ضوئه نتعرف على المنهج الصحيح ونبلغ به جميع الاشياء .

ملاحظات على منهج اسبينوزا

واسبينوزا يتبع ديكارت في موجز افكـاره وان كان يخالفـه في تفاصيلها ويركز كثيرا على ضرورة ادخال المنهج الرياضي في كل العلوم.. ولكن نظريته في المنهج تتعرض لعدة ملاحظات ..

١ ـ انه قسم طرق العلم بالحقيقة الى اربعة وجعل منها الوجـدان كما جعل منها اقوال الناس ، ومن حقنا ان نتسائل عن معنى العلم ؟ أليس هو وجدان الاشياء وكشفها والوصول مباشرة اليها ـ كما يقول اسبينوزا ذاتـه .. فاذا كان كذلك وهو كذلك فلا فرق بين ان يأتي هذا الوجدان عن طريق التفكير او الاحساس او العلم بالعلة والمعلول ، بـل انما يأتي الوجدان بعد هذه الطرق او بعد غيرها مما يسبب حالة العلم في النفس ، اذ الوجدان هو العلم ذاته .. اذا فليس من الصحيح جعل النتيجة من اقسام الطرق المؤدية اليها وجعلها افضل منها .

٢ ـ بالرغم من انه تفطن الى ان حقيقة العلم نور وكشف وظهور ولا يمكن البحث عن دليل يثبت صحة العلم بعد ان وجدنـا العلـم يقينا .. وبالرغم من انه تفطن ايضا الى حقيقة اخرى هامة وهي ان الطريق الـى معرفة المنهج الصحيح للعلم هو العلم بحقيقة ما ، ثم البحث على ضوئهـا عن المنهج الصحيح ، ولكنه لم يتفطن او لم يذكر : كيف نستطيع الوصول

الى منهج صحيح بعد العلم بحقيقة واضحة ؟

وقد كشفنا في موضع اخر من هذا الكتاب عن ذلك حين قلنا ان العلم بحقيقة ما ، يجعلنا نطمئن الى صحة الطريقة التي سلكناها اليها ، فنستطيع سلوك ذات الطريقة للوصول الى غيرها فمثلا انك تعلم يقينا .. ان ١٥ + ١٥ يساوي ٣٠ ولكنك لا تعرف صحة طريقة الجمع المتبعة ، فتستخدمها كما هي معهودة فترى : ان هذه الطريقة فعلا ادت الى النتيجة الصحيحة ، فتعرف انها ستؤدي الى نتائج صحيحة ايضا في غير هذا المجال.

وهذا بعض من منهج « معرفة العلم بالعلم » وستعرف طرقا اخرى لهذا المنهج باذن الله .

لابينتس

في بعض بلاد المانيا ولد لابينتس عام ١٦٤٦ وتوفي عام ١٧١٦ وانتزع رأيه في المنطق من نظرياته في الفلسفة والتي اعتقد فيها ان معرفة الغاية من الكون او من اجزائه ضرورية للوصول الى حقيقته جنبا الى جنب مع معرفة العلة المباشرة له وفي باب المعرفة قال : كما ان اصل امتناع التناقض قاعدة رصينة . لمعرفة الاشياء . كذلك اصل العلة الغائية « الهدف من الاشياء » قاعدة اساسية .

واعتقد في المنطق ايضا .. أن ادراك البشر للاشياء يكون نوعين : ادراك واضح وادراك باطن .. وكما ان معلوماتنا اقل حجما من المجهولات كذلك الادراك الظاهر اقل من الادراك الباطن ، بينما الفضيلة خاصة بالادراك الظاهر ، وذهب الى القول بان الادراكات الظاهرة تأتي نتيجة مجموعة الادراكات المستبطنة كما ان هدير الموج ناشيء من مجموعة اصوات صغيرة تنشأ من اصطدام قطرات الماء بالساحل .

واعتقد ايضا بوجود قوى ذهنية سابقة هي في الواقع اساس كل معرفة .

والملاحظ في نظريات لابينتس ليس الغموض فقط وانما ايضا محاولات فاشلة للتوفيق بين نظريات متباعدة ، والمهم فيها انه يركز على اهمية العقل الباطن ودوره في الادراك والواقع ان الادراكات المستبطنة ، والتي نسميها اليوم بالعقل الباطن ، هي التي تشكل قوالبنا التفكيرية ، وتصوغ نوعية نظرتنا للاحداث والزوايا المختلفة التي نحكم منها على الامور ، كل ذلك بالرغم من ان العقل الرشيد يستطيع التخلص من ضغط « العقل الباطن » ليتجرد في حكمه على الاشياء بموضوعية تامة ، ولولا هذه المقدرة في العقل لم يستطع احدنا الاعتماد ابدا على علمه .

لوك والقيمة الحسية

(لــوك)

بين عامي ١٦٣٢ ــ ١٧٠٤ جاء لوك بنظريته الحسية ٠ واسس بها مدرسة خاصة بنفسه تعيد كل العلوم الى مبدأ واحد هو الحس ٠ بالرغم من عدم انكاره للعقل الذي يتصور انه ايضا ناشيء مــن الحس ٠٠ او بالاحرى يجعل يوم بروزه متأخرا عن الحس ٠ واعتقد لوك بثلاثة قواعد وهي ٠

ــ الف ــ قوى الادراك حيث قال بوجود عدة قوى متدرجة عند الانسان هي التي توفر له المعرفة ٠ وهي :

١ ــ قوة الادراك وهي اولى مراحل المعرفة ٠

٢ ــ قوة الحفظ ٠ وهي المرحلة التالية اذ انها تدخــر المعلومــات الناتجة من الادراك ٠

٣ ــ قوة التمييز وهي التي تفصل بين المعلومات المدخرة ٠

٤ ــ قوة التقييم التي تبين نسبة المعلومات الى بعضها ٠

٥ ــ قوة التركيب التي تكلف بجمع المعاني البسيطة وتركيبها ٠

٦ ــ قوة التجريد او الانتزاع وهي مسئولة عن استنباط معنى كلي من الخصائص الجزئية التي تلاحظها في منظر واحد ٠

اهمية التقسيم

باء ــ ويتميز فكر (لوك) بالتقسيم وذلك تبعا لهدفه البعيد الــذي اراد به برمجة العملية التفكيرية عند الانسان ٠

فهو يقسم التصورات ويبسطها فيقول : ان التصور بسيط (منشأه حس واحد) ومركب « منشأه عدة احاسيس » فتصور الحرارة بسيط بينما تصور (الجسمية) مركب لانه انما يأتي من تصور الحجم والوزن و٠و٠

والتصور قد يكون مثبتا ٠٠ يكشف عن وجود شيء ٠٠ وقد يكون منفيا يكشف عن عدمه ٠ فالاول مثل تصور النور والحرارة ٠ والثاني كما تتصور الظلام والبرودة ٠

ولكي يوضح فكرة التصور ويبلورها يقول :

الفكرة التي يستوعبها الذهن بسبب التصور تدعى بـ (المفهوم) ٠

بينما ارتباط هذا التصور بمنشأه يسمى بـ (الخاصية) فمثلا الحرارة ، مفهوم ذهني ولكنها من جانب اخر خاصية للنار ٠

ويقسم التصور ايضا بانه قد يكون تصورا لذات شيء ٠ وقد يكون تصورا لحالة ٠

وقد يكون تصورا لعلاقته بسائر الاشياء ٠

دور اللغة

جيم ــ ويلعب التقسيم دورا بارزا في توضيح عمليات العقل عند لوك ٠ ولكنه ليس الامر الوحيد الذي يكشف لنا عن هذه العمليات ٠٠ عنده ٠٠ وذلك لانه ربط ايضا بين فهم هذه العمليات العقلية وبين فقه اللغة ، لانها تكشف بقدر عن التصورات ٠ وتكون مقياسا اميسا لمعرفة طبيعتها ٠

ومن هذه الزاوية دخل لوك في تحقيقاته العلمية التي اجراها في باب اللغة ٠٠ واصبح من مؤسسي علم اللغات الحديث وكان بين استدلالاته اللغوية التي سحبها الى المنطق ٠ قوله : بما ان تصور الانسان يعتمد على الاحساس في البداية فان الرجل البدائي يعبر عنه اولا فالطفل مثال للفرد

البدائي وهو لا يعبر اول ما ينطق الا عن الامور المحسوسة . كذلك الامم المتوحشة .. مثال للجماعة البدائية .

فلا نجد في لغتهم تعابير تخص الامور العقلية . وكلما تقدمت الامة باتجاه الحضارة كلما زادت تعابير لغتها التي تكشف عن امور عقلية .

بعد ان يضع لوك اسس تفكيره الثلاثة (بيان قوى الادراك وتقسيم الادراك . ثم علاقته باللغة المعربة عنه) يعطف نظره الى حقيقة العلم فيزعم انها النسبة بين تصورين .. او اثبات الوجود لتصور واحد ثم يفصل فيقول : اساس علاقة التصور اربعة اقسام .

(١) الوحدة ــ كما تقول : ٤ × ٤ = ١٦ .

«٢» او عدمهما كما تقول : ٤ × ٤ لا = ١٥ .

«٣» المقارنة كالقول ــ الهواء بارد ــ

«٤» اثبات شيء لشيء مثل ان تقول : الله موجود ، ثم يقسم لوك العلم الى ذاتي وتعقلي وحسي . فالذاتي . هو معرفة نسبة التصورات الذاتية الى بعضها معرفة مباشرة والتعقلي تلك المعرفة التي تحتاج الى استدلال وتفكر مثل معرفة الباري . والحسي هي المعرفة الناشئة من الاحساس وهو بالرغم من قلة قيمته الفلسفية لعدم افادته اليقين فانه ذات قيمة عملية لاننا نعتمد على الحس في كل شئوننا ، وفي العلوم الطبيعية التي مرد تصوراتها تكون في خارج الذهن ، فيوصي لوك فيها بالاستدلال بينما يكتفي في العلوم الفلسفية والاخلاقية بالتعقل لان مواد تصورها في الذهن .

ويلاحظ من اتجاه لوك الفلسفي في المعرفة انه كان ينوي تقنيةالتفكير المنطقي ، بمعنى انه كان يهدف جعل العلم يسير في خط واضح وقوالب معروفة . حتى نستطيع ملاحظة خطواته واحدة بعد اخرى ، ثم احصاء اخطائه وتصحيحها .

وجهود لوك اثمرت في القرن الثامن عشر . اذ قام العلماء بتقنية العلم حسب ما سيأتي الحديث عنه باذن الله .

والملاحظ عليه كذلك تطرفه الشديد باتجاه تقييم الحس الذي تنتج منه امران ..

١ ــ تناسي دور العقل .. والسابقيات الفكرية التي يكشفها العقل تناسي دورهما في بناء صرح المعرفة ، وهذا مخالف للواقع المشهود الذي ذكرنا به في بحوث فلسفية منفردة [1] .

٢ ــ جعل المنهج العلمي خاضعا للتجربة المادية ، تتشابه مع سائـر التجارب التي تجري على المادة . وهذا مخالف للرأي العلمي السديد الذي يفصل بين انواع التجربة حسب اختلاف المواد . ومن هنا قال جون ديوي عن لوك ..

« ان كلمة (خبرة) حين استعملت عند بدء ظهورها استعمالا يضفي عليها الوقار بولغ ــ بغير شك ــ في جانبها المتصل بالملاحظة كما نرى ــ مثلا ــ عند (بيكن ولوك) ونستطيع ان نلتمس لهذه المبالغة تعليلا سريعا في كونها حدثت في الظروف التاريخية التي حدثت فيها (اي انها كـانت من وحي الظروف الخارجية) ذلك لان الفكر الفلسفي القديم كان قـد تدهـور حتى بلـغ صورة استبيـح معهـا الظن بان اعتقاداتنـا عـن امـور الواقع يمكـن بـل ينبغـي ان نحصلهـا بالتدليل العقلـي وحده الا اذا كـانت مستمدة الى اقوال النقاد ، فتولدت عن معارضة هذه النظرة المتطرفة نظرة اخرى تساويها في قصر نفسها على جانب واحد وهي ان الادراك الحسي وحده يمكن ان يقرر لنا على نحو مرض ما عسانا نريد أن نعتقده عن امور الواقع فأدتهذه الفكرة عند (بيكن)وبعد ذلك عند (لوك) الى اهمال الدور الذي تؤديه الرياضة في البحث العلمي كماادت عند لوك الى تقسيم يوشك أن يكون فاصلا بين معرفتنا لامور الواقـع ومعرفتنا لما يقوم بين افكارنا من علاقات على ان هذه المعرفة الاخيرة ــ بناءا على مذهبه ــ تعود فترتكز في نهاية الامر على الملاحظة الخالصة سواء

---

(١) راجع كتاب « الفكر الاسلامي » مواجهة حضارية للمؤلف .

كانت تلك الملاحظة داخلية ام خارجية تتج عن ذلك مذهب يرد الخبرة الى احساسات هي المقومات التي تتألف منها كل ملاحظة كما يرد الفكر الى روابط خارجية تصل هذه المقومات على ان المفروض في الاحساسات وفي روابطها معا ان تكون عقلية فقط اي ان تكون نفسية خالصة (٢) •

وبالتالي فان اساس نظرية لوك الحسي مرفوض فلسفيا • لانه بدون وجود عقل يكشف عن صحة او زيف الاحساس لا يمكننا ان نثق بـه ونستثمره في سبيل تحصيل العلم وقد تنبه لوك ذاته الى هـذه الملاحظة فجعل العلم الناشىء من الأحساس في الدرجة الثالثة من الاهمية بعد علم •• يحصل بالوجدان وعلم ينشأ من الاستدلال •

ولكن كل هذه الملاحظات لا تقلل من قيمة نظريات ــ لوك ــ ولا سيما التي تناولت خطوات التفكير اذ كانت تمهيدا مناسبا لبعض النظريات التي ظهرت في القرن « الثامن عشر » •

---

(٢) المنطق نظرية البحث .

كانت .. وبرمجة التفكير البشري

« كــانت »

ولد (عمانوئيل كانت) وتوفي بين عامي ١٧٢٤ ــ ١٨٠٤ في مدينة المانية وكانت اراؤه في المنطق حديثة .. فهو يبدأ حديثه عن ذلك بالقول :

ما دام الفرد لم يجد شيئا (بوجدانه) فانه يستحيل عليه ان يشعر بــه ..

ولكن متى يجد البشر الاشياء ..؟ انما يجدها حيث يتأثر بها وطريق التأثر هو الاحساس .

اذا يقول (كانت) الاحساس ينبه وجدان البشر ولكنه لا يرى ان الاحساس ذاته الوجدان ، اذ يعود ويوضح ان التأثيرات الخارجية التي تفد على الذهن عن طريق الوجدان لا تعتبر وجدانا بدون وجود قوة في الذهن تنظم هذه التأثيرات وترتبها .

ويعتقد : ان وسيلة تنظيم الذهن للتمييز بين حس واخر ، واثر وغيره هو تصور مفطور عليه الذهن الا وهو تصور الزمان والمكان فكلما دخل ساحة الذهن احساس ، البسه الوجدان ثوبا من الزمان (الذي ليس سوى تعاقب حدث بعد حدث) او من المكان الذي هو وجود شيء بعد شيء .

وكما لا ترى العين الهواء ، او الماء الا من خلال شيء اخر يوضعان فيه او يختلطان به فكذلك لا يجد الاحساس شيئا الا من خلال صورته (الزمكانية) .

ثم يذهب كانت في طريقه الجديد ليرى ان مجرد تصور الاشياء لا

يعد علما بالرغم من اضافة الزمكان عليه من ذات النفس اذ العلم (او الفهم على حد تعبيره) هو ايجاد علاقة بين شيء واخر وهذا لا يتحقق بواسطة تصور شيء واحد •

ثم يحاول كانت برمجة التفكير فيعطف نظره الى ـ فهم التصورات ـ كيف يحدث فيقول : ان الفهم هو «فعالية الذهن في ربط الاشياء ببعضها ثم استنتاج الاحكام العامة الكلية منها » حسنا ولكن كيف يحدث ذلك؟

يزعم كانت ان عملية الفهم بحاجة الى مادة • وهيئة ، ومادة الفهم هي التصورات (المركبة بدورها من الاحساس الخارجي والزمكان الداخلي) اما هيئتها فهي الامور التالية وهي عبارة عن علاقات تربط بين تصور وآخر •• فتشكل منهما فكرة مفهومه ، وهنا يحاول كانت حصر هذه العلاقة وتحديد دورها •• في صياغة التصورات فيقول ان هذه العلاقة او الهيئات هي اشبه شيء بقوالب فكرية يصب الذهن فيها ما لديه من تصورات ساذجة فيصوغ منها الفكرة •• وهي التالية :

الكمية والكيفية والنسبة (الاضافة) والجهة ولكل واحدة من هذه الاربع ثلاثة انواع حتى يصبح مجموعها اثني عشر قالبا (او على حد تعبيره الذي قلد فيه تعابير الفلاسفة الاقدمين « مقولة ») •

فما هي الانواع الثلاثة التي تقسم المقولات الاربع ؟

١ ـ الكمية :

ألف ـ كلية • (كل شخص يموت)

باء ـ جزئية (بعض الناس اغنياء)

جيم ـ شخصية (علي عالم)

٢ ـ الكيفية :

الف ـ ايجابية (جعفر يذهب)

باء ـ سلبية (لا يذهب جعفر)

جيم ـ معدولة (جعفر لا يذهب)

٣ ــ والنسبة :

الف ــ حملية ــ تقتضي حمل حكم على موضوع آخر (أمام عادل)٠

باء ــ شرطية ــ تقتضي ربط موضوع بموضوع (ان تاب العبد غفر له الرب) ٠

جيم ــ منفصلة ــ وتقتضي ربط ضد موضوع بموضوع اخر (الارض او الشمس مركز العالم) ٠

٤ ــ الجهة :

الف ــ احتمالية ــ تقتضي امكانية حمل الموضوع على الحكم (المريض قد يشفى) ٠

باء ــ حقيقية ٠٠ تقتضي ربط الموضوع بحكم (الانسان يموت) ٠

جيم ــ ضرورية ــ تقتضي وجود علاقة ضرورية بين الموضوع وحكمه (لا بد للكون من اله) ٠

ويتشابه كانت مع ارسطو في وضع المقولات والتي هي عبارة عن تعيين نوع علاقة التصور بقرينه ٠ وبالتالي الرباط الذي يوصل بين التصورات المختلفة ٠٠ ويهدف كانت من ذلك ذات الهدف الذي ابتغاه ارسطو وهو برمجة الفكر كما سبق ٠

والسؤال الذي حاول (كانت) الاجابة عليه بعد ذلك هو كيف تتكون الفكرة (أو المعرفة) ولماذا تستعين النفس بقالبي الزمكان او بالمقولات الاثني عشر ؟

يقول كانت : قبل معرفة اي شيء لا بد ان تعي الذات نفسه ويجد انه عالم في قبال معلوم محدد ٠٠ وبما ان النفس بحد ذاتها اول كل شيء ، وبما انها واحدة منفردة فانها لا تستطيع ان تجد شيئا الا اذا كان واحدا٠٠ ومن هنا يوحد الذهن بين التصورات المتناثرة التي تردها ٠٠ من كل جانب توحدها في قالبي الزمكان ثم في المقولات الماضية الذكر ٠

ويتسائل ــ كانت ــ عن الطريقة التي تبدع النفس بها مقولاتها

الاثني عشر • ويجد الجواب جاهزا اذ سبق عنده ان الزمان هو الشرط الاساسي لتصور اي شيء اذ النفس لا يمكنها تصور شيء بدون اضافة عنصر الوقت اليه •• (اذا التصور ذاته يقع في وقت محدد) وهذا الزمان بالذات هو السبب في ابداع النفس المقولات الاثني عشرة •

ولكن كيف ؟ ذلك لان تصور الزمان يجرنا الى قياس شيء بشيء •

ومعرفة الاول والثاني • ويكون هذا تصورا للعدد • ثم قد نتصور كل الازمنة المتوالية • فنهتدي الى مقولة الكلية • ثم قد نتصور الزمان بدون اي حادث فتأتي مقولة السلب او مع حادث فهي مقولة الايجاب وهكذا • يكون تصور الزمان •• سببا في ابداع المقولات •

ثم يمضي كانت ليحدد اكثر فاكثر مناهجه المنطقية منطلقا في ذلك من المقولات السابقة • فيقول ينبثق من مقولة الكم • وجود اجزاء لكل شيء يتصور وبالتالي عدم صحة •• فكرة الجزء الذي لا يتجزأ • ويأتي من مقولة الكيف وجود درجات قوة لكل شيء •• مبتدئة من الصفر • وبالرغم من وجود هذه الدرجات • فالقوة كل واحد اي ليست كل درجة نوعا مختلفا عن سابقتها وينشأ من مقولة الاضافة (او النسبة) ضرورة ربط الاشياء ببعضها بأحد الوجوه الثلاثة : الاستمرار التوالي المقارنة وكل واحد منها اساس دستور محدد في المنطق •

١ ـ الاستمرار ـ يعني ان ذات المتغير دائم لا يفنى بالرغم من تطور صفاته •

٢ ـ التوالي ـ يعني ارتباط الامور المتغيرة ببعضها ارتباط العلة بالمعلول • بحيث لا بد ان يأتي بعضها بعد بعض •

٣ ـ المقارنة •• تعني ان كل امرين قارنا في الزمان لا بد ان يؤثرا في بعضهما •

ان هذه هي الاسس التي تبنى عليها علوم الطبيعة الحديثة • ومن الجهة ـ المقولة الرابعة ـ ينشأ قواعد ثلاثة تعتبر اساس التجربة وهي :

١ ـ كل شيء يتوافق مع اصول الوجدان ، واسس المقولات السابقة فهو ممكن الوقوع •

٢ ـ كل شيء يتوافق مع الشروط المادية للتجربة (بحيث يسكن احساسه) فهو موجود وواقع •

٣ ـ وكل شيء وجوده موافق مع شروط التجربة المادية ، وعدمه مخالف لها •• فهو واجب الوجود ، وضروري التحقيق •

هذه خلاصة افكار كانت المنهجية والتي بالرغم من وجود عناصر ايجابية كثيرة فيها • فهي تنطوي على اخطاء فلسفية كبيرة •

اخطـاء كانت

١ ــ النظرية النسبية التي تعتبر اساس منهجه ، صحيحــة علميــا • اذا اردنا منها : ان العلم بكل الاشياء غير ممكن لنا وكذلــك العلم بكنه الاشياء •

ولكن اذا اردنا التشكيك في صحة علمنا بظواهر بعض الاشياء • فان ذات العلم ينفي هذا النوع من التشكيك اذ انه حين يكشف لنا عــن شيء يعطينا اطمئنانا بالغ الشدة به ، بحيث ينقطع التشكيك فيه •

٢ ــ من هنا كان خطأ ــ كانت ــ الكبير حين اعتبر الزمكــان من متصورات النفس البشرية ومن اضافاتها النهائية التي تضفيها على الاشياء لا لامر الا لتعرفهــا •• ذلــك ان الزمكان ، بدورهمــا ــ حقــائق يكشف عنهما العقل البشري •• ويثق بوجودهما في الخارج كما يثــق بوجود اي شيء آخر •• وما هو الفرق بينهما وبين مــواد التصورات وكيف جاز لكانت ان يعتقد ان تصور الحرارة من نتائج الخارج ولــكن تصور مكان وزمانها من نتائج الذهن •

هذا بالاضافة الى ان الذهن البشري يتصور الى جانب الزمكــان امورا اخرى كالشدة والضعف ، والنوع ، والكيف فالذهن يتصور مكان وزمان الحرارة ويتصور ايضا الفرق بين الحرارة والبرودة • وبين الحرارة الشديدة •• والضعيفة • وهكذا كل ذلك بسبب نور العقل • الوضاء •

صحيح ان التصور الزمكاني شرط اساسي للاحساس اذ الاحساس مشروط بالتنظيم ــ وهو مشروط بتصور الزمكان فهو ينبيء عن قــدرة

الذهن ، على الفهم قدرة قبلية .. ولكن ليس من الصحيح ان هذا التصور مجرد اضافة ذاتية يضيفها الذهن على الاشياء ، بل هو كشف قبلي يجده الذهن ويجد الاشياء به .

وهناك اعتراضان : وجها الى منطق كانت ، احدهما من زاوية علم (اجتماع المعرفة) والثاني من زاوية علم (نفس المعرفة) وبالرغم من عدم صحة هذين الاعتراضين بصفة تامة . فان فيهما قيمة اعتراضية نسبية .

١ ــ فلقد اثار ــ لهلم جيد ــ و ــ سالم ــ و ــ ماكس شيلي ــ كثيرا من الاعتراضات التي ارتكزت على تهافت المقولات التي وضعها كانت من حيث انها ليست الا قائمة لمقولات الفكر الاوربي التي تمخض عنها العصر الكانطي .

وذهب (ورنر ستارك) الى ان آفة كانت من وجهة نظر ــ ورنر ستارك ــ انه لم يكن واقعيا في نظرته الى المعرفة فقد احال المعرفة الى (تصورية تركيبية) ونظر الى العقل على انه (عقل خالص) والى الانسان ــ على انه كائن مجرد ــ بلا تاريخ .

على حين اننا لا نجد في زعم ــ ورنر ستارك ــ انسانا مجردا على الاطلاق كما يستحيل علينا ان نجد عقلا خالصا . فلا يوجد في الواقع الا الانسان المتحضر او التاريخي الذي نشاهده وندرسه من خلال احتكاكه بالاخرين والذي يتأثر عقله بمختلف المعايير الاجتماعية وتصاغ شخصيته في قالب ثقافي او في صورة اجتماعية .

٢ ــ لقد ثبت في الفيزياء الحديثة ان في وسعنا اكتساب معرفة خارج اطار المبادىء الكاتية وان الذهن البشري ليس قائمة منحصرة من المقولات يكدس العقل في داخلها كل التجارب بل ان مبادىء المعرفة تتغير بتغير مضمونها ويمكن تكييفها مع عالم اعقد بكثير من عالم ميكانيكا نيوتن ..

ومهما كانت فلسفة كانت ومنهجه ذات ملاحظات سلبية . فانها

كانت خطوة تقدمية • نحو برمجة الفكر البشري والكشف عن قواعده الداخلية • وعلاقاته الاستنباطية •

وقد جاء على اثر كانت بعض الفلاسفة الذين اتبعوه نوعا ما ويعتبر فيخته في طليعة اتباعه •

(فيخته)

بين عامي ١٧٦٢ — ١٨١٤ عاش فيخته وكان رومانطيقيا وحدويا ومعقد الفلسفة •

والذي يتميز به من فلسفة في المنطق •

انه اعتبر التنبه الى الذات بداية كل معرفة ، وذلك يمكن عنده ضمن سلسلة متدرجة من التنبهات •• اونى حلقاتها تنبه الذات الى الذات ••

الحلقة الثانية تنبه الذات الى نقيض الذات او « مقابله » •

ثم الحلقة الاخيرة ، جمع الذات الى ما يقابله « او بالاحرى •• ملاحظة علاقتهما ببعضهما » •

وفي شرح هذه النظرية اضطر فيخته الى التمسك بافكار مثالية •• ابرزها وحدة العلم والمعلوم •• وذلك حيث قال :

(ان ما يحدد الذات ليس سوى الذات نفسه) •

ويتساءل •• لماذا لا يمكن معرفة النفس بدون مقابلتها مع اشياء اخرى ؟

قال : لان النفس كالماء لا ترى الا من خلال ظرف معين وتحديد النفس بالمقابلة يعتبر كالظرف الذي يحدد الماء • فيجعل رؤيته ممكنة •

فمجمل نظرية فيخته في منهج المعرفة ، ان حقيقة المعرفة هي استيقاظ الذات على نفسه ، وبسبب ان هذا الاستيقاظ لا يتم بغير تحديد النفس بالاشياء تحصل المقارنة ثم تحصل المعرفة بالاشياء من خلال هذه المقارنة •

وبالرغم مما في فلسفة فيخته من مثالية واضحة ، فان فيها عنصر موجب هو التالي :

ان النفس البشرية هي الوسيلة التي ندرك بها الاشياء ولكنها لا تستطيع ان تر شيئا .. بدون تنورها هي . او بالاحرى توعيتها على ذاتها . ويقضتها لامكاناتها الكامنة .. ويتم ذلك بمقارنة داخلية تتم بين النفس والخارج .

وبما ان النفس لا يمكن ان تكتشف حقيقة ما دون ان تعتمد على مقائيسها المفطورة عليها . ولكن من جهة اخرى لا يمكن ان تعتمد النفس على هذه المقائيس . دون الايمان بها والثقة بامكانية استثمارها في سبيل التعرف على الاشياء . وهذا الايمان ، يأتي نتيجة وعي الذات لما فيه من امكانات . وثقته بالتالي بقدرة هذه الامكانات على تحقيق التطلعات .

اذاً وعي الذات بداية كل معرفة وفائدة الجدل .. ناشئة من قدرته على تنبه الفكر بذاته .. هذا بالاضافة الى ان المقارنة التي تتم في الجدل تبين مراحل التفكير الثلاثة .. مرحلة الرؤية المبسطة ، حيث يبصر الانسان ، جانبا واحداً وجامداً من الاشياء .

ثم مرحلة الرؤية المركبة .. حيث يكشف الانسان وجود جوانب جديدة للاشياء يعتقد بأنها متناقضة كليا لرؤيته الاولية . ثم مرحلة الرؤية المحللة ، حيث تتم المعرفة الناضجة نسبيا ، وفيها نعرف امكانية جمع الرؤية الاولى مع الرؤية الثانية اذ ان كلا منهما كان من زاوية مختلفة ومثال ذلك رجل يرى عمودا احمر .. فيزعم ان الحمرة هي لون العمود بكل جوانبه .. ولكنه ما ان يدور حول العمود يرى ان لون سائر جوانبه أبيض .

وهنا ينشأ عنده تناقض بادىء الرأي ويقول :

كيف صار العمود كله أحمر وكله أبيض ولكنه ينتبه فجأة الى امكانية الجمع بالقول ان جانبا من العمود أحمر وجانبا أبيض .

وهكذا تميز الفكر البشري بأدوار ثلاثة :

١ ـ دور التفكير الحاد الايجابي .
٢ ـ دور التفكير الحاد السلبي .
٣ ـ دور التفكير اللين المحلل . وهو بالضبط دور المعرفة .

والجدل .. احدى الوسائل التي تنقلنا من دور لآخر ان استطعنا استخدامه ببراعة .

وقد رفض من جاء بعد فيخته الاسس المثالية التي بنى فلسفته عليها .. بينما قبلوا بعض آرائه في المنهج ومن أولئك شبلنك .

« شبلنك »

كان يعيش بين عامي ١٧٧٥ ـ ١٨٥٤ وكان يعتبر من اتباع فيخته وأيضا من اتباع كانت ، وكان قد تمسك منها بفكرة واحدة هي :

ان معرفة الاشياء رهين معرفة الذات .. فبداية كل علم هو علم الانسان بنفسه .. لانه يكشف لنا .. كيف نقارن بينها وبين سائر الاشياء .

ولكن الذي تابع هذه الافكار الى نهايتها وترجمها الى مناهج عملية .. كان هيجل .

نظريـة هيجـل

في المانيـا كان يعيش بين سنتي ١٧٧٠ ـ ١٨٣١ م حـاول جمـع الفلسفات القديمة الى بعضها .. حتى يكاد يرى في فلسفته من كل نظرية تاريخية أثراً مبينا .

وابتدأت محاولته التوفيقية من الفهم والعقل ، فالفهم الذي اعتبره كانت نهاية المعرفة . ليس سوى بدايتها . والعقل او التعقل هي المرحلـة الثانية . والفهم يعتمد على ثلاثة قواعد عند هيجل :

١ ـ قاعدة الهوية .

٢ ـ قاعدة التناقض .

٣ ـ قاعدة الثالث المرفوع .

بينما التعقل يتجاوز هذه القواعد الثلاثة ولا يتحدد بموجباتهـا ، اذ ان التعقل بوتقة تسع كل القواعد السابقة .

واستطاع هيجل بعد جهد فلسفي التوصل الى ما زعم انه المرحلـة الثانية للفهم . وهو التعقل . وقال انه يتم بعد تعقـل النفس لذاتهـا ثم تعقل ما يقابلها ثم الجمع بينهما ، وكل شيء يدور في هذا المحور اعرفـه وأعرف ما يقابله ثم أعرف النسبة بينه وبين ما يقابله ، فمعرفة الضوء غير ممكنة دون معرفة الظلمة ، من جهة ومعرفة العلاقـة الموجودة بين الضوء وبين الظلام من جهة ثانية .

او بالاحرى معرفة الحـد بين الشيء وبين ما يقابلـه ـ ونوعيـة النسبة بينهما .

فلا بد للمعرفة من توفيق المتقـابلين وجمعهما ليس لمعرفة وجـود التقابل بينهما .. كما كان هدف فلسفـة ارسطو بل لمعرفة كنه كل واحد منهما . وان اي شيء هو في الواقـع خليط منه ومن مقابلـه ومناقضه ، لان ما يقابله ويناقضه هو حده ، واطاره ، وبالتالي طريق لفهمه .

والتطبيـق المعـروف عن هيجـل في هذا الشأن ، هو في قضيـة « الوجود » ، التي هي أهم القضايـا وأبسطها .. وهي بالتالي بدايـة المسير في موكب الفلسفة عند هيجل ، الذي قال فيها : « لا يمكن تصور العدم المطلق ولا الوجود المطلق الا انهما لدى التوفيق بينهما ينتج منهمـا وجود نسبي وعدم نسبي وهو الحق » .

اذ ان الوجود المطلق كذب ، كما ان العدم المطلق ادعـاء كذب .. وانما الصحيح وجود نسبي وعدم نسبي . او كما تصور هيجل الجمـع بينهما ، وهو بالتالي جمع بين متناقضين .

ولا يعني هيجل بالجمع ما يرفضه منطـق أرسطو « او بالاحـرى الصحيح من منطق ارسطو » .

ذلك لأن ارسطو رفض الجمع بين الوجود والعدم في بؤرة واحدة من كل النواحي ، وهذا مستحيل عقلا .. وقد سبق وان جعله هيجـل مستحيلا .. ولكن يعني بالجمع هنا ، معناه المطلـق الشامل للتحقق في مكان ما وزمان ما . تماما كما مثل لذلك الوجود المطلق والعدم المطلق . وفي تحققهما خارجا . وانما اعتقد بتحقق الوجود في ظرف والعـدم في ظرف آخر .

ويبني هيجل منطقه على فلسفته ، والتي في الواقع هي منطقه .

واذا لم يخلف هيجل منهجا للبحث بالصيغـة المعروفة فقـد خلف آراء فيها . والتي منها :

١ ـ ان الاشياء لا بد ان تعاد الى أصولها البسيطة . والتي بالرغم

من عدم أهمية معرفتها لانها بسيطة ومعروفة « وسهلة التناول » بالرغم من ذلك فهي هامة ، لانها أساس كل معرفة .

٢ ـ ولا بد ان نضع كل شيء بازاء مناقضه ومقابله .

٣ ـ ثم نلاحظ النسبة بينهما بالجمع بينهما او بالاحرى بمحاولة معرفة الشيء بنقيضه .

وبالتالي ، توجد في منطق هيجل ، فكرة موجبة يمكننا التركيزعليها والاستفادة منها . وهي :

ان غور العقل يختلف عن ظاهر الفهم ، اذ الفهم هو المكلف بتبسيط الحقائق وترتيبها ووضع الحدود النهائية والابدية لها .

بينما العقل مكلف بكشف الاشياء والوصول الى عمقها البعيد . والعلاقة بين الفهم والعقل كالعلاقة بين السكرتير والرئيس .

فالاول مسئول عن تنظيم وترتيب المواد التي يجب على الرئيس اعطاء الرأي الحاسم فيها .

والفكر اذا جمد على الفهم ابتلي بما ابتلى به منطقأرسطو وتابعوه. واذا تجاوزه بلغ ما بلغه . العلم الحديث .

والسؤال : ما هو غور العلم الذي يتجاوز ظاهر الفهم ؟

والجواب .. انه معرفة العلاقة الايجابية بين الاشياء .. اي معرفة مدى تفاعل الاشياء مع بعضها . وهذا يمكن عند هيجل بالطباق . وهو عملية التوفيق بين الشيء ومقابله .

فهذه العملية ليست غاية في ذاتها انما هي وسيلة لمعرفة النسبة بين الاشياء ولكن لا يظن اننا نعود الى منطق ارسطو حينما نركز على ضرورة فهم النسبة بين الاشياء والصلة التي تربطهما ببعضها .

لأن أرسطو ، كان يريد فصل الاشياء عن بعضها وبالتالي فهم العلاقة السلبية بينها .

بينما نحن نحاول معرفة الصلة الايجابية بينها وبالتالي معرفة مدى التفاعل الموجود بين أجزائه .

والمنهج الحديث بعد هيجل اخترع سبلا أخرى لمعرفة التفاعل منها معرفة الشدة والضعف ، والتي تعيد الحقائق الى مصدر واحد .

يقول الدكتور زكي نجيب محمود بهذا الشأن :

« قد كان العلم القديم قائما على اساس الصفات الكيفية لا على اساس المقادير الكمية مثال ذلك ، ان يقال عن العالم انه مكون من العناصر الكيفية الاربعة : التراب والهواء والنار والماء . وهذه تتألف من تركيبات من الاضداد الآتية : رطب ويابس .. بارد وحار .. ثقيل وخفيف .

فلم يك يعنيهم بل لم يك يطوف ببالهم ان هذه الاضداد انما هي أضداد من ناحية الكيف فقط .. واما اذا أردنا أن نحددها بدرجاتها الكمية فعندئذ لا يكون البارد مضادا للحار بل يصبح هذان درجات متفاوتة من ظاهرة واحدة .

والذي يعني به هذا العلم هو درجة حرارية مقدارها كذا .. فالمهم هو التفاوت الدرجي .

ثم يضيف الدكتور قائلا : « وتفرع عن الاختلاف السابق اختلاف آخر بين العلم اليوناني والعلم الحديث . فاذا كانت الطبيعة عند اليونان مؤلفة من كيفيات تختلف بعضها عن بعض . فليس الحار هو البارد وليس الثقيل هو الخفيف وليس الرطب هو اليابس وهكذا .

اذن فالطبيعة قوامها أنواع متباينة لا يمتزج بعضها ببعض كأنما أقيمت بينها الحواجز التي لا تدع نوعا منها ينساب في نوع آخر وصميم المعرفة بناء على ذلك أن نلم بهذه الانواع عن طريق تعريفاتها التي تحددها تحديدا فاصلا حاسما وأما العلم الحديث فأساسه على النقيض من ذلك.

اذ انه يحطم هذه الحواجز بين الانواع المزعومة ليجد ما بينها من

تجانس مردها جميعا الى أساس واحد هو المادة والحركة او هو ما شئت غير ذلك من أسس تتألف من مدركات كمية وبهذا يرتد العالم الى تجانس في الكيف واختلاف في الكم وحده » • (مقدمة ــ على « المنطق نظرية البحث » ص ١٩ ــ ٢١) •

هذه هي العناصر الايجابية التي نستطيع استفادتها من فلسفة هيجل ، ولكن تطورت هذه العناصر الى خرافات حينما اتخذت سلاحا سياسيا ، هاجم به الماركسيون الفكر الديني والخلقي •

لقد أراد هيجل أن يكون منطقه بداية عصر علمي زاهر فأصبح لدى الماركسية نهاية هذا العصر •

لقد قال هيجل ذاته : « ان كل فلسفة كانت ولا زالت ضرورية ومن ثم فلم تمح فلسفة منها ولكنها كلها محتواة بشكل ايجابي كعناصر •

لكننا يجب ان ننظر الى المبدأ الخاص لهذه الفلسفات كشيء خاص• ويحقق هذا المبدأ خلال البوصلة الكلية للعالم •

وأشد الفلسفات حداثة انما هي نتيجة كل الفلسفات السابقة • ومن ثم فلا توجد فلسفة تم دحضها •

اذ ان ما تم دحضه ليس مبدأ هذه الفلسفة بل مجرد ان هذا المبدأ يجب اعتباره نهائيا ومطلقا بالطبع » •

فانما اراد هيجل من وراء فلسفته احتواء العناصر الايجابية الموجودة في كل فلسفة تم صياغتها بشكل لا يتعارض مع بعضها •

هذا كان العامل النفسي من وراء نظرية الجدل ••بينما استخدمت هذه النظرية بالضبط فيما يناقض هذا المبدأ •• فأصبحت من اسباب العنف الفكري •

القسم الأول ـ عن تطور البحث المنطقي

البحث الثالث عن :

اتجاهات المنطق الحديث

كلمة البدء
المنطق القياسي
المنطق التجريبي
المنطق الاجتماعي ٠

كلمة البدء

في القرن العشرين توضحت اتجاهات المنطق المختلفة .. وأخذ العلم الحديث .. يستثمر كل هذه الاتجاهات .. في تطوير البحوث وتعميقها .. وقبل أن نلقي نظرة اجمالية على هذه الاتجاهات يجدر بنا أن نعيد تاريخ المنطق والاهداف العلمية التي حاول الفلاسفة تحقيقها من وراء المنطق .

اسئلة تبحث عن جواب

من أين تأتي المعرفة .. وكيف تتطور داخل القلب ومن أين يأتي الخطأ وكيف يمكن التحامي عنه .. هذه ثلاثة أسئلة رئيسية تبحث الفلسفة عن أجوبة لها في المنطق ..

ومن الطبيعي أن يكون السؤالين الآخرين مندمجين مع بعضهما . وقد سبق في بحوثنا السابقة .. كيف اختلفت الفلسفات في الاجابة على هذه الاسئلة .. واني أوجزها فيما يلي :

عن السؤال الاول

فعن أول الاسئلة الذي قد يعبر عنهُ بـ « البحث عن مصادر المعرفة » أجابت مدارس ..

الف ــ المدرسة المثالية ــ قالت ان مصدر كل معرفة ذات النفس ..

والوهم الذي تنطوي عليه وتدعى بمذهب بيرون والسوفسطائيين • وقد تسمى بمذهب « أصالة التصور » ••

وقد عبّر عن هذه المدرسة زعيم السوفسطائيين اليوناني « بروتاجوراس » الانسان مقياس الاشياء جميعا تلك التي توجد على انها موجودة وتلك التي لا توجد على انها غير موجودة •

واتبع هذه المدرسة كثيرون •• وظهرت آثارها في المدرسة المشككة ••

باء ــ مدرسة الشك •• قالت •• دعنا لا نعتقد بأصالة الذات •• وأصالة التوهم في المعرفة ولكننا لا ريب نستطيع الشك في صحة معارفنا بسبب أدلة أولئك الناس الذين يقولون بأصالة التوهم •• وكان ابرز هؤلاء الشكاكين في القرون الاخيرة « هيوم » ••

وعادت مدرسة الشك تنشط بعد ظهور الفيزياء الذرية •• التي أطاحت ببناء الفيزياء القديمة •

وكانت مدرسة الشك عاملا قويا •• لظهور مدرسة النسبية •

جيم ــ المدرسة النسبية قالت : ان المعرفة هي الحقائق الخارجية•• ولكن ممزوجة ببعض الاضافات الذاتية •• وقد أيد هذه المدرسة كانت تأييداً قويا •• ولكنها تطورت من بعده •• حتى خرجت من حقل الفلسفة الى حقل العلم •• وأخذت النسبية اليوم ــ حسبما سيأتي الحديث عنه ــ يعني عدم اكتمال العلم •• وعدم اطلاق مفاهيمه •

دال ــ مدرسة الحس •• قالت : ان المعرفة حصيلة الاحساس بالاشياء الخارجية •• بصورة ساذجة او مركبة • وقد أيدت هذه المدرسة بنظريات لوك • وتلقى اليوم رواجا عظيما عند الفلاسفة المحدثين •

هاء ــ المدرسة العقلية • وقالت : ان مصدر المعرفة هو العقل • والحس معا •

والقارىء الذي تابع تاريخ الفلسفة ــ معنا ــ يعرف ان الالفاظ المستخدمة هنا لا تعني كلها معنى واحدا عند جميع الفلاسفة •• وانما أردنا بذلك اعطاء فكرة عامة عن جواب السؤال الاول •• من أين تأتي المعرفة •• وقد اختلفت الاجابة عن هذا السؤال بما لا نظير له في سائر بحوث الفلسفة لانه بداية كل مدرسة فلسفية •• ومنطلقها الاول •

عن السؤال الثاني

واجابت عن السؤال الثاني عدة مدارس •• وكلها تتصور المشكلة من زاويتها الخاصة ولكن يمكننا جمعها مع بعضها على مائدة الهدف المشترك الذي استهدفته جميع المدارس • وهو :

البحث عن كيفية تصرف العقل البشري بما يزوده بها مصادر المعرفة المختلفة • من حس وعقل وتوهم و •• و •• او بالاحرى البحث عن طبيعة الاستدلال ، او حسب تعبير بعضهم عن قوانين الفكر الداخلية التي تتحكم في معارفنا •

ولهذا البحث وجهان •• فطرف منه ينتمي الى الفلسفة حيث يهدف تعيين الوسيلة التي يستعين بها الذهن لكشف الحقائق • بينما الطرف الآخر ينتمي الى منهج البحث حيث يعين الوسيلة التي ينبغي ان يستعين به الفرد لتركيب القضايا وكشف الحقائق بها ، والوجه الاول •• يبحث عن الواقع الموجود •• فعلا بينما الوجه الثاني يبحث عن الواقع الذي ينبغي ان يوجد •• ومن الطبيعي ان يكون الوجه التالي هو موضوع الجواب عن السؤال الثالث •

وأجابت عدة مدارس عن كيفية التعقل و « التفكير » فقال ديكارت •• ان العقل يتبع ذات القوانين التي تعكسها الرياضيات • من تحليل وتركيب •• بينما حاول كانت ربط العمليات العقلية بقوالب

فكرية • زعم انها هي التي تصعد التصورات الجزئيـة • وتصنع منهـا حقائق عامة •

وقال « لوك » بالمراحل الاربع التي يتدرج عبر الفكر حتى يصل الـى الحقائق مرحلـة الادراك فالحفظ والتمييز ثم التقييـم • وزعـم ـ هيجل ـ وفيخته •• وآخرون ان الطريقـة التعقليـة •• تتلخص في الجدل •• الذي ينتقل من الشيء الى ما يقابله ثم جمعهما مع بعضهما [١]

عن السؤال الثالث

والذي يختلف الفلاسفة في أسلوب طرحه •• جاءت عـدة اجابات مختلفة وهي تلخص نهاية المسيرة الطويلة للمنطق والتي نجدها حتى اليوم تحاول ليس فقط البحث عن مصادر الخطأ بل وأيضا وضع مناهج عملية لدرئها • وليست الاجـابات حتى الآن مكتملة • انما هي متطـورة الى الكمال •• جنبا الى جنب مع تطور العلم الحديث وأيضا بحوث الفلاسفة البدائية وهي تتنوع •• الى اجابات نشرحها بايجـاز ونبين باذن اللـه أصول افكارها حول طريقة تجنب الخطأ •

والمدارس المنطقية الرئيسية التي تكفلت بالاجابة عن هذا السؤال ثلاثة :

المنطق الاستنباطي والمنطق التجريبي والمنطق الاجتماعي • بالرغـم من وجود أنواع أخرى للمنطـق • كالمنطق الجـدلي • والوضعـي • والبرجماني • الا ان هذه الثلاثة أشبه شيء بآراء فلسفية ، منها بمناهج البحث •

لذلك نؤخرها في استعراضنا الآن •

---

(١) راجع للمزيد من البحث المؤلف في كتابه الفكر الاسلامي مواجهـة حضارية وراجع هانز ريشنباخ في كتابه نشأة الفلسفة العلميـة ص ١٥٨ .

المنطـق الاستنباطـي

جوهر هذا المنطق ان خطأ الانسان ناشىء من بلبلة العمليات الفكرية التي يجريها ، فاذا انتظمت انتهت أخطاؤه .

ولكن كيف تنظم العملية الفكرية ؟.

لا بد أن نضع قواعد للاستنباط تسير وفقها العملية الفكرية وتنتهي أخطائها .

هذا جوهر منطق الاستنباط أما الصورة التي أوضحت هذا الجوهر والتي تطورت من عصر لعصر ، فانها لا تعرف الا بتفصيل عدة نقاط :

ما هو الاستنباط ؟

الاستنباط توضيح للعلاقة القـائمة .. بين صحة فكرة وأخرى . فالعلاقة الموجودة بين موت كل الناس ، وموت محمد (ص) التي يكشفها الاستنباط التالي :

كل الناس يموتون ــ ومحمد من الناس ــ فهو أيضا يموت .

وبطبيعة الكلمة « الاستنباط » فهي دالـة على ان النتيجـة كانت موجودة سلفا في المقدمة . وانما وضحها الاستنباط . فكما ان الماء لا بد أن يكون موجودا في البئر قبل أن نستنبطه « أي نخرجه » كذلك المعرفة (بالنتيجة) ليست سوى صورة أخرى لمعرفتنـا بالمقدمة لا غيرهـا ولا أكبر منها .

ويفترق الاستنبـاط في هذه الناحية عن الاستقراء فانه لا يعطينـا ــ عادة ــ معرفة جديدة لم تكن لنا قبل .

فمثلا القضية التالية :

هذه النار حارة ومحرقة • تلك النار حارة ومحرقة ، النار التي كانت امس كانت أيضا حارة ومحرقة •• اذاً كل نار حارة ومحرقة ان هذه الصورة الاستدلال تفترق عن الصورة الاولى في انها انطوت على زيادة في المعارف •• هي التي قالت لنا ان كل نار حارة ومحرقة • لذلك نستطيع في الطريقة الاستقرائية التنبؤ بالمستقبل بالقول مثلا في القضية السابقة •• اذاً النار التي سوف توجد في المستقبل حارة ومحرقة • دون أن نستطيع مثل ذلك في الطريقة الاستنباطية •

وحتى في القياسات المستخدمة في الرياضيات ليست النتيجة • أعم من المقدمة • حسبما زعم بعض الناقدين وقال : ان الرياضة ـ وهي تفكير قياسي استنباطي بمعنى الكلمة ـ تنتقل من الحالات الخاصة الى حالات أشد منها عموما •

ذلك لان قياس الرياضيات نابع من طبيعتها • هي : والتي لا تعدو أن تكون طبيعة مجردة وكلية فمثلا هذا المثلث حاد الزوايا وهي تساوي كـذا •

فكل مثلث حاد الزوايا كذا ••

حتى هذا المثل الذي يبدو انتقالا من الجزئي الى الكلي •• ليس سوى انتقال من الكلي الى مثله •• اذ قولنا في البداية هذا المثلث ليس جزئيا ما دام في الرياضيات •• لان المراد من هذا ليس طبيعة المثلث وما فيه من مواد كيماوية بل المراد منه مجرد شكله والشكل عام لا خاص •

وقد لخص « كلود برناد » فكرته عن العلاقة بين القياس والاستقراء في ان للاستدلال صورتين احداهما خاصة بالبحث وهي الاستدلال الاستقرائي والاخرى خاصة بالبرهنة وهي الاستدلال الاستنباطي وان هاتين الصورتين تستخدمان في كل العلوم سواء كانت علوما رياضية ام تجريبية • لان هناك استيفاء يجهلها الانسان فيضطر الى استخدام الاستقراء في الكشف عنها وأشياء يعتقد انه يعلمها فيستعين بالقياس

في عرضها على طريقة البرهان . ثم يقول : ان طريقة التفكير واحدة لدى كل من عالم الرياضة .. وعالم التاريخ الطبيعي .. فليس ثمة فارق بينهما عندما يتناولان الاهتداء الى المبادىء التي يستخدمها كل منهما في الاستدلال .

اذاً الاستدلال القياسي لا بد منه حتى ولو اتجهنا ناحية الاستقراء.. وذلك لان الاستقراء آنئذ يكون من المحتويات التي يصوغها القياس ليستنبط منها معلومات أخرى .

ويعود السبب في الهجوم على القياس من قبل قسم كبير من الفلاسفة الى أولئك الذين تبنوا فكرة القياس ، وأشادوا بها .. لا الى القياس ذاته ذلك لانهم استغنوا بالقالب عن المضمون واكتفوا ببعض أقسام القياس وزعموا بأن نتائجها عامة وجازمة ومطلقة مما أثار سخط العلماء جميعا . نعم هاجم ديكارت القياس ، ولكنه عاد وأكده في صورة جديدة .

وقد واكب الاستدلال الاستنباطي التقدم العلمي وكانت له مراحل أربع :

١ ــ المرحلة الاولى : ابتدأ باقتباس أرسطو بعض المبادىء الرياضية في المنطق وظهر على شكل منطق الفئات وهو المنطق الذي يبين كيفية سحب علم الفئة الى أفرادها . فيكون سقراط من فئة الناس ، له حكم الناس ، فاذا الانسان فان (وبما ان سقراط انسان فان سقراط فان) . وقد سبق موضوع مستقل حول منطق أرسطو وما له وما عليه.

٢ ــ المرحلة الثانية : وبعد آلاف السنين ظهرت عدة تطورات في المنطق الارسطي على يد الفلاسفة المسلمين . ولكن طمست معالمها مع الزمن .. ثم ظهرت على شكل منطق العلاقات الذي تجاهله المنطق الارسطي بالرغم من قرب صلته به ، وهو المنطق الذي يحدد الرابطة

الثابتة بين حقيقة وأخرى •• بالرغم من انها ليست من نوع رابطة الفئة بأفرادها •

فمثلا : اذا كان ابراهيم أبا اسحق فان علاقة الابوة لا يمكن التعبير عنها في الصورة الاستدلالية التي اقترحها منطق أرسطو انما هي بحاجة الى صور أخرى •

هكذا •• اذا كان ابراهيم أبا لاسحق كان اسحق ابنا لابراهيم •

وقد تطور منطق العلاقات منذ اقترح ديكارت بسحب منهج الرياضيات الى العلوم • وزعم بأنه ذلك المنهج السليم الذي يبلغ بالعقل الى جميع العلوم •• ويتميز المنطق الحديث بأنه حقق تطوره من ميدان الرياضيات • وليس من داخل الفلسفة نفسه •

٣ ـ المرحلة الثالثة : بدأ المنطق الاستنباطي يتطور الى منطق رمزي وأول من اقترح ذلك بوضوح كان الرياضي الذي اهتم بالمنطق وهو ليبينتس •• حسبما سبق الحديث عنه وقد كانت النتائج ثورية ولكن الاجراءات العلمية لم تساعد تطور المنطق الرمزي الا بعده بقرن ونصف أي في القرن التاسع عشر •

ولو نظرنا الى هذا القرن في تاريخ الفكر بدى هذا التطور طبيعيا اذ في هذا القرن طبق على مجال المنطق ما طبق على غيره من حقول المعرفة من البحث عن صيغة قابلة للتطبيق العملي وهي الصيغة التي أحرزت نجاحا كبيرا في كل العلوم وذلك بدوره جاء نتيجة طبيعية لتعقد التفكير العلمي وازدياد دقته [1] •

وأهمية اكتشاف المنطق الرمزي ، نابعة من قدرته على تطوير جوهر المنطق الصوري • بالرغم من انه اتجه ناحية اسلوب البيان فيه وذلك لان جوهر المنطق الصوري لا يعدو البحث عن لغة سليمة للتفكير تسهل

---

(١) نشأة الفلسفة العلمية ـ ١٩٣ •

عملية الاستنباط وادخال الرموز الى هذا المجال .. ولقد سهل المنطق الرمزي هذه العملية . اذ ان تشابك عدة حقائق مع بعضها يجعل من الصعب جدا استنباط الفكرة منها اذا أردنا التعبير عنها باللغة المعتادة بيد انه لو بدلنا هذه اللغة الى رموز استطعنا بسهولة معرفة ارتباطات هذه الرموز . وبسهولة تمكنا من تطبيقها على الواقع الخارجي . تماما كالحساب الذي يصعب علينا فهمه لو اردنا التعبير عن ذات الاشياء. بينما حين نجردها الى ارقام يسهل ذلك .

من هنا ليس التدوين الرمزي اداة لحل المشكلات فحسب بل انه أيضا يفصح المعاني ويزيد من القدرة على ممارسة التفكير المنطقي (٢) .

ولقد اتاح بناء المنطق الرمزي البحث في العلاقات بين المنطق والرياضةمن زاوية جديدة . هي زاوية توحيد العلمين مع بعضهما .

فلماذا يوجد لدينا علمان يبحثان واقعا واحدا هو نواتج الفكر المجرد . من هنا قام برتراندرسل والفرد نورث وايتهد بدراسة هذه المشكلة وخرجا بنتيجة هامة . ان الرياضيات والمنطق هما بالتالي علم واحد . وان الرياضة ليست سوى فرع من فروع المنطق . وجهت فيه عناية خاصة للتطبيقات الكمية . بينما سائر الفروع لم تتلق هذه العناية .. قديما (٢) .

ولكن بما ان العلوم الحديثة تتجه اليوم الى الجانب الكمي . تاركة الجانب الكيفي للبحوث القديمة . فان منهج البحث فيها يتجه هو الاخر الى المنهج الكمي الذي هو من خصائص منهج الرياضيات . وبالتالي يكون منهج الرياضيات شاملة للمنطق .

٤ ـ المرحلة الرابعة : وبالتالي نجحت الفكرة القائلة بضرورة تحويل المنطق الصوري الى منطق رياضي بعد ادخال مبادىء المنطق في الرياضيات .

---

(١) ذات المصدر ، ص ١٩٤ .

(٢) ذات المصدر ، ص ١٩٥ .

يقول « كاروتشيد » انني سأستخدم المنطق الرياضي لكي اعبر به بمجموعة المبادىء الخاصة ، بالبينة العقلية المتعلقة بالنظريات الرياضية (١) .

ويقول « هيلبرت واكرمان » ان المنطق الرياضي ويسمى كذلك بالمنطق الرمزي امتداد للمناهج الصورية الخاصة بالرياضيات الى مجال المنطق (٢) .

من هنا نعرف ان المنطق الرمزي هو بالذات المنطق الرياضي اللهم الا في الفرع الذي يهتم به المنطق الرياضي . وهو الرياضيات ولا يهتم به بالخصوص المنطق الرمزي .

المنهج التجريبي

الفرق الكبير بين المنهج التجريبي والمنهج الاستنباطي ، يكمن في ان المنهج التجريبي ، يسعى من اجل بلوغ المزيد من المعرفة من خلال تنظيم الملاحظة ، وتنسيق المعارف الجزئية الناشئة منها .

والمنهج التجريبي مر بمراحل عديدة . حتى صار بوضعه الحالي .

ولا ريب ان مخاض المنهج التجريبي كان عسيرا ، اذ استمر يحاول الظهور ، منذ عهد سقراط بل ومن قبله . اذ ان فلسفة اليونان « كثيراً ما كانت تشمل اجزاء نعدها اليوم ، منتمية الى مجال العلم التجريبي ، كالنظريات الخاصة ، بأصل الكون ، او بطبيعة المادة ، ومن هذا القبيل مذاهب التجريبيين اليونانيين ، التي نجدها في الفترة السابقة ، على سقراط ، وكذلك في الفترة المتأخرة للفلسفة اليونانية » ..

« ولقد كان ابرز هؤلاء الفلاسفة هو « ديمقرايطس Democritus » وهو معاصر لسقراط ، يعد اول من طرأت

---

(١) و (٢) المصدر نفسه .

بذهنه ، الفكرة القائلة ، ان الطبيعة ، تتألف من ذرات ، ومن هنـا كان يحتل مكانه في تاريخ العلم ، فضلا عن تاريخ الفلسفة .. [1] « ويمكن ان يعد الشكاك من بين الفلاسفة اليونانيين الذين كانوا يعتقدون : ان المعرفة، لا بد ان تكون يقينية على نحو مطلق ، وقـد ادرك كارينـادس (Carneddcs) في القرن التاسع ق.م : ان الاستنباط ، لا يمكنـه تقديم مثل هذه المعرفة ، لانه لا يقتصر على استخلاص نتائج من مقدمات معطاة ، ولا يستطيع اثبات صحة المقدمات ، كما ادرك انـه لا ضرورة للمعرفة المطلقة ، من اجل توجيه الانسان ، في حياته اليومية ! والواقـع ان كاردنياس بدفاعه عن الرأي الشائع ، وعن الاحتمال ، قد أرسى دعائم الموقـف التجريبـي فـي بيئة عقليـة [2] . كـان اليقين الرياضي ، يعـد فيهـا الصورة الوحيـدة المقبولـة للمعرفـة !. وقد استمـر الاتجاه ، الى التجربـة ، عن طريـق الشك فـي المعلومات العقليـة ، المجردة ، في القرون التالية . وكلما كانت تقوم حضارة ترتفع اسهم الحركة التجريبية ولكن ظل الاتجاه العام ، في الفكر هو الاتجاه العقلي ، امـا التجربة ، فقد كانت من خصائص اصحاب الحرف ، والصناعات ، وفـي بعض الاوقات ، الاطباء ، وقد كان سكتس امبيريكوس (Scxtus Erampiricus) في حوالي العام ١٥٠ ميـلادي كان رائدا لمـدرسة الاطباء التجريبيين . مع انه كان شكاكا .

وحين انبثقت الحضارة الاسلامية ، وجائت معه بروح علمية جديدة، واستخدمت العلم اداة لتطوير الحياة ، فنشطت الحركة التجريبية ، وظهر في علماء المسلمين ، كثيرون اعتمدوا التجربة ، منهجا اساسيا في المعرفة ، وابرزهم كان جابر بن حيان في القرن الثاني للهجرة [3] .

(١) نشأة الفلسفة العلمية ص ٧٦ ..
(٢) المصدر ص ٧٧ ...
(٣) راجع فصل المنطق الاسلامي من هذا الكتاب ..

كذلك كان الحسن بن الهيثم ، تجريبيا اشتهر في الغرب بمؤلفاته في حقل البصريات ، الا ان افول نجم المسلمين ، شهد ضعفا في حركة التجربة ، وانعطافا جديدا الى المناهج العقلية ، وفي الغرب شهدت الفترة هذه جمودا حضاريا ، انعكس ـ بالطبع ـ على المدرسة التجريبية ، حيث كانت الفلسفة في القرون الوسطى • (وهي اسم يطلق على هذه الفترة بالذات) كانت الفلسفة من اختصاص رجال اللاهوت ، الذين حصروا انفسهم ، على المنهج المدرسي ، واضفوا عليه طابعا دينيا وابعدوا المنهج التجريبي بالطبع عن واقع الحياة •

وفي بقعة الظلام المحيطة بالعصور الوسطى ، ظهر بصيص نور متمثلا في فلاسفة من امثال ، روجر بيكون ، الذي كان من الذين نقلوا روح التجربة العلمية ، من بلاد المسلمين الى الغرب •[1] • وبيتر اوريولي ووليم الاوكامي و •

وبظهور العلم الحديث ، في حوالي عام ١٦٠٠ ، بدأ المذهب التجريبي ، يتخذ شكل نظرية فلسفية ايجابية ، قائمة على اسس متينة ، يمكن ان تدخل في منافسة ناجحة مع المذهب العقلي[2] •

وقد سبق وان تحدثنا بأسهاب عن مذاهب فرانسيس بيكن (١٦٥٠ ـ ١٦٢٦) وجون لوك (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) •

وآخرين الذين اسهموا في بناء المنهج التجريبي الحديث •

ان ذلك كان جانبا واحدا فقط ، من جوانب المنهج التجريبي • وهو الجانب النظري منه فقط ، وهناك جانب آخر للمنهج التجريبي ، هو الجانب العملي منه ، وهو ذلك الجانب الذي يعتمد على (صنع ظاهرة)، من ظواهر الحياة ثم ملاحظتها ، ودراسة اسبابها ، وميزاتها ، وطرق التحكم فيها •

---

(١) راجع الفصل المتقدم .
(٢) نشأة الفلسفة العلمية ، ص ٧٨ .

ويفترق هذا الجانب عن ذاك في أمرين •

(١) ان صنع الظاهرة ، يخضع لشروط الباحث نفسه ، ويستطيع بذلك : ابعاد كافة الملابسات ، التي قد تشوش الرؤية ، وتعوق ، دون فهم حقيقة الظاهرة ، والعوامل الاساسية المؤثرة ، في ظهورها •

بينما ملاحظة ظاهرة طبيعية ، لا تخضع لشروط الباحث، وتتداخل فيها عوامل عديدة ، يصعب تمييز العامل الحاسم من بينها •

(٢) ان التجربة النظرية ، هي حصيلة العلوم النظرية ، التي لا تحتاج الى جهد اضافي ، بينما التجربة العملية ، هي من نوع القيام ، بعمل تغيير في الحياة ، ويحتاج الى جهد ، والى ايجاد شروط صعبة في الحياة،ولذلك استطاع العلماء ــ اليونان ــ اكتشاف اهمية المنهج التجريبي ، نظريا ، بينما لم يقدروا على اجراء ابسط التجارب العملية ، التي لو انهم جربوها اذا اكتشفوا حقائق كثيرة ••

فمثلا : « الفكرة القائلة : ان الشمس والارض ، والكواكب ، تتحرك حولنا لم تكن مجهولة لليونانيين ، فقد اقترح ارسطو • ص• الساموسي (Aristarchus of Samos) بصواب فكرة النظام المتمركز حول الشمس ، في حوالي عام ٢٠٠ ق•م ولكنه لم يتمكن من اقناع معاصريه بصواب رأيه ، ولم يكن في استطاعة الفلكيين اليونانيين ، ان يأخذوا برأي أرسطوفس ان علم الميكانيكا ، كان في ذلك الحين ، في حالة تأخر ، مثال ذلك ان (بطليموس) اعترض على أرسطوفس بالقول : ان الأرض ، ينبغي ان تكون ساكنة ، لانها لو لم تكن كذلك ، لما سقط الحجر ، الذي يقع على الارض ، في خط رأسي • ولظلت الطيور في الهواء ، متخلفة عن الارض المتحركة ، وهبطت الى جزء مختلف من سطح الارض ، ولم تجر تجربة اثبات خطأ حجة بطليموس ، الا في القرن السابع عشر ، فقد اجرى الاب « جاسندي » « Gassendi » وهو عالم وفيلسوف فرنسي ، كان معاصرا لديكارت ، وخصما له اجرى « تجربة

على سفينة متحركة ، فاسقط حجرا من قمة الصاري ورأى انه وصل الى اسفل الصاري تماما . ولو كانت ميكانيكا بطليموس صحيحة ، لوجب ان يتخلف الحجر عن حركة السفينة ، وان يصل الى سطح السفينة ـ عندما تقع ـ في اتجاه مؤخرتها .

وهكذا ايد جاسندي ، قانون جاليلو ، الذي كان اكتشف قبل ذلك بوقت قصير ، والذي يقول : ان الحجر الهابط ، يحمل في ذاته ، حركة السفينة ، ويحتفظ بها وهو يسقط .

فلماذا لم ينعم بطليموس بتجربة جاسندي؟ ذلك لان فكرة التجربة العلمية متميزة من القياس والملاحظة المجردة وهي لم تكن مألوفة لليونانيين [1] . وهكذا عرفنا ان هذه التجربة البسيطة ، لو اجراها العلماء اليونانيون ، لكان علم الفلك الحديث ، قد تقدم اربعة آلاف سنة ، ان ذات التجربة ، التي قام بها جاليلو ، كان بالامكان : ان يقوم بها بطليموس ، لو انه لم يكتف بمجرد ، ملاحظة الظاهرات الكونية ، وصياغة النظريات العامة !

الا ان الذي حدث ـ فعلا ـ كان مختلفا عما يتمناه الانسان اليوم، وهو ان البشرية بلغت مرحلتها المتقدمة ، من العلم منذ القرن الخامس عشر ، حيث دخل في الاوساط العلمية ، وليد جديد هو العلم التجريبي العملي . « حيث كان جاليلو « ١٥٦٤ ـ ١٦٤١ » اول من وجه التلسكوب الذي اخترعه صانع عدسات هولندي الى السماء ، في ايطاليا واخترع ايطالي آخر كان صديقا لجاليلو : هو (توريشلي) (Torricelli) البارومتر ، واثبت ان للهواء ضغطا ، يقل بازدياد الارتفاع ، وفي المانيا اخترع جوريكة (Guericke) مضخة الهواء ، واوضح امام الجمهور التي عقدت الدهشة لسانه ـ قوة الضغط الجوي ، بأن تجمع بين نصفي كرة فرغ ما بينهما من الهواء ، ولم تستطع مجموعة من الخيول ان تفصل احدهما عن الآخر » .

---

(١) المصدر ص ٩٤ .

واكتشف هارفي (Hervey) الدورة الدموية ، ووضع بويل القانون الذي يعرف باسمه ، والخاص بالعلاقة بين ضغط الغاز وحجمه [1] وهكذا توالت الاكتشافات ، لنفتح نافذة جديدة على عالم المجهول ، هي نافذة التجربة العملية .

الجمع بين التجربة والاستنباط

في بداية عهد « المنهج التجريبي » كان الاتجاه السائد ، هو الاكتفاء به ، عن المنهج الاستنباطي . ولكن هيوم كان اول قائد حقيقي ، جاء في فورة الغرور التجريبي ، ليوجه انتقادا حقيقيا الى التجربة ، حيث ذهب (هيوم) الى انتقاد خلاصته استحالة التدليل على مشروعية الاستدلال الاستقرائي وقال فما هو الدليل على امكان الاعتماد على التجربة ؟ هل التجربة ذاتها؟ اذا تلك العملية تدور في حلقة مفرغة (التجربة، دليل الصحة للتجربة ذاتها ، أليست هذه حلقة مفرغة ؟) ولذلك لا يمكننا ان نعتمد على التجربة في معرفة المستقبل ، بالرغم من اننا نقدر على الحصول على علم محدود ــ عن طريقها ــ بالحاضر ، فنستطيع ان نعرف بالتجربة ان كل غراب هو اسود لاننا حين احصينا الغربان، رأيناها جميعا سودا ــ اما هل نستطيع ان نعرف ان غراب الغد هو اسود ايضا؟. وبأي دليل ؟. يقول هيوم : لعله مجرد عادة نفسية ، الاعتقاد بان الشمس سوف تشرق غدا لاننا لم نتعود انها لم تشرق . ولكن دون ان نقدر على اقامة دليل علمي قاطع ، ان الشمس تشرق ايضا في الغد » .

ولقد ادخل هيوم التجربة المجردة ، في مأزق حقيقي ، واجبرها على التماس حماية لها ، من المنطق العقلي ، وانتهى الامر بالتجربة ان استفادت من الاستدلال الرياضي ، وذلك حيث إن هيوم ، زعم انه اما ان يكون

---

(١) المصدر ، ص ٩٥ .

صاحب النزعة التجريبية ، تجريبيا كاملا ، ولا يقبل من النتائج ، سوى القضايا التحليلية ، المستمدة من التجربة ، وعندئذ لا يستطيع القيام باستقراء ، ويتعين عليه ان يرفض ، اية قضية عن المستقبل ، واما ان يقبل الاستدلال الاستقرائي، وعندئذ يكون قد قبل مبدءا غير تحليلي، لا يمكن استخلاصه من التجربة (١) • وهذا المأزق دفع بالمنهج التجريبي ، الى ان يقبل بمبدأ تحليلي رياضي ، هو مبدأ •• الاحتمال ، الذي جمع بين النسق التجريبي ، والمنهج الرياضي ، واكمل الواحد بالآخر ، ومن الطبيعي ان نرجع الفضل في ذلك الى « نيوتن » الذي ادخل تلك التجربة العملية، في بوتقة الفكر الرياضي ، واستطاع ان يستخلص منها ، نظرية ثابتة • والحق ان قصة نيوتن ، من اروع امثلة المنهج العلمي الحديث، فمعطيات الملاحظة ، هي نقطة بدء المنهج العلمي ، غير انها لا تستنفد هذا المنهج ، وانما يكملها المنهج الرياضي ، الذي يتجاوز بكثير نطاق اقرار ما لوحظ بالفعل ، ثم تطبق على التفسير نتائج رياضية تظهر صراحة نتائج معينة توجد فيه بصورة ضمنية • وتختبر هذه النتائج الضمنية بملاحظات هذه الملاحظات هي التي تترك لنا مصحة الاجابة « بنعم » او (لا) ويظل هذا المنهج الى هذا الحد تجريبيا غير ان ما تؤكد الملاحظات صحته يزيد كثيرا على ما تقوله مباشرة فهي كسبت تفسيرا رياضيا محددا اي نظرية يمكن استنباط الوقائع الملاحظة منها بطريقة رياضية • (٢) • ولقد كان لرجل الرياضة الشهير •ج ف• ليبنتس الفضل في معالجة المشاكل المنطقية من وجهة نظر رياضية ولقد استطاع هذا الرياضي القدير ان يكشف كثيرا من الحقائق العلمية بمنطقه الرياضي ودون الاعتماد على التجربة • وزعم ان من الممكن رد كل علم الى الرياضة آخر الامر •

---

(١) المصدر ، ص ٨٤ ــ ٨٦ •

(٢) المصدر ، ص ٩٧ ــ ٩٨ •

وبهذه الطريقة المتطرفة اثبت ليبنتس [1] صحة قول جاليلو الذي قال : ان الطبيعة قد كتبت بطريقة رياضية والمنطق التجريبي الحديث لا يعدو ان يكون قد كتب هو الآخر بلغة رياضية والمناهج العلمية المستخدمة فيه . تجمع بين صراحة الرياضة وتواضع التجربة .

---

(١) المصدر ، ص ١٠١ .

المنطق الاجتماعي

ونعني به : ذلك المذهب المنطقي الذي يرى الواقع الاجتماعي ، مصدرا أساسيا للفكر ، ولطريقة التفكير •

وانه يزعم لا بد لنا لكي ندرس منهجا معينا للفكر ان ندرس سلفا البيئة الاجتماعية لذلك الفكر اذ انها اصل ذلك المنهج وفيما يلي سوف نبين تاريخ هذا المنطق منذ البداية (١) •

اشار اغلب الفلاسفة الى اهمية حس التوافق مع الاجتماع ، في التأثير على الفرد ، الا انه لم تتجاوز تلك الاشارة ، حدود الفلسفة ، فلم يكن « علما » للاجتماع ولا « مذهبا » في المنطق ، اما الذي يمكن ان نبدأ به تاريخ علم الاجتماع ، والمذهب الاجتماعي ، في المنطق ، فهو « اوجست كونت » ، حيث تناول « اوجست كونت » شيخ علماءالاجتماع « مسألة المنهج » ونقلنا نقلة هائلة من المنطق التجريبي ، الى المنطق الوضعي « الاجتماعي » •

فهاجم « كونت » المنطق الصوري الذي اقامه الميتافيزيقيون ، اذ انه (عنده) منطق جدلي ، ينمي قوة الجدل ، ولا يكشف عن شيء كما ان القياس الآرسطي ، انما يفسر لنا ما نعلم ، دون ان يكشف ما نجهل •

---

(١) فيما يلي نعتمد على كتاب علم الاجتماع والفلسفة تأليف الدكتور قباري محمد اسماعيل الجزء الثالث الصفحة من ١٧١ الى ٢٠٥ .

ثم ان « كونت » انتقد ايضا الاتجاه التجريبي الخالص ، كما يتمثل عند « فرنسيس بيكون » وحاول ان يصطنع لنفسه منطقا وضعيا «تستند اليه فلسفته الوضعية » من جهة ويعبر عن نظريته السوسيولوجية العلمية من جهة اخرى ، ولكن كيف فعل ذلك ؟

ان كونت حين أثار مسألة المنهج في المنطق ، وفي علم الاجتماع ، حاول ان يشرع لمناهج الفكر قانونا عاما ، يفسر تقدم الذكاء الانساني ، ويعبر عن « تطور اشكال الفلسفات والمناهج المتتابعة خلال التاريخ » وكان هذا القانون يتلخص عند (كونت) بقانون الحالات الثلاث الذي اعتبره القانون المطلق ، لتطور الفكر والمنهج ، وهو القانون العام ، الذي يكشف عن الرابطة الاصيلة ، التي تربط المنطق بعلم الاجتماع .

فذهب كونت الى ان منطق الانسان (بمعنى فكره او عقله) انما يتدرج مع تدرج المجتمع ، وتطوره من حالة (غيبية اولية) الى حالة (ميتافيزيقية) انتقالية ، ومن ثم يصل العقل الانساني ، في النهاية الى مرحلة (الروح الوضعي) اذا فللانسان ثلاث حالات ولمنطقه ايضا ثلاث حالات حالة الغيب المطلق ، وحالة الغيب المحدد ، وحالة العلم .

ولما كان الامر كذلك ، فان « اوجست كونت » أرخ للمنطق الانساني ، وجعل منه تاريخا للفكر الاجتماعي ، وخلق للتاريخ منطقا محتوما يسير في حلقات ، ويمر بأطوار ، واحقاب ويسميها في اغلب الاحيان « فلسفات » .

وتخضع هذه الحالات ، او الفلسفات ، لقانون ديناميكي تطوري، ذلك هو قانون الحالات الثلاث الآنفة الذكر « الذي هو في نفس الوقت، قانون التقدم ، الذي يرى : ان ظهور الفلسفات في انفسها ما هي الا (مراحل اجتماعية) تحتمها فلسفة التاريخ ».

ولذلك كانت الفلسفة الميتافيزيقية « في رأي كونت » ما هي الا مرحلة تتسم بالضرورة والحتم ، اذ تحتمها ضرورة الانتقال من المنطق

اللاهوتي الغيبي الى « وضعية العلم » حيث يشاهد الفكر : عالم «الحقيقة النسبية » تلك التي وجدناها عند كونت تنبثق من (الروح الوضعية) الى هنا ينتهي اسهام كونت في المنطق الاجتماعي فمجمل نظرياته المنطقية يتلخص في :

١) ان المجتمع يتطور في حالات ثلاث ، حالة الغيب (حيث ينسب كل حادث الى امر غيبي) ، وحالة الفلسفة شبه الغيبية (حيث ينسب كل حادث الى قوة خفية معينة فيه) ، وحالة السبب (حيث ينسب كل حادثة الى سببها الظاهر) .

٢) فكر الفرد في كل مرحلة من هذه المراحل خاضع للحالة الاجتماعية ولا يمكن تحويله عنها .

اما بعد كونت فان واحدا من كبار تلامذته واعني به (لوسيان ليفي بريل) قد طلع علينا بقانون جديد للفكر ، حيث اثار مشكلة «قوانين الفكر » وبخاصة « قانون الذاتية » و « عدم التناقض » وحاول ان يشرع للعقل البدائي قانونا يصدق على كل مظاهره ويفسر احواله الغيبية فاصطنع قانون المشاركة ، على اعتبار انه القانون المميز للعقلية البدائية ، بمعنى ان البدائيين ـ فيما يذهب (ليفي بريل) ـ قد غفلوا عن مبدأ التناقض ، لانهم لا يميزون بين الاشياء ، بل يخلطون بينها اشد الخلط ، بمعنى انه بالنسبة للعقلية البدائية ـ فيما يقول « ليفي بريل » ـ لا يحتم التناقض بين الواحد والكثير ، وبين الذات والغير ، وان تأكيد احد الطرفين لا بد ان يوجب نفي الآخر ، اذ ان هذا التناقض المنطقي الواضح، لا يهتم به العقل البدائي كثيرا .

وهناك مساهمة اخرى قام بها « دوركايم » حين وقف من المنطق موقفا خاصا ، ولقد ذهب دوركايم الى ان المنابع الاجتماعية ، هي المصادر الاولية لمدركاتنا وتصوراتنا المنطقية ، لان الانسان ليس منفردا في

مواجهته للطبيعة ، بل أن المجتمع يساعده على ذلك ، فالمجتمع اذا يقف حاجزا بين الانسان والعالم ، ولذلك كانت عمليات الادراك والتصور ، هي مشوبة بعناصر اجتماعية آتية من طبيعة الموقف الاجتماعي للانسان ، حيث تتأثر العمليات المنطقية ، وتتشكل نظرة الانسان الى العالم الطبيعي، وبالتالي تصدر احكامه وقضاياه ، من خلال نظرته الى عالمه الاجتماعي ، فمن المجتمع قد وردت على الانسان وسائل فهمه للطبيعة ، وادوات ادراكه لها ، وبذلك تستمد الاحكام المنطقية اصولها ومصادرها من المجتمع ، بمعنى ان (الاطارات المنطقية) ليست الا شكلا من اشكال (الاطارات الاجتماعية) .

(و) المنطق الفردي هو ناشيء بالضرورة عن المنطق الجمعي، ففكرة التناقض ، وهي من قواعد المنطق الرئيسية ليست في ذاتها اجتهادا عقليا يقوم به الانسان انما تنشأ اصلا عن ذلك التناقض الاجتماعي بين ما هو (مقدس) وما هو (غير مقدس) وفي ضوء ذلك التمايز الديني، استطاع الانسان ان يميز بين الصواب والخطأ ، بمعنى ان هذا التمايز المنطقي ، مرجعه الى المجتمع ، واتفاق الجماعة او عدم اتفاقها ، وعند (دوركايم) لم تسلم فكرة الهوية او الذاتية من النشأة الاجتماعية ، حيث يرد معنى الذاتية الى فكرة الشخصية .

فمن المجتمع — في زعم دوركايم — صدرت نماذج التصنيف المنطقي، واستنادا الى التنظيم البنائي للاشكال « المورفلوجية » الداخلة في البناء القبلي ، تنبعث قوالب التنظيم المنطقي ، ولذلك — يقول دوركايم — «ان الحدود والمراتب المنطقية ، هي في الحقيقة شكل آخر للحدود والمراتب الاجتماعية » . كما ان الروابط المنطقية التي تربط بين افراد الجنس والنوع لا تفهم الا في ضوء الروابط الاجتماعية التي تربط بين افراد الاتحاد والعشيرة ، ومن ثم كانت الاتحادات اوائل الاجناس ، وكانت

العشائر اوائل الانواع ؟ وهكذا انهى (دوركايم) ما بدأه (كونتم) ، فكونت قال ان فكر الانسان يصنع قالب الاجتماع ، اما (دوركايم) فبين كيفية ذلك • فأرجع كل مقولات المنطق ، من الذاتية واستحالة التناقض والجنس والنوع و • و • الى وقائع اجتماعية •

هذا تاريخ المنطق الاجتماعي ولنا عليه تعليق مقتضب هو :

ان المنطق الاجتماعي اصاب نصف الحقيقة اما نصفها الآخر فهو ان السبب الرئيسي ، الذي يكمن وراء التوافق بين الانسان الفرد ، فكره وسلوكه ، وبين محيطه الاجتماعي ، ليس حتمية التبعية كتبعية الشمس للسير في مجراها المرسوم ، انما هو سبب ارادي ، خاضع لارادة الفرد ذاته ، وهذه الارادة تتردد بين اتباع المجتمع او التوقف على (هدى العقل) الذي زود كل فرد به ، وعقل الانسان واحد ، وحكمه ايضا واحد ، انى اختلفت الظروف وتفرقت الاهواء •

من هنا اعترض (بيتريم سوروكين) على فكرة الاصل السيوسيولوجي ، لمقولات الفكر الانساني ، وهي اعم واهم التصورات العامة في المنطق الاجتماعي ، فأنكر مزاعم دوركايم بصدد هذا الاصل ، الذي يثير الشك والريبة ، اذ ان المقولات المنطقية الرئيسية ، انما هي واحدة بذاتها في عقول الفلاسفة ، ونجدها كما هي نفسها عند (كونفوشيوس) و (آرسطو) و (كانط) و (نيوتن) و(باسكال) فكيف نفسر عمومية تلك المقولات وثباتها في عقول الفلاسفة ، على الرغم من اختلاف شعوبهم وثقافاتهم ؟!• »

ولو كان الانسان ابن مجتمعه ، لما كان يستطيع ان يساهم في تقدم هذا المجتمع ، ولما كان المجتمع يتقدم أبدا وكان الانسان باق على بدائيته القديمة ، لانه ليست هناك قوة تتمكن ان تقدم هذا المجتمع ، الا قوة افرادها الذين تفقدهم — حسب هذا الفرض — القدرة على التغيير والاصلاح •

انما الصحيح ان البشر يملك جانبين ، جانب الخضوع والاستسلام، وبهذا الجانب يتوافق مع مجتمعه وبيئته ، مع والديه واسرته ، مع مدرسه واستاذه ، مع الدولة التي يعيش فيها و٠و٠

والجانب الآخر ، هو التحرر من قيود البيئة ، والانطلاق في رحاب الحياة ، فكرا وسلوكا ، ولقد زود الانسان بالشعور بالذاتية والاستقلال والحرية ، كما زود بالعقل القادر على فهم الصواب والخطأ ، والحق والباطل ، والنافع والضار ، والقادر ايضا على وضع مقاييس ، لتقييم افكار المجتمع وسلوكه بها ٠

بهذا الجانب يطور الفرد مجتمعه ، ويؤثر فيه ، وتتكاثف جهود الافراد ، لتدفع بالمجتمع قدما الى الامام ٠

واذا كان الفرد ابنا لبيئته بالجانب الاول ، فانه ابوها بالجانب الثاني ٠

واذا كان الفرد يخضع لمجتمعه ، فليس عبثا انما بسبب القهر الاجتماعي ، المتمثل في انواع من الضغوط ، والعقوبات والروادع ، التي يمارسها المجتمع تجاه الفرد ، وبقدر ضعف ارادة الفرد ، في مقاومة تلك الضغوط ، وبقدر قوة تلك الضغوط ، سيكون مدى خضوع الفرد واستسلامه لمجتمعه ٠

ولهذا نجد المجتمعات ، التي تتسم بطابع العسكرية ، والتي تكثر فيها الروادع ، وتشتد العقوبات ، تمتلك قدرة قهرية اكبر على الافراد ، بينما المجتمعات المائعة ، لا تملك تلك القدرة ٠

ومن جهة اخرى ، يقل مستوى الخضوع عند الشباب ، الذين يملكون قدرا اكبر من الشعور بالقوة ، ومن ارادة التحدي ، لانهم يقاومون ضغوط المجتمع ، ثم ان ضغوط المجتمع هي عمليات مزيجة من التربية ، وتقليد الآباء ، وحس التوافق مع الناس ، والنظام الاقتصادي

•• •• مما سوف نتحدث عنها انشاء الله ، ونبين انها لا تعدو ان تكـون ضغوطا ، دون ان تكون عوامل حتمية ••

وكلمة اخيرة

يبدو ان فلاسفة التاريخ ، الذين سعوا وراء معرفة السنن العامـة لتطورات التاريخ ، من امثال آرنولد توينبي ، ومالك بن نبي وابن‌خلدون ومن اشبه ، هم في الواقع ، من المناطقة الاجتماعيين ، الذين تصوروا ان للتاريخ سننا عامة ، تنعكس على حالة المجتمع ، وتنعكس تلك الحالة على الافراد ، وانا نجد الشبه الكبير ، بين مراحل كونت في الفكر ، وبـين مراحل توينبي في الحضارة اذ ان الفكر لا ينفصل عن الحضارة ، وان الحضارة تخلق بالطبع نوعا من الفكر متناسب لها •

وعلينا ان نقيم نظرية الـدورات الحضارية ، او نظرية التحـدي والتحدي المعاكس ، في تفسير تحولات التاريخ ، نقيمها ، وفق رؤيتنـا الى المنطق الاجتماعي ، وانه لا يعدو ان يوجد نوعا من الضغوط عـلى الفرد ، وان للفرد ان يتحداه ، وله ان يستجيب ويستسلم له •

يمكن ان نعتبر القرن التاسع عشر عصر الآيدلوجيات [1] وكذلك عصر المنطق والمناهج ، اذ يرتبط المنطق بالآيدلوجية ارتباط الام بابنتها !

وقد اتخذ المنطق الحديث ملامحه النهائية ، في نهايات هذا القرن، وبداية القرن العشرين .

وابرز ملامح المنطق الحديث هو :

١) تنوع المنطق ومناهج البحث حسب اختلاف وتنوع العلوم ، فهناك منطق قياسي يعتمد عليه علم الرياضيات ، وهناك منطق استقرائي تجريبي ، يعتمد عليه علماء الطبيعة ، واخيرا هناك منطق اجتماعي تعتمد عليه علوم الانسان .

وفي كل فصيلة من العلم ، تختلف المناهج ، فمثلا هناك منهج للطب والتشريح ، ومنهج للجيولوجيين ، وعلم طبقات الارض ومنهج لعلوم الفضاء و. و.

وبالرغم من فوائد عديدة اكتسبها العلم من اختصاص المناهج ، اذ منحه الاختصاص مزيداً من الدقة والتركيز .

بالرغم من ذلك ، فان الافراط في تجزئة المنطق ، ومناهج البحث ، افقدها المرونة والعمق الضروريين لفهم الحياة وللبحث الابداعي فيها [2].

---

(١) راجع كتاب عصر الآيدلوجيات لمؤلفه هنري آيكن ـ المقدمة .

(٢) يقول الكسيس كاريل : من المستحيل ان يفهم العالم الاخصائي الانسان ككل ، طالما كان غارقا الى اذنيه في دراساته الخاصة ، تلك الدراسات التي تصرفه عما عداها ، في حين ان دراسة الانسان، وقد بيّن اهميتها لا يمكن ان يتم والحالة كما هي الآن (الانسان ذلك المجهول ص ٦٠) .

٢) المنطق الحديث نسبي في اتجاهه العام ، لا نسبية فلسفية تشك في امكانية العلم بالاشياء ، انما نسبية علمية لا تؤمن الا بقدر ما توصل اليه العلم بوجه خاص ، وهذه النسبية تنعكس على المنطق ، اذ المنطق لا يعدو ان يكون بحث في البحث ، او دراسة لطرق العلم ، واذا كان العلم يتطور من يوم لآخر ، فان طرق دراسته هي الاخرى تتطور من يوم لآخر •

لذلك فان المنطق الحديث ، لا يبقى منفصلا عن العلم الحديث ، بل ممتزجا معه مرتبطا عضويا به •

من هنا كان من اوليات الاسلوب العلمي الحديث ، للكتابة ان يذكر المؤلف منهجه في البحث في المقدمة ، اذ انه سيكون منهجا فريدا وخاصا، بالكتابة عن الموضوع ذاته !

٣) المنطق الحديث نشأ ونمى في جو مادي ، ولذلك فهو يكفر منذ البدء بالافكار ما وراء المادية ، ولا يضع منهجا لمعرفة تلك الحقائق ، ولا يعترف بذلك المنهج الذي يوصل المرء الى معرفتها ، وحتى اثبات قيمة للمثل العليا ، او قيمة للحدس الناشيء من التجربة ، يخضع حسب المنطق الحديث للطرق المادية •

ان المنطق الحديث ، تبعا لكل الافكار الحديثة والمتشبعة بالروح المادية ، لا يضع منهجا لمعرفة التفسير الفلسفي لمبدء الوجود وغايته ، ومبدأ الانسان ومصيره ، ولذلك فهو لا يستطيع الوفاء بكل حاجات البشر ، اذ ان الحياة الروحية ، تشكل الجزء الاهم من حياة الانسان ، ولا يمكن ان توجه الروح ، ان لم يوضع لها منهج واضح ، لمعرفة مبدأ الكون وغايته ومبدء الانسان ومصيره • ذلك ان هذه المعرفة هي التي تعطي الانسان ، نظرة موضوعية شاملة الى نفسه ، والى الحياة من حوله وبسبب هذه النظرة ، يتخبط الانسان في تقييم ذاته ، وتقييم الوجود من حوله ، حتى لا يميز بين الصالح والضار ، والخير والشر •

فالذي يريد ان يعرف حقائق الكون جميعا ، عن طريق التجربة العلمية ، حسب المصطلح الحديث لهذه الكلمة ، لا يمكن ان يعرف الجواب على السوءال التالي : ما هو الخير وما هو الشر ؟ وكيف ينبغي ان اتصرف في الحياة ؟ وكيف يتأثر سلوكي بالدعاية المضللة ؟ ثم كيف ابصر بنفسي الحقائق ، دون ان اقع في شرك الدعاية ؟ وهل علي ان اؤمن اصلا بالله سبحانه ؟ ام كيف استطيع ان اعرف ما اذا كانت هنالك حياة آخرة ؟؟!

ان هذه الاسئلة ، لا يمكن ان يجيب عليها المنطق المادي ، الذي يحصر ذاته في اطار ما يمكن ان يرى تحت المجهر • وحيث ان الخير لا يمكن قياسه ، وكذلك الشر ، القيم لا يمكن تجربتها ، وكذلك الله واليوم الآخر فان هذا المنطق بعيد عنها جميعا من هنا نستطيع ان ننعت المنطق الحديث وبكل آسف ـ بانه « منطق ناقص » •

٤) المنطق الحديث ، يجهل في اكثر بحوثه دور (الانسان ككائن حر) في المعرفة ، ولذلك فهو يتسم بالحتمية اتساما يكاد يكون عاما ، فحين يبحث المنطق الحديث ، عن دور البيئة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في تكوين ذهنية الانسان ، يبحث عنه تماما ، كما يبحث عن دور الاكسجين في تنقية الدم ، انه دور محتوم •

ونتيجة هذا الايمان المطلق ، بالعوامل الخارجية ، وما يقابله من الكفر بقيمة الارادة البشرية ـ تبقى طائفة كبيرة من الاخطاء دون علاج، اذ انها آتية من ارادة الانسان ذاتها ، تلك الارادة التي سقطت من حساب المنهج الحديث •

من هنا كان جواب المنطق الحديث ، عن السؤال حول الطريقة التي يتخلص بها الانسان عن عامل الاقتصاد في تكوين ذهنيته ، كان جوابه ناقصا ، اذ كان يقول له يجب اصلاح الاقتصاد ، حتى لا يوقع البشر في الخطأ ، حقا ان هذه طريق الا انها غير ممكنة في بعض الظروف ، فلو لم تكن الارادة البشرية قادرة على التحصن ضد عامل الاقتصاد اذا

ـ افقدنا الانسان القدرة على تحصيل الحقيقة ، في مثل هذه الظروف .

بعد ذلك ينبغي التنبيه ، الى ان المنطق الحديث بما فيه قواعد المنهج الديكارتي ، وتوصيات بيكون ، لا يغفل تماما : دور الارادة ، بل قد يعلق عليها بعض الاهمية .

٥) بما ان المنطق الحديث يتسم بالانتقائية ، فانه لا يملك بناءا فلسفيا رصينا ومقنعا ، ولذلك فهو يعجز عن اعطاء مبررات كافية لكثير من توصياته ، بل ويعجز ايضا عن اعطاء فلسفة كافية لها ، ذلك ان هذه الفلسفة ، لا تصح الا اذا آمن المنطقي ، بوجهة نظر فلسفية شاملة، حول المعرفة ، وعلم النفس ، كما كانت لكل واحد من الفلاسفة ، الذين ابدعوا اقسام المنطق ، التي انتقي منها المنطق الحديث ، ان المنطق الحديث، اشبه الى طبق فيه فاكهة شتى ، بينما اقسام المنطق قديما كانت كثمرة شجرة لم تقطف ، ولذلك نجد ان المنطق الحديث ، لا يعدم التناقض والتناحر ، بين انواعه كما يفتقر الى الاصول التي تعطيه العمق والاستمرار ، بينما المنطق القديم . كان اصيلا بما فيه الكفاية ، اذ انه كان ينبع من نظرات فلسفية وعلمية راسخة ، وكما سبق : فان المنطق يرتبط بمعرفة حقائق كثيرة ، فيما بينها حقيقة النفس ، وحقيقة العلم ، وحقائق عن الانسان ـ الفرد والانسان ـ الجماعة ، وتطور حياة البشر و. و.

ولذلك كانت آراء الفلاسفة في المنطق ، متكاملة مع آرائهم في تلك الحقائق ، فكان منطق كل واحد منهم متكاملا من ناحية بنائه الفكري .

الا ان هذا التماسك ، زال عنه بخلط اقسام المنطق ، في المنطق الانتقائي الحديث ، فعاش كل قسم منه بعيدا عن جذوره الفلسفية ، وهذه هي سمة عصرنا ككل ، حيث يهتم بالفلسفة السطحية ، ويترك البحوث العميقة ، ويرتجل بنفي قيمتها في الحياة دون تفكير .

وكان نصيب المنطق وافرا من السطحية التي اتسم العصر بها .

ونشأ من كل ذلك فراغات هائلة في هيكل المنطق الحديث نشير الى بعضها عندما نذكر المنطق الاسلامي .

القسم الثاني عن :

أصول المنطق الاسلامي

هل للاسلام منطق ؟
المسلمون والمنطق الاسلامي
ميزات المنطق الاسلامي
ركائز المنطق الاسلامي
الثقة مفتاح العقل .
بين العلم والصوت .

جاء الاسلام ببصيرة جديدة للانسان ، ليس فقط في السلوك والتشريع ، والطقوس والعبادات . وانما قبل كل ذلك في التفكر والمعرفة، وكشف حقائق الحياة ، وواقع الاحياء والاموات ..

قال الله تعالى :

يا اهل الكتاب : قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ، ويعفو عن كثير .

« يا اهل الكتاب قد جاءكم نور ، وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم .. » (١٥ — ١٦/٥) .

فواحد الى عشرين جزء من القرآن هو في التشريع بما يدعي بـ (الاحكام) اما الاجزاء التسعة عشر الاخرى فهي في مناهج الفكر وفلسفة الحياة وبناء الشخصية ..

واذا لاحظنا القرآن وجدنا ان « موضوع العلم والمعرفة وما يتصل بهما قد بحث في القرآن بقدر ما بحث موضوع الايمان بالله !! او اقل قليلا .. والقرآن جاء برؤى جديدة للحياة فسرت ما يخفي من ظواهر او احداث غابرة . وبين كثيرا من السنن الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والحضارية ، وبالتالي جاء بفلسفة عامة للحياة .. ولا يمكن ان تكون

فلسفة من دون منطق . اذ المنطق هو المدخل الى الفلسفة كما ان الفلسفة هي مدخل لفهم الحياة !.

ولقد فجر الاسلام قدرات « مجموعة بشرية هائلة » .. واعطاهم امكانات حضارية كبيرة . كانت الحضارة العربية الاسلامية بعض مظاهرها ، والحضارة لا تقوم الا على ثقافة . والثقافة لا تبنى الا على اسس منطقية اذ لا يعقل ان ترتبط عناصر الحضارة الى بعضها من دون اواصر ثقافية متينة ، كما لا يعقل ان ترتبط وتستند عناصر الثقافة الى بعضها ، من دون وجود طريق واحد للتفكير واسلوب واحد للملاحظة .

ان وجود ثقافة متميزة لدى المسلمين ، دليل بسيط على وجود منطق متميز لهم . ولكن لماذا لم يعرف المسلمون هذا المنطق ؟

الجواب : لانهم كانوا يمارسون الثقافة ، وفلسفتها ، ومنطقها ، ممارسة عفوية . غير منطقية ، بل وغير واعية . انهم يطبقون ما جاء في كتابهم العظيم « القرآن » دون ان يفكروا كثيرا الى اي حقل في الحياة ، يرتبط هذا التعليم او ذاك وربما مارسوا الزكاة طويلا ، دون ان يعرفوها ركيزة اقتصادية ومارسوا النقد البناء ، دون ان يعرفوا انه ركيزة منطقية، ويبقى سؤال اخر لماذا لا يعرف المسلمون اليوم بوجود منطق متميز لهم ؟

الجواب لاحد عاملين

١ ــ فاما التعصب لمناهج فكرية تعودوا عليها كالمنهج الوضعي او الديالكتيكي او. او.

٢ ــ او الجهل بلغة القرآن الكريم ــ المصدر الاساسي للفكر الاسلامي ــ وبالطبع يعتبر هذا العامل اخطر من العامل الاول ان كلمات كثيرة تحورت معانيها منذ عهد الرسالة الى الآن مما القى عليها ظلالا من الغموض عند الفكر المعاصر وابعدها عن معانيها الحياتية وكنموذج نبين الامثلة التالية .

الف ــ كلمة « البصيره » استخدمت في القرآن الحكيم (٨ مرات) فماذا يفهم منها الرجل العصري ؟ هل يفهم منها المعنى الرسالي الذي قصده القرآن وكان يفهمه الجيل الاول ؟ هل يفهم منها معنى « الرؤية الكاملة للحياة الذي يوازي معنى الفلسفة في عرفنا الراهن ؟ ولان العرف لا يفهم اليوم من كلمة (البصيرة) معنى الفلسفة فان الشك يساوره في وجود فلسفة في القرآن او في تصريح القرآن في وجود مثل هذه الفلسفة فيه يقول القرآن .

« هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون (٢٠٣ ــ ٧) .

« بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتفكرون (٤٣ ــ ٢٨) .

باء ــ كلمة « الذكر » وما يتصل بها من كلمات : (التذكر ــ ذكرى ــ تذكرة) وما اشبه تكررت في القرآن اكثر من (٣٢٠) مرة فهل يفهم منها العرف الراهن ما يوازي نظرية المعرفة في الاسلام ؟ وهل يفهم ان التركيز على هذه الكلمة يدل على ان الرؤية الاسلامية في معرفة الحقائق الفلسفية هي ان الانسان عارف بها ــ بالفطرة ــ ولكنه غافل عنها او محتجب بالهوى والنسيان عنها ؟

ان « العرف » اليوم قد يستهزء بالذي يدعي ان « القرآن قد نوه بنظرية المعرفة (٣٢٠) مرة .

جيم ــ نحن لا نفهم عادة من هذه الآيات :

والذين اجتنبوا الطاغوت ان يعبدوها ، وانابوا الى الله لهم البشرى ... » « وبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه اولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولو الالباب (١٧ ــ ١٨/٣٩) .

ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤلا .. (١٧/٣٦) .

فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول .. (٣/٤٧) .

اقول نحن لا نعرف من هذه الآيات وايات اخرى : انها تبين وجهة

نظر الاسلام في مناهج المعرفة ـ كما سيأتي الحديث عنه ـ ولماذا لا نفهم؟ اذ حاجز اللغة حاجز سميك يفصلنا عن فهم حقائق كثيرة في الاسلام وفي كتابه العظيم القرآن ..

ومن بين تلك الحقائق ، وجود منطق خاص للاسلام ..

المسلمون والمنطق الاسلامي !

وجود منطق اسلامي لا يعني : ان الامة الاسلامية اتبعت هذا المنطق « دائما » كما ان وجود نظام اسلامي لا يعني بالضرورة : ان المسلمين طبقوه بالكامل .

ومن جهة اخرى لا يعني : « المنطق الاسلامي » ، كل منطق استخدمه المسلمون قديما او حديثا ، كما لا يعني : النظام الاسلامي، كل نظام طبقه المسلمون قديما او حديثا .

أنما المسلمون ، كأية أمة أخرى ، استخدموا ألوانا من المنطق، كانت بين بعضها البعض تناقضا ظاهرا . كما كان بينها وبين المنطق الاسلامي هذا التناقض .

والواقع أن الامة الاسلامية حصرت نفسها في البداية على المنطق الاسلامي . والفكر الاسلامي والنظام الاسلامي .

ولكن مع توسع الدولة ، وضعف العناصر الرسالية فيها ، استوردت الامة المنطق ، والفكر ، والنظام ، من الخارج .

وحين ترجمت الكتب الفلسفية ، في بداية القرن الثاني للهجرة ، انتقل المنطق الارسطي عبرها الى الفكر الاسلامي . فاحتضنه المسلمون دون انتقاء ، وكانت النتيجة : سيطرة هذا المنطق عليهم ، فترة طويلة من الوقت ، وانتقاله عنهم الى الغرب ، عن طريق اندلس . وبقاء الغرب تلميذا عليه ، الى القرن السادس عشر الميلادي ، بيد ان المحافظين على التعاليم

الاسلامية ، لم يتأثروا بالمنطق الارسطي • ونستطيع أن نستشهد على ذلك بما يلي :

أولا : أن أول من جدد الفكر الغربي في المنهج كان روجر بيكون الـذي كان متأثرا بالفكر الاسلامي وهكذا نستطيع أن نجزم بأن طائفة من المسلمـين رفضوا الاكتفاء بالمنطق الشكلي بـل جاوزوه الى المنطق التجريبي • الا أنه سيكون مبالغة غير لطيفة لو قلنا بأنهم كان لهم منطق تجريبي بمعنى الكلمة • بل لم تكن لديهم الا مجموعة غير متماسكة من التعاليم الدينية في البحث العلمي ، مضافة اليها هداية فطرتهم ، الى عقم المنطق الشكلي ، عن العطاء في الحقول المختلفة •

ثانيا : أن كثيرا من العلوم الاسلامية لم تكن تنشأ لولا التمسك بهدى التعاليم الاسلامية في المنطق • البعيدة جدا عن المنطق الشكلي فمن ذلك : علم أصول الفقه ، والرجال ، والحديث ، والاستنباط ، ان هذه العلوم تعتمد على منهج للبحث أشبه ما يكون لمنهج البحث الحديث بل وفي بعض هذه العلوم بلغ علماء المسلمين مبلغا يفوق ما بلغته الابحـاث الحديثة •

وكان بامكـان المنطق الاسلامي ان يتبلور عبر منـاهج واضحـة ودقيقة ويفوق كل منطق آخر • الا أن سبات الفكر الاسلامي في القرون الاخيرة ، ذلك السبات الناشىء من سبات الامة الاسلامية العميق في كافة الحقول الحضارية •

أقول هذا السبات منع من هذا المنطق ومع الاسف •

---

(١) المنطق ومناهج البحث ص ٢٤ .

(٢) المصدر ، ص ٢٥ .

(٣) مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ص ١٥ نقلا عن كتاب :
Ultiage schichte desorient 11 – 46 – uienna 875

(٤) هذا النص ، ص ٧٢ .

والان بدأ المسلمون استيراد ألوان من المنطق ، ومناهج البحث من الغرب ، والشرق ، كما يستوردون أي شيء آخر . مما أفقدهم شخصيتهم الحضارية حتى أنهم لم يعد يؤمنون بوجود منطق خاص بهم !

ميزات المنطق الاسلامي

كل خصائص الفكر الاسلامي متوفرة في المنطق الاسلامي [1] وبذلك تكون هناك سمات بارزة في المنطق الاسلامي خاصة تعلو بـه على سائر أقسام المنطق [2] وهي التالية :

١) الارضية الصلبة

عندما أستعرضنا سمات المنطق الحديث رأينا كيف أن هذا المنطق لا يملك قاعدة فلسفية متكاملة .. لانه انبثق من اختيار غير ناضج لجملة أفكار متناقضة ولذلك فهو لا يعطي الانسان منظارا واحدا يستكشف به ما بداخله ، وما حوله ، من عوالم كبيرة .. بل يفيد فقط في رؤية أجزاء الكون بصورة منفصلة .

بينما المنطق الاسلامي يتمتع بالرؤيا الفلسفية الواضحة التي ترسو على أرضية صلبة لمناهج البحث فيه .

---

(١) خصائص التصور الاسلامي . انه رباني لا يتطور انما تتطور البشرية من خلاله . وانه متوازن يجمع بين جوانب النفس البشرية . وانه ميزان لسائر التصورات .
ويرى التصور الاسلامي في الحياة انها مركبة من خطي (الضعف والقوة) خط الضعف هو . خط الاستسلام والخضوع للمادة وخط القوة هو خط العبودية لله وحده والتحرر من كافة قيود المادة واغلالها (راجع كتاب . بحوث في القرآن الحكيم للمؤلف وكتاب خصائص التصور الاسلامي للاستاذ القطب ص ٤٩) .

(٢) للمقارنة راجع فصل آراء في المنطق .

ولذلك لا تشذ مناهج المنطق عن قاعدتها ، قيد شعرة . انما يعطي الانسان مرآة صافية لمعرفة العالمين جميعا ..

٢) الشمول

من المعروف أن الفلاسفة أختلفوا في مصدر المعرفة . هل أن الحس وحده أم التفكير (العقل) فقط أم الارتياض الروحي فحسب .

أما المنطق الاسلامي فيرى في المواضيع الفلسفية والتي أهمها المنطق ومناهجه انه لا يمكن أن يكون سوى القناعة الفكرية ، الخاصة بكل شخص ، والتي لا تدع مجالا للشك أبدا . الا أن السبيل الى هذه القناعة يختلف فيترائى لنا أختلاف مصادر المعرفة الى ثلاثة أنواع : العقل ــ الوحي ــ التجارب الحسية .

العقل :

نعبر بالعقل عن البديهات الفكرية التي لا يرتاب فيها احد كالايمان بضرورة السبب لكل حادث واستحالة اجتماع الوجود والعدم في شيء .

ان قناعة ذاتية بفكرة واحدة لوضوحها وشدة الثقة بها ، كالقناعة بوجود (الذات) أو (أنا) تدعوا هذه القناعة الى الايمان بأية فكرة متشابهة لها في الوضوح والثقة !

وكمثل أنني مقتنع بوجود ذاتي لانها واضحة لدي ومنكشفة أمامي تماما ، فاذا وجدت بعد عملية تدبر وتفكير : أن وجود الشمس ، يتصف بنفس الوضوح ، والانكشاف ، فأني هنا أضطر الى الثقة بوجودها .. والاعتراف بها !. لانهما يشتركان في الصفة التي أوجبت قناعتي بوجودهما وأنما نعني بالبديهات العقلية : تلك الافكار التي تصبح واضحة لدى النفس ، بنفس الشدة ، التي تتضح البديهات الاولية كوجود الذات مثلا ، ولو لم تكن لهذه القناعة أسبابا حسية واضحة ، أذ أن اعترافنا

بالحس ذاته ، لم يكن الا من جهة أنه يكسبنا ثقة تامة ، ووضوحا كاملا ، بالنسبة الى الاشياء .. فلو أوتينا بذات الثقة ، من سبيل آخر لا يسعنا الا الاعتراف به ، ونعبر عن هذه البديهة عادة بالوجدان . وتعبر عنهـا اللغة العلمية بالحدس !! واللغة الدينية بالعقل .

النص :

من المؤكد ان بعض البديهات لا يعرفها الانسان ، الا بعد تذكـير والفات ، مثلا ١٥ × ١٥ = ٢٢٥ . ولكن هل يفقهها كـل انسان دون ألتفات ؟! هل يمكن أن يصح خبر ويكون باطلا في لحظة ؟ كلا ، ولكن هل يفقه ذلك كل بشر ؟. ان علو معرفة الانسان تكشف لنا أن هذه الحقيقة قد يصعب فهمها على بعض الناس البسطاء . الا بعد الفات . بموازات هذه الحقائق الواضحة . جملة من الحقائق لا يفهمها البشر دون الفـات وذلك مثل وجود الارادة والعلم والهوى في ذات كل واحد منا .. ونحن بحاجة الى من ينبهنا اليها ويذكرنا بها وبعد تذكرنا بها تصبح واضحـة تماما كالفات رجل بما تحتويه يده . التي شغل عنها ثم أنه يجدها بعـد الالفات . كحقيقة لا تحتاج الى دليل . والنصوص الشرعيـة الفاتـات تذكيرية تنبهنا الى واقع أنفسنا ، وكذلك فهي ذات قيمة تذكيرية بالنسبة الى المواضيع الفلسفية ..

التجـارب :

تاريخ البشر حافل بمحاولات مخلصة لتبصر الواقع الفلسفي وأن كل العلوم أشتركت ولا تزال في مـوضوع « معرفـة الانسان » ألا أن مشكلة هذه التجارب : امتزاجها بعنصر الغرور البشري ، فكل من رأى ظاهرة ، تحمس لها ، كأنها الظاهرة الوحيدة في العالم ، ولان صدقت

هذه الحقيقة في كل مجال بشري ، فأن صدقها على حقل المنطق ، أوضح لانه يتصل مباشرة بسلبيات البشر ، وتتأثر بواقعه المادي • ومن هنا كان أرسطو يرى في منطقه : نهاية الخطأ ، لانه زعم أن ظاهرة اللعب بالالفاظ ، وما ينتج عنه من أخطاء فكرية ! هي كل أسباب الخطأ ، وزعم بيكون ، وديكارت ، وهيجل : ذات المبالغة، كما انحصرت المناهج الوضعية ، والديالكتيكية ، في ذات البؤرة ، ولكن وجود هذا الخليط في تجارب البشرية ، لا يمنعنا من الاهتداء بعناصرها الايجابية، اذا استطعنا الانفتاح الموضوعي أمامها ، وكانت لنا مقاييس فكرية دقيقة ، تميز خط السالب عن الموجب ، وحدودهما •

ولوجود رؤية واضحة متكاملة ، في المنطق الاسلامي ، فأنه يستفيد من كافة التجارب المتصلة به ، بعيدا عن الجوانب السلبية فيها وهكذا يستفيد من المذاهب المنطقية : كالمذهب الحسي ، الذي آمن بالحس وكفر بالعقل والمذهب العقلي الذي عكس الآية • والمذاهب النسبية : التي تنبه كل واحد منها الى جانب من الضعف في فكر الانسان ولم يتنبه الى غيره •• من المذاهب الاجتماعية والنفسية والاقتصادية و••• التي ركز كل واحد منها نظره في حقل واحد من حقول الحياة وظن أنه هو مصدر المعرفة • وكذلك مصدر الخطأ عند الانسان • ولكن المنطق الاسلامي يرى أن كل مصادر المعرفة هي مصادر صحيحة • والمعرفة الناشئة منها ممكن الاستفادة كما أن مصادر الخطأ هي الاخرى خطيرة وتهدد معرفة الانسان ، وعلينا أن نستفيد من كل مصادر المعرفة (الحس ـ العقل ـ الوحي) ونتجنب من كل مصادر الخطأ (النفس ـ المجتمع ـ التقليد ـ و•••)

ولذلك تجد النصوص الاسلامية تنظر من عل الى جميع أسباب الخطأ ، وتنبه اليها ، دون الاقتصار على بعضها ، حسبما تفعله المناهج الاخرى •

القِسم الثاني عَن أصول المنطـق الاسـلامي

البحث الرابع عن :

ركائز المنطق الإسلامي

الدليل الى العقل . كيف يعرف العقل ؟
الاختلاف في العقل التنبيه سبيل العقل
قبسات من حديث الرسول حول العقل .

ركائز المنطق الاسلامي

هناك عدة ركائز ، يعتمد عليها المنطق الاسلامي ، هي : معرفة العقل ، والعلم ، والجهل ، والشهوات ، ومعرفة ما يتصل بهذه الحقائق من بحوث ، وهي ــ جميعا ــ في الواقع بمثابة مفاتيح للفكر المنطقي والفلسفي في الاسلام •

وسنتحدث فيما يلي عن هذه الركائز حيث نبتدئها ببحوث عن العقل ، والشهوة ، والسبيل الى معرفة العقل ، ثم العلم والهوى ، والمقياس الذي يميز العلم عن الهوى ، ورؤى الاسلام في علاقة العلم باليقين •

ما هو العقل ؟

كثير من الالفاظ يطلقها الناس ، دون أن يعرفوا : معانيها بوجه الدقة ، ويتفق الناس على تعليق فهم معانيها حتى يبلغوها ، ومن أبرز هذا النوع من الالفاظ « الروح ، والعقل ، والنفس » والسبب : اذا حاولنا تفقد المعنى الصحيح للعقل ، كان علينا أن نحيط بالفلسفة أحاطة تامة ، وعلم البشرية ، لم يبلغ حتى الان مدى يمكنه من هذه الاحاطة ، الا أن كل ذلك لا يمنعنا من طرح تعريف تقريبي لكلمة العقل ، حتى تكون أقرب الى افهامنا حين نستعملها •

تعريف العقل :

تعريف كلمة العقل : من ناحية آللغة مشتقة من عقله بمعنى ربـط وثاقه ليحفظه عن الافلات • وبهـذه المناسبة يطلـق العرب العقل على ما يحفظ الانسان من موجبات الردى •

ويقابل العقل عادة ، بالجهل ، والجنون ، ويقصد بالاول : عـدم القيام بما ينبغي القيام به لعدم معرفته أو لتغلب الشهوه •

ويقصد بالجنون وجود خلل في أعصاب الفرد مما يدعه غير قادر على العمل بما ينبغي عليه • وفي بعض الاحيان نستعمل لفظة الارادة للدلالـة على تلك الطاقة التي تجعلنا نقوم بما ينبغي لنا أن نقوم به ونطلـق على كشف ما ينبغي لنا أن نقوم به بالمعرفة والعلم •

فالعقل اذا ما بسببه نقوم بالعمل الصالح • وجاء في تعريف العقـل عن الامام علي بن أبي طالب ـ ع ـ « العقل مـا عبد بـه الرحمـان واكتسب به الجنان » •

ما هي الشهوة ؟

تؤخذ كلمة الشهوة من الشهي والاشتهاء ويعني الحب الشديد • وكل حاجة يتحسسها الفرد ، ويرغب نفسيا في اتباعها ، هي « الشهوة » فحاجة الطعام ، واللباس ، والجنس ، والمأوى ، أنما هي شهوات •

ويطلق على الشهوة لفظ الغريزة أيضا • ولكن بأعتبار آخر ذلك هو رسوخ نوع من الشعور بهذه الحاجة في النفس •

المفارقة بين العقل والشهوات :

نفى البعض اي فرق بين العقل والشهوة ، زاعمين : أن العقل نوع من الشهوة الكامنة ، كما أن الشهوات هي : العقل الظاهر ، فالحاجة الى

الجنس قد يتحسس بها الفرد فعلا ، ويندفع نحوها عملا ، فهو ـ انئذ ـ حنين شهوة ، وعقل ظاهر ، وقد يتحسس بها ، ويعلم أن طريق اشباعها وجود شرائع تنظم مسألة الجنس وثم وجود التزام عملي بهذه الشرائع . والتي منها مثلا التغاضي الفعلي ، عن الانثى المختصة بجارك فاذا أمسكت نفسك عنها فانك مدفوع بالشهوة ، ولكن بصورة غير مباشرة ، ومن هنا صح الادعاء بأن العقل هو شهوة كامنة ولكن قال آخرون أن العقل حقيقة متمايزة ، كليا عن الشهوات فهو اولا : يسير الشهوات وينظم أمر اشباعها .

ثانيا : قد يوقف الانسان عنها ايقافا تاما ، وبذلك يعطي البشر حرية تفوق قوتها قوة كل ضغط وتعلو قدرتها قدرة كل شهوة .

ويقول هذا الفريق ، ان وجود العقل ، هو الذي يعطينا القدرة على التمييز : بين شهوة حاضرة وشهوة آتية ، وعلى اختيار الثانية ان كانت هي الاسمى ، ووضع شرائع في سبيل الوصول اليها ، ثم التقيد بها .

اذ ان العقل هو صمام الضبط الذي لولاه لانفجرت الشهوات ، في اتجاهات عمياء . ان الفرق ، يبدو بسيطا بين الرأي الاول والثاني ، بيد انه كبير وفاصل بين آراء مختلفة في كل حقول الفلسفة والعلم .

ولذلك ينبغي أن نبين الحق بين الرأيين ، كي يكون لنا القدرة على اختيار الحق ، في القضايا المنطقية التي نحاول بحثها باذن الله .

الدليل الى العقل

ويتبين لنا الحق ، اذا استطعنا أقامة الدليل الواقعي ، على ثبوت العقل ، اذ بدونه يبقى الرأي المنافي له ، قائما بدون منازع ، فما هو اذا مدى صحة الادلة المقامة على ثبوت العقل ؟ على كل فرد أن يتفكر ليعرف بذاته ودون الاتكال على أقوال الآخرين ، ما اذا كانت الادلة التالية وافية وسليمة أم لا ؟

١) معرفة الحق ، والخير ، والقدرة ، على اقامتهما ، رغم مخالفتهما للشهوات والمصالح الخاصة • هذه المعرفة والقدرة ليست فقط مما يجدها كل فرد في نفسه بل ويعتقد بأنهما ثابتان لا ريب فيهما •

اذهب أنى شئت ، وقابل من أردت ، فلن تجد الا من يسر اليـك بوجدانه لهذه الحقيقة التي تعرفه ، وتهديه الى الحق من جهة ، وتعطيه القدرة على الايمان بهما من جهة أخرى •

٢) لا ريب ان البشر قد يقوم بشيء يخالف مصالحه لمجرد زعمه بأنه حق وخير • بحيث تعجز كل التفسيرات المصلحية لعمل شخص حتى يثبت بالطريق الاستقرائي ، وجود ما هو فوق المصالح ليحدوه الى القيام بهذا العمل •

٣) نحن في بعض الاحايين نجد في أنفسنا : تنازعا شديدا لا نستطيع أن ننكره ، كما لا نقدر على أتخاذ موقف محدد منه • فمثلا : عندما تسنح لنا الفرصة في انتهاب أموال فقير • تجدنا نندفع نحوها بدافع الشهوات ولكن سرعان ما تتراجع عنها بوازع العقل ، ووجود هذا التناقض فـي أعمالنا • أو لا أقل التنازع في نفوسنا ، دليل على « الثنائية » في قوانـا النفسية وان هناك عقلا وشهوة •

٤) وهب أننا لا نجد تنازعا في نفوسنا • ولكن هل نجد من أنفسنا القدرة على الامتناع من اشباع شهوة ما لحظة انفجارها ؟ أنـا جائع ، جالس على مائدة ، وليس من مانع ولا وازع من الاكل ، أبـدا ، فهـل استطيع ، بارادتي الامتناع عن الاكل • أم أنا مضطر اليه • طبعا أنا مختار في ذلك ولوجود (أختياري) وبعد تقدير ظروفي ومصالحي أقدم على أكل الطعام • صحيح أننا عندما تتوافر كل الدواعي والقيم على عمل لا نتردد في القيام به • ولكن في ذات الوقت لا نتردد ــ لحظة ــ في أن ما نقوم به انما هو بارادتنا التي تستطيع ان تمتنع ، كما تستطيع ان تقوم بالعمل •

٥) بهذه الارادة تتحمل نحن مسؤولية أعمالنا ، ولا نجد أنفسنا فقط مسؤولين ، بل ونحمل الاخرين المسؤولية بصورة كاملة ، وعلماء الدين ، والقانون ، والاخلاق و٠و٠ لم يكونوا ينطقون بشيء لولا آيمانهم بوجود هذه المسؤولية ٠

كيف يعرف العقل ؟

١) هل يعقل أن يعرف العقل ، بغير العقل ؟ نحن نعرف الاشياء جميعا بعقولنا ، والتي لو لم تكن سليمة ، لما عرفنا شيئا ٠ فهل هناك شيء فوق العقل تتعرف على العقل به ؟ ان الانسان ليذهب بعيدا في متاهات الضلال لو بحث عن شيء فوق العقل ، ليفهم العقل به ، اذ لا وجود لهذا الشيء ، وفي حالة وجوده ، يحتاج الانسان الى شيء آخر ، فوقه أيضا ليعرفه به ، فهل يعقل هذا ؟ ثم هل من المعقول : ان يكشف العقل لنا : حقائق الاشياء ٠ ثم لا يكشف عن ذاته ؟ أوليس هذا يشبه القول بأن الشمس تضيء الدنيا ٠ ولكنها غير مضاءة ؟ اذا فكيف تعطي الضوء وهي لا تملكه ؟ وان قلنا : كل شيء في العالم معروف بنور العقل ولكن العقل لا نور له ٠ واذا فهو غير معروف ٠ اليس هذا تناقض ؟ ان اولئك الذين حاولوا التعرف على العقل بغير ذاته ضلوا عنه ٠ اذ لم يجدوا فيما وراء شمس العقول ، الا الظلام والضلال ٠ بل ان مجرد محاولة التدليل على العقل نوع من التضليل الذاتي ٠ اللهم الا اذا حاولنا معرفة العقل، من خلال أنواره التي تسقط على الاشياء ، فتضيئها ، وتكشفها لنا ، بالضبط كما تتعرف على الشمس من خلال النور المنبعث منها في الفضاء ٠

وهذه المعرفة هي بدورها مرتبطة بالعقل ، فمن لا عقل له لا يفهم من الحقيقة شيئا ، ويكون أشبه شيء برجل يريد أن يبصر عينه ، ليؤمن بوجودها ، فيأخذ مرآة ، وينظر من خلالها الى عينه ، فهل يعني هذا : أنه رأى عينه بغير عينه ٠ مثلا رأى عينه بخشم او بفم ؟؟! كلا انما رآها بعينه

أيضا ولكن من خلال المرآة. ولو أفترضنا أن الرجل غمض عينيه ليبصرهما بعضو آخر فيه أفلا تكون النتيجة أنه يبقى يفتش عن عينه الى الابد ؟

كذلك الذي يحاول ــ مستحيلا ــ أن يجد عقله بغير عقله ؛ ويفتكر أنه يستغني عن عقله في رؤيته له .

والعلم ليس سوى جانب الكشف في العقل فالعقل يضيء الاشياء . والاشياء تضاء به « ولحظة الاضاءة » تسمى علما [1] .

واذا ليست هناك ثنائية في الحقيقة بين العقل والعلم انما هــو نور واحد . اذا تحدثنا عن لحظة كشفه عن الاشياء سميناه علما . واذا تحدثنا عنه كشيء موجود وثابت : سمي عقلا .

واذا .. لماذا الاختلاف في العقل ؟ لماذا اختلف النــاس في العــلم والعقل ؟ أوليس هذا النور الذي يضيء الاشياء جميعا . يجب أن يكون مضاء بذاته ؟. وواضحا مميزا مشهوراً لا ريب فيه ؟ فلماذا الجهل بــه . ولماذا الاختلاف فيه : الجواب :

---

(1) يخوننا التعبير حين نريد آن نوضح علاقة العقل بالعلم وقد استخدمنا كلمة اللحظة لبيان هذه العلاقة وهي مشتقة من مفهوم الملاحظــة . اي اننا نلاحظ هذا الجانب من جوانب عديدة من الشيء الواحــد وتستخدم هذه الكلمة فيما اذا كان للشيء الواحد جوانب مختلفــة وبملاحظة كل جانب يختلف التعبير عنه فمثلا : الرجل الواحد ابن واخ وزوج واب وجد . وهو رجل واحد . ولكن هذه الالفاظ تعبر عن جوانب عديدة عنه كذلك العقل هو نور واحد ولكن لفظ العلــم يعبر عن جانب واحد من عدة جوانبه وهو جانب الكشف. والتعابير المستخدمة مكان (لحظة) هي (لحاظ) . و « حيث » . و « من ». الدالة على البعضية .

والكلمة الاخيرة هي التي جاءت في الحديث عن الرسول ــ ص ــ حيث قال ــ ص ــ ومن العقل العلم .

بينما تكثر كلمة لحاظ وحيث ، في تعابير الفلاسفة حيث يقولــون مثلا : العقل علم بلحاظ الكشف او العلم : حيث الكشف من العقل او « حيث الكشف في الانسان هو : علم » .

أولا : هناك حقائق بسيطة واضحة يجهلها البشر ليس لشيء أنما لمزيد وضوحها •• حتى الشمس التي تضرب بها الامثال لو لم تأفل ولم يكن لها ضلال لاختلف الناس فيها •

أولم يختلف البشر في امر الوجود والقدرة : وهي الحقائق التي انتشرت آياتها في الآفاق ؟

٢) لان العقل هو المصدر الوحيد للمعرفة ، ولاننا معه كلما كنا واعين • ولاننا لا نستطيع أن نتصور أنفسنا بدونه ، اذ كلما تصورنا أنفسنا تصورناها بالعقل ، فاننا لا نبحث عنه ، انما نبحث عن شيء آخر ورائه ، وهذا هو الذي يعقدنا • ذلك أن القدرة على البحث في شيء ، بحاجة الى شرطين : أن يكون الشيء مجهولا ، وأن يعرف بالبحث ، والعقل ليس مجهولا حتى يحتاج الى دليل لاننا حين نبحث فيه فلا بد أن نتصوره شيئا مجهولا ، وهذا في الواقع ليس عقلا اذ العقل لا يكون مجهولا • دعنا نبحث عن الماء ، ونحن نسبح في البحر ، اننا لا بد ـ آنئذ ـ ان نضل عنه ، اذ طبيعة البحث تقتضي الجهل بالشيء • ولان الماء ليس بمجهول ، فلا بد ان نخلق شيئا مجهولا ونسميه بالماء ونبحث عنه •

التنبيه سبيل العقل

اذا ارتاب شخص هل يملك عينا أم هو أعمى ؟

فأمامك سبل عديدة لتعرفه بأنه بصير ، فأولا أن تأمره بأن يغمض عينيه ويلاحظ هل تختلف حاله ولماذا ؟

ثانيا : ان تذكره بأنه ، حين يرى الإشياء ، فلا بد ان تكون رؤيته بوسيلة ، والعين هي تلك الوسيلة •

ثالثا : أن تضع في كفه مرآة صافية ، وتدعه ينظر من خلالها الى عينيه ••

هذه السبل لا تختلف عن بعضها في محتواها الذي هوتنبيه الشخص الى عينه وتذكيره بها ، كذلك العقل ، السبيل اليه هو التذكرة والتنبه بأن :

أولا : نلاحظ أنفسنا في حالة افتقادنا له ،هل نختلف عما اذا كنا واجديه ؟ ففي حالة الغضب الشديد ، والشهوة العارمة ، في الطفولة ، والشيخوخة ، في النوم ، والغفلة ، هل تختلف حالنا في هذه الحالات عن الحالات السوية ولماذا ؟

ان المزيد من التنبه الذاتي للفرق بين الحالات ، يعطينا البصيرة بعقولنا ، ويجعلها تكتشف ذاتها أكثر فأكثر ..

ثانيا : الالتفات الى أن الاشياء لا تعرف بذاتها ، انما هي بحاجة الى وسيلة تكشفها لنا وهذه الوسيلة هي العقول .

أن كل معلومة من معلوماتنا ، وكل فكرة من أفكارنا ، آية من آيات العقل ، وهدى يدلنا عليه ، اذ اننا لم نجدها الا بالعقل ، بذلك النور الذي لم يكن فينا حين كنا صغارا ، وحين نكون مخرفين من الكبر ، وحين يذهب الغضب بحلومنا و... وبالتالي حين نجهل شيئا بأي سبب من الاسباب .

ألا أن مجرد العلم بالاشياء .. لا يكفي لكي نعرف عقولنا ، اذ اننا حين نعرف الاشياء لا نهتم بالوسيلة التي عرفتنا عليها ، انما تستقطب الاشياء كل اهتمامنا ، كمثل الذي يبصر الاشياء ، من حوله دون ان ينتبه الى ان عينه هي التي كشفته له ، وانه بدونها لم يستطع ان يراها ، انما يجب أن نلتفت الى : أننا من دون نور العقل ، لم يكن ممكنا لنا معرفة الاشياء ، وهناك تصبح كل فكرة معلومة ، وكل حقيقة مكشوفة ، دليلا جديدا على عقولنا ، ليس هذا فقط ، وانما ايضا اثارة للعقل من اجل كشف ذاته والتنبه بحقيقته حتى يتميز أكثر فأكثر من هواجس الذات ،

ونتائج الخيال ، هكذا تكون المعارف وسيلة للحصول على المزيد منهـا ولكن بطريق غير مباشر اذ المعارف تهدينا الى العقل اذا لاحظناها علـى أساس انه لم تكن معرفتنا بها ممكنة من دون العقل وبتركيز هذه الملاحظة ينفتح العقل ، ويكتشف ذاته ويتميز عن الهواجس الغريبة . وبذلك يهتدي الانسان الى مزيد من المعارف ، ومن هنا يتجه المنهج الاسلامي الى العقل، ويسعى نحو ترسيخ فهمه ، لكي يجعل منه نقطة انطلاق لفهم الحياة . وفيما يلي نثبت نصوصا اسلامية بذلك :

١) أعرفوا العقل وجنده ، والجهل وجنده ، تهتدوا . وانما يـدرك الحق بمعرفة العقل وجنده [١] .

٢) كان ممن أعطي العقل من الخمسة والسبعين جندا الخير وهـو وزير العقل وجعل ضده الشر وهو وزير الجهل والايمان وضده الكفـر والتصديق وضده الجحود والرجاء وضده القنوط، والعدل وضده الجور، والرضا وضده السخط ، والشكر وضده الكفر .. [٢] .

يبين النص جنود العقل وجنود الجهل لكي ينبه الانسان الى نور عقله ، تنبيها ذاتيا يجعله يميز في داخله : هدى العقل ، عن تخبط الجهل ، والشهوات .

٣) قال أبو عبدالله ـ ع ـ أعرفوا العقل وجنده ، والجهل وجنده تهتدوا .

ثم قال : وانما يدرك الفوز بمعرفة العقل وجنوده ، ومجانبة الجهل وجنوده [٣] .

---

(١) الكافي مسندا عن ابي عبدالله الصادق عليه السلام ..
(٢) البحار ـ كتاب العقل . عن الامام الصادق ص ١١٠ .
(٣) المصدر نفسه ص ١١١ .

٤) جاء شمعون بن لاوى بن يهوذا (١) من حواري عيسى الى النبي ــ ص ــ وسأله عن العقل : ما هو ؟ وكيف هو ؟ وما يتشعب منه ؟ وما لا يتشعب ؟ وصف لي طوائفه كلها • فقال رسول الله : ان العقل : عقال من الجهل والنفس مثل أخبث الدواب • فأن لم تعقل حارت ، فالعقل عقال من الجهل ، وأن الله خلق العقل فقال له أقبل فأقبل ، وقال لــه ادبر فأدبر ، فقال الله تبارك وتعالى : وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أعظم منك ، ولا أطوع منك ، بك أبدأ وبك اعيد لك الثواب ، وعليك العقاب • فتشعب من العقل الحلم ، ومن الحلم العلم ، ومن العلم الرشد ، ومــن الرشد العفاف ، ومن العفاف الصيانة ، ومن الصيانة الحياء ، ومن الحياء الرزانة، ومن الرزانة المداومة ، على الخير ، ومن المداومة على الخير كراهية الشر ، ومن كراهية الشر طاعة الناصح ، فهذه عشرة أصناف من أنواع الخير ، ولكل واحدة من هذه العشرة الاصناف عشرة أنواع ، فأما الحلم فمنه عنصر ركوب الجهل ، وصحبة الابرار ، ورفع من الضعة ، ورفع مــن الخساسة ، وتشهي الخير • ويقرب صاحبه من معالي الدرجات ، والعفو و •• المهل ، والمعاد ، والمعروف ، والصمت، فهذا ما يتشعب للعاقل بحلمه• واما العلم فيتشعب منه الغنى وان كان فقيرا ، والجود وان كان بخيلا ، والمهابة وان كان هينا ، والسلامة وان كان سقيما ، والقرب وان كــان قصيا ، والحياء وان كان صلفا ، والرفعة وأن كان وضيعا ، والشرف وأن كان رذلا ، والحكمة والحظوة • فهذا ما يتشعب للعاقل بعلمه فطوبى لمن عقل وعلم • وأما الرشد فيتشعب منه السداد ، والهدى ، والبر والتقوى، والمقالة ، والقصد ، والاقتصاد ، والثواب ، والكرم ، والمعرفة بدين أمته • فهذا ما أصاب العاقل بالرشد ، فطوبى لمن أقام به على منهاج الطريق • وأما العفاف : فيتشعب منه الاستكانة ، والحظ والراحة ، والتفقه، والخشوع،

---

(١) يعني كان ينتهي نسبه الــى يهوذا . وليس يعني كان يهــوذا جــده مباشرة .

والتذكر ، والتفكر ، والجود ، والسخاء . هذا ما يتشعب للعاقل بعفافه، رضي بأمته وقسمه . وأما الصيانة فيتشعب منه الصلاح ، والتواضع ، والورع والانابة ، والفهم ، والادب والاحسان ، والتحبب ، واجتناب الشر ، فهذا ما أصاب العاقل بالصيانة ، فطوبى لمن أكرمه مولاه بالصيانة.

واما الحياء فيتشعب منه اللين والرأفة والمراقبة ، معه في السر والعلانية ، والسلامة ، واجتناب الشر ، والشماتة ، والسماحة ، والظفر ، وحسن الثناء على المرء في الناس ، فهذا ما أصاب العاقل بالحياء ، فطوبى لمن قبل نصيحة الله وخاف فضيحته ، واما الرزانة ، فيتشعب منه اللطف، والحزم ، وأداء الامانة ، وترك الخيانة ، وصدق اللسان ، وتحصين الفرج، واستصلاح المال ، والاستعداد للعدو والنهي عن المنكر ، وترك السفه ، فهذا ما أصاب العاقل بالرزانة . فطوبى لمن وقر ولمن لم تكن له خفة ولا جاهلية وعفى وصفح ، وأما المداومة على الخير فيتشعب منه ترك الفواحش ، والبعد من الطيش، والتحرج، واليقين ، وحب النجاح، وطاعة الرحمان ، وتعظيم البرهان وأجتناب الشيطان ، والاجابة للعدل ، وقول الحق ، وهذا ما أصاب العاقل بمداومة الخير ، فطوبى لمن ذكر ما أصابه ، وذكر قيامه واعتبر بالفناء .

وأما كراهية الشر ، فيتشعب منه الوقار ، والصبر والنصر والاستقامة على المنهاج ، والمداومة على الرشاد ، والايمان بالله ، والتعرف ، والاخلاص ، وترك مالا يعنيه ، والمحافظة على ما ينفعه ، فهذا ما أصاب العاقل بالكراهية للشر ، فطوبى لمن اقام الحق لله وتمسك بعرى سبيل الله .

وأما طاعة الناصح فيتشعب منه : الزيادة في العمل وكمال اللب ومحمدة العواقب ، والنجاح من اللوم ، والمودة والانشراح ، والانصاف

والتقدم في الامور ، والقوة على طاعة الله ، فطوبى لمن سلم من مصارع الهوى فهذه الخصال كلها يتشعب من العقل [1] •

قبسات من حديث الرسول عن العقل

كل الاحاديث الدينية التي تناولت العقل ـ فيما بينها هذا الحديث ـ بينت واقع الاستقلال للعقل الاستقلال عن الطبيعة واهوائها وشهواتها ومتغيراتها •

وركزت الاحاديث الدينية على ان العقل هو اداة حرية الانسان ، عما حوله من ضغوط وقيود واغلال ، ووسيلة تفوقه وتعاليه ، وسيادته على ما حوله من اشياء الكون • وبالتالي سبب تفضيل الرحمن له ، على كثير مما خلق ، وتكريمه ، وتحميله المسئولية الكبرى •

ولقد اختلفت تعابير الروايات الدينية عن استقلالية العقل ، الا ان التعبير الاكثر شيوعا ، هو : هذا التعبير ، الـذي جاء في هـذا الحديث ان الله خلق العقل ، فقال له « اقبل » فأقبل وقال له « أدبر » فأدبر فقال الله تبارك وتعالى « وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أعظم منك » •

وقد اراد الرسول ان يبين مدى استقلالية العقل، في الخلق والنشء، وانه يخاطب وانه يقبل ويدبر و• و•

ثم ان ابرز ميزات العقل هي (الطاعة لله) حيث قال الله تعالى لـه « ما خلقت خلقا أعظم منك ولا أطوع منك » وجاء في حديث آخر « العقل ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان » ولكن لماذا ؟ وكيف ان العقل اداة طاعة لله عند الانسان ؟ الواقع ان الطاعة لله تعني : التسليم للقيم المجردة التي يأمر بها الله ، والقيم هي البنت الشرعية للعقل ليس الا • ثـم ان الطاعة لله تعني : التحرر عن عبادة غير الله من اشياء او اشخاص •

---

(١) المصدر نفسه ص ١١٧ ـ ١١٩ •

والعقل ـ بعدئذ ـ النقطة المركزية التي تبدأ منها وتنتهي اليهـا احكام الله وبالتالي هو المقياس و (الميزان) المستقيم الذي يقيّم الافعال به وبتعبير آخر العقل هو : المحور الثابت في متغيرات الكون ، فالاجيال تتبع بعضها بعضا ، وصيغ الحياة تختلف ، ومظاهر الامور تتحول ويبقى الحكم هو الحكم ، والمقياس هو المقياس • لذلك جاء في هـذا الحديث « بك ابدأ وبك أعيد ، لك الثواب ، وعليك العقاب » •

ثم ان العقل هو ميزان احكام الله ـ ايضا ـ وكما جاء في حديث آخر (العقل رسول باطن والرسول عقل ظاهر) مما يعكس الوحدة الكاملة بين الاحكام العقلية والقيم السماوية •

العقل والشخصية المتكاملة

لكي يستثير الحديث النبوي الشريف ، اكبر قدر ممكن من صفات العقل ، وسماته ، وميزاته ، لعلنا تتنبه ـ من خلالها ـ الى العقل ذاته •

وأيضا لكي يبين الحديث « الشخصية المتكاملة في منطق الاسلام » شرح الحديث لنا : اهم الصفات التي تميز بها العاقل وركز على الترابط الوثيق بين سجايا الخير ، ذلك الترابط الذي يبرز ـ بدوره ـ مفاهيـم عميقة ، متصلة بطبيعة الشخصية الانسانية •

وفيما يلي نقتبس بعضا من هذه المفاهيم من الحديث الشريف :

بين العقل والحلم

اذا كان العقل عقالا من الجهل ، واذا كان ابرز مظاهر الجهل هو : التسرع والطيش والفوضى والانفلات ، مما يسميه العرب بـ (الجهل) فان الحلم سيكون ابرز مظاهر العقل لذلك ترى العرب يسمون العقـل بالحلم والعقول بالحلوم • هو الحلم ولماذا هو الابن الشرعـي للعقـل

الحلم هو السيطرة على النفس ـــ الضبط ـــ الرزانة والحليم هــو ذلك الفرد الذي لا تتلاعب به احداث الحياة (خيرا أو شرا) ولا تستفزه أقوال الناس (مدحا او ذما) ولا تدعوه أهوائه وشهواته الى الاسفاف ، الرضا والغضب ، السرور والحزن ، الربح والخسارة كل اولئك تبقى عنده محدودة ضمن اطاراتها ، وموجهة الى أهدافها بدقة •

لذلك ستكون نتائج الحلم المباشرة هي ـــ كما جاء في الحديــث « ترك ركوب الجهل » وبالتالي ترك الطيش والانفلات و «صحبة الابرار» لطبيعة الانسجام بينه وبينهم ، « ورفع من الضعة » اذ لا يفقد عقله بسبب المتغيرات السارة او المحزنة ، و « رفع من الخساسة » و « تشهي الخير » (والطموح الذي) « يقرب صاحبه من معالي الدرجات » و « العفــو » و « المهل » (والاناة التي تأتي للحليم نتيجة عدم تأثــره بالاحــداث) و « المعروف » (حيث لا يحمل قلب الحليم شيئا من الحقد) « والصمت » (الا من الخير بالطبع) •

بين الحلم والعلـم

هل تعلم : ان أخطر اعداء العلم ، هو الغضب والشهوة ، حيث انهما يوتران الاعصاب ، ويفقدان الانسان أهم شروط التفكر السليم ، وهــو الاطمئنان والهدوء ؟

هل تعلم : ان القلب القلق ، لا يمكنه ان يتفرغ للفهم ، ولا يمكنه ان يركز في شيء ، ولا يقدر على ربط الافكار ببعضها ، لكي يــصنع مــن مجموعها علما ، ولا يستطيع ان يلاحظ ترابط أحداث الحياة ؟

ان الحلم (وهو كما قلنا سلفا الترفع عن متغيرات الحياة) هو الاب الشرعي للعلم ، لانه يوفر المجال المناسب للتفكر ، ومن ثم للتعلم •

والعلم ـــ بدوره ـــ يعطي صاحبه « غنى النفس » و « سخائهــا » و « مهابة الجانب » و « سلامة الروح والجسد » و « الهيمنة على الامور

عـن كثب » ، و « الرفعـة » ، و « الشـرف » ، و « الحكمـة » ، و « الحظوة » (فلا يعثر حظ ، مع علم) كل ذلك كما جاء في حديـث الرسول ـ ص ـ

بين العلم والرشد

الرشد هو الجانب العملي من العلم ، وهو التطور الايجابي ، الذي يحدث للعالم فيجعل تصرفاته منظمة وحكيمة ، وذات أهداف واضحـة ووسائل قريبة •

وبالطبع سيكون من نتائج الرشد « السداد » (التوفيق ـ الوصول الى الهدف بسهولة) والهدى (الى الحق) « والتقوى » (لانها تنشأ من العلم بعواقب الامور) و « المنالـة » ، و « القصد » (فلا تطـرف ولا تقصير) و « الاقتـصاد » (في المعيشة) و « الثواب » (عنـد الله) و « الكرم والمعرفة بدين الله » (لان دين الله هو البرنامـج الواضح للرشد او للعلم العلمي) •

بين الرشد والعفاف

« حب الدنيا رأس كل خطيئة » والترفع عن الدنيا رأس كل فضيلة، لا يعني الترفع عدم امتلاك الدنيا ، وانما عدم السماح للدنيـا بامتلاك الانسان ، والسيطرة الكاملة عليه ، والعفاف هو ذلك الترفع ، ذلك الزهد المرغوب ، ذلك الصوم الداخلي ، عن شهوات الدنيا •

واذا كان الرشد هو العلم العلمي ، فان (خلاصة) معارف الانسان ستهديه الى انه : اكبر وأكرم من الدنيا ، وان الدنيا ليست الثمن الكافي لنفسه ، فالعفاف هو ابرز صفات الرشد ، وتنبثق من العفاف «الاستكانة» (والخضوع لله وللحق) و «الحظ والراحة والتفقه، والخشوع والتذكر»

(لانه لا ينشغل باله بالهموم ، التي تستقطب اهتمام الناس) « والتفكر والجود والسخاء » .

بين العفاف والصيانة

حين يعف الفرد ، ويترفع عن شهوات الدنيا ، فان النتيجة الطبيعية لعفافه ، سيكون صيانة نفسه ، وحفظها عن الاخطار ، فمثلا لا يرتكب الاثم ، ولا يقترب الى الجريمة ، ولا يقوم بعمل يضر دينه او دنياه . ويتشعب للعاقل بـ (الصيانة) « الاصلاح ، والتواضع » (لأن التكبر يأتي نتيجة الشعور بالضعة ، والعفيف الذي يصون نفسه ، لا يشعر بالنقص او الضعة) « والورع » (عما يضر جسمه او روحه) « والانابة والفهم ، والادب والاحسان والتحبب » (الى الناس لكي يصون نفسه من أذاهم) « والخير » (الى الناس حيث ان الاحسان الى الناس نوع من التأمين الاجتماعي) « واجتناب لشر » .

بين الصيانة والحياء

حين تحترم الناس تنتظر منهم الاحترام ، وحين يصون الانسان نفسه عن الناس ، يفرض عليهم مهابته وبالتالي ، يرتبط معهم بعلاقات جيدة ، هذا هو الحياء .

والرجل الحيي ينتفع بحيائه عدة منافع هي « اللين ، والرأفة ، والمراقبة لله في السر والعلانية ، والسلامة ، واجتناب الشر » (لأن كثيرا من الشر يأتي من الصلافة) والبشاشة والسماحة والظفر [1] وحسن الثناء على المرء في الناس .

(١) جاء في هذا الحديث وبتكرار كلمات مثل الحظ الحظوة والظفر ، واتصور ان المعنى واحد وهو ما يسميه الناس بـ (التوفيق) او بـ (النصيب) والبركة و. و. بفارق هو ان الناس ينسبون هذه الصفات الى امور غيبية غير معروفة ، وهذا الحديث يوضح ارتباطها باخلاقيات يتخلق المرء بها بوعي وارادة وليس عبثا وبلا ارادة .

قد يتحرك الانسان في المجتمع وفق رؤى وأهداف يخطط لها ــ سلفا ــ ، وقد يتحرك وفق ما تمليه المؤثرات المرتجلة الأنية ، والرجل الاول يسمى رزينا ، وتأتي صفة الرزانة من الحياء لأن الحياء ــ بدوره ــ آت من الصيانة والرشد وهي الصفات التي تجعل العاقل فوق مستوى الاحداث .

ان فريقا من الناس لا يمكنهم ، تكوين علاقات اجتماعية صائبة ، اذ علاقاتهم آتية من مواقف ، مرتجلة وحالات نفسية غير منضبطة ، بينما العاقل الذي يحتمي بحجاب من الحياء ، ويحظى باحترام الناس ، يكون علاقاته ، وفق مبادئه ، وحكمته ، فتراه متصلبا مبدئيا ، ولكنه ــ في الوقت ذاته ــ ليّن هش بش يعطي من نفسه للناس الكثير ، ولكن لا يعطي من مبادئه شيئا .

ويستفيد العاقل من : (الرزانة) أموراً أبرزها « اللطف والحزم ، واداء الامانة وترك الخيانة وصدق اللسان ، وتحصين الفرج، واستصلاح المال ، والاستعداد للعدو ، والنهي عن المنكر ، وترك السفه » (الاعمال غير المفيدة اللغو قتل الفراغات بالتوافه) .

بين الرزانة والمداومة على الخير

لأن علاقات العاقل (الرزين) ناشئة مبادئه ، وغير متأثرة بآراء المجتمع ، فانه يتعود على الخير ، واذا كان الشر عادة ، والخير عادة ، فلماذا لا يتعود الانسان على الخير ؟

وما هو الخير ؟ « ترك الفواحش والتحرج » ، (التقوى) « والبعد من الطيش » ، انها جميعا خير وينتفع العاقل بمداومته على الخير اليقين » (لطبيعة تأثير العمل على الفكر) « وحب النجاة وطاعة الرحمن،

وتعظيم البرهان » (كل ما فيه حجة على الحق) « واجتناب الشيطـان ، والاجابة للعدل وقول الحق » .

بين المداومة على الخير وكراهية الشر

حين يتعود الانسان على شيء ، يستوحش من تركه ، ومن الاعمال التي يتعارض معه ، ولذلك فان العاقل يستوحش من عمـل الشر ، ودا أفضله من فضيلة .

ويصيب العاقل عدة حسنات من كراهيته للشر هي « الصبر والنصر والاستقامة على المناهج (اي على الخطة المرسومة له من قبل الله او من وحي رشده) والمداومة على الرشاد، والايمانبالله والتعرف، والاخلاص، وترك ما لا يعنيه ، والمحافظة على ما ينفعه » .

بين كراهية الشر وطاعة الناصح

حين يتحذر الانسان من شيء ويكرهه ، يبـادر الى الفرار منـه ، اذا أخبر بوجوده ، فاذا كان ما يتحذر منه انسان هو الشر فانه يندفـع ـ آليا ـ الى طاعة من ينصحه بأجتنـابه ، ان هذه الطـاعة لا تكـون مفروضة على العاقل من فوق ، بل مدفوع اليها من الداخل .

والنتائج الجيدة التي يستفيدها العاقل بطاعة الناصح هي « زيادة في الفعل وكمال اللب ومحمدة العواقب » (اذ أنه يجمع عقول النـاس وعلومهم الى نفسه) « والنجاة من اللوم » ، والقبـول (من قـبل ، اذ المشورة ، او طاعة الناصح ، تجمع النـاس حول العاقـل) ، « والمـودة والانشراح والانصاف والتقدم في الامور » (المبادرة وسبق الزمن ، اذ هذه ما ينصحه الناصح عادة « والقوة على طاعة الله » (اذ يلقى التشجيع عليها) .

سؤال اخير

هذه هي الصفات التي تميز بها العاقل ، والمزيد مـــن التدبر فيها ، وفيمن يتصف بها ، يدعنا نسأل هذا السؤال الاخير « هل هنـــاك شيء أوضح من العقل او اكثر سناء وكيف كنا نفتش عن مقياس يميز بين العلم والجهل وهذا العقل موجود عندنا ؟؟ » .

الثقة مفتاح العقل

الناس سواسية في العقل ، فتلك نعمة أسبغها الله على البشر جميعا، انما يختلف الناس في مدى استثمارهم لها ، ولكن لماذا يستثمر بعض عقولهم ويتركها آخرون ؟ هناك عوامل عديدة تنبع من عامل واحد أساسي هو : « الشعور بالضعف » • اذ أن هذا الشعور ، يفقد صاحبه الايمان بذاته ، بقدراته ، بامكانية مقاومته الضغوط من حوله ، وحين يفقد الانسان ايمانه بنفسه ، لا يبقى منه الا قشرة خاوية اذ ما قيمة قدرة لا يعترف صاحبها بوجودها ؟

مثلا ما قيمة ثروة يمتلكها شخص دون أن يعرف انها له ؟ وما قيمة سلطة لا يعترف صاحبها بها ؟ ان البشر مزود بنور العقل ، بالقدرة على كشف الحقائق ، بامكانية النفاذ الى خبايا الحياة ، ولكنه لا ينتفع بها من دون ايمان بوجودها •

ولذلك ترى ان من تأخذهم هيبة البحث عن حقيقة معينة لا يستطيعون كشفها ، اذ انهم حكموا على أنفسهم ـ سلفا ـ بالعجز والفشل ، والذين تمتلكهم هيبة العلماء السابقين عليهم ، يستحيل عليهم فهم أي شيء جديد ، اذ انهم لا يؤمنون بأي اكتشاف ذاتي يتوصلون اليه •

والاجيال التي تعبد جيلا سابقا ، وتعتقد انه وصل الى قمة العقل

والمعرفة ، تبقى ــ هذه الاجيال ــ في أوحال الجهل لانها تفقد الثقة بقدرتها على فهم أي شيء لم يفهمه ذلك الجيل السابق (١) .

ولا تكفي الثقة بالعقل ، بل يجب ان يثق الانسان بكامل قدراته ليستطيع استثمار عقله ذلك لأن ضغوط الحياة المادية تفقد الانسان استقلاله في التفكير والسلوك تفقده حريته في القرار .

السلطة الطاغية التي تستعبد الناس بقوة الحديد والنار وتختار لهم سلوكا معينا تفرضه عليهم هذه السلطة تفقد الانسان شعوره بالاستقلال والحرية وتضعه لا يفكر الا في اختيار ما يرضي تلك السلطة .

والمجتمع المحافظ الذي يرمي المخالفين له بأنواع التهم وينبذهم عن نفسه هو الآخر ــ يفرض على البشر نوعا خاصا من التفكير والسلوك ويفقده حرية القرار ، وبالتالي حرية التفكير والمعرفة .

وكذلك النظام الاقتصادي الذي يسوق الناس الى سبل معينة ولا تسمح لهم بتجاوزها أمام ضغوط هذه الاغلال يتوقف الفكر ولا يستثمر العقل !

ولكن هل تفقد هذه الضغوط حرية الانسان حقيقة ؟ هل تجعله لا يقدر ــ أبدا على تغيير وضعه ؟ هل تسلبه امكانية التمرد والثورة والتضحية والاصلاح ؟. كلا اذ ان الله أكرم عباده بالحرية ، وأعطاهم القدرة الكافية للدفاع عنها .. فالشعب المضطهد يستطيع تحطيم عرش السلطة الطاغية ، والجيل التقدمي قادر على التمرد ضد جيل التخلف ، والمجتمع يتمكن من تغيير النظام الذي لا يناسبه ، وتطورات التاريخ شواهد على هذه الحقيقة .

أقول الانسان قادر على المحافظة على حريته شريطة أمر واحد ،

---

(٢) في عدة مناسبات بينا العلاقة الوثيقة بين العلم والثقة .

هو الايمان بذاته ، الايمان بأنه قادر على التمرد ، والثورة والتضحية والاصلاح ، وله من الامكانيات ما تحقق ذلك ، اذ القضية ليست قضية وجود امكانيات ، ان طاقات الانسان لا تحد ولا تنتهي انما هي قضية الايمان بهذه الطاقات والثقة بها ، كما ان القضية ليست في تطلع الانسان الى تحقيق الحرية والاستقلال ، اذ ان هذا التطلع هو أسمى فطرة ركزها الله في طبيعة البشر ، لا تحد ولا تنتهي ولو بلغ الانسان الثريا لـ (تطلع) الى نجمة أرفع . ولو أتى ملك الدنيا لـ (تطلع) الى ملك الآخرة . ولو وهب خزائن الارض لأمسك خشية الانفاق ، وحبا في المزيد ، وليس من بشر يتنازل عن حريته طوعا ، ولكن يكره اكراها يسلبه ايمانه بذاته ، وثقته بقدرته على ممارسة حريته ، فالقضية ــ اذاً ــ قضية ثقة ، ومن هنا كان الطغاة يسعون أبدا الى اشعار ضحاياهم ــ من الشعوب ــ : أنهم لا يقدرون على مقاومتهم ، اذ بمجرد وجود هذا الشعور ، يستسلم الانسان لواقعه الفاسد ، فكراً وسلوكا .

ومفتاح الامر آنئذ (في الثقة) اذ انها تدفع الانسان الى تفجير طاقاته ، واستغلالها في مقاومة ضغوط الطغاة .

واذا تخلص الانسان من خشية الطغاة ، استعاد حريته ، واستثمر عقله ، وملك حياته واستقلاله .

التوكل : ثقة لا تحد :

ويبقى السؤال الكبير : من أين نكتسب الثقة ؟ بالايمان بالله ، والتوكل عليه ، وكيف ؟ حين تؤمن بأنه رب السماوات والارض ، رب العالمين ، بيده ملكوت السماوات والارض ، واليه يرجع الامر كله ، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ، يعز من يشاء ويذل من يريد ، ينصر عباده بالغيب ، ينصر من ينصره ، ويحب من يحبه ، ويتوكل عليه ، ويعين من يستعين به .

وحين نعرف ان الله واسع لا تحد عطـاه العطايا ، حين نؤمن بالله ايمانا حقيقيا (١) ، ونعرف ان الله عليم حكيم ، وليس بظلاّم للعبيـد ، لا يمنع ولا يعطي اعتباطا وعبثا أنما بقـدر مؤهلات الفرد ذاته ، بقـدر ايمانه وعقله وعمله الصالح ، حين ذاك ، تتفجر ينابيع الخير في الانسان. اذاً شروط التحرر والتقدم موجود عند الانسان فالتطلع فطرة راسخـة عنده ، والوسيلة لتحقيق التطلعات موجودة عند اللـه ، والشرط الذي يحقق الوسيلة ، موجود عند الانسان الايمان والعمل • من هنا نعلـم : أن التوكل على الله يعطينا الثقة بمواهبه فينـا ، بنعمه علينا ، وبالتـالي بقدرتنا على مقاومة الضغوط أنىّ كان نوعها •

ضغوط الجبت من هوى وشهوات •

ضغوط الطاغوت ، من سلطـة متجبـرة ، أو مجتمـع فاسد ، أو مصلحة آنية •

والقرآن الحكيم ـ كتاب العقـل والحريـة ـ لا يأمـر بالتوكل فحسب ، بل ويقص علينا عبرا من حياة المتوكلين باللـه ، الذين قاومـوا ـ بسلاح التوكل ـ ضغوط الجاهلية فانتصروا عليها • وبيّن القرآن ـ من خلال هذه القصص ـ حقيقة أخرى هي : أن الحريـة وحدة لا

---

(١) يصف الامام علي عليه السلام ربه فيقول : الحمد لله الذي لا يفـره المنع ، ولا يكديه الاعطاء ، اذ كل معط منتقص ، سواه ، المليءبفوائد النعم ، وعوائد المزيد ، وبجوده ضمن عيالة الخلق ، فانهج سبيـل الطلب للراغبين اليه ، فليس بما سئل اجود منه بما لم يسأل ، وما اختلف عليه دهر فتختلف منه الحال ، ولو وهب ـ ما تنفست عنه معادن الجبال وضحكت عنه اصداف البحار ، من فلز اللجـين ، وسبائك العقيان ونضائد المرجان ـ لبعض عبيده ، لما اثر ذلـك في جوده ، ولا انفد سعة ما عنده ، ولكان عنده من ذخائر الافضال ما لا ينفـده مطالب السؤال ، ولا يخطر ـ لكرمه ـ على بال ، لانـه الجواد الذي لا تنقصه المواهب البحار الجزء ٤ص٢٧٤ •

تتجزأ ، فليس هناك حرية فكرية ، دون حرية سياسية ، ولا حرية علمية ، دون حرية اقتصادية ، ولا حرية دينية دون حرية اجتماعية •

وحين تنال من حرية في حقل ، فانما يهبط مستوى الحرية في سائر الحقول أيضا ، وحين أرادت رسالة السماء الحريــة للانسان ، لم يجزأها الى حرية ، دون حريــة ، بل تحــدث عنها وحدة واحــدة وسعت الى ترسيخها في فطرة البشر جميعا •

انما جعلت رسالة السماء : حريــة الفكر ، بابا لسائر الحريــات ، وجعلت مفتاحه الثقة بالله والتوكل عليه •

نصوص اسلامية في التوكل

دعنا نتلوا القرآن لنتدبر في آيات التوكل •

(قال الملأ الذين استكبروا من قومه ، لنخرجنك يا شعيب ، والذين آمنوا معك من قريتنا او لتعودن في ملتنا قال : أولوكنا كارهين ؟!) •

قد افترينا على الله كذبا ان عدنا في ملتكم ، بعد اذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها ، الا ان يشاء الله ربنا ، وسع ربنــا كل شيء علما ، على الله توكلنا ربنا افتح بيننا ، وبين قومنا بالحــق ، وأنت خير الفاتحين •

فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين (٨٨/٩١/٧) •

« •• فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعــون وملائهم ، ان يفتنهم وان فرعون لعال في الارض ، وانه لمن المسرفين، وقال يا قوم ان كنتم آمنتم بالله ، فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين •

فقالوا على الله توكلنا ، ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ، ونجنــا برحمتك من القوم الكاذبين (٨٣ ــ ٨٦/١٠١) •

ثم قال ربنا في نهاية القصة (ولقد بؤنا بني اسرائيــل مبوء صدق ورزقناهم من الطيبات (٩٣ ــ ١٠) •

ان عشرات العبر يقصها علينا القرآن الحكيم ، من حياة المؤمنين الذين حافظوا على حريتهم ، ضد الطغاة وهي جميعا تسير في خط واحد هو :

١) الايمان بالله ، والتوكل عليه والصبر على الشدائد .

٢) مقاومة الطغاة بعنف .

٣) الانتصار عليهم انتصارا نهائيا .

ومن هذا المنطلق يأمرنا ربنا بالتوكل في عشرات الآيات ، ليزيل هاجس الخوف من فؤاد الانسان ، ويطلق قواه لمقاومة الظالمين ،والمحافظة على حريته الكاملة ، وفيما يلي نثبت بعض الآيات (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) . (٣/١٢٢١) .

وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون (٣/١٦٠) .

وليس بضارهم شيئا الا بأذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون (٥٨/١٠) .

فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين (٣/١٥٩) .

ولا تطع الكاذبين والمنافقين ودع اذاهم وتوكل على الله (٤٨/٣٣).

كلمة الخلاصة : لا يستثمر العقل آلا بالثقة به ، والثقة بالذات ، والايمان بالحرية ، وبالقدرة على المحافظة بها ، ولكن هذه الصفات لا توجد الا بالتوكل على الله لانه مفتاح الثقة ، وشرط لاستثمار الانسان عقله (١) .

(١) يقول الامام علي عليه السلام في وصيته لابنه الحسن عليه السلام : (فليكن طلبك لذلك بتفهم وتعلم لا بتورط الشبهات وعلو الخصومات وأبدا قبل نظرك في ذلك بالاستعانة بالهك عليك والرغبة اليه في توفيقك (البحار ج ٧٧ ص ٢٠٢) .

القسم الثاني عن أصول المنطق الاسلامي

البحث السابع عن الحقيقة :

بين العلم والهوى

بين العلم والشهوات
الحق والعدل
الانسان بين الهوى والعلم
مفارقة الهوى عن العلم
شهوات الهوى .
لا .. لحتميات الهوى
بين العلم والقطع

العلم : هو احاطـة الفكر البشري ، بالحقائق ، بحيـث تظهر له وتنكشف امامه بوضوح وتمييز ، وهو قد يوافـق الشهوات ، وقـد يخالفها ، وبتعبير افصح قد يعي الانسان ما يحبه ، كعلمه بربح تجارته ، وقد يعلم ما يكرهه كعلـمه بكسادها وسواءا خالف او وافـق العلـم والشهوات فانه مختلف عنها في مركز اشعاعها • اذ العلم مـن العقـل ، والشهوات من القلب ، وتتأثر الشهوات بالظروف المتطورة ، دون العلم، فحبك لصديقك قد يزول ، بينما علمك بوجوده يكون لا يزال موجودا ، وبالرغم من وضوح الفرق بين العلم والشهـوات ، الا ان مهبط النفس الواحد ، قد يسبب في تداخلهما بحيث يذهب العلم ضحية الشهـوات ، فيستصعب على الانسان تصديق ما يبغضه • فمثلا : النبأ المفاجىء بموت صديق حميم لا يصدقه المرء ويحاول ــ جهده ــ ان يـؤوله بصورة او بأخرى •

وهذه الحقيقة نسميها (بالخداع الذاتي) ومعنى خداع النفس ان يقدم الانسان بمحض مشيئته ، بمنع تسرب الحقيقـة الى دماغه • ويتم ذلك ــ عادة ــ بالطرق التالية :

١) اغلاق منافذ النفس المطلة على الواقع الخارجي •• كـأن يغض المرء عينه عن مطالعة كتب العلم • ويسد سمعـه عن مدارسة احـاديث المعرفة • وينأى عن ملامسة حقائق الاشياء •

٢) تركيز النظر في الباطل ، دون الحق فـ « يستحوذ » الضلال على

الفكر ولا يدع مجالا لتسرب نور الحق اليه ، ذلك لان للانسان قلبا واحدا اذا توجه تلقاء الحق عمي عن الباطل وان تولى صوب الباطل عمي عن الحق ٠

٣) بسبب من مزيد التوجه الى الباطل، يتشبع الفكر بأدلةالباطل٠٠ وبراهينه ، وتنسجم النفس بها ، حتى يبدو الحق في قبالها خاليا من الحجة وبعيدا عن الواقع ، ولذلك حين يسمع الفرد بعض لحجج الحق ، تبدو عنده واهية وسخيفة ، وبالتالي غير قابلة حتى لمجرد التفكير في صحتها ٠

بين العلم والشهوات

ليس من ريب في ان الدوافع النفسية قد تسير باتجاه الحقائق الواقعية ٠٠ فلا تحدث اية مشكلة وقد تسير باتجاه معاكس فتنشأ المشاكل ٠

فمثلا الدافع الحيوي (البيولوجي) الى الطعام والذي يتحول الى دافع نفسي (سيكولوجي) مما نسميه (شهوة الطعام) هذا الدافع، يسير باتجاه العلم ، بمكان الطعام ، وسبيل الوصول اليه ، وكيفية التهامه ٠ و٠و٠ لذلك لا نجد مشكلة نفسية في تعلم هذه الامور او تعليمها ، فحتى الطفل الرضيع يقدر على معرفة حقيقة هذه الامور ببساطة وسرعة ولكن العلم بحقيقة العدل في اختيار الطعام الحلال الطيب ، وكيفية بلوغه ، ونوعية تطبيقه ، انه يتعارض مع مجموعة دوافع (بيولوجية) وشهوات (سيكولوجية) فيصعب الوصول اليه ، ان العدل يفرض علينا الالتزام بحقوق الناس والتوازن في العمل بحقوقنا ، وذلك مما تخالفهما الشهوات العارمة التي تريد ان نفرط في اشباعها ايما افراط ٠

لذلك يكون من المستصعب حقا معرفة العدل ، ويختلف فيه الناس اختلافا كثيرا • ولا ننسى ان الشهوات شيء والمصالح شيء آخر،فليست المصلحة دائما تفرض علينا اتباع الشهوات حتى النهاية ، بل قد تكـون المصلحة في كبحها ، او تحديدها ، كالمبتلي بمرض السكر تفرض عليـه شهوة الطعام ، تناول الحلويات بوفرة ، بينما تمنعه مصلحته من ذلك •

وليس من شيء انفع للبشر من الحق بالعدل واقرب الى مصالحه ، ولكن هل يعقل الانسان ذلك ؟ ام انه لو عقل هل يترك اتباع الشهوات كلا لان الانسان ابن الشهوات ، وقليل من الناس يرتفعون الى مستوى مصالحهم ليقيسوا امورهم بميزانها ، ويسعون لتحقيقهـا ولو عارضت الشهوات العاجلة• ومن هذا القليل فريق كبير يخطأ في معرفة المصلحة الحقيقية له،فيزعم انها تتعارض مع الحق والعدل، بشكل من الاشكال،ولذلك يصعب عليه هو الآخر ان يسعى في سبيل معرفة الحق والعدل ، وان يجهد من اجل بلوغهما او تطبيقهما ، واقل منهم اولئك الذين استهدفوا مصالحهم ــ لا شهواتهم ــ وعرفوا تماما انها ترتكز حول الحق والعدل ، ان هؤلاء لفقط يقدرون على متابعة بحوثهم الرامية : معرفة الحقيقة والـوصول اليها لانهم ــ فعلا ــ مسلمون لها مقتنعون بجدواهـا ، والخلاصة ان الناس على ثلاثة :

١ ــ) ابن الشهوات العاجلة •

٢ ــ (ابن المصالح « غير عارف بموضعها » •

٣ ــ) ابن المصالح العارف بانها تتمثل في الحق • والاول والثاني يخطئان ويصيب الثالث الحقيقة لانه لا يجد في البحث عنها اية صعوبـة نفسية بل تدفعه الى ذلك بواعث ودوافع كثيرة ••

الانسان بين العلم والهوى

تتلخص فكرة المنطق الاسلامي الاساسية التي تتفرع عنها رؤى الاسلام في المنطق ومناهج البحث تتلخص في ان الهوى (الشهوات) • (الغضب) يمنع العلم ، ومخالفة الهوى ، وسيلة لمعرفة الحق، وان البشر لا يترك العلم والحق الا لاتباع الهوى ، ولكي تتوضح هذه الفكرة لا بد ان نتحدث عن ثلاثة حقائق عن : معنى الهوى ، والنصوص التي تحدثت عنه ، وعن الحالات التي يتبع الهوى فيها ، واخيرا عن : ان الهوى ليس حتما وان اتباعه او عدم اتباعه يخضع لارادة الانسان الحرة •

مفارقة الهوى عن العلم

الهوى يعني : الحب ، وهوى النفس يعني : حب الذات واهواء النفس هي : شهواتها ، وطبائعها ، غرائزها ، ميولها الفطرية والتربوية •

والعلم هو معرفة الحق • والحق والشهوات قد يلتقيان في آمر واحد كما اذا كانت المصلحة في اتباع الحق ، ولكنهما يفترقان كثيرا •

فليس كل انسان يهوى الحق ، ويشتهي العمل به ، في كل وقت • انما كثيرا منا يهوى الباطل ، اننا نشتهي الخلود في الدنيا وليس حقا ، انما الموت ـ الذي لا نحبه ولا نشتهيه ـ هو الحق •

والاسلام اعتبر الحق منطلقا والهوى منطلقا واراد للانسان ان يتبع الحق ، وينبذ الهوى ، اذا كان الهوى يخالف الحق • لانه ايضا يخالف العلم ـ آنئذ ـ وهكذا اعتبر الاسلام الهوى سببا لتكذيب الانبياء •

(أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى انفسكم استكبرتم (٢/٨٧) واتباع الظن ـ والذي لا يعدو ان يكون اهواء ـ النفس ـ هو الذي اردى بالبشر فجعلهم كفارا ومشركين •

ان يتبعون الا الظن وما تهوي الانفس (٥٣/٢٣) •

والعدل كما الحق لا يمكن تطبيقه الا بمخالفة الهوى .

فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا (٤/١٣٥) وحين بعث الله نبيه داود وجعله خليفة على الناس . امره بمخالفة الهوى لانها طريق العمل بالحق (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله (٢٨/٢٦) .

ورسالة الرسول (ص) بنيت على الوحي لا الهوى (وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحي (٥٣/٣) ونهى الله عن الطاعة لمن يتبع هواه . لانه يتبع الباطل ولانه قد غفل وابتعد عن عقله (ولا تتبع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان امره فرطا . (١٨/٢٨) .

والذي يتبع هواه فانما هو مشرك . اذ انه يعبد هواه .

(أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ٢٥/٤٣) .

واهواء الناس ضلالات يجب مجانبتها .

(قل لا اتبع اهواءكم قد ضللت اذا وما انا من المهتدين . (٦/٥٦)

والهوى يخالف العلم ، ولا يمكن ان يجمع الانسان بين اتباع الهوى . واتباع العلم (ولا اتبعت ولان اهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير) (٢/١٢٠) .

ولا تتبع اهواءهم عما جاءك من الحق (٥/٤٨) .

واتباع الحق يصلح الارض ، اما اتباع الهوى فانه يفسد الارض والسماء لانه باطل . (ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السماوات والارض ومن فيهن) (٢٣/٧١) .

والذين لم يستجيبوا للرسول ، فانما كان بسبب واحد فقط ، هو اتباع اهواءهم اذ انه السبب الوحيد لمخالفة العلم !

(فأن لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون اهواءهم (٢٨/٥١) .

اما ضلالة الناس ، كثير منهم ، فانما هي بسبب اتباع الهوى ، وعدم العلم ، (وأن كثيرا ليضلون بأهواءهم بغير علم) (٦/١١٩) .

وجاء في الحديث : اوصى الله لداود (حذر وانذر اصحابك عن حب الشهوات ، فان المعلقة قلوبهم بشهوات الدنيا ، قلوبهم محجوبة عني .. وجاء في رواية مأثورة : واذا حيرك امرك لا تدري ايهما خير ، واصوب ، فانظر ايهما اقرب الى هواك فخالفه ، فان كثير الثواب في مخالفة هواك ... وجاء في حديث آخر : واكثر الصواب في خلاف الهوى .. وان الطمع مفتاح الذل واختلاس العقل والذهاب بالعلم ..)

شهوات الهوى

اذن : اتباع الهوى يعني : اتباع ما يحبه الانسان ويشتهيه ، ولانه تختلف شهوات الانسان ، فان موارد اتباع الهوى تختلف هي الاخرى ، والسؤال ما هي شهوات الانسان ؟ وبالتالي ما هي اهواءه ؟ [1] شهوة الخلود . شهوة الراحة . شهوة الامن والسلامة . واخيرا شهوة الملك والسيطرة .. هي جميعا شهوة واحدة هي (شهوة الحياة) وهي اعمق شهوة في النفس البشرية ، لانها صور لهوى النفس ، في اوضح واصدق حالاتها . شهوة الطعام والمسكن واللباس . شهوة الاولاد حس التكيف

---

(١) هنا يجب ان نضع ملحوظة ضرورية هي ان الهوى والحب هما حالتان للنفس البشرية تختلفان كثيرا ...

فالهوى هي حب الذات وحب اي شيء يخدم الذات مباشرة او غير مباشرة فمثلا حب الحياة وحب الراحة وحب الاكلات الشهية وحب النساء وحب المال والسلطات انما هي مرجعها جميعا حب الذات ، اذ كلها تخدم الذات مباشرة ، او غير مباشرة .

بينما الحب هو : الرغبة في الغير دون ان يرتبط بالذات فحب الخير واهله وحب المبدأ وحب الوطن و.و. انما هو الرغبة في كل اولئك دون ان يعتبر فيها حب الذات ، وهكذا يكون الحب عطاء والهوى اخذ .

مع البيئة ، حس التكيف مع المجتمع ، والاستسلام لضغوط السلطـة ، كل اولئك صور اخرى وان كانت باهتة ــ احيانا ــ عن شهوة الحياة .

اذ لا يخضع الفرد لتوجيه المجتمع ، الا لانـه يخشى من عقوبتـه المتمثلة في متعة ضرورات حياته ، ولانه يحب حياته ، فهو ايضا يحب ما يحافظ عليها من ضرورات وما ترتبط به هذه الضرورات من التكيف مع البيئة او مع المجتمع .

وحين يخضع الانسان للمجتمع ، او للبيئة ، او للسلطة ، تخضع كل مناحي حياته معه وفي طليعتها فكره . ولذلك فانه يدفع بفكره باتجـاه التوافق مع المجتمع والاستسلام لتوجيهاته ، وكذلك باتجـاه الخضوع للسلطة [1] .

اذا : حب الذات او بتعبير افضل (هوى النفس) هـو وراء كـل اسباب الخطأ في الانسان ، ابتداء من الاسباب النفسية ، والتقاليـد ، وانتهاء بالاسباب الطبيعية ومروراً بالاسباب الاجتماعية ، والاقتصادية ، ــ كما نتحدث عنها في المستقبل ان شاء الله ــ وبالرغم من ان صور الهوى تختلف من شهوة الخلد والملك وشهوة الراحة والأمن والى شهوة الطعام والمساكن و.و.

بالرغم من ذلك ، فانها تعود الى اصل واحد هو حب الذات او هوى النفس[2] وحين يفضح الانسان ، مدى ارتباط هذه الشهوات ، وما ينبع منها من افكار خاطئة ، مدى ارتباطها بالهوى ، تفقـد الاخطاء خلفيتهـا وتنهار ، اذ لا يرتاب الانسان في ان الفكرة الناشئة من حب الـذات ، لا

---

(١) سوف نتحدث طويلا عن ان من اهـم اسباب الخطـأ هـو الخضوع للمجتمع او للآباء او التكيف مع البيئة .

(٢) لعل القرآن حين يقول هوى النفس يعني حب الذات وحـين يقول اهواء النفس يعني : شهواتنا ..

رصيد لها من الواقع اذ لا بد ان تنشأ الفكرة من الواقع الخارجي ذاته ، لا من مصلحة ذاتية مباشرة او غير مباشرة •

وهكذا يسير المنطق الاسلامي ، طريقا مستقيما ومختلفا عن سائر الطرق في ازالة اسباب الخطأ من حياة الانسان ذلك الطريق هو التوجيه الى السبب الرئيسي لكل الاخطاء (هوى النفس) وفضح علاقة كل الافكار الخاطئة بهذا السبب •

لا لحتميات الهوى

ويبقى سؤال هل الانسان مضطر لاتباع هواه ؟

بلا تردد كلا •• هل الذي يشتهي طعاما مكره على اكله • ام قادر على نبذه ؟! وهل الذي يشتهي التمتع بامرأة جميلة ، تسلب منه حرية القرار •؟! بالطبع ــ ان حرية الأنسان تبقى معه في كل الظروف أنى كانت شديدة الضغط •• وكما ان الحرية موجودة فان قدرته على معرفة الحق موجودة هي الاخرى ، فان الذي يتبع هواه ويكيف نفسه مع مجتمعه ــ ثقافيا ــ يستطيع ان يقف لحظة ويفكر : لماذا انا اعتقد بهذه الافكار ألأنها صحيحة ؟ ام لانها افكار مجتمعي ؟ بالطبع انه يخادع نفسه في البداية ، خشية التعرض لعقوبة المجتمع ، ولكن اذا استمر في التحدي ، وفكر جيداً استطاع ان يفهم الحقيقة ، حيث انه راح يقارن بين هذه الافكار ، وبين امثالها من الافكار كيف انه يعتقد بتلك ويرفض هذه ؟! مع اننا ــجميعاــ نشترك في القوة الاقناعية ؟ ان العادة ، والاسترسال ، والخوف من التغيير ، والسلبية امام ضغط الشهوات ، هي التي تمنع الناس من اعادة النظر في كيانهم الثقافي ، وتقييمه من جديد ، وبالتالي رفض كل باطل فيه ••

« الى ان تبلغ نسبة الاحتمالات الايجابية ٤٩ ٪ تكـون القضية وهمية . فاذا صعدت الى ٥٠ ٪ صارت مشكوكة واذا تجاوزتها صارت ظنية ، الى ان تصل الى ٩٩ ٪ وبعدها . اي ١٠٠ ٪ تكون القضيةقطعية، وهي درجة الاطمئنان الكامـل . وبالتالي العلم الحق » هـذه النظرية مرفوضة في المنطق الاسلامي الذي يرى ان صعود الاحتمالات الىمستوى ١٠٠ ٪ ممكن في العلم والجهل معا .. اي فيما اذا كان اليقين صحيحـا او باطلا ، وعلى هذا فليس من الصحيح ان صعود الاحتمالات النفسيـة يكون دليلا على اقترابنا من الحق ، وهبوطها دليلا على العكس بل ان ما يوافق الحق علم وما يخالفه جهل وظن وان صعدت نسبة احتمالاته عند الشخص الى (١٠٠ ٪) [1] يقول المنطق الاسلامي ان النفس البشرية ، ينازعها قوتا العقل والشهوات وتؤثر كل واحدة فيها ، وتعطي كل واحدة منها درجة الأطمئنان عندها بالنسبة الى القضايا . فحبنا لشخص قـد يدعونا الى تصديق نبأ قدومه قبل ان نصدق على نبأ مجيء من نبغضه . اذ الحب يساعد على صعود نسبة الاحتمالات .

فاذا افترضنا ان الحب كان شديدا .. فأثر على النفس في ازديـاد نسبة الاحتمالات الايجابية ، فهل يعني ذلك اننا توصلنا للحق ؟

اذا ان هناك فرقا في ازدياد الاحتمالات لتبلغ درجـة (١٠٠ ٪) والذي يسمى بالقطع ، وبين العلم الذي ــ حتى اذا كانت نسبة احتمالاته

---

(١) يعبر القرآن الحكيم عن الاعتقاد بالافكار الباطلة بالظن حين يقـول : ولكن ظننتم ان الله لا يعلم كثيرا مما تعلمون ، وذلكم ظنكم ظننتـم بربكم ارداكم (٤١/٢٣) ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين (٤٥/٣٢) لا يعلمـون الكـتاب الا امـاني وان هـم الا يظنـون (٤٥/٢٤) ومالهم بذلك من علم ان هم الا يظنون (٤٥/٢٤) يظنـون بالله غـير الحق ظن الجاهلية (٣/١٥٤) .

اقـل من المائة ــ فانـه يكشف عن الحقيقة لانه يطابـق ابدا الواقـع الحق [1] ..

ويبقى سؤال يقول حتى الآن كنا نتصور ان المقياس الذي يميزالعلم عن الجهل هو وصول الاحتمالات الايجابية الى درجة الماءة بالماءة وكمـا تقولون ليس هذا المقياس صحيحا في المنطق الأسلامي فما هو المقيـاس الصحيح ؟

الجواب : لا تصدر الفكرة الا من واحدة من القوتين المتنازعتين في النفس اما العقل واما الهوى ولا يمكن ان توجد فكرة من دون علـة أو مصدر ، فاذا كانت الفكرة ناشئة من العقل ، كانت علما واذا كـانت من الهوى كانت ظنا (وان الظن لا يغني من الحق شيئا) ولكن كيف تتميز الفكرة الناشئة عن أختها ؟

اولا بالتأمل الذاتي ، الـذي يعني توجيه سلسلة مـن الاسئلـة الداخلية : كيف اعتنقت هذه الفكرة ؟ ولماذا ؟ وهل ارفضها فـي ظروف معينة مثلا ؟ هل أرفض فكرة الرأسمالية اذا اصبحت عاملا ام لا ؟. وهل استسلمت للفكرة نتيجة ضغط معين ؟ ام اطمأننت بها من دون ضغط ؟.. ان لحظة واحدة من التأمل الذاتي كفيلة بفضح خلفيات الفكرة ومنشأها..

ثانيا : الفكرة وليدة الهوى ، متغيرة وفق متغيرات الهوى ، يخبو وهجها ، وتقل احتمالاتها اذا ضعف الهوى ، المنشى لها وتتغير كليـة اذا

---

(1) يقول العلامة الوالد (محمد كاظم المدرسي) ، في كتابه المخطوط عن العلم : وظاهر ان اليقين (وهو يقصد به القطع) ليس يعلم بالذات (اذ اليقين ليس سوى صورة راسخة في الذهن البشري والصورة ليست علما) فان الصورة النفسية ، ولو فرض مطابقتها للواقع ، ليس حيث ذاتها الكشف ، بل طريق للمماثلة فليس برهان ومحجة بالذات ، ولا يجوز الاتكال عليه عقلا لعدم ممتازية المطابق منه للواقع عن المخالف . له .

تغير ، ثم تعود اذا عاد • فمثلا الشعب الـذي يعتنق الافكار استجابـة للسلطة رغبا او رهبا ، تتغير افكار هذا الشعب ، كلما تغيرت السلطة ، وتضعف افكارها كلما ضعفت السلطة ، والفرد الذي يستوحي افكاره من واقع الطبقة التي ينتمي اليها ، برجوازية او بروليتارية ، او بيوقراطية ، انه تتغير افكاره كلما تغير موقعه ، فيوما يكون مؤمنا بالرأسمالية ، ويومـا بالاشتراكية ، ويوما بالحرية ، ويوما بالدكتاتورية • و•و• عن هـذه الحقيقة يقول القرآن الحكيم :

(ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا [1] واتبع هـواه ، وكان أمره فرطا (١٨/٢٨) يبين القرآن ان اتباع الهوى يتسبب في فوضى امـور الانسان لانها لا ترسو ـ آنئذ ـ على قواعد ثابتة •

ثالثا : والفكرة (ناشئة العقل والعلم) تتميز بخصائص كالتالية :

الف) بانها ثابتة جازمة لا تقبل الريب اذ ان ذاتها الكشف ومشاهدة الواقع ومباشرة وجدانه ، وكيف يجد النفس الواقع ثم يتشكك فيه ؟

باء) وهي شاملة لا تخصص ، فاذا كانت الرذيلة قبيحة عند العقل ، فان يكون هناك فرق بين الناس الذين تصدر منهم الرذيلة ، ان يكونـوا من الكبراء او من المستضعفين من عرق او آخر في عصر او آخر •

جيم) ان احكام العقل تتفق عليها عقول الناس جميعا •

فالعقل هو العقل في اي راس كان ولذلك فهو حجة بين العباد ـ كما جاء في حديث مأثور ـ دعنا نذهب انى شئنا ! فسوف لا نجد الفضيلـة في الخيانة والنفاق ، وايثار النفس على الآخرين كما لا نجد الرذيلـة في التضحية والآباء والشجاعة والكرم •

رابعا : لا تتطور احكـام العقل بتطور الاوضاع الاقتصاديـة او

---

(١) تحدثنا ـ سابقا ـ عن ان « ذكر الله » و « الثقة بالله » و « التوكل على الله » هو مفتاح لغز العقل ووسيلة استثارته واستثماره .

الاجتماعية او الفسيولوجية لان احكام العقل كاشفة عن الواقع كما تكشف المرآة عن الاشياء . فكما ان تطور الاشياء لا يغير من كشف المرآة ، بل تظل المرآة ثابتة ، كذلك تطور الحياة ، لا يعني ان العلم يتطور ايضا .. [1] .

وكلمة اخيرة النصوص الاسلامية تحدثت طويلا عن العقل وجنوده ، والجهل وجنوده ، لكي يستوضح الانسان رؤيته ، عما تجري داخل ذاته ، من تصارع العقل والهوى ، والعلم والشهوات ، وذلك لان التنبه الذاتي ، الى مصدر الفكر الصحيح الداعي الى الخير والموضح للحق ، والرادع عن الطيش والباطل ، ثم الى مصدر الفكر الباطل الداعي الى الشر ، والجهل ، والطيش والضلال ..

اقول التنبه الذاتي الى مصدر كل واحد من الفكرتين سيعطينا مقياسا واضحا للفرق بين العلم والجهل ..

---

(١) بتصرف عن كتاب الفكر الاسلامي للمؤلف ص ، ٣٦ – ٣٧ .

القسم الثالث عن :

كيف نتجنّب الخطأ ؟

- العوامل النفسية للخطأ
- وراثة الافكار
- التوافق الاجتماعي
- الانحرافات النفسية
- العامل الاقتصادي
- العوامل المادية

القسم الثالث : كيف نتجنب الخطأ ؟

البحث الاول عن :

العوامل النفسيّة للخطأ

- كلمة البدء
- بين الغرائز والهوى
- الجذور النفسية للخطأ

يتصور الرأي السائد في المنطق ان مشكلة الانسان في العلم ، هي مشكلة عقلية محضة ، يمكن حلها بوضع قواعد لتنظيم عملية التفكير .

الا ان الحقيقة : ان المشكلة هي مشكلة نفسية ، قبل ان تكون عقلية ، ولذلك فنحن بحاجة الى معالجة النفس البشرية . قبل ان نضع قواعد لعقله . وتنظيم فكره .

ذلك لان النفس البشرية قد تستأثر بارادة الانسان وتوجهها الى حيث تتحرك اهوائها ، وهنالك تبقى قدرة الانسان على التفكير معطلة رأسا !! ولا تغنيه القواعد الموضوعة لتنظيم التفكير [1] .

ومن هنا فان علم النفس : لا بد ان يدخل كطرف مباشر في المنطق كما يقول جون ديوي :

« ان علم النفس ذاته فرع خاص ، من فروع منهج البحث فهو ــ بصفة عامة ــ يتصل بنظرية البحث المنطقي ، بنفس العلاقة التي يتصل بها علم الطبيعة ، او الكيمياء، ولكن ــ لما كان علم النفس اوثق اهتماما من سائر العلوم الاخرى ، بالمركز الرئيسي الذي يصدر عنه اجراء البحث انشاءا وتنفيذا ــ كان من الجائز ان يضيف الى النظرية المنطقية،اضافات ليست في مقدور العلوم الاخرى ، شريطة ان يستخدم اداة لخدمة المنطق، لا ان يكون سيفا له [2] .

(١) في البحوث القادمة تدليل مبسط على هذه الحقيقة .

(٢) المنطق نظرية البحث ص ١٠٧ .

وكما يقول هانز في حديث نقلناه سابقا « ان البحث عن نفسية الفلاسفة مشكلة ، تستحق من الانتباه ، اكثر مما يبديه الكتاب من الذين يعرضون تاريخ الفلسفة [1] » وحين استعرضنا المنطق الاسلامي رأينا كيف نبه الاسلام الى دور هوى النفس في تضليل البشر الا ان هذا الفصل ، يتناول علاقة النفس بالعقل ، ببيان مفصل عن عوامل الخطأ النفسية ، من اتباع الآباء . واتباع المجتمع و. و.

وقد ادخلنا في هذا الفصل الاخطاء الناشئة عن العوامل المادية ، لانها في رأينا تعود بالتالي الى عوامل نفسية كما نبين ذلك ان شاء الله .

وتحدثنا في مقدمة الفصل عن وحدة الغرائز ، وعن جذور الخطأ النفسي ، لانها ضرورية لفهم البحوث القادمة في هذا الفصل ..

واتصور ان البحوث القادمة : تستطيع ان تكون مدخلا طبيعيا للمنطق الاجتماعي ، اذ ان المنطق الاجتماعي يتحدث عن مدى التأثير الذي يخلفه المجتمع على الفرد ، ولكنه لا يتعمق الى الكشف عن خلفيات هذا التأثير ، وعن النوازع النفسية الكامنة ورائه وقد برزت ــ من هنا ــ فجوة بين علم النفس ، وبين المنطق الاجتماعي ، ولكي نسد هذه الفجوة، كان لا بد من بيان الجذور النفسية التي تكون وراء سعي الانسان وراء التكيف مع مجتمعه ، وبالطبع المجتمع يبدء من الاسرة ، والاسرة تبدء بدورها من الابوين ، وهنا كان لا بد لنا من حديث عن وراثة الافكار . كما ان المناخ الطبيعي ، والعوامل المادية ، التي فيه ، ذات اثر بعيد على تكوينة الفرد ــ ومن خلاله ــ المجتمع ولذلك تحدثنا عنها ايضا .

ا
بين الغرائز والهوى

لكل شيء من اشياء الكون جانبان : جانب جامع . وجانب فارق . فالشجر والحجر يجتمعان في الوجود ويختلفان في ان الشجر ينمو والحجر

---

(١) نشأة الفلسفة العلمية .

لا ينمو وكذلك الغرائز لهـا جانب يجمعها كلها ، وجوانب تفرقهـا عـن بعضها ، فغريزة الجنس تجتمع مع غريزة الجوع . في اعطائهما المتعةواللذة وتفترقان في ان الغريزة الاولى افراز والثانية احراز الاولى حاجة موقتة والثانية دائمة ..

بيد ان السؤال الكبير الذي يرتسم امام الفلاسفة والعلماء معـا . هو : البحث عن جذر كل غريزة في نفس الانسان وهل ان لكل واحـدة منها جذرا مختلفا عن الاخرى ام ان الغرائز تلتقي عند جذر واحد .

فمثلا نحن نعلم ان لشهوة الطعام والشراب جذرا واحدا فهـل ان نفس الجذر ، يكمن في شهوة الجنس وحب الاولاد ؟!

ان النظر العميق يهدى الى وحدة الغرائز السيكولوجية ، بمعنى انها نابعة من جذر واحد ، هو حب الذات ، ورجاء الخير له والخشية عليـه من الشر بيد ان هذه الوحدة السيكولوجية ، لا تتنـافى مع الاختـلاف الفسيولوجي ، والبيولوجي لها بل نستطيع ان نقول : ان كافة الشهوات، تعود الى غريزة واحدة ، فهناك ، مثـلا حب السيطرة ، وطلب الشهـوة والحياء من الناس ، واتباع العظماء ، واتباع الوالدين ، والاقربين .

انها تعود الى ذات الغريزة والمجتمـع الواحدة ، اذ ما من عمـل غريزي يقوم به البشر ، الا بسبب اعتقاده ، بانه يقوم بصورة مباشرة او غير مباشرة ، باشباع احدى غرائزه الاولية .

فمثلا اتباع السلطان . قد يكون طمعا في ماله مما يوفر بالتـالي للفرد الطعام والجنس و. و. وقد يكون خوفا من عقابه ، بمعنى ان عدم هذا الاتباع يقضي عليه ، بالحرمان من الغرائز ، فاتباعه يوفر له ما كـان يخشى ان يحرم منه فرجاء البلوغ للشهوات ، لا يختلف كثيرا عن خوف حرمانها ، انهما نابعان من مصدر واحد . هو حب الشهوات ومـا مـن دافع نفسي . يكمن وراء عمل بشري ، الا ويعود ــ بعد حذف التفاصيل

واستخلاص الجوهر من المظاهر ـ يعود الى الخوف والرجاء ، الخوف من حرمانه مما يملك ، والرجاء في حصوله على ما لا يملك ، فمثلا : الطفل يتبع والديه خوفا من حرمانه ان عصاهم ـ من رزقهما وحمايتهما ـ ورجاء في المزيد من الرزق والحماية •

والمرء يتبع جماعته خوف تفرده ـ لدى انفصاله عنها ـ وبالتالي حرمانه من منافع الجماعة ، ورجاء المزيد من ذلك !

والرجل يتبع نهج الصراع الطبقي ضد طبقة اخرى ، خوفا من حرمانه من اكله وامنه ، ورجاء في الحصول على المزيد من اشباع الجوع وتوفير الامن !

والانسان يسعى للرئاسة ، لانه يجدها انسب الطرق لحماية ما عنده ، وحصول ما ليس عنده من الغرائز !!

وحتى بعض الاعمال التي لا نجد فيها الخوف والرجاء في الظاهر ، نجدهما ، لدى البحث والتنقيب ، فمثلا عبادة الاصنام ، البشر يتبع الاصنام لخوفه من عوامل الطبيعة ، ورجاء في المزيد من الشهوات [1] •

والانسان المسلم يطيع الله خوفا من سطواته التي تحرمه النعم ورجاء المزيد من بركاته •

واذا جمعنا الخوف والرجاء في تعبير دقيق • قلنا « حب الذات » ولا نعني بحب الذات الا حب الاشياء لها • والخشية عليها من الاشياء •

واذا فتشنا اللغة لنجد تعبيرا ادق ، لما وجدناه الا في كلمة « هوى النفس » •

لذلك كان الهوى (هوى النفس) هو الذي حمله القرآن الحكيم مسؤوليات الضلالة البشرية فقال الله سبحانه :

« ان يتبعون الا الظن وما تهوي الانفس (٢٣/٣٨) •

---

(١) واتخذوا من دون الله الهة لعلهم ينصرون ٣٦/٧٤ (يس) .

« فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا (٤/١٣٥) •

« فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله (٣٨/٢٦) •

« ومن اضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله (٢٨/٥٠) •

وفي الحديث عن الرسول •

« اما اتباع الهوى فيصد عن الحق وطول الامل ينسى الآخرة [1] »

وقد سبق ان تحدثنا طويلا عن هذه الحقيقة •

وفيما يلي تتحدث باذن الله عن مدى علاقة حب الذات (هــوى النفس) • بجذور الخطأ النفسية •

الجذور النفسية للخطأ

لا بد ان نشير مكررا الى ما تحدثنا عنه سابقا (في عرض الحــديث عن ركائز المنطق الاسلامي) من ان النفس البشرية تتنازعها طاقتا العقل والجهل •

وان الجهل ، طاقة ذاتية نابعة من طبيعــة وجودنا الناقص ، امــا العقل ، فهو هبة من الله القدير •

وان كل ما في النفس من حنين الى المادة ، وحب لها ، ناشئــة مــن طبيعتها الذاتية •

والجذور النفسية التالية ان هي الا مظاهر ، وانعكاسات لهــذه الطبيعة ، وان فصل هذه المظاهر عن بعضها يتم بهدف التوضيح ، ووضع النقاط على الحروف •

وسوف نستعرض في البداية جذر كلَ خطأ وبعده نبين نتائجــه • والجذور التي سوف نستعرضها ثلاثة : الحب ، وفقد الثقة ، والتسرع •

(١) منية المريد ص ، ٣٦ •

ما هو الحب ؟ انه انجذاب النفس الى شيء •

ويتدخل الحب في المعرفة سلبيا ، وله جذر وتتائج ، اما الجذر فانه يستقطب كل اهتمام النفس في بؤرة واحدة هي الحبيب ويحاول حمل صاحبه على صرف كل طاقاته فيه •

والتفكير طاقة لا تشذ عن سائر الطاقات النفسية المنجذبة بعنف نحو الحبيب ••

والمعرفة بحاجة الى التفكير ، كي تصبح متكاملة وواضحة ، اذ ستصبح كل مصادر المعرفة ــ حتى الاحساس ــ غير مفيدة « علما » دون وعي وتفكير •

واذ يصرف الحب فكر صاحبه نحو بؤرة الحب ، بعيدا عن الواقع الموضوعي ، لا تستطيع النفس ان تعي او تفكر في الحقيقة • حتى يفقهها فتقع في الخطأ •

وحينما نقول « يصرف الحب » لا نقصد ــ بوجه ــ حتميةالصرف هذا ، بل ليس الا ضغط الجانب النفسي الذي يحدثه الحب على الارادة، وتبقى النهاية الحاسمة ، مقدرة الانسان يختارها بحرية تامة ، وهناك اما يرضخ للحب او يرفض الاستسلام •

النتائج :

١ ــ حب الذات

يتعصب البشر لافكاره بدافع حب الذات ، ويجادل عنها ، ويستكبر دون معرفة ما يقابلها ودون الانفتاح على ما سواها •

ويتعصب ايضا لكل فكرة تكسبه نفعا ، او تدفع عنه ضرا، ويتلون بها حسب الظروف ، وينغلق دون غيرها حتى ليعمي بصره •

ويغتر بجهله ، ولا يذل نفسه ــ حسب ظنه ــ بالسؤال ، او البحث عن الحقيقة ، او التسليم لمن ينادي بها ، لمجرد الظن بان في ذلك منقصة لذاته ، التي يحبها ، والى هذه الغريزة ترجع عوامل الحسد والحقد والعناد النفسية •

٢ ــ اسلوب العرض

قد يستهوي الفرد اسلوب عرض الفكرة ، فيحبها ويدافع عنها ، وينغلق دون ما سواها •

وتأتي ظاهرة التداعي في الحب لربط الاسلوب بالفكرة ذلك ان اسلوب العرض لا علاقة له في الواقع بحقيقة الفكرة والفكرة لا جمال فيها او قبح ، الا بقدر ما فيها من نسبة الحقيقة ، الا ان التفكير المنهجي فقط هو الذي يحس بهذه المفارقة •

اما النفس فانها ، اذا احبت شيئا احبت كل ما يلابسها لظاهرة التداعي في الحب تلك الظاهرة التي لا تكشفها لنا تجارب العلم وحدها ، بل ووجدان كل منا ايضا ! فانا نشعر بحب كل شيء يرتبط بما نحبه •

ومن هذه الزاوية تدخل الدعاية في حقل الثقافة البشرية ، فتضيف عليها طابعها الواضح الكبير •

٣ ــ حب الفكرة

قد تحب فكرة لانها لبست علة قشيبه من الاسلوب الجذاب •• ففي طريق التداعي في النفس (وانها اذا استهوت شيئا استهوت ايضا كل ما يرتبط به ويتقارن معه) تحب الفكرة على عين اسلوبها ، ان هذه ظاهرة منتشرة ، وقد بحثناها في هذا الكتاب اكثر من مرة •

ولكن الظاهرة الاعجب منها ــ والاقل في ذات الوقت ــ هي :

٢ ـ ان تحب فكرة لانها تنسجم مع نفسية الفرد او نفسية الامة التي ينتمي اليها الفرد ..

ألف ـ اما عن الانسجام بين نفسية الفرد واستهوائه لفكرة معينة . فقد بين التحليل النفسي لبعض الفلاسفة ان هناك علاقة وثيقة بين « نفسية » الفيلسوف و « نوعية » فلسفته .

فمثلا : في موضوع « وحدة الوجود » قالت طائفة من الفلاسفة : ان كل شيء في الكون . هو شيء واحد . بينما قالت طائفة اخرى ان الاشياء هي متعددة .. وليست وحدة واحدة ،

وعند التحليل النفسي : كان ذلك الفيلسوف الذي يعتد بذاته ويفرط في الايمان به ، انه كان يرى العالم كأنه مظهر من مظاهر ذاته الواحدة . وبالتالي كان يتصور ان الاشياء جميعا شيء واحد لا أكثر (وحدة الوجود) مثلا نيتشه الذي قال : كل شيء هو انا ، بينما كان الفيلسوف الذي لا يغالي في الشعور بذاته يعتقد بوجود الاشياء منفصلة عن ذاته وبالتالي يؤمن بان لكل شيء وجودا خاصا به وينفي ـ بذلك ـ وحدة الوجود .

باء ـ وقد تكون نفسية الفيلسوف او المفكر او الشاعر مرآةتعكس نفسية امة بكاملها ، ويكون انتاجه الفكري صدى لتلك النفسية المنتشرة بين ابناء الامة كلها .

« من هنا ما يقوله العلماء الغربيون : ان الفيلسوفين (كانت Kant) و (هيجل Hegel) يمثلان العقلية الالمانية .

وان (ديكارت Descarte) و (فولتير Volteire) يمثلان العقلية الفرنسية وان (لوك Iocke) و (بيرك Burke) يمثلان العقلية البريطانية وان (وليم جيمس William James) و (جون ديوي John Dewey) يمثلان العقلية الاميركية .

« هذه الفروق الفلسفية بين هذه الامم الاربع ليست في الواقع الا صدى وان [1] كان صدى رفيع المستوى ـ لخصائص عقلية وخلقية تتغلغل ـ بنسب متفاوتة ـ في جميع الطبقات من هذه الامم وتميز احديهما عن الاخرى » .

« فالمنطق الآلي والكمالي النظري الذي يتجلى في فلسفة «ديكارت» يتجاوب في تراجيديات (كورني Cornei) و (راسين Racine) وفي الحماسة الملتهبة عند مفكري الثورة الفرنسية كما يظهر ـ مرة اخرى ـ في مشروعات السلم غير العملية ـ وان كانت كاملة من الوجهة المنطقية ـ التي امتاز بها الساسة الفرنسيون في الفترة (ما) بين الحربين العالميتين .

اما فلسفة (لوك Locke) الانجليزي فهي مظهر الشخصية الانجليزية ، كما تظهر (ذات الشخصية) في وثيقة (ماجناكارتا) وكما تظهر في التشريعات الانجليزية المتميزة بصياغتها العملية الاجرائية » .

« ونرى فلسفة (بيرك Burke) تسعى الى التوفيق بين ما تدعو اليه الاخلاق وبين ما تقتضيه الظروف وتوجيه الملائمة السياسية ، وهذا الطابع طابع العبقرية السياسية الانجليزية يتكرر بروزه في سياسة توازن القوى التي تمسكوا بها طويلا وما زالوا عاكفين عليها [2] .

٤ ـ حب الاباء

ان حب الآباء يبعث الابناء نحو تقليدهم وهو واحد من العوامل

---

(١) يستخدم صاحب النص كلمة العقل مكان الفكر حسب مفاهيمنا الدارجة في هذا الكتاب .

(٢) ديمقراطية القومية العربية الدكتور محمد عبدالله العربي ص ٦٤ وبتفصيل اكثر راجع كتاب الاسس النفسية لتطور الامم ص ١٧٢ .

الاخرى التي تدفعهم نحوه ، مثل احترامهم والخشية منهم على المصالح ، وترسب افكارهم منذ الطفولة .

٥ ـ حب البيئة

والبيئة الاجتماعية ، والثقافية ، تعتمد في تأثيرها على الحب ايضا ، ذلك ان الانسان يحب نظيره الانسان بصورة فطرية . ويحب لـذلك افكار اقرب الناس اليه فالاقرب (الاصدقاء الاساتذة) .

وليس الحب هنا الا اضعف العوامل الباعثة على تقليد البيئـة ، فالاقوى تأثيرا : انما هو .. الخوف على المصالح . ثم الانفتاح عـلى افكارها الجاهزة واحترامها احتراما يبعث على التقليد .

٦ ـ حب السلف

ان حب السابقين من العلماء والعظماء يبعث على اتباعهم والاتكـال عليهم دون بحث جديد في افكارهم لتقييمها ونبذ الافكار الخاطئة منها .

بـاء : فقد الثقة

فقـد الثقة جذر آخر من جذور الخطأ ، ذلـك : ان الوعي شرط اساسي في المعرفة ، ونعني بالوعي « وجدان الذات » والذي يتسبب من المعرفة بكامل القوى النفسية ، ثم الثقة بها ، واخيرا ضبطها في اتجـاه محدد ، ذلك ان الانسان الفاقد للثقة بنفسه لا يتمكن مـن التفكير ، او ربما لا يفكر ، وان كان قادرا عليـه ، ثم لا يجزم بنتيجة تفكـيره ، اذ سيقول ابدا : انا اقل قدرا من معرفة الحقيقة وهكذا يخطىء فكره وان كان صوابا ، لانه لا يعترف بامكانية توصل هذا الفكر الى الحقيقة .

وبتعبير آخر : ان الانسان يسلك الى المعرفة اما طريـق الحس او التعقل او الالهام ، والذي يفقد الثقة بنفسه ، يفقد الثقة بالحس، وبالتعقل

وبالالهام واخيرا لا يعترف بتلك المعرفة التي تأتيه من هذه الطرق ، ولذلك فهو لا يصل الى الحقيقة ، وليس فقد الثقة بالذات (او بوجدان الذات) يعني بالضرورة انكار كل مصادر المعرفة ، فربما يكفر الانسان بذاته عن طريق انكاره لواحدة من قواه وطاقاته ، كالذي ينكر قدرة الانسان على التعقل ، وربما يكفر بنفسه في جهة معرفة خاصة ، او في مقابل شخص واحد ، قد عرف خلاف ما يعرفه ، وهكذا يبدو « وعي الذات » والثقة بما به من مقدرة ، على تحصيل المعرفة ، شرطا اساسيا للعلم ، وبفقدها تقع اخطاء فكرية كبيرة •

كما ان من يفقد القدرة على ضبط مصادر المعرفة ، وتوجيهها حسب ارادته ، يفقد تلك المعرفة الآتية منها ايضا • من هنا كان — « وعي الذات » الذي يستتبع الثقة بمقاييسها ، والقدرة الى استخدام تلك المقاييس — اول واهم مقدمات المعرفة •

هذا هو الجذر اما النتائج :

النتائج

١ — الانغلاق دون مصادر المعرفة الذي يشكل اضخم كارثة فكرية تصيب البشرية • وهي من نتائج فقد البشرية الثقة بذاتها •

فالسوفسطائيون والشكاكون الذين قالوا ان المعرفة (او قدرة البشر عليها) محال تخبطوا في ظلمات الجهل فاذا بهم لا يبصرون شيئا ولا يعقلون •

والمثاليون الذين انكروا الحس ، والماديون الذين انكروا العقل وسابقياته ، واولئك الذين انكروا الالهام كمصدر موثوق للمعرفة الجازمة •

كل اولئك حجبوا عن الحقيقة ، بنسبة معينة ورفضوا الاعتراف

بانفسهم ، او بقدرتهم على المعرفة بذات النسبة بينما كانوا في الحقيقة قادرين عليها •

٢ ــ الذوبان في شخصية

يقول بعض الفلاسفة : ان تحطيم الماضي نوع من اثبات الذات ، والحقيقة انه لا يتمكن البشر من تحطيم ماضيه ، دون اثبات ذاته اولا •• ليتمكن من استخدام ذاته وما لديه ، من مقاييس في عملية التحطيم هذه•

فبسبب قوة شخصية علمية او سياسية او دينية فقد الافراد (بل حتى الامم) ايمانهم بانفسهم ، اذ انهم كانوا يترددون في الاعتراف بالحقيقة ، التي يصلون اليها اذا كانت مخالفة لما وصل اليها تلك الشخصية •

ان السلبية والانهزامية امام تيار او امة متقدمة ، كالانهزاميةالفكرية التي يعاني منها المسلمون امام تيار الشيوعية او امام الامم المتقدمة في الغرب ، انها نتيجة واحدة من نتائج الانبهار ، وفقد الثقة بالنفس ، وهذه الحالة ــ اشبه شيء بحالة الطفل حينما يطرح افكاره البدائية لاستقبال افكار والديه او من هم اكبر منه وهي ذات الحالة التي تصيب التلامذة والبسطاء والسذج والامم الجاهلية التي لا تفكر ذاتيا في الحقائق ، لعدم ثقتها بانفسها ، وحتى لو فكرت فيها فانها تطرح افكارها لحساب افكار من تعظمها •

وكما سبق فان للتقليد اسبابا اخرى الا ان هذا سبب رئيسي • للتقليد باية صورة كانت من صوره •

جيم ــ التسرع

لظاهرة التسرع ، والتي يعبر عنها بـ « حب النفس لسرعة الحكم »، جذر نفسي واحد ، ونتائج شتى ، فالجذر : هو « غريزة حب الراحة »اذ :

الحقيقة التي لا يرتاب فيها احد هـي : ان التفكير عملية صعبـة ومجهدة ، وتركيزه اصعب واشد جهدا ، وقلة المفكرين في العالم ناشئة عن الصعوبة البالغة التي يقتضيها التفكير المركز •

وحب الراحة هو الآخر حقيقة لا يرتـاب فيها احد ، فمن منـا لا يحس بها ؟

ومن هنا يتهرب البشر من التفكير المركز ، ويهوي التسرع لينقـذ ذاته من هذه الصعوبة وهذا هو جذر التسرع اما النتائج فهي :

١ ــ الانطلاق من قضايا خاصة ، (بظروفها واسبابها) الى الحكم بالقضايا الكلية •

فمثلا يرى الانسان جانبا من المدينة خرابا فيحكم عليها بالخراب ، ويرى رجلا يموت بحقن البنسلين فيحكم بان كل من احتقن به يموت •

حقا يستطيع الحدس الواضح ان يقفز من القضية الخاصة الى مـا هي اعم منها وذلك حينما « يعلم بوضوح » ان ليس هناك اختلاف فـي الظروف المحيطة بهذه القضية عن اشباهها ، فمثلا : حين يجرب مادة على حيوان فيرى انها تموته بعد احتقانه بها مباشرة ويكرر التجربة في ظروف مختلفة عدة مرات حتى يتيقن ان « سبب » الموت ليس الا هذه المادة •

الا ان الفرق واضح بين الحدس العلمي ، وبين التسرع الجاهلي ، ذلك ان التسرع انما هو ادخال غرض نفسي في الحكم ، والحدس العلمي بعيد عنه اذ لا يكون الا بعد اليقين بعدم وجود اي سبب لهذه الظاهرة ، سوى السبب هذا ولانه يعلم بوضوح : « ان السبب متى وجد ، جاءت الظاهرة » يعلم انه كلما وجد ما وجد هنا كانت ذات النتيجة مـوجودة خلاصة القول : ان التسرع لا يبلغ درجة العلم بوحدة الظروف ، في كل من المجرب وغيره ، والحدس يبلغها •

٣ ـ الافكار الجاهزة

٢ ـ ظاهرة الايمان بالافكار الجاهزة المستنبطة سابقا ، دون تمحيص وحتى لمعرفة ما اذا كانت صحيحة أم باطلة وذلك خشية ان تصيب الفرد مشقة كبيرة في عملية التفكير من جديد حول تلك المواضيع [١] . ولا فرق في هذه النتيجة بين : الخوف من التشكيك في افكار تبناها الانسان نفسه وبين ما تبناه العلماء قديما او حديثا . او املتها الظروف الاجتماعية ، او البيئة الثقافية ذلك لاشتراكها جميعا في جذر الخطأ النفسي الذي يتلخص في حب الراحة ، والذي يدعو الى تبني افكار جاهزة .

وربما يكون حب الذات . واحترام العلماء يكون وراء هذه الظاهرة (الايمان بالافكار الجاهزة) .

الا انه لدى تحليل النفسيات يظهر : ان هذا الجذر اصيل في النفس البشرية ، ساعدته الجذور الاخرى ام لا .

ان التقليد قد يوجد ـ دون وجود علاقة عاطفية بين المقلد والمقلد بل بمجرد ان المقلد ضعيف النفسية وغير مستعد للبحث بنفسه حول القضية فيتبع غيره فيها .

---

(١) لقد توصل ديكارت الفيلسوف الالماني الى ذات الملاحظة حينما قال عن نفسه انا انسان من تلقاء نفسي ودون وعي مني الى تيار آرائي القديمة .

واحاذر ان اصحو من غفوتي هذه خشية أن اجد اليقضة الشاقة التي تعقب هذه الراحة الهادئة (رينه ديكارت) ص (٤١) .

القسم الثالث : كيف نتجنب الخطأ ؟

البحث الثاني عن :

وراثة الأفكار

- كلمة البدء
- التربية ووراثة الافكار
- الوراثة وعوامل التأثير
- بماذا يستمر تأثير الوالدين
- الاسلام واتباع الآباء .

ضخامة الافكار الموروثة من الابوين لا تعادلها الا ضخامة العوامل التي تضغط على الوليد بأتباع والديه !

ومن الصعب أن نميز في كثير من الاحيان بين الانتقال المادي الذي تحمله الموروثات المنوية • وبين الانتقال الحضاري الذي تقوم به التربية الواعية ، كما يستصعب علينا تمييز الاتباع الارادي لافكار الوالدين ، والاتباع القسري !!

وأنى كان ، فحديثنا يتحدد الان بالقسم التربوي من التأثير الـذي يخلفه الوالدان على الوليد ، بينما نستعرض جانبا من التأثيرات الوراثية، عند الحديث عن العوامل المادية ، بالرغم من أن العوامل المادية تساعد ــ بقوة ــ العوامل التربوية في نقل الافكار اذ انها تعتبر ــ بالنسبة اليها ــ كالتربة الخصبة بالنسبة الى البذرة !

فالوالد الشديد الغضب ، لا بد أن ينقل الى أبنه استعدادات مناسبة لشدة الغضب ، بفعل الجينات الموروثة للصفات ، وهذه الاستعدادات قد تموت بفعل تربية صالحة ، يتلقاها الطفل في روضة الاطفال مثلا ، ولكن لو قام نفس الوالد بتربية ابنه فلا بد أنه سوف ينقل اليه سرعة غضبه من خلال سلوكه المنحرف ايضا •

وآنئذ يلتقي الاستعداد الموروث ، بالتربية المقصودة ، فيكـون التأثير مزدوجا !!

وهذا الامر ، يدعونا الى حساب القابلية عند الحديث عن تأثير تربية الوالدين •

١ ــ وهذا هو العامل الفارق بين التربية عموما ــ وتربية الوالد خصوصا ــ فبالرغم من أن كل تربية تؤثر في الطفل ، تأثيرا عميقا وشاملا ولكن تربية الوالد ــ حيث تلتقي غالبا بنوع الصفات التي ورثها الوالد لابنه بيولجيا ــ فانها تكون أكثر تأثيرا •

وهناك عوامل فارقة آخرى نشير اليها :

٢ ــ عامل الحب العميق الذي يكنه الوالد لولده مما يوجب تعميق صلته التربوية به وغالبا ما تنجح هذه الصفة في التأثير عليه لان طبيعة الانسان تقضي باتباع نصيحة من يحبه ويشفق عليه لانه آمين يضع فيه كل ثقته •

٣ ــ الاحترام الكبير الذي يكنه الولد ــ وربما طبيعيا لوالده •

وفيما وراء هذه العوامل المفرقة فان عوامل تأثير التربية مشتركة بين الوالد وأي مرب آخر •

وهناك عدة سبل لمعرفة مدى تأثير الوالدين في الوليد ، فمثلا :

١ ــ هناك دراسات قيمة لتاريخ الاسر ، نستطيع من خلالها التعرف على مدى تأثير الابوين •

٢ ــ وهناك دراسات كثيرة كعملية التبني •• وللافراد المتبنين ، نكتشف من خلالها مدى تأثير التربية البيتية في الوليد •

٣ ــ وأخيرا هناك دراسات هامة ، لبعض مناحي التصرفات التي تؤثر على الوليد ، والتي نستنبط منها ، مدى تأثير أعمال الوالدين في الوليد •

تاريخ الاسر • التبني واهمية التربية • التربية والتصرفات المؤثرة

وها نحن نذكر بعض النماذج من هذه الدراسات ، لنعرف من خلالها خطورة توجيه الوالدين لطفلهما ، ثم نتحدث باذن الله عن أهم العوامل النفسية ، التي تساعد على هذا التأثير أو تعطيه صفة الاستمرار •

تأريخ الاسر

لقد أتبع (سير فرانسيس جالتون) : طريقة البحث عن التشابه والاختلاف ، داخل الاسرة الواحدة ، عن طريق دراسة تاريخ الاسرة ، وكتب عنها في مؤلفه عن العبقريات الموروثة ، وأورد فيه تاريخ ٩٩٧ رجلا من ٣٠٠ أسرة وأجريت بحوث مماثلة في بلاد أخرى وأسفرت عن النتائج ذاتها ، بوجه عام •

وكلما تبين أن النبوغ يسري في الاسرة ، وكذلك فان البحوث ، التي تناولت عائلات ضعاف العقول ، والمنحرفين ، والتي تمثلها أسر آل (جوك) Jukes والكاليكاك Kallikaks بينت أن صفات كالضعف في العقلية والاجرام ، تسري أيضا في (الاسر) •

ولا ريب في أن هذه الدراسة لا تدل على أهمية الوراثة فقط بل وأيضا أهمية التربية اذ ان الاسرة ليست مناخا طبيعيا لانتقال الافكار بقدر ما هي تفاعلا حيويا لهذه الافكار عن طريق التربية الواعية وانتقال الاستعدادات والمؤهلات الطبيعية بالوراثة •

التبني واهمية التربية

تأتي أهمية التبني في حديثنا ـ من عاملين :

١ ـ ان الدراسات التي أجريت على التبني ، كانت دقيقة ومحددة ، اذ انها خضعت لمنهج البحث الدقيق •

ب ــ ان تأثير التبني لا يتداخل مع تأثير الوراثة ، بالرغم من انه لا يتجرد عن سائر العوامل المساعدة التي سوف نبحث : عن أنها تعطي التربية صفة الاستمرارية .

وأهم الدراسات التي تناولت التبني كانت تلك التي أجريت على الاطفال المحتضنين والتوائم المتماثلة الذين ربوا في بيوتات مختلفة ، والتي تشير الى درجة تأثر التشابه العائلي العادي بالتعرض لبيئات مختلفة متشابهة .

فالاطفال المتبنون ، يسجلون ارتفاعا في نسبة الذكاء ، بعد التبني في أحد البيوت المناسبة ، وكلما كان الطفل أصغر في السن ، وكان المستوى الاجتماعي والاقتصادي للبيت الذي تبناه عاليا ، كان ارتفاع نسبة الذكاء أكبر .

وأتضح كذلك أن التشابه بين الاخوة ، الذين يعيشون في بيوت مختلفة ، أقل كثيرا منه بين الذين يعيشون معا في نفس المنزل ، ففي جماعة مكونة من ١٢٥ زوجا من الاخوة تربى كل واحد في منزل مختلف ، وظل هذا الاختلاف مددا تتراوح بين ٤ / ١٣ سنة ، عندما أجري عليهم أختبار سنانفردوبينيه ، فبين أن معامل الارتباط ، بين ذكاء الاخوة هو (٢٥) فقط ، على حين أنه يصل الى حوالي ٥٠ بين الاخوة الذين يعيشون في نفس المنزل [(١)] .

وليس الذكاء كله مجموعة تفاعلات ، تجري بين الانسان ، وبين بيئته الثقافية ، ولا يرتفع الذكاء الا اذا تأثر الفرد بهذه البيئة ، تأثرا بالغاء لذلك نستنبط من ارتفاع نسبة الذكاء بالتبني : ارتفاع نسبة التأثر الثقافي بها أيضا !.

« ودراسة التوائم المتماثلة ــ الذين فصلوا منذ الطفولة ، ونشأوا في

---

(١) ميادين علم النفس ج٢ ص ، ٥٤١ .

بيوت حاضنة مختلفة ــ لتمدنا بكثير من الحقائق الهامة ، عن مشكلة الوراثة والبيئة ! ففي بحث متسع أجري على التوائم المتماثلة ــ الذين فصلوا منذ الطفولة المبكرة ــ درست حالة ١٩ زوجا منهم ، واختلفت النتائج من زوج الى آخر ، وقد أظهر التوائم اختلافات بينة عندما كانت البيئات متباينة، الى حد كبير، وكانت الاختلافات في جميع الصفات بما في ذلك النواحي الثقافية والمزاجية ، وحتى في الصفات الجسمية كالصحة العامة ، والقوة البدنية » (١) .

كل هذا بالرغم من ان التوأمين المتماثلين يشتركان في أكثر العوامل الوراثية ، فالاختلاف بينهما لا يمكن أن ينسب الى الوراثة .

التربية والتصرفات المؤثرة

أن تأثير طائفة من التصرفات يدل على مدى تفاعل الطفل مع بيئته الثقافية . فمثلا :

« كلام البالغين كثيرا مع الطفل ، حتى قبل أن يتطيع الاجابة يبدو وكأنه يجعل نمو ذكاء الطفل يسرع في السنوات الاولى ، وقد دلت الابحاث الحديثة : على ان انواع خاصة من اتجاهات الوالدين ، لها آثار كبيرة في نمو الذكاء ، فالاطفال الذين يجدون من آبائهم ، قبولا واحتراما لشخصياتهم ، والذين يجدون تقديرا وتشجيعا لمجهوداتهم دون اجبار أو تدقيق في مطالبتهم بها ، يتقدمون في مدى ثلاثة أعوام بما يعادل ثمان نقط في المتوسط في نسبة الذكاء ــ حسب مقياس « ستانفورد بينيه » ــ في حين يفقدها الاطفال الذين يشعرون بالاهمال قدرا قليلا (٢) .

« معرفة النتائج تسهل التعلم في كل الظروف ولكن أثرها يتناسب مع كونها أولا سريعة وثانيا نوعية .

---

(١) المصدر نفسه .
(٢) ميادين علم النفس ج١ ص ١٧٧ .

فالشرط الاول هي السرعة الحقيقية أذ أن عشر ثوان بعد الاستجابة قد يعد وقتا ! وقد يكون الافضل منه عشر الثانية (١) .

من تلك الدراسات التي أستعرضنا نماذج منها نستكشف خطورة دور الوالدين في توجيه أفكار الطفل . ويأتي دور المعلم مباشرة بعدهما . اذ أن الطفل سوف ينقل نظرته السابقة من أبويه الى مربيه .

« من الواضح : أن الطفل ينقل أتجاهه ، نحو مصدر السلطة الابوي الى الكبار الاخرين فتلاميذ المدرسة ، ينظرون ــ ضمنا ــ الى مركز المعلمة كشبيه بمركز الام ، والى حد ما ينظرون الى شخصها كشبيهة بشخصية الام ، فلا مندوحة أن تصبح المعلمة بديلة للام (٢) .

وقد اعتقد بعض علماء النفس : أن نظرة الانسان الى المجتمع، تتحدد أيام الطفولة ، من خلال نظرته الى الوالدين ، اذ ان المجتمع سيصبح أبوي الانسان فيما بعد . من هنا بحث بعض علماء الاجتماع في نظم الاسرة كمنبع للنظم الاجتماعية .

وأساس ذلك هي عملية نقل النظرة ، التي عالجها كثير من البحوث النفسية والاجتماعية والتي قال عنها « كهلر Kohler » : أنه لا يقل أهمية في أي عمر كان بشرط أن يكون نقلا صامتا لا يشعر به صاحبه ، ويعود السبب ــ في عملية النقل هذه ــ الى : أن الطفل اذا تعود على نوع خاص من النظرة ، سواء كانت نظرة حب أو كره ، لحترام أو أزدراء ــ فسوف تبقى عنده ذات النظرة، حتى بالنسبة الى غير صاحبها الاول، لان من الصعب عليه ترك عادته واستبدالها بنظرة اخرى ! (٣) .

ومهما كان من أمر نقل السلطة فان المعلم اقرب الناس الى الوالدين

---

(١) ميادين علم النفس ص ٢٠٨ ج١ .
(٢) ميادين علم النفس ج١ ص ١٣٠ .
(٣) راجع بحث العوامل المادية .

في نظر الطفل لذلك يكون تأثيرها أقوى من غيره ، ممن تنقل اليهم نظرة الابوة •

الا أن تأثير المعلم أخف من تأثير الوالدين ، لعدة عوامل أهمها :

١ ــ أن عوامل الوراثة التي سلمنا تأثيرها في تفكير الطفل[١] مفقودة عند المعلم •

٢ ــ أن الحب الذي سنعرف أنه يعمل على ترسيخ أفكار الاب في الطفل لا يشمل المعلم ، أذ أنه يفقد حب التلميذ كلما كبر ووعى •

بعد أن ألقينا نظرة خاطفة على أبعاد تأثير الوالدين في الطفل ، يجدر أن نبحث عن العوامل النفسية لهذا التأثير وتأتي خطورة البحث عن هذه العوامل من سببين :

١ ــ أن التحكم في تفاصيل التربية لا يتم بدون معرفة العوامل النفسية التي تكمن ورائها •

٢ ــ أن التخلص من رواسب التربية بعد مرحلة الوعي لا يستطاع ، الا بمعرفة جذورها النفسية ، وهذا هو السبب الاهم عند الباحث عن المنطق ، ومناهج البحث ، اذ انه يفتش عن أسباب الخطأ، تمهيدا للتخلص منها •

وعوامل التأثير كثيرة أهمها ثلاثة :

آ ــ الفراغ

ب ــ الحب

ج ــ الاحترام

---

(١) راجع بحث العوامل المادية .

آ ــ ففراغ نفس الطفل ، يؤلمه ربما أكثر مما يؤلـم الفـراغ قلب الكبير، لذلك فهو يفتش عن شيء يملأ به هذا الفراغ فاذا وجده عند أحد التهمه ، والا اخترع لنفسه أوهاما يتشبث بها !

والاسئلة المتنوعة ــ التي يفيضها الطفل على من حوله ــ دليل على مدى ضغط الفراغ على قلب الطفل ، ومن هنا تزداد قابلية الطفل للتأثير بالايحاء ، وتزداد قابلية الايحاء من الرابعة الى الثامنة من العمر ، ولعل السبب يكمن في أن لغة الطفل تبدأ بالتكامل في تلك الفترة ، كما أن الطاعة والرضوخ لآراء الابوين •

والانا الاعلى (نظرية فرويد) تمهد لهم اطاعـة افـراد وافكار ، وايحاءات أخرى ! ولا يبدأ الطفل بالتحرر من قيود الايحـاء الا عندما تتكامل ذاته ، ويدرك أن الابوين ليسا بعظيمي القدرة والمعرفة ، كمـا توهم أثناء طفولته [1] •

وطبيعة الانسان أنه لو ملأ فراغ قلبه بفكرة زعم أنها جزء من كيانه• فلا يستطيع التخلص منها ، الا بالتجرد عن حبه لذاته ولو بمقدار •

ولذلك لا يكون الفراغ عاملا نفسيا باعثا على بحث الطفل عن الفكرة أنى كان مصدرها لا يكون كذلك فحسب ، بل وأيضا سببا لترسيخ هذه الفكرة فيه بسبب حب الطفل لهذه الفكرة التي ملأ بها فراغه ، زاعما أنها أصبحت جزء من كيانه فيدافع عنها كما يدافع عن كيانه •

(ب) حب أي شخص يبعث الفرد نحو اتباعه والطفل لا ريب في حبه لأبويه ومربيه ، مما يدعوه الى تقمص شخصيتهم •

ولقد اعتبر فريق من علماء النفس : عامل الحب هو الحاسم في امر التربية ، قال « مورتن Morton » الاستمالة ــ لا الاجبار ــ هـي

(١) غسل الدماغ د. فخري الدباغ ص ٤٨ .

أساس السلطة ، اذ أن أول سلطة كانت علينا هي سلطة الام ــ وكما نعرف ــ أنها أيضا مصدر أشباع لحاجاته (الطفل) وأول موضوع لحبه !

ألا أن بعض الشواهد ، قد تدل على أهمية عامل الاحترام لاسباب يأتي ذكرها ان شاء الله •

(ج) « تصب ركائز مشاعر الطفل واحاسيسه من أول أيام الرضاع [1] » •

ومن بين أهم تلك الركائز حب الذات ، الذي يتشعب بدوره الى فرعين :

١ ــ الرغبة •

٢ ــ الرهبة •

ورغم غموض كل مشاعر الطفل في ايامه الاولى ، فان خوفه من الحياة ، وتشبثه في الوقت ذاته بها ، لا يمكن أن ينكرا ! ويظهر من بعض الدراسات « أن السلوك الانفعالي في الرضيع ، كباقي سلوكه ، غير متمايز نسبيا ، ونعني بذلك انه في الثلاثة أو الاربعة الاسابيع الاولى ، نجد نوعا من أنواع الاستثارة العامة أو الهياج ، ردا على أي مثير قوي وتتميز هذه الاستثارة بحركات قوية ــ ولكنها ناقصة التآزر ــ يقوم بها جسم الصغير كله ، وتكون العلاقة بينه وبين المثير غير واضحة ، ويعاني الملاحظون ــ عادة ــ صعوبة في تسمية هذا الانفعال ، ، ولكنهم جميعا على وجه التقريب ، متفقون في عد هذا السلوك سلوكا انفعاليا • وهذا النهج البسيط ، بالرغم من أنه يستمر ظاهرا فانه يظهر بالتدريج نمطان جديدان من الاستجابة ، هما الانقباض والانشراح ويبدأ الانقباض في حوالي الاسبوع الرابع ، في حين يبدأ الانشراح متأخرا بعض الشيء [2] والانقباض

---

(١) عقده حقارت ص ٩ .

(٢) ميادين علم النفس الجزء الاول الصفحة ١١٠ .

يدل على وجود الرهبة ، والحزن والخوف عند الطفل ، كما يدل الانشراح على وجود الرغبة والفرح والامن عنده .

وعلى أي فأن هذا الانفعال أدل شيء على وجود أحساس قوي عند الطفل بحب الذات ، والذي يظهر بعد الاسابيع الاربعة الاولى ، من حياته بالتمييز ، بين الرغبة والرهبة ،

ونوع تصرف الكبار مع الطفل في أيامه الاولى تختلف آثاره على سلوك الطفل ، في المستقبل ، فمثلا : مقاومة الطفل لسلطة الكبار ، تنشأ من مقاومة الكبار لرغباته في أيامه الاولى .

من هنا نعرف أن الطفل ينطوي على حب الذات ، منذ ولادته وينتقم لنفسه حتى بعد حين .

« فمقاومة سلطة الوالد ــ تماما كالخضوع لها ، تبدأ مبكرة في الحضانة ، ان لم تكن في المهد ، الا ان الدراسات المضبوطة للتطور المبكر لهذه المقاومة ، ما زالت ناقصة ، ولكن دراسات رست Rast وكلاى Caille ورينولدز Rexnolds تبين آن حضارتنا بعض المظاهر قد بلغت قمتها من حوالي السنة الثانية أو الثالثة من العمر وفي هذا الوقت يكون من المحتمل أن يقاوم الطفل حتى أقل اقتراح أو سؤال لفظي [1] »

فهذه المقاومة انما تكون ، بسبب أنتقام الطفل لنفسه ، ولا يكون انتقام الا اذا كان في النفس شعور قوي بحب الذات !. وحب الذات بمظهريه السلبي (الرهبة) والايجابي (الرغبة) يبعث الطفل الى السعي وراء ضمان السلامة والعيش ، لنفسه ، ولولا هذا السعي ، لم تكن التربية ممكنة ، اذ ان أفضل الوسائل التي يتبعها المربي هو : توجيه هذا السعي بما يؤمن الخط التربوي المنشود .

وبسبب شعور الطفل القوي بضعف نفسه،وبسبب اعتقاده الراسخ:

---

(١) ميادين علم النفس ج١ ص ١٢٦ .

في أن القوة موجودة عند الكبار ، الى درجة يصعب عليه التصديق بعجزهم عن أي شيء يريد ، يكن احتراما واسعا لاقرب الكبار اليه ، واحتراما مماثلا لافكارهم ، ونوع سلوكهم ، لزعمه أنها خير ضمان لسلامته وخلاصه .

وبصفة عامة ، يؤدي هذا الاحترام ــ سواء كان فيالصغير أو الكبير، في الفرد أو في الجماعة ، لشخص أو لطائفة ــ يؤدي الى أتباع الجهة المحترمة .

فنحن مجبولون على تقليد من نحترمهم، ونعتقد فيهم القوة والرفعة، والشعب الضعيف مفطور على اتباع الرجل المقتدر المهيب أو الامة القوية القاهرة في نظره !!

والانسان يتبع مجتمعه القوي . أكثر مما اذا كان مجتمعه ضعيفا مقهورا وهكذا ..

فالطفل اذا لا يشذ عن القانون العام ، في اتباع والديه ، نزعمه انهما مقتدران قويان !

بل لا يشذ الطفل عن سائر الاحياء في هذا الاتباع (حيث أن التصرف الاعتمادي الشبيه بتصرفنا (نحن البشر) موجود في القردة وباقي الثدييات ــ يبدو أن من المحتمل ألا تكون هذه الاستجابات ، مجرد نتيجة تدريب، أو التقاليد ، بل لها أسس فطرية [1] .

الا آن هناك فرقا بين الطفل الصغير ، وبين الكبار في تقليدهم ، لمن يزعمون قوته ، هو أن نوع القوة يختلف عند الصغير والكبير فالصغير يزعم أن القوة منحصرة في بعض المثيرات المادية التي يعرفها فقط بينما الكبير يعرف بالطبع آنواعا عديدة من القوة !

كما أن هناك فرقا كبيرا بين الطفل وسائر أقسام الحيوان الا وهو

---

(١) ميادين علم النفس ج١ ص ١٢٤ .

طول مدة الطفولة مما يجعله أكثر خضوعا للكبار ، وأقل أعتمادا على النفس من سائر الاحياء :

« أن وثيقة اعلان الاستقلال تقرر « أن الانسان يولد حرا » غير أنه من الاصح من الوجهة السلوكية : أن نعترف أن الاطفال جميعا ، يولدون خاضعين لآبائهم ، فمن واجب كل فرد أن يحقق حريته بمجهوده الشخصي [1] » .

وهناك فرق آخر هو أن وليد الانسان (الطفل) أكثر وعيا ، وأقل قدرة ! بينما وليد الحيوان أقل وعيا وأكثر قدرة ، لذلك يكون أمجاع وليد الانسان أقرب الى اختيار واع (مع ما في هذه الكلمة من تسامح) من وليد الحيوان ، ولذلك تكون التربية ذات أثر بالغ في نمو الطفل البشري! ــ دون صغار الحيوانات ــ

ان استجابة الطفل تختلف من فرد لآخر لانها استجابة واعية تقريبا، بينما استجابة وليد القرد ــ مثلا ــ يتم بصور شبه آلية ، ولا يفرق بين قرد وآخر !

من هنا صحت النظرية التربوية القائلة : أن مجرد تكرار عملية من قبل مربي الطفل ، ليس بذات أثر كبير في تربية الطفل ، ان لم تكن هناك غاية يفقهها الطفل ، يقول « ثورنيك » : « كل النظريات التربوية ــ التي تعلق أهمية على الخبرة والنشاط ، لمجرد كونها خبرة او نشاطا،دون اعتبار اتجاه هذه الخبرة او النشاط ونتائجها ــ هي نظريات أصبحنا نشك فيها أكثر من ذي قبل ، فالخبرة ــ التي لا تشمل الا على مواجهة موقف من مواقف الحياة ، والاستجابة له ــ لا يمكن ان تصبح عاملا فعالا للخير والشر : ما دام تكرار هذه الخبرة آلاف المرات لا يحدث أثرا يذكر [2]»

---

(١) المصدر ، ١ ص ١٣١ .

(٢) المصدر .

« وعلى اي حال فأنه ما زال مقررا ان وجود المعنى يدعو الى الانتاج [1]

« يميل الطفل دائما الى كل ما له معنى عنده أو أهمية لديه ، وما يبعث في نفسه المحاولة التي ترمي الى غرض ، وهو دائما يتعلم في مثل هذه الظروف [2] .

اذا : الوعي هي الميزة الاولى لصغير البشر . والضعف ميزته الثانية! وبأجتماع الوعي والضعف معا ، تكون قابلية صغير الانسان للتربية كبيرة، بالقياس الى قابلية صغار الحيوان .

وهذا مما يدل — ببساطة — الى وجود حب الذات في الطفل منذ عهد مبكر ، وهو وراء كثير من تصرفاته !

بماذا يستمر تأثير الوالدين ؟

ويستمر تأثير الوالدين الفكري في الطفل ، حتى بعد استقلالهالتام! ويعود ذلك الى عدة أسباب :

١ — صعوبة اقتلاع الافكار بعد رسوخها أيام الصبا ، ويبدو : ان رسوخ بعض الافكار يتطاول في بعض الاحيان على التغيير ، ألا ان ذلك تطاول ناشيء من غفلة الشخص ، وأستهاتته باعادة النظر في سابقياته التي اكتسبها أيام الطفولة ، مما يدل على ان استمرار الوالدين ليس حتميا ، بالاضافة الى أنه يذهب فريق من علماء النفس الى أن الانسان يمر عليه وقت . الا وكان يرتاب في سابقياته ، كالايام الاولى من الشباب ، حيث تعصف به مشاعر استقلالية عنيفة ، تدعوه الى التجرد عن افكاره السابقة

٢ — أن احترام الانسان لوالديه ، يستمر بعد أيام طفولته ، ويكون هو السبب في نشوء حس التقليد لديه ، ويكون هو أيضا : السبب في

---

(١) المصدر ، ١ ص ١٩٥ .

(٢) المصدر . ج١ ص ١٩٣ .

استمراره بالرغم من ان احترام احد لا يفرض عليه اتباعه فرضا حتميا •

ان التخلص من افكار احد يستتبع ـ بالطبع ـ تخطئة هـذا الشخص ، وحب الآباء لا يدع الفرد يخطىء والديه ، فالحب هذا مصدر استمرار اتباع الوالدين ، والملاحظ ان السبب لا يوجب حتمية الاتباع ، أذ أنها جميعاً ناشئات العواطف ، والغفلة ، والاحترام مما لا يذهب بقدرة الانسان على التفكير الحر •

(الاسلام واتباع الآباء)

ولقد ذكر الاسلام بدور تقليد الآباء في تحريف الفرد واضلاله •

وأشار أيضا الى بعض التفاصيل التي ذكرنا بها آنفا • ونختار بعض النماذج الهامة من هذه النصوص التي تعتبر ، أيضا تلخيصا للحقائق الآنفة الذكر :

١ ـ عن تقليد الآباء قال الله سبحانه في القرآن الحكيم « واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آبائنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون (١) »

ان كلمة حسبنا في هذه الآية ذات دلالة بليغة على : أن سبب اعتماد الناس على آبائهم هو الاشباع الثقافي اذ ان افكار الآباء تجعلهم مكتفين ـ في زعمهم ـ عن أتعاب البحث ، وقال الله تعالى :

« واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آبائنا (٢) وهنا يصعب على الكفار الاعتقاد بضلالة الآباء ربما بسبب حب الابناء لهم، واحترامهم أياهم •

---

(١) المائدة/١٠٧ .
(٢) الاعراف/١٧ .

وقال تعالى « وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير ، الا قال مترفوها : انا وجدنا آبائنا على امة ، وانا على آثارهم مقتدون [1] .

في هذه الآية نلاحظ مدى رسوخ عادة اتباع الاباء في جميع الامم المتخلفة . مما تدل على وجود جذور فطرية لهذا الاتباع وقال : الله سبحانه « واذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ، واشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا ، ان تقولوا يوم القيامة : « انا كنا عن هذا غافلين » أو تقولوا : « انما أشرك آباؤنا من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون » [2] .

نجد في هذه الآية : قضية فطرية بالغة الحجة كالايمان بالله يحاول الكفار انكارها ، ثم القاء اللوم على آبائهم ، باعتبار انهم ليسوا سوى ذرية من بعدهم ، وأنهم هم المبطلون ، وبالطبع ردهم القرآن . بأن فطرة الايمان بالله لا تدع للانسان مجالا لاتباع الآباء في الكفر بالله !! وجاءت الرواية التالية :

قال أبو الحسن عليه السلام اذا وعدتم الصبيان ففوا لهم ، فأنهم يرون انكم الذين ترزقونهم ، ان الله عز وجل لا يغضب لشيء كغضبه للنساء والصبيان [3] » .

فاعتقاد الطفل ان والديه هما اللذان يرزقانه ــ هو بعض الدواعي الموجبة لتقليده لهم اذ ان هذا الاعتقاد يحدث فيهم الاحساس الكبير بالاحترام !

(1) الزخرف/٢٣ .
(2) الاعراف/١٧٢ ــ ١٧٣ .
(3) الكافي ج١ ص/٥٠ .

القِسم الثالِث : كيف نتجنب الخطأ؟

البحث الثالث عن :

التوافق الاجتماعي

- كلمة البدء
- عوامل تأثير الاجتماع
- الهوى جذر الغريزة الاجتماعية
- عملية غسل الدماغ .

كلمة البدء

حين تحدثنا ــ عن تطور الفكر المنطقي ــ تحدثنا عن المنطق الاجتماعي وكان حديثا تاريخيا بينما نتحدث هنا عنه لتقييمه ومعرفة دوره في عملية تجنب الخطأ .

قلنا سابقا ان المنطق الاجتماعي قد انتهى الى تقرير ان المجتمع هو اساس المنطق وان الاصول المنطقية انما هي مستوحاة من تطور الحياة الاجتماعية وانه لا وجود للافكار القبلية بل المجمع هو الذي يصنع قوالب للتفكير ويضعها في ذهن الافراد فنحسبها افكارا قبلية اما المقولات المنطقية فانما هي مقولات اجتماعية .

يبقى ان نتسائل عن امرين ونجيب عنهما في هذا الفصل . وهما :

١) ما نسبة الحقيقة في المنطق الاجتماعي وما هي نسبة التطرف ؟

٢) اذا كان المنطق الاجتماعي صحيحا ــ وهو صحيح نسبيا ــ فلماذا وما هي الادلة العلمية عليه وما هي الدواعي النفسية التي تكون وراء صحة هذا المنطق ؟؟

لا للحتمية الاجتماعية

للاجابة على السؤال الاول نكرر ما قلناه سابقا [١] من ان المنطق الاجتماعي تجاهل دور الفرد ودور القيم السابقة التي يملكها الفرد ويستطيع ان يقيس بها الضغوط الاجتماعية وان يتحداها اذا شاء .

---

(١) عند الحديث عن تطور الفكر المنطقي .

ان دركايم ومن سبقه من المناطقة الاجتماعيين ارادوا ان يؤكـدوا طبيعة الانسان الاجتماعية ففغلوا عن الوجه الاخر للحقيقة وهو طبيعتـه القادرة على مقاومة ضغوط الاجتماع .

وهنا يكمن الفرق بين دراستنا للمنطق الاجتماعي ودراسة الاخرين حيث انهم يدرسون ويركزون على الجانب الحتمي ، ونحن ندرس الجانب الارادي (الذي يخضع للاختيار) .

وينعكس هذا الفرق على المنهج ، حيث اننا نـدرس المنطلقـات النفسية ، التي تكمن وراء الاستسلام للمجمع وعن طريقها نكتشف طبيعة وعوامل تأثير المجمع على الفرد ، ولهذا فنحن نقسم الـدراسة ابتداء من دراسة الحشد والتجمع ومرورا بدراسة الانتماء والجماعة وانتهاء بدراسة البيئة والمجتمع ، وذلك من أجل التعمق في العوامل الخلفية لتأثير المجتمع على الفرد .

اما منهج المناطقة الاخرين فهو دراسة المظاهر العامة للجماعة ابتداء من اللغة والمصطلحات وانتهاء بدراسة المراحل التاريخية للامم والجماعات.

ولدراستنا هدف محدد : هو كشف العوامل الاجتماعية من أجل التحصن ضدها ، وليس من أجل الاعتذار عن الانحرافات بأن الناس هم مصدرها وليس الفرد . وكما يقول احدهم :

صحيح ان المنطق علم معياري ، كما يقول بعضهم وصحيح انالبشر يشترك مع بعضه في انه يمتلك مقاييس عامة لا يختلف فيها اثنان : صحيح كل ذلك . ولكن الاصح : ان افكار البشر لا تتكون مجردة عن الواقـع الاجتماعي ، وهذا مفتاح طريقتنا للتجرد (في) الفكر ، وعدم التأثر بالخطأ من خلال الواقع الاجتماعي [1] .

---

(١) علم الاجتماع والفلسفة ج١ ص ٢١٧ .

عوامل تأثير الاجتماع

عامل التجمع (الحشد) عامل الجماعة (الانتماء) عامل التجمع (الهيئة) مصدر قوة التجمع

وللاجابة على السؤال الثاني لا بد ان نعرف : اننا نكتشف ــ من خلال دراستنا ــ عاملا نفسيا نسميه بــ (التوافــق الاجتماعي) هــو المسئول عن تأثير المجتمع على الفرد فما هو هذا العامل وكيف نكتشفه ؟؟

لهذا العامل ثلاث درجات مرتبة على بعضها ، وهي :

١ ــ عامل التجمع (الحشد)

٢ ــ عامل الجماعة (الانتماء)

٣ ــ عامل المجتمع (البيئة)

والسبب في تدريجية هذه العوامل أنها تسير من مستويات التأثيرات الموقته المباشرة صاعدة الى مستويات التأثير المستقرة غــير المبــاشرة . وذلك : لانك في تجمع الحشد ، تستقبل منبهات قوية ، تؤثر فيك بصورة مباشرة ! مما يجعلك تحس بأنك واقع ــ فعلا ــ تحت تأثير قوة خارجية، تحاول توجيه أفكارك ، بيد أن هذا التأثير سيظل قويا ما دمت في التجمع، فاذا خرجت كنت أكثر قدرة على تقييم ما سمعت ورفض ما شئت منه !

وبعد الحشد يأتي مستوى الجماعة ، فانك أكثر تأثرا بالتوجيهات الفكرية التي تتلقاها من جماعتك التي تنتمي اليها بالقياس الى جماعات غيرها ولكنها ليست ــ دائما ــ توجيهات مباشرة . اذ قد يكون تــأثرك بنوع أفكارهم آتيا من أتخاذك احدهم قدوة ! ولكنها أكثر استقرارا ، لانك قد تبقى لفترة طويلة متأثرا بأفكار الجماعة .

والمجتمع أبطأ تأثيرا من الجماعة والحشد ، الا أنه أبقى أثرا منهما !.

وهكذا يتحتم ــ علينا ــ آن ندرس التجمع ، ثم الجماعــة ، ثــم المجتمع ، لكي ننتقل من ذات التــأثير القوي المباشر ، الــى ذات التأثير

المباشر المتــدرج والبعيد المدى !! لان معرفــة العوامــل المؤثرة ذات التأثير المباشر أيسر من غيره لان التجربة يمكن أن تتحكم في التجمع ، لسهولة تكوينه وامكان مراقبته ، ودراسة نتائجه • بينما لا يمكن للتجربة أن تتحكم في المجتمع لانتشار افراده ، وتنوع المؤثرات فيه ، وبطء ظهور نتائجه !

والدافع الى الدراسة أمران :

١ ــ معرفة قوة الشعوربالتوافق الاجتماعي فيتوجيهالفكر البشري•
٢ ــ معرفة جذور هذا الشعور وأسبابه •

(التجمع / الحشد)

يفترض في التجمع توفر ثلاثة عناصر :
١ ــ التواجد في مكان واحد •
٢ ــ الهدف المشترك في هذا التواجد !
٣ ــ العقلية المشتركة التي توجههم الى ذلك الهدف •

فمثلا للتظاهرة مكان واحد وهدف مشترك وعقلية رائدة يسودها ! بينما لا نجد المكان الواحد في المستمعين الى اذاعة ــ ولا نجد الهــدف المشترك في المزدحمين على رصيف ، ولا نجد العقلية الموجهة فيالمتواجدين لهدف الشراء !

وبعد توافر هذه العناصر لا فرق ــ في بحثنا هذا ــ بين أن يكــون هذا التجمع دينيا • أو طبقيا • أو مصلحيا ! فأنه رغم وجود فوارق كبيرة بين هذه الاقسام الثلاثة ألا أنها تتصل ببعضها فيما نحن الان بصدد معرفته من قوة التأثير في أفراده وكذلك لا فرق بين أن يكون للتجمع خطيب أم عدة خطباء أم يكون من نوع التظاهرة التي تقودها حماسة المشتركــين أنفسهم •

وقد دلت التجارب على حقائق هامة في دراسة التجمع أهمها :

١ ــ أن للتجمع قوة لا تقهر ، وأن مصدرها هو الاحساس بضرورة (التوافق الاجتماعي) الذي يعد من أهم الغرائز البشرية ، وقد يضاف اليها قوة الغرائز المكبوتة التي يطلقها الحشد ، فتتضاعف قـوة الحشد آنئذ !

والآن : لندرس قوة التجمع (الحشد) •

قوة التجمع

ان سلوك أبناء التجمع يظهر خواصا جديدة ومختلفة تمـاما عـن سلوكهم منفردين ، اذ يختفي هنالك الشعور بالـذات ويبرز الشعـور بالجماعة حتى لا يعدو الشخص يفكر بأنه زيد او عمر !

وهكذا تتعطل ــ بصورة مؤقتة قدرات الشخص الفردية ، وتحـل محلها الغرائز المكبوتة !

وهذا يكشف لنا عن سبب تصور ابن التجمع في النواحي العقلية ، بينما يتقدم في قدراته التنفيذية ، التي لا تحتاج الى ذكاء !

ورجل التجمع يكون ذا صفات فمنه انه : سريع التصديق ، كـاسح الحكم ، متعصب الرأي ، متناقض العمل ، يظهر منه انعدام للقيم ، اذا وجه الى الهدم ، وامتلاء تام بالتضحية ، اذا وجه نحو البناء !

والقصة التالية التي وصفها لنا أولبورث ، تدل علـى مدى قـوة الحشد ! وكيف أنها تعطل قدرات الفرد العقلية :

قبض مجموعة من المضربين على نفر من العمال الذين خرجوا عـن الاضراب ، وساروا بهم في شوارع المدينة ، وكلما تقدمت صفوف السير ازدادت حماسة المضربين، عنفا وضراوة حتى خاف قادة العمال من الموقف، ونصحوا هذا النفر بالفرار فلما هربوا ، أخذت مؤخرة التجمع تطاردهم ،

وحين مروا بالقادة ـ الذين نصحوهم بالفرار أول مرة ـ تحولوا هم أيضا عن مواقفهم وتعقبوا العمال ، وأشبعوهم ضربا [١] !

أنه مثل رائع لتأثير التجمع ! وقدرته على سلب الفكر من الانسان !

مصدر قوة التجمع

ان الانسان ، حين التجمع لا يجد متسعا من الوقت للتفكير ، اذ أن ورود الافعال المتوالية الصادرة من أفراد التجمع ، والتوجيهات المستمرة، النابعة من مركز التجمع ، كلها تشترك في سلب قدرة الفرد النقدية .

وكلما كان التجمع أكثر ظهورا للفرد ، كان شعور الفـرد بوجود التجمع أكبر أثرا فيه ، ولذلك كان تأثيره في تعطيل القدرة النقدية أقوى !

من هنا كان التلاصق الجسمي ، والحلبة الدائرية ، واظهـار ردود الافعال بصوت مرتفع ، كانت هذه الثلاثة هو المقياس الذي نستطيع أن نزن به مدى قوة هذا الحشد أو ذاك ، حسب ما دلت عليه التجارب [٢] .

اذ ان هذه المؤثرات الثلاث ، تضغط على النفس باتجـاه الايمان بوجود الجماعة بل ـ أكثر من ذلك ـ قد تجعل هذه المؤثرات ، الشخص يعتقد أن الذين يراهم من حوله هم فقط أهل الدنيا ، وحين يتعمق هـذا الايمان في النفس تتناقض بقدرها الثقة بالنفس عند الشخص ، حتى لا يعدو ، يفكر تفكيرا منفصلا عن الآخرين !

ويزيد هذا الايمان عمقا في نفس الشخص، وجود التوجيه المشترك، اذ ان مجرد الاشتراك في تلقي التوجيه ، ولو للحظة واحدة ـ يجعلنـا نشعر بعمق ـ أننا مندمجون مع الآخرين !

وهذا يفسر لنا السبب في تأثير الايحاء في رجل التجمع ، اذ أنه ـ

---

(١) ميادين علم النفس ص ، ٣٠٥ ج ١ .

(٢) ميادين علم النفس ٢٩٤ ـ ج ١ .

باشتداد شعوره بوجود الآخرين ، وهبوط مستوى تفكيره النقـدي ــ يصبح مادة صالحة للايحاء ، اذ ان أفضل أوقات الايحاء ، انما هو حين يهبط مستوى التفكير عند الشخص !

بل ان رجل التجمع ، يصاب بحالة الاسقاط الشعوري ، اذ انه ــ ما أن ، ينفعل قليلا بتوجيه الفكرة ــ حتى يتراءى له أن انفعال الآخريـن ، نابع من تسليمهم له ، واتباعهم لفكرته ، وهنا يزيد ايمانا بهم واندماجا معهم !

التوافق والحياء

ان الشعور بوجود الآخرين ، لا يفعل شيئا في الانسان ، لولا وجود الشعور بضرورة (التوافق مع الآخرين) ، وتأصله في نفسه ، وهو الذي يكمن وراء قوة هذا الشعور ، ــ وبشدته وضعفه ــ يتعلق مدى تأثيره في نسبة الشخص ، فصاحب النفسية القوية ، ــ كبعض القادة ــ أو صاحب الضمير المتعود ــ كرجال المباحث ــ لا يتأثرون بما يتأثر به الآخرون . وبالشعور بوجود الاخرين ، والايمان بهم ، وتأصل هذا الايمان ، وتعمقه، والشعور بأنهم تابعون لنوع أنفعاله عن طريق الاسقاط الشعوري ، بهذه كلها تتاح الفرصة للغرائز المكبوتة ، أن تظهر ، تلك الغرائز التي كان يمنع عن ظهورها ، الحياء من الجماعة ، فالآن ذهب الحياء حيث يفعل الآخرون نفس ذلك العمل !!

ذلك لانه يدور صراع دائم ، بين غرائز الانسان ، وبـين القيـم الاجتماعية ، وموقف التجمع يعطينا القدرة على حل هذا الصراع علـى حساب القيم ، وباتجاه الغرائز لانه ما ان يقف الجميع على صعيد واحد، حتى يشعر كل فرد منهم : بأنه بالاضافة الى الآخرين ــ يشكلون المجتمع كله ، وهكذا يتحول المقياس الاجتماعي ، الى هذا التجمع ، فاذا تراءى

للفرد بأن هذا التجمع بدءا يتحلل من قيم الاجتماع ، ضغطت عليه الغريزة، بالتحلل هو الآخر !

ويتبادل كل فرد التأثير ، بعملية الاسقاط الشعوري ، حين يزعم كل بأن الآخر تحلل : فعلا من القيم الاجتماعية ! كما أن الآخر يزعم بأن هذا هو البادىء !

لذلك لا نستطيع أن نحدد بوجه الدقة من الذي ابتدأ بالانهيار الا ان سرعة عدوى الانهيار ، تدل على وجود قابلية في الافراد له !

من هنا يشعر رجل التجمع بشجاعة أكبر وأمثل من شعوره بها اذا كان منفردا ! وبهذه الشجاعة يخترق حاجز القيم ، التي كان يحترمها سابقا ، خوفا أو طمعا ! وهذه الشجاعة آتية من ذات المصدر الذي نبع منه الاحترام ، وهو الاجتماع ، فالقيم فرضتها الحياة الاجتماعية ، وها هي الحياة الاجتماعية الممثلة في التجمع ، توجب عليه التحلل منها !.

ومثله في ذلك مثل الطفل الذي كانت تعاقبه امه على الاعتداء ، فأخذت أمه تشجعه ــ مرة ــ عليه !! فأن قيامه بالاعتداء سيكون هذه المرة بشجاعة كبيرة ، اذ ان المصدر الرادع أصبح هو الدافع له .

ونستطيع أن نشير الى مراحل التحلل من القيم في رجل التجمع باختصار فيما يلي :

١ ــ يتصور الفرد أن ، المتواجدين معه هنا هم كل الاجتماع ..
٢ ــ يتراءى له انهم في حالة تحلل من القيم بالاسقاط الشعوري ،
٣ ــ يحسب أن التجمع يدفعه نحو التحلل .
٤ ــ فيكون لديه عاملان . للتحلل ، عامل داخلي هو الغريزة ، وعامل خارجي هو ضرورة التوافق مع الآخرين !

١ ــ اذا فقوة الحشد ناشئة من عامل « التوافق الاجتماعي » وقد

نضيف اليه عامل الغريزة المكبوتة ! التي كان التوافق الاجتماعي ، سببا لصدها عن البروز قبلئذ !

(الانتماء)

ويأتي ــ بعد التجمع ــ دور الجماعة (الانتماء) وهو أكثر عقلانية من التجمع • وأقل تأثيرا منه ! وقد أظهرت الدراسات أن الجماعة أكثر تأثيرا على الفرد من المجتمع •

والجماعة تختلف عن التجمع في : أنها بعيدة عن تلك الاثارة ، الكبيرة التي نجدها في التجمع !• فأغلب التجمعات ، تملك في طياتها ، دفوعات ضخمة من الطاقات الكامنة ، التي تظهر بالتجمع ، بينما الجماعة ليست كذلك ــ رغم وجود دوافع بشرية خلالها ــ والجماعة تبدأ من جماعة العمل ، (وهم طائفة تجمعهم آصرة العمل المشترك في وقت محدد) وتنتهي بجماعة الانتماء السياسي ، وبين ذلك جماعات كثيرة ، ونحن نختار جماعة العمل كعينة للدراسة لسبب أنها اقرب الى التحديد ، وأبعد عن المؤثرات الخارجية !

ثم أننا اذا عرفنا أثر جماعة العمل على بعضهم ، فسوف نعرف ــ بطريقة الاولوية ــ أثر سائر الجماعات ، الذين هم أكثر التصاقا ببعضهم•

وربما نجد في الدراسات التالية : ليس فقط مدى تأثير الجماعة على الفرد ، بل وأيضا ، سبب هذا التأثير •

وسوف نصل الى نتيجتين :

١ ــ ان ليس هناك الا حسا واحدا لا اكثر ندعوه بحس (التوافق الاجتماعي) • ولهذا الحس جانب ايجابي ، هو التنافس والمحاكاة ، وجانب سلبي هو الحياء •

٢ ــ وان الانسان ــ وهو مدفوع باحساسه الاجتماعي ــ يفقدقوة بعض قدراته العقلية !

وقد تكون النتيجتان واحدة ، بسبب أن الانسان لا يملك الا قلبا واحدا اذا استوى عليه ، شعور ، ينحسر عنه شعور ، آخر وهكـذا اذا سيطر عليه الشعور بالتوافق الاجتماعي ، يفقد بعض قدراته النقدية ، أن نتائج دراسة أولبورث تدل على انه : في حالة العمل مع جماعة يزيد الانتاج اذا كان النشاط من النوع الحركي ، ويقل اذا كان من النوع العقلي [1].

وسرعة العمل مع الجماعة ، انما هي بدافـع التوافق الاجتماعي ، حيث يجد الفرد أن أصدقاءه يسرعون أو لا أقل يخشى أن يكونوا قـد اسرعوا فهو كذلك يسرع ، لذلك اذا كان المعيار العام البطيء عاد السريع اليه ، بدل أن يعود الجميع الى السرعة .

فقد أظهرت دراسات (مود) المبكرة أن هناك محاولة للوصول الى مستوى الجماعة ، ـ وفي بحوث (لورنز) حول عمال مصانع يعملون على نضد ظهر أن أسرع العمال أخذ يبطيء ولكن ليس الى الحد الذي أسرع به أبطأ العمال (بل الى حد متوسط) كما تبين نقص اتقان جماعة جيدة وضعت لتعمل بين جماعتين من مستوى ضعيف .

من هنا نكتشف أن الدافع نحو محاكاة الجماعة ، ليس بالضرورة ما نسميه بالتنافس ـ رغم أنه دافع قوي ، بل ما هو أعم منه ، وأشمل ألا وهو حس « التوافق » ، الذي هو البحث للشعور بالتنافس ، أو التنافس لا يبطيء السريع بل الخوف من الانفراد ، والسعي نحو التوافق ، هـو الذي يبطئه ، وقد ينسحب الفرد من مذهبه (الحق) تحت ضغط الشعور بالتوافق الاجتماعي ، فقد أستفتى باحث حول موضوع يذهب بعضهم الى الحق ، وبعضهم الى الباطل ، ثم تآمر على واحد منهم فتبانوا على أن يذهب كل أفراد المجموعة ، الى تبني الباطل ، عند صاحب الرأي الصحيح

---

(١) ميادين علم النفس ص ، ٣١٥ . ج ١ .

وهكذا تراجع هو الآخر عن رأيه تحت ضغط آراء الآخرين المصطنعة !

وفي تجربة الباحث S, Asch أس آش ، نجد شخصا زعم أن جماعته يريدون اتباع منهج كان يزعمه منهجا خاطئا ، وظهرت عليه آثار التردد ، وكان يتحول عن رأيه خضوعا لرأي جماعته ، بالرغم من أنه كان يعلم بخطأهم ولعل تغيير البيئة الاجتماعية ذا دلالة قوية على السبب في التأثر بها ، فنقد ثبت بالتجربة أن عضوية جماعة ، تملي على الفرد مواقف تبدو راسخة جدا في نفسية الفرد ، ولكن سرعان ما يتحول تلك المواقف الى ما عاكسها ، وتكون بذات الشدة ، اذا تحول الفرد الى عضوية جماعة آخرين مما يدل على أن طبيعة الانتماء تملي المواقف ، دون التفكير في تلك المواقف ذاتها .

واذا عدنا الى التجارب العملية ، نجد انه قد يكون مجرد حس التوافق الاجتماعي ، سببا في تبني موقف خاص مما يدل على أنه شعور راسخ وأصيل .

فقد جرب (د. شريف) أثر الجماعة بسبب غرفة مظلمة ، في طرفها نقطة ضوء مركزة وثابتة ولكن العين تراها — عادة — متحركة يمنة ويسرة.

جاء (شريف) بطائفة من الناس منفردين ، وأمرهم بتحديد أتجاه تحرك الضوء ، فكانوا يزعمون أن للضوء أتجاهات مختلفة وحينما جمعهم ، أخذوا يزعمون جميعا ، بأن الضوء يتحرك ذات اليمين مثلا ، وبما ان الضوء كان ثابتا في الاساس فانما دل زعمهم على مدى تأثرهم ببعضهم.

أن جميع هذه التجارب تتفق في نقطة واحدة هي : أن للانسان شعورا أصيلا بضرورة التوافق مع الآخرين ، في فكره وفي عمله .

(المجتمع)

لعلاقة الناس مع بعضهم أسباب :

١ — المصلحة .

٢ ـ الثقافة •

٣ ـ وتعم المصلحة علاقة القرابة كما أن وحدة التفاعل تتفق عادة مع وحدة المكان فأغلب الناس المتواجدين في مكان، يتفاعلون ثقافيا بصورة شديدة أو خفيفة •

والمجتمع ناشيء علاقة مزدوجة من المصلحة والثقافة ، بينما الجماعة الطبقية ناشئة المصلحة ، والجماعة الدينية ناشئة الثقافة المشتركة •

فالمجتمع اذا تركيب لكل عوامل التقارب بين بشر وآخر ، ـ وبالرغم من شدة عامل هنا وضعفه هناك ، فان المجتمع يستحيل ـ عادة ـ تجرده عن كل العوامل ، فمجتمع الرسول ـ ص ـ في المدينة ، كان دينيا ، ولكن المصلحة المشتركة كانت ، ذات أثر فيه • بينما المجتمع الاميركي مادي ، الا ان للثقافة • الواحدة آثارها البعيدة فيه •

من هنا نستنبط أمرين :

١ ـ تأثير المجتمع على الانسان أقوى عادة من تأثير الجماعة ، أو التجمع ، لانه يحتوي على مختلف عوامل التأثير •

٢ ـ ان العوامل السابقة ـ جميعا ـ ذات أثر في المجتمع أيضا ، وهيبة المجتمع ناشئة هذه العوامل جميعا ،

وفي هذا العصر ـ عصر الفرد المفقود ـ أضحى تأثير المجتمع قويا في الانسان ، بحكم أزدياد وسائل الاتصال الجماهيرية •

لهذا كان للرأي العام فعالية لم تكن من ذي قبل •

وهيبة المجتمع ناشئة من الشعور الاصيـل في الانسان ، بضرورة التوافق الاجتماعي ، لخوف البشر من العزلة ، ولرجائه في التجمع [1] •

---

(١) يقول دانيل كاتز في حديثه عن علم النفس الاجتماعي ان الانسان يؤثر حياة الجماعة على الحياة الفردية المنعزلة لانه يشعر بعدم الاكتفـاء الذاتي ، اقتصاديا وسيكلوجيا ، فعن طريق التقمص يدخل الفرد في حياة زملائه وبذلك يستمع بخبرة اكمل واوفر ينتجها له اوجـه نشاطه الخاصة . (ميادين علم النفس ص ١٧٢ ج١) •

أن الانسان خلق من ضعف ، فيخشى أبدا من كل شيء ، أو لا أقل يتهيب من كل شيء ، ويبحث أبدا عن نصير ، وهذا يبعثه نحو الالتحام بالآخرين •

وقد رأينا — سابقا — كيف أن مجرد حضور آخرين ، يشجع الانسان ، بل ويستهويه ، وقد يجرده من ذاتيته ! ولدى التدبر في ذلك عرفنا مدى أحساسه بضرورة توافقه معهم •

وما عمليات التوافق الاجتماعي الاربع — (التعاون ، والتنافس ، والصراع والمصالحة) الا بعض معطيات هذه الهيبة ، فحتى التنافس والصراع ، ناشئتان من هيبة الاجتماع في روع الانسان ، فلولا هذه الهيبة ، لم يكن سبب للتنافس ، أو الصراع وما محفزات النشاط الاجتماعي الخمسة الا بعض مظاهر الهيبة فـ (التيسير والكف والمحاكاة والايحاء والتقمص) [1] كل ذلك ناشئة الشعور ، بضرورة التفتيش عن قوة مماثلة في شخص أفراد آخرين •

فالانسان الذي يجد أن نظيره يقوم بشيء ، لا يمكن ألا أن يتشجع به فمثلا العداء الذي يتسابق مع آخرين يكون أسرع جريا منه حينما يسابق الزمن لوحده ، حتى ولو أستخدم كل المقاييس الزمنية الدقيقة •

لا لتغذيته بروح التنافس فحسب ، بل وأيضا لعملية (التيسير) النابعة من تعبيد الغير لطريق العمل بأقدامه •

وقد دلت التجارب — الآنفة الذكر — أن الناس يقومون بقدر أكبر من العمل اذا كانوا مجتمعين معا ، سببه قد يكون مجرد تعبيد الطريق • أن الماء يسرع في المجرى المهيىء سابقا ، بتدفق مياه أخرى • والنشاط البشري يسير في المجرى الذي حفره الآخرون •

ان اقدام الابطال على اختراق حواجز الهيبة • يفيد الدهماء كثيرا ،

---

(1) فيما يلي نتحدث عن كل واحدة من هذه العمليات .

اذ انه ينزع منهم التهيب • وهذا بالضبط هو عملية التيسير التي نقوم بها ليل نهار !

والكف مظهر بارز للهيبة ، فحياء من الناس ، يتلجلج الخطيب ، ويرتجف الممثل ، وكل عمل يرتبط بالاعصاب لا بد أن ينتفض ان كان أمام الناس ، بسبب تهيب الانسان منهم ، وهكذا يؤدي الانفعال الزائد الى هدم أنماط التفكير المتواصل ، لذلك كان لاعب السلة يصيب أهدافه أثناء التمرين اكثر مما يصيبها عند الجمهور •

وحين يلاحظ البشر أن آخرين يعملون شيئا ، يرغب في تقليدهم • ومحاكاة نشاطهم لانه يجد في انفراده عنهم ، عزلة يخشى عواقبها !

وحين يجد الفرد أن الذي يقوم بعمل ، رجل قوي ، يشعر بضرورة اكتسابه لقوته تلك عن طريق محاكاة أموره ••

وهكذا تجدنا نحاول اقتفاء أثر اولئك الذين نحترمهم ونعجب بهم ••

ومجرد الشعور بأهمية شخص ، بأنه عظيم في حقل واحد • يجعل الفرد يعتقد بأنه عظيم في كل حقل ، ولذلك يرغب محاكاته في كل عمل !

وهيبة الجماعة ، تؤدي الى افتقاد عنصر النقد لاعمالها وبالتالي تعطل هذه الطاقة في الفرد مما يهيىء الجو الايحاء المباشرة وغير المباشرة •

الهوى : جذر الغريزة الاجتماعية

ويطرح هنا سؤال : أين يكمن جذر الغريزة الاجتماعية عند الانسان ؟ اننا تعرفنا على وجود هذه الغريزة التي أسميناها بغريزة التوافق الاجتماعي، وعرفنا ــ بعدئذ ــ أنها ناشئة : خوف البشر ورجائه، ولكن خوف البشر ورجائه ، موضع سؤال هو الآخر اذ يبقى علينا أن نقول : لماذا أصلا يخاف البشر ويرجوا؟• وأي مقياس يحكم درجة خوفه ورجائه ؟ الجواب : بقدر تعشق الفرد لذاته ، يكون خوفه ورجائه قويا ،

وبقدر تجرده عن ذاته ، يتضائل لديه الخوف والرجاء ، ولسنا بحاجة الى طرح معادلة علمية لادراك هذه الصلة ، اذ يكفينا أن نسأل ماذا يخاف عليه الانسان ؟ وماذا يرجو له ؟ : انما يخاف على نفسه ويرجو لها ، وهذا بالضبط .. هي الغريزة الام التي سماها الدين بالهوى ..

والذي يأمل تجنب الخطأ ، عليه أن يتحصن ضد غريزة الهوى ، وما تنشأ منها من غرائز ، كالخوف من مخالفة الناس ، والطمع في التوافق معهم .

ان وصايا حكماء السماء تكرست ضد غريزة الهوى ، وبالخصوص ضد غريزة التوافق الاجتماعي ، لكي يتحصن المرء بعقله ضدها ، ويحبط مساعيها الرامية لاضلاله .. قال الامام موسى بن جعفر — في وصيته الرشيدة لهشام ، وهو يستلهم من آيات القرآن الحكيم : يا هشام ثم ذم الذين لا يعقلون فقال : واذا قيل لهم أتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه أبائنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ...

ثم ذم الكثرة فقال : وأن تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله ، وقال : أكثرهم لا يعقلون شيئا ، وأكثرهم لا يشعرون ، يا هشام ، ثم مدح الله تعالى القلة فقال : وقليل من عبادي الشكور .

وقال : وقليل ما هم ، وما آمن معه ألا قليل [1] .

وقال الله سبحانه وكنا نخوض مع الخائضين (٧٤/٤٥) .

يا عبادي الذين آمنوا ان ارضي واسعة فأياي فأعبدون للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة . (٣٩/١٠)

ان السلطة الظالمة هي مظهر الاجتماع المنحرف ، وعلى المؤمن ان يتمرد عليها أو يتخلص منها — ان لم يستطع مقاومتها .. لا لشيء الا لكي يتحصن ضد الانحراف الناشيء من ضلالة المجتمع !

---

(١) البحار ج ١ ص ١٩٥ .

ولقد استلهم رزوجر بيكون من الاسلام مدى تأثير غريزة التوافق الاجتماعي في انحراف الفكر • وحذر مما أسماه في منطقه بـ « صنم السوق » وليس يخاف أن التعبير بالصنم مستوحى من أدب الاسلام أيضا •

أما رينه ديكارت فقد أعترف فيمقدمة منطقه : عرفت بكثرةأسفاري، ان فتى تربى في فرنسا ، يختلف عما اذا كان قد تربى في الصين فعلمت بذلك ما للمحيط والتربية من أثر في الفهم والادراك •

نستخلص مما سبق :

١ ــ أن المحيط الاجتماعي قد يحبذ الافكار الضالة للانسان •

٢ ــ فعلى المرء ان يتحصن ضد المحيط الاجتماعي ، لكي يهتدي الى الحق •

ـ عملية غسل الدماغ ـ

نظرة عامة الى غسل الدمـاغ

عملية غسل الدماغ واسلحة التاثير

وجدت من الضروري بيان جانب من عملية غسل الدماغ ملحقا بهذا البحث لاسباب :

١) : أن المجتمع البشري ، يقوم بعملية غسل الدماغ ، بصور شتى على الفرد المنتمي اليه ، وحين تلقي نظرة على غسل الدماغ في السجون أو في المستشفيات ، تعرف مدى تعرضنا كأفراد لمثل هذه العملية في الشارع والبيت ومن جانب آخر كلما أزددنا وعيا بحقيقة هذه العملية ، عرفنا المزيد من أبواب التأثير على أدمغتنا، واستطعنا ــ وبالتالي ــ حمايتها منها ، ومن دون ذلك نحسب أنفسنا أحرارا ، بينما نعيش في زنزانة تضعها لنا أجهزة الاعلام العديدة التي نراها من حولنا :

« .. ساعة من التأمل والتفكير الرزين ، أزاحت من عيون الفـــرد الغربي حجبا كثيفة ، وكشفت له مدى وجود « حرية الاختيار » ومـــدى فقدانها لديه ، وساعة التأمل تلك برهنت أن ملبسه ، وطعامه ، وشرابه ، وسهراته ، وألوان حيطان منزله ، حيطان منزله ، وأثاثه ولعل كيفية أختياره لزوجته ، هي من ضمن عملية « اقناع خفية » سلطت على دماغه [١] .

وقد وصف وليم زوايت : وسائل الدعاية والهيمنة على الفكـــر ، بأنها قوة مؤذية علمية وغير أخلاقية ، وتكاليف الدعاية ، ترجع بالتالي الى الناس ، وتحملهم اعبائها والنتيجة في الحالتين ، ــ استغلال فكري ومادي

---

(١) د. فخري الدباغ ــ غسل الدماغ ص ٢٠٩ .

ـ فحبوب الاسبرين ـ مثلا ـ تكلف الفرد المستهلك مبلـغ ٤ بنسات انكليزية لكل ٢٥ حبة اذا لم يعلن عنها أما الاسبرين المعلن عنه في الصحف، والتلفاز ، فأنه يكلف شلنا وثمانية بنسات لكل ٢٥ حبة .. [1] » .

ان عملية غسل الدماغ قد أصبحت بذاتها موضوعة من موضوعات الدراسة ، لعلماء النفس والاجتماع ، وبما أننا نرى أن المنطـق يتصل بالنفس ، وأن مشكلة الانسان العقلية ، لا يمكن فصلها عن واقعه النفسي، فنجد وجود علاقة بين غسل الدماغ والمنطق .

٣) ان عملية غسل الدماغ ، هي استخدام منتظم ، للدوافع البشرية التي تحدثنا عنها في هذا الفصل ، وذلك من أجل تغيير أتجاهه ، وتصلح هذه العملية ، أن تكون مثالا لنوعية تأثير تلك الدوافع ، والدواعي ، في الانسان . ونحن اذ نسرد جوانب من هذه العمليـة . قد نشير في ذات الوقت . الى الدافع الخاص الذي استخدم في كل جانب . ليكون دليـلا موضحا لنوعية عمل هذا الدافع ومدى تأثيره .

نظرة عامة الى غسل الدمـاغ

بعد أربعة أيام من أسره . أذاع ضابط أميركي وقع في أيد القوات الشيوعية الكورية ـ أذاع بيانا من راديو (سيئول) دعا فيه الجنـود الاميركيين : الى توجيه بنادقهم الى رؤسائهم ، الذين أتوا بهم الى القتال من أجل أحتكاراتهم الرأسمالية ،

وأندهش الجميع ، وزادت دهشتهم حين عادت أسرى الجنـود الغربيين ، وأخذوا يدافعون عن الاشتراكية والشيوعية في أوطانهـم . وتورط بعضهم في مهام تجسسية لصالح المعسكر الاشتراكي .

هنا أستخدم أحد الصحفيين الاميركيين تعبـير (غسل الدمـاغ)

---

(١) ذات المصدر ص ٢٣٩ .

للدلالة على مجموعة الاعمال التي قامت به الاجهزة المعادية في محاولة لتغيير أتجاه الاسرى الغربيين .

فما كانت تلك الاعمال ؟ [1] .

١) كانوا يستقبلون الاسرى، بابتسامة وبشاشة، ويصافحهم الواحد تلو الآخر (على نقيض توقع الاسرى) .

٢) بعدئذ يهنئوهم بأنهم هربوا من قيود الرأسمالية ، وتكرر عليهم كلمات : كن مقاتلا من أجل السلام ، طبعا أنت تريد ذلك ، وكل انسان نابه يريد ذلك .

٣) ويطلب بعدئذ من كل أسير أن يوقع على تعهد ، ودعوى من أجل السلام ، ان قاوم وامتنع ، قيل له أن توقيعه مجرد تأكيد على رغبة عالمية ، لكل البشر المفكرين ، ويوقع غالبية الاسرى تخلصا من الازعاج .

٤) يحاولون : التعرف على جميع تصرفات الاسرى ، ويقدم لهم استمارة معنونة باسم الصليب الاحمر ، ليزعم الاسير أن ما يكتبه ، يهم الصليب الاحمر ، وفي تلك الاستمارة يطلب من الفرد : كتابة كافة المعلومات المفيدة ، عن نفسه ، وعن أقاربه ، وعن عمله ، وبلدته و. و. وتستخدم المعلومات للكشف عن شخصية الاسير .

٥) يوضع الاسرى ، في معتقلات تدار من قبل « آمر المعتقل » الذي قلما يراه أحد ، ويقوم بالتحقيق رجال يتحدثون بالانكليزية بطلاقة .

والمحقق مزود بكافة الصلاحيات على الأسير ، لتنفيذ عملية غسل الدماغ عليه ، مثل فرض العقوبات عليه ، وتخفيضها ، وابدال الاعمال

٦ ــ يستغرق عمل الاسير ١٢ ساعة من الساعة ٧ صباحا الى ٧ مساء وتدور المحاضرات والتعليمات والمناقشات ، من الساعة ٩ صباحا حتى الظهر ، ومن ٣ بعد الظهر ، الى ٤ مساء . ومن يبدي منهم استعدادا

---

(١) بتصرف وتلخيص من كتاب غسل الدماغ ص ٢٨٢ ــ ٢٨٤ .

السطالمة يسمح له بالبقاء في مكتبة المعتقل ، الى الساعة التاسعة مساء ، وتكون المكتبة مليئة بالكتب الانكليزية ، المنتقاة التي تخدم هدفهم ، المحاضرات تدور حول اثارة الحقد ضد اميركا ، والدور السلمي للدول الاشتراكية ، ويتم توزيع النشرات الاشتراكية ، ويطلب من الفرد تكرار قراءة النشرات ، وحفظ ما فيها ، ومن يبدي قلة اكتراث بالمحاضرات ، تعاد عليه في نهاية الليل ، ومن يشاكس يحرض عليه أصدقائه •

٧ ــ وتؤدي المناقشة ، والجدال ، بين الزملاء تدريجيا ، الى فقدان الثقة بينهم ، والى الريبة والحذر ، والى ظهور المخبرين على بعضهم البعض •

٨ ــ ويبث المحققون : الرعب في نفسية الفرد ، فيدخل أحدهم ، يحمل مسدسا ضخما ، ومن ورائه مساعده • ويأتي معه بملف كبير كتب عليه « سري للغاية » ويزعم أنه يحتوي على معلومات دقيقة عنه جاءت عن طريق مخبرين سريين •

٩ ــ تخضع علاقة الاسير بذويه للرقابة ، فلا تصل الرسائل المسرة اليه ، اما الرسائل المحزنة فتوصل بسرعة ، واذا تأخرت الرسائل، فينسب ذلك الى ضرب العدو لخطوط المواصلات ، وينسب الى أهمال الاهل لينقطع الاسير ، نفسيا عنهم ، وكانت هذه العملية ان ١٣ ٪ فقط من مجموع الاسرى ، هم الذين لم يتأثروا بالعملية ، وكانوا من الجنود الاتراك ، وكانت لخلفياتهم الدينية أكبر الاثر ، في مقاومتهم لغسل الدماغ •

أما البقية فقد انهاروا ان سريعا او بطيئا وانقلبوا الى دعاة للاشتراكية في بلادهم •

عملية غسل الدماغ واسلحة التأثير

ما هي الاسلحة التي تستخدمها عملية غسل الدماغ ، لغزو فكر الانسان ؟ فيما نجيب على هذا السؤال باقتضاب

أ ــ استخدام العقاقير الطبية التي تشل مقاومة الاعصاب .

« وقد سبق أن عقاقير كمثل (العقاقير المهلوسة) تؤدي بصاحبها ، الى حالة تصوفية ، حالمة ، بحيث تبدو الاشياء التافهة والدقيقة مسائل ضخمة جبارة أمام عقل الفرد [1] .

ب ــ استخدام ضرورات العيش ، من طعام وراحة ، ونوم فكل من تعرض لعملية غسل الدماغ ، جوع وروض وأرهق سهرا ، ونصبا ، لتشل مقاومته النفسية وفي ذلك يذكر وليم جيمس، بضع وقائع من التحول الديني ، بعد فترة عصبية من الارهاق النفسي ، والسهر والاعياء ، أو التسمم بالكحول ، الذي كاد ان يقتل ذلك الانسان ، كذلك يؤيد العالم الفسلجي الروسي (لوبيا) بعد تجارب مختبرية : تلك التحولات نحو الحقيقة ، والايمان ، بعد فترات الضنك ، والتجارب القاسية ، ومن العلاجات التي تتبعها الكنيسة المسيحية ، لمن يصاب بالافكار الحصرية ، وهي الصلوات الطويلة ، والصوم ، الى حد الذبول [1] .

وربما تعود حالة الاستسلام الفكري ، في أوقات شدة الانسان ، تعود به الى نسيان عاداته ، وأفكاره السابقة ، خصوصا الباطلة منها ، كما حدث مثلا لكلاب بافلوب (بعد حادث الفيضان الذي أصاب اقفاصهم).

والدين الاسلامي استفاد من حالة التوتر والاضطراب ، في توجيه الانسان الى الخير ، ونحن نعلم أن لصلاة الآيات [2] وصلاة الاستسقاء ، وصلاة الميت آثارا نفسية خيرة لانها تقع في أوقات حرجة ، كما أن تشريع الصوم ، قد يكون بهدف ترويض النفس ، لتقبل بالفكر الصحيح ، أما في الحرب الكورية ، فان هذه الحالة استخدمت من أجل بث أفكار باطلة وذلك عن طريق تجويع الفرد وجعله يركز فكره في أمر واحد فقط هو

---

(١) غسل الدماغ ص ١٧٤ .

(٢) وهي الصلاة التي يصليها المسلم عند الكسوف والخسوف او الزلازل وما اشبه .

السعي وراء الحصول على ضرورات العيش وحين أصبح كذلك أعطي الطعام وأعطي معه الفكرة . فتعلقت نفسه بالفكرة من خلال ارتباطها بالطعام اذ الطعام أصبح الحاجة الوحيدة له في تلك الحالة العصبية .

ج ــ استخدمت حاسة التوافق الاجتماعي ، حيث كان الاسير يتعرض لنقد أصدقائه اذا قاوم تأثير المحاضرات ، وكان المحققون يلقون بالتفرقة بين الاسرى ، لكي لا يثق بعضهم ببعض ، وأخذ كل واحد منهم يعاني من الوحدة ، ويشعر بفراغ حاسة التوافق في نفسه ، فاذا به يبحث عن أصدقاء . فآنئذ يعود الى أعدائه ، فلعلهم يصبحون أصدقائه . وهذا ما حدث بالضبط ، اذ ان الفرد يتجنب احداث المشاكل مع مجتمعه ، بل يحاول أن يخلق لنفسه حالة من الوئام مع بيئته ، ليعيش في سلام ..

« ويتجنب الفرد أيضا المشاكل ويصبو الى الهدوء بايجاد شيء من التجانس مع جماعته ، وهي آلية أخرى من آليات فرويد دعاها بالمؤامة أو حب التوافق (Conformation) ومحاولة التجانس مع المجموعة تبدأ منذ ايام الطفولة ، ولولاها اصبحت الحياة مستحيلة [1] .

د ــ استخدمت غريزة الهروب من الفراغ ، حيث لا يتحمل الانسان الفراغ لفترة طويلة ، وقد رأينا كيف أن المحققين كانوا يمنعون وصول الرسائل من ذوي الاسرى اليهم ، ليجعلوهم في اطار الفراغ ، الذي لا يمكن تحمله .

وقد أجرى أحد علماء النفس تجربة على نفسه اذ دخل في حجرة معزولة عن كل صوت ، مكسية جدرانها بالجلد المحشو بالاسفنج ، فلم يتحمل المكوث أكثر من دقائق ، وشرع يستغيث طالبا اخراجه .

ويقول العالم الفسلجي (هيب Hibb) : ان أحد طلاب الجامعة

---

(١) المصدر ص ، ١٧٨ .
(١) غسل الدماغ ص ٥٠ .

الاصحاء ، تطوع أن يعزل نفسه عن الاحساسات الخارجية ، والاصوات لمدة أيام ، وقد وصف بعدئذ مشاعره قائلا : انه اصبح منشطرا الى شخصين ، لا يدري أيهما هو ؟ الشخص ذو الهلوسات ، أم المخلوق المنهار المرتاع ، وأنه أصبح عديم البصيرة ، قليل التمعن ، والتمحيص ، شديد الرغبة للاصغاء والاعتقاد ، بكل ما يقفز الى فكره من سخافات (٤)

هـ ــ استخدمت حالة الارتباك التي تصيب الانسان عند الضوضاء ، والصخب ، حيث أن مخ الانسان ، يستطيع أن يتحمل درجة معينة من الضوضاء ، أما اذا زاد فانه لا يمكنه تحمله ، كما لا يمكنه تحمل الفراغ، وقد كانت عملية غسل الدماغ ، في الحادثة السابقة ، تركز على المحاضرات العديدة المتواصلة ، التي لا يستطيع الفكر من ملاحظتها ، فيضطر الى الاستسلام لها •

وللضوضاء والصخب والضجيج ذات التأثير المعاكس ، للصفاء الذهني ، والهدوء العقلي ، فكما أن الصمت والعزلة ، يهددان الدماغ ، فكذلك ارتفاع الصوت وضجيجه ، يهدد المخ ويربكه، ويزعجه، فالدماغ الذي يعمل بنسق ذبذبات معينة تحدث في خلاياه تغيرات ضارة اذا ما تلقى ذبذبات صوتية قوية وحادة •

ومن التجارب المختبرية تبين أنه يمكن احداث هياج وارتباك في الانسان اذا وجهت اليه ، أصوات ذات ذبذبة خاصة ، فينقلب الانسان العادي الى فرد لا يقر له قرار ، ولا يستوي به مكان، والبوليس الاميركي ــ في بحثه عن كيفية تفريق المظاهرات المتكررة ــ اخترع صفارات هائلة الحجم ، يوجهها الى المتظاهرين ، الذين سرعان ما يشعرون بالخمول ، والتعب والانهيار (٥) •

---

(٤) المصدر ص ٢٤٤ •
(٥) المصدر ص ، ٢٤٦ •

القسم الثالث : كيف نتجنب الخطأ ؟

البحث الرابع عن العلاقة بين

الخطأ والانحرافات النفسية

ما هي الغرائز ؟
بين الغرائز والصفات السيئة
الاحساس بالضعف او الضعة
بين الرذائل والاحساس بالضعة
بين شذوذ النفس وخطأ التفكير
الغرور العلمي .

ما هي الغرائز

أول ما يفاجئنا عند الحديث، عن أثر الغرائز، في عقلية البشر هو السؤال التالي :

ما هي حقيقة الانحرافات النفسية ؟ فما هي حقيقة الكبر والحسد والغرور ؟ ثم ما هي مصادرها ؟

ويتبع هذا السؤال ـ استفهام آخر، أشمل، وأعمق منه : هو : ما هي الغرائز البشرية ؟ وما هو دورها في خلق الشخصية المتميزة ؟

ذلك لانه اذا عرفنا حقيقة الغرائز، فبسهولة، نستطيع : معرفة الانحرافات النفسية، ثم دورها في اضلال البشر ! فلنبحث أولا عن حقيقة الغرائز .

نشأت لفظة « الغريزة » من معنى « الغرز » وهو دخول شيء، في شيء آخر، بصورة كاملة وراسخة كمثل غرز البسمار في الجدار .

وتعني هذه الكلمة : القوى الراسخة في طبيعة الانسان رسوخا لا يمكن انفصالها عنها .

وتساوى كلمة الغريزة ألفاظ : الطبيعة، الفطرة، البنية، ولكن لفظة « الغريزة » أقواها دلالة، على المعنى المقصود .

وقد بحث عن واقع الغريزة ، كل الفلاسفة ، منذ ظهور الفلسفة ، وبين الدين الاسلامي الكثير مما يرتبط بها •

والذي يهمنا من ذلك كله الامور التالية ، التي هي نتائج البحوث حول الغريزة :

١ ــ ان الكائن الحي ، بحاجة الى الطاقات الآتية اليه ، من الطبيعة، تماما كحاجة أي جسم الى الطبيعة ، التي تحتضنه ، ولكن بفارق واحد ، هو أن الجسم الحي ، يحس بهذه الحاجة ، ولذلك سمي الحيوان بأنه : نام حساس •

٢ ــ وهذا الاحساس ، ناشيء من عمليات الاعصاب الداخلية ، والخارجية ، التي تحمل الى الدماغ ، كل التطورات الحيوية ، التي تطرأ على الجسم •

فمثلا : الحاجة الى الدفء ، يحس بها الانسان ، من احساس الاعصاب بالبرد ثم يحمل هذا الاحساس ، الى الدماغ والحاجة الى الطعام ، نعرف من الاعصاب الداخلية ، التي تحمل هي الاخرى ، الى الدماغ ، تأثيرات الاجهزة الهضمية وكذلك الحاجة الى الجنس والنوم و• و•

٣ ــ وبوجود هذا الاحساس ، يوجد الالم ـ الذي قد يكون خفيفا، فنسميه (بالرغبة) وقد يكون شديدا فنسميه (بالوجع) وحقيقة الالم أنه نوع من الضغط البيولوجي ، على الارادة البشرية ، لكي تتخذ ، تصميما ، باتجاه تقليل ، أو رفع هذا الالم • كما يضغط الابن على والده الشفوق بتهيئة حاجة له •

وخضوع الارادة لنداء الالم ، يعني اتباع الانسان لغريزته •

اذا فللغريزة ثلاث مراحل : مرحلة الحاجة البيولوجية ، فمرحلة

الاحساس الحيوي ، ثم مرحلة الضغط على النفس ونستطيع أن نسمي المرحلة الاولى بالغريزة ، والثانية ، بالشهوة ، والثالثة ، بالهوى .

ويسمي بعض علماء الاجتماع المرحلة الاولى بـ « قوس المورد » والثانية بـ « قوس المركز » والثالثة بـ « قوس المصدر » .

يقول الكسيس كاريل أن أكثر العواطف ناشئة من الغدد الداخلية ومن أعصاب سيماتيك ومن القلب وقليلا ما تنشأ العواطف من الدماغ أن الرغبة والشجاعة والحقد تدفعنا الى تطبيق الخطط التي رسمها العقل للانسان والخوف والغضب والعزلة والجرأة والاقدام أنما هي تعمل بواسطة أعصاب سيماتيك في الغدد التي تحملنا بسبب من افرازاتها ، على حالة العمل أو الدفاع أو الفرار أو الاقدام .

وأن غدد « هيبو فيزو تيروئيد » والغدد الخبيثة وفوق الكلوى هي التي تمكننا من الوله والهيجان [1] .

من هنا نعرف : أن الغرائز التي هي ، أصل العواطف ، انما تنشأ من حاجات بيولوجية ، تشعر بها الاعصاب ، أو تفرزها الغدد الداخلية .

وتؤيد النصوص الاسلامية ارتباط الغرائز بالبنية الترابية للانسان ، بذات القوة التي أيدتها النصوص العلمية واليك بعضها :

عن الامام أمير المؤمنين عليه السلام ، أنه قال : ضمن حديث ، شرح خلاله كيفية خلق ابن آدم ، قال : فلزمه من ناحية الريح ، حب الحياة ، وطول الامل ، والحرص ، ولزمه من ناحية البلغم ، حب الطعام ، والشراب، واللين ، والرفق ، ولزمه من ناحية المرة : الغضب ، والسفه ، واليقظة ، والتجبر ، والتمرد ، والعجلة ، ولزمه من ناحية الدم ، حب النساء ، واللذات ، وركوب المحارم ، والشهوات [2] .

---

(١) راه ورسم زندكي .
(٢) بحار الانوار ج ١٤ ص ، ٤٧٦ .

يظهر لنا من هذا الحديث ، مدى ارتباط الغرائز البشرية ، بالعناصر المادية ، التي تتفاعل فيه ، كالهواء والدم والماء والبلغم ، فهي بحاجة الى امتداد خارجي ، بالطاقات المناسبة ، فيندفع الانسان الى تلك الطاقات ، وتتكون لديه الغريزة •

فالغريزة ، عند الامام ، هي نزوع العناصر الطبيعية ، المتواجدة في الجسم ، نزوعها ، الى الطاقات المادية ، التي تمدها بالبقاء •

وفي حديث آخر روي عن الامام الصادق عليه السلام قال : الحزم في القلب ، والرحمة والغلظة في الكبد ، والحياء في الرئة [١] •

ومن الواضح أن القلب ، والكبد ، والرئـة ، هي المواقع ، التـي تتواجد فيها عناصر الجسم ، كالدم والمرة ، والهواء ، والتي يربط ــ بينها وبين الغرائز ــ الحديث السابق • ويؤكد بعض الباحثين هذه الحقيقة اذ يعرف الغريزة بما يلي :

ان الغريزة استعداد نفسي عضوي ــ هـذا الاستعداد فطري أو موروث ــ وهو يحتم على حامله أن يدرك أو ينتبه الى فئة معينة مـن الموضوعات وان يعاني اثارة وجدانية ذات لون معين اذا ما أدرك هـذا النوع من الموضوعات كما يحتم عليه أن يقوم بفعل معين أو يعاني علـى الاقل دفعا نحو القيام بهذا الفعل » [٢] ••

٤ ــ المراحل الثلاثة ــ الحاجة ــ الاحساس ــ الالم ــ تخضع في قوتها أو ضعفها لمقاييس :

ألف ــ مقياس ذاتي ، نابع من مدى شدة المراحل نفسهـا ، فشدة الحاجة الى الجنس ، أو شدة الاحساس بهذه الحاجة ، أو شدة الالم ،

---

(١) بحار الانوار ج ١٤ ص ٤٧٧ .
(٢) عن كتاب راه ورسم زندكي ص ، ١٣٠ .

الناشىء من هذا الاحساس ، انه هو الذي يحدد مدى قوة غريزة الجنس في الفرد •

وباختلاف الناس في الحاجة الى الجنس ، والاحساس بها ، والالـم منها ، تختلف غرائزهم الجنسية •

ومن هنا نستطيع تحديد بعض ملامح شخصية الافراد ، بمعرفـة مقاييس ، غرائزهم ، من نواحي الحاجة ، والاحساس ، والالم ، فالشاب في المناخ الحار ، يختلف في شدة حاجته الجنسية عن الشيخ في المناخ البارد•

وصاحب الاحساس الشاعري الرهيف ، يختلف عمن سواه في مدى احساسه ، بحاجته الى الجنس ، كما يختلف في مدى تألمه من هذه الناحية•

ـ باء ـ مقياس ارادي ـ بما ان ضغط الغريزة متوجه الى الارادة، فنستطيع ، معرفة ، مدى تأثير الغريزة ، بمدى ضعف الارادة كما نعرف مدى ضعفه ، بمدى قوة الارادة في علاقة عكسية •

من هنا نرفض بشدة ، فكرة حتمية الخضوع للغرائز ، بل لا نعتبر الغرائز ، سوى ادوات ضاغطة ، على النفس ، باتجاه اشباعها !

٥ ـ حينما يصمم الانسان بارادته على اتباع الغرائز ، يستخدم ، كل طاقاته في هذا الاتجاه ، ومنها طاقة الذكاء ، فالذكاء كأية مقدرة بشرية أخرى ، وسيلة من وسائل اشباع الغرائز ، لا فرق فيها بين الذكاء الخارق، أو الداني ، الى ما يقترب من مستوى الغباء •

فبازدياد هذه الطاقة لا نضمن تخفيف حدة الغرائز ، بل بالعكس كما يظنه بعض الفلاسفة ، نجد نفاذ الذكاء قد يزيد ، من حجم الغرائز ، لانه يزيد من امكانات اشباعها !

لذلك لم يكن من الصحيح ، افتراض تسامي حضارة البشر الروحية، بازدياد نسب الذكاء فيهم ، بل قد يكون العكس هو الصحيح •

٦ ـ ويلعب الذكاء [1] دوراً خطيراً ، في بلورة احساس الانسان بالغرائز ، مما يفتح فجوة بينه ، وبين سائر الاحياء .. لا تزال تتسع ، كلما اتسعت امكانات البشر الحضارية ...

فغريزة الجنس ، عند الانسان ، لا تختلف عنها عند الحيوان ، في أنها حاجة بيولوجية ، أو انها جوعة فسيولوجية . بل انما تختلف في أنها حاجة سيكولوجية، عند الانسان،دون الحيوان ، اذ ان البشر، قد بلور احساسه بالجنس ، فوق مستوى الحاجة الحياتية المحدودة ، فهو أبدع الفن وتذوق الجمال ، وأنشد الأشعار و... وهو خلق وسائل جديدة لاشباع الجنس لديه ، بل أدخل الجنس في كثير من نشاطاته الاخرى !

والذكاء ، هو الذي بلور الاحساس بالغريزة ، عند الانسان ، ممـا فرق بينه وبين سائر الاحياء ، وحينما شعر البشر بالالم النابع من ضغط الحاجة الغريزية (الى الطعام) راعه ، هذا الالم ، واعمل ذكائه في القيام بما ينقذه منه ، في المستقبل ، وساعده علىذلك مقدرته على حفظ أحاسيسه السابقة (بالذكاء) .

فمن جهة فكر في ضمان دائم لاشباع غريزة الجوع ، بعد أن وجدها وتألم منها ، ومن جهة ثانية حفظ في نفسه ، بصورة من ذلك الالم ، الذي كان قد أصابه ، عندما كان جائعا ، فأبدع ، نظام التخزين للمواد الغذائية.

وكذلك فكر في وسيلة لضمان اشباع غريزة الجنس ، يساعده ـعلى ذلك ـ شعوره بمدى تألمه من فراغه الجنسي فتزوج . وهكذا .. فذكاء الانسان أمد الغرائز الطبيعية، بامكانية الامتداد عبر الزمن ، وكان الذكاء يصب الزيت أبداً على منطقة الغرائز المشتعلة !

---

(١) نعني بالذكاء جميع المقدرات العلمية بما فيها من فطنة وبصيرة وفهم وحفظ ...

ونشأ من هذا الامتداد ، الرجاء والخوف ، رجاء ضمان لاشباع الغرائز ، وخوف عودة الالم الذي ، يتذكره الانسان أبدا .

أذا تتلخص غرائز الانسان في بؤرة واحدة هي الشعور بالالم، ويبقى هذا الشعور ، حتى بعد ، وجود الالم بفعل الذكاء ، وهذا فارق الانسان عن سائر الاحياء ...

(بين الغرائز والصفات السيئة)

تدفع الغرائز الانسان نحو اشباعها ، وفي الحالات العادية ، يتخذ الانسان السبل المستقيمة نحو تلبية غرائزه ...

وفي هذه الحالات ، تقوم علاقة شرطية بين الغرائز ، وبين الوسائل المتبعة ، لاشباعها ، بحيث يندفع الفرد ، نحو تلك الوسائل بدافع تلك الغرائز ، فمثلا التاجر يندفع نحو محله ، بدافع غرائزه ، لانها قد أشبعت بهذه الوسيلة .

والسبب في وجود هذه العلاقة : ما يسميه ، بعضهم بالرد الفعلي الشرطي .. والذي يتلخص في أن الانسان يحب شيئا أو يكرهه لمجرد علاقته بشيء آخر ، محبوب أو مكروه .

ولكن حين تصطدم الغريزة، بمواقع خارجية تشذ عن سواء الصراط، فتحدث في النفس الصفات السيئة ...

فاشباع غريزة الجوع مثلا قد تكون ـ وفي الحالات الاعتيادية ـ بعمل شريف . يدر ربحا مناسبا يغطي حاجة الفرد الى الطعام .

فاذا افتقد الفرد هذا الطعام بسبب أو بآخر ، فمن جهة وجود الغريزة ، ومن جهة أخرى تذكر ألمها الذي يخافه الفرد ، يدفعانه الى عمل أي شيء ممكن ، لضمان اشباعها الآن ، وفي المستقبل ، وهنا يختار الانسان

طريق الجريمة ، وفي المرة الاولى ، أو الثانية ، لا تنشأ عند الانسان صفة نفسية منحرفة ، انما ينشأ عنه اشباع غير مشروع لغريزة الجوع ، وذلك عن طريق السرقة ، ولكن بتكرار احباط غريزة الجوع وعدم قدرة الفرد على اشباعها بطريقة شريفة •

وبتكرار ممارسة الجريمة لاشباع الغريزة ، تنشأ في النفس ، علاقة بين غريزة الجوع وبين الجريمة لانها تكون الوسيلة الوحيدة المتبعة لاشباعها ، وتكون دفع الغرائز باتجاه هذه الوسيلة هذه المرة ••

وهنا يتحول الفرد ، من مجرد مجرم ، الى ممارس للجريمة ، ومتعود عليها ، وتكون السرقة ليست مجرد حادث في حياته ، بل تكون أسس حياته أيضا •

وما يقال في غريزة الجوع ، يقال في غريزة الجنس ، فالذي أحبطت فيه هذه الغريزة ، يحاول اشباعها بطرق شاذة ، وبتكرار الاحباط ، ثم الاشباع بطرق غير مشروعة ، تتكون في النفس ، علاقة بين الغريزة ، وبين الطرق الشاذة ، فيتسبب في أنه يندفع نحوها ، بكل ما في غريزة الجنس ، من قوة قاهرة •

الاحساس بالضعف

في ضوء المبادىء السابقة ، نستطيع ــ بسهولة ــ كشف حقيقة الصفات النفسية السيئة ، كالكبر والحسد ، والغرور ، بالرغم من أنها معقدة بعض الشيء •••

وأولى الحقائق التي ينبه اليها الشرع والعلم ، ارتباط الكبر والحسد والغرور بما يدعى بـ « عقدة الحقارة » • أو الشعور بالضعة • أو الاحساس بالضعف ــ أو الهلع !

لذلك يكون من الضروري ، البحث عن حقيقة الاحساس بالضعف ، لمعرفة هذه الصفات ، ومدى علاقتها بالضلالة البشرية .

قلنا آنفا : ان الغرائز ، تبدأ بالاحساس بالحاجة ، وتنتهي بايجاد الالم في النفس ، وهذا الالم يتبلور عند الانسان بفعل الذكاء البشري ، حتى يصبح ممتدا في عمق الزمن ، بحيث يحس به الشخص حتى قبل أو بعد وجود الحاجة الى الغرائز .

وهذا الالم بالذات يتحول الى الشعور بالضعف ، فالانسان حين يتذكر ألم الغرائز ، يبحث عن وسيلة تخلصه عن الالم مرة واحدة والى الابد ، وهذه هي عقدة الانسان الاولى .

فهو من جهة يعرف أن الحياة تقهره ، وهو من جهة ثانية ، يريد أن يتحدى الحياة ، فيبحث عن قوة خارجية يضيفها الى نفسه .

والحرص على المال والسلطان والذي فطر عليه كل أبن أنثى ، يأتي من هذا الشعور القوي ، بالضعف عنده ، فاحساسه بضعفه ، واعتقاده بأن المال والسلطان قوة ، هو الذي يدفعه نحو الازدياد منه ! حتىفوق مستوى حاجاته الطبيعية .

كما يأتي تشبث الانسان بالآلهة المزعومة من هذا الشعور العارم بضعفه وبضرورة ايجاد ضمان لنفسهلاشباعغرائزه،وتخليصهمن آلامها.

يقول القرآن الحكيم وهو يبين دور الشعور بالضعف في الحرص على المال والسلطان « يحسب أن ماله أخلده » ...

كما يبين القرآن دور هذا الشعور في اتخاذ الآلهة ويقول :

واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون ...

ولا يعرف الشخص كم هي المساعي التي يجب أن يبذلها ، حتى يجد القوة التي تجبر الضعف ، الذي يحس بـه في نفسه ، والعالم المحيط

بالشخص ، في بدايات عمره ، ذات أثر فعال في تحديد هذه المساعي عنده ، فقد يعتقد الفرد ـــ بسبب من موحيات أيام الطفولة ـــ قد يعتقد أن قدرا بسيطا جدا من المساعي ، كافية لايجاد ضمان لاشباع غرائزه ، وقد يعتقد العكس وهو أن عليه أن يبذل كل ما يملكه من طاقة ، حتى ـــ بالكاد ـــ يحصل على ضمان كاف لنفسه ، وبين هذين الشعورين المتطرفين يستقيم بعض الناس ، ويعرفون ـــ تقريبا ـــ المقدار المناسب من الضمان ...

أما سبب اختلاف عقائد الناس ، في هذا الشأن ، فهو نوع التربية ، التي تلقوها أيام الطفولة ، والتي تنقسم الى ثلاث أنواع ...

ألف ـــ التربية المتطرفة باتجاه سهولة اشباع الغرائز ، كتربية الطفل المدلل . الذي يجد الوالدين ، يسرعون نحو اشباع رغباته ـــ كلما اشار اليهم بذلك ـــ انه يحسب ، ايجاد ضمان لنفسه ، لا يحتاج الـى أكثر من عمل ، بسيط ، مشابه لما قام به أيام الطفولة ...

باء ـــ التربية المتطرفة ، باتجاه معاكس ، أي التربية التي لا تشبـع غرائز الطفل الا بعد جهد بالغ ، كالطفل المحتقر في المحيط العائلي ، فانه ـــ بعكس الطفل المدلل ـــ يعتقد أن الغرائز الطبيعية ، بحاجة الى تحدي قوى للناس ، حتى يستطيع اشباعها .

والطفل المدلل اذا خرج عن دور الطفولة ، الـى مرحلة الشباب ، وواجه صعوبات الحياة ، وعرف : ان اشباع غرائزه ، لن يكون بتلـك السهولة التي يعهدها في دور الصغر ، يصاب آنئذ برد فعل عنيف ، تجاه المجتمع ، فيعتقد أنه يعاديه ، حين لا يشبع رغباته بتلك الطريقة ، التي كان يتبعها والداه ، فهو لا يستطيع أن يكشف خطأ فهمه للحياة ، وأنها ليست بتلك الليونة التي زعمها ، بل يروح يتصور خطأ المجتمع تجاهه ، بصفة خاصة ، وهنا يصاب بعقدة حقارة تماما كالذي تعرض في طفولتـه لاهانات بالغة لكرامته .

جيم ــ التربية المعتدلة ، التي تدع الطفل ، يواجه الحياة ، بما فيها من صعوبة ويسر ، وبساطة وتعقيد ، فانهـا الطريقة الوحيـدة ، التـي تستطيع : ابقاء الفرد ، خارج اطـار الشعور ، بالضعف والاحسـاس ، بالحقارة البالغة .

بينما الذي تعرض لعقدة الحقارة ، اما بسبب تعرضه للاهـانة ، والاخفاق ــ في أيام الطفولة ــ أو بسبب زعمه في البداية بسهولة الحياة ، ثم اصطدامه بصعوبتها واصابته ــ تبعا لذلك ــ برد فعل عنيف ، ان مثل هذا الشخص ، تتسم نفسيته بأمرين :

١ ــ بتفصيل التحدي ، على الانسجام مع الحياة ، لزعمه أن غرائزه لا تشبع الا بالتحدي ، كما عهد ذلك أيام الطفولة ، او عند اخفاقه فـي مواجهة الحياة .

٢ ــ باعتقاد عداوة الناس معه ، مما يدعوه الى التحذر منهم ــ من جهة ــ والسعي نحو احراز القوة في مواجهتهم ــ من جهة ثانية ــ ومقابلة عداوتهم بعداء مماثل من جهة ثالثة .

وهذه هي الجذور الخبيثة التي تفرع الصفات النفسية السيئة . يقول « هر.آ. أوراستريت »

« قد يزعم الطفل ــ في أدوار حياته الاولى ــ : أنه لا يستطيع بلوغ أمانيه الا عن طريق ايذاء نفسه أو الآخرين » .

« فمثلا يزعم بأنه يقدر على اخضاع ذويه ، لرغباته ، لو صـاح بصوت عال ، أو رفس برجله الارض ، أو خمش رجله ووجهه وأدماه »

« وعندما يشب الطفل على هذه الحالة ، فمن الممكن ، أن يظل ، حتى في دور الشباب ، بل الى آن يبلغ سن الاربعين من عمره ، يظل يعتقد

بأن وسيلة الحصول على أمانيه ، انما هو الغضب ، والهياج ، وأيذاء الزوجة ، وضرب الاولاد ، وكيل السباب لمن دونه من الناس » .

« وفيما لو دخل هذا الطفل حقل السياسة ، فانه ــ بدلا من استخدام الاساليب المنطقية المقنعة ــ يحاول احراز النجاح ، بأساليب عنيفة ، ضد مخالفيه والمعارضين له ، مشابهة تماما ، لتلك الضربات والصرخات التي كان يستعملها في دور طفولته [1] » ويقول بعض علماء النفس الاجتماعي « من الدراسات الدقيقة والهامة التي اجريت على الطب النفسي للجريمة في دوران الشباب هي دراسة « هلي وبرونز » حيث قام هذان العالمان بفحوص دقيقة ، وعميقة لحالة (١٠٥) زوجا من الاطفال الذين ارتكبوا الجرائم ، كما فحصوا أحوال ، وأوضاع اخوانهم للمقارنة بينهم ، وبين المجرمين ، ابتغاء كشف العوامل المرتبطة بالوراثة والتربية .

ووصلوا بالتالي الى النتيجة التالية أن زهاء ٩١ ٪ من المجرمين الشباب ، كانوا يشكون من اختلالات عاطفية شديدة ، من ناحية الروابط الاجتماعية ، وذلك لافتقارهم للعواطف الحنونة ، فهم كانوا يحسون ــ من جهة ــ بالخوف ، ويشكون ــ من جهة اخرى ــ من الاختلالات العاطفية ، المرتبطة بالامور العاطفية ، كانوا ــ من جهة ــ مصابين بالحسد والغيرة من اخوانهم ، ومن جهة أخرى كانوا يعانون من توتر شديد ، وعميق ، في عواطفهم ، وميل شديد نحو الانتقام لانفسهم [2] » .

بين الرذائل والاحساس بالضعة

وهناك علاقة وثيقة ، تربط بين الرذائل جميعا ، وبين الاحساس بالضعة ، ارتباط السبب بالحادث ، وتشير هذه العلاقة في الخط التالي :

(١) عقل كامل ص ٢٣
(٢) روانشناسي اجتماعي ص ٤٤٧

١ ـ بوجود الحاجة الحيوية ، الى الغرائز ، وضغط الجسد ، على الارادة باتجاه تحقيقها ، تبدأ مرحلة الالم ..

٢ ـ وبذكاء الانسان يبحث البشر ، عن ضمان دائم لرفع الالم ، وتبدأ بذلك مرحلة الشعور بالضعف وارادة التحدي له ..

٣ ـ وبسبب سوء المحيط التربوي ، او ندرة الاشباع ، يتقـوى الشعور بالضعف ، وتتقوى ارادة التحدي له .

٤ ـ وبجهل الانسان ، وسوء تربيته ، يختار طرقا ملتوية ، يجد أن شعوره بالضعف ، واشباع شعوره ، بضرورة التحدي .. وهكذا تنشأ العلاقة بين الغرائز ـ وبين الرذائل ـ بواسطة الاحساس بالضعة .

وقد سبق الحديث عن البند الاول والثاني والثالث ، وبقي علينـا تفصيل الحديث عن البند الاخير لنعرف السبب الـذي يجعل الانسان يعبر عن شعوره بالضعة ، بصفة سيئة ، مثل الكبر أو الحسد ...

لمعرفة هذا السبب ، لا بد أن نعرف : ان النفس البشرية ، تشبه فردا جالسا في قلعة محصنة . وأمامه طبق من الفواكه . في خارج القلعة تنتشر حقول الفواكه ، تعود ملكية بعضها اليه . وبعضها للناس الآخرين .

فحينما يجوع هذا الشخص يجد أمامه أحد الطرق التالية :

١ ـ أن يكتفي بالفواكه الموجودة فعلا لديه . بزعم أنها أفـضل الفواكه .

٢ ـ أن يخرج من القلعة الى حقول الناس ويسرق من الفواكه مـا يشبع بها جوعته ...

٣ ـ أن يخرج الى حقوله الخاصة ويستفيد من فواكهه الخاصة ، كذلك النفس ، تحتاج الى القوة (لتجبُر بها ضعفها) فتجد ـ أمامها ـ أحد الطرق التالية :

١ أما أن تكتفي بما لديها من القوة الداخلية ، بزعم أنها تكفيه في مصارعة الحياة ، (وهذه حالة الانسان المعجب بنفسه) •

٢ ــ أن تحاول احراز القوة بظلم الناس وغضبهم ، (وهذه حالة المتجبر الظالم) •

٣ ــ وأن تحاول تحقيق القوة بالطرق المشروعة (وهذه هي الحالة المستوية للناس) •

ويشترك الانسان الاول والثاني في :

ألف ــ أنهما معا يشعران بالضعف ، ويحاولان تغطية هذا الضعف ، بغير الطريق الطبيعي •

باء ــ انهما يعاديان الناس ويحتقرانهم،فالذي يعجب بنفسهويعتبرها احسن من غيرها يحتقر الناس ، والذي يظلم الناس ويتجبر عليهم يعاديهم بالطبع •

ومن هنا جاء في الحديث : ما من رجل تكبر أو تجبر الا لذلة وجدها في نفسه [1] •

وبكلمة أخرى : الذي يتكبر على الناس يظلمهم ، والذي يظلم الناس ، يتكبر عليهم • فالظلم هو الوجه الظاهر للتكبر ، والتكبر هو الوجه الباطن للظلم ، وكلاهما يعبران عن شعور بالضعة ، واسقاط هذا الشعور على الناس ، والفرق : أن المتكبر يغمط حقوق الناس المعنوية ، والظالم يسلب حقوق الناس المادية •

وجاء في حديث آخر : ما من احد يتيه الا من ذلة يجدها في نفسه [2] •••

---

(١) الامام الصادق عليه السلام الكافي ج٣ ص ٣١٣
(٢) الامام الصادق عليه السلام المصدر نفسه .

فالتكبر (اعجاب النفس بذاتها) والتجبر (ظلم النفس للآخرين) ينشآن من منبع واحد هو الشعور بالذلة ... والاحساس بالضعة .

والغرور والاعجاب بالنفس ــ وجهان من وجوه التكبر ، اذ أن التكبر ــ هو محاولة النفس : جبران ، ضعفها ، بالاعتقاد بالقوةوالغرور، هو المبالغة بالاعتداد بالنفس ، وبصفاتها . كما أن الاعجاب بالنفس. هو المبالغة في احصاء حسنات الذات .

ولا فرق بين التكبر ، والغرور ، والعجب ، الا في الموارد المختلفة ، التي تظهر فيها هذه الحالة الشاذة (التي يحاول الفرد فيها جبران ضعفه بالاعتقاد الباطل بالقوة) .

فالتكبر هو أظهار هذه الحالة في صورة تحــدي قوى النــاس ، والغرور ــ هو الشعور النفسي بهذه الحالة والاعجاب ــ ربط هذه الحالة بصفة من صفات النفس ، كأن يغتر الانسان بعلمه ، او بماله ، أو برأيه .

والحسد هو وجه آخر للتكبر ، اذ أن المتكبر ، لا يريد أن يكــون لغيره ما ليس له ، فيأمل لو خسر الناس اشياءهم وربحها .

والحسد أيضا ناشىء من الشعور بالضعة لان الحاسد يريد خسارة غيره ، وربحه ، جبرا لما يشعر به من ذلة . لذلك يرتبط الحسد بعــدة صفات أخرى هي ، الغيبة ، والتملق ، والشماتة على المصيبة ، فكل هذه الصفات ، ناشئة الشعور بالضعف والهوان .

وجاء في الحديث المأثور عن أبي عبدالله عليه السلام : أن لقمان قال لابنه : للحاسد ثلاث علامات : يغتاب اذا غاب ويتملق اذا شهد ويشمت بالمصيبة [1] .

---

(١) البحارج ج١٤ القسم الاخير ص ١٣٠

وهكذا تتسلل الصفات النفسية السيئة بعضها من بعض ، وتعود جميعها الى اصل واحد . هو هوان النفس، واحساسها بالضعة ولقد عبر عن هذه الحقيقة الامام أمير المؤمنين عليه السلام حين قال : من كرمت عليه نفسه هانت شهواته [1] .

وبكلمة أخرى : من هانت عليه نفسه فلا تأمن شره [2] .

ويقول بعض علماء النفس « أن كل مظهر من مظاهر حب التغلب والتسلط على الآخرين امارة على الشعور بعدم الاستقرار الروحي » .

« والعلامة الاخرى من علامات عقدة الضعة ، ومركب النقص : أن الفرد ، يعيش في عالم من الاحلام ، والخيال ، والذي يسمى في الاصطلاح العلمي بـ (الفانتزي) ويعني ذلك : الفرار من الواقعيات ، والتهرب من المشاكل ، والمسؤوليات ، واللجوء الى ميادين الاحلام والآمال التي لا تتحقق .

بهذه كلها نعرف : طبيعة الغرائز ، وكيفية تحولها من مسيرتها العادية، الى صفات رذيلة ، وان جذر هذه الصفات هو : الشعور بالضعة .

بقي علينا : أن نعرف أن هذه الصفات ، ذات أثر خطير في تضليل الانسان ، عن الحق ، وحجبه عن المعرفة ، وسوقه الى حقول الجهالة والاساطير .

بين شذوذ النفس واخطاء التفكير

والعلاقة وثيقة بين شذوذ النفس وأخطاء التفكير ، وذلك لان الغريزة تدعو صاحبها لاشباعها .

وفي الحالة السوية ،، يقوم الفرد بتحديد رغبات الغريزة ، في اطار

(١ و٢) المصدر نفسه .

توجيهات العقل ، والتربية الصالحة ، ولكن في الحالات الشاذة حيث يفقد الانسان قدرته على رؤية الواقع بسبب من الاسباب التالية ، لا يستطيع العقل تحديد رغبة الغريزة الكارهة التي يدعو صاحبها ، لطاعتها ، بأي صورة ما كانت ، فلذلك ينسحب العقل ، ويترك المجال مفتوحا أمام قيادة الغريزة ، الصماء • والاسباب التي تجعل الفكر البشري ، عاجزا عن مقاومة الغرائز الشاذة ، هي التالية :

١ ان الفرد الذي يعادي الناس ، ويريد أن ينتقم منهم ، في مقابل احتقار الناس له ، وعداوتهم ضده ، حسب ظنه ، هذا الشخص لا يمكن ان يقبل كلام الآخرين ، لانه سوف يحمله على أسوا المحامل الممكنة ، ان نصيحة الناس بالنسبة اليه مكر وخداع ، وأن تربية الآخرين مؤامرة وأن تعليم الناس له ما هو سوى شبك ومصيدة ، هكذا يتصور من يسيء الظن بالناس ، ويحسبهم أعداء له •

وبما ان طبيعة النفس التي تحس بالمهانة ، هي التي تسبب في الكبر ، والحسد ، والعجب ، وهي بالذات ، العلة في سوء الظن بالناس ، والشعور بأنهم أعداء كائدون ، وبالتالي رفض أفكارهم ، بحملها على أسوا المحامل ، أقول بما أن طبيعة الصفات السيئة ، وطبيعة رفض أفكار الناس نابعتان من مصدر واحد ، هو الشعور بالمهانة ، صح القول أن الصفات السيئة تهوي بأصحابها في الاخطاء الفكرية •

٢ ــ الذي يحتقر الناس انتقاما منهم لنفسه المحتقرة ، يريد ان يجبر هذا الاحتقار الذاتي ، بصنع هالة حول نفسه ، وفعلا ينسج من الخيال ، هذه الهالة ، ويزعم بأنه أعلم وأعدل وأفضل من مشى على البسيطة • وبما أنه يعلم يقينا ان الذي صنعه لنفسه ، ان هو الا خيال سخيف ، ينشأ في نفسه نزاع حاد ، بين ضميره الغائب ، الذي يشعر بالمهانة ، وبين ضميره الظاهر ، الذي يريد أن يجبر هذه المهانة ، بالاعتقاد بعظمة نفسه ، هذا

النزاع يجعل الفرد حذرا بأشد ما يكون الحذر ، في سبيل المحافظة على تلك الهالة ، من تأنيب ضميره الغائب ، الذي يحاول تحطيم هذه الهالة المصطنعة واظهار واقعه العريان ، ويكون ـ من نتيجة هذا النزاع الداخلي ـ أمران الاول : بسبب القلق والاضطراب يتحول جو النفس الهادىء المطمئن المهيء للبحث والتفكر ، الى جو مضطرب عاصف لا يدع النفس تستقر على أمر ، ولا يدع الفكر يركز نظره في قضية وكما نعرف انالتوتر من أخطر ما يهدد العلم البشري .

الثاني : ويدفع الحذر بهكذا انسان الى رفض كل شيء خوفا من ضرره بكيانه ، فهو يرفض الاستماع الى الناس ، خشية تحطيم هالة كبريائه ، وهو يرفض التبصر والتعلم ، خوفا من ان يؤدي ذلكالى كشف أخطائه ، وبالتالي اهانة ذاته ، وهو يرفض كل اقتراح يوجه اليه ، حذرا من مساسه بشخصيته . لذلك يجب تفسير رفض المتكبر والمعجب والمغرور ، بأنه ناشيء من تمزق داخلي يعاني منه ، أو بالاحرى من حرب أهلية تدور رحاها على صعيد نفسه ، ولكي يكسب هذا الفرد معركته ضد نفسه ، يحاول استقطاب الاحترام من الخارج ، وخوفا من خسارته للمعركة هناك ، يحاول رفض الخضوع لفكرة أو واقع !

٣ ـ المتمرس بالجريمة يفترق عمن سواه ، في أنه قد أصبح يرى أن الجريمةهي الصراط السوي،وان تركالجريمة ليس سوى شذوذ، ظاهر .

وقد سبق أن رد الفعل الشرطي ، يسبب ضغط الجريمة ، باتجاه منحرف ، في الذي تعود على اشباع غرائزه بالطرق الملتوية ، فبينما تدفع عريزة الجوع التاجر الى الكسب الشريف ، تدفع ذات الغريزة السارق الى الجريمة ، وكما أن اتباع الغريزة بطريق التكسب عمل محترم عند التاجر، فكذلك اشباعها بطريق السرقة ـ عند المجرم ـ عمل معروف ، وهكذا

تتحول الجريمة الى شرف ، والمنكر الى معروف ، وبهذا التحول تتحول كل مقاييس الفرد ، فهو لا يستطيع ـــ بعدئذ ـــ تصور الخير،الا من خلال تحقيقه للغرائز ، وهكذا سيكون سببا خطيرا من أسباب الخطأ الفكري عند الانسان ، اذ أنه ينتزع عن الانسان : مشعل عقله ، ويدعه في ظلمات حالكة . هذه الاسباب الثلاثة ـــ العداوة مع الناس ، ومخافة الذل ، وتبدل المقاييس ـــ هي الاسباب الرئيسية التي تقف وراء تأثير الصفات النفسية المنحرفة ؛ في خطأ الفكر الانساني ، لذلك نستطيع التأكيد : بضرورة تصفية النفس من جميع الانحرافات ، حتى يستطيع العقل اكتشاف الحقائق بسهولة ، والا حجبت عواصف العواطف الهائجة ، مشعل العقل من الاشعاع !

وقد بينت آيات القرآن الحكيم : مدى خطورة دور الهوى ، بصورة عامة والتكبر بصورة خاصة في ضلالة الانسان فجاءت تقول « افكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم أستكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون .واذا قيل له أتق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد » .

« سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ، لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون أنه لا يحب المستكبرين ، كذلك يطبع الله على قلب كل متكبر جبار .

وحملت آيات أخرى متماثلة على المتكبر والاستكبار مسؤولية الضلالة ، وهي بصورة عامة تهدينا الى ضرورة نبذ التكبر ان اردنا المعرفة الصادقة وقد أشارت الاحاديث الى دور التكبر في ضلالة البشر فجاء في حديث مأثور عن أمير المؤمنين ـــ ع ـــ (من آفات العقل الكبر) (١) .

---

(١) غرر الحكم ص ٤٤٨ .

وجاء في حديث مروي عن الامام الباقر ـ ع ـ : ما يعبر عن تناقض الكبر والعلم ، بعبارات دقيقة محددة ويقول : ما دخل قلب امرء شيء من الكبر ، الا نقص من عقله مثل ما دخل من ذلك ، قل أو كثر [1] .

وجاء في حديث آخر : « أن العلم ذو فضائل كثيرة فرأسه التواضع »

وقد اعتبر النبي ـ ص ـ الكبر نوعا من الجنون ، فجاء في حديث: أنه مر (ص) برجل مصروع ، وقد اجتمع عليه الناس ينظرون اليه ، فقال : علام اجتمع هؤلاء ؟ فقيل له : على مجنون يصرع ، فنظر اليه فقال : ما هذا بمجنون ، الا أخبركم بالمجنون ، حق الجنون ، قالوا بلى يا رسول الله : قال : أن المجنون حق الجنون المتبختر في مشيه ، الناظر في عطفه ، المحرك جنبيه بمنكبيه ، فذاك المجنون ، وهذا المبتلى [2] .

وقد أمرت التعاليم الاسلامية ، بالتواضع ، كجزء من منهج التعليم والتعلم ، فجاء في الحديث : تواضعوا لمن تتعلمون منه ، وتواضعوا لمن تعلمونه ، ولا تكونوا علماء جبارين ، فيذهب باطلكم بحكم ، ان جعل التواضع ضرورة في كلتا عمليتي التعليم والتعلم لامر عظيم، اذ ان التواضع من المعلم ، يجعل حتى المتكبر ، يتقبل المعرفة .

وأمر النبي ـ ص ـ في حديث بالسؤال وان سبب الذل فقال من لا يصبر على ذل التعلم ساعة ، يبقى في ذل الجهل أبدا . وجاء في حديث عن الامام الرضا العلم خزائن ومفاتيحه السؤال . ويجعل الامام الصادق ـ ع ـ الكبر مساويا مع الجحود وكأنه معناه الوحيد ، فيقول أحد اصحابه سمعته : يقول قال رسول الله صلى الله عليه وآله لن يدخل الجنة عبد في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ، ولا يدخل النار عبد في قلبه مثقال حبة

---

(1) سفينة البحار ـ للعلامة الشيخ عباس القمي ج٣ ص ٤٦٠ .

(2) معاني الاخبار ص ٢٣٧ .

من خردل من ايمان • قلت جعلت فداك أن الرجل ليلبس الثوب أو يركب الدابة فيكاد يعرف منه الكبر فقال : ليس بذاك ، انما الكبـر انكـار الحق والايمان اقرار به [1] •

وتأييدا لذات الحقيقة يقول الامام ـ ع ـ نقلا عن رسول الله ـ ص ـ ان اعظم الكبر غمص الخلق وسفه الحق • وقد سبق أن اساس الكبر يكون في احتقار الناس والتهاون بهم ، وهو يسبب الخشية مـن الحق ، مخافة أن يكون في ظهوره ، تحطيما لشخصيته •

واعتبر الامام الصادق ـ ع ـ الكبر نوعا من الالحاد فقال : الكبر أدنى الالحاد [2] •

ويؤكد علماء النفس ذات الحقيقة فيقول : شاونيني : أن العنـصر الاصيل للتناقضات ، هو التكبر ، ان مشاهدات الشخص المتكبر خاطئة ، ومن الخطورة بمكان ، أن تفاجئه بالحقيقة ، رأسا وبدون مقدمات ، وربما كان ذلك سببا لتركيز عاداته البذيئة لانه سوف لا يعترف بأنـه يتحـدث بالتناقضات ، ويسند كلامه بأدلة وتبريرات (ويقول) أن اللهجة الناتجـة من المنطق الخاطىء ، واضحة عند الطفل ، المعقد ، وأن خطر هذه الحالـة يكمن ، في أنه يستند الى هذا المنطق الخاطىء دائما ، ولا يرضى بالتنازل عنه ، ولذلك توجد في ذهنه ، صور مغلوطة تماما، عن الاشياء، والموجودات كأنها قد نظرت اليها من خلال آشعة منكسرة [3] •

ولقد بحث العالمان (سريو) و (كاب كرا) هذه الامور بـصورة مفصلة تحت عنوان (الهذيان في التفسير) : هؤلاء المصابون لا يبدو عليهم الهذيان ، لاول وهلة لانهم لم يفقدوا قدرتهم على الاستدلال ، وأن الذي

---

(١) بحار الانوار ج١٥ ص ١٤ (الطبعة الاولى) .
(٢) المصدر ص ١٢٥ .
(٣) ج ميدانيم (فارسي) تربيت اطفال ودشوار ص ٣٣ (٦) .

يتحدث معهم يتصور أنهم مفكرون ، ومتعمقون في القضايا ، ولهذا السبب بعينه ، فقد كانت هذه الحالات تسمى في السابق بـ (الجنون المعتدل) ان اصطلاح الجنون الجزئي يشير الى هذه الظاهرة ايضا (١) .

ان الاختلال الاساسي ، الذي يوجه هذا الميل الروحي ، عبارة عن حالة نفسية ، ناشئة من التكبر ، بحيث تمنع المصاب من أن يكون حياديا . في تحكيمه ، فيتهم البعض ، بدون دليل ما ، بكونهم عقبة في سبيل تحقيق أهدافه ، هذا الاختلال الذي يختص بميزات معينـــة ، يشاهـــد في الحياة الاعتيادية، خصوصا في الحياة السياسية، الذي تجد فيها الاحقاد والاهواء، والاغراض الشخصية ، الميدان الوسيع لنشاطها (٢) .

ويشير الكسيس كاريل ، الى اضطراب العواطف ، ومدى تأثيرها في ضعف روية العقل فيقول: العقل يبرز مرئياته، فوق الشاشة الدائمةالتغيير (أي النفس المحتوية) لحالاتنا المتأثرة لالامنا ، ومباهجنا ، لحبنا وبغضنا، ولكي ندرس هذه الناحية من أنفسنا ، فاننا نفصلها صناعيا عن الكل غير المنظور .

« وفي الحقيقة ان الشخص الذي يفكر ، ويلاحظ ، ويتعقل ، يكون في وقت واحد ، سعيدا أو تعيسا مضطربا ، أو مطمئنا ، أو منقبض الصدر، بواسطة شهواته ، وبغضاته ورغباته (٣) » .

ويتشابه العجب بالرأي ، والغرور بالنفس ، مع الكبر، في جذوره وفي فروعه وثماره ، فالعجب كالكبر ، ينشأ ايضا ، من الشعـــور بالضعة ، والغرور ، وكذلك رد فعل للاحساس بالمهانة كما سبق . والدين الاسلامي اعتبر العجب ، والغرور ، بعض أسباب الخطأ ، فجاء في القرآن : « افمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ».

---

(١) جه ميدانيم بيماريصاي روحي وعصبي ص ٣٣ .
(٢) ميدانيم بينماريهاي روحي وعصبي ص ٣٣ عن المصدر السابق .
(٣) الانسان ذلك المجهول ص ١٠٤ عن الطفل ج٢ ص/١٢٢ .

وجاء في الحديث المأثور عن الامام أمير المؤمنين : « اعجاب المرء بنفسه ، يدل على ضعف عقله [1] » • وقال ـ ع ـ عن الغرور: كفى بالمرء غرورا أن يثق بكل ما تسول له نفسه [2] • والغرور قسمان غرور ساذج (تحدثنا عنه) وغرور علمي •

(الغرور العلمي)

وراء حالة التسرع ، والتـي تؤدي كثيرا الـى التعميم الوهمي • والحكم غير السليم ، ووراء هذه الحالة صفة نفسية فطرية هي الغرور فلكي لا يعترف الانسان بجهله يتقبل مذهبا فلسفيا أو نظرية علمية •

« ان البحث عن اليقين ، هو الذي يجعل الفيلسوف ، يتجاهل دور الملاحظة في المعرفة ، ولما كان يستهدف : معرفة ذات اليقين مطلق ، فانـه لا يستطيع أن يقبل نتائج الملاحظات ، ولما كانت الحجج المبنية ، على أساس احتمالات ، حجج زائفة ، في نظره ، فانه يتحول الى الرياضيات ، بوصفها المصدر المقبول الوحيد للحقيقة ، وهكذا فان المثل الاعلى ، الذي يتجه الى صبغ المعرفة ، بصبغة رياضية كاملة ، والى جعل الفيزياء ، من نفس نمط الهندسة ، والحساب ، ينشأ عن الرغبة في الاهتداء ، الى يقين مطلق ، في قوانين الطبيعة [3] » •

« وعندما يتخلى الفيلسوف، عن الملاحظة التجريبية، بوصفهامصدرا للحقيقة ، لا تعود ـ بينه وبين النزعة الصدفية ـ الا خطوة قصيرة ، فاذا كان في استطاعة العقل ، أن يخلق معرفة،فان بقية النواتج ، التي يخلقها

---

(١) بحار الانوار ج ١٧ ص ٧٩ (الطبعة الاولى) •
(٢) غرر الحكم ٥٥٨ •
(٣) نشأة الفلسفة العلمية ص ٤٠ •

الذهن البشري، يمكن ان تعد ــ بدورها ــ جديرة بأنتسمى معرفة[1].

« ان البحث النفسي للفلاسفة ، مشكلة تستحق من الاتنباه،اكثرمما يبديه بها الكتاب ، الذين يعرضون تاريخ الفلسفة ، وأن دراسة الموضوع ، لهي خليقة بأن تلقي على معنى المذاهب الفلسفية ، ضوءاً اعظم مما تلقيه عنيها ، كل محاولات التحليل ، المنطقي لهذه المذاهب .

«ففي استدلال ديكارت، منطق هزيل،غير أننا نستطيع انتستخلص منه قدرا كبيرا من المعلومات النفسية ، ذلك لان البحث عن اليقين ، هــو الذي جعل هذا الرياضي الممتاز ، ينحرف في تيار هذا المنطق المتخبــط . ويفسر علماء النفس السعي الى اليقين ، بأنه الرغبة في العودة الى العهود الاولى للطفولة، وهي العهود التــي لم يكن يعكرها الشك ، وكــانت تسترشد بالثقة ، في حكمة الوالدين ، وتقوى هذه الرغبة ، عادة ، بفضل التربية ، التي تعود الطفل على أن يرى في الشك خطيئته [2] . ولــكي يتخلص الباحث مما وقع فيه فلاسفة قديرون ، من قبله ، عليه الا يبحث عن اليقين ، بحثا طفوليا ، يغذيه الغرور ، وانما يبحث عن العلم ، وبين العلم واليقين ، هو الذي بين العقل والنفس ، فالعلم هو غذاء العقل ، ووزيره، وبغيره بينما اليقين ، غذاء النفس ، وباعث الاطمئنان فيها . وحين يخلط الباحث ، بين نفسه وعقله ، تضيع عنده مقاييس العلم .

---

(١) المصدر ص ٤١ .
(٢) المصدر ص ٤٣/٤٤ .

العامل الاقتصادي

من العوامل النفسية للخطأ العامل الاقتصادي بابعاده الثلاثة — وسائل الانتاج — طريقة التوزيع — المستوى العام .

ألف — يؤثر الهيكل العام لاقتصاد امة من الامم تأثيرا شاملا على طبيعة الامة . فليس سواء . الامة التي تعتمد على الزراعة ، والتي تعتمد على الصناعة . والثالثة التي تعتمد على التجارة .

مثلا البلاد الزراعية . (لا سيما النهرية منها) يضطر ابناؤها الى الخضوع شبه التام للانظمة السائدة ، لانهم من دون النظام الدقيق لا يمكنهم الاستمرار في الزراعة ، وتقسيم المياه .

والبلاد الصناعية ... ستضطر الى اضعاف الارتباط الطبيعي، بين ابناءه (الاسرة — القرابة — التجاور) لحساب تقوية صلات العمل ..

كما ان الصناعة تولد مدنا جديدة على اسس صناعية ، كالمدن القريبة الى الموارد الطبيعية .. مما سيؤثر ، بالطبع ، على اخلاق ابناء الامة .

كما ان فتح الاسواق للبضاعة المصنعة في البلاد الصناعية ستدفع بها الى خوض حروب ذات آثار ايجابية او سلبية على نفسية ابنائها .

والتجارة تؤثر على نفسية الامة مباشرة ، عن طريق تعامل ابناء البلاد التجارية مع شعوب مختلفة .. وكما تؤثر بصورة غير مباشرة عن طريق تكوين عقلية الربح والخسارة . ذات الاثر البعيد في علاقات الفرد مع مجتمعه .

باء — كما ان طريقة توزيع الثروة ، تؤثر تأثيرا عميقا وشاملا على نفسية الامة وبالتالي على فكرها .

ان طبقات المحرومين هي التي التفت ـ قبل غيرها ـ الى حركات التحرر في التاريخ وكانت أنبل المناضلين من اجلها ..

ولو ان الحرمان اثر فيهم باتجاه الثورة ، لما استطاعت بلاغة اصحاب الحركات حشد تلك الجموع الغفيرة حول مبادئها ..

كما ان دفاع الطبقات المنتفعة : من وضع اجتماعي معين دفاعهـا عن الجمود والرجعية ، لا يمكن تفسيره الا على اسس اقتصادية .

والمجتمعات ذات التمايز الطبقي المحدود كانت أقوى أبداً من تلك التي انقسمت على ذاتها بالطبقية الحادة ..

ان وسائل الانتاج ، وطريقة التوزيع في الاقتصاد ، تشكل «مسلكية» اجتماعية تدفع بالانسان الى اختيارات باطلة . وعلى الفرد ان يفكر قبل اعتناق اي فكرة ، هل انه مدفوع اليها بعامل اقتصادي ؟..

ان تأثير الاقتصاد يبدأ واعيا ، ولكنه سرعان ما يغور في اللاوعي ، مما يصعب على الفرد تمييزه عن القيم العقلية الثابتة ..

ان طائفة من كفار قريش في مكة كانوا يدافعون عن اصنامهم بدافع اقتصادي الا انهم لم يكونوا يشعرون ان طبيعة هذا الدافع اقتصادي . بل كانوا يزعمون انه ليس الا الدفاع عن الحق والفضيلة . و (الآلهـة المقدسين) .

ولكن لا يعني هذا : ان الدافع الاقتصادي ذات اثار حتمية على البناء النفسي للانسان . وانه السكان الوحيد الذي يوجه قطار التاريخ ـ كما فعل ماركس ـ لانه ـ اولا ـ لا حتميات على فكر الانسان ما دام هـذا الفكر يتمتع بنور العقل .

وثانيا : ان هناك عوامل اخرى تؤثر على مسيرة الانسان بقوة .. والتي شرحناها في هذا الفصل ..

ج ـ والمستوى الاقتصادي العام لمجتمع معين يؤثر عليه • ايجابيا اذ يسمح له بالانفتاح على الثقافات والاداب والفنون •

بيد ان لطغيان الثراء ، سلبيات قد تفوق سلبيات الفقر المدقع • اذ انه يؤدي الى التجبر والاسراف •

هذه خلاصة العامل الاقتصادي الذي لم نشأ الاسهاب فيه لانه يعكس حقيقة واضحة جدا •• وقد ازداد وضوحا ، في الفترة الاخيرة ، بفعل وسائل الاعلام الماركسي •

ولقد أشار الاسلام الى هذا العامل في مناسبات عديدة • فمثلا حين بين : ان الطبقات المحرومة ، (المستضعفين) هم كانوا أول الملتفين حول رسالات السماء ••

وحين حذر من الدنيا ، وما فيها من غرور • وحذر من الاسراف والتبذير ، والطغيان في النعم •

وحين بين ان حب الدنيا رأس كل خطيئة وان الناس عبيد الدنيا • و•و• نصوص كثيرة أخرى ••

القسم الثالث : كيف نتجنب الخطأ؟

البحث الخامس عن العلاقة

بين الخطأ والعوامل المادية «البيولوجية»

لكي نحصي عوامل الخطأ لا بد ان نذكر باثر (العوامل المادية) في الفكر البشري لانها قد تكون من اشدها واكثرها ضغطا عليه باتجاه الخطأ .

بيد ان العامل المادي للخطأ لا يكون ما سوى (دافعا) للخطأ و (داعيا) اليه اذ لا تنتج عند صاحبه الا ما يمكن ان نسميه بـ (حب الفكرة) وحب الفكرة انما يعني (الميل) النفسي اليها مما يعطي صاحبها دفعا باتجاهها لانها تتلائم مع نفسيته فهناك ـ مثلا ـ نفوس جبلت على الثورة والتحدي ولذلك تندفع هذه النفوس الى الرفض والتمرد بادنى مبرر لانها (تميل) اليها و (تنسجم) معها بينما نجد نفوسا اخرى (تميل) الى الخنوع والاستسلام وتتمتع ببرودة الأعصاب وثقل الدم فهؤلاء ـ بعكس اولئك تماما ـ يرفضون كل ثورة دون ان يسألوا انفسهم لماذا .

ومن الناس من (تميل) نفسه الى التشاؤم فلا يرون الا الجوانب السلبية من الحياة ولذلك تراهم ينسجمون مع الافكار الاكثر تشاؤما ، بينما الاخرون (يميلون) الى التفاؤل وينسجمون مع الافكار التي تؤيده،

وهكذا نرى بعض الناس (يميلون) الى الانطواء لانسجام انفسهم معه بينما يحب غيرهم الانفتاح وهكذا ..

« يقول ارنست همنغواي في كتابه « وداعا ايهـا السلاح » الا ان طبعي الخاص يضطرني الى الشك في انه لن تكون هنالك اقلية ستشهـد الحياة وهي تسير الى نهايتها التي لا يمكن تجنبها فهل هو لا منتم لانـه خائب وسوداوي ؟ [1] »

« فهنالك عدد من الرجال والنساء يخلقون ثوارا بطبعهم وسليقتهم [2] »
وهنا يطرح سؤال : لماذا يحب الانسان فكرة ويرفض أخرى ؟؟

الجواب « لان تركيبة الانسان النفسية (السيكولوجية) او العصبية (الفسيولوجية) او الحياتية (البيولوجية) هي التي تنسجم مع هذه الفكرة او تلك والعامل المادي الذي تتحدث عنه انما هو جزء من تركيبة نفسية الانسان » .

لماذا نذكر بالعوامل المادية ؟

إن منهج الانسان آت من نوعية تفكيره والتفكير ــ بدوره ــ خاضع للارادة والارادة ليست سوى مقاومة النفس لجاذبية الطبيعة (اذا كانت الارادة ايجابية) او هي إستسلام الذات لضغوط الطبيعـة (اذا كانت الارادة سلبية) .

ولكن متى تقاوم الارادة ومتى تستسلم ؟؟ عندما تكون الارادة اقوى من جاذبية الطبيعة تقاوم ومتى كانت أضعف تنهار . من هنا نستطيع ان نحدد اتجاه السلوك البشري بمقارنة الارادة بالطبيعة ايهما اقوى ولا يكفي

---
(١) ولسن اللامنتمي ص ١٥ .
(٢) بريان كروزير الثائرون ص ٢٠ .

ان نعرف مدى قوة الارادة بل لا بد ان نعرف ـ ايضا ـ مدى قوة الجاذبية في الطبيعة .

والعوامل المادية التي سوف نذكرها انشاء الله ، هي بعض مظاهر الضغط التي تتعرض لها النفس البشرية وتجرب ارادتها في مقاومتها او الاستسلام لها .

والهدف من ذكرها هو الاستعداد لها والتحصن ضدها اذ ليس سواء عند الانسان الذي راح يتعرض لهجوم ان يعرف او لا يعرف قواعد ومنطلقات الهجوم وكذلك الذي يعرف ـ سلفا ـ اسباب الانحراف المادية وطبيعة (الميول) التي قد تضغط عليه باتجاه معين ، خصوصا والعوامل المادية من اشد العوامل النفسية تأثيرا وفي نفس الوقت من اقلها ظهورا ، أقول : هذا الانسان يختلف عمن لا يعرف ذلك في انه قادر على التحصن ضد الوقوع في الخطأ .

ما هي العوامل المادية

بكلمة العوامل المادية هي (البيئة الطبيعية) سواء كان محور تأثيرها داخليا كالمخدرات وانواع المنبهات والاطعمة او كان خارجيا كالحر والبرد والرطوبة واليبوسة . وسواء كان عرضيا وطارئا كالضعف المرضي أو أصيلا كمستوى الذكاء .

ونستطيع الحاق الفوارق العرقية بـ (العوامل المادية) بالرغم من اختلاف الناس حولها من منكر او متطرف فيها .

كيف تؤثر العوامل المادية ؟

كيف يؤثر العامل المادي في توجيه البشر ودفعه الى سبيل الخطأ ؟
معروف ان المنبهات الخارجية تتوجه ـ في البدء ـ نحو الاعصاب

وعن طريقها تخلف آثارها على الفكر ولا بد ان نوع استجابة الاعـصاب لهذه المنبهات يؤثر في نوع تلقي الدماغ لها ، فمثلا طبيعة تركيب شبكـة العين تؤثر في طريقة استقبالها للاضواء والضلال التي هي المنبهات الخارجية بحيث انها لا تستقبل الاشعة ما فوق الحمراء ولا الضلال الباهتة وكذلك طبيعة تركيبة صماخ الاذن تؤثر في طريقة استقبالها للامواج الصوتية بحيث انها لا تستقبل الموجة التي تقل درجة التذبذب فيها من عشرين في الثانية الواحـدة ومثل ذلـك سائر الاعصاب والاجهزة المستقبلـة للمنبهات الخارجية . فهناك ــ اذا ــ تأثير كبـير على الفكر من طبيعة تركيبـة الاعصاب تلك التي هي موضوع علم الفسلجة .

وبما ان العوامل المادية تؤثر في تركيبة الاعصاب وفي طريقة ادائها لوظيفتها فهي تؤثر في الفكر بطريقة غير مباشرة ، ذلك :

ان اقتصاديات الجسم البشري لتنتظم حول جهازين يكمل أحدهما الاخر :

١ ــ الجهاز الهضمي الدوري .

٢ ــ الجهاز العصبي العضلي .

وتتحول الطاقات (الطعام) بواسطة الجهاز الهضمي الى نوع من الوقود يسهل ايصاله الى أنسجة الجهاز العصبي العضلي عن طريق الجهاز الدوري ثم يطلق مصدر التنبيه الخارجي (ذبذبات الصوت ــ مثلا ــ) الوقـود المختزن في الجهاز العصبي العضلي فتحدث الاستجابة . لذلك فرؤية المـاء لا تدفع رجلا الى الشرب الا حين يكون عطشانا كما لا بـد مـن وجود حالة فسيولوجية خاصة قبل ان يدفع مجرد وجود رفيق الحيوان به الـى محاولة التقرب الجنسي (١) .

---

(١) ميادين علم النفس ج١ ص ٤٣٨ .

فالتنبه الخارجي انما يطلق الطاقات المختزنة اما ذات الطاقات فهـي آتية من الجهاز الهضمي التي بالرغم من تعرضها لعملية التصفية والتكرير عدة مرات فانها لم تزل تحمل بعض آثار الطعام التي راحـت تؤثر فـي الاعصاب الخازنـة للطاقات وبالتالي في طريقة عملهـا والتي تؤثر هي بدورها في الفكر .

ولهذا السبب يتأثر الجهاز العصبي بضعف الجهاز الهضمي ، وبالتالي بسائر مناحي الجسم اذ ان الوظيفة السيكولوجية تنطوي دائما على عدد من اجزاء الجسم حتى عملية بسيطة نسبيا ـ كرؤية ضوء اخضر ـ تتوقف في حدوثها على سلسلة كبيرة من الحوادث التي تقع في الشبكة والدماغ وعضلات العين (١) .

ولعل التجارب التي اجريت على التعب تحمل الدلالة الكافية على ذلك اذ ان التعب يمتص الطاقات المختزنة في الاعصاب حتى لا تكاد تبقى فيها طاقة تصرف في التنبه ، ويقاس ذلك بطريقة القياس النفسي المشتملة على مثير واحد ذي تقديرات مختلفة في فترات العمل ويتدرج في القياس الذي يتكون ـ بقدر الامكان ـ من عشر خطوات تصل من السرور والارتياح في العمل الى عدم السرور او عدم الارتياح (بسبب ذلك المثير) وقد وجد ان المنحنى العادي الذي يمثل هذه الاحاسيس في حالة العمل العقلي المتكرر يهبـط بسرعة وبعجلة تناقصية (كلما كثر العمل قلت الاستجابة) من بداية العمل الى نهايته (٢) .

ولذات السبب يؤثر نوع الطعام في مدى استجابة الاعصاب للمنبهات فلقد قرر بعض الباحثين انه « ليس هناك من شك في ان الشعور يتأثـر بكمية الطعام وصفته (٣) » وانه لكي يضلع ارقى التجليات الروحية يكفي

---

(١) المصدر ج ١ ص ٤٣٦ .
(٢) مبادين علم النفس ج ٢ ص ٦٩١ .
(٣) الكسيس كارل الانسان ذلك المجهول ص ٢٣٢ .

حرمان بلازما الدم من بعض المواد (١) .

الغدة الدرقية واثرها في الفكر

كما يؤثر بعض اعضاء الجسم في الفكر لذات السبب اذ انه لا يقوم باداء دوره بالكامل مما يؤثر في طريقة اداء الاعصاب لمسؤوليتها وبالتالي يخلف اثره في التفكر فمثلا « المفروض في هرمون الغدة الدرقية ان يتوافر في الدم بكمية معينة فاذا انخفضت نسبته عن ذلك قليلا تغيرت الصورة العامة للشخص في كثير من جوانبها ففيما يتعلق بالنشاط الذهني وبالشخصية نجده (اي الشخص) يصبح كثير النسيان وتقل قدرته على تركيز الانتباه كما انه يفقد القدرة على المبادئة والاقدام وحسم المشكلات والى ذلك من تغيرات تعود بالتالي على السلوك باثارها السيئة » (٢) .

« وكما ان نقص افرازات الغدة الدرقية يسبب هذه الاضطرابات الخطيرة ، كذلك تؤدي زيادة الافرازات الى اضطرابات لا تقل خطورة عن ذلك ، ففيما يتعلق بالنشاط الذهني وبالشخصية يصل الامر في بعض الحالات الحادة الى درجة تفكك تيار التفكير والخلط والهذيان ، وحدوث بعض الهلوسات ، وفي الحالات الاخف من ذلك قليلا يعاني الشخص من الارق والقلق والتوتر النفسي الشديد (٣) » .

من هنا نستطيع الجزم بوجود ضغط سيكولوجي على الفرد من جانب غدته الدرقية ، وسائر الغدد الصماء بل ان اثار هذا الضغط الخطيرة حدت ببعض العلماء الى اعتبار الغدد الصماء (مؤثرات حتمية) على فكر الانسان وسلوكه فسماها تبعا لذلك بـ (غدد المصير) .

(١) ورسم زندكي ص ٢٦ .
(٢) مقدمة لعلم النفس الاجتماعي ص ٢٩ .
(٣) المصدر .

واضطرابات الغــدة الدرقية قد تنشأ من الوراثة • وقد تنشأ من الحالات الانفعالية الحادة [1] » •

هل تتحول الفسلجه الى فيزياء

وهنا يطرح سؤال : هل يمكن تحويل الفسلجة الى موضوع فيزيائي؟ هناك طائفة من العلماء زعموا ذلك فقالوا : « ومــن الناس من يعتقــد ان الفسلجة لا يمكن تحويلها الى فيزياء •• ولكن أدلتهم الجدلية غير مقنعة تماما ، ومن المناسب ان نفرض انهم مخطئون فما ندعوه بافكارنا يبــدو معتمدا على شبكة من السبل في المخ تشبه تلك السفرات التي تستند الى الطرق المطروقة ، وسكك الحديد المعروفة • أما الطاقة المستعملة في التفكير فكأنها صادرة من أصل كيماوي ، ولنضرب لذلك مثلا ان قلة الاوديون (iodine) في الجسم تحول الإنسان الذكي الى معتوه غبي ولذا تبدو الظواهر العقلية مرتبطة بالكيان المادي [2] » •

بيد ان هذا الزعم المتطرف لا يستند الى أدلة مقنعة ، بالاضافة الى انه يتجاهل دور العقل والعلم والارادة البشرية التي تؤثر في التفكير، ولكن بالرغم من ذلك سيكون هذا القول صحيحا اذا حددناه في اطاره الصحيح ، وهو القول بان التعرف الى قوانين الحركة في المخ وطبيعة المواد الكيماوية في الغذاء ، سيلقي أضواء كاشفة على خلفيات بعض الافكار غير الصحيحة، التي يستطيع العقل البشري ــ بما اوتي من علوم اولية واحكام مسبقة ــ تستطيع اكتشاف زيغها واسباب ظهورها وعلة اقتناع الانسان بها ، بالرغم من انها مجانبة ، للحق والواقع •

---

(١) المصدر ص ٣٠/٣١ •
(٢) برتراند رسل وآخرون/المادية الجدلية والمثالية البرجوازية ص ١١ •

أثر المناخ الطبيعي على الفكر

واذا كان الطعام مؤثرا على الجهاز العصبي ، لانه مصدر وقود له فأن كل ما يمتص هذا الوقود يؤثر – بطريقة غير مباشرة – على الاعصاب لانه يمتص وقودها الضروري . ولعل تأثير المناخ الطبيعي ، في تكوين الشخصية نابع من هذا السبب فلذلك « كلما كان الماء اقل يصبح الدم أشد غلظة ، وبطبيعة تأثير الدم على الاعصاب تصبح هي اسرع تحركا [1] » لذلك يكون سكان المنطقة الجرداء متميزين – عادة – بالتسرع وشدة الاثارة .

ومن جانب اخر « طبيعة التدهين في الجلد وترشح (وافرازات) الغدد التي تحدث في ظروف خاصة تشكل سمة بارزة للانسان الاسود ، (بسبب مناخه الحار اليابس) بينما زيادة (عملية) التبخر التي تهدف تكييف الجسم مع المحيط الخارجي (بما فيه من حرارة ويبوسة) وحفظ التوازن بين حرارة الجسم والخارج ، هذه الزيادة تخص الانسان الاسود فقط [2] » ..

لذلك قد يحدث المناخ مرضا خاصا على ساكنيه ، بسبب تأثيره على أعصابهم « فلقد تبين لعالم نفساني اسكندنافي يدعى (بوك Book) أن بعض المناطق الشمالية من السويد تضم نسبة عالية جدا من شخصيات فصامية (شيزوفرينية) [3] » .

أثر الوراثة على الفكر

واذا كان هناك تأثير مباشر على الجهاز العصبي من الجهاز الهضمي بسبب ان الاول مصدر وقو دللثاني فان أهم آثار الجهاز الهضمي يمكن

---

(١) د. كاظم وديعي/جغرافياي انساني عمومي/فارسي ص ٥٣ .
(٢) المصدر .
(٣) د. الدباغ/غسل الدماغ ص ٩٢ .

أن يبرز من خلال طبيعة استجابة الاعصاب للمنبهات الخارجية ـ بسرعة او ببطء بعمق او بسطحية ـ مما يخلّف اكبر الاثر في الفكر والسلوك ، بيد ان تركيبة الجهاز الهضمي قد تكون ناشئة من الوراثة ، وكذلك تركيبة الجهاز العصبي مما تؤثر ـ بالطبع ـ في التفكير . وقد يكون هذا السبب وراء وراثة الاخلاق والتي ازدادت الثقة بها بعد أن اكتشف العلم الجينة المورثة اذ « ازدادت معرفتنا بعوامل الوراثة بفضل العلم بـ (الجينة المورثة) (gene) فالفرد يبدأ حياته في الحمل باتحاد خلية من كل الابوين ـ بويضة الانثى / والحيوان المنوي للرجل ـ وتحتوي كل خلية على مئات الآلاف من الجزئيات الدقيقة جداً والتي تسمى بالمورثات ، وهي حاملة احدى استعدادات الطبع » [1] .

لقد أكدت التجارب التي أجريت على أسر متحدرة من أخوة مختلفين في الاب او الام مدى تعرض الابناء لآثار الوراثة من الاب او الام ، رغم وحدة المؤثرات الاخرى كما « اكد بعض الباحثين أهمية الوراثة عند تفسير الظواهر المعروفة عن الاطفال المتبنين ، بالرغم من أنهم يعترفون بأن البيئة المنزلية المناسبة قد ترفع نسبة الذكاء بمقدار حوالي ٢٠ درجة وتخفضها البيئة غير المناسبة بمقدار حوالي ٢٠ درجة وهذا التأثير الكبير الذي يصل ـ اذاً ـ الى ما يقرب من ٤٠ درجة لا يمكن اهماله » [2] .

ان تأثير الوراثة لا يكون من قناة واحدة بل من عدة قنوات ابتداء من التأثير البيولوجي (بسبب انتقال بنية الاب او الام ، الى الوليد) ومروراً بالتأثير الفسيولوجي (وطبيعة تركيبة الاعصاب) وانتهاء بالتأثير السيكولوجي (بسبب الجينة المورثة) . ولذلك قال

(١) ميادين علم النفس الجزء الثاني ص ٥٢٦ .
(٢) المصدر .

بعض العلماء انه « يحتمل أن يكون ٢٥ من حالات البلاهة نتيجة الاختلالات الحادثة على نمو المخ طوال الحياة الجنسية او عند الولادة أو في المرحلة الاولى من حياة الطفل ، ان اتزان الجهاز العصبي ، وسلامة التفكير يرتبطان الى حد بعيد بتركيب المواد الغذائية في مراحل تكون تكون المخ والنتوءات العصبية [١] » .

« اننا مصنوعون من مواد آبائنا وأمهاتنا الخلوية ، وتتوقف — في الماضي — على حالة عضوية لا تحلل ، ونحمل — في داخل أنفسنا — قطعا ضئيلة لا عداد لها من أجسام أسلافنا ، وما صفاتنا ونقائصنا الا امتدادا لنقائصهم وصفاتهم » [٢] . وليس هذا الكلام بعيدا عن التجربة ، اذ لاحظ (كوار) في احصائياته الدقيقة التي أجراها على الأسر التي كان آباؤها او أمهاتها مصابين بضعف العقل — وجود (٤٧٠) ضعيفي العقل منهم ، و (٦) فقط سالمين [٣] .

« ان ولد السارق ، أو مصاص الدماء ، تكون قابليته على الارادة الصحيحة أقل من ولد المجنون [٤] .

الفوارق العرقية

واذا تأكدت خطورة الوراثة فلا بد أن يكون هناك دور هام وخطير — أيضا — للفوارق العرقية في توجيه الانسان .

بيد ان دور الارادة البشرية ، ودور التربية والبيئة الطبيعية الذي تختلف غالبا مع دور الوراثة ودور السلالة لا يجعلنا قادرين على اثبات

---

(١) د. الكسيس كارل/راه ورسم زندكي ص ١٥٨ (فارسي) .
(٢) د. كاريل/الانسان ذلك المجهول ص ٢٠٣ .
(٣) الكسيس كاريل/راه ورسم زندكي (فارسي) ص ٧٤ .
(٤) المصدر ١٥٦ ص .

خطورة الفوارق العرقية ، اذ ما من عينة نأخذها للتجربة الا ونجد فيها المؤثرات الاخرى التي تزاحم تأثير السلالة ، ولذلك تبقى الحجةالوحيدة التي يمكننا الاعتماد عليها في (تأثير السلالة والفوارق العرقية) تبقى أدلة تأثير الوراثة والاستنتاج الفكري منها .

اثر مرحلة الانجاب على الفكر

وقد لا يكون الوالدان مصابين بضعف العقل أو أية عاهة أخرى الا انهما يورثان الوليد ذلك بسوء اختيارهم وسوء تصرفهم اثناء عملية الانجاب او خلال فترة الحمل ، وذلك مثل اختيار الاوقات الشاذة لعملية الانجاب ، او أكل الاطعمة الفاسدة او القيام بالعملية أثناء حالات عصبية او استمرار هذه الحالات عند الام اثناء الحمل او ايام الرضاع اذ لا ريب في تأثير ذلك السلبي على فكر الوليد لأنه يؤثر على بنية الوليد الهضمية والعصبية والمخية .

لذلك « كان سكر الزوج او الزوجة ـ حين الاتصال الجنسي بينهما ـ يعتبر جريمة عظيمة لأن الاطفال الذين ينشأون في ظروف كهذه ـ يشكون في الغالب من عوارض عصبية ونفسية غير قابلة للعلاج [1] .

« وان قلة الذكاء واختلال القوة العاقلة تنشأ من المشروبات والمسكر » [2] .

« وان الاضطرابات العصبية للام توجه ضربات قاسية الى مواهب الجنين قبل تولده ، الى درجة انها تحوله الى موجود عصبي لا أكثر » [3] .

« ويحتمل أن يكون ٢٥ ٪ من حالات البلاهة نتيجة الاختلالات

---

(١) و (٢) المصدر ص ٩١ .

(٣) ما وفرزندان ما (فارسي) ص ٢٧ .

الحادثة على نمو المخ طوال الحياة الجنسية، أو عند الولادة أو في المرحلة الاولى من حياة الطفـل • ان اتزان الجهاز العصبي وسلامـة التفكير يرتبطان الى حد بعيد بتركيب المواد الغذائيـة في مراحـل تكوّن المخ والنتوءات العصبية (١) •

الغباء الطبيعي

ومن العوامل الماديـة التي تؤثر في توجيه الفرد الغبـاء الطبيعي الناشىء من عمر الانسان • اذ دلت تجارب علم النفس الارتقائي على ان للعمر تأثيرا ايجابيا على تفكير الفرد وقد لخص بعض علماء النفس هذه التجارب في الحقائق التالية :

١ ــ أهمية عوامل النضج في تحديد انماط سلوك الطفل •
٢ ــ ليس هناك دليل على ان التمرين المبكر يعمل على الاسراع بظهورأنماط من الاستجابة مثل تسلق السلم •
٣ ــ يبدو ان موعد ظهور انماط السلوك الحركيالبسيطة محددة بنضوج الانسجة العصبية •
٤ ــ يبدو ان التعلم مشروط بعوامل النضج فآثاره لا تتعـدى الحدود التي يرسمها النضوج ، والنضوج يعدل من آثـار التعليم او التدريب •
٥ ــ شكل السلوك وموعد ظهـوره متوقف على الأبنية العصبية الموجودة وهذه تحددها عوامل النضج (٢) •

وفي بعض أدوار الحياة يصاب الفرد بشذوذ فكري معين ، ويكون من الصعب التغلب على هذا الشذوذ ، وذلك مثـل (دور المراهقة) اذ

---

(١) راه ورسم زندكي (فارسي) ص ١٥٨ •
(٢) مقدمة لعلم النفس الاجتماعي ص ٣٦ •

لا ريب ان الفـــرد في هذا الدور يصاب بنوع من الغبـــاء نتيجة ضغط الشهوات جديدة الانفجار .

النصوص الدينية والعوامل المادية

وقد ذكّرت النصوص الدينية بدور العوامل المادية في انحـــراف الفكر الانساني ، وفيما يلي نختار طائفة قليلة منها بالرغم من انها تبلـــغ المئـــات .

١ ـــ بيّن الاسلام تأثير الطعام فجاء في الحـــديث (عن الامـــام الرضا ـــ ع ـــ) (وهو يعدد مضار شرب الـــدم) ويسيىء الخلـــق ، ويورث القسوة للقلب ، وقلة الرأفة والرحمة ، ولا يؤمن أن يقتل ولده ووالده [١] .

وجاء في الحديث (عن الامـــام الصادق ـــ ع ـــ (وهو يـــوصي المتعلمين تجنب الاكل على الشبع) اياك ان تأكل ما لا تشتهيه فانه يورث الحماقة والبله ولا تأكل الا عند الجوع [٢] .

٢ ـــ واكد اهمية الوراثة وتأثيرها على نفسية الانسان ، (فجاء في الحـــديث عن الامـــام علي ـــ ع ـــ) اذا كرم أصل الرجل كرم مغيبـــه ومحضره [٣] (وقال) حسن الاخلاق برهان كرم الاعراق [٤] (وقال وهو يوصي الانسان باختيار الزوجة الصالحة لكي يحصل منها عـــلى الاولاد الصالحين) انظر في اي شيء تضع ولدك فان العرق دساس [٥] (وقـــال

(١) بحار الانوار ج ـــ ١٤ ـــ ص ٧٧٢ الطبعة الاولى .
(٢) بحار الانوار ـــ ج ١ ـــ ص ٢٢٦ .
(٣) و (٤) غرر الحكم ص ١٦٧ .
(٥) العرق ـــ كما يبدو ـــ يعطي ذات المعنى الذي يقصده العلم بـ (الجينة) المصدر المستطرف ج٢ ص ٢١٨ .

النبي ــ ص ــ اياكم وتزوج الحمقاء فان صحبتها بلاء وولدها ضياع [1] وتعبير النبي ــ ص ــ بـ (الضياع) يبين الحقيقة التي بينتها التجارب من ان اغلب اولاد الحمقاوات يصبحون حمقاء وضعفاء العقول .

٣ ــ واوضح تأثير طعام الوالدين ــ قبل وبعد واثناء العملية الجنسية وفترة الحمل والرضاع ــ تأثيره في الوليد سلوكه وعقله (فقال الامام الصادق ــ ع ــ وهو يبين تأثير شرب الخمر في الوليد ايما امرأة اطاعت زوجها ــ وهو شارب الخمر ــ كان لها من الخطايا بعدد نجوم السماء وكل مولود يلد منه فهو نجس ولا يقبل الله منها صرفا ولا عدلا حتى يموت زوجها او تخلع عنه نفسها [2] .

(وقال النبي ــ ص ــ) اطعموا المرأة في شهرها الذي تلد فيه التمر فان ولدها يكون حليما تقيا [3] .

٤ ــ وبين تأثير السلالة في سلوك الشخص (حين قال الامام الصادق ــ ع ــ) يا هشام النبط ليس من العرب ولا من العجم فلا تتخذ منهم وليا ولا نصيرا فان لهم اصولا تدعو الى غير الوفاء [4] .

٥ ــ كما بيّن اثر الخلقة المشوهة في خلق الانسان وسلوكه (حيث جاء في الحديث) خمسة خلقوا ناريين ، الطويل الذاهب والقصير القميء والازرق بخضرة ، والزائد والناقص [5] (وقال ــ ص ــ) عليكم بالوجوه الملاح والحدق السود فان الله يستحي ان يعذب الوجه المليح بالنار [6] .

---

(١) الجعفريات ص ٩٢ .
(٢) لئالي الاخبار ص ٢٦٧ .
(٣) مكارم الاخلاق ص ٨٨ .
(٤) بحار الانوار ج ٥ ص ٢٧٧ الطبعة الثانية .
(٥) المصدر السابق .
(٦) المصدر السابق ص ٢٨١ .

٦ ــ وأكد خطورة الزنا ومدى تأثيره في انحراف سلوك الوليد (حيث جاء في النص) لا خير في ولد الزنا ، ولا في شعره ولا في لحمه ولا في دمه ولا في شيء منه [١] .

٧ ــ وبين مدى تأثير الفكر في بعض الحالات الجسمية (حيث جاء في الحديث) لا رأي لحاقن ولا حازق (وهما من الذين تلح عليهم حاجة من حوائج الطبيعة) [٢] .

وضع الجسم أثناء البحث

من العوامل المادية ذات التأثير السيء على التفكير ، وبالتالي على اختيار الموقف السليم ، هو عدم راحة الوضع الجسدي للباحث !.

فوجود اية حاجة بيولوجية للانسان ، تسبب في اختلال اجهزته العصبية ، وهذه بدورها تؤثر في طريقة تفكيره . الملابس الضيقة . (ولا سيما الحذاء الضيقة) ، الآلام الجسدية . الخفيفة ، عسر الهضم. الجوع والعطش . البرد والحر . تلوث الهواء ، الضوضاء . انتظار امر هام . الاجابة على التليفون الذي يرن بغير موعد . الاضواء المتحركة . والاضواء الخافتة . تحرك ظلال اليد على ورقة الكتابة او على ورقة المطالعة الارق والكرى . (حاجة النوم) و...

كل هذه قد تسبب في اخطاء فكرية : لانها تعكس آثارا سلبية على الاعصاب ومن ثم على التفكير . وعلى الباحث ان ينتبه لحالته الجسدية الا تكون مزعجة خصوصا حين يعالج موضوعا صعبا .

والتفكير يستخدم المخ . والمخ بدوره يستخدم أنقى وافضل زخات الدم ، ولذلك يحتاج الانسان الى القوة الجسدية الكافية لعملية

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨٥ .

(٢) بحار الانوار ج ٢ ص ٦٠ .

التفكير • وحالات الضعف الناشيء من اي شيء • هي من اسوء حالات التفكير • كذلك حالة الشبع والامتلاء حيث لم يستطع الجسد استيعاب الغذاء بشكل تام •

ولذلك يحبذ ترك العمل الفكري حين تناول الغذاء ، او بعده مباشرة ، كما يحبذ من جانب آخر التزود ببعض الاكلات الخفيفة • اثناء التفكير وعملية البحث •

وبقدر ما يحتاج المخ الى القوة يحتاج الى الاوكسجين اذ « يتطلب العمل الذهني توفير كمية اكبر من الدم للمخ مما يزيد توتر الاوعية الى حد بعيد ، وهذا طبيعي تماما • ولا يسبب عادة اية مضاعفات ••

« ويتضمن وضع الجلوس المتخذ عادة في العمل الذهني خاصة ، والجسم منحني نصف انحنائة يولد ضغطا معينا على الصدر ، وبالتالي تكون تهوية الرئتين غير كافية ، وهذا الوضع يعوق تموين الجسم بالاوكسجين ••

« ولهذا السبب يجب مراعاة تغيير هذا الوضع من وقت لآخر ، ويكون من المفيد (القيام) (كل ٩٠ دقيقة اوكل ساعتين) والتمشية في الغرفة او الاستلقاء على الكرسي ، ومد القدمين ، والزفير ببطيء ثم اخذ نفس عميق [١] •

والعين ، هي بعد الرئة ، العضو الحساس الذي ينعكس وضعه على المخ بشكل مباشر ، والعين هي اول عضو يحس بالتعب ، ولذلك يجب التلطف في الاستفادة من العين ، وذلك باعطائها قدرا من الراحة ، كلما شعرت بارهاق وقد يكون نافعا التعود على « غرغرة » النوم في سبات خفيفة ، لاعطاء العين ومن ورائها اعصاب المخ قدرا من الراحة ، الذي راح يؤثر في فعالية العين والمخ •

(١) العمل والمخ ص ١٣٥ .

وبالطبع وضع الضوء على يسار الكاتب ، وعدم تسليط الضوء على اوراق الدفتر ، او الكتاب لكي لا تنعكس الامواج الضوئية على العين، أقول بالطبع هذه من ضرورات القراءة والكتابة .

« وأبسط قانون فسيولوجي مناسب ، هو ان يستعمل (في حجرات القراءة) مناضد للقراءة مثل القوائم التي يستخدمها الموسيقيون بوضع الكتاب في وضع سليم ، بالنسبة للمحور البصري للعين [٢] .

هذه بعض العوامل المادية التي اكد المنطق الحديث على الاهتمام بها اثناء البحث والتي لم تفت علماء المسلمين الاشارة اليها أيضا :

يقول الشهيد الثاني : (ينبغي) ألا يشتغل بالدرس ، وبه ما يزعجه ، ويشوش فكره ، من مرض ، او جوع ، او عطش ، او مدافعة حدث ، او شدة فرح ، أو غم او غضب ، او نعاس ، او قلق ، او برد ، او حر (مؤلمين) حذرا من ان يقصر عن استيفاء المطلوب من البحث او يفتي بغير الصواب .. » .

ثم يضيف قائلا :

ألا يكون في مجلسه ما يؤذي الحاضر ، من دخان ، أو غبار ، او صوت مزعج ، او شمس موجبة للحر الشديد ، أو نحو ذلك ، مما يمنع من تأدية المطلوب ، بل (لا بد أن) يكون (المكان) واسعا مصونا عن كل ما يشغل الفكر ويشوش النفس ليحصل فيه الغرض المطلوب [٢] .

---

(٢) المصدر ص ١٤٧ .
(٢) منية المريد في آداب المفيد والمستفيد ص ٧٩ .

المنطق الإسلامي أصوله ومناهجه

القسم الرابع

كيف نختار المنهج السليم

- كلمة البدء
- اخطاء المنهج
- بين الذكاء والتفكير
- ظروف الباحث .

كلمة البدء

سنتحدث طويلا ومفصلا عن المنهج العلمي الذي يأمر به الاسلام ويوحي باتباعه في البحث عن الحقائق • وذلك في الفصل القادم • اما هذا الفصل فقد خصص لموضوع آخر : هو الاخطاء الآتية من المنهج • وهو يفترق عن الفصل القادم في : أنه يبحث بصورة مجملة كل ما تشترك فيه سائر المناهج بينما خصص الفصل الآتي ببحث التفاصيل ، وايضا يبحث هذا الفصل فقط عن الاخطاء فهو يتسم بسمة الهدم بينما يركز الفصل القادم : في الطرق العملية للمنهج ، مما يعطيه طابع البناء ! فاذا كان الفصل القادم يجيب على هذا السؤال : ما هو الطريق فهذا الفصل يجيب على سؤال آخر هو ما هي اشواك الطريق • ولكن لماذا لم يتداخل هذان الفصلان ؟ مع ما بينهما من ترابط كلي ؟

السبب : هو منهج الكتاب الذي في يدينا بوجه عام • حيث ان الكتاب ينقسم اساسا الى فصلين يبحث الثاني منهما حول المنهج السليم للعلم بينما يبحث الفصل الاول (وهو الفصل الذي لا نزال ندرج فيه) يبحث عن عوامل الخطأ •• والتي قسمناها بدورها الى عوامل نفسية واجتماعية وطبيعية واخيرا عوامل منهجية وهي التي تتناولها الآن بالدراسة ولذلك فصلناها عن بحوث المنهج • بالرغم من ارتباطها العضوي والآن ما هي الاخطاء الآتية من المنهج ؟ انها متنوعة وعديدة ولكن أبرزها ما يلي :

القسم الرابع : كيف نختار المنهج السليم

البحث الاول عن :

أخطاء المنهج

- تحوير المناهج لصالح النظرية
- البحث بلا هدف
- البحث عن حقيقة واضحة
- البحث عن المستحيل
- التطرف في الحذر
- المنهج غير المناسب
- عندما تكفر بمنهج

تحوير المناهج لصالح النظرية

من المعقول ان يكون البحث طريقا الى النظرية ولكن من غيرالمعقول ان تكون النظرية طريقا الى البحث اي ان نبحث بعد ان تتقبل نظرية معينة وانما نحاول اتباعها بالبحث ودعمها بحجج مقنعة . ولكن هذا الامر غير المعقول هو الذي ورط كثيرا من الباحثين في اوحال الجهل وجعلهم يتخبطون خبط عشواء كيف كان ذلك ولماذا وهل اشارت النصوص الاسلامية الى شيء من ذلك ؟ للاجابة على هذه الاسئلة نسجل النقاط الآتية :

١ ـ يجب ان يجعل الباحث نفسه تلميذا في مدرسة التجربة والملاحظة فاذا نطقتا بشيء سكت يستمع اليهما !

بهذه الطريقة فقط نضمن صحة معلوماتنا التي تتوافق ومقتضيات التجربة والملاحظة ولكن التجربة ذاتها قد تتعرض للتحوير كما تتعرض الملاحظة للتحيز وذلك حينما تتركز تجارب الشخص او ملاحظته على بعض الظواهر المنتقاة بدقة لهدف محدد مسبقا في حين تهمل سائر الظواهر التي تتصل بالموضوع وتشكل جزءا عضويا منه ومن الطبيعي ان تدل الظواهر المجربة والملاحظة على شيء ولكن هذا الشيء لا يمكن ان يمثل الحقيقة كما هي في الواقع .. بل قد تمثل جزءا متواضعا من الحقيقة . او حتى لا تمثل الحقيقة ابدا ..

والامثلة التالية توضح هذه الحقيقة (الف) مدى كفـاءة شخص معين قد يكون موضوعا لبحث حر ومنفلتا عن شروط مسبقة تفرض عليه فيجعل الباحث لنفسه قائمتين يسجل في احديهما الصفات الحسنة للشخص، بينما يسجل في الثانية صفاته السيئة ولانه يجري في بحثه مطلقا غير مقيد فانه يسجل كل صفاته الحسنة والسيئة ، ثم يقارن بين القائمتين ، ليرى أيهما الكبرى ؟ فيحكم بموجبها على الشخص هل انه كفوء ام لا ؟.

ولكن عندما يتم اختيار هذا الشخص على انه فعلا كفوء ويبحث *الباحث لا لمعرفة مدى كفائته بل لاثبات كفائته !.*

هنا يختلف الوضع تماما . اذ يتم البحث تحت ضغط قيود معينة . هنا لا يمكن تهيئة قائمتين بل قائمة واحدة فقط وهذه القائمة تحتوي على افضل صفات الشخص وربما بصورة مبالغ فيها هذا مثال واحد ضربناه لبيان مدى تأثير الهدف من البحث في تحوير مجراه منذ البداية ومن المعلوم ان تحوير المجرى سيؤثر في النتيجة اذ ستكون النتيجة مطابقة للبحث ولكنها لن تكون صحيحة (باء) وعندما يتم اختيار نظرية معينة في الفلك مؤداها : ان الشمس تدور حول الارض فان كل البحوث الفلكية سوف تؤيد هذه النظرية اذ سوف يتغافل الباحثون عن اية ظاهرة تدل على خلافها فلا يلاحظون سوى الحقائق التي تدعم نظريتهم المختارة سلفا . وهكذا كانت المشاكل الفلكية الظاهرة غير قادرة على فتح نافذة من العلم على قلوب اولئك الذين اعتقدوا بدوران الشمس حول الارض.

(جيم) والذين اختاروا لانفسهم مذاهب فلسفية او دينية او سياسية معينة هؤلاء كانت جميع ملاحظاتهم وتجاربهم تؤيد مذاهبهم الخاطئة في اكثر الاحيان لماذا ؟ لانهم لم يكونوا يلاحظون ولا يجربون سوى الظواهر التي تتحول بهم باتجاه اثبات مذاهبهم وبالتالي انهم حوروا مناهج البحث فأدى بهم البحث الى نتائج خاطئة انتقاما منهم وجزاء وفاقا لتحويرهم اياها !.

(٢) والسبب الذي يدعو الانسان الى تحوير المناهج : هو اختيار نظرية معينة قبل البحث او استهداف دعمها ـ لعوامل نفسية او اجتماعية او طبيعية ، او حتى لمجرد التخلص من قلق الجهل والتردد ـ بل قد يكون وضع الفروض التي هي ضرورة بالغة للبحث قد يكون وضعها ، سببا من اسباب تحوير المنهج ، ولهذا فقد حذر كثير من العلماء : من مغبة الافراط في وضع الفروض ، او المغالاة في التقيد بها !

وقال احدهم : ان المجرب يوجه اسئلته الى الطبيعة ولكن بمجرد ان تتكلم الطبيعة ، يجب عليه ان يلزم الصمت وان يلاحظ ما تجيب به ، وان يسمعها حتى النهاية ، وان يخضع في جميع الحالات لما تمليه عليه ، يقولون : انه يجب على المجرب ان يقهر الطبيعة حتى تكشف له عن اسرارها » ولا ريب في ذلك لكن يجب عليه : ان لا يجيب مطلقا بدلا منها ، او يسمع اجوبتها سماعا ناقصا ، بالا يأخذ من التجربة سوى النتائج التي تثبت صدق فرضه او تكون مناسبة له فالمجرب الذي يصر على فكرته السابقة ولا يلاحظ نتائج التجربة الا من وجهة نظره الخاصة يتردى في الخطأ لانه يهمل ضرورة ملاحظة الاشياء التي لم يتوقعها،ويقوم حينئذ بملاحظة ناقصة ، فيجب عليه الا يحرص على افكاره السابقة الا على اعتبار انها وسيلة يتطلب بها جوابا من الطبيعة ، ويجب عليه ان يخضع فكرته للطبيعة وان يكون على استعداد لتركها او تعديلها او تغييرها تبعا لما ترشده اليه ملاحظة الظاهرة التي اثارها [١] .

وقال احد الباحثين : لقد اتبعت طيلة سنوات عديدة قاعدة ذهبية وهي أنني كنت ادون كل واقعة تنشر وكل ملاحظة جديدة وكل فكرة مضادة لرأيي ، وكنت ادونها في الحال ودون اهمال لانني علمت بالتجربة:

---

(١) كلود برنارد/مقدمة لدراسة الطب التجريبي القسم الاول الفصل الاول الفقرة السادسة عن د. قاسم المنطق الحديث ومناهج البحث ص ١١٣ ..

ان مثل هذه الوقائع والافكار اقل بقاء في الذاكرة من الوقائع والافكار التي تشهد لي بصدق فرضي (١) • وليس من الصحيح ان يفكر الباحث في قيمة الجهود التي بذلها في تكوين رأيه العلمي انما عليه ان يعشق الحقيقة (دون ان يعشق ذاته) وينبغي ان يتخلى عن رأيه مهما كان الوقت الذي صرفه على تكوينه طويلا • حيث ان المهم ما يشاهده الباحث وعليه الا يصبح مخزنا للحقائق بل عليه ان يبحث عن الحقائق التي تحكم الواقع وهكذا يكون اختيار نتيجة معينة قبل البحث ، عاملا قويا لتحوير المنهج ، والسير به ، بعيداً عن خط الكشف عن الحقيقة •

ولكن متى يستقيم المنهج ؟ حينما يدخل الباحث في حرم التجربة مطهرا من دنس الغايات الرخيصة ! ويستهدف العلم للعلم • لا لاية مصلحة ذاتية او غاية مادية ! فهذا هو بالضبط ، روح البحث التي تحرك جسد المناهج وتحافظ عليه من الآفات ولقد نفخ الاسلام في روع الامة هذه الروح ، حينما جعل العلم : سلما يرتقي عليه المؤمن الى رحاب الله ، ولكن لا يتحقق ذلك الا بالاخلاص لله في تحصيل العلم حتى يكون لله وحده لا لاية غاية اخرى كبيرة او صغيرة ، وقد استخدمت النصوص الدينية ثلاثة وسائل متشابهة ، تؤدي الى تربية الاخلاص للعلم في نفوس الباحثين وهي كما يلي :

(١) الوسيلة الاولى بيان ان العلم عبادة • ومعروف كيف يجب ان يخلص المؤمن في عباداته لله سبحانه •• كما ان الاسلام ، يعطي ـ بذلك ـ للعلم قيمة ذاتية تعلو به عن الوصولية الرخيصة ، فما دامت العبادة هي اشرف شيء عند المؤمن فكيف يضحي بأشرف العبادات ـ وهو التعلم في سبيل غاية مادية فانية ؟!

---

(١) المصدر السابق ص ١٨٧ •

ان النصوص التالية نبذة يسيرة من احاديث الاسلام المؤكـدة ان العلم عبادة .

قال رسول الله ــ ص ــ فضل العلم احب الى الله من فضل العبادة وقال : « أفضل العبادة الفقه » (١) .

وقال ــ ص ــ من سلك طريقا يطلب فيه علما ، سلك الله به طريقا الى الجنة ، وان الملائكة لتضع اجنحتها لطالب العلـم رضا به ! وانـه ليستغفر لطالب العلم من في السماء ومن في الارض حتى الحوت فـي البحر ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ، فـي ليلة البدر (٢) » .

وقال علي أمير المؤمنين (ع) : تعلموا العلم ، فان تعلمه حسنـة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهـاد ، وتعليمه ــ لمن لا يعلمـه ــ صدقة (٣) .

(٢) الوسيلة الثانية : الامر بالاخلاص في طلب العلم ، ولعن اولئك الذين يجعلون العلم ، مطية لهم الى اغراضهم الذاتية ! نستمع الآن الى بعض النصوص بهذا الشأن :

قال رسول الله ــ ص ــ : لا تعلموا العلم لتماروا به السفهـاء او ليصرف به وجوه الناس ، وتجادلوا به العلماء ولتصرفوا به وجوه الناس اليكم ، وابتغوا بقولكم ما عند الله فانه يدوم ويبقى ، وينفد ما سواه، وكونوا ينابيع الحكمة (٤) .

وقال ــ ص ــ من طلب العلم لاربع دخل النار ، ليباهي به العلماء او يماري به السفهاء او ليصرف به وجوه الناس اليه او يأخذ بـه مـن الامراء » (٥) .

---

(١) و (٢) و (٣) تجار الانوار الجزء الاول الصفحات ١٦٧/١٦٤/١٦٦ .
(٤) و (٥) المصدر ج٢ الصفحات ٣٧/٣٨ .

وقال علي أمير المؤمنين (ع) : لو ان حملة العلم ، حملوه بحقه لاحبهم الله وملائكته واهل طاعته من خلقه ولكنهم حملوه بطلب الدنيا، فمقتهم الله ، وهانوا على الناس [1] .

وقال الامام الصادق (ع) : الخشية ميراث العلم ، والعلم شعاع المعرفة وقلب الايمان ، ومن حرم الخشية ، لا يكون عالما — وان شق الشعر في متشابهات العلم — قال الله عز وجل : انما يخشى الله من عباده العلماء وحد العلماء ثمانية اشياء : الطمع والبخل والرياء والعصبية ، وحب المدح والخوض فيما لم يصلوا الى حقيقته والتكلف في تزيين الكلام بزوائد الالفاظ وقلة الحياء من الله والافتخار وترك العمل بما عملوا [2] .

(٣) الوسيلة الثالثة الفات النظر الى مدى ارتباط العلم بالاخلاص حيث يكاد لا يقدر الوصولي الى علم ابدا !

لاحظوا النصوص التالية كيف تربط بين العلم والاخلاص ؟
قال — ع — العلم نور يقذفه الله في قلوب من يشاء ! وهل يقذف الله العلم في قلب رجل يمتهن العلم ويجعله مطية الى مصالحه الآنية ؟ وفي كلمة اخرى يعبر النص عن العلم الذي لا يقرنه الاخلاص بالعلم المؤقت الذي لا يدوم فيقول من كان فعله لقوله موافقا فهو ناج ومن لم يكن فعله لقوله موافقا فانما ذلك مستودع — (بحار الأنوار ج٢ص ٢٦) يعني بالمستودع العلم غير الاصيل الذي لا يدوم .
وفي حديث ثالث يربط الاسلام بين العلم والعمل ويوصي بأن يكون العلم طريقا الى العمل ويكون الهدف من العلم ليس الا اتباعه وطاعته والسير وراء نوره وهذا غاية الاخلاص في العلم وهو بالتالي : الوسيلة الوحيدة للحصول على العلم والاستفادة من ضيائه .

---

(١) و (٢) بحار الانوار ج٢ الصفحات ٥٢/٣٧ .

لنستمع الى بعض النصوص في ذلك . قال الله سبحانه : أتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم واتم تتلـون الكتاب ــ افلا تعقلـون (٢/٤٤) .

وقال : يا ايها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عنـد الله ان تقولوا ما لا تفعلون (٢/١٣ الصف) وقال عيسى (ع) : رأيت حجرا مكتوبا عليه : قلبني فقلبته فاذا على باطنه : من لا يعمل بما يعلـم مشوم عليه طلب ما لا يعلم ، ومردود عليه ما علم [1] . ان اول مقـت يصبّه الله سبحانه على رؤوس الذين يقولون ما لا يفعلون هو سلب العلم منهم وتشويه العلم عليهم وبالتالي رد علمهم الى انفسهم دون قدرتهـم على الاستفادة منه !.

وقال الامام الصادق (ع) : من زهد في الدنيا اثبت الله الحكمة في قلبه وانطق بها لسانه وبصره عيوب الدنيا ودائها ودوائها واخرجه الله من الدنيا سالما الى دار السلام [2] .

وقال النبي (ص) ان العلم يهتف بالعمل، فان اجابه والا ارتحل [3] أليس العلـم هو الكشف الواضـح عن الواقـع الخـارجي ؟ او ليس التفاعل مع هذا الواقع والدخول فيه هو افضل وسيلة لكشفه وتعميـق الوعي به ، وبالتالي ازدياد العلم به ؟ اذا فالعلم والعمل لا يختلفان !.. والذي يعمل بما يعلم يتعلم ما يريد ان يعمل به وبالتالي يتعلم ما لا يعلم فهو يسير ابدا من مجهول الى معلوم طريقا سويا لانه كلما دخل ساحة العمل ، وجد امامه جوانب غامضة من الحياة ، فقاده احساسه بضرورة

---

(١) بحار الانوار ج٢ ص ٣٢ .
(٢) المصدر ص ٣٣ .
(٣) المصدر ص ٣٣ .

الاطلاع على تلك الجوانب قاده الى المزيد من البحث المنهجي للتعلم بينما الذي لا يعمل بعلمه لا يعرف قيمة العلم حتى يبحث عنه ولا يتحسس بمواقع الجهل من علمه ويستبد به غرور شامل : بأنه يعرف كل شيء ، وهذا الغرور يدفعه طبيعيا الى تشويه العلم وخلطه بألف اسطورة واسطورة يقول عن ذالك الامام علي (ع) : لا تجعلوا علمكم جهلاويقينكم شكا اذا علمتم فاعملوا واذا تيقنتم فاقدموا [1] . ويقول الامام الصادق : تعلموا ما شئتم ان تتعلموا فلن ينفعكم الله بالعلم حتى تعملوا به [2] .

وقال ايضا : العلم مقرون الى العمل فمن علم عمل ، ومن عمل علم [3] ، وقال ايضا : من عمل ما علم اوتي علم ما لا يعلم . ان هذه النصوص جميعا تهدى الى ذات العلاقة التفاعلية المتينة بين العلم والعمل وانه كلما كان الربط بينهما شديدا كلما كان العلم واضحا ودقيقا !.

وهذا بالطبع هو الاخلاص العلمي الذي امرنا به في الاحاديث السابقة والذي يشكل جانبا هاما من منهج الاسلام في المعرفة .

والسؤال هنا كيف نعرف اننا مخلصون فعلا في طلب العلم وناجحون في تحصيله ام لا ؟ هل هناك معالم تهدينا الى حقيقة انفسنا في طلب العلم، حتى لا تتورط في فورة الغرور بانفسنا ، والاعتقاد خطأ باننا مخلصون بينما لا نكون كذلك ؟ يجيب النبي (ص) على هذا السؤال ، ويضع لنا طائفة من الصفات التي يمكننا ان نكشف بها مدى الاخلاص في انفسنا للعلم ، وبالتالي نعرف نسبة النجاح المنتظرة في ذلك وفي طليعة هذه الصفات يأتي الشعور بالتواضع ـ في النفس وامام الناس ـ ثم المزيد من حب العمل ، والاجتهاد فيه .

(1) بحار الانوار ج٢ ص ٣٨ .
(2) المصدر ص ٣٧ .
(3) المصدر ص ٤٠ .

يقول النبي ــ ص ــ من طلب العلم لم يصب منه بابا الا ازداد في نفسه ذلا وفي الناس تواضعا ومنه خوفا وفي الدين اجتهادا وذلك الذي ينتفع بالعلم ، فليتعلم ومن طلب العلم للدنيا ، والمنزلة عند الناس ، والحظوة عند السلطان لم يصب منه بابا الا ازداد في نفسه عظمة وعلى الناس استطالة ، وبالله اغترارا ، ومن الدين جفاء ، فذلك الذي لا ينتفع بالعلم فليسكت وليمسك عن الحجة على نفسه ، والندامة والخزي يوم القيامة .. [1] .

بهذه الوسائل الثلاث (رفع العلم الى مستوى العبادة ، والامر بالاخلاص في العلم وربط العلم بالاخلاص وجودا واتساعا) .

يهدف الاسلام تربية الروح العلمية في الانسان ، وتحصينه من الخطأ الناجم من تحوير المنهج العلمي ، بسبب استباق البحث بتحديد نتيجته سلفا ، وبالتالي : جعل البحث في خدمة النظرية ، التي اتبعت قبل البدء بالبحث .

هذه واحدة من الاخطاء الآتية من المنهج . والثاني :

(البحث بلا هدف)

قيل ــ قديما ــ حسن السؤال نصف الجواب وهذا يعني ان علينا: ان نحدد بالضبط (الهدف العلمي الذي نرمي الوصول اليه بالبحث) فماذا نريد ان نعرف ؟ وما هو المجهول الذي نحاول كشفه ؟ ذلك لانه بدون هذا التحديد ، فان البحث سوف لا يستمر ، للاسباب التالية :

١ ــ بدون معرفة هدف محدد للبحث قبل البدء كيف نستطيع ان نجمع المواد المتناسبة مع البحث ؟ فمثلا : لو لم نعرف اننا نبحث عن

(١) المصدر ص ٣٥ .

حكم الزاني في الفقه ، كيف يمكننا التفتيش عن آية الزنا في القرآن ؟ ولو لم نعرف (في علم الفيزياء) اننا باحثون عن امتداد المعدن بالحرارة كيف يمكننا جمع تجارب خاصة بحرارة المعدن ؟! وكذلك كلما كان الاطار المحدد للبحث معينا سلفا ، كلما استطعنا جمع مواد اكثر التصاقا بموضوع البحث ، واشد دلالة عليه ، وبالتالي : لا يذهب جزء من تفكيرنا عبثا في الجمع والتحقيق ، والتأمل في تجارب لا تمت بالبحث بصلة .

٢ ــ لان الانسان لا يفكر عادة الا اذا وجد حاجة ماسة الى هذا التفكير ، فان لا هدفية البحث ، يجعل الانسان لا يشعر بالحاجة الى التفكير ، وبالتالي يجعله لا يفكر ، وبالعكس لو كان للبحث هدف فان النفس ، تشعر بضرورة كشفه ، وتستغل طاقة التفكير ، في هذا الهدف ، حتى تحققه !.

٣ ــ والتفكير يشبه الماء ينتشر في كل اتجاه لو لم يكن ظرف يحتويه ، ولذلك فكلما كان اكثر تركيزا ، كلما كان اشد نفعا ، والهدف العلمي للبحث ، يصبح بمثابة ظرف يحتوي شتات التفكير ، واطار يجعله اكثر تركيزا ! واكثر نفعا !.

ومن هنا كان من اكثر الاخطاء المنهجية خطورة ، هو البحث عن « لا شيء » وبغير هدف علمي محدد .

وكما يكون تحديد الهدف لمجمل البحث ضروريا ، فهو ضروري ايضا لوجبات البحث ، فكل جلسة بحث يجب ان يكون لها هدف جزئي، يريد الفرد تحقيقه خلالها ، وعادة يذهب جزء من الجهد والوقت لكثير من الباحثين في تحديد مسار البحث ، بعد جلوسهم على الطاولة ، وبالتالي لا يبدؤون البحث الحقيقي ، الا بعد أن يصاب مخهم واعصابهم، بارهاق كبير ، ولكي يتفادوا هذا العبث ، عليهم ان يفكروا قبل الجلوس

فيما يريدون ان يعرفوه بالضبط خلال الجلسة « لا تجلس ــ ابدا ــ الى العمل ، دون خطة محددة ، و (دون) تحديد « كمية معينة من العمل لانجازها ، راقب مقدار العمل (الذي عملته) عن طريق كتابة «المذكرات واستخدام التقويم اليومي [1] .

ولهذا التحديد فوائد منهجية اخرى اهمها : تحظير ادوات البحث اللازمة قبل الشروع حتى لا يفاجيء الباحث انه يحتاج الى قاموس ، او كتاب ، او معدن ، او ما اشبه من ادوات البحث والتجربة ، وبينما يقوم ليحظر هذه الادوات ، تنقطع سلسلة بحثه ، ويتشتت تفكيره ، وبدون تحديد مسبق لهدف البحث الجزئي ، كيف يمكن تهيئة الوسائل المناسبة له ؟! ومرة اخرى نكرر الحكمة القديمة « حسن السؤال نصف الجواب » فاذا كنت بارعا في توجيه السؤال الى الحياة فلن تعدم منها الجواب الصحيح . بينما السؤال ، غير المحدد ، يضع الحياة في حيرة ، ويضع التفكير في فوضى شاملة ، فاذا سألنا ــ مثلا ــ الحياة مسألة بسيطة هي : ما لون النصب التذكاري الذي نجده امامنا في الساحة ؟ فسوف لا يكون الجواب سليما . لانه لو قيل لنا : ان هذا النصب احمر، فقد يكون جانب من النصب أخضر والعكس بالعكس ، وقد يكون هناك اختلاف في لون النصب من الليل الى النهار ، ومن اليوم هذا الى غد وثم ان لفظة «النصب التذكاري» غير محددة ، فهل المراد منه الجانب العلوي، او تشتمل حتى القاعدة التي استوى النصب عليها ؟؟ وهكذا لا يكون الجواب صحيحا مطلقا ، لان السؤال لم يكن علميا محددا اما السؤال العلمي ، فيحدد اولا : المقصود من لفظة النصب التذكاري ثم يحدد الظروف التي تتصل بهذا النصب ، والتي تؤثر بشكل او بآخر في لونه، وتحدد ايضا المعنى المقصود من اللون ، حتى يكون الجواب سليما .

---

(١) العمل والمخ ص (١٤٠) .

وبالطبع ، هذا مثل مبسط جدا • اذ ان المشاكل العلمية ، ليست من نوع السؤال « عن لون نصب تذكاري » انما هي معقدة ومتشابكة وتحديد السؤال فيها ، يحتاج الى وقت كبير ، وجهد كبير ايضا • ولكي نفهم طبيعة هذا الوقت والجهد ونفهم — بالتالي — كيف تتحصن ضد الاخطاء المنهجية ، الآتية من عدم تحديد المشكلة ، بالضبط ، قبل البحث لكي نفهم هذا وذاك لا بد ان ندرس جانبا من المنطق الذرائعي (براجماتزم)(١) •• ليس لان نظرياته المنطقية صائبة كليا بل لانها افضل نظريات، تشرح هذا الجانب الخاص من المنطق ، وهو جانب تحديد المشكلة ! وفي البداية يجب ان نعرف : حين ندرس موضوعا ليس لنا شيء واحد ندرسه ، انما مجموعة اشياء معا « هي التي ندرسها » او بالاحرى شيء واحد من مجموعة اشياء يتصل بها ويتفاعل معها • فاذا نظرت الى المنضدة امامك وحاولت دراستها فان هناك عدة اشياء تقفز طبيعيا الى صعيد الدراسة ، اشياء ترتبط بالمنضدة ، واشياء ترتبط بك فاما بالنسبة الى المنضدة:هناك الارض التي تقلها ، والستارة التي تظللها ، والادوات التي تبعثرت عليها، والضوء الذي سلط عليها ، ومالك المنضدة ، ومدعيها ، والاختلافات الناشئة حولها ، كل هذه تقفز الى ذهنك حين تدرس المنضدة ، وهي جميعا الاطار الذي تستقر بداخله المنضدة ! ولا تستطيع ان تجردها عنه • وبالنسبة اليك فان المنضدة قد تعنيك من ناحية خشبها ، او صنعها — اذا كنت نجارا — او من جهة صورها ونقوشها اذا كنت فنانا او حتى من طرف مالكها ومدعيها اذا كنت حاكما ! واخيراً قد لا تعنيك المنضدة الا من زاوية الآثار الصغيرة ، التي تركت عليها ، اذا كنت شرطيا تبحث عن جريمة ، وهكذا تختلف نظرتك الى المنضدة لانك اساساً

---

(١) نعتمد هنا على كتاب جون ديوي المسمى بـ (المنطق نظرية البحث) ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود . طباعة دار المعارف بمصر .

تختلف ، من نجار ، او فنان ، أو حاكم ، او شرطي . ومن هنا فعندما تشير الى المنضدة وتقول « هذا » فلا يمكن ان تعني : شيئا واحدا في كل الحالات بل لا بد ان تعني في كل حالة شيئا مختلفا . حسب ظروفك الشخصية . وقد جرب احد العلماء هذه الحقيقة فوجه سؤالا الى مجموعة اطفال ، فسمع اجوبة مختلفة ، السؤال هو ما هذا ؟ واشار الى المنضدة فأجاب كل منهم بجواب : قال احدهم : « خشبة » . قال الآخر «صورة» قال الثالث : « ستارة » . وقال الآخر : « منضدة » ... والدراسة العلمية السليمة ، هي التي تحدد سلفا العناصر المشتركة في صنع موقف، نريد دراسته ، والحالات النفسية التي تختلف الدراسة ، حسب اختلافها ففي المثل السابق : تضع الدراسة السليمة نصب عينها هذا السؤال : ما هي المنضدة ؟ وكيف اريد انا ان ادرسها وبعدئذ يتحرك نحو الحل .

يقول جون ديوي : كيف نحكم ضبط المشكلة الحقيقية عند تكونها احكاما يكفل للابحاث التالية ان تسير نحو حل لها ؟ اي كيف نحدد المشكلة ؟ أولى خطوات الاجابة على هذا السؤال : هي ان نعلم بأن الموقف ، ان كان غير متعين على الاطلاق ـ كان محالا علينا ان نحوله الى مشكلة ذات مقومات محددة المعالم ، واذا فالخطوة الاولى : هي ان نستخرج من الموقف القائم تلك المقومات التي تكون مقررة للاوضاع ـ من حيث هي مقدمات ـ فمثلا لو دق صوت ينذر بثبوت نار في قاعة مزدحمة ، كان هناك عندئذ اشياء كثيرة غير متعينة ، مما يتصل بانواع النشاط التي يجوز ان تنتج نتيجة مناسبة للموقف ، فقد يجوز ان يؤدي الامر باحد الحاضرين الى النجاة ، كما يجوز له ان يداس ، ويخنق ، ومع ذلك فللنار ما يميزها من الخصائص المعروفة ، فهي مثلا معلومة المكان والماشي وابواب الخروج معلومة الاوضاع . وما دامت ـ هذه الاشياء مقررة ومحددة بالقياس الى الوجود

الخارجي ــ كانت الخطوة الاولى بعدئذ في اقامة المشكلة : هي ان نضع تلك الاشياء في اطار المشاهدة وضعا معلوما وسيكون الى جانبها عوامل اخرى هي من المقومات المشاهدة ايضا على رغم انها ليست كالسابقة من حيث ثباتها الزمني والمكاني مثال ذلك سلوك وحركات سائر الافراد الحاضرين وكل هذه الظروف المشاهدة مأخوذة معا تكون وقائع الحالة وحين تكون عناصر المشكلة لانها هي الظروف التي لا بد ان نحسب حسابها او ان نأخذها بعين الاعتبار في أي حل يطرق ببالنا مما يتصل بالمشكلة القائمة •

وبتحديدنا للظروف الواقعية التي نجمعها في نطاق المشاهدة يعرض لنا حل ممكن للمشكلة التي نكون بصددها !• ويسمي جون ديوي « الوقائع التي تشترك في تحديد المشكلة » : بوقائع اجرائية » • ثم يفسر ذلك بالقول : ثم ماذا نعني بقولنا عن الوقائع : انها اجرائية ؟ نعني ــ من الناحية السلبية ــ انها ليست مكتفية بذاتها ، ولا هي كاملة في ذاتها ، بل انها لتختار وتوصف ، كما رأينا ، ابتغاء غرض مقصود الا : وهو وضع المشكلة المتضمنة ، على نحو يجعل مادتها تدل على معنى له علاقة بغرض الاشكال القائم من جهة ، ويعين على اختيار قيمته وسلامته من جهة اخرى • ففي البحث ــ ذي الخطة المدبرة ــ تختار الوقائع ، وترتب ، لغرض صريح ، وهو ان تؤدي هذه المهمة ، فليست هي مجرد نتائج عن اجراءات المشاهدة ، التي نجريها ــ بوساطة اعضاء الحس في اجسامنا ، وما يساعدها من ادوات صناعية ــ بل هي : وقائع بصفاتها الخاصة ، وبأنواعها الخاصة ، التي قصد بها ان ترتبط احداها بالاخرى، ارتباطات معينة تتطلبها ، بغية الوصول الى نهاية معينة ولذلك قررنا ان نسقط منها ما نجده غير مرتبط بغيره في تلك النهاية المقصودة !•

وليس الاطار ــ الذي نحدد ضمنه مشكلتنا في البحث ــ هو الاطار

الصغير ــ الذي يحتوي على المشكلة الفعلية التي ندرسها ــ وانما ــ بالاضافة الى هذا الاطار ــ يجب ان يكون اطارا عاما ، يحتوي على سلسلة المشاكل جميعا في وحدة تمنح الدراسة شيئا من التماسك والتفاعل والتحديد ، بهذا المعنى يخلق لنا جوا اوسع للبحث ، نستطيع ان نربط من خلاله المشاهدات المتباعدة نوعا ما بيعضها ، في ذلك يقول ديوي : كلما فض وجها من وجوه المشكلة خلق له سيرا معينا في العمل قام وجه آخر على صورة شيء جديد او حادثة جديدة ، فلو لم تكن الحلقات المتشابهة منطوية تحت موقف شامل ، له ــ من الطابع الكيفي ــ ما يتغلغل في تلك الحلقات كلها ، ويمسكها معا ، لكان نشاط العامل في صناعته ، قفزات وانتقالات تخلو من المعنى [1] . « يجب ان يكسب اختيار الموضوع ــ ذي المغزى العلمي الاجتماعي ــ عن عضوي الجسارة والاستعداد لعمل بعض التضحيات للوصول الى الهدف « ويجب أن يكون متدرجا حيث يجب « تعلم الف باء العلم قبل ان نحاول الوصول الى القمة [2] .

والتعاليم الاسلامية وصت بتحديد المشكلة ! فقال النبي ــ ص ــ التودد الى الناس نصف العقل وحسن السؤال نصف العلم والتقدير في النفقة نصف العيش [2] وفي حديث سئل احد الائمة (ع) سؤالا عن الصيد في الحج ، فأخذ (ع) يقسم السؤال الى عدة اسئلة ، تجاوزت العشرات ! حتى اعطى الجواب ، وهذه هي الطريقة العلمية السليمة التي تعتمد على تحديد المشكلة ، قبل البحث عن حلها .

---

(١) المنطق : نظرية البحث ص ٢٠٦ .
(٢) العمل والمخ ص ١٤١ .
(١) المصدر ص ٢٢٧ .

قديما قالوا : من جرب المجرب حلت به الندامة ، وكانوا يعنـون بهذه الحكمة : ان على الانسان ان يستفيد من تجارب غيره ، ويبدء من حيث انتهوا سواء في الحياة العملية ، او في البحث العلمي !

ولكن السابقين ، هم اول من نسي هذه الحكمة ، اذ كان منطقـهم ينطوي على اعادة المعلومات مما حدى بكثير من المناطقة الجدد ، توجيه اعنف اللوم عليهم ، باعتبار ان هذا التكرار الممل كان السبب في تجميـد معلوماتهم ، في حلقة دائرية لا تتحرك الا لتعود الى مواقعها من جديد ، وبدون اي مكسب علمي يذكر ! فمثلا المنطق الآرسطي يعطي « الشكل الاول » من القياس اهمية بالغة ، وهذا الشكل ينطوي على خطأ تكرار المعلوم ، واعادة بيانه بصيغة اخرى اذ انه يتركب من صغرى وكبرى ، اي من فكرة كلية ، وفكرة جزئية تابعة منها ، ويقول مثلا : زيد انسان ـــ وكل انسان فان ـــ فزيد فان الى هنا يبدو المنهج سليما ، ولكن تبدء المشكلة من ان علمنا بالفكرة الكلية قد تكون آتية من علمنـا بالفكرة الجزئية فعن طريق معرفتنا ـــ مثلا ـــ بفناء زيد ، وعمر ، وخالد، ومحمد، وعلي ، وكل انسان ، عرفنا بان كل انسان فان ، فكيف نعود ونحـاول اثبات فناء زيد عن طريق فناء كل انسان ؟!»

« وان قيمة الاستنباط ، لترجع الى كونه فارغا ذلك لان كـون الاستنباط لا يضيف اي شيء الى المقدمات ، هو ذاته السبب الذي يتيح على الدوام تطبيقه دون خوف من ان يؤدي الى الاخفـاق وبعبارة أدق فليست الحجة بأقل يقينا من المقدمة ، فالوظيفة المنطقية للاستنباط ، هي نقل الحقيقة من القضايا المعطاة الى قضايا اخرى [1] .

(1) نشأة الفلسفة العلمية ـــ هانز (٤٥) .

وهذا يعني ان علمنا بالكلي اذا كان آتيا « من الاستقراء التام » فان علمنا بالجزئي سابق عليه ، فلا يكون تابعا له . وحتى لو لم يكن علمنا بالكلي آتيا من علمنا بالجزئي فان « مجرد علمنا بالكلي » منطو على العلم بالجزئي ، اذ ليس الكلي اكثر من مجموعات جزئيات فماذا نريد من القول : بان كل انسان « كذا » ؟ ألسنا نريد من كلمة « كل انسان » زيدا وعمرا وفلانا وفلانا فماذا يفيدنا اذا تكرار النتيجة ، (فزيد فان) ؟! ولا نريد ان ننكر — بهذا القول — فضل هذا النوع من القياس ، في توضيح الافكار ، وارتباطاتها ، ببعضها ، ولكنا نريد ان نؤكد على ان المبالغة في استخدام هذا النوع من القياس ، يوقعنا في تجربة المجربات ، واعادة المعلومات ، والتي تؤدي بدورها الى تجميد الفكر ، وسلب المبادرة منه ، لذلك يقول د . محمود قاسم : ان ترديد القياس لبعض الحقائق التي سبق اكتسابها ، هو السبب في عقمه ، وجموده ، فالمنطق الشكلي — الذي انشأه الميتافيزيقيون — ينمي قوة الجدل على وجه الخصوص ، اي انه ينمي استعدادا للبرهنة ، دون الكشف عن شيء ما ، وهو استعداد اكثر ضررا منه نفعا ، وقد قال ديكارت : ما يشبه ذلك في حديثه عن القياس الذي يستخدمه المرء لكي يفسر للآخرين الاشياء التي يعلمونها ، بدلا من ان يكشف لهم عن تلك التي يجهلونها (كتاب اوجيست كنت الترجمة العربية ص ١٠٢) [١] .

وهذه الحقيقة تعني امرين آخرين ايضا هما :

١ — علينا ان نتمتع بالشجاعة الكافية للبحث عن المجهول . ذلك لان طائفة من الباحثين ، لا يملكون هذه الشجاعة ، فيدورون في حلقة المعلومات الموجودة ، ويحرمون انفسهم متعة الاكتشاف الجديد ، وقد

---

(١) المنطق ومناهج البحث ص ٤٦ .

حذرنـا بعض النصوص ، الاسلامية عن الجبن في اختراق المجهـول ، والايمان به ، وجاء في حديث الامام علي عليه السلام ، الناس اعداء ما جهلوا وجاء في آية قرآنية كريمة بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه •

٢ ـ وعلينا ان نبدء البحث ـ بالاطلاع على نتائج كـل البحوث السابقة ـ حتى لا نكرر دراسات الآخرين ، فلا نصل ـ بعد التعب ـ الا لما وصلوا اليه ، فيكون بحثنا عقيما ! صحيح انه قد توجب علينـا ـ الامانة اعادة النظر في صحة أقوال الآخرين ، ولكن لا يعني ذلـك الاستمرار في هـذه العملية وجعلهـا عادة سلوكية في حياتنا العمليـة والعلمية •

فلكي لا تجعل بحثك عقيما ـ كما فعل طائفة من الباحثين ـ أجمع حولك كل ما كتب او قيـل في موضوعك ، وادرسها بدقة ، واهضمها بترو ، ثم ابدء بحثك بكل ثقة وشجاعة في اختراق المجهول !

والاسلام اوصى باتباع العلـم وعدم التردد فيه فقال علي عليـه السلام : لا تجعلوا علمكم جهلا ويقينكم شكا اذا علمتم فاعملوا واذا تيقنتم فاقدموا •

ان تكرار صياغة المعلومـات يلهيـنا عن البحث عن معلومـات جديدة ويبلد شعورنا بفعل اللاإهتمام الذي نصاب •

ايضا يجعلنا نتردد ونشك حتى في تلك المعلومات السابقـة لان ازدياد الموضوع قد يؤدي الى الغموض وعلينا ان لا نتبع منهجا يعتمـد على تكرار المعلومات او تجربة المسلمات بل منهجا يدفعنا الـى اختراق المجهول والبحث عن حقائق لم تعرف بعد •••

البحث عن المستحيل ؟

اذا صح القول الشائع : اذا اردت الا تطاع فأمر بما لا يستطاع اذا صح هذا القول في الاجتماعيات ، فانه اكثر صحة في المنهج العلمي • اذ

ان كثيرا من الناس ، يقعون في سلسلة من الاخطاء ، نتيجة بحثهم عما لا يمكن فهمه . وكثيرون يحاولون معرفة اشياء بعيدة جدا عـن مستوى عقولهم فيغطون في بؤرة الجهل ، اذ يتخيلون نظريات ــ بينهـا وبـين الحقيقة ــ مسافة بعيدة جدا . وقد يكون هذا الفريق من الناس واحدا من اربعة .

١ ــ فاما ان يكون المستوى العلمي الشخصي ــ الـذي يتمتـع به ــ بعيدا عن مستوى ما يحاول اكتشافه ، فطالب في المتوسطة مثلا ، يسعى لفهم ابعاد نظرية انشتاين النسبية وبراهينها النظرية ! وبديهي ان يسبب له هذا التكلف ، اخطاء كبيرة ، وقد حذرنا بعض التعاليم الاسلامية عن هذا التكلف فجاء في القرآن الكريم « يا ايها الذين آمنوا لا تسألوا عن اشياء ان تبد لكم تسؤكم وان تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبـد لكم ، عفا الله عنها ، والله غفور حليم ، قد سألها قوم من قبلكـم ، ثم اصبحوا بها كافرين (المائدة/١٠٤/١٠٥) .

ان السؤال عما هو فوق مستوى الفرد ، سيؤدي به الى الكفر ، لانه لا يمكـنه ان يهضم الجواب السليم لسؤاله ، فخـير له ان يترك السؤال مرة واحدة ، كما جاء في الآية الكريمة .

٢ ــ وقد تكون الموضوعة التي يحاول الباحث دراستها ــ ابعـد ما تكون عن مستوى العلم البشري كله ، فيأتي شخص مثلا . ويحاول ــ قبل اوانه ــ ان يفهم طبيعة الكائنات التي تعيش في آخر مجرة كونية في الفضاء ألا يصاب ، هذا الشخص ، بالجنون او يغرق في بحـر مـن النظريات الوهمية البعيدة ؟!

والنصوص الاسلامية وصتنا : ان لا تتكلف علم ما لم تؤت علمه ! والتي من بينها ــ بالطبع ــ البحث عن كنه الخالق وعن اموره الذاتية ، ذلك البحث الذي اشغل ، بال الفلاسفة لفترة طويلة من الوقت، واستنفد

المزيد من الطاقة واوصلهم بالتالي الى انواع من الضلالة الفكرية والسلوكية ! ولو انهم كانوا يعرفون : ان طبيعة هذا البحث عاصية الفهم لكانوا يولون اهتمامهم الى اشياء اكثر فائدة لهم واقل ضررا . ولقد انقذ الاسلام الفكر البشري اذ وجه اهتمامه كليا الى المخلوق ، وجعل « فهم هذا المخلوق » افضل وسيلة لمعرفة الخالق ، وجاء في القرآن الكريم: (الذين يتفكرون في خلق السماوات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانك فقنا عذاب النار [1]) .

(قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا) ...
وفي الاحاديث جاء هذا التوجيه بكلمات صريحة وعنيفة مثلا ..
« من تفكر في ذات الله تزندق » .

ويؤكد حديث كريم ضرورة الكف عن السؤال الافتراضي ـ الذي يتخيل المرء حالة معينة غير موجودة ـ ثم يحاول الاجابة عليها ، لان هذا النوع من البحث ، يؤدي ـ حتما ـ الى التورط في سلسة افكار مثالية مفترضة .

يقول الحديث : لا تسأل عما لم يكن ففي الذي قد كان لك شغل .. [2] » .

ان الحالات المشكلة التي تعيش في الواقع ، الآن كثيرة ، وكافية لاثارة اهتمام الانسان ، فلماذا البحث عن مشاكل لا وجود لها ؟ وفي حديث آخر اياكم واصحاب الخصومات ، والكذابين ، فانهم تركوا ما امروا بعلمه ، حتى تكلفوا علم السماء ، [3] .

---

(١) في هذه الآية يوضح القرآن : مدى ضرورة التفكر في السماوات والارض ، كوسيلة قريبة الى معرفة الله سبحانه .
(٢) بحار الانوار ج١ ص ٢٢٣ .
(٣) المصدر ج ٢ ص ١٢٩ .

٣ ــ وقد تكون وسائل الدراسات العلمية ــ التــي من المفروض ان تتقدم على الموضوعة المبحوثة ــ لم تكتمل بعد ، فيجب ان نبــدء بتكميل تلك الدراسات ، ثم نسعى لفهم الموضوعة ، دون ان نقفز مــن فوق الحلقات المفقودة ، ونحاول الوصول ــ مرة واحدة ــ اليها ! فمثلا علم الطب لم يكتشف بوجه الدقة ــ اسباب مرض السرطان ــ فــاذا حاول باحث ان يتناسى هذا العجز ، ويصل الى فهم علاج السرطــان ، قبل توصل العلم الى اسباب ظهوره كان عليــه ان ينتظر الفشل بكــل اطمئنان • لان الدراسات التمهيدية ــ التي من المفروض ان تكون طريقا الى معرفة علاج السرطان ، وهي الدراسات التي تبحث عن اسبابه ــ لمّا تكتمل • وهكذا يجب ان لا نستعجل في فهم الطبيعة فنصاب بالخطأ!••

٤ ــ واخيرا نجد بعض الباحثين يفترضون « قدرتهم عــلى حل المشكلة » قبل ان تكتمل لديهم الدراسات الخاصة بها • فيعتمدون على قدر اقل من التجارب والبحوث مما ينبغي ، وذلك نتيجة افتراض خاطىء آخر • هو : ان المشكلة ــ لديهم ــ قد اصبحت على ابواب الحل •••

لذلك ينبغي ــ عدم الاستعجال ومحاولة حل المشكلة ــ قبل ان تتم قناعة الباحث : بأنها قد نضجت وآن لنا قطفها •

كل هذه البنود الاربع تقع في اطار واحد هو البحث عن المستحيل ، سواء كان مستحيلا بالنسبة الى مستوى الانسان او المستوى العلمي في الانسان في مرحلة معينة او في مستوى البحث العلمي بالنسبة الى مراحله المتتالية •

الحذر من الخطأ

قد يكون الحذر من الخطأ نابعا من الايمان بالحــق ، وبضرورة البحث عنه ، بين ما يكتنفه من الباطــل وهو بذلك صفة حسنــة يجب

التحلي بها ولكن قد يكون الحذر من الخطأ ناشئا من عدم الثقة بالعقل، وبقدرته على اكتشاف الحق ، وهذه صفة سيئة يجب التجنب عنها ، بكل شكل ممكن ، ذلك لان هذا النوع من الحذر لا يزيد بالتعلم الا قوة ورسوخا في النفس ، ويؤدي بالتالي الى المزيد من الجهل والشك والتردد !!. ذلك لان الحذر الشديد من الخطأ ، يفقد الانسان الايمان بما يحصل له من العلوم . لانه ما من علم يأتيه الا ويشك في صحته ، حذرا من ان يكون باطلا ، ويستمر في الشك ، حتى يصبح مثاليا سوفسطائيا ، او شكاكا بيرونيا ، .. بينما الايمان بالعلوم الثابتة ، يكون منطلقا لتحصيل علوم جديدة ، ويعطينا القدرة على الاستمرار في البحث والتنقيب ، يقول الدكتور قاسم : فربما كانت شدة الحذر من الخطأ ، سببا في تقييد العقل وجموده ، وفي صرفه عن فهم الظواهر [1] .

والسؤال : متى يجب الحذر ومتى يجب التجنب عنه ؟؟ لا يمكن الاجابة عليه الا من قبل الانسان ذاته . فمتى وثقت النفس بشيء واطمأنت ، يجب عدم التردد فيه بعدئذ ، وكما يقول الامام علي السلام لا تشكوا فترتابوا ولا ترتابوا فتكفروا .

ان الشك المصطنع ، كاليقين المصطنع ، يسبب التشويش على العقل . انما يجب ان ندع العقل بحريته ، فمتى اطمأن آمن ، ومتى شك سعى الى اليقين . اما اذا تدخلنا ، فوضعنا ، هنا يقينا ، وهناك شكا ، حسب مشتهيات انفسنا ! او اجتهاداتنا الضحلة ، فسوف نفقد المقاييس، ونرتكب الاخطاء .

القصد بين التركيب والتحليل

حينما نريد ان نبحث عن الحقيقة ، يجب ان نجعل انفسنا تلاميذ

---

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٢٧٤ .

ـــ صغارا لها ، ونطور افكارنا وفق طبيعة الحقيقة التي نحاول فهمها . ولان حقائق الحياة هي مزيجة من التركيب والتحليل ، بمعنى انها في ذات الوقت الذي هي واحدة ، من ناحية التركيب ، فانها ايضا متنوعة، بسبب انها مختلفة ، بعض اجزائها عن بعض ، (للجزئيات التي تشترك في تكوين الحقيقة) ولان الحقائق التي نريد كشفها من الحياة كذلك ، فان البحث عنها ، يجب ان يراعى فيه ايضا هذا المزيج ، من التركيب والتحليل. أما لو طغى التحليل او التركيب ، على البحث ، فانه سيكون بحثا غير سليم ، ويورط صاحبه في اخطاء . ذلك لان الحياة ليست بحيث نستطيع تركيز الانتباه ــ بشدة بالغة ــ الى جزئياتها ، دون ان نولي اي اهتمام الى طبيعة التركيب فيها ، ومعرفة ان كل شيء فيها انما يعيش في جو معين يؤثر فيه كما يتأثر به وليست الحياة ــ من جهة ثانية ــ كتلة واحدة ، ذات صبغة واحدة ، دون ان يكون لاجزائها اي سمة خاصة وأي تأثير منفرد ، ولان طائفة من الباحثين ركزوا انتباههم الى جانب التجزوء من الحياة أهملوا سمات كثيرة ليست هي الا نتيجة التركيب . ولان طائفة اخرى عكسوا ، فانهم نسوا اي دور للجزئيات ، واصدروا « احكاما كلية كاسحة » . وكلاهما أخطأ ، والذي أصاب : هو الذي راعى القصد بين التركيب والتحليل . ولم يمل نفسيا الى اي جانب،على حساب الجانب الثاني ، يقول الدكتور قاسم : فان الغلو في التحليل ينتهي بالمرء الى نسيان : ان الظواهر الطبيعية ، ليست من البساطة الى الحد الذي يتصوره ، ولان الغلو في التركيب ، يؤدي الى وضع فروض سريعة تقدم على اساس الملاحظات الخاطئة ، والآراء الوهمية » [1] وفي ما يلي : نعرض مثالا على هذه التجزئة يذكره جون ديوي بقوله : وانه لجدير بالذكر ان الاستطراد في النزعة نحو التجزئة ، التي كان ينزعها « المذهب

---

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٢٧٤ .

التجريبي » التقليدي قد ادى ــ عند تطبيق تلك النزعة نحو التجزئة على المجال الاجتماعي ــ الى فردية ذرية فككت كل الروابط الداخلية التي تربط الافراد في مجتمع واحد ، ولم تدرك سوى المصلحة الشخصية، تسير الامور الاقتصادية ، والقسر ، يسير الشؤون السياسية . لكي يتماسك افراد الناس في جماعة واحدة ، وانا لنرى في المجال الاجتماعي، بوضوح : كيف ان المذهب التجريبي المقتصر على جانب واحد من الحقيقة ، يستثير قيام مذهب عقلي ، يقتصر هو الآخر على جانب واحد من الحقيقة ، ويزوده بحججه الرئيسية ، ذلك ان رد الفعل المنطقي للفردية الذرية ، هو قيام نظريات عضوية في الدولة ، تطوي العلاقات الرئيسية الانسانية كافة ، تحت محور السياسة ، ولقد هيأت هذه الفلسفة اساسا يقوم عليه ، احياء السلطة المستبدة ، وخلقت الاسس النظرية ، التي تستند اليها ، الدول المستبدة الحديثة ، على ان اشتباك النظريات الديمقراطية في الدولة ، كما قد عرفت تلك النظريات في التأريخ بالذرية الفردية القديمة ــ قد كانت من جهة اخرى مصدرا رئيسيا ــ لما اخذ يتزايد من ضعف المجتمعات الحرة ، قومية كانت تلك المجتمعات ، او محلية [1] » . هذا مثل واحد لنتيجة الحكم الجزئي الموغل في التحليل ، في علم الاجتماع ، ولا ريب ان الحكم المقابل له ، الموغل في التركيب ، كان رد فعل لهذا الحكم ، وهو الذي انتج خطأ كبيرا آخر هو الحكم الجماعي الديكتاتوري ، يبقى ان نعرف نتيجة هذا التحليل المفرط في سائر العلوم ، يقول عن ذلك الكسيس كاريل ــ وهو يعرض المشكلة من جانب آخر ــ ان الافراط في تخصص الاطباء ، يسبب ضررا اكثر ذلك لان الطب قد قسم الانسان المريض الى اجزاء صغيرة ، لكل جزء منها ، اخصائي ، فحينما يبدء احد الاطباء حياته العلمية بالتخصص في

---

(١) المنطق نظرية البحث ص ١ ص ٧٨٤ ــ ٧٨٥ .

دراسة عضو صغير في الجسم ، فان معلوماته عن بقيـة اجزاء الجسم ، تصبح اولية ، حتى يصبح عاجزا عن فهم هذه الاجزاء ، بما فيها العضو الذي تخصص فيه ، وهذا ما يحدث ايضا بالنسبة الى المعلمين ، ورجال الدين ، والاقتصاديين ، وعلماء الاجتماع الذين لم يحملوا انفسهم مشقة توسيع دائرة معلوماتهم العامة عن الانسان ، قبل ان يختاروا موضوعـا معينا ، يتخصصون فيه ، وهكذا كلما ازداد سمو الاخصائي في فنـه ، كلما ازدادت خطورته (١) .

المنهج المناسب وقاية عن الخطأ

ليس سواء البحث عن علم النفس ، وعلم الطبيعة !! وليس سواء المناهج المتبعة في علم الدين ، والفقه وعلم الجيولوجيا !! والخطـأ في اختيار المنهج المناسب لطبيعة البحث ، هو التسوية بين كل الموضوعات ، في مناهج البحث ، واستخدام وسائل بعيدة عن طبيعة كل موضوع، ذلك لان الوسيلة غير المناسبة ستؤدي ـ بالطبع ـ الى نتيجة غير صحيحة ! ولقد تنبه العلماء ـ حديثا ـ الى الفرق بين الموضوعات في مناهج البحث، فأخذوا يضعون لكل علم ، منهجا يخصه ويتناسب معه ، ونجحوا بذلك، في تجنب اخطاء كبيرة .. ولكن لا يزال فريق منهم يحاول ـ اليوم ـ ان يعرف بعض الموضوعات ، بما هو بعيد عنها من المناهج فمثلا يحـاول اخضاع علم النفس ، لمنهج علم الطبيعة ، واخضاع علم الدين ، لمنهج علم الكيمياء ، وينكر من الدين ما لا تؤيده البحوث التجريبية ، علما بـان التجربة وسيلة واحدة وليست وحيدة للبحث . فهناك البرهان، والكشف الايماني و.و.

وقد ينشأ الخطأ في اختيار المنهج ، من الخطأ في اختيار عينة التجربة

---

(١) الانسـان ذلك المجهول ص ٦١ .

(في الطبيعيات) • او وسيلة الاختيار (في الفيزياء) او مرجع البحث (في الاجتماعيات والتاريخ) • وما اشبه مما هو خطأ جزئي في المنهج ، ولكنه يؤدي الى بعض الخطأ في النتائج • ولم يتقدم العلم الحديث ــ خصوصا في بعض الجوانب الجديدة للعلم مثل (العلوم البشرية) ــ الا بعد ان وجد الباحثون ، طرائق جديدة للبحث عنها • وفيما يلي نضرب مثلا واحدا لضرورة اختيار المنهج المناسب للعلم ، وهذا المثل ، منتزع من علم الاجتماع ، الذي لم تكتمل ملامحه الرئيسية الا بعد ان وجد طريقا جديدا للبحث على يد فيكو ــ وابنه العلمي ــ اوجست كونت ــ بالاشتراك معا (رغم انهما ينتميان الى قرنين مختلفين فالاول من القرن السابع عشر والثامن عشر • بينما الثاني من علماء القرن التاسع عشر) •

فيكو : وجه نقدا لاذعا الى المنهج السائد في عصره ، وهو منهج تحليل المعاني ، الذي ابتكره ديكارت ، فان انصار هذا المنهج ــ كما يرى فيكو ــ يريدون معرفة كل شيء في اقرب زمن ، وبأقل عناء ، ويتخيلون ان معرفة الحاضر وحدها وتحليل افكارهم عنه ، يكفيان في تحديد طبيعة الماضي ، ثم يقول : المنهج الوحيد الذي يصلح في دراسة الظواهر الاجتماعية : هو المنهج الاستقرائي ، ولكن بشكل مكيف حسب حاجات علم الاجتماع ، وهو الذي يبتدء بدراسة علم اللغة ، لدراسة الوثائق التي تركتها الشعوب القديمة ، ثم المقارنة بينها لاستنباط القوانين » • ويوصي اوجست كونت : باتباع منهج جديد في علم الاجتماع ، ذلك لان موضوعه اكثر تعقيدا من موضوعات سائر العلوم، فله ــ اذا ــ اساليبه الخاصة ، الى جانب الاساليب المنهجية التي يمكن ان يقتبسها من العلوم الاخرى ، واذا فمن الضروري ، ان يتلمذ عالم الاجتماع على مدرسة هذه العلوم ، ولكن بعد ان يكيف المنهج حسب حاجاته • فمثلا الثقافة الرياضية ضرورة له ، لانها تعوده على الدقة،وعدم

الاستسلام للآراء الغامضة ، ومع ذلـك فلن يستطيع عالم الاجتمـاع استخدام المعادلات والاعداد للتعبير عن الظواهر الاجتماعية ، لان طبيعتها لا تسمح بتطبيق الرياضة عليها .

كذلك يجب عليه ان يستعـين باساليب المنهج الطبيعي ، واهمهـا الملاحظة ، غير ان استخدام هذا الاسلوب ، غير ممكن بسهولة فـي علم الاجتماع اذ ان الباحث يعيش وسط الظواهر الاجتماعية التي يريـد ان يدرسها واذا فهو يتأثر بها وعليه يجب ان يتلافى هذا النقص ، بمقارنـة الظاهرة الموجودة ، بظاهرة اخرى ، بشرط ان تخضع هذه المقارنة، لفكرة او نظرية عامة .

كل هذا ، دليل واحد على ان تكييف المنهج ، ضروري جداً ، في فهم العلم المراد بحثه !. يقول عن ذلك جون ديوي : البحث لاي علم من العلوم ، هو منه بمثابة دم الحياة ، وما ينفك منه وكل فن وكل صناعة، وكل مهنة ، يخضع لما يقتضيه البحث [1] .

عندما نكفر بمنهج ؟

عندمـا نكفر بمنهج معين ، مـاذا ننتظر ان يحدث ؟ ان النتيجـة الطبيعية لذلك هي : ان ينتقم هذا المنهج منا ويسد علينا بابا جديـداً للعلم . المدرسيون قديما : كفروا بحق منهج الاستقراء ، وغالوا بالمقابل، في شأن القياس ، وحرموا انفسهم ـــ بذلك ـــ علوما كثيرة ، كانت تأتيهم من باب الاستقراء .

وبين المناطق الجدد نجد (روجييه) هو الآخر ، خط مـن شأن الاستقراء ، الى حد ان وصفه بانه مناف للقواعد المنطقـية ، وانه ليس جديرا بان يسمى تفكيراً [2] . وكانت النتيجة الطبيعية ، ان عقم التفكير

(١) المنطق نظرية البحث ص ٥٩ .
(٢) المنطق ومناهج البحث ص ٥٣ .

البشري نتيجة اعتقاله في بيت القياس (دون ان يفسح له المجال بالانطلاق في رحاب التجربة) • ومن جهة اخرى وقع طائفة كبيرة من الباحثين في أخطاء متنوعة ، نتيجة استهانتهم بالقياس ، واعتمادهم الكلي على الاستقراء ، ذلك لان هذا الاخير لا يمكنه لوحده ان يفيدنا لان مجرد تسجيل الحقائق الجزئية المبعثرة ، التي نصل اليها لا يكفي في نشأةالعلم، وفي تدعيمه ، « فالمعرفة العلمية الحقة هي التي تعمل على الاقتصاد في المجهود والتفكير ، ولو كانت هذه المعرفة قاصرة على ملاحظة كل ظاهرة على حدة ، دون البحث عن الصلة التي يمكن ان توجد بينها وبين ظواهر اخرى ، سبقت لنا معرفتها ، لوجب على كل جيل ان يستأنف الجهود التي بذلتها الاجيال الماضية » (١) وقد رأينا ــ سابقا ــ كيف ان التحليل المفرط اوقع بعض الباحثين في اخطاء ، ومن المعلوم ان هذا النوع من التحليل ، كان آتيا من الاعتماد الكلي على التجربة ، بعيدا عن القياس• والماديون الذين انكروا العقل ، حرموا انفسهم من الايمان بحقائق كثيرة، اهمها بالطبع : الايمان بخالق الكون ، وبرسله وكتبه ، وتعاليمه ، والشكاكون بانواعهم سدوا عن انفسهم ابوابا مشرعة من المعرفة ، وهكذا يجب على الباحث الا يتعصب لمنهج معين ، فينتقم منه سائر المناهج بحرمانه من معارفها ، وقد جاء في حديث كريم عن الامام الصادق ، عليه السلام : « ابى الله ان يجري الاشياء الا بالاسباب فجعل لكل شيء سببا ، وجعل لكل سبب شرحا ، وجعل لكل شرح مفتاحا ، وجعل لكل مفتاح علما ، وجعل لكل علم بابا ناطقا » (٢) هذا الحديث يذكرنا بأن اختلاف سنن الحياة ينعكس حتما على : طبيعة دراستها ، فيسبب اختلاف المناهج المؤدية اليها !

---

(١) المنطق ومناهج البحث ص ٥٨ .

(٢) بحار الانوار ج ٢ ص ١٦٨ .

ولا يقتصر خطأ الباحث في الايمان او عدم الايمان رأسا بمنهج معين بل وايضا بمقدار استخدامه لهذا المنهج او ذاك .. فمن الباحثين من اولع بالقياس وأكثر في استخدامه ، وبالرغم من ايمانه بمنهج الاستقراء ، لا يوليه الاهتمام ، لرغبته النفسية في القياس .

ومن الباحثين من يحب الاستقراء ، ويفضله عمليا على القياس .

ومنهم من يناصر المنطق الوضعي ، او الديالكتيكي ، او الديكارتي، أو الآرسطي ، او الوسيلي ، بينما الصحيح هو المناصرة للعلم فقط ، واستخدام كل هذه المناهج ، في سبيل الوصول الى العلم .

وداخل كل منطق . يجب ايضا عدم التمييز بين مناهجه حتى يقدر الفرد على الاستفادة الكلية من العلم .

ـ بين الذكاء والتفكير ـ

ما هو الذكاء ؟

الذكاء وحده لا يغني

الذكاء هنا يعني : الانتباه الفكري الفطري ، الذي لا يسبقه تفكير منهجي منتظم بينما يعني التفكير : السعي الواعي نحو الهدف المحدد ، وبطريقة معينة ، لكشف الحقائــق والناس يختلفون في الـذكاء ، كما يختلفون في القدرة على التفكير وتأتي اخطاء كبيرة من هذا الاختلاف اذ اعتماد البعض كليا على الذكاء الفطري يرديهم في احضان الخطـأ وعدم اعتماد طائفة كليا عليه هو الذي يورطهم في الخطأ ولذلك وجب تحديد علاقة الذكاء بالتفكير وبيان نسبة الضرورة لكل واحد منهما • واساسا هذا البحث محاولة للاجابة على عدة اسئلة هي : ما هو الذكاء ومـا هي الحاجة اليه وما هي علاقته بالفكر والدور الذي يلعبه في مسرح البحث؟؟؟

(١) الذكاء ما هو ؟

١ ــ هل حدث لك يوما ان كنت تفكر في مشكلة شخصية لفترة طويلة من الوقت ، وتناسيت المشكلة رأسا ، وذات لحظة ــ حين كنـت مشغولا بسقي الحديقة ، او مراقبة الشارع ــ فاذا بك تحس وكأن رجلا يهمس في اذنك ، ويعطيك حلا لمشكلتك بكل برود وسخاء ؟ اذا حـدث لك ذلك فانه نتيجة الذكاء الفطري •• واذا لم يحدث ، فهل استعصى

عليك كلمة حين التحدث الى صديقك كأسم شخص ، او عنوان محل ، وكلما ضغطت على فكرك ، لم تتذكرها ، ولكن بعد ان تابعت الحديث قفز الى ذهنك ذلك الاسم بكل سهولة ؟ انه الذكاء ، ذلك ، الذكاء الذي يسميه بعضنا الهاما ووحيا علميا ولسنا الآن بصدد اثبات انه فعلا نوع من الالهام ولكنه ثابت ولا ريب [1] فيه وهو الذي كشف لنا حقائق كثيرة في لحظات قيمة تأتي وتذهب كالبرق الخاطف وقصة المكتشف الفذ أرشميدس (العالم الفيزيائي الذي عاش في سيراكيوز حوالي عام ٢٥٠ قبل الميلاد) هي قصة مشهورة لقد وجه اليه ملك عصره (هيرو) سؤالا صعبا [2] . وصعق الرجل اذ لم يكن يعرف شيئا عن التحليل الكيمياوي . وذات يوم كان يستلقي في الحمام يستمتع فيه اذ قفزت الى ذهنه فكرة الكثافة النوعية فصعق مرة اخرى لهذه الفكرة الهامة واخذ يركض في شوارع المدينة عاريا وهو يقول وجدتها وجدتها . ان الذكاء الفطري هو ذلك النوع الذي يخفق

---

(١) الذكاء (intelligence) قال عنه ابن سيناء (في النجاة ٨٧) قوة استعداد للحدس وفي المعجم الفلسفي هو حدة الذهن وهو امر مطلق بالقياس الى الشخص اذ لا تتغير نسبة العمر لكنه أمر نسبي بالقياس الى اشخاص آخرين (يوسف مراد مبادىء علم النفس العام/٢٩٩ في مقابلة غريزة (ص ١٠٠) .

(٢) أعطى الملك كمية من الذهب صائغا ليصنع له التاج وبعد ان جاء بالتاج شك الملك في ان الصائغ قد يكون قد خلط الذهب بالنحاس وحول الامر الى ارخميدس وبرق في فكر هذا الاخير كشف علمي عظيم نتيجة هذه المشكلة هو ان وزن الذهب يختلف عن وزن النحاس واخذ التاج ووضعه في اناء طافح بالماء وجمع الماء المزاح ثم وضع قطعة من الذهب يعادل وزنها وزن الذهب الموجود في التاج في ذات الاناء وجمع ايضا الماء المزاح من اوقية من النحاس يختلف عن مقداره اذا كان من الذهب

في القلب بدون ارادة فعليـة من صاحبها فيكشف للباحث بعض المناطق المظلمة في لحظات . واكثر الباحثين الكبار يتمتعون بهذا النور ـ يقول برتراند رسل (وفي كل العمل الخلاق الذي قمت به كان في اول الامـر مشكلة اي لغز لا يثير الارتياح ثم يأتي بعد ذلك التركيز الاختيـاري الـذي يقتضي مجهودا عظيـما وبعد فترة من التفكير واخـيرا الحل يأتي ومعه خطة كاملة لكتاب والمرحلة الاخيرة تأتي عادة فجأة وتبـدو كأنها اللحظة المهمة لانجازها يتلوها [1] والتفسير العلمي الذي يرتضيه البعض هو ان الافكار تختلـج وتتفاعل في منطقـة اللاوعي وبعد فترة يتم خلالها نضج الفكرة تقفز الفكرة الى منطقة الوعي .. لذلك ينبغي للانسان ان يدع لفكره فترات استراحة ، يتم خلالها « عمليـة النضج الداخلي » وتستوي الافكار ، بحرية ودون استعجال .

ويجدر هنا ان ننقل قصة العالم والفسيولوجي العظيم بجامعـة هارفارد الدكتور والتر .ب (كانون في كتابـه المسمى طريقـة بـاحث يقول لقد كان لي منذ سني شبابي المعونة الموهوبة من الالهام المفـاجىء غير المتوقع وكان ذلك كثير الحدوث وهو يستطرد فيقول انه وهو تلميذ صغير كان يذهب للنوم وفي رأسه مسائل غير محلولة فاذا بـه عندمـا يستيقظ في الصباح يجد الطريقة المناسبة للحل امامه مباشرة وبسرعـة يصل الى الاجابة ثم يضيف وكمسألة روتينية اعتدت منذ امد طويل ان اعول على عمليات اللاوعي الباطنية لكي تخدمني فتعلم هذه الطريقة في فجر حياته كان من حسن حظه (لمن ترهقه الحياة ص ١٨٤) .

وقد يكون الذكاء ليس من نوع التفاعل الداخلي « لفكرة غامضة ومحاولة تقييمها في منطقة اللاوعي » بل يكون الذكاء ، من نوع الملاحظة

---

(١) لمن ترهقهم الحياة هارولد فينك ص ١٩٦ .

الحادة التي تكشف في لحظة اشياء كثيرة من الحياة ، فمثلا : قد تكـون انت واقفا على هضبة تراقب واحة خضراء ، ومرة واحدة ، ترى حالـة في اللأشجار جديدة ، وتستلفت هذه الحالة انتباهك ، وتستمر في متابعة ظروف هذه الحالة ، حتى تكتشف لك نظرية علمية هامة ، كمـا حدث لمكتشف الجاذبية حيث انه جلب انتباهه سقوط تفاحة من الشجرة ،وسأل نفسه : كيف تسقط هذه التفاحة ، أليس لانها تنجـذب الى الارض ؟ واستمر يفكر ، حتى وصل الى الحقيقة !•

من هنا ينبغي للباحث ان يطلق العنان لنظراته حتى تسرح في جنبات الحياة ، وتلتقط الملاحظات العامة من هنا وهناك ، وكثير من البـاحثين يحبسون نظراتهم ، في غرف مغلقة ، ويخسرون حقائق كبيرة من الحيـاة ومن هنا جاء في الحديث : طوبى لمن كان نظره عبرة » •

وقد يكون الذكاء اشبه شيء بالتنبوء العلمي الغاية منه ، صياغة نظرية اقرب ما تكون الى التجارب المشهودة ••• كذلك التنبؤ الـذي قفز الى ذهن باستور ، حين كان يمارس تجاربه على الامراض ، اذ تخيل في البدء : ان يكون المرض ناتجا من جرثومة صغيرة • وبعد ان تابـع بحثه رأى صحته •

يقول في ذلك كلود برنارد : ان الافكار التجريبية يمكن ان تولـد اما لمناسبة ظاهرة نلاحظها ــ واما على اثر محاولة تجريبية ، واما كنتيجة متممة لنظرية ، سبق التسليم بها (١) • هكذا يعطينا الذكاء قدرة عـلى البحث ، بكشفه عن نظرية معينة ، وفي الوقت ذاته قد يكفينـا مؤونـة الاستمرار في بحث عقيم ، اذ قد يكشف لنا الذكاء : تناقضا في النظرية،

---

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث ص ١٨٧ •

بحيث لا يجدي معه الاستمرار في البحث عن صحتها ، او خطأها . يقول في ذلك د. محمود قاسم يجب ان يكون الفرض خلوا من التناقض ، اي انه يتحتم على الباحث ــ قبل الشروع في التحقق من صدق احد الفروض ، بالملاحظة والتجربة ــ ان يبدء بنقده وتمحيصه ، فاذا تبين له خطأه ، كفى نفسه مؤنة البحث ، وخاصة اذا كان اجراء التجارب ، يتطلب نفقات باهظة وآلات جديدة ، ويعد هذا بمثابة تجربة عقلية تهدف الى الاقتصاد في المجهود الفكري [1] ... وما يسميه الدكتور قاسم بالتجربة العقلية ندعوه بالذكاء . من هنا كان يقال : ان العالم بحاجة الى خيال خصب لكي يساعده على وضع نظرية في الحال تكون تمهيدا للبحوث القادمة واطارا للتركيز الفكري ، وموضوعا مشجعا للاستمرار في التجربة ، ولشد ما فقد الباحث قدرته على الاستمرار لعدم قدرته على تخيل نظريات ، من شأنها ان تكون اطارا لبحوثه . ذلك لان البحوث لو لم تكن لها اطارات محددة لما استطاعت ان تستمر .

بهذه الحقائق القينا ضوءا على طبيعة الذكاء ، ومدى الحاجة اليه، بقي ان نعرف علاقته بالفكر ...

٢ ــ ما هي علاقة الذكاء بالتفكر وما هو دوره الذي يلعبه في مسرح البحث ؟

اولا ــ عملية الذكاء : هي ــ في الواقع ــ عملية فكرية وتتبع ذات المناهج والسبل ، التي يتبعها الفكر ، حتى يصل الى النتائج ، ولكن بفارق السرعة ، فالتفكر عملية بطيئة ، بينما الذكاء هي عملية سريعة ، وأي فرق ــ بين .. السرعة والبطء ــ نجده بين الذكاء والتفكر ، فالسرعة تستغرق زمنا قليلا ولكن احتمالات السقوط فيها ، كبيرة

---

(١) المصدر ص ١٧٩ .

وبالعكس تماما البطء ! اما كيف ان المناهج واحدة فانه لو وجه اليـك هذا السؤال (٢×٢×١٠×١٥=؟) فانك قد تحل المشكلة بالذكاء فتقول ــ لما يسمى في العرف بالبداهة ــ ٦٠٠ » ولكن قد لا تملك هذه البداهة، وتفكر ــ بضعة ثوان ــ حتى تقول : ٦٠٠ » ولا فرق فـانه حتى فـي البداهة فانك تستخدم عمليتي ضرب وجمع حتى تعطي النتيجة ولـكن بسرعة هائلة .

ثانيا / ولان العملية سريعة فان الانسان لا ينتبه ــ عـادة ــ الى الوسائط ، ولا يفكر في كل عملية ضرب او جمع .. معينة انما يتم عادة هذه العمليات في مستوى دون الوعي . ولذلك قد يحدث حين تريد ان تحل مشكلة بالذكاء ــ انك تطرح المشكلة على فكرك ، ثم توجهانتباهك الى موضوع آخر ، وتبقى فترة من الوقت ، ريثما يتم حل المشكلة ــ هناك داخل اللاوعي ــ ثم يأتيك الحل جاهزا بعد فترة !

ثالثا/الذكاء اشبه شيء بعملية عسكرية خاطفة ، يقذف الفرد كـل قواه الفكرية في المسرح ، مرة واحـدة بينما التفكر .. عملية محـددة يستخدم الفرد بعض معلوماته السابقة فيها ... ولذلـك فان مستوى الذكاء : هو مستوى الفرد عمومـا . بينما التفكر لا يدل على ذلـك ، والذكاء لهذا ذات فائدة شمولية ، يجمع شتات المعلومات الى بعضها ، ويكون منها اطارا واحدا ، ويستخدم في الكشف عن اشياء جديـدة ، وبالطبع ليس التفكر كذلك ، بهذه الفروق الثلاث ، يتميز التفكر عـن الذكاء بينما يشتركان في غير ذلك من امور . والتي من اهمها الاعتماد على المعلومات السابقة والمناهج مشتركة بينهما ! ولذلك كان الاستغنـاء عن احـدهما بالآخر ، اكبر خطأ منهجي ، قد يرتكبـه الباحث ، اذ ان الاستغناء عن الذكاء ، يورط الانسان في جزئية التفكر ، وجموده، وعدم

القدرة على اكتشاف اشياء جديدة ، بينما الاستغناء عن التفكر ، يورط الانسان في خطأ التسرع • ولا بد ان يكون التعامل بين جناحي البحث ــ التفكر والذكاء ــ مستمرا في كافة مراحل البحث ، ففي كل مرحلة ، يقوم الانسان اولا بعملية سريعة تعتمد على الذكاء ، وتكون بمثابة جولة استطلاعية خاطفة في ربوع الموضوع ثم يقوم : باكتشاف كل جزء منه ، على مهل وتؤدة • يقول الكسيس كاريل • وينتمي العلماء الى نوعين مختلفين (المنطقي وسريع الادراك ونعني به الذكي) ويدين العلم بتقدمه الى هذين النوعين من العقل معا ، فالعقل الحسابي ــ رغم كونه تركيبا منطقيا بحتا ــ فانه يستعمل سرعة الادراك ايضا ، ويوجد ــ بين الحسابين ــ علماء سريعو الادراك ، ومنطقيون ، ومحللون ، وعلماء هندسة ، فقد كان يوميت وويرسترلس ، من العلماء سريعي الادراك اما ريمان ، وبرتراند ، فكان من المنطقيين • ولقد تمت اكتشافات سرعة الادراك دائما بواسطة المنطق ، وسرعة الادراك وسيلة قوية ولكنها خطرة ، لاكتساب المعرفة في الحياة العادية ، مثلما هي في العلم ، اذ انه يكاد يصعب ــ احيانا ــ التفرقة بينها ، وبين الوهم • واولئك الذين يعتمدون عليها اعتمادا كليا ، يتعرضون لارتكاب الاخطاء ، فهي ابعد من ان تكون موضع الثقة التامة [1] • ويقول في ذلك « ماكس فيبر » يجب ان تخطر فكرة ما في ذهن شخص معين ، وينبغي لها ان تكون فكرة صحيحة ، اذا شاء المرء انجاز اي شيء يستحق الذكر ، ومثل هذا الحدس ، لا يمكن الوصول اليه بتكلف ، او انتزاعه عنوة ، فهو عديم الصلة والعلاقة بأي حساب رزين • لا شك في ان الحساب ــ هو ايضا ــ شرط مسبق لا يستغنى عنه ، ويضيف قائلا : انها لحماقة صبيانية حين نعتقد : بان عالم الرياضيات يتوصل الى اية نتائج ، ذات قيمة ، من

---

(١) الانسان ذلك المجهول ص ١٤٦ .

الناحية العلمية ، بمجرد جلوسه خلف مكتبه ، مستخدما المسطرةوالادوات الحاسبة ، او غير ذلك من الوسائل الآلية [1] .

الذكاء وحده لا يغني

اذا كان البحث بدون الذكاء بحث اعرج ، فان البحث بالذكاء وحده بحث اعمى .

هذه الحقيقة غابت عن تفكير طائفة من الباحثين فوقعوا في عدة اخطاء اهمها .

الف/اغماض العين عن فجوات النظرية .

باء/التساهل في استخدام الوسائل العلمية .

كيف وقعوا في هذه الاخطاء ، وماذا علينا ان نعمل لنتفادى مثل هذه الاخطاء ، هذا هو موضوع هذا البحث الذي ينقسم الى نقاط :

١/من يعتمد على الذكاء في حياته العلمية ، يترك في نظرياته عدة فجوات علمية دون سد . اذ انه ــ كمن يكتب كتابا ثم لا يعود ليصححه. فهو يمضي في بحثه ــ قدما ــ دون ان يعيد النظر ليرى هل : انما توصل اليه في البداية كل الحقيقة ، وبدون خلطها بالباطل ، ام لا ؟ فقد يكون حكمه مطلقا ، وبحاجة الى التقييد في بعض الجوانب ، وقد يكون حكمه كليا بالنسبة الى كل الازمنة ، وبحاجة الى التحديد ببعضها دون آخر، وهكذا لذلك كنا بحاجة الى اعادة نظر فيما يكشفه الذكاء ، حتى نردم الفجوات العلمية التي هي بحاجة الى دقة وامعان في النظر ، وهذا يحدوا بالباحث الى النظرة الجانبية ، التي لا تسمح له ملاحظة كل جنبات الموضوع ، ويغمض تبعا لهذا نظره حتى لا يرى سوى الشواهد الايجابيه ــ التي تدعم وجهة نظره ــ دون تلك الوجهات التي تخالفها ، ومن ذلك

---

(١) صفة العلم ص ٢٤/٢٦ .

عدم الاستماع الى الانتقادات الموجهة الى نظريته • وقد كان احد العلماء يقول : منذ بداية عهدي العلمي تعودت على ان اسجل كل الانتقادات ــ الموجهة الى نظرياتي ، لعلمي ان الانتقاد لا يبقى عادة في ذهن الانسان ، بخلاف التسليم والرضا !

٢ ــ التساهل في استخدام الوسائل العلمية : انواع مختلفة يبدء من التساهل في الكتابة ، وينتهي بترك الاجهزة العلمية الحديثة ، مثل التلسكوب ، المايكرسكوب ، وسائل اختبار اخرى ، فايلات كشوف ، قوائم ، وما اشبه ! وذلك خطأ لما يلي •

(١) ذلك ان الاعتماد الكلي على الذكاء يستهلك قسما كبيرا من قوى الفرد العقلية ، ولا يدعه يستثمرها في العمل الفكري البناء ، بينما نحن بحاجة الى كل ذرة من الطاقة ، لصرفها في التفكير المركز •

(٢) ان الاعتماد على الذكاء يورط الانسان في بعض الاخطاء ، التي تبدو صغيرة ، ولكنها ــ حين تتجمع ــ تفتح ثغرة ــ في البناء العقلي

ان الذين يتخليون : انهم قادرون على حفظ ونقل كل النصوص التاريخية بدون تغيير ، ويعتمدون على هذه الطاقة في كل بحوثهم يتورطون في اخطاء لا تنتهي •

(٣) ان الوسائل الحديثة ، قد فتحت امام الانسان آفاقا واسعة • والذين يسدون على انفسهم : هذه الآفاق ولا يستثمرونها • يضاعفون التعب على انفسهم عبثا • ويرى كلود برنارد : كلما ظهرت وسيلة جديدة اكيدة في التحليل التجريبي ، رأينا العلم يتقدم في المسائل التي يمكن ان تطبق عليها هذه الوسيلة ، وعلى عكس ذلك نرى ان المنهج الرديء والاساليب المعيبة ، قد تفضي الى اخطاء جسيمة جدا ، وتؤدي الى تأخر العلم ، ومن الواجب ان يعيش المرء في المعامل ، ويحيا فيها ، حتى

يشعر ــ شعورا واضحا ــ بأهمية جميع تفاصيل اساليب البحث ، التي كثيرا ما يجهلها ويزدري بها [1] • وتابع القول اني اعتقد : ان الكشف عن اداة جديدة للملاحظة والتجربة في العلوم ــ التجريبية الناشئة ــ اكثر فائدة من عدة ابحاث مذهبية او فلسفية [2] •

والحقيقة ان الابحاث الفلسفية ضرورية ولكن لا يمكنها ان تثمر لو لم تكن مغروسة في ارض خصبة ، من الافكار العلمية ، وهذه بدورها لا بد ان تعتمد على الادوات والوسائل العلمية الدقيقة • ونحن نعرف كيف كانت الطرق التجريبية الحديثة ــ سواء في العلوم الطبيعية ، والفيزيائية ، او في العلوم البشرية ، والاجتماعية ــ عجلات سارت بالعلم اميالا عديدة ، وقد وصت التعاليم الاسلامية باستخدام الكتابة ــ التي كانت ــ آنئذ ــ وسيلة علمية شائعة ، وجاءت النصوص تترى بهذا الشأن : قال ابو عبدالله عليه السلام : اكتب ، وبث علمك في اخوانك ، فان مت فورث كتبك بنيك ، فانه يأتي على الناس زمان هرج ، ما يأنسون فيه ــ الا بكتبهم ــ [3] ••

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : قيدوا العلم • قيل وما تقييده ؟ قال كتابته [4] •

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : استعن بيمينك وأومأ بيده : اي خط • وكلمة الاستعانة هنا ذات مدلول مباشر ، في ــ ضرورة استخدام كل وسيلة علمية ممكنة في المنهج الاسلامي • وقال الامام الصادق عليه السلام : القلب يتكل على الكتابة [5] • هذا الحديث يذكرنا

---

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث ص ١١٠ .
(٢) بحار الانوار ج٢ ص ١٥٠ .
(٣) و (٤) المصدر ص ١٥٢ .
(٥) المصدر ص ١٩ .

بحالة نفسية معينة هي اننا في حالة الاعتماد على الذكاء في تـذكر شيء نبقى ابدا مهتمين بذلك الشيء ، وقلقين من خوف نسيانه ، ويستهلك ذلك منا المزيد من الجهد ، والاعصاب بينما لو اعتمدنا على الكتابة زال عنا هذا الهم ، وتحررنا من القلق • وقال الامام ايضا : اكتبوا فانكم لا تحفظون الا بالكتاب [1] •

لكي لا تخدعك ألفاظك

لا تمارس خداع الناس ، فتبتلي بخداع الذات ، هذه الحقيقة البسيطة لا يعرفها كثير من الباحثين ، فيقعون في سلسلة اخطاء فالذي يريد ان يخاصم الآخرين ، يتجه تفكيره — كليا — الى المجادلة لاهتمامه التام بها ، ويدع التفكير في البحث عن الحقيقة ، وهذه النفسية ليست فقط لا تبحث عن الواقع بل : ولا تستطيع ذلك ان ارادته لانها تفترض ذاتها ، في موقع محق ابدا ، وتحاول : ان تجد السلاح الذي تدافع به عن ذاتها المحقة ولذلك فهي لا تفترض في يوم انها جاهلة ، ومثل هذه النفسية ، لا تستطيع ان تعرف شيئا ، اذ الاعتراف بالجهل ، هو الخطوة الاولى نحو ازالته •

قديما كان المنطق الآرسطي تحديا لواقع فاسد ، عاشته البلاد الاغريقية ، وقتئذ • وتغير ذلك الواقع وبقي منطق ارسطو محتفظا بطابعه الجدلي الذي يحاول ابدا مجادلة الخصم واسكاته وكان ذلك من اخطر العوامل التي ادت الى جمود هذا المنطق — وساهم في جمود الفكر البشري ، اكثر من ٢٥ قرنا ، وقد لاحظ اكثر المناطقة الجدد هذا النقص في منطق آرسطو ، وعبروا عن ملاحظتهم ، بعبارات مختلفة في العنف والصراحة • والاسلام حذر بدوره من هذا الفخ الذي ينصبه غرور الانسان لذاته ، ورأى : ان طلب العلم للجدل يساوي الجهل تماما فجاء

(١) المصدر ص ١٥٢ .

في الحديث عن الامام علي عليه السلام : خذوا من العلم ما بدا لكم واياكم ان تطلبوه لخصال اربع لتباهوا به العلماء او لتماروا به السفهاء او تراؤا به في المجالس ، او تصرفوا وجوه الناس اليكم للترؤس [1] .

ويقسم — في حديث آخر — العلماء — الى ثلاثة اصناف ، ويحذر ممن يطلب العلم للمرء ، ويدعوه بأنه يطلب العلم للجهل . فيقول عليه السلام : طلبة هذا العلم ، على ثلاثة اصناف ، الا فاعرفوهم بصفاتهم ، واعيانهم ، صنف منهم يتعلمون للمراء والجهل ، وصنف منهم للاستطالة والختل [2] وصنف منهم يتعلمون للفقه والعقل ، فاما صاحب المراء والجهل تراه مؤذيا ممار يا للرجال في اندية المقال ، قد تسربل بالتخشع ، وتخلى من الورع فدق الله من هذا حيزومه وقطع خيشومه [3] واما صاحب الاستطالة والختل فانه يستطيل على اشباهه ، من اشكاله ويتواضع ، للاغنياء من دونهم فهو لحلوائه عمل هاضم، ولدينه حاطم. فأعمى الله من هذا بصره وقطع من آثار العلماء أثره ، واما صاحب الفقه والعقل : تراه ذا كآبة وحزن قد قام الليل في حندسه ، وقد انحنى في برنسه خائفا وجلا ، من كل احد الا من كل ثقة من اخوانه فجمع الله من هذا اركانه واعطاه يوم القيامة امانه [4] بهذه الكلمات الصاعقة يحذرنا الامام علي عليه السلام من طلب العلم للجدل والجهل والاستطالة والتكبر ..

وتربط بعض التعاليم بين الجدل والشك بصراحة . فقال : اياك والخصومة فانها تورث الشك وتحبط العمل وتردي بصاحبها ، وعسى ان يتكلم بشيء فلا يغفر له [5] ..

---

(١) بحار الانوار ج٢/ص ٣١ .
(٢) تظاهر بالخشوع امام الناس كذبا ونفاقا .
(٣) حطم ظهره بهذه الفعلة — وقطع انفه ..
(٤) بحار الانوار ج٢ ص ٣١ .
(٥) المصدر ص ١٣٤ .

وربط حديث آخر بين الجدل وبين ضلال الامة فقال كما جاء (عن الامام علي عليه السلام) ما ضل قوم الا أوثقوا الجدل (١) والجدل فوق ذلك يغطي مواضع الخطأ في نظرية الباحث ، وقد يكون الباحث شاكا في بعض ما يرتبط بنظرية جديدة له ، ولكنه حين يصوغ هذه النظرية في عبارات متماسكة ـ تغطي العبارات الادبية ، المختلفة المعاني، موضع الشك من النظرية ويبدو وكأنه مقتنع بنظرية متماسكة فعلا كل ذلك ناشيء ، من الخلط بين ما نصوغه للناس من نظريات ، وبين ما نؤمن به منها ، حيث انه قد تستخدم للناس عبارات مؤكدة ولكن لا يجوز لك أن تخدع بهذه العبارات نفسك ، وفي التاريخ العلمي كثير من الباحثين، اصبحوا اسراء التعبير المتماسك الرائع ، الذي كانوا يملكونه ـ فابتعدوا عن روح العلم والمعرفة وكما يقول هانز : (ان نهاية العلم تأتي عندما نعمل على ارضاء رغبتنا في المعرفة ، بتقديم تفسير وهمي ، وعندما نخلط بين التشبيه والعمومية ، ونستخدم مجازات بدلا من تصورات محددة بدقة ، ولذلك فان نظرية المثل عند افلاطون ـ شأنها شأن بقية النظريات الكمولوجية في عصره ـ ليست علما ، وانما هي شعر ذي نتاج للخيال ، لا للتحليل المنطقي ...)

(ان التشبيه الشعري لا يكترث بالمنطق ، ففي الاساطير اليونانية، أثير السؤال عن سبب عدم سقوط الارض في المكان اللانهائي ؟ وكان الجواب هو : ان عملاقا ـ يسمى أطلس ـ يحمل الكرة الارضية على كتفه ... »

وانه ليبدو : ان الفيلسوف عندما يصادف اسئلة ، يعجز عن الاجابة عليها ، يشعر باغراء لا يقاوم لكي يقدم الينا اجوبة مجازية بدلا من التفسير [1] .

---

(١) نشأة الفلسفة العلمية ص ٣٣ ـ ٣٤ .

ولقد حذر الاسلام ـ بشدة ـ من اللعب بالالفاظ ، واخفاء الجهل بغطائها ..

وامر بالمقابل بالاقتصاد في استخدام اللفظ ورعاية الدقة في التعبير. وتربط التعاليم الاسلامية ـ من جهة ـ بين كثرة الكلام والجهل والكفر وبين الصمت والفقه والايمان ـ من جهة اخرى ـ ففي القرآن مثلا نجد الآية الكريمة : ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون (الزخرف/ ٥٧) .

فالصفة المائزة التي تتصف بها الفئة الكافرة هي ممارسة الخصومة بشدة وبكثرة . وجاء في الحديث ذات المحتوى فعن الامام الرضا عليه السلام (من علامات الفقه العلم والحلم والصمت ان الصمت باب من ابواب الحكمة [١] . وعن الامام الصادق عليه السلام (النوم راحة الجسد ، والنطق راحة للروح والسكوت راحة للعقل [٢] . وعن الامام علي عليه السلام . (من كثر كلامه كثر خطأه [٣]) ...

وتشير هذه الاحاديث الى عامل آخر للخطأ المنهجي ، هو الاشتغال بصياغة الكلام ، عن التفكر في الحياة ، ذلك لان المجهود الفكري والعصبي الذي يبذله الباحث في صياغة الاحاديث ، يقلل من قدرته على التفكر الدائم والمنهجي فيوقعه في اخطاء كبيرة ، فخير للانسان ان يوفر على عقله هذا المجهود ، ويدع الثرثرة جانبا ، فلكي لا تخدعك الالفاظ قلل من استخدامها ما استطعت الكلام كالملح ـ في المنهج العلمي ـ كثيره مفسدة وقليلة ضرورة ، ومن الباحثين من ابتلي بالعي والغموض ، في

---

(١) وسائل الشيعة الجزء الخامس الصفحة ٥٣٧ .
(٢) المصدر ص ٥٣٠ .
(٣) المصدر ص ٥٣١ .

التعبير وجره ذلك الخلط بين المفاهيم ويبقى السؤال ما هي علاقة الكلام بالفكر نجيب على هذا السؤال فيما يلي •

يرى بعض العلماء ان الكلام تفكير ناطق ، والتفكير كلام خافت[1] يريد بذلك بيان مدى ارتباط الواحد بالآخر ويعبر عن هذه الحقيقة ، الحكمة المأثورة التي تقول : البيان روح العلم ، بيد ان هذا التعبيربحاجة الى مزيد من توضيح اذ ما هي الصلة بين الكلام والتفكير المنهجي ، غير صلة الاطار بالمحتوى ، والظرف بالمظروف : وبالتالي القشر باللب •؟ في الواقع الصلة اعمق من ذلك ، اذ ان الانسان كل لا يتجزء وعليه ، فان اي جانب منه ، يؤثر في الجوانب الاخرى بصورة مباشرة • فمثلا من يملك فكرة واضحة ومحددة • يملك ايضا التعبير الواضح المحدد ، كما ان من يملك تعبيراً واضحا عن شيء ، فلا بد ان يملك في ضميره ، فكرة واضحة عنه ايضا • وهذا يفسر لنا طبيعة المنطق الاجتماعي اللغوي « الانثروبولوجي الثقافي » حيث انه يبحث في اعماق اللغة ليعرف بالضبط كيف يفكر اهل هذه اللغة ؟• يعتقد فرانز بواس : ان اية لغة حديثة انما تتطلب في ذاتها اضوائها على الكثير من العناصر الصورية • بالاستفادة الى الاشتقاق اللفظي ، والتصنيف النحوي [2] ومن هنا نستطيع ان نحدد تلك العلاقة الوثيقة ، التي تربط « عالم الفكر » « بعالم اللغة » : فان علو كعبة الفكر (في رأي بواس) انما يستفيد من اللغة كما ان سمو الثقافة ، وارتقاء الحضارة ، يعود على تلك اللغة ، بالثراء • ولذلك كان الاحتكاك الثقافي ، عاملا اساسيا ، في تطور اللغة ونموها ، اذ ان اللغة الهندية الحديثة ، باحتكاكها بالثقافات الاوربية ، قد افادت الى حد كبير ، مما جعلها تصبح على درجة كبيرة من التجريد ! وكمثل

(١) لمن ترهقهم الحياة ص ٢١٥ •
(٢) علم الاجتماع والفلسفة ج١ ص ١١١ •

على علاقة الفكر باللفظ (والفكرة بالتعبير) يعطينا بواس توضيحا طريفا فيقول : اذا قلنا مثلا : ان العين هي عضو الابصار فقد لا يمكن للبدائي الهندي ان يكوّن فكرة لكلمة العين بل يحاول ان يحدد ان المقصود ـ بهذه الكلمة ـ هو عين انسان ، او عين حيوان ، كما لا يستطيع البدائي الهندي ان يكون فكرة مجردة عن العين لتكون ممثلة لكل فئةمن العيون، ولكنه يخصص (بدلا من ان يعمم) باستعمال تعبير كالآتي : هذه العين التي هنا ... كما لا يستطيع البدائي الهندي : ان يعبر بلفظة وحيدة عن فكرة العضو ، فنجده يحاول ان يخصصها بعبارة اداة الابصار ، وبذلك قد تأخذ الجملة الصيغة التالية ان عين شخص ما هي اداة الابصار [1]..

الخطأ اللفظي

ولقد كان لهذا العامل ، اهميته القصوى في الماضي ، حيث كانت العلوم ، تعتمد على النقل ، بشكل رئيسي ، وكان النقل ـ بدوره ـ غامضا ومعقدا ، وحيث ان الكتاب ، كانوا ينسجون ، حول ادبهم، غلالة من جمال التعبير ، لكي يخفوا ـ ورائها ـ جهلهم بكثير من المواضيع .

ولقد كان آرسطو ، واضع المنطق القديم . اكثر الفلاسفة القدماء اهتماما بهذا العامل ، فوضع جانبا من منطقه لتفادي خطأ الاشتباه في الالفاظ .

وتضخم الجانب اللفظي ، في هذا المنطق ، الى ابعد مدى ممكن ، في القرون الوسطى ـ حيث كان تعريف اللفظ (الحد والرسم) هو اهم

---

(١) المصدر ص ١٠٩ .

شيء يدرسه الطلاب . ويثير جدل العلماء ... ومن خلال نظرة عامة الى كتب القدماء يمكننا ان نعرف كيف ان الحديث حول التعاريف ــ يشمل جانبا كبيرا من كل كتاب من كتبهم تقريبا .

وقد اضطر العلماء ، الى وضع قواعد اللغة ، لتفادي الاخطاء الناشئة ، من الالفاظ المتشابهة .

كما ان المنطق القديم احتوى على فصل عن المغالطة والجدل . لهذا السبب .

(الاخطاء اللفظية في العلوم الحديثة)

ولقد تجنب العلم الحديث ، كثيرا من الاخطاء اللفظية ، وذلك . لاعتماده على التجربة ، وتعدد المصادر ، والدقة في التعبير [1] . والركون الى المصطلحات الدقيقة نسبيا ، وايجاد نظام متكامل للرموز العلمية ، والتي في طليعتها بالطبع ، المنطق الرمزي .

الا ان المتشابهات اللفظية ، لا تزال تلعب دورا هاما ، في انحراف الانسان . وقد تسبب الاخطاء اللفظية : في رسم سلوك شاذ لفرد او لمجتمع او حتى لدولة كبيرة .

وينشأ ذلك من عوامل اهمها اثنان :

١ ــ العامل الطبيعي الذي يسميه البعض بعامل (التسوية) ويعني ان بعض الناس يتخذون موقفا معينا تجاه شيء معين لمجرد انه يتشابه لفظيا . مع شيء آخر . مثلا . يتخذ موقفا من شخص اسمه (باقر)

(١) لقد أصر بافلوف على ان اراء العالم يجب ان تكون محددة وان يتم التعبير عنها في سهولة ويسر (العمل والمخ ص ١٤٢) .

لان اسم ابنه باقر او يكره كل رجل اسمه خالد . لأن رجلا اسمه خالد كان قد اساء اليه .

« ولقد سمى الفريد كورز يبكسي ، مؤسس علم تطور المعنى العام، مثل هذا النوع من الاستجابة المكهربة : « استجابة التسوية في الهوية » .

وقد استعمل كلمة التسوية هذه لمعنى خاص فقد عنى : ان اشخاصا تملكهم ، مثل هذا الشكل الثابت ، من التجارب، ليسوون (اي يطابقون) بين جميع انواع الحدوث ، لكلمة ما ، او رمز ، ويرون فيها شيئا واحداً، لا يتغير ، فهم يسوون ، بين مختلف الحالات ، التي تقع تحت ذلك الاسم ذاته ، على انه شيء واحد .

وهكذا فاذا كان لاحدهم « استجابة تسوية » تحمل صفة العداء « للنساء السائقات » فانه يرى جميع النساء اللواتي يسقن السيارات ، وكأنهن متساويات ، من حيث عدم لياقتهن ، او عدم كفاءتهم » .

« وعلل ذلك بقوله : اذا كنا نعامل جميع الحالات ، التي تقع تحت ذات الطبقة او الصنف كأنه شيء واحد ، في الوقت الذي تكون الفروق بينهـا ، شيئا هاما ، فان هذا ، يعني ان هنـاك خللا ما ، في عـاداتنا السيماتية لان يحدث الاستجابة « التسوية » لان الانسان ، بحاجة الى التشابه ، بين الافراد ، حتى يسحب تجاربه الماضية ، على الحياة المعاصرة، ولذات السبب ، قد يغفل الانسان ، دور الفردية في تجاربه ، فيقوم بسحب التشابه ، الى اكثر من مداه ، لعدم الفرق بين الحالات البدائية ، التـي كنا نعيشه ، وحالاتنا الراهنة ، التي ، تميزت بالدقة ، والعلمانية [١] .

---

(١) س .ا. هاياكاوا الاستاذ لفنون اللغة في جامعة سان فرانسيسكو ـ في كتاب مغامرات العقل ص (٣٧٧) .

وفق هذه النظرية تكون مشكلة بعض الناس ، انهم يرتبطون بالالفاظ ، اكثر مما يرتبطون بالحقائق ، التي تكمن ورائها ، فاذا بهم يسترسلون ــ آليا ــ مع مطابقات هذه الالفاظ • ويعممون احكاما جزئية على قضايا لمجرد دلالة اللفظ عليها •

وهذه نظرية بدائية ، يجب التخلص منها ، لتفادي الوقوع في اخطاء كبيرة •

« ان جزء من التسوية ، في الهوية عندنا (نحن البشر) هو مجرد نوع من الآلية ، ورثناها من حاجتنا للبقاء ، في ظروف سابقة ، واكثر بدائية من ظروف حياتنا اليوم •

وليس هناك من شك في ان الكثير من « استجابة التسوية » ، يمكن تتبعها ، وارجاعها الى جروح الطفولة ، كما يقول المحللون النفسيون [1] •

٢ ــ العامل الاعلامي •

ان اي فرد يعيش اليوم ، في خضم الحضارة الحديثة يعرف ان ٩٥ ٪ من تصرفاته السلوكية ومواقفه الاجتماعية • وافكاره السياسية، والدينية •• مستوحاة من الاجهزة الاعلامية ، التي تتقاذف يمينا ويسارا •

وحسبما يقول احد الصحفيين الكبار : حتى لون شعر زوجته ، يختاره انسان اليوم ، استجابة لاعلان معين •

واكثر ما يستخدمه اصحاب الاعلان ، هو بالطبع الوسائل النفسية، وفي طليعتها عملية تداعي المعاني النفسية ، التي تعني ربط القضية المعلن عنها ، بما يحبه الانسان ، في الاعلام الايجابي ، او بما يكره في الدعاية المضادة •

---

(١) المصدر ص ٣٧٨ .

فمثلا : حين يطلق احد الصهاينة كلمة « معاداة السامية » ضد عربي او متعاطف مع العرب ، فان هذا يعتبر اعلاما خبيثا ، خصوصا بين اوساط الاوربيين ، اذ انهم يعرفون جميعا ان النازية كانت تعادي السامية ، وبطريقة تداعي المعاني ، تربط هذه الكلمة ، بين النازية والعرب .

والرابط ليس الا الكلمة فقط .

وفي بلادنا نجد استخداما اعلاميا واسعا . لكلمات الرجعية ، التخلف ، الدكتاتورية ، الفاشية ، وما اشبه ، مما يقصد منها املاء موقف معين على الناس ، من خلال عملية تداعي المعاني ، وتعميم اللفظ فقط .

وقد يكون كثير من تلك المواقف خاطئة ، وقد ينساق الناس ، اليها . والسبب هو الغفلة ، وعدم التدقيق في استخدام اللفظ او في فهمه .

من هنا كان واجب الانسان تفادي خطأ التعامل مع الالفاظ والحروف ، والسعي ابدا الى جعل الالفاظ جسرا الى الحقائق والتفكير في تلك الحقائق فقط .

والاسلام حذر من استخدام الالفاظ الغامضة ، او التعامل معها . وجاء في آية كريمة .

« منها آيات محكمات ، وأخر متشابهات ، فاما الذين في قلوبهم زيغ ، فيتبعون ما تشابه منها ، ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله ، الا الله والراسخون في العلم « آل عمران ٧/٨ » .

ظروف الباحث

بحث احد الفقهاء المسلمين ، موضوعا دينيا ، فاقتنع بوجهة نظر ، ولكنه ــ بعد فترة ــ عاد واخذ يدرس ذات الموضوع ، فسئل لماذا تعيد دراسة الموضوع ؟ اجــاب : لاني ــ سابقا ــ كنت مبتلا ــ عمليــا ــ بالموضوع ، فخشيت ان اكون قد تأثرت بظروفي ، لدى بحثي فيه .. والآن حين تغيرت ظروفي عدت ابحث عن الموضوع .

والحقيقة : ان ظروف الباحث ، ذات تأثير كبير ، في بحوثه ، ولذلك كان عليه ، ان يعرف ــ سلفا ــ طبيعة هذه الظروف ، ومدى امكــانية التأثير ، على دراسته .

واساسا الظروف ، تتنوع الى ظروف نفسية ، وفسيولوجيــة ، وجسدية ، قد يمكن ان تؤثر في البحث تأثيرا سلبيا ..

١ ــ وفي البداية ، لا بد ان يدرس الباحث ، نفسه قبل الشروع ، في دراسة موضوعه ، ــ ويوجه هذه الاسئلة الى ذاته :

ألف هل انا الآن اعيش في حالة حب طافح ، او غضب عارم ، مهما كان موضوع حبي وغضبي ، وطبيعته ، جنسيا او دينيا او انسانيــا او غير ذلك ..

باء ــ هل يوجد فيّ عطف شديد ، نحو جهة معينة في مــوضوع بحثي ، فهل انا احمل فكرة مسبقة تدعوني الى نفي موضوعي او اثباته، او تنحيته ، الى جانب معين .

اذا كان كذلك فعليه ان يدع البحث جانبا ، حتى يصفي نفسه من آثار هذا الحب ، ــ او لا اقل ــ يعرف مدى قــدرته على تغيير مسيرة بحثه ، في صالح الخطأ والباطل .

٢ ــ ثم يقوم بدراسة اعصابه ، هل هي الآن سليمة ، وذلك بتوجيه هذه الاسئلة .

ألف ــ هل اني اعاني الآن من توتر عصبي ، ناتج من مرض ، أو أرق ، او ضعف طبيعي ، او انتظار موعد هام .

باء ــ هــل ان اعصاب جوارحي سليمــة الآن ــ فهل ترى عيني مشاهداتي التجريبية بوضوح ، ام ان سواد الليل ــ مثلا ــ يؤثر فــي رؤيتي ..

جيم ــ وهل اني قد بدأت ارهق فكريا ، نتيجة متابعة البحث ام لا ، اذ يحدث ان الفرد يبتلع وجبة دسمة في مجلس واحد فيصاب بالتخمة ــ لا اعني وجبة اكل ــ بل وجبة بحث ــ وتخمة ــ ليست في معدته ، بل في فكره وشبكة اعصابه ، التي لا تستطيع ان تستجيب ابدا لطلبات الباحث فتنتقم منه بتصدير المنتوج الفكري ، هزيلا ومهزوزا ، ومثقــلا بالاخطاء الكبيرة !

دال : يجــب ان يهيىء الباحث لنفسه الحالة الجسدية المساعــدة للبحث ، فـ « الاضاءة الجيدة » والتهوية المستمرة والتمرينات القصيرة ــ خلال العمل ــ وانواع النشاط البدني المنتظم ، الذي يتضمن الرياضة، وتمرينات الصباح الرياضية ، والصمت اثناء العمل ، وتمضية ايام العيد والاجازات و (تنظيم) فترات تناول الغذاء ، بصورة رشيدة كــل هذه الاجراءات البسيطة تنفع العمل الفكري [1] .

٣ ــ واخيرا : ينبغي ان يلاحظ الباحث حالته الجسديــة وقــت الدراسة فهل الاضاءة والدفء والهواء والمجلس ولون الغرفة و .. و.. متناسبة مع حاجاتي ورغباتي ؟

أو اشعر الآن بجوع او ضمى او حاجة الى البراز ام لا ؟

تشتت الفكر

وقد تكون هناك اسباب اخرى ، للتشتت تؤثر في البحث وهــي باختصار :

---

(١) العمل والمخ ص ١٤٢ .

١ ــ عدم التركيز السابق : اذ ان الباحث بحاجة الى قدر كبير من التركيز المسبق ، الذي يساعده على البحث •• « العلم يتطلب تركيــزا ذاتيا ومستمرا ، على موضوع الدراسة ، وعندما سئل نيوتن كيف توصل الى اكتشافاته العظيــمة ، اجاب قائلا بالتفكر طــوال الوقت ، وتكرار التجربة ، حتى لو كانت ناجحة [1] •

« هناك سبب فسيولوجي يفيد العمل ، ويفيد المخ تدريبا عــلى انعمل ، وذلــك مثل الاعمال التمهيدية التي يقــوم بها الشخص قبــل العمل [2] •

وقد كان بعض كبار علماء المسلمين ، يتوضأ قبل البحث ، فيصلي لربه ركعتين ، ثم يدخل « محراب » بحثه • بايمان وتركيز •

٢ ــ يجب ان يعد الباحث : كل شيء من حوله بطريقة تنــاسب بحثه ، ولا تؤدي الى تشوش فكره « اعمل بقاعدة » « ضع على يمينك ، كلما تتناوله بيدك اليمنى ، وعلى يسارك ، كلما يختص باليد اليسرى »••

و (على الباحث) ألا يسمح للعمليات غير المجدية ، مثل البحث عن أدوات وضعت في غير موضعها ، او انتظار بعض القطع ، أن تربط السلوك النفسي القائم لان كل ذلك يعرقل طريقة العمل السليم للمخ [3] •

٣ ــ عدم تنظيم مكتبة الباحث ، يؤثر سلبيا على نشاطاته العلمية ، ولذلك ، يوصي كبار الباحثين ، بأن يخص الباحث جزءا من وقته لتنظيم مكتبته وسجلاته ، ويقول المؤلف الروسي بضرورة الاحتفاظ بسجلات خاصة عن نشاط الشخص (اعمال مكتبة ــ عمل اجتماعي ــ دراسات عمل ادبي ــ

---

(١) المصدر ص ١٤٢ ••
(٢) المصدر ص ١٣٢ •
(٣) المصدر ص ١٣٢ •

شؤون خاصة) ووضع برامج يوميــة • وتنظيم المذكرات • والملفــات الشخصية •

فكل ذلك يكتسب خلال عمل طويل •

وينبغي عند اخذ المذكرات الا يهمل الشخص الاشارة فــي الحال الى المصدر الذي استقاها منه والا فسيجد نفسه غارقا في متاهــة مــن الملاحظات ويعرض نفسه لاتهامات لا مبرر لها على الاطلاق بسرقة افكار الآخرين [1] •

استخدم قصاصات من الورق عليها ملاحظات مكتوبة باقلام ملونة، لتحدد الصفحات في الكتب التي تقرءها [2] •

من اجل دراسة ناجحة ينبغي ان يكون لدى الشخص بطــاقات للفهرس مثل تلك التي تستعمل في المكتبات •• وصندوق للبطاقاتواقلام ملونة وسوداء وممحاة وصمغ ومقص وفي بعض الاحيان آلة تصويــر لعمل نسخ من النصوص الضرورية والصور والرسوم التوضيحية [3] •

---

(١) المصدر ص (١٤٦) •
(٢) المصدر •
(٣) المصدر ص ١٤٧ •

القسم الخامس عن :

مناهج الاستقراء

- بحوث تمهيدية
- الملاحظة
- الفرض
- التجربة
- القانون

القسم الرابع عن مناهج الاستقراء

البحث الاول

بحوث تمهيدية

كلمتان في البدء
تعاريف أولية
تقسيمات مناهج الاستقراء
مراحل التفكير
ما هو الاستقراء
الاستقراء بين الذوق والعقل

آ) في حديث سابق استعرضنا الفروق التي تميز المنطق القياسي ، والتي كان اهمها : ان منطق الاستقراء يتجه الى التجربة على العناصر الخارجية ، بينما يتجه منطق القياس الى البحث عن علاقة الافكار ببعضها، وبالتالي يستهدف تنظيم هذه العلاقة ، وكان حديثنا السابق يستعرض الجوانب النظرية ، من منطقي الاستقراء والقياس ، مما يمهد لنا الطريق الى معرفة الجوانب التطبيقية العملية منها ، وفي هذا القسم والاقسام التالية نستعرض المناهج المقترحة في كل من منطقي الاستقراء والقياس ، ويتميز هذا القسم بما يلي :

(١) يبحث عن المناهج القابلة للتطبيق الخارجي ، بعيدا عن جذرها الفلسفي او النظري •

(٢) ويكون البحث مفصلا ، وقد يكون من المفيد ان نقول : ان حديثنا في هذا الكتاب عموما • يتناول الرؤية الاسلامية في المنطق ، ولا ريب ان للاسلام رؤيته الخاصة بالنسبة الى المناهج التفصيلية ، بالرغم من عدم وجود تفاصيل في النصوص بشأنها ، ولسبب واضح هو ان الاسلام لا يقترح ــ الا قليلا ــ المناهج التي تتعرض للتطوير بين يوم وآخر ، وذلك وفقا لحاجة الناس • انما يلقي بالرؤى العامة ، ويأمرنا بالتفريع فيقول :

علينا بالاصول وعليكم التفريع •

ب) علاقة حديثنا الآن في مناهج البحث ، باحاديثنا السابقة، حول عوامل الخطأ ، علاقة متينة ، تشبه علاقة الام بوليدها لاننا اذا اكتشفنا الاسباب المؤدية الى الخطأ ، عرفنا بالضبط الطرق المؤدية الى الصواب، باعتبارها انحرافا عن عوامل الخطأ وتجنبا لها ،•• والسؤال : اذا فما هي حاجتنا الى البحث عن مناهج البحث ؟ في الواقع الحاجة هي : التفتيش عن صيغة عملية ، وتطبيقية لمعلوماتنا السابقة عن عوامل الخطأ ، حتى نستطيع استثمارها على ارض الواقع عندما نريد البحث عن شيء مجهول ، وهو اشبه ما يكون ، برسم خريطة موضحة ، تأتي كتطبيق عملي واضح لمعلوماتنا عن طبيعة الارض ، وعن الطرق والحفر التي انزرعت فيها ، وهي بالتالي ليست سوى صيغة عملية لذات المعلومات السابقة التي نملكها عن طبيعة الارض •

ومناهج البحث ، كذلك خريطة لارض البحث ، توضح لنا السبل التي يجب ان نتبعها ، حتى نكتشف الحقيقة ، والباحث لو لم يجد امامه خريطة المناهج فان احتمالات نجاحه ضئيلة ، بالرغم من ان المناهج ليست سوى جسد ميت ، لا يعني شيئا ، بدون روح البحث ، التي يجب ان يستفيدها الباحث ، من احاديثنا السابقة •

تعاريف اولية

فهمنا بطبيعة المناهج ، هي الخطوة الاولى في طريق استثمارنا لها اذ ان فهمك لكل شيء ، هو بداية قدرتك على التعامل معه ، فما هي طبيعة هذه المناهج ؟ وبالضبط ما هي طبيعة العمل الفكري ؟ وما هو الموضوع والمحمول والرابطة والحكم والقضية ؟ ولا يعني فهمنا لطبيعة هذه الامور ، تقديم طائفة من التعاريف المحددة لهذه الكلمات فقط ، اذ

لا يستفيد من مناهج البحث من يتعامل مع الكلمات ، والمصطلحات ، بل من يتفاعل مع الحقائق ، التي تعبر عنها هذه الكلمات ، فعلينا ابدا البحث عن حقيقة هذه الالفاظ ، التي سنجدها بكثرة في احاديثنا القادمة عن المناهج •

العمل الفكري ، ما هو العمل الفكري ؟ نحمل هذا السؤال الى الفرد البسيط الذي يفكر في أعماله العادية ، وتتبع خطاه ، وتتعرف على مراحل عمله ، اما لماذا تفعل هكذا ؟ فلان المنطق هو ــ اساسا ــ بحث في كيفية التفكير ، وهو يأتي بعد ما يقوم الانسان الفطري بالتفكير لاقبلئذ الرجل •

فكل الموضوع ، متكون من خبرات سابقة ، تحدده لنا ، وبالاستعانة بهذا التحديد ، نستطيع ان نسعى لفهم المزيد من الحقائق ، كما انه كلما عدنا الى الخبرات السابقة ، وجعلناها اكثر غنى ، واوسع مدى ، كلما استطعنا ان نجعل نسبة الصدق في حكمنا في البحث ، اكثر وافضل •

المحمول

المحمول ، (الحكم) لو سئلت صديقك هل هذا حلو ؟ فان صديقك يجب ان يطرح عليك سؤالين ، ويطلب منك الاجابة الصحيحة ، عليهما ، حتى يبدء هو بالاجابة ، الاول : ما هو مقصودك بهذا ؟ وما هو مقصودك بحلو ؟ صحيح اننا ــ في العرف ــ متفقون مع بعضنا ، حول عدة امور ، من ضمنها تحديد مفهوم كلمة (هذا) وكلمة (حلو) ولكن البحوث العلمية ، بعيدة جدا عن هذا الاتفاق ، اذ هي لا تقبل المساومة والمهادنة ابدا • اذا علينا ان نحدد : المفهوم من قولنا (الحلو) وهو (الحكم) كما علينا ان نحدد مفهوم كلمة هذا (وهو الموضوع) ولا يحدد المفهوم من (حلو) الا بعدة خبرات او بحوث سابقة ، فمثلا اننا كنا قد تذوقنا عدة اشياء ، فاحدثت في انفسنا نوعا خاصا من الاحساس ، سمينا

الاحساس بالحلاء وسمينا الشيء بأنه (حلو) تبعا لهـذا الاحساس ، فقولنا هذا (حلو) يعني ــ بالضبط ــ انه يولد ذلك الاحساس في انفسنا وهذا هو التحديد بالخبرة السابقة •

الرابطـة

ولا يغنينا تحديد الموضوع والمحمول في البحث ، لو لم نحدد ايضا : عصب البحث وهو كما نعلم (الرابطة) التي توصل الموضوع بالحكم ، وهو ايضا : الموقع الحقيقي للتساؤل ، وقد نسميه بـؤرة التعقيد ، التي نحاول اقتحامها !! ذلك لانه بدون هذا التحديد ، يبقى الباحث في فوضى ، لا يدري كيف يفكر ، وحول اي شيء يفكر ، وقد سبق الحديث [1] عن ان تحديد السؤال ، ينطوي على نصف الجواب ، ولا نعيد ما سبق الا ان علينا ان نعرف : كيف نخلق ــ عمليا ــ مشكلتنا في البحث ؟ ولنفترض « الموقف اللامتعين » الذي يقلق بالنا ، هو معرفة ما اذا كان (الحديد) يمتد بالحرارة ام لا ؟• هنا يمكن تصور المشكلة بعدة صور •

ألف ــ يمكن تصور الموقف بانه غامض ، الى درجة لا يمكننا معرفته ، فما هو الحديد ؟ وما هي طبيعة الامتداد ؟ وما هي حقيقة الحرارة ؟ لا نعرف كل هذا اذا لا نستطيع ان نعرف شيئا من هذا الموقف اللامتعين •

باء ــ ويمكن ان نصور الموقف بانه ابسط من ان نبحث فيه ، اذ ان الابواب الحديدية نراها تختلف صيفا وشتاء في سهولة الحركة ، وهو دليل على ان الامتداد يأتي نتيجة الحرارة وهكذا •• تنتفي الحاجة الى البحث ايضا •

---

(١) عند الحديث عن « كيف نختار المنهج السليم » .

جيم ــ ويمكن أن نصور الموقف ، بصورة وسطى ، كأن نقول : لبس علينا الآن ان نعرف حقيقة الحديد ، والامتداد ، والحرارة يكفينا ان نعرفها ــ جدلا ــ بتعريف مفهـوم ، ولكن لا يكفينا ــ من جهـة اخرى ــ ان نتعرف على اختلاف الابواب الحديدية ، صيفا ــ عنهـا ــ شتاء ان ذلك قد تكون نتيجة الرطوبة ، او حتى اذا لم تكن كذلـك لا نعرف ــ بذلك ــ مقدار الامتداد بالحرارة ، ومقدار الحرارة المحتـاج اليها له ، وهذا التصور الاخير هو الذي يخلق لنا (المشكلة الفعلية) فلا هي متعمقة ، بقدر يغلبنا اليأس من التغلب عليه ، ولا هي مبسطة بقـدر يلهينا عنه ، لذلك ينبغي ان يكون تصور المشكلة ، بحيث تنطوي عـلى حل مرتقب لها ، بعد البحث ، والسعي ، وراء هذا الهدف ، يقول فـي ذلك جون ديوي : ان العبارة التي نصف بها موقفا مشكلا وصفا، يصوره على هيئة مشكلة ، لا يكون لها معنى ، الا اذا كانت المشكلة المصورة بها، بحكم حدود العبارة نفسها ، تشير الى حل ممكن ، فكما ان المشكلة اذا ما احسن عرضها ، كانت بسبب هذا العرض الحسن ، نفسه ، في طريقها الى الحل ، فكذلك تحديدنا لمشكلة حقيقية ، هو نفسه بحث في طريـق السير ، وحينما تلمع في ذهن الباحث مشكلة ، وحلها المحتمل قد حـدث لهذا الباحث بالفعل قبل ذلك ان اكتسب معرفة وتم له هضمها [1] .

ويجب ان يكون تصوير المشكلة ، آتيا من عناصر الموقف ، بحيث يمنعنا من التوغل ، في بحوث بعيدة عن الحالة الواقعية ، التي تعيش في الخارج، اذ اننا آنئذ نبدء سيرنا في عمل ميت ، لا يمكنه ان يساعدنا ابدا ، امـا لو انتزعنا المشكلة من الواقع الخارجي نفسه ، كان هذا الواقع ذاتـه ، مصعدا ممتازا لنا ، من هنا كان علينا ــ قبـل ان نطرح السؤال ــ ان نجمع اكبر كمية ممكنة ، مـن الخبرات والمعلومات ، حـول الموقف

---

(١) المنطق ونظرية البحث ص ٢٠٥ .

اللامتعين ، الذي نريد بحثه ، ثم نجلس نفكر ـ بضعة دقائق ـ حتى تختمر المشكلة عندنا ، ويتحدد السؤال ، ونبدء بالبحث ، ان المشكلة ، مثل الثمرة ، التي نقطفها من شجرة الموقف ، لو استعجلنا بقطفها ، لم نستطع هضمها بعدئذ .

الخلاصة اتبع القواعد التالية :

(١) لاحظ الموقف اللامتعين واجمع اكبر كمية ممكنة من المعلومات حوله (وبذلك تتحدد الرابطة) .

(٢) حدد موضوع السؤال وعلاقته بالمشكلة .

(٣) حدد المحمول وعلاقته بالمشكلة .

تقسيمات مناهج الاستقراء

ومناهج الاستقراء عديدة ، وتقسيمها مختلف اذ نجد لكل باحث طريقة خاصة لتقسيم المناهج ، حسب رؤيته الى المنطق ، وبهدف تحقيق السهولة الكافية في استخدام المناهج ، وهذا هو الذي جعل مناهج البحث ليست بالشكل الواحد في كل الكتب المنطقية ، انما تتنوع الى مجموعات كل مؤلف قد اختار مجموعة معينة ، يقول الدكتور احمد بدر : المشتغلون بمناهج البحث ، على تصنيفات محددة لمناهج البحث ، وربما يرجع ذلك الى تبني بعضهم لمناهج نموذجية رئيسية ، واعتبار المناهج الاخرى جزئية ومتفرعة ، كما قد يعتبر هؤلاء او غيرهم : بعض المناهج مجرد ادوات وانواع للبحث ، وليست مناهج [١] ثم يذكر الدكتور احمد بعض تصنيفات المناهج نختار منها واحدة ونعلق عليها [٢] ..

---

(١) اصول البحث العلمي ومناهجه ص ٢٢١ .
(٢) المصدر ص ٢٢١ ـ ٢٣٠ .

(١) تصنيف هويتني (whitney) يعتقد هذا الباحث : ان الانسان يتدرج ، في معرفته كالتالي ١ ــ المنهج الوضعي حيث ان الانسان يبدء يلاحظ الظواهر المحيطة به ككل ، وبذلك يجتاز مرحلة المنهج الوضعي ، وهنا يحتاج الى مناهج تساعده على الملاحظة ، وهي عدة امور .

ألف : المسح ــ ويعني توصيف الظروف المحيطة بالظواهر .
باء : دراسة الحالة اي حالة الظواهر السابقة .

جيم : تحليل الوظائف والنشاطات ، اي ملاحظة نشاط كل ظاهرة ، وسر ومدى ارتباطها بالعوامل المسببة لها . حتى يعرف ان هذه الظاهرة مرتبطة بأي عامل بالضبط .

دال : ملاحظة الظواهر ، ووصفها باستمرار لمعرفة تطورها ، ودرجة زيادتها ونقصانها .

هاء : بحث الوثائق المرتبطة بالظواهر (ويسميها البحث المكتبي او الوثائقي) هذه كلها تعتبر مرحلة اولية بالنسبة الى البحث ، وهي تساعد الفرد على الملاحظة الدقيقة ويعينه على المرحلة الثانية .

٢ ــ المنهج التاريخي : حيث يقوم الفرد بدراسة تاريخ مشكلته ، وتحديد الحقائق السابقة ، وتحليلها والاستفادة منها .

٣ ــ المنهج التجريبي : وبعدئذ يبدء بالتجربة ، الحلقة الاصيلة والاساسية في المنهج .

٤ ــ المنهج الفلسفي : ولكن لا تكفي التجربة بدون وضعها وفق رؤية عامة ، وفلسفة تفسر وتعمم نتائج التجربة . وهذه الرؤية تفيد في التنبأ بالمستقبل ، وهي المرحلة التالية .

٥ ــ البحث التنبؤي : حيث لا ينتج الباحث الا اذا استطاع ان

يتنبأ ، وتصح نبوءته . حيث يتمكن هناك فقط من الابداع وهي المرحلة الاخيرة ولكن في بعض العلوم لا يمكن ان يتنبأ المرء صحيحا ، الا اذا عرف (الانسان) معرفة تامة . وهذه هي المرحلة التالية .

٦ ــ البحث الاجتماعي : حيث يبقى منهج علم الاقتصاد ناقصا ، اذا لم يعتمد على معرفة الانسان ، ولذلك يعتبر هذا المنهج ضروريا ..

٧ ــ البحث الابداعي : حيث يصبح هذا المنهج قمة البحث العلمي فلا بد من وضع مناهج له .

ان نظرية هويتني سليمة من ناحية وناقصة من ناحية اخرى ، فهي ــ من ناحية الشمول وبيان جميع ضرورات المنهج ــ سليمة ولكن ــ من ناحية بيان الاولويات ــ غير سليمة ، وذلك للملاحظات التالية :

١ ــ في المنهج الوضعي : نحن بحاجة الى التجربة واصولها . كما نحن بحاجة الى الاستدلال وطرقه . وبحاجة ايضا الى دراسة الحالة السابقة للشيء ، وهي دراسة تاريخية في واقعها ، وهي ما توجد في المناهج الاخرى :

٢ ــ المنهج التاريخي اكثره منهج استدلالي او تجريبي فلا بد من الحاقه باحدهما .

٣ ــ والبحث الفلسفي هو في واقعه بحث استدلالي اذ لا فائدة في بحث فلسفي ، غير معتمد على الاستدلال واصوله الصحيحة . وهناك تصنيفات اخرى للمناهج ، ولكن المختار ان نفصل بين مناهج رئيسية ، وغيرها ، والمناهج الرئيسية هي ــ المنهج الاستقرائي . والمنهج الاستدلالي اما غيرها فهي متفرعة عنها كالتالية ..

١ ــ بعضها مناهج مساعدة ، فمثلا المنهج العلمي ــ سواء ــ الاستقرائي والاستدلالي ــ بحاجة الى الاستفادة من المكتبة ، والوثائق،

التي فيها (وهذا يسمى بالمنهج المكتبي) كما انه بحاجة الى ترتيب المعلومات فيها ضمن بيانات واضحة (وهذا يسمى بالمنهج الوضعي) وبحاجة الى التحليل والتركيب • كما ان المنهج الاستقرائي ــ خاصة ــ بحاجة الى مساعدة طرق المسح ، والاحصاء ، ودراسة الوثائق ، وما اشبه ، مما يجعل لكل واحد منها منهجا خاصا يضع له قواعد خاصة تسهل للباحث استخدامه وهذه المناهج المساعدة نسميها نحن بالمناهج الرديفة ونستعرضها ــ انشاء الله ــ في القسم التالي •

٢ ــ وبعضها الآخر : مناهج مختصة ببعض المواضيع ، باعتبارها جديدة ، ومحتاجة الى طريقة خاصة لاستخدام منهجي الاستقراء والاستدلال مع البعض ، واستخدامهما ، بطريقة خاصة ، مما يستوجب : افراد منهج خاص بالتاريخ ، وذات الحقيقة تصدق في علم الاجتماع ، والعلوم الانسانية جميعا ، اذ انها ــ كذلك ــ بحاجة الى استخدام « منهجي الاستدلال والاستقراء » بطريقة خاصة ، وذلك لبدائية هذه العلوم ، وعدم بلورة مواضيعها ، كما هي الحالة في العلوم الطبيعية • ولذلك نحن بحاجة الى فصول خاصة بها ومن هنا فاني اقترح ان نصف مناهج البحث كما يلي :

١ ــ المنهج الاستقرائي •

٢ ــ المناهج الرديفة (الملحقة به) •

٣ ــ المنهج الاستدلالي •

٤ ــ المناهج الرديفة •

٥ ــ المنهج التاريخي •

٦ ــ المنهج الاجتماعي •

مراحل التفكير

يمر الفكر البشري بثلاث مراحل في كشفه للاشياء وهي :

١ ــ مرحلة الملاحظة العامة : حيث يستقبل الفكر عن طريق الحواس اثارة الاشياء الواقعية ، فتبصر العين ، وتسمع الاذن ، وتلمس اليدان ، ويتذوق اللسان وتتجمع هذه الاثارات كلها في الدماغ • وهناك يقوم العقل بعمليات معقدة لكشف هذه الاثارات فيميز ما بينها من اوجه شبه، او خلاف ، وزيادة ونقصان ، وتقديم وتأخير ، وهكذا وبعدئذ يقرر العقل ــ وهذا اهم شيء في هذه المرحلة ــ يقرر طبيعة الموضوع الذي يجب ان يلاحظه الفرد ويبحث عنه وطبيعة الاثارات والتجارب الضرورية ، لمعرفتها • فمثلا تدخل في الغرفة فتستقبل عيناك صورة الكتب المتراصة في المكتبة ، وتتلمس يداك احجامها ، وعقلك يقرر : طبيعة الكتاب الذي ينبغي الحصول عليه ، والعلامات التي تكشف عن هذا الكتاب فيقرر العقل مثلا : عليك ان تبحث عن كتاب في موضوع التاريخ ، وعلامته هي : انه كتاب ضخم مجلد ذو طباعة انيقة • لماذا ؟ لان كتب التاريخ عادة كبيرة وجيدة الطبع !! هذه هي مرحلة الملاحظة ، وفيها يحدد العقل: الموضوع والوسيلة الكاشفة له •

٢ ــ مرحلة الافتراض والنظرية • في مرحلة الملاحظة تتكدس ، الافكار على بعضها ، كما تتكدس الاحجار المكومة ، ويبدء العقل في المرحلة التالية : بتقسيم الاحجار ، وترتيبها ، وبناء بعضها على بعض ، وهي مرحلة الافتراض ، حيث يبحث العقل عن ايجاد علاقة بين الحوادث المتفرقة، واذا اكتملت هذه العلاقة ، صارت نظرية • فالنظرية هي المرحلة المتقدمة من الافتراض والخلق المتكامل له • اذا في المرحلة الثانية يتم بناء الافكار على بعضها ، وربطها في وحدة تسمى بالفرضية ثم النظرية •

(١) اصول البحث العلمي ومناهجه ص ٢٢١ ...
(٢) المصدر ص ٢٢١ ــ ٢٣ .

٣ ــ مرحلة البرهان • بعد ان يتم ربط الحوادث ببعضها، ومعرفة العلاقة المفترضة بينها ، يعوزنا الدليل على ــ صحة هــذا الافتراض ، فنبحث عن برهان فلا نجده ، الا في حصيلة التجارب التي نجريها عــلى الموضوع وهذه آخر مراحل المنطق الاستقرائي ، وأولى مرحلــة مــن مراحل القياس ، وهي الرابطة بين منطقي الاستقراء والقياس ، اذ في ــ منطــق الاستقراء ايضا نحتاج الــى آثبات عقلي ، وهو وظيفة منطــق القياس •

كان هذا فهرستا موجزا عن مراحل الفكر ، بالنسبة الى الاستقراء ويبقى التفصيل ، والذي نبدأه ببيان اقسام الاستقراء •

ما هو الاستقراء ؟

ما هو الاستقراء المنطقي ؟ ببساطة : هو البحث عن علاقة الظاهرات التي تحدث ، ببعضها ذلك لان الاستقراء هو القيام بتجميع الظواهر الى بعضها ، وهذا التجميع على نوعين :

الف ــ تجميع قشري افقي • لا يقصد منه سوى « زيادة عدد الى عدد » « وتركيب شيء فوق شيء » ليسهل التعبير عنها جميعا ، تماما كما يستصعب علينا ان نقول : واحد واحد واحد • فنجمعها ونقول : ثلاثة • كذلك تجمع الظواهر الى بعضها فنضع عليها اسما واحدا • نسميهــا جميعا باسمه فمثلا : عندما نستقرء البصل فنعرف ان كل بصل ابيض • لم نضف بالاستقراء علما جديدا الى معلوماتنا ، ان الذي فعلناه كان ليس اكثر من جمع البصل الى بعضه ، والتعبير عنها جميعا بكلمة واحدة ، بدلا من التعبير عن كل واحد بتعبير مختلف • ويندرج تحت هذا النوع مــن الاستقراء : الاستقراء الشكلي ، وهو الذي يجمع كل المعلومات الممكنة ويعبر عنها بلفظ واحد ، وبالرغم من انه يعطينا صورة استدلالية، ولكنها

لا تعطينا القدرة على التنبؤ بالمستقبل ، والذي هو الهدف من الاستقراء اساسا كما يأتي ، فمثلا اذا عرفنا ان انواع الحصان ثلاثة ــ أ ــ ب ــ ج ــ ثم عن طريق الاستقراء عرفنا : بان كل هذه الانواع ــ ابيض ــ حصل عندنا استقراء ، ولكنه شكلي اذ ليس هناك نوع رابع تتنبأ بلونه، قياسا على هذه الانواع الثلاثة ، فلم يضف الاستقراء علما جديدا لنا ، وصيغة هذا الاستدلال الشكلي هي ما يلي : أ ــ ب ــ ج ــ كل انواع الحصان .

(أ ــ ب ــ ج ــ ابيض . فكل انواع الحصان ابيض) والاستقراء الشكلي يوجد بكثرة في علوم تعتمد على العد والتسجيل ؟ مما يعتمد على القواعد العامة ، وذلك مثل علوم الاحياء والنبات وعلم الفلك القديم، والعقل الالكتروني . هو الآخر يعتمد على استقراءات شكلية . حيث لا يستطيع كشف الظواهر انما اعادة المعلومات وتركيبها ، ويستفاد من هذا الاستقراء ايضا في المراحل الاولى للبحث ولكنه كما يقول (مل) : لا يقودنا في طريقة العلم الا قليلا ، ومن الممكن أن نقبله بصفة موقتة ، اذا كانت تعوزنا وسيلة اخرى افضل منه واكثر قوة وضمانا وكل استقراء حقيقي ، يسبقه استقراء شكلي ، اذ لا بد ان يبدء الانسان بتجميع الظاهرات عدديا ، لكي يفكر فيها كيفيا ، بهدف التعرف على قوانينها ، وعلاقاتها ببعضها .

باء ــ الاستقراء الحقيقي : وهو ما ينطبق عليه تعريفنا المتقدم للاستقراء : وهو معرفة العلاقة الخفية التي تربط ظاهرة باخرى ، وعن طريق معرفتها يتم بالطبع التنبؤ بانه كلما وجدت احدى الظاهرتين، كانت الاخرى موجودة ايضا . وبتعبير آخر : الاستقراء التام هو الانتقال من عدد محصور من القضايا الى قاعدة عامة ، يمكن اعادة تطبيقها على عدد لا يحصى من القضايا المشابهة لكي يتم التنبؤ بالمستقبل ويتم بالتالي تحقيق الهدف من العلم ــ اي علم ــ وهو كشف المستقبل والاهتداء

اليه ، ومثال ذلك اننا نعرف القانون التالي – من بعض التجارب – المعدودة التي تم الحصول عليها عن طريق الاستقراء ، والقانون هو : «الكثافة = الكتلة على الحجم او ث = ك على ح » هل اننا استقرأنا جميع أنواع وأفراد الكثافة والكتلة والحجم، وعرفنا بأن لها علاقة مطردة، فعبرنا عنها بالقانون المتقدم ؟! كلا اذا : الاستقراء الحقيقي ، يتم على التعميم ، والانتقال من حالة جزئية ، الى حالة كلية ، وذلك عن طريق معرفة العلاقة الرابطة ، بين شيء وشيء آخر ، وهذه ميزة الاستقراء الحديث ، عن الاستقراء الارسطي القديم ، الذي كان اشبه شيئا بتكديس الملاحظات على بعضها ، دون معرفة العلاقة بينها . ولكن هذا الاستقراء ينطوي على خطر التعميم الكلي اذا تسرع الباحث فيه ، وافرط في الاعتماد عليه ، وهذه مشكلة تتعرض لها انشاء الله ، في فصل قادم .

الاستقراء : بين الذوق والعقل

« يذهب سائح الى قرية فيجد متعة كبيرة وحين يعود يوصي » أصدقائه بالسياحة في هذه القرية ، فانهم – حسب ظنه – سيجدون ذات المتعة ، عجبا هل سيكون مصيبا في حكمه ، ام خاطئا ؟ لا يفكر السائح في ذلك ما دام الموضوع لا يتجاوز حدود الذوق ، واذا اراد ان يصدر حكما عقليا في الموضوع – كان يكون خبيرا في السياحة ، يبحث عن افضل منطقة سياحية في الاقليم – فلا بد ان لا يتسرع في حكمه بل يبحث بمنهجية اكثر ، ويجمع أدلة أقوى ، ترى ما الفرق بين الحالة الاولى والثانية ؟ الفرق ان السائح يعبر عن نظرته الغامضة التي كونها بذوقه ، بينما الخبير يعبر عن نظرته الواضحة التي يكونها بعقله ، والفرق بين العاطفة والعقل هو الفرق بين الحالتين ,وبالتالي هو الفرق بين الاستقراء الذوقي الذي قد يسمى ايضا بالفطري ، والاستقراء العلمي .

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٦٣ .

والهدف من الاستقراء الذوقي غالبا : هو تكييف البيئة مع الانسان اي تذليل الاشياء لخدمة الانسان ، ففي المثل السابق ، السائح يحاول معرفة افضل مكان للاستجمام بينما الخبير يتجاوز ذلك الى محاولة ايجاد افضل مكان للاستجمام .

والانسان في حياته اليومية بحاجة ملحة الى الاستقراء الذوقي حتى يكيف نفسه مع بيئته ، فهو بهذه الطريقة يعرف اصدقائه واعدائه ويميز الطيبات من الخبائث ، وبهذه الطريقة يعرف كيف يكلم الناس ؟ وكيف يثير فيهم ما يريد ان يثيره من الحب او البغض ؟

فالاستقراء الفكري ضرورة حيوية ، لان حياة المرء ليست الا سلسلة من المواقف ، او المشكلات التي تتطلب حلولا عاجلة ، حقا تختلف هذه المشكلات ، التي تتطلب حلولا عاجلة ، باختلاف بيئة الانسان ، وسنه ، وعمله ، وهي تتطلب من صاحبها ، وتلح عليه : ان يجد لها حلا ، وقد يصرفه هذا الالحاح ـ كما رأينا عن المقارنة الدقيقة بين مختلف المواقف التي تشبه موقفا فيصدر حكما خاطئا [١] .

الاستقراء : الفطري كيف ولماذا ؟؟

جون ديوى يفصل القول في الذوق الفطري تاريخيا . وقد يلقي ذلك ضوءا على كيفية الاستفادة منه ، فيقول (بتلخيص) : في عهد اليونان كانوا يقسمون العلوم نوعين ، الاول : العلوم السامية ، التي يشتغل بها الحكماء والفلاسفة ، الثاني : العلوم الدانية ، التي يقوم بها أهل الحرف والسوقة ، ولم يكن النوع الثاني جديراً عندهم باسم العلم فكانوا يسمونه صناعة ، أو فنا ، أو حيلة ، لانه كان يعالج المواقف

(١) المنطق ومناهج البحث ص ٧١ .

المشكلة ، وهي متغيرة ، والعلم انما عندهم ما يعالج المبادىء العامة ، التي لا تتغير ، بلىحين ترتفع هذه الصناعات عن مستوى معالجة المواقف الخاصة المتغيرة ، ويعني بالمبادىء المطلقة كانت جديرة باسم العلم ، ثم بدء العلم الحديث ، يربط بين العلم والعمل ، ويرى : أن العلم الذي يعالج المواقف المشكلة ويساعدنا على حلها عمليا ، هو العلم الوحيد الجدير باسم (العلم) [1] ويستنتج ديوى من كل ذلك ، ان الذوق والعلم وجهان لعملية واحدة ، وانه في يومنا هذا اصبح التذوق ، أكثر علمية كما اصبح العلم أقرب الى الذوق (أي الى الفائدة العملية) ومن هنا تتم الاستفادة من الذوق الفطري ، علميا حين نجعله طريقا الى ايجاد مشكلة ، وبالتالي طريقا الى التفكير العلمي لحلها •

ويكون الذوق بذلك ، المرحلة المتقدمة من العلم المرتجل ، فهي مرحلة التحسس بالموقف المشكلل [2] والذي يؤدي الى الحل الذي يتطور بدوره الى حل علمي •

فالانسان يبدء بتذوق الاشياء ، قبل ان يبدء بتفهمها ، وشيئا فشيئا ، يتحول الذوق الى التفكير ، ويتحول الاختيار الساذج ، الى الابداع والابتكار ، وهذا التحول يحدث كلما زادت معلومات الانسان الدقيقة ، ونظراته الواضحة ، وأبسط مثال لذلك نجده في السياسة ، فقديما كان السياسيون ، يختارون آرائهم بالذوق ، وحسب الحاجة العملية الملحة ، فعندما كانت تواجه السياسي مشكلة كان يطرق برأسه الى الارض ، ويستعرض شريط الاحداث التي ترتبط بموضوعه (طبعا كانت تتم معرفة ارتباط الاحداث بموضوعه ، واختياره لها ، بالبداهة ،

---

(١) انظر ص ١٥٦ و ص ١٦١ من كتاب المنطق نظرية البحث لجون ديوي) .
(٢) انظر القسم الثالث كيف نختار المنهج السليم من هذا الكتاب ..

أي بالذوق الفطري • أيضا) وبعد لحظات تفكير سريع ، وغامض ، كان يرفع رأسه ويتخذ قرارا ولـكن اختلف الوضع ، في الـدول المتقدمة اليوم ، حيث لا يتم الاختيار ذوقيا ، وانما علميا ، حيث يجتمع الخبراء، ويستعرضون صورة الاحداث ، التي يختارونها ، بدقة ، وبمقاييس علمية ثم يأخذون بتقييمها معا تقييما منهجيـا ، وربما استعانوا بالعقـول الاليكترونية ثم يقررون ما شاءوا ، ماذا اختلف من القديم الى الحديث ؟ وكيف كان في القديم السياسة ذوق ، وأصبحت علمـا ؟ انما اختلف طريقة التفكير ، في مرحلته ، فبينما كان مستوى التفكير قديما متدنيا ، ومرتجلا ، ومتسرعا ، أصبح اليوم مستوى رفيعا ومتقدما وساميا ، وبؤرة الفرق كانت التفكير الغامض ففي القديم كان التفكير يتم بسرعة وفي منطقة اللاوعي ، حيث يتم اختيار الاحداث ، وتقييمها بسرعة ، وبحيث حتى لا يستطيع صاحبها متابعة سيرها ، وكان أسرع الناس بديهة هو أكثرهم علما ، اذ ان القضية كانت ترتبط بسرعة البديهة ، وكانت وصية الحكماء تقول : اذا أردت اختيار أمر صعب ، فنم عليه ، اذ ان النوم ــ لا اليقضة ــ كان كفيلا بتشغيل منطقة اللاوعي في الفكر البشري ومجموع هذه الامور سمي ذوقا ، أما اليوم فان التفكير يتقدم خطوة خطوة، وفي الطريق المستقيم الظاهر الصريح ؟ والسؤال الاخير : هل انتهى دور الذوق في حياة الانسان ؟ والجواب : بالطبع لا اذ اولا : لا يمكننا ان نختار كل شيء في حياتنا بالتفكير المنهجي الواضح ، لتباطيء هـذا التفكير ، ولسرعة الحياة ، وألحـاح المواقف الى قرارات مستمرة •

وثانيا : لم يزل العلم غـير قادر على لملمة جوانب المواضيـع كلهـا حتى يتـم البحث بمنهجيـة تامـة في كـل مراحـل التفكير السابقـة على

القرار ولذلك يحسم المرء كثيرا من الامور المرتبطة بقراره ــ بصورة بديهية ذوقية •

ذلك لان اية ظاهرة نريد دراستها ، وتقييمها ، بحاجة الى معرفة ظواهر محيطة بها ، ودراستها هي الاخرى تحتاج الى معرفة ظواهر أخرى مرتبطة بكل واحدة منها ، وهكذا تتسلسل حتى يضيع الفرد ، ويتصل حدود البحث الى مناطق المجهول : التي لا يحسمها سوى الحدث أو (الذوق الفطري) فمثلا في السياسة ، يصل التعقيد ، والتشابك بين الاحداث حدا يستحيل على العقول الآلية فضها ، ويبقى على الخبير الاعتماد على ذوقه ، وحدسه واجتهاده ، الذي قد يخطيء ، وقد يصيب ولذلك ترى الخبراء يختلفون بدورهم في القضايا السياسية الهامة •

وما دام الانسان لم يصل بعلمه الى مستوى الكمال ، يبقى بحاجة الى الذوق الفطري ، بل ان الذوق الفطري ، يتقدم كل كشف علمي • لان العلم يمر بمرحلة (الحدس) التي تساعد على وضع النظرية ، والذي سوف نتحدث عنه قريبا انشاء الله ، وما الحدس الا نوع من الذوق الفطري •• ومن هنا لم يكن الاهتمام بالحدس ، والذي هو المرحلة المتقدمة من الذوق الفطري من الوجهة السيكلوجية التي تتوصل اليها من دراسته مجالات التطبيق • واذا كان الحدس هو وصول الى حلول (صحيحة) او تقاربية للمشكلات ، تحت ظروف قلة المعلومات ، (او الحرمان منها بالطبع) فان ذلك لا يعني ان هذه القدرة ليست لها اهمية حين تتوفر المعلومات ، ويتيسر تبادلها فان عصرنا الحاضر ، يتميز في بعض المجالات بوفرة في المعلومات ، الى حد الانفجار ، الذي لا يمكن

للانسان ان يحيط بها ، مهما اوتي من وقت وجهد ، وامكانات ، ولذلك فهو مضطر الى اللجوء الى (الملخصات) التي مهما بلغت دقتها لا تـوفر المعلومات الكافية فهو مضطر الى العمل في ظروف نقصان المعلومات الاولية والاصلية ويزداد الاعتماد على المصادر الثانوية ، اما في الدول النامية فان المشكلة اشد حدة [١] .

---

(١) د. سيد احمد عثمان ود. فؤاد عبداللطيف في كتاب التفكير ص ٧٥ .

القسم الرابع عن مناهج الاستقراء

البحث الثاني عن :

الملاحظة

ما هي الملاحظة ؟
الملاحظة الفجة
الملاحظة العلمية
الملاحظة بين الكم والكيف
الاسلام والملاحظة

ما هي الملاحظة

ذات صباح ربيعي ، تجلس على شاطىء البحر ، وتلاحظ الامـواج الحريرية التي تداعب الصخور ، وهناك تجد رجلين احدهما صياد سمك والثاني خبير • اما الصياد فيبحث عن الاسماك فيما وراء الامواج ، امـا الخبير فلا يهمه السمك فقط • بل يلاحظ تحركاته ليكشف طبيعة الحياة عند الاسماك ، انتم الثلاثة تبصرون باعينكم • شيئا • ولكن بينكم فروق كبيرة • ١ ــ فانت تبصر لمجرد المتعة ــ فالنظر بحد ذاته هدف تنشده • ولذلك لا نسميك (ملاحظا) بل (متفرجا) والصياد يهدف من وراءبصره الكشف عن مواقع السمك • ان نظره (عبرية) ومتعمقة ان الامواج لا تعنيه بما تكشفعما ورائها مناسماك،ولكنهـمعذلكـلا ينوعملاحظاته كثيرا حول السمـك ، بل يصيدها متى وجدها • ٢ ــ اما الخبير : فانه يبصر ، ويهدف شيئا ، وهدفه ليس السمك ، كظاهرة منفصلة عن مظاهر الحياة الاخرى ، بل كظاهرة مرتبطة باية ظاهرة اخرى قد يكشفها الخبير• فهو اذ يراقب الموج والسمك ، يرصد تحركات الريح وتيارات الماء والمد والجزر ، ليعرف ما اذا كانت تلك الظواهر ، ترتبط بظاهرة تواجد السمك مثلا في الساحل فجأة ، ام لا ؟•

---

(١) د. سيد احمد عثمان ود. فؤاد عبـد اللطيف ــ كتاب (التفكير) ص ٧٥ .

ان صياد السمك ، مثل لصاحب الملاحظة الفجة ، بينما الخبير، مثل لصاحب الملاحظة العلميـــة والفرق بينهما كالفرق بين الـــذوق الفطري ، والاستقراء العلمي ، اذ يهدف الاول تحقيق حاجة عملية ، بينمـــا الثاني يحاول الكشف العلمي وبتفصيل اكثر :

١ ــ الملاحظة الفجة : هي كل ملاحظة سريعة يقوم بها الانسان في ظروف الحياة العادية ، ويمكن التمثيل لهذا النوع بملاحظـــة الرجـــل العامي ، الذي يوجه نظره الى مختلف الاطوار التي يمر بها القمر ، فيرى انه يبدء هلالا ، ثم ينمو ــ شيئا فشيئا ــ حتى يكتمل بدرا ، ثم يتطرق اليه النقصان بالتدريج ، فيصير هلالا مرة أخرى .. [١]

وتسمى هذه الملاحظة فجة لانها : « ليست العبرة بتسجيل الملاحظات وتكديسها ، بل بالقدرة على تنسيقها ، وربطها ، وتأويلها تأويلا صحيحا ، والاستفادة منها ، في الكشف عن بعض الحقائق العامة ، ويرجـــع قصور الملاحظة الفجة في الكشف عن هذه الحقائق الى ان الرجل العادي يرى ان الظاهرة التي يلاحظها منفصلة .. تماما . عما عداها من الظواهر امـــام العالم فيرى ان الظاهرة التي يدرسها لا بد ان تكون على صلـــة ببعض الظواهر الاخرى ولذا فهو على استعداد دائما للتطرق من ملاحظـــة الى اخرى [٢] . والملاحظة العابرة تساهم في دفع عجلة العلم الى الامام لانهـــا حرة طليقة لا ترتبط بهدف محدد مسبقا ولذلك قد تصل الـــى معرفـــة بعض العلاقات التي تعجز الملاحظة العلمية بسبب من تقوقعها فـــي قمقم الهدف المحدد ــ يعجز عن الوصول اليها فمثلاالشعراء الذين اهدوا ارض القمر لحبياتهم كانت ملاحظتهم اقرب الى الحقيقة من ملاحظـــة الفلكيين

---

(١) المنطق ومناهج البحث ص ١٠٣ .
(٢) المصدر ص ١٠٤ .

القدماء الذين كونوا فكرة مسبقة عن القمر • وكثير من العظماء اكتشفوا بالملاحظة العابرة حقائق كبيرة او لا آقل تنبؤوا بتلك الحقائق ، عن طريق الملاحظة العابرة ، فمثلا : (جاليلو) لاحظ ــ ذات مرة ــ ان سقــوط الاجسام ليس سواء ، وهدته ملاحظته العــابرة الى التجربة التــي ادت بالتالي الى كشف قانونه الشهير في سقوط الاجسام ويقال : ان نيــوتن اهتدى الى التفكير حول الجاذبية من ملاحظة تفاحة سقطت مــن عــلى شجرة • وهكذا ، ان المنهج السليم هو المنهج الذي يفسح اكبر مجــال لحرية التفكير [1] ••

ولكن من الخطأ الفظيع الاكتفاء بالملاحظة العابرة لانها الخطــوة الاولى فقط في طريق ذات مئة خطوة والملاحظة العابرة اخيرا كالاستقراء الفطري • وكالخيال والحدس تفيدنا في وضع الاطار العام للفرضية ومــا سبق في الاستقراء الفطري وما سيأتي باذن الله في الحدس ــ تلقي ضوءا على دور الملاحظة الفجة في البحث •

الملاحظة العلمية

يجب ان تتوافر ثلاثة عناصر في الملاحظة العلمية •

١ ــ الهدف المسبق ففي قصة الخبير الآنفة الذكر رأينــا كيف ان يهدف كشف حقيقة غامضة ومحــددة ، وهذا العنصر يجعل الملاحظــة العلمية ، الخطوة الثانية التي تلحق الملاحظة الفجة ، اذ ان التأكد ، مــن صحتها يتطلب الملاحظة المكررة ، لتلك الفكرة ، التي استوحاها الفرد من ملاحظته الاولى ، وقد يتسبب ذلك في التدخل في سير الطبيعــة للكشف عنها •

٢ ــ الدقة ولان الملاحظة العلمية هادفة ، فانها دقيقة اذ هي تتركز :

---

(١) المصدر ص ١٦٣ •

حول قضية واحدة تقريبا ، تفصلها عما يحيط بها من قضايا فرعية ، غير ذات اهمية علمية .

ولدقة هذه الملاحظة ، فهي بحاجة الى صبر وأناة فتتوزع الى خطوات ومراحل .

٣ ـ الاستيعاب لوجود الهدف المسبق والدقة ، تأتي الملاحظة العلمية ، متممة للكشوفات السابقة . ومستوعبة لها ، فهي تبدء من حيث انتهى العلم ، وقد تستخدم الادوات العلمية الدقيقة ، التي توصل اليها تقدم العلم سابقا . ويمكن التمثيل للملاحظات العلمية بتلك الملاحظات التي يقوم بها علماء الفلك ، عندما يرصدون النجوم ، والكواكب ، واوقات ظهورها ، واختفائها ، فهذه الملاحظات علمية ، لانها دقيقة، ولانها تهدف الى غرض واضح هو معرفة عدد هذه الاجرام السماوية، وابعادها وحركاتها (١) .

الملاحظة بين الكم والكيف

ترتبط الملاحظة لاية ظاهرة بطبيعة الظاهرة ، والهدف من معرفتها ، فقد تكون الظاهرة مثلا ، مرتبطة بعلم الرياضيات ، والهندسة ، وما اشبه، فهناك نلاحظ الجانب العددي والقياسي من الظاهرة ، وقد ترتبط بعلم الاجتماع والنفس فهناك نحاول معرفة الجانب الكيفي منها .. والواقع ان الكم ليس سوى العناصر الذاتية للشيء ، وكلما تقدم العلم ، كلما حاول ارجاع الاشياء الى (اعداد) حسبما عرفنا ذلك في فصول سابقة ، بينما الكيف هو معرفة الوجه الخارجي للشيء ، وطبيعة نسبته الى الحقائق الاخرى ، فمثلا : لو اردنا ان نعبر عن طبيعة حرارة الجسم عند

---

(١) المصدر ص ١٠٧ .

الحمى ، فقد نقول : ان درجة الحرارة هي (٣٨) (وهذا تعبير عن عنصر ذاتي في الحرارة وهو طبعا تعبير كمي) بينما قد نقول : ان الحرارة شديدة تعبيرا عن نسبة الحرارة الى شيء آخر من المفهوم انه قد تكـون هـذه الحرارة خفيفة بالنسبة الى حرارة النار ! اذا : التعبير الكمي هو التعبير الذاتي المتطور بينما التعبير الكيفي هو التعبير الخارجي المتخلف، والفرق بينهما لا يعدو التعبير ، والحقيقة واحدة .

وكلمة اخيرة عن الملاحظة العلمية انها قد تغني عن التجربة ، وذلـك فيما يخص الظواهر التي لا يمكن التدخل في مسيرها والتجربة ـ اساسا ـ هي التدخل في مسيرة الطبيعة لمعرفتها ، وذلك مثل الظواهر الفلكية ، والسياسية ، والاقتصادية . بل في كل علم ظواهر ، لا يمكن اخضاعهـا للتجربة ، وآنذاك ، تحل الملاحظة العلمية مقام التجربة ، في كل الشروط التي ستأتي انشاء الله .

الاسلام والملاحظة

في بداية الحديث عن الملاحظة ، استخدمنا : تعبيرا ، نرى انه خـير دليل على طبيعة الملاحظة السليمة ، كان التعبير هو (عبرة) واللفظة هذه، استخدمت بكثرة في النصوص الدينية ، التي بالرغم من انها جـاءت في مواضيع مختلفـة فانها تعني حقيقة واحدة هي (العبور) عـلى زورق الظواهر ، الى شاطىء الحقائق حيث ان الافكار ، قد تتجمد على الظواهر، وقد تفتش عن دلالاتها ، وخلفياتها ، وعلاقاتها ببعضها ، وهناك يتم الفكر العبـري ، (اي العبـوري) ، واكثر مـا يصح هـذا الامـر فـي في التاريخ ، فقد نسمعها كظواهر الماضي ، على انها ملهيات ، وقد ندرسها للعبور منها ، الى السنن التي ورائها وفي هذه الحالـة يصبح التاريخ ، عبرة ، ومن هنا قال الله في كتابه : لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الالباب

•• (١١١/١٢) وقال : يخربون بيوتهم بأيديهم وايدي المؤمنين ، فاعتبروا يا اولي الابصار (٥٩/٢) وهكذا جاءت الكلمة تعبيرا عن الملاحظة في السنة ، قال الامام الصادق (ع) : اعتبروا بما مضى من الدنيا • وكان اكثر عبادة ابي ذر : التفكر والاعتبار • اما الامام علي (ع) فيأمر باستخدام الملاحظة في حل المشاكل الاجتماعية فيقول : ان الامور اذا اشتبهت اعتبروا آخرها بأولها • وتؤكد لنا نصوص كثيرة مدى الارتباط بين (العبرة) والعلم فيقول الامام علي (ع) من اعتبر أبصر ومن أبصر فهم ومن فهم علم » •

القسم الرابع عن مناهج الاستقراء

البحث الثالث عن

الفرض

ما هو الفرض

توجد ـ بين المشاهدة ، التجريبيـة ، والملاحظة العامة ، وبـين الوصول الى الحقيقة فجوة يجب سدها بالفروض التي تقوم بدور الجسر بين الحقيقة والتجربة ، والفرض : هو بمثابة الصورة الهندسية ، التـي يضعها البناء ، قبل البدء بالتعمير ، فهو صورة غير حقيقية للنظرية ، التي تأتي من بعده ، وتمهد لمعرفة القانون •

ذلك لان الباحث يبدء بجمع الملاحظات ، والمشاهدات التجريبية ، فاذا اجتمعت عنده ، لا يعرف بالضبط : طبيعة العلاقة بينها ، فيفترض نوعا من العلاقة ، ويحاول التثبت عن صحتها ، وكمثل لهذه الطريقـة نستعرض قصة (كلود برنارد) التالية •• ذات يوم قدم اليه بعض الارانب، فلما وضعها على المنضدة ، اخذت تبول (فلاحظ) كلود : ان بولها كـان صافيا حامضا ، مع انه (يعلم) من قبل : ان بول الارانب ، عكر قلوي ، باعتبارها آكلة للاعشاب ـ ولانه كان يعلم سابقا : ان بول الحيوانـات آكلة اللحوم ، هي صافية حامضة ، فقد (افترض) : ان تكـون الارانب جائعة منذ وقت ، وانها قد بدأت تتغذى من انسجتها الداخلية ، فأصبحت ـ عمليا ـ آكلـة اللحم ، واصبح بولها صافيـا حامضا ، فلما جـرب (فرضيته) ، رأى انها صحيحة ، اذ ما ان اشبعها اكلا ، حتى عاد بولهـا

عكرا قلويا ، فلما جوعها مرة اخرى ، عاد بولها حامضا صافيا ، وهكـذا ثبت عنده (القانون) المعروف : ان جميع الحيوانات الصائمة ، تتغـذى من انسجتها ، فيصبح بولها حامضا صافيا [1] •• » في هذه القصة نجد : ان ملاحظات كلود ، ومعلوماته السابقة ، دفعته الى (فرض) لم يلبـث ان اصبح حقيقة ، بفعل المزيد من التجربة •

من هنا نستطيع تعريف الفرض : بانه التنبؤ بحقائق الاشياء، بحيث لو برهنا عليه ، اصبح قانونا • فهو بديل موقت للقانون ، وظيفته تمهيد الطريق الى القانون ، فكل فرض لا يمكن ان نبرهن عليه ، ليس بفرض ، وكـل فرض يخالفه البرهان ليس بفرض ، وكـل فرض لا يحتاج الى البرهان ليس بفرض ، بالرغم من ان كثيرا من المناطقة السابقين ، خلطـوا بين المعنى الحديث للفرض ، وهذه المعاني الثلاث •

الهدف من الفرض

ما هو الهدف من الفرض ؟ ليس الهدف منه اغناء البـاحث عـن القانون ، بل دفعه الى البحث عنه ، فهو مساهمة في البحث ، عن خلفيات الظواهر ، وذلك بوضع قانون مؤقت لها ، حتى يكتشف القانونالحقيقي، ذلك ان الظواهر المتفرقة تضيع في زحمة الفكر ، فيصنع الفكر ظرفا لها ، يجمعها بصفة موقتة ، الى ان يأتي القانون فيوحدها ، وليست للتجارب اية فائدة لو لم يتم بناء هيكل لحفظها ، والهيكل هو الفرض • يقـول هنري بوانكارية :

للمرء ان يجري مائة تجربة ، وله ان يجري الف تجربة ، (ولكنها لا

---

(١) المصدر ص ١١٣ عن (كلود برنارد) .
(٢) المصدر ص ١٤١ .
(٣) المصدز ص ١٣٦ .

تفيد بدون الفرض) فان انتاج عالم واحد ممتاز ، كباستير ـ مثلا ـ يكفي في اسدال ستار النسيان ، على هذه التجارب • فما التجربة الجيدة اذا ؟ انها التجربة التي تطلعنا على شيء آخر ، سوى الظواهر المتفرقة ، وهي التي تتيح لنا : التكهن بالمستقبل ، وتسمح لنا بالتعميم (١) •

حقيقة الفرض

ما هي حقيقة الفرض ؟ هل هو من نسج الخيال • بل هل للخيال اي دور فيه ؟ في المقدمة ، يجب ان نعرف ما هو الخيال ؟ الخيال : هو تصورات غير حقيقية عن الحياة ، يضعها الانسان عن سابق تصميم ومعرفة، مثلا : الشاعر العبقري لا يجهل ان حبيبته ليست بشمس ، ولا بقمر، ولا حتى بمصباح ، ولكنه يخيلها كذلك ، وينشد اشعاره في ذلك ، فالخيال هو نوع من الكذب الابيض ، الذي لا يقصد منه الاغواء ، وفي مقابل الخيال يوجد (الحدس) وهو : نوع من التفكر الذي تختلط فيه الادلة بالحقائق ، لسرعته الخاطفة ، وليس الحدس خيالا ، لانه ليس مسبوقا بتعمد الابتعاد عن الحقيقة ، فالرجل الذي يلقى عليه لغز فيحدس ـ فورا ـ بجوابه ، لا يصمم على تصور بديل عن الحقيقة ، ولكنه يبحث عن الحقيقة ذاتها ، بوسيلة مختلفة عن التفكر المنهجي •

ويمكن تعريف الحدس : بانه اطلاق اجنحة الفكر بالترفرف على جنبات الحياة ، بحثا عن الحقيقة ، ولذلك تجد المرء ـ حينما يحاول الحدس ـ يجمع ذهنه ، ولا يدع تشرد عنه ، حقيقة قريبة او بعيدة ، مرتبطة بصلة ما بموضوعه •

١ ـ ويعرف سانكتس الحدسَ في بحث مبكر له نشر عام (١٩٢٨ م) بأنه عملية معرفية مباشرة قبل ان تكون منطقية و بدائية وغير

(١) المصدر ص ١٣٦ .

تحليلية [1] وهذا يدل على ان الحدس بحث عن الحقيقة ولـكن بطريقة غير منطقية وغير تحليلية اي تركيبية كما سيأتي) وافترض سانكتس ان الحدس عند الاطفال وضعاف العقول اقوى منه عند غيرهم وجاء بتجارب تدل على صحة افتراضه والواقع انه لو دل على شيء فانه يدل على مرحلة ما قبل المنطقية للحدس اذ ان الاطفال تعودوا على استخدام الحدس ـ بعجزهم عن المنطق ـ فنمت فيهم القدرة عليه من هنا لو نمى غيرهم في نفسه لسبب او آخر هذه القدرة كان اقوى منهم فيها .

ويعتمـد الحدس على المعلومـات السابقـة بالاضافة الى حـدة الذهن ، اما المعلومات السابقة فيجب هضمها بشكل جيد ، كما يجـب كثرة النظر فيها ككل ، حتى تصبح وكأنها كتلة واحدة ، يمكن استعراضها بسرعة ، انى ارادها الذهن .

٢ ـ وفي هذا المجال يرى يونج ان الحدس كالاحساس يـدرك لا شعوريـا وبطريقة غير نقدية ولكنـه يدرك الاحتمـالات والمبـادىء والتضمينات ككل على حساب التفاصيل [٢] .

واما حدة الذهن فهي هبة الله ، ويمكن تنميتها عن طريق الثقـة بالعقل ، وعدم التردد ـ طويلا ـ في البت في الامور .

٣ ـ وارتباط الحدس بالثقة يفسر لنا عـدة ظواهر [٣] ارتبـاط الحدس بالصفات الشخصية العالية اذ ان مجموعة الإفراد التي تتميـز بالتفكير الحدسي تتميز عموما بانها اعلى في صفات السيطرة والمسؤولية والاتزان الانفـعالي والاجتماعـي كما يقيسهـا بروفيـل الشخصيـة لجردون [٤] .

---

(١) التفكير ص ٧٢ .
(٢) المصدر ص ٦٩ .
(٣) المصدر ص ٧٥ .
(٤) المصدر ص ٨٩ .

٤ ــ كما يفسر لنا السبب في ان اصحاب الابتكار يتميزون بقدر كبير من الاستقلالية وعدم مسايرة المجتمع اذ انه من صور الدافعية الاخرى للسلوك الابتكاري تفضيل الاستجابات الجديدة والميل الى اصدارها وتفضيل التعقد على البساطة والميل الى الاستقلال والبعد عن الامتثال ونقصان المسايرة الاجتماعية والميل الى المخاطرة • والتسامح مع الغموض (١) وهذه هي صفات الثقة بالنفس التي تولد الحدس وانه لماذا ترتبط الثقة بالحدس ؟

وارتباط الحدس بالمعلومات السابقة ، يفسر لنا السبب في انحدس العالم لماذا يختلف عن حدس الجاهل مع انهما حدس بالتالي ؟ كما يفسر لنا السبب في ان هناك ارتباطا بين الحدس وبين قوة الحواس فالعبقري عموما يتفوق على الشخص العادي ، في ثروته من المعلومات المختزنة ، ويصدق هذا على الفنون صدقه على العلوم ، فقد برهن (آجنيو) على ان الذاكرة السمعية تلعب دورا في غاية الاهمية في الابتكار الموسيقي ، وبالمثل برهن (ماير) على اهمية الذاكرة البصرية في الفن التشكيلي (٢)•

ثم لان الحقيقة كالطائر ، اذا لم تحبسها ، فرت ، وكثير ، من الناس تأتيهم الحقائق ، ولكنهم ــ وربما لعدم الثقة بانفسهم ــ لا يعتنون بها ، حتى تذهب •

من هنا : يجب ان يكون الباحث ، حرا جسورا في اتباع آرائه ، والا يقف امام بعض المخاوف الصبيانية ، كان يخشى مناقضة افكاره،للنظريات التي سبق تقريرها ، ومن النادر ان تتقدم العلوم ، دون وجود نصيب من الجرأة والحرية فيه (٢) وقد تحدثنا من قبل حول الذوق الفطري ، وما

---

(١) المصدر ص ٨٩ •

(٢) المصدر ص ١٤٢ •

الحدس الا نوع منه ، كما ذكرنا آنئذ .

ويرتبط الحدس بالابتكار عن طريق الفرض ، حيث ان الفرض ابن للحدث وابو الابتكار ، فبدون الفرض لا يمكن ـ عادة ـ الوصول الى تقدم علمي كاف ، كما انه بدون الحدس لا يمكن الوصول الى فروض مفيدة ، ويؤكد هذا الارتباط ـ بين الابتكار والحدس ـ انه يتميز التفكير الابتكاري بحدوث ما يسمى : التخمر . (الكمسون او الحضانة) وهي مرحلة من النشاط غير الظاهر ، توصف احيانا : انها لحظة ما يحدث قبيل الاستنباط ، وتتميز هذه الفترة بحالة من تشتت الانتباه ، وتوزعه ، وعدم تركيزه على موضوع بالذات ، وعادة ما يحدث ـ اثنائها، او في نهايتها ـ تقدم نحو الحل ، ويفضل ابو حطب ان يطلق على هذه الظاهرة التفكير الحدسي [1] .

« وظاهرة التخمر هي : الوسيلة الاساسية في الحدس ، فهي رابطة بين المعلومات السابقة والحدس ، اذ انه يلعب رصيد المعلومات لدى الفرد دورا هاما في تفكيره الابتكاري ، وشرط المعلومات هذا شرط ضروري [2] .

الفرض ـ تاريخيا

لم يتفق العلماء جميعا على ضرورة الفروض ، انما تدرجوا عبر التاريخ في اعطاء اهمية لها ، حتى جاء العصر الحديث ليضع الفرض في مقامه حيث الآن . ولكن لماذا هذا الاختلاف في الفروض ؟ كما يبدو ، لم يتفق العلماء في معنى واحد للفرض ، ولا في هدف محدد ، فقصد كل

---

(١) التفكير ص ٩٠ .
(٢) المصدر ص ٨٩ ...

منهم معنى مختلفا عن الآخر فعارضه فيه ، بينما هو متفق معه ــ فــي الواقع ــ وانما الاختلاف في التعبير .

ولذلك قبل ان نستعرض تاريخ الفرض لا بد ان نبين بعض المعاني التي اريدت منه وهي :

١ ــ الفرض بالمعنى الرياضي : ويعني الحقيقة التي لا تحتــاج الى دليل ، لانها مسلمات وتوضع اساسا لاستنباط قضايا فرعية ، مثال ذلك قولهم ان الكمين المساويين لكم ثالث متساويان ، وقد استخدم القدماء الفرض في هــذا المعنى ، وعليــه يدل جــذر اللــفظ باللغة اللاتينيــة (Hypothese) ولم يخالف احد من العلماء في اهميــة هذا المفهوم من الفرض ، وضرورته البحثية ، في علم الرياضيات .

٢ ــ الفرض بالمعنى الفلسفي ، والذي يعني المفاهيم العامة التــي نسلم بها ، من غير دليل لتكون وسيلة لفهم قضايا جزئية . وبهذا المعنى استخدمه المدرسيون ، في العصور الوسطى ، وفي مبدأ عصر النهضة ، بل يبدو ان ديكارت كان يستخدم الفرض هكذا ايضا ، وهــذا المفهوم من الفرض قد يكون باطلا ، ولكنه يؤدي الى الحق ، في زعم المدرسيين لهذا كانوا يقولون ان الفرض هو الفن الذي يستنتج الحق من الباطــل ، ويقول ديكارت : سأفرض هنا : بعض الفروض ، التي اعتقد انها خاطئة، وليس خطأها بمانع من ان يكون ما يستنبط منها صحيحا وهذا النــوع من الفروض هي التي قامت قيامة العصر الحديث لنفيها بل لتسفيه اصحابها فقد قال نيوتن « لقد تقدمت حتى الان في تفسير الظواهر المساويــة ، وظواهر المد والجاذبية ، ولكن لم احددُ ــ بعد ــ سبب هذه الجاذبية ، ولم استطع ان استنبط من الظواهر اسباب خواص الثقل ولم اتخيل فروضا لان كل ما لا يستنبط من الظواهر يسمى (فرضا) وليس للفروض مكان

في الفلسفة التجريبية سواء كانت فروضا ميتافيزيقية ام خاصة بالصفات الخفية ام ميكانيكية » .

١ ــ الفرض بالمعنى البحثي ، ويقصد به : الحدس بحقيقة الاشياء، وعرف بانه : التكهن الذي يضعه الباحث لمعرفة الصلة بين الاشياء ، واول من قال بهذا المعنى هو (بيكون) حيث اوصى الباحث : بان يبدأ بملاحظة الظواهر العامة التي لا يتطرق اليها الشك ، حتى اذا كون لنفسه عنها فكرة ، وجب عليه استخدام التجارب الخاصة للتأكد من صحتها ، وهذا المفهوم من الفرض هو المفهوم السائد اليوم ، ولكن الهدف منه ، غير واضح تماما ، وربما يكون ذلك سببا في بعض الاختلاف حول اهميته ، فما هو الهدف ؟

الف ــ ليس الهدف من الفرض ، وكما سبق مكررا : ان يصبح مقام البحث ، او مقام النظرية ، وهذا هو الذي حاربه فريق من العلماء .

باء ــ وليس الهدف منه ان نعتمد على افكار ميتافيزيقية في تفسير الحوادث .

جيم ــ انما يهدف الى ما يلي :

اولا ــ « لانه لا قيمة للتجارب ، اذا تكدست فوق بعضها ، مهما كانت كثيرة العدد ، مثل ذلك المشاهدات الجوية التي تملأ جداول (من الذهن) لا نهاية لها فان هذه الملاحظات لا تصبح ملاحظات مفيدة الا اذا دلها العقل في اثناء جمعها » (١) . فأول هدف يحققه الفرض هو تجميع الملاحظات الى بعضها حتى تتفاعل .

ثانيا ــ ولان الظواهر يجب ان تتفاعل فلا بد ان تتجمع في وحدات والفرض يحقق هذه الغاية اذ يجمع الظواهر في وحدات .

---

(١) « كونت » عن المنطق الحديث ومناهج البحث ص ١٥٢ .

ثالثا : وحين الجمع بين الظواهر ، تبدو فجوات يجب على الفرض ان يسدها موقتا لكي يقوم بدراستها متى سنحت الفرصة له •

رابعا : ثم ان هذه الفجوات ، تبقى كأسئلة حائرة ، حتى بعد ان نفترض حلولا موقتة عنها (لان هذه الحلول مؤقتة) فان الهدف الرابع من الفرض ، هو دفع الانسان الى البحث عن اجوبة صحيحة لهذه الاسئلة • ذلك لان الفكر من طبيعته الا يبحث عن شيء بدون ان يلح عليه بالجواب •

وظيفة الفروض

كما سبق آنفا وظيفة الفروض في النقاط الأربع الماضية ، ولكننا لم نزل بحاجة الى مزيد من التفصيل لنعرف :

أولا : لو أن أعداء الفروض فكروا بعمق في الوظائف التي حددناها للفروض لما قاومها أحد منهم لا أقل بهذه الشدة •

ثانيا : يجب التفرقة بين فرض نستخدمه عوضا عن البحث ، وفرض نستخدمه مقدمة للبحث ، (هؤلاء الذين يستنكرون استخدام الفروض والأفكار السابقة في المنهج التجريبي ، يخطئون عندما يخلطون بين اختراع التجربة ، وبين مشاهدة نتائجها ، ومن الحق أن نقول : انه لا بد من ملاحظة نتائج التجربة : بعقل مجرد من الفروض والافكار السابقة ، لكن يجب الحذر من تحريم استخدام هذه الفروض ، والافكار السابقة، فعلى العكس عندما يكون الامر بصدد القيام بتجربة ما ، وبصدد تخيل (واكتشاف) الوسائل التي تستخدم في الملاحظة ، فعلى العكس من ذلك ، يجب على المرء أن يدع خياله حراً ، ان الفكرة السابقة أساس لكل استدلال ولكل اختراع) (١) •

(١) المنطق ومناهج البحث ص ١٦٥ •

ثالثا : ان الفرض يكشف لنا عن الوسائل العلمية ، التي قد تنفعنا في اكتشاف الحقيقة ، والغريب أنه قد لا تنفع هذه الوسيلة في الكشف عن الحقيقة المطلوبة ، بل عن حقيقة اخرى لا تقل أهمية من تلك .

رابعا : ان العالم الباحث لا يمكنه أن يصبح خلــوا تماما من أي فرض ، حتى ولو قال ذلك اذ أن الفرض هو طبيعة ملازمة للفرد ووظيفة وضع الفروض ، هو طرد الفروض المتوغلة في عالم الخيال ، والاقتصار على الفروض العلميــة التي سيأتي تعريفها ، يقــول هنري بواتكاريه : يقال في كثير من الاحيــان : من الواجب أن يجرب المرء دون ان تكون لديه فكرة سابقة ، لكن ذلك ليس ممكنا ، وليس معناه فحسب أن تصبح التجربــة عقيمة ، بل معنــاه أيضا أن المرء يعجز عن التجرد من الفكرة السابقة ولو أراد ذلك (٢) .

خامسا : ليست الفروض الصحيحة ، هي التي تقودنا دائمــا الى الحقيقة ، اذ حتى الفروض الكاذبة نافعة أيضا ، فعلى العــالم أن يضع فرضا يبدو له بادىء الرأي أنه خاطىء ، يضعه ليتأكد من خطأه ، وحينئذ تبدو له احيانا صحة فرضه ، مع تعديل بسيط ، أو يهتدى ــ بسببه ــ الى حقيقة علمية جديدة ، وقد بين كلود برنارد مثــالا ، بيّن فيه كيف أرشدته بعض الفــروض الفاسدة ، الــى حقائــق علميــة كبــرى ، فانه أراد أن يعلم ما الذي يحدث لمختلف المواد الغذائية في أثناء عمليــة الهضم وجه اهتمامه بصفة خاصة الى مادة السكر لانها معروفة التركيب، ولامكان تتبعها في اثناء الهضم فأجرى بعض التجارب الخاصة ، بأن حقن دم حيوانات معينة بمحاليل من السكر ، ولاحظ ان السكر المحقون يظهر في البول ، مهما قلت كميته ، وأدرك أن العصارة المعوية ، تحول السكر وتغيره ، فتجعله قابلا للتمثيل ، أي للاستهلاك في الدم ، ثم أراد تحديد

(٢) المصدر ص ١٦٦ .

العضو الذي يتحول فيه السكر الى الدم ، (ففرض) أولا ان هذا العضو هو (الرئة) ، لأن علماء عصره كانوا يقولون : بأن استهلاك السكر يتم في أثناء ظاهرة الاحتراق اي في أثناء عملية التنفس لكن لم تلبث أن برهنت له بعض تجاربه على خطأ هذا الرأى ومع أن هذه التجارب لم تكشف له عن العضو الذي يستهلك فيه السكر فانها كشفت له عن ظاهرة جديدة وهي أن دم كل حيوان يحتوي على السكر ، ولو منع عنه الأكل مدة معينة من الزمن ، وكانت هذه الظاهرة مجهولة لدى علماء عصره ، بسبب آرائهم التي أولوها من الثقة ، أكثر مما يستحق ، فأقلع كلود عن جميع الفروض التي تتصل باستهلاك السكر ، واحتفظ بتلك الظاهرة الجديدة، واتخذها مادة لبحوث وكشوف عديدة ، فأجرى تجارب جديدة ، أثبتت له صدق ملاحظاته ، وأرشدته الى أن الكبد هو العضو الذي يتكون فيه السكر • وهكذا أدى به الفرض الباطل ، الى نظرية صحيحة ، لانه أثبت له بطلان فكرة ، وهداه الى فكرة جديدة تماما •

انواع الفروض

في أحاديث سابقة تبين لنا ان الفروض انواع هي :

أولا : الفروض العملية ، وهدفها افتراض حل للمشكلة العملية القائمة ، ومثاله ان الباحث الجنائي يزور منطقة الجريمة • فيحدد الظروف المحيطة بها ، ويفترض عدة فروض لفاعل الجريمة ، ثم يبدأ بتحقيقها عن طريق الكلب البوليسي ، او البصمات او ما أشبه ، وهذا النوع من الفروض ، لا تتسم كثيرا • بشروط وضع الفرض ، ولا بفوائده ، بالرغم من امكان ادراجها في الفروض العلمية •

ثانيا : الفروض الفلسفية •• وهي الفروض العامة التي تعالج : مشاكل علمية ، ذات طابع عام أيضا ، وهذه بدورها نوعان :

(الاول) الأفكار الفلسفية ، التي يمكن التدليل عليها ، من تجارب علمية او براهين عقلية ، وهذا نوع من الفروض العلمية الآتية .

(الثاني) الأفكار الفلسفية ، التي لا يمكن التدليل عليها ، وهذا النوع لا يُغني عن الحق شيئا ، بل يبقى عقبة في طريق فهم الحقيقة ، ومثاله الافتراضات الفلسفية ، حول الكون ، حيث كان قدماء المصريين، يفترضون ان الكون صندوق كبير سقفه السماء ، وقاعه الارض ، وفي السقف يوجد نهر كبير منه يسيل النيل ، وان الشمس موضوعة في زورق يجري في هذا النهر .

وهذا النوع من الفروض الفلسفية ، ليست فروضا بالمعنى السابق للفرض ، اذ الفرض هو الذي يمهد لمعرفة الحقيقة ، والفروض الفلسفية توضع في مكان الحقيقة وبديلا عنها !

ثالثا : الفروض العلمية : والفروض العلميـة هي التي تعتمد على المعلومات السابقة ، وتحاول الكشف عن معلومات جديدة وذلك بوضع فروض موقتة ، يمكن معرفة صدقها ، ولا بعد أن تجمع الشروط التالية :

أولا : يجب أن يستوحـي الفرض العلمي مـن كل المعلومـات السابقة ، حتى يكون فرضا ناضجا ، وسوف تحذف عدة فروض منـذ البـدء لأنها لا تستوفي هذا الشرط ، فلا يمكن الافتراض بأن الشمس تنكسف بسبب السحب الكثيفة في أعماق السماء ، لان العلم قد أثبـت ـ سلفا ـ بطلان هذا الفرض ، من هنا يقول كلود برنارد : ان الافكار التجريبية (الفروض) يمكن أن تولد اما لمناسبة ظاهرة نلاحظها ، واما على أثر محاولة تجريبية ، واما كنتيجة متممة لنظرية سبق التسليم بها ، ومن الواجب أن نلاحظ هنا أن الفكرة التجريبيـة ليست تعسفيـة ولا خيالية محضة فيجب أن ترتكز دائما الى الحقيقـة المشاهـدة أي الى الطبيعة [1] .

---

(١) المصدر ١٧٨ .

بلى : قد تكون فروض تعتمد على مقاييس عقلية واضحة دون الاعتماد على المشاهدة والتجربة وعلينا ان نفكر ـ مرتين ـ قبل ان نأخذ بها .

ثانيا : أن لا يكون واضح الخطأ ، وهذا الشرط تابع في الحقيقة للشرط السابق ، ذلك لان الذي يستمد فروضه من التجارب والعلوم السابقة ، يتبين له خطأ بعض الفروض سلفا ، انما يجب أن نضيف هنا : ان هناك نوعا من التفكير ، يسمى بالتجربة العقلية ، وهو يعني الافتراض عقليا ، ثم ترتيب الآثار المترتبة على الفرضية ، حتى اذا رأى المفكر صحة تلك الآثار او بطلانها ، لم يحتج الى التجربة ، واذا لم يعرف توسل بالتجربة لمعرفتها ، مثلا : اذا شاهد أحد وجود دخان كثيف في منطقته ، استعرض في فكره ، عدة فروض ، في مصدر الدخان ، انه ناشيء عن حريق ، او من مصنع ، او من شيء آخر ، ثم يقوم الفكر بالبحث عن آثار الحريق ، فان لم يجدها ، او وجدها ، عرف مدى صحة فرضه الاول والا قام بالبحث ، ليعرف طبيعة هذا الفرض ، وهكذا في غيره .

من هنا فان الواجب على من يضع فرضا : أن يختبره عقليا ، فاذا بقي لديه الشك في صحته ، توسل بالتجربة العملية ولكن عليه ان لا يبقى في نفسه الشك ، لمجرد (هواية الشك) ، وبالعكس لا يتوسل باليقين للتخلص من صعوبة التجربة . ولقد كانت افتراضات في السابق ، ثبت بطلانها ، كالفرضية القائلة بأن كل عضو يصنع كمية من الدم ، خاصة به، او ان القلب هو الذي يصنع دم الجسم ، اذ ان هذه الفروض ، أصبحت اليوم معروفة الخطأ ، فيجب ألا يعاد اليها . كذلك يجب الاطلاع ، أولا على جميع المعلومات المتصلة بموضوع بحثه ، ثم يبدأ في وضع الفروض، لكي لا يعالج فرضا باطلا بالمرة .

ويشمل هذا الشرط، ضرورة التعرف على نسبة الصحة في الفروض، فاذا وجد فرضا بعيدا جدا عن الحقائق العلمية ، فالافضل أن يتركه ، ولكن قد توجد مفارقة معينة ، هي أن بعض الفروض تبدو بعيدة ليس لأنها بعيدة فعلا ، بل لأنها مخالفة للرأي السائد ، لدى علماء العصر ، وهنا من الخطأ جدا حذفها ، او حتى الاستهانة بها ، فمثلا : (ظل الناس يعتقدون — الى عهد قريب — ان حرية الفرد هي العامل الاساسي الوحيد ، في تصحيح مسار الظواهر الاقتصادية ، والاجتماعية . ولما رأى بعض العلماء ، ان الظواهر تخضع لقوانين شبيهة بالقوانين الطبيعية لقي (فرضه) مقاومة عنيفة من مبدأ الامر ، ثم أخذت هذه المقاومة في الضعف ، عندما كشف الباحثون عن بعض القوانين الاقتصادية والاجتماعية [1] .

الصياغة العلمية للفروض

لأن الهدف الاساس من الفروض ، هو تسهيل البحث ، فان الفرض الغامض ، وغير المحدد ، لا يمكنه أن يحقق ، هذا الهدف ، من هنا وجب تحديد الفروض ، في صيغ واضحة ، ومميزة يمكن التحقق من صدقها ، والتردد الذي يبدو في بعض الفروض ، هو العامل في اسقاطه ، اذ انه يصبح مثل كلمات الدبلوماسيين ، يحتمل عدة أوجه ، بعضها صحيحة ، وبعضها باطلة ، وهذا يشكل أكبر خطر على العلم .

الاقتصاد في وضع الفروض

لا يمكن للفرد أن يتحقق من صحة فرضين ، في آن واحد ، ولذلك يجب أن يقتصد في وضع الفروض ، وأن يتدرج في التثبت ، عن مدى

---

(٢) المصدر ص ١٨٢ .

صحتها فرضا فرضا ، لأنه لو لم يفعل ذلك ، وجـد نفسه عـاجزا عن البحث عنها .

وعلى الباحث ان ينوع الفروض في أنـواع ، ويدمـج الواحـد بالآخر ، ليتمكن بالتالي ، من اجراء بحوث أولية فيها ، فاذا بلـغ مفترق الطرق قسـّم الفرض المندمج، الى فروض عديدة، وهكذا .. وقد قام كبلر بدراسة عـدة فروض ، حتى وصل الى نظريته الصحيحة ، في ان مدار الكواكب هو بشكل بيضاوي ، ولكنه لم يدرس فرضا الا بعد التأكد من بطلان الفرض السابق .

وبقيت لنا في الفروض كلمتان الاولـى : في مدى تأثير الفـروض ببصيرة التناسب والثانية في البحث عن مجموعـة فروض متناسقة والتي تسمى بالنظرية .

الفروض وبصيرة التناسب

منذ بداية المنهج العلمي وحتى نهايته ، اي منذ الملاحظة ، مرورا بالفرض وانتهاء بالتجربة ، تقف كل المناهج حائرة في انه كيف يتم فهـم السبب وربط الظاهرة به ، فمثلا في باب الفرض ، وكيفية وضعه ، يقول كلود برنارد : اننا لا نستطيع ان نضع قواعد للاختراع في العلم ، ولا ان نعلم القواعد التي يمكن ان تراعى في انشاء الفروض ، بحيث نأتي بفروض جيدة لان هذه المسألة فردية خالصة [1] . ويقول (الدكتور البدوي) : فنحن هنا بازاء ما يمكن ان يسمى باسم (التوسم) اي اكتشاف العلـة الحقيقية ، بطريقة لا تسير على اساس البرهان المنطقي ، او تبدأ مـن الظواهر مباشرة، وهذا التوسم، يتم بمران طويل ، وباعداد يختص بالنظام التحليلي لكل عالم على حده [2] . وهذا القول صحيـح نسبيا ، اذ ان

(1) و (2) عبد الرحمن بدوي مناهج البحث العلمي ص ١٤٨ .

وضع الفروض ، نابع من الحدث القوي ، وهو لا يخضع لنظم دقيقة ، ولكن لا يعني هذا عدم وجود اية فكرة عن طبيعة الحدث ، وعن طريقته في وضع الفروض ، او حتى في معرفة القوانين العلمية ، انما يعني : اهمال المنهج الحديث ، لهذا الجانب ، وهو اهمال مضر جدا اذ انه مرتبط باهم حلقة في سلسلة المنهج التجريبي ، وهي : البصيرة الذاتية ، التي بدونها لا تنفع الاساليب ، انى كثرت وتنوعت • فما هي طريقة الفرض الصحيح وما هي العوامل الذاتية التي تؤثر فيه ؟

اولا ــ سبق الحديث عن الذوق الفطري ، والحدث السليم ، وهناك قلنا : ان الحدس السليم ، يعتمد على عاملين اساسيين ، اولهما هضم المعلومات السابقة بشكل جيد ، ودمجها الى بعضها ، وكثرة النظر فيها ، وفي الصلة ، بين بعضها والبعض الآخر • والثاني الثقة بالعقل ، والجرأة في النظر ، وهذان الامران يرتبطان بالفرض ايضا •

ثانيا ــ من القواعد الاساسية، في الفكر البشري، هيقاعدةالتشابه، او التناسب ، فبهذه القاعدة ، يكشف الانسان كثيرا من الاسرار ، وهذه القاعدة ، تعني ان الشيء يتفاعل مع اي شيء آخر ، يعطيه ويأخذ منه ، ضمن محور التناسب ، فالكبير يعطي كثيرا ويأخذ كثيرا والصغيربالعكس، والحار يولد الحرارة والبارد البرودة ، وهكذا •• والذي يوجد في زمان معين ، لا بد ان يتفاعل مع ما يتناسب معه ، فبهذه القاعدة مثلا نعرف ان هذه الحرارة وليدة هذه النار لانها تتناسب في حجمها ، وقوتها ، وزمانها و • واشياء اخرى مع النار • واذا راينا ريشة سقطت في البحر ، لا نفكر ابدا في ان تكون هي العلة في احداث امواج البحر ، اذ ان الظاهرتين لا تتناسبان ، وليس التناسب في اشياء معينة فقــط ، انما بصيرة الانسان مزودة بقدرة على معرفة التشابه ، بين ظاهرتين وبالتالي : معرفة ارتباطهما ببعضهما ، وبصيرة التناسب هذه هي حجر الزاوية ، في الكشف عــن

السنن الكونية ، وهي قد تهدينا بشكل غامض ، فتولد فروضا وقد تهدينا بصورة جازمة ، فتولد التعميم والقانون العلمي ، وعلى الفرد ان ينمي في نفسه هذه البصيرة ، ليستطيع وضع فروض جيدة ، فقبل (اختراع) الفرض ، يوجه اهتماما مركزا الى ما يشاهده في الخارج ، ويفكر كثيرا في ارتباطها ببعضها ، وعلاقاتها الداخلية ، وبعد تركيز تام تفتح بصيرته ، ويضع فرضا ، وغالبا يكون فرضه صحيحا .

من هنا لا يكون وضع الفروض نابعا من الالهام وحده . بل مرتبط بالتركيز ، في المعلومات ، من زاوية علاقاتها ببعضها ، والبصيرة هذه مركبة من عدة عناصر اليك بعضها .

١ ـ ان كل شيء مرتبط بسنة فطرية لا يحيد عنها ، وهذا يدعونا الى البحث عن تلك السنة ، والقانون المرتبط بها ، وتدعى بالجبرية العلمية .

٢ ـ ان هناك تماثلا كاملا بين سنن الحياة ففي المجرة مثلا ، تتحكم ذات السنن ، التي تسود الذرة ، وكما قال الامام علي : ان خالق النحلة هو خالق النخلة ، وهذا ينفعنا في الاستلهام ، مما نعرف من سنن الحياة لاكتشاف ما لا نعرف .

٣ ـ ان هناك اتصالا زمنيا ومكانيا بين الظواهر المتفاعلة ، اذ ان الحياة لا تعرف الطفرة ، فلا يدع الماء ـ مثلا ـ الشاطىء المجاور له ليبلل تراب الصحراء البعيدة . وهذا الاتصال يفسر لنا كثيرا من انواع التناسب ، في ظواهر الكون ، فمثلا حينما نريد ان نعرف كيفية حدوث ظاهرة من الظواهر الضوئية ، يجب ان نبحث عن الخط الموصل بين سبب الضوء والشيء المضاء به .

هذه بعض القواعد التي تستلهم البصيرة منها وضع الفروض وهناك ـ بالطبع ـ قواعد اخرى اشرنا الى بعضها سابقا .

بين النظرية والفرض

لم يبحث المناطقة هنا عن النظرية ، ولكن يبدو البحث عنها ضرورية لانها هي مرحلة متقدمة من الفروض ، اذ ـ بعد ان يتكون عند الباحث مجموعة من الفروض التي يضعها لتفسير المشاهدات ـ يأتي دور النظرية ، وعلينا ان نلقي ضوءا عليها لانها تخدم المنهج التجريبي كثيرا [1] ويشمل حديثنا بالترتيب . تعريفها وتركيبها ووظائفها .

الف ـ تعريف النظرية

الفرض ، كما سبق ، هو صياغة علاقة مفسرة لعدة ملاحظات متنوعة والنظرية تقوم بذات الدور الا ان موضوعها هي الفروض من هنا كانت حقيقة النظرية (مجموعة من المتواضعات [2] خلقها صاحب النظرية) وهنا يعني ان صاحب النظرية يبدعها ، كما يبدع صاحب الفرض فرضه الا انه (يجب ان تتضمن النظرية : مجموعة من الفروض ، ذات الصلة بموضوعها ، يرتبط بعضها بالبعض الآخر ارتباطا منظما ، كما يجب ان تتضمن مجموعة من التعريفات التجريبية) .

ب ـ تركيبة النظرية

وهذا التعريف او التفسير يسمح لنا بمعرفة تركيبة النظرية الداخلية وهي :

١ ـ لا يمكن ابداع نظرية ، قبل وجود فروض مفسرة،لمشاهدات،

---

(١) اعتمدنا في هذا الفصل على مقدمة كتاب نظريات الشخصية للمؤلفين ك ـ هول . وج . لندزي ـ ص ٢٣ ـ الى ص ٢٩ وما وضعنا . بين قوسين في هذا الفصل فهو منقول عن هذا المصدر .

(٢) اي مجموعة فروض اخذت على شكل مسلمات ، كأنها حقائق فعلا وبتعبير آخر مجموعة افكار اخذت على انها مسلمات .

او تجارب ، اذ ان موضوع النظرية هـو الفروض ، فهي تفسير لهـذه الفروض لا اكثر .

٢ ــ وجمع الفروض الى بعضها لا يكفي في وضع النظرية ، بل لا بد من (ايجاد) علاقة تفسيرية بينها ، وهذه العلاقة هي من صنع واضع النظرية ، وليست مدلولة للتجارب مباشرة ، والا سميت قانونا علميـا لها نظرية فـ (يجب ان تكون هناك قواعد ، للتفاعل المنظم ، بين الفروض، ويجـب لكي يتوفر للنظريـة التناسق المنطقي ، ولكي تسمح بعمليـة الاشتقاق ، ان تكون هذه العلاقات الداخلية واضحة ، وبـدون هـذا التحديد النوعي يصبح ، من الصعب ، او المستحيل استخلاص نتـائج تجريبية من النظرية) وكمثل على نوعية العلاقة التي يجب توفرها فـي النظرية بين فرضين او عدة فروض نقول (ان المرء يستطيع ان يفترض : ان ازدياد القلق ، سيـؤدي الى انخفاض الاداء الحركـي ، ويمكـن ــ بالاضافة الى ذلك ــ ان يفترض ان ازدياد تقدير الذات ، سيؤدي الى تحسن في الاداء الحركي) هذان فرضان ولكنهما لا يشكلان نظرية اذ اننا (اذا لم نعرف شيئا اكثر من ذلك ، فان العلاقة بين هذين الفرضين ، ستكون ــ كما هو واضح ــ غير محددة ، اذ اننا نحتاج الى معرفـة شيء ، عن العلاقة بين القلق وتقدير الذات ، قبل ان نستطيع القيام، بأي تنبوء بما يمكن ان يحدث ، في ظل ظروف يدخل فيها المتغيران) القلـق وتقدير الذات ، من هنا يمكننا ان نقرر (ان الصياغة الكافية للفروض النظرية ، يجب ان تزود مستخدم النظرية ، بتحديد واضح للعلاقة بـين هذين الفرضين) .

٣ ــ لان الهدف من النظرية ، هو كالهدف من الفرض ، تمهيـد السبيل الى مزيد من البحث ، فان الوضوح هو امر هام في وضع النظرية، لذلك يجب ان تشتمل النظرية ، على تعريفات واضحة جدا (وكثيرا مـا

تسمى هذه التعريفات ، بالتعريفات الاجرائيــة) في مقابل التعريفــات النهائيــة (اذ انها تحاول ان تحدد العمليــات التي يمكن بها ، قيــاس المتغيرات) (واذا كانت النظرية ، ستسهم في نهاية الامر ، في علم تجريبي، فلا بد ان تتوفر لها طريقة ، للترجمة التجريبية) •

ج ــ وظائف النظرية

وليست هذه التي سنذكرها فقط وظائف النظرية ، وانما هي ايضا، شروط النظرية ، اذ النظرية التي لا تؤدي هذه الوظائف ، ليست نظريــة ابــدا •

وهي ــ اولا ــ كما الفرض ــ تقوم النظرية بتسليط الانوار على مناطق مظلمة من الموضوع ، وتوجه الانسان الى ملاحظة علاقات لــم تلاحظ من قبل •

(ان جوهر اي علم ، يكمن في اكتشاف علاقات تجريبية ثابتة ، بين الوقائع ، والمتغيرات ، ووظيفة النظرية ان تدفع خطى هذه العمليــة ، بطريقة منظمة) •

و (في الحالة التالية ، تسمح النظرية باشتقاق فروض نوعية، قابلة للاختبار ، وهذه بدورها تؤدي الى دراسات تجريبية نوعية) • ومــن هنا نعرف ان اهم صفة تتسم بها النظرية هي توجيه الباحث الــى مسار البحث والسماح له بمزيد من التجربة ، ولذلك من هنا فلا بد ان تكــون النظرية ممكنة التجربة او الاستدلال ، ولا تكون كالنظريات الفلسفية، التي لا يمكن قياسها ، او تقييمها •

ثانيا : لان النظرية هي مرحلة معينة من البحث ، فلا بد ان تكــون هناك تجارب سابقة عليها ، وتجارب لاحقة بالنسبة الى التجارب اللاحقة، لا بد ان تكون النظرية هادية اليها ، مثيرة للدواعي الى التثبت عنهــا ،

وبالنسبة الى التجارب الماضية يجب ان تكون جامعة لها ، ومستوحاة منها (ان النظرية وسيلة لتنظيم وتكامل ، كل ما هو معروف عن مجموعة متصلة من الوقائع ، فالنظرية الكافية » للسلوك الذهاني « يجب ان تكون قادرة على تنظيم كل ما هو معروف ، عن الفصام ، وغيره ، في اشكال الذهن ، في اطار مفهوم ومنطقي ، كما ان نظرية التعلم الكافية يجب ان تتضمن بطريقة متناسقة ، جميع النتائج الموثوق بها ، والتي تتناول عملية التعلم ، ان النظريات تبدأ دائما ، بذلك الذي تمت ملاحظته وتقريره) .

ثالثا : لان النظرية ، تقوم بجمع الوقائع ، الى بعضها ، في علاقة متبادلة ، فانها تنظم هذه الوقائع ، في خطوط معينة ، وهذا التنظيم ، ينفع الباحث في القدرة ، على الملاحظة ، اذ لو كانت المشاهدات ، او الفروض ، غير منتظمة ، احتار الباحث بينها ، وتعقد بسببها (بينما تسمح النظرية للملاحظ القيام بالتجربة من التعقيد الطبيعي بطريقة ، تتسم بالكفاية ، والتنظيم) . من هنا : لا تكون النظرية نافعة ، الا اذا كانت ، ذات وضوح كامل ، خصوصا فيما يتصل بالفروض ، التي يجب التجربة فيها ، وكلمة اخيرة النظرية تتسم بطابع اجرائي ، بمعنى انها ليست صادقة او كاذبة ، بل نافعة او غير نافعة ، وبقدر ما تفيدنا النظرية ، في فتح مجالات جديدة للبحث ، تكون نافعة (ان النظرية ، اما ان تكون مفيدة فقط ، او غير مفيدة فقط ، ويتحدد ذلك اساسا كما سوف نرى طبقا لمدى كفاءة النظرية ، في توليد التنبؤات ، او القضايا المتعلقة بالوقائع الهامة ، والتي يثبت التحقق منها) .

القسم الرابع عن مناهج الاستقراء

البحث الرابع عن :

التجربة

- كلمة البدء
- التجربة والعقل
- اسس التجربة
- بين التجربة والملاحظة
- التجربة بين التحديد والارتجال
- التجربة السلبية
- التجربة الموضوعية
- مفارقات التجربة
- طرق التجربة
- لوائح بيكون ومناهج مل
- منهج الاتفاق
- منهج الاختلاف
- طريقة التلازم في التغيير
- طريقة البواقي

بعد وضع الفرضية ، علينا ان نبحث عن الوسيلة ، التي تتحقق بها من صحتها ، وقبل ان نستعرض هذه الوسيلة يجب ان نعرف .

اولا : ان أقرب وسيلة للتحقق من فرض ، هو افساد كل الفروض المحتملة ، المضادة له ، بحيث يبقى الفرض، هو السيد الوحيد في الموقف، ولكن هذا الاسلوب لا يمكن اتباعه في كل الحالات ، لصعوبة اثبات بطلان الفروض ، الممكنة جميعا .

ثانيا : لا ينفعنا في اثبات فرض ، دلالة بعض الظواهر عليه اذ قد توجد ذات الظواهر في فرض آخر مضاد له ، بل يزيد عليه ، مثلا : هل يكفي وجود تشابه بين شخصين ، على بيان ان احدهما والد الآخر ، لا لانه قد يوجد تشابه اكثر ، بين احدهما،وشخص ثالث ، وهكذا .. تكون العبرة ، بالحالات المضادة للفرض (اذ ان حالة سلبية واحدة ، تكفي في البرهنة ، على فساده — الفرض — في الوقت الذي تعجز فيه حالات ايجابية عديدة ، عن اثبات صدقه [1] .

اللهم اذا كانت الآثار واضحة الدلالة ، بشكل لا يقبل الشك .

ثالثا — ولهذه الجهة — فعلى الفرد ان يثير — في نفسه الشك —

---

(1) المنطق الحديث ومناهج البحث ص ١٨٦ .

في دلالة الظواهر بحجة امكانية وجود دلالة ثانية لذات الظواهر لتـــدل على فرض مختلف عن فرضه •

رابعا ــ الحديث القادم يبحث عن طريقة تحقيق الفروض عن طريق التجربة الخارجية ، اما طرق تحقيقها بالسبل العقلية ، فالحديث عنهـا مرتبط بالمنطق القياسي الذي بحثناه في فصل آخر من هذا الكتاب •

التجربة والعقل

وضع المناطقة ، مناهج للاستقراء ، وعلينا ان نلقي نظرة عامة عليها، قبل ان نخوض في التفاصيل • ذلك لكي نعرف مدى قيمة هذه المناهج، فنكون افضل استخداما لها ، وفي البدء نعيد الى الذهن : ان التجربـة ذاتها معتمدة على العقل وهي لا اكثر من مجرد (اثارة للبصيرة العقلية ، ولذلك تصبح كل المناهج التالية ، خالية من القيمة الاساسية لها ، بـل وعقيمة ايضا اذا لم يتزود الفرد ، بتبصر عقلي ، وانفتاح ذهني ، مثـلا : طريقة البواقي هل نستطيع الاعتماد عليها ، كليا ، ودون الاعتماد عـلى العقل ؟ بالتأكيد لا ، كما سيأتي انما يجب الاعتماد على بصيرة التناسب العقلي وانما بطريقة البواقي نقوم باستجلاء هذه البصيرة ، واثارتها •

اذا الاعتماد الاعمى على هذه المناهج ، خاطىء ، انما يجـب ان نجعلها وسائل لاستثارة العقل فقط • بعد هذه التقدمة يأتي السؤال ما هي التجربة ؟ وما هي اسسها •

اسس التجربة

التجربة ــ كما نعلم ــ تدخل بشري في ظروف وقـوع الظاهرة ، وهـذا التدخل ، يتم عن طريق تغيير في هـذه الظروف ، ثم ملاحظـة

التطورات ، بوعي كامل ، فاساس التجربة ــ اذا ــ هو تطوير الظروف وتغييرها • والتغيير يتم بعدة طرق •

١ ــ تغيير مصدر الظاهرة ، من مصدر الى مصدر آخر ، وذلك مثل ان نبحث عن الحرارة فننوع مصادر الحرارة من الشمس ، الى النار ، الى حرارة الكائن الحي ، وهكذا •• وهناك نعرف الصفات العامة للحرارة التي لا ترتبط بتنوع مصادرها ، ويدعى هذا ، بقائمة الحضور ، اي حضور الظاهرة بحضور مصدرها •

٢ ــ تغيير في مصدر الظاهرة ، من مصدر الى عكس المصدر ، اي ملاحظة الظاهرة في حالة وجود ذلك المصدر ، وعدم وجودها ، مثل ملاحظة الحرارة ، في حالة عدم وجود الشمس ، او عدم وجود النار ، وهكذا •• وهذا يدعى بـ (قائمة الغياب) •

٣ ــ تغيير المصدر ، من ناحية الشدة ، او الضعف ، مثل ــ قياس الحرارة ، مع استمرار النار ، او مع شدتها ، او ضعفها ، او ما اشبه ، مما يمكن تغييره ، في مصدر الحرارة ، ثم قياس مدى الاختلاف الذي ينشأ في الظاهرة ، مع هذه التطورات وهذا يدعى بـ (قياس المتغيرات) •

٤ ــ التغيير في محل المصدر ، مثل قياس حرارة الشمس ، في اعلى الجبل ، او في اسفل الوادي ، وهكذا مما يمكن تغييرها بسببه •

٥ ــ تغيير اي ظرف آخر متصل بالمصدر ، او متصل بالظاهرة ، ثم ملاحظة ما اذا كانت الظاهرة مرتبطة بالمصدر، ام لا ومشاهدة نوعيةهذا الارتباط ، ومدى قوته وضعفه ، من هنا نعرف ان تنويع الظاهرة ، ومشاهدات التغييرات التي يطرء عليها ، بسبب هذا التنويع ، هو اساس التجربة • (ومن هنا نجد ان كبار العلماء حينما ارادوا ان يتأكدوا من صحة ما افترضوه من صلة العلية بين مقدمات ونتيجة ، حاولوا ان ينوعوا التجارب • كما نصح بذلك بيكون من قبل •

فكانوا يستخدمون مواد مختلفة ، حتى لا يكون لهـذه الامـور العرضية ، دخل في احداث الظاهرة ، فجيليو في بحثه لقانون سقـوط الاجسام ، قد استخدم اجساما من الحديد ، والنحاس ، والعـاج الـخ ونيوتن في تجاربـه على البندول ، قد استخـدم انواعا مختلفة مـن البندولات ، من الفضة ، والنحاس ، والمعدن ، وكل هذا من اجل ان لا تكون الظاهرة قد حدثت لاسباب عرضية اخرى تتعلق بالمادة .

بين التجربة والملاحظة

بين التجربة والملاحظة فرق بسيط هو ان الملاحظة ترقب لظـاهرة طبيعية ، بينما التجربة ترقب لظاهرة يصنعها الانسان وهذا الفرق هـو الذي يجعل التجربة اقرب الى النتيجة العلمية ، وذلك لانها تتميز بعـدة سمات :

١ ــ لان التجربة ، هي (صنع) الظاهرة ، ولان الباحث لا يصنع ظاهرة ، الا لهدف علمي مجرد ، وهـو الكشف عن شيء معين ، فـان التجربة تتم على عينات قريبة جدا الى موضوع البحث ، فالملاحظ ،مثلا يراقب بدقـة البرق ، والمجرب يصنع الشرارة الكهربائيـة والملاحظ لا يستطيع ان يرى البرق وحده ، ودون ان يدوخه صوت الرعد ، كمـا لا يمكنه ان يمدد وقت البرق ولا ان يراه في وقت يتناسب مع ظروفـه ، وحالاته ، بينما المجرب يستطيع ان يصنع الشرارة وحدها ،وبدون ازعاج الرعد ، وان يمددها ويوقتها بزمن يتناسب معه ، وتحديد الهدف ، اهم ميزة للتجربـة ، ولذلك تكون التجربة التـي لا هدف لهـا اشبه شيء بالملاحظة :

٢ ــ الملاحظة مراقبة فوقية للظاهرة المركبة ، مـن دون نفوذ الى

عناصرها الذاتية الداخلية ، فهي لا تستطيع تحديد هذه العناصر بالدقة ، ولا مدى تأثير كل واحد منها ، في صنع الظاهرة ، فمثلا لا يستطيع المرء بملاحظة حالة الثورة في البلد : ان يعرف مدى تأثير العامل الاقتصادي فيها ، او اي عامل آخر ، انما يستطيع ان يفهم : صفات الثورة الخارجية.

بينما التجربة تحلل كل ظاهرة (مما يمكن تحليلها) الى عناصرها الذاتية ، وكانها دراسة من الداخل للظاهرة ، وبعدئذ تتعرف على نسبة كل عنصر في تكوين الظاهرة ، فمثلا : يستطيع المجرب تحليل الماء الى عنصريه ، وتحديد نسبة كل عنصر الى العنصر الثاني ، وذلك كمقدمة لمعرفة خواص كل عنصر منهما . وبكلمة : التجربة دراسة من الداخل لعناصر الظاهرة وتحديد لنسبها وصفاتها .

٣ ــ وكما تستطيع التجربة تحليل الظاهرة تستطيع تركيبها ، ولكن ليس بالشكل الطبيعي ، وذلك بهدف الوصول الى عناصر جديدة بالمرة من طريق التجربة ، استطاع الانسان ان يؤلف بين النحاس والقصدير والرصاص ، ليصنع معدنا جديداً هو (البرونز) واستطاع الانسان ان يصنع ملايين التركيبات الكيمياوية ، ذات الآثار المتنوعة .

٤ ــ والوقت الذي تختاره للتجربة ، هو الوقت الذي يناسبك ، بينما وقت الملاحظة يناسب الطبيعة ، لانها هي التي تصنع الظاهرة ، كما ان المدة التي تستغرقها الظاهرة ، والمكان ، وسائر السمات ، لا يمكن التحكم فيها في الملاحظة بعكس التجربة ، مما يجعل الفرق بينهما كبيرا في النتائج ، اذ ان الملاحظات تسبب في تدخل الاوضاع الشخصية للباحث في نتائج ملاحظته ، بعكس التجربة ، وبذلك : (نتائج الملاحظة تختلف باختلاف الملاحظين لانهم ليسوا سواء في قوة حواسهم ، وسرعة خاطرهم، وفي القدرة على فهم ما يلاحظون ، او تأويله تأويلا علميا صحيحا) .

ولكن مع ذلك تحتفظ الملاحظة ، بقيمها البحثية في امرين ، الاول: ان التجربــة لا يمكن حصولها في بعض العلــوم كالسياسة والفلــك والاقتصاد ، الثاني : ان دراسة الظاهرة الطبيعية ، دراسة حية ميدانية ، ولذلك فهي توحي الينا بروح الطبيعة والتي تحمل اكثر من مجرد فهــم لنقطة واحدة ، بل فهم شامل لمسيرتها العامة ، وبذلك يحتاج البــاحث القدير الى الملاحظة ، لشمولها وحيويتها، ويحتاج الى التجربة لموضوعيتها ودقتها ، وهما بالتالي ــ كجناحي طائر •

التجربة بين التحديد والارتجال

اذا لم تكن لديك فرضية سابقة ، تريد التعرف : عــلى مــدى صحتها ، كانت تجربتك ارتجالية لأنها لا تهدف تحقيق : اي شيء معــين فالتجربة المرتجلة هي تدخل في الطبيعة ، لرؤية آثارها انى كانت وهــذه التجربة تفيدنا في مرحلة ما قبل البحث ، حيث نحتاج الى وجــدان راس الخيط ، في عملية البحث ، (فبالتجربة نخلق اضطرابا في الطبيعة ، قــد توحي الينا بفكرة جديدة ، وتهدي خطانا بالتالي الى الحقيقة !• وكثــيراً ما تستخدم هذه التجربة في علم وظائف الاعضاء ، وعلم الطب وعلــوم الحياة بصفة عامة ، فمثلا قد نقطع بعض الاعصاب ، من معدة حيــوان ، لرؤية التغييرات التي تترتب على ذلك ، في وظيفة الهضم ، وللمقارنة بين عمليــة الهضم في حالة طبيعية ، وبينها في حالة غير طبيعية) [1] ومن هنا نعرف ان التجربة المرتجلة ، ضرورية لمرحلة سابقة على مرحلة التجربــة المحددة ، اذ ان الاولى ، تعطينا فكرة غامضة عن الموقف ، والثانية تقوم بشرح غموضها ، واستيضاحها• من هنا كانت التجربة المحددة سلفاافضل من غيرها وقد قال احد العلماء: لا ريب في انالتجربة المرتجلةتستخدم في كثير من الاحيان كما لو كانت ضربة مسبر ، في عــالم المجهول ، لكن من

---

(٣) المصدر ص ١١٨ •

الواجب الا توجه هذه الضربة ، الا بناء على فكرة سابقة توجه العالم في بحثه ، كذلك يجب على المرء الا يجرب ابدا جريا وراء الصدفة ، اي لرؤية ما قد يترتب على التجربة اذ في ذلك ، القضاء على التفكير التجريبي [1].

التجربة السلبية

الحالات الاستثنائية التي توجد في الطبيعة ، ذات قيمة علمية كبيرة، اذ انها تبين لنا : طبيعة العوامل ، التي قد يؤثر الواحد منها ايجابيا او سلبيا ، في الظواهر ، فحالة الثورة في بحوث الاجتماع ، وحالة المرض في الجسم ، وحالة الوباء في البيئة ، حالات استثنائية تفيد الباحثين كثيرا ، ولكن بشرط سلامة الطريق المستخدم لدراستها ، وهي :

١ ــ مراقبة حدوث الظاهرة الاستثنائية ، والخط البياني لتصاعدها والاعراض التي تصاحبها .

٢ ــ مراقبة جميع الظواهر المحيطة بها ، والتي قد تؤثر بشكل من الاشكال في الظاهرة .

٣ ــ دراسة المناطق او الاوقات التي تخلو من هذه الظاهرةالشاذة، وتسجيل السمات البارزة فيها ، والتي قد يمكن ان تكون مانعة عنها ، ومثال هذه التجربة : (ان الطبيب يلاحظ انتشار مرض الوباء في قطر من الاقطار وهذه ظاهرة شاذة يمكن الاستفادة منها ــ ولكن كيف يتم ذلك ــ في البداية يجب مراقبة حدوث الظاهرة وتسجيلها ، والخط البياني لاعراضها ، وبعد هذه المراقبة لا بد من فحص بعض المرضى ، والظروف المحيطة بهم ، والتي تساعدنا على البند الثاني ، وهو مراقبة الظواهر المحيطة بالظاهرة من ظروف صحية [2] (كنقص في بعض المواد

---

(١) المصدر ص ١١٥ .

(٢) المصدر ص ١٣١ .

الغذائية) او اوضاع جوية ، وهنا يتم ربط الظاهرة ببعض الظواهر فمثلا بين الوباء وبين اشتداد الحرارة او الرطوبة ولكن الخبير الباحث ، لا يقتصر على تسجيل هذه الظواهر ، بل يدرس المواقع التي لا وباء فيها ، ويقيس درجة حرارتها ، وحالة اهلها الصحية ، وما اشبه ، وهذا البند الثالث هو الذي يلحق هذا البحث ، بالتجربة ، بالرغم من انها تشبه الملاحظة ، والسبب هو ان الانتقال ، من محل الى آخر ، ودراسة اناس مختلفين ، يشبه تدخلا في الطبيعة ، وظاهرة الوباء حالة شاذة في مجال الصحة ، وتشبه ظاهرة الثورات في المجتمعات ، التي تمر دراستها بذات المراحل الثلاث الماضية ، ومثلها ظاهرة العقد النفسية ، في علم النفس ، والتي يعالجها فرع خاص في هذا العلم يسمى بعلم النفس التحليلي .

التجربة الموضوعية

كيف تكون التجربة موضوعية حتى تكون سايمة ومنتجة ؟ بالضبط عندما تكون خالية من عوامل الخطأ النفسية ، والاجتماعية ، والمصلحية، والمنهجية ، والمادية . فالتجربة التي يقوم بها الفرد في ظروف نفسيةشاذة، والتجربة التي تتم لاثبات نظرية مختارة سلفا ، والتجربة التي يبتغي الشخص من ورائها اهدافا مصلحية كالشهرة والثروة مثلا ، والتجربة التي لا تكتمل فيها الشروط المنهجية ، او المادية (كالوسائل العلمية) هل يمكن ان تكون هذه الانواع من التجارب ناجحة !؟

وبالتالي : لا تكون التجربة موضوعية ، ومفيدة ، الا اذا استعرض الباحث ، جميع الظروف ، والظواهر المحيطة بتجربته ، واحصاها احصاء اذ قد تكون هناك ظاهرة تخفى عليه ، وتكون ذات قيمة علمية في بحثه .

ويجب ان يحصر انتباهه في تسجيل النتائج التي تؤدي اليهاتجربته، ويحدد الظروف التي يجري خلالها تجربته ، حتى لا تكون ذات اثر عكسي عليها ، ويجب ان يجمع بين دقة الملاحظة ووفرة المعلومات ، اذ لا

تغني الواحدة عن الاخرى (ويجب على الباحث ان يعرف كيف يروض هواه ، وهذه المرونة جزء جوهري من حسن السياسة في العلم كذلك . يجب عليه ان يتصف – الى جانب ذلك – بقليل من الاعتزاز بالنفس ، وكثير من الاحتقار للغرور [1] .

ويجب ان يكون عنده حسن الاستماع الى الطبيعة حين تتكلم ، ذلك لان المجرب يوجه اسئلته الى الطبيعة ، ولكن بمجرد ان تتكلم الطبيعة ، يجب عليه ان يلزم الصمت ، وان يلاحظ ما تجيب به ، وان يسمعها في النهاية، وان يخضع في جميع الحالات لما يمليه عليه . يقولون : يجب على المجرب ان يقهر الطبيعة حتى تكشف له عن اسرارها لا ريب في ذلك ، لكن يجب عليه ان لا يجيب مطلقا بدلا عنها .

مفارقات التجربة

واذا كان اساس التجربة مبنيا على معرفة التغييرات التي تطرء على الظاهرة ، بسبب تغيرات في ظروفها المحيطة بها ، فان هناك مواقع للالتباس ، تنشأ في التجربة (ونسميها بالمفارقات) وهي تنشأ من عدة امور :

١ – من الجمود الفكري ، الذي سبق وسيأتي بعض الحديث عنه. والذي يعني ان نستعيض عن التفكر والبصيرة العقلية ، بالمناهج ، اذ ان هناك سننا عقلية (بصائر قلبية) او بتعبير آخر ، مناهج يعتمد عليها العقل ، يجب ان لا نستخف بها في بحثنا عن الدقة ، فيكون مثلنا مثل ذلك الذي يهتم بالانهر ، ولا يهتم بالعيون ، وانما كان اهتمامه بالانهر لانها تحمل اليه مياه العين ، كذلك المناهج ، انما هي نتيجة استثارة العقل.

---

(١) المصدر ص ١٣٢ عن (رينيه لوريش) .

وهي استنباط لبعض قوانين العقل ، في معرفة الاشياء ، ولا يجوز لنا الجمود عليها ، ونسيان عقولنا ، انما يجب ان نستفيد منها ، في اغناء عقولنا واذكاء نورها ، وبصيرتها ، وبذلك تكون المناهج ذات روح وذات نفع كبير •

٢ ـ ان الظاهرة الواحدة ، قد تكون وليدة عدة مصادر ، فتكون حرارة اليد ـ مثلا ـ وليدة نور الشمس ، وحرارة المدفئة ، وحرارة الدم وهنا ، حين يتغير مصدره ، كما اذا غابت الشمس مثلا ، تبقى الحرارة موجودة ، فلا يجوز لنا اذا : ان نحكم مطلقا ، على انه اذا فقدت الشمس ، وبقيت الحرارة ، فان ذلك يدل على ان الشمس ، لم تكن مصدرا للحرارة •

او قد يكون هناك مصدر واحد ، سببا للظاهرة ، ولكنا ـ حين نعدمه ـ يأتي مصدر ، آخر ، فيجلس مكانه ، ظاهرة التكلم ـ مثلا ـ مصدرها في المخ هو (بروكا) ولكن من آيات الله انه حين نزيل (بروكا) تقوم سائر خلايا المخ مقام (بروكا) مما جعل العلماء في حيرة لفترة من الوقت ، اذا لا يمكن الاعتماد كليا على قائمة الحضور والغياب ،ومعالجة هذه المفارقة ، ممكنة بملاحظة درجة الحرارة شدة وضعفا ، ومن ملاحظة سائر الظروف المحيطة ، بحذر ووعي • فمثلا طبيعي انه اذا فقدت الشمس تقل حرارة اليد في المثل الاول ، الا اذا ارتفعت حرارة الجسم فجأة ، وهذا اذا حدث يمكن مراقبته ، ومعرفته ، بالقياس الى سائر الاعضاء مثلا • وفي المثل الثاني ، يمكن تمييز حالة الانسان الذي لم يقطع منه العضو (بروكا) ، وحال غيره في قدرته التامة على الكلام ، او عدم قدرته التامة ، وبالتالي نستطيع معرفة مدى تأثير الظاهرة ، على كافة الظروف المحيطةبها ، بالقياس الى بصيرة التناسب ، التي زود العقل بها •

وعندما نتحدث عن مناهج البحث عن ما نعرف ان اكثر تلك المناهج، قد تعرضت لنقد العلماء ، بسبب تشابك العلل والاسباب ، ولكن عن طريق الانتباه الشديد ، يمكن رفع هذا الاعتراض ، وحل التشابك ، ومعرفة الاسباب الحقيقية ، للظاهرة •

٣ ــ لا تنفع التجربة في الاغلب في مجال التعرف على العلاقة السببية ، بين الشيء والاخر • وانما فقط في معرفة (وجود علاقة) سواءا كانت سببية او غير سببية ، ذلك لان اكثر المناهج التجريبية ، قد جاءت على اساس العلم الحديث ، الذي لا يهتم كثيرا بوجود علاقة سببية ، بل وجود علاقة ما (كما سبق في بداية الكتاب) ••

ومن هنا فلا يحق لنا ان نسعى وراء فهم السببية من اتباع هذه المناهج !!

بعد هذه المفارقات لا بد ان نلقي ضوءا على جوهر مناهج البحث التجريبية •

طرق التجربة

الطرق التي تسمى عادة ــ (التجريبية) ثلاثة : طريقة القياس،وهي التي تساعد على فهم الظاهرة بالقياس الاستدلالي ، وهذه الطريقة نوعان نوع يعتمد كليا على القياس ، وهذا يدخل ضمن المناهج القياسية (في مقابل المناهج التجريبية) ونوع لا يعتمد كليا على الاستدلال ، بل على المزيج منه ، ومن التجربة ، وهذا ما يأتي الحديث عنه ان شاء الله هنا •

٢ ــ طريقة الاستقراء • وهي الطريقة التي سوف نتحدث عنها في البداية ، وهي من صميم المناهج التجريبية •

٣ ــ طريقة التحليل ، والتركيب ، وهي طريقة تدخل الانسان في

ظروف الطبيعة بهدف تطويرها ، لما يخدم البحث ، وهي الطريقة الثانية التي نتحدث عنها ان شاء الله .

الطرق الاستقرائية

لقد قرر المناطقة السابقون طريقة الاستقراء الا ان اول من صاغها في اساليب واضحة كان بيكون الذي كان يستهدف من — اساليبه — تحقيق هذا الهدف : حذف كل ما ليس بسبب ، ليبقى السبب بلا منافس، ولهذا فهو يوحي باستعراض الفروض ، ومحاولة البرهنة على عدم صحة كل واحد منها ، اما بالاستدلال العقلي ، او بالتجربة ، وحينئذ يبقى الفرض الصحيح ، والسؤال كيف يتم حذف الفروض غير الصحيحة ؟ وابقاء الفرض الصحيح ؟ والجواب بأمرين : الاول : بان نأتي ببرهان ضد كل فرض ، فرض ، فاذا ثبت البرهان ، سقط الفرض غير الصحيح، وهذا ما يسمى عندهم بـ (البرهان الضد) وفيه يقول الدكتور بدوي [1] (نستبعد ما من الفروض لا يتفق يقينا مع الحقائق المسلم بها من قبل ، او القوانين الثابتة ، ويتصل بهذا المنهج السلبي ، ما يسميه كلود برنارد باسم منهج برهان الضد ويتصل به ايضا ما يسمى باسم « التجريب على بياض » وذلك بامتحان الاجهزة ، في الاحوال العادية ، او الاوزان بحسب المعايير النموذجية ، كامتحان الترمومتر، في درجة حرارة منتظمة، او البارومتر في مستوى سطح البحر ، او الميزان ، بوضع ثقلين متساويين، نموذجين في كلتا الكفتين ..

ووظيفة هذا الجانب السلبي ، من تحقيق الفروض هو : اسقاط الفروض الباطلة ، وبأية طريقة ممكنة .

الثاني : اثبات صحة فرض ، وذلك عن طريق تنويع التجربة عليه

(١) د. عبدالرحمن بدوي مناهج البحث العلمي ص ١٥٦ .

فمثلا : اذا كان الفرض هو ان الكائن الحي يبعث بحرارة لا بد من تجربة هذا الفرض في الشتاء والصيف ، وفي مختلف اجزاء الكائن الحـي ، ومختلف انواعه حتى يتم آثبات الفرض يقينا ، هذه روح التجارب ، اما وسائلها فهي التالية :

لوائح بيكون ومناهج مل

هناك لوائح بيكون ومناهج مل • وهما يختلفان في ان مل اقرب الى الطرق العلمية الحديثة ، من بيكون ، لذلك نفضل الحديث مباشرة عن مناهج مل مع الاشارة العابرة الى لوائح بيكون في الاثناء •

منهج الاتفــاق

ويدعوه بيكون بقائمة الحضور ، ويعني : حضور الظاهرة بـأي سبب كان ويدعي (بيـكون) بقنص الظاهرة في الاحـوال المتفرقة ، وتسجيلها في قائمة واحدة ، ليطلع بذلك على المصدر الحقيقي المشترك ، بين المواقع المختلفة ، والمثل الذي جاء به بيكون هو تسجيله لـ (٢٨) ظاهرة حرارة ، من مصادر مختلفة ، من حرارة الشمس ، وحرارة الكائن الحي ، وحرارة النار • وحرارة الاحتكاك • و•و• ولا بد من تسجيـل الظاهرة دون الاعتماد على مجرد المشابهة ، أو المعلومات المشوهة، وتتميز هذه المرحلة ، بتنويع مصادر الظـاهرة ، وبذلك تتاح لنا فرصة ملاحظة الظاهرة ، في احوال متفرقـة جدا • ويسمي مل هذه الطريقـة بـ (منهج الاتفاق) ويقول : علينا ان نلاحظ جميع الاحوال المولدة لظاهرة مـا ، لنعرف فيما اذا كان هنالك ، عامل واحد ، يظل باستمرار موجوداً ، مع الموارد المختلفة ، وحينئذ نعرف ان هذا العامل ، هو السبب المباشر لتلك الظاهرة • (ويأتي مل) بمثل الندى الذي نلاحظه على الزجاجة ، او على لوحة معدنية ، في احوال مختلفة ، عندما ننفخ عليها ، وعندما يكـون

طرف منها ابرد من الطرف الآخر ، وفي الليل ، وعندما نستخرج ـ اللوحة ـ من بئر ، وهكذا ان ظاهرة (الندى) نلاحظها في احـوال مختلفة ، مولدة لها ، ثم تفتش عن ذلك العامل الواحد ، الذي يستمر مـع هذه الظاهرة في كل هذه الاحوال (وهو اختلاف درجة الحرارة بين الزجاجة، او اللوحة ، وبين الوسط الخارجي) ونعتقد ان هذا العامل ، هو فعلا ، السبب لتوليد هذه الظاهرة • والتعبير العلمي لهذا المنهج هو : اذا كان امامنا تواجد لظاهرة واحدة في اوضاع مختلفة ، ورأينا ان كـل شيء يتنوع في الاوضاع ، سوى شيء واحد ، نعرف انه هو السبب •

مثال ذلك اذا عرفنا : انه توجد ظاهرة في الاحوال التالية (أ ب ج) (أ د هـ) (ا و ز) نعرف ان أ هو سبب الظاهرة لان غيره تغير ، طبعـا هذا، فيما اذا لم يكن هناك، ما يتناسب والظاهرة، اي ما يمكن ان يكون سببا للظاهرة ، والبرهان العقلي على صحة هذه الطريقة هو : ان هـذه الظاهرة ، بحاجة الى علة ، ولا يوجد ما يمكن ان يكون علة ، الا هـذا العامل ، الموجود باستمرار ، لان غيره ، يتخلف ، والعلة لا تتخلف ، فهذا هو السبب والعلة • وانتقدت هذه الطريقة بعدة امور [1] :

من الضروري في هذه الطريقة ، ان يلاحظ الباحث ، جميع الظروف المحيطة بالظاهرة ، حتى لا يشذ عن قلمه اي شيء ، يمكن ان يكون هو السبب المباشر ، لوجود الظاهرة • وهذا صعب جداً بل يكاد يكـون مستحيلا ، لان الطبيعة معقدة ، الى اكبر حد ، وهي تحتوي على مجموعة هائلة ، من الاسباب ، والمسببات المتشابكة ، المتداخلة ، فلا يكفي مثلا ، ان نقارن بين حالتين او ثلاث حالات ، توجد فيها الظاهرة ، حتى نكشف عن السبب ، في وجودها • ولكن هذا الانتقاد ، غير صحيح، اذ انه يكاد يكون تحذيرا ولفت نظر ، للباحث ، بان لا يتسرع في الحكم ، اذا وجد

---

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث ص ١٩٦ •

بعض الحالات ، فوجد عاملا واحدا ، مستمرا اذ قد يكون هناك عامل آخر ، خفي على المشاهد ، ويكون هو السبب في ايجاد الظاهرة !

هذا بالاضافة الى ان العقل يقوم بدوره ، ليحدد لنا اطار الامكان، الذي يحتمل ان يوجد ـ خلاله ـ السبب وهذا التحديد ، ضروري هو الآخر ! فليس من المعقول ان يكون السبب ، في حرارة اليد مثلا : وجود نار في داخل الجسم بقدر ما يمكن ان يكون السبب فيها ، وجود الحركة والاحتكاك ، كما ليس من المحتمل ، عقلا ، ان يكون السبب هو يوم الجمعة الذي اجرينا فيه التجارب على الكائن الحي والاحتكاك • وبتعبير آخر ، حين يقوم العقل بحذف بعض الفروض ، وتقوم التجربة ، بحذف الباقية ، الا واحدا ، حينئذ نحصل على معرفة يقينية بالسبب •

كان هذا نقدا لمنهج الاتفاق والنقد الآخر يقول ليس من الضروري ان يكون الظرف الوحيد ، المشترك ، سببا في وجود الظاهرة ، لان هذا الاتفاق ، قد يكون وليد الصدفة ، او يرجع الى ان كلا من الظرف المشترك ، والظاهرة المراد تفسيرها ، تنيجة لسبب واحد ، او عائدا الى وجود ظرف خفي ، يكون سببا في وجود احد الامرين [1] ولكن هذا النقد اشبه ، بتحديد دور منهج الاتفاق ، اذ ان هذا المنهج انما يصح ، فيما لو عرفنا جميع الظروف المحيطة ، وعرفنا ـ بالعقل او بالتجربة ـ ان العامل الوحيد المستمر ، هو هذا العامل ، فنعرف ، بوجود الملازمة ، وهناك قد يهدينا العقل ، بان الاول سبب للثاني ، او العكس ، ذلك امر آخر •

هذا مضافا الى ان احتمال وجود ظاهرة خفية ننفيها بالبحث الدقيق عنها ثم ان منهج الاتفاق يعتمد على سائر المناهج ايضا ، وعلينا ان لا نقتصر عليه ، ويشترط في هذا المنهج امور الاول : تحديد جميع الظروف

---

(١) نفس المصدر ، ١٩٦ •

المحيطة بالظاهرة ، الثاني تنويع الملاحظة قدر الامكان ، الثالث الاستفادة من بصيرة التناسب في فهم السبب ، وهذه الشروط هي خلاصة ما قلناه آنفا حول هذا المنهج •

منهج الاختلاف

ويسميه بيكون بـ (قائمة الغياب) ويريد منها : ان نضع في مقابل كل حالة ، من حالات الحضور ، حالة من حالات الغياب مثلا : الحرارة (التي رتب بيكون قائمة لحالات الحضور فيها فاضفاها الى ٢٨ حالة) توجد مع وجود الشمس ، وهـذه حالـة حضور ولكنها لا توجـد مع غياب الشمس ، وهذه حالة غياب مثل حالة الكسوف ، او في الليل وفي المقارنة بين هاتين الحالتين ، نجد ان جميع الظروف المؤثرة واحدة ، لا ظرفا واحدا ، وهو طلوع الشمس ، او غيابهـا • فهناك اختـلاف في شيء واحد ، هو الذي سبب غياب الظاهرة ، من هنا يسمى (مل) هذه الطريقة بـ (منهج الاختلاف) اي اختلاف حالتين في شيء واحد ، بعـد اتفاقهما في كل شيء آخر ، وهذا المنهج يدعى « بالبرهان العكسي »وهو يتفق مع « معادلة التفنيد الرياضية » ، وقد اشاد به كلود برنارد، واعتقد بانه التجربة الحقيقية ، التي دعا اليها بيكون ، اذ بيكون اراد بقائمتي « الغياب » و « الحضور » عملية واحدة ، وجعل من قائمـة الحضور تمهيدا لقائمة الغياب •

ويقدر ــ وهذا المنهج ــ حسب تعبير مل ــ اذا اتفقت مجموعتان، من الاحداث ، في كل الوجوه ، الا وجها واحدا فتغيرت النتيجة ، مـن مجرد اختلاف هذا الوجه ، فان ثمة صلة عليه ، بين هذا الوجـه ، وبين الظاهرة الناتجة ، فاذا كانت لدينا ، مجموعة (كلمن) تنتج ظاهرة ما ، ومجموعة اخرى (كلمهـ) ثم نتج عن ذلك اختلاف في النتيجة ، فـي

حالة اخرى، فانه يوجد ــ بين (نوهـ) صلة العلية[1] . وهذا المنهج دقيق لانه نستطيع ان نحذف عاملا في مجموعة عوامل لنلاحظ فيما اذا كـــانت الظاهرة تبقى ام لا فاذا ذهبت الظاهرة ايضا عرفنا ان هذا العامـــل هو المؤثر . ولكنه منهج يخص ــ في هذا الجانب ــ بعض العلوم ، التـــي يستطيع ان يتحكم فيها الانسان ، كالطب والفيزيـــاء . وما اشبـــه وفعلا استفادت مثل هذه العلوم ، كثيرا مـــن هذا المنهج ، وقد استخدمهـــا (باستير) في كشفه عن الميكروب ، حيث انه حينما افترض : ان ظاهرة التعفن . ترجع الى وجود حيوانات دقيقة ميكروسكوبية ، تتطرق الـــى السوائل والاجسام ، فتتغذى بها ، وتتكاثر عليها ، ثم اراد البرهنة على هذا الرأي ، والرد على من سخروا منـــه ، أخذ انبوبتين ، ووضع في كل منهما كمية واحدة من محلـــول السكر ، وعقمهما في ماء تزيد درجـــة حرارتـــه على ١٠٠ سنتيجراد ، ثم اغلق فوهة احديهمـــا وترك الاخرى مفتوحة ، بعد ان اتخذ جميع ضروب الحيطة حتى تتفق جميع الظروف ، في كلتا الحالتين ، باستثناء ظرف وحيد ، وهو ان احدى الانبوبتين تبقى معرضة للهواء ، والاخرى غير معرضة له ، وبعد ان ترك الانبوبتين، مدة معينة من الزمن ، اعاد فحص السائل ، في كل واحد منهما ، فوجـــد ان التعفن تطرق الى سائل الانبوبة المفتوحة ، وان السائل في الانبوبةالاخرى ظل سليما ، فـــكانت هذه التجربة حاسمـــة ، لانهـــا برهنت بحالتـــين متناقضتين ، على صحة فرضه القائل بأن الجراثيم هي سبب التعفن [2] . ان (باستير) استفاد ، من منهج الاختلاف ، اذ ان وجـــود (ظاهرة) التعفن ارتبط بوجود عامل التعرض للهواء ، وحيث لم يوجد (عامل) التعرض للهواء ، ما وجدت ظاهرة التعفن .

ويشترط في هذه الطريقة ، تنويع التجارب الى اكبر عدد ممكن ،

(١) مناهج البحث العلمي ، ص ١٦٦ .

(٢) المنطق الحديث ومناهج البحث ص ١٩٦ .

حتى لا يأتي احتمال ، وجود عامل خفي ، يرتفع عند ارتفاع العامل الاساسي « صدفة » كما يشترط استخدام العقل لاستبعاد العوامل العرضية ، غير ذات الوزن العلمي .

ويجب ان نحاول ربط هذا المنهج ، بالمنهج السابق ، بمعنى جعل قائمة للحضور ، واخرى للغياب ، واستخدام منهج الاتفاق ثم الاختلاف معا ، لان المنهج الاول يفيد تنويعا للملاحظة ، بينما الثاني يفيد دقة فيها، والدقة والتنويع كلاهما ضروريان .

طريقة التلازم في التغيير

وهي الطريقة التي سماها بيكون بقائمة التدرج ، ويمكن تحديد هذه الطريقة بانها :

(اذا لاحظنا ظاهرة تتغير كلما تغيرت ظاهرة اخرى ، في حين تبقى سائر الظواهر المحيطة الممكنة التأثير فيها ، غير متغيرة . نعرف ان هناك علاقة سببية ، من نوع ما ، بين هذه الظاهرة وتلك) .

ومثل هذه الطريقة : لو راينا ان ظاهرة نرمز اليها بـ (س) ، مرت بحالات نقص وتمام ، وزيادة ، نرمز اليها بـ (س وس وس) ثم فتشنا ، عن الظواهر المحيطة ، فلم نلاحظ اية ظواهر اخرى تغيرت هكذا ، الا ظاهرة ص ، حيث انها هي الاخرى مرت في نفس الحالات فكانت (ص وص وص) نعرف ان هناك علاقة بين ص وس .

ومن هنا اذا رأينا ، انه كلما ارتفع القمر في السماء ، كلما ارتفع مد البحر ، وكلما مال القمر الى المغيب ، كلما هبط الماء في البحر ، نعرف بوجود علاقة ، بين ماء البحر ، والقمر ، علما باننا لاحظنا سائر الظواهر المحيطة بماء البحر ، وتغيراته فلم نجدها ، تتناسب مع تغيراتها ، فلاحظنا

الشمس ، ولم نجد علاقة بين ارتفاع الشمس ، وارتفاع ماء البحر ، ولاحظنا الهواء ، فلم نجد علاقة بين هبوب الرياح ، وارتفاع المد،فعرفنا ان الظاهرة الوحيدة ، التي تتناسب تغييراتها مع تغيرات البحر هو القمر . وهذه الطريقة تتناسب مع طريقة الاختلاف ، حيث ان طريقة الاختلاف هي حذف الظواهر غير المرتبطة بالحدث ، حتى نعرف الظاهرة المرتبطة به . وهذه الطريقة هي : حذف الظواهر التي لا تتناسب تحولاتها مع تحولات الحدث لنعرف الظاهرة التي تتناسب تحولاتها مع تحولات الحدث . فطريقة التغيير النسبي ، نوع من طريقة الاختلاف ، ولذلك يشتركان في كثير من الشروط . ويعتمد العلم الحديث على هذه الطريقة كثيرا وذلك لعدة اسباب :

اولا لانها دقيقة ، حيث لا تكشف فقط عن وجود علاقة بين ظاهرة واخرى ، بل عن مقدار هذه العلاقة ، ونسبتها .

ثانيا لان العلم الحديث ، لا يهتم ــ كثيرا ــ بمعرفة السبب والمسبب ، بقدر ما يهتم بمعرفة العلاقة ، بين حدث وآخر ، لكي يتم توظيفها عمليا ، في الحياة وطريقة التغير النسبي افضل طريقة لمعرفة العلاقات .

ثالثا : لان هذه الطريقة ايسر معرفة ، واسهل كشفا ، اذ من السهل ان تقارن : حدثا بحدث ، وتلاحظ ارتباط تغيراتهما بالبعض ، بينما من الصعب ان تحذف ظاهرة ، او عدة ظاهرات ، للتعرف على السبب الحقيقي ، كما في الطرق الماضية ، من هنا استخدم (باستير) هذهالطريقة: في الكشف عن الميكروب ، فاخذ ثلاث مجموعات من انابيب الاختبار ، كل مجموعة منها عشرون انبوبة ، وملأها بسائل معين ، ثم عقم هذه الانابيب في ماء تزيد درجة حرارته على (١٠٠) واغلق فوهاتها جميعا ،

ثم فتح هذه المجموعات ، في اماكن تختلف درجة نقـاء الهواء فيها ، فوق قمة جليدية فوق هضبة ، في الريف بالترتيب ، فتبين له ان نسبة التعفن في المجموعة ، التي فتحها في القمة كانت واحد من ٢٠ انبوبة وكانت هذه النسبة في الهضاب ٥ من ٢٠ بينما بلغت نسبة التعفن في المجموعة ، التي فتحها في الريف، حيث تقل درجة النقاء فيها ٨ من ٢٠ ، فعرف ان هناك علاقة مطردة ، بين درجة تلوث الهواء ، وسرعة تلوث المياه ، واكتشف ان هذه العلاقة ، مرتبطة بالجراثيم ، التي تكثر في الاجواء المتلوثة ، وتؤثر فـي تعفن المياه ، ولانه من الصعب ، ضبط تغير الظواهر ، في الذاكرة ، يجدر على الباحث ان يستخدم الرسم البياني ، والجدول ، حيث يساعدانه على ضبط التغييرات ، ومدى نسبة ارتباطهما بالظواهر المحيطة [1] .

طريقة البواقي

وهذه الطريقة اكتشفها مل دون بيكون ، وهي طريقة تستخدم في احد مجالين :

١ ــ فيما اذا امتلكنا علما متقدما جدا ، وعرفنا ظواهر عديدة ، كل ظاهرة منها تسبب حدثا ، وبقيت ظاهرة واحدة . لا نعرف اثرها ، ومن جانب آخر بقي اثر واحد لا نعرف سببه ، فلا بد ان نعرف اثرها ، عـن طريق البواقي ، ان هذه الظاهرة هي المسببة لهذا الاثر .

ولكن هذا ليس الا نوعا عن طريقة الاختلاف ، اذ لم نجد ظـاهرة تفسر هذا السبب ، الا هذه الظاهرة ، وذلك حيث نعرف ان الظـواهر الاخرى ليست سببا لها بالتأكيد .

٢ ــ فيما اذا لاحظنا تفسيرا لكل الظواهر ، الا ظاهرة واحـدة ، هنالك قد تهدينا طريقة البواقي ، الى تفسير لها بالقياس الى تفسير سائر الظواهر ومثال ذلك : لما طبق الفلكيون القوانين الفلكية التي تحـدد

(١) المنطق الحديث ، ص ٢٠٦ .

موقــع أي كوكــب ، فيأي وقت لاحظــوا انحرافــا فــي مـــدار الكوكب (يورانوس) بحيث لا يتفــق هذا الانحــراف ، مع نظريــة مدار الكوكب (يورانوس) بحيث لا يتفق هذا الانحراف ، مع نظريــة الجاذبية ، وظاهرة الانحراف هذه لم تفسر بالطبع ، بنظرية الجاذبيـــة ، وبقي علينا تفسيرها • لسبب آخر ، لهذا وضع (لوفرييه) هذا الفرض حيث قال : لا بد من وجود كوكب آخر ، في هذا البعد ، هو الـــذي يسبب انحراف مدار (يورانوس) وحدد موقع هذا الكوكب • وكتلته ومداره بطريقة رياضية اعتماداً على طريقة البواقي •

وفعلا وفق احد علماء الفلك ، بعدئذ للكشف عن كوكب (نبتون) وبذات الخصائص التي قالها لوفرييه سابقا ان طريقة البواقي ، هنـــا ، كشفت لنا عن هذا الكوكب ، بسبب وجود ظاهرة مباشرة واحدة ، لـــم تفسر ، حينما فسرت كل الظواهر الاخرى ، وهي كانت ظاهرةالانحراف، في مدار كوكب (يورانوس) •

وتبدو هذه الطريقة انها تخلــق لنا فروضا ، اكثر مما تحدد لنـــا نظريات علمية ، ولكن من حيث العمــوم تتمكن من القــول : ان هذه الطريقة قد تكشف عن حقائق ، فيما كانت الظواهر المحيطة واضحــة التفسير ، كما في حال كوكب نبتون •

القسم الرابع عن مناهج الاستقراء

البحث الخامس عن :

القانون

التجربة وضمان الاطراد
نظرية السنة الالهية
بين السبب والقانون
القانون
القوانين الوظيفية
القوانين المقترنة
صياغة القوانين

التجربة وضمان الاطراد

هل يكفي ان نعرف عددا من الظواهر ، دون العلم بانها سوف تطرد في عمقي الزمان والمكان معا ؟ بمعنى انها تتكرر كلما تكررت ذات الظروف الموضوعية ، التي رافقت ظهورها اول مرة ؟

طبعا لا ، لهذا اخذ العلم يبحث عن ضمان الاطراد ، في التجربة .

وقد وضع هذا البحث في صيغته الاساسية في العصر الحديث المؤلف لاشيلية .

وقبل ان نتابع هذا البحث ينبغي ان نعرف عدة مصطلحات وآراء حولها ، لكي لا نضيع في زحمة النظريات المختلفة تلك المصطلحات هي :

١ ـ العلة . وهي تعني ان يتسبب شيء في ايجاد شيء آخر ، كما خلق الله الكون ، وكما يخلق الانسان الارادة النفسية ، وبالطبع لا بد من ان يكون العلة قبل المعلول ، والمعلول متابعا وملازما لها ، كما لا بد ان يكون بين العلة والمعلول علاقة ، وان تكون هذه العلاقة علاقة ضرورية .

٢ ـ السبب وهو يعني أن يشترك شيء في التأثير على شيء آخر تأثيرا ما . سواءا ـ كان لوحده او مع شروط اخرى وسواءا تأثر المؤثر بدوره ام لا تماما كما تحرق النار . ولكنها لا توجد الاخراق بدون

شروط اخرى مثل ان يكون الشيء المحترق يابسا • وكما يقرع الجرس حيث ان ملامسة لسان الجرس لحافتيه لا يحدث صوتا ان لم يكن هناك هواء يشترك في بث الصوت وانتشاره وقد عرف مل السبب بانه :

المجموعة الكاملة لكل الشروط الايجابية والسلبية ، وكل انـواع الظروف ، التـي متى تحققت ، ترتبت عليها النتيجة ، بصفـة مطردة • والسبب لا يعني : مجرد تتابع ظاهرة واخرى ، او وجود علاقـة دائمة بينهما ، بل يعني ــ ايضا ــ التأثير في الشيء بشكل من الاشكال ، كما أثر النار في الحرارة ، والقرع في الصوت ولكن دون ان نقول ان النـار توجد الحرارة ، والقرع يوجد الصوت اذ ربما يكون الايجاد بفعل عدة عوامل ، داخلية وخارجية ، ليست النار او القرع سوى واحد منها •

٣ ــ العلاقة المطردة ، وتسمى ــ ايضا ــ القانون ، وهو يعني : ان ظاهرة ، متصلة في وجودها ، مع ظاهرة اخرى ، دون ان نعرف ايا منهما يؤثر في الاخرى ، ولماذا هذا التأثير ؟ فمثلا هناك قانون كيمياوي يقول : ان حجم الغاز يتناسب مع ضغطه اذا ظلت درجة حرارته ثابتة •

واذا لم تكن العلاقة دائمة ، لا نستطيع ان نسميها قانونا بل صدفة، ومن الضروري وجود نوع من التتابـع ، او التلازم ، في القانـون بين ظاهرتين •

٤ ــ التتابع ويعني ان يكون حدث آتيا بعد حدث آخر سواء أثر فيه ام لا ، كما يأتي الليل بعد النهار ، دون ان يكون لليـل ، اي تـأثير في النهار •

هــذه هي المراحل العلمية الاربع ، التي ، يتـدرج الفكر البشري عبرها ، حتى يصل الى معرفة شاملـة ، ذلك لان الملاحظة الاوليـة ، تكشف للانسان عن وجود تتابع بين ظاهرة واخرى ، وحين يكون هـذا

التتابع كاشفا عن وجود علاقة تأثيرية ، ضرورية ، ومطردة ، بينهما ، يكشف الانسان عن القانون ، وحين يعرف اسباب التأثير المتبادل ، او من جانب واحد ، يكتشف الانسان السبب ، وحين يعرف حقيقةالظاهرة، والسبب الوحيد الذي يوجدها ويخلقها خلقا ، يصل العلم الى نهايته ، حيث يعرف العلة • والى ان يصل العلم الى هذا المستوى ، بالجهد البشري لا بد ان يقطع ألوف الاميال •

هذا ، ولكن البشر مغرور لا يعترف ــ بسهولة ــ انه جاهل بشيء، لذلك يقفز ــ مرة واحدة ــ على السلم ليصل الى مستوى العلم بالعلل •

ــ ولكنه ــ بعد تجارب مريرة ــ يكتشف خطأه ، فيهبط الى مستوى السبب ، ثم قد يصطدم بحقائق لم يكن يخيلها ، فيهبط الى مستوى القول بالقانون ، او حتى بمجرد التتابع ، ولو لم يكن الانسان مغرورا ، كان يصعد السلم من درجته الاولى ، فيلاحظ التتابع، ويلاحظ ان بعض الظواهر المتتابعة ذات تأثير متبادل ، او ذات تأثير من جانب واحد ، فيؤمن بالقانون ، والعلاقة الضرورية وبعدئذ يلاحظ ان للقانون سببا ، بمعنى ان هناك علة من تأثير هذه الظاهرة في تلك ، وليس العكس فكان يقول بالسبب ، حتى يصل في أعلى السلم ، الى جميع العوامل المؤثرة في ايجاد شيء ، فينتهي بالعلة بينما ابتدأ الانسان القديم بالعلة لغروره •

ان الانسان القديم ــ كالانسان البدائي اليوم ــ كان يزعم انه يعرف الحقائق كلها ، وكان يجلس في كوخه ، او في كهفه وربما يستخدم مادة مخدرة فاذا دار رأسه ــ اخذ يفلسف لنفسه ، ويعدد علل الاشياء (الحقيقية) « فهؤلاء يعتقدون ان هناك قوى خفية ، تنتج الظواهر ، وتحدثها ؛ وهم يرون ان العالم الذي يقع تحت حوا سهم ، يرتبط ارتباطا شديدا بعالم القوى الغيبية ، وان هذه القوى تؤثر في الظواهر الطبيعية،

تأثيرا مستمرا فالعقلية البدائية لا تكفي ، بما توقفها عليه التجارب والملاحظات ، المألوفة ، بل تتجاوز نطاق الواقع دائما ، وتتخيل علاقات بين النتائج ، التي تقع تحت الحواس ، وبين احد الاسباب الخفية » ..

« المهم عند الرجل البدائي ، ان يخلص نفسه من صعوبة الفراغ والجهل ، فهو يريد ان يدعي معرفة السبب ايا كان نوعه ، وهو يرتبط بين اية ظاهرتين ، تشغلان ذهنه في وقت واحد ، فمثلا حسب ما يقول (ليفي بريل) ها هو ذا احد اهالي جزائر هربيد الجديدة ، يسير في طريقه ، فيرى ثعبانا يسقط عليه ، من شجرة ، وفي صبيحة احد ايام الاسبوع التالي ، يعلم ان ابنه مات في استراليا ، ولما كانت هاتان الحادثتان ، تشغلان تفكيره في نفس الوقت ، فانه لا يستطيع ان يتصور احدهما مستقلة عن الاخرى [1] . والانسان القديم كالانسان البدائي كان يتخيل وجود علل غيبية للاشياء . دون الاعتراف بما لها من اسباب ظاهرة « فاذا رجعنا مثلا الى فلسفة افلاطون » وجدنا انها تفسر وجود الكائنات في العالم الحسي : بانها ظلال واشباح للكائنات العقلية او المعاني التي توجد في عالم المثل .

وقد ذهب آرسطو الى رأي غريب في تعليل سقوط الاجسام نحو الارض فقال : ان الاجسام تنقسم الى نوعين : خفيفة وثقيلة ، وان الخفة هي السبب في صعود الاجسام في الفضاء ، وان الثقل : قوة كامنة في الجسم وفي العصور الوسطى لم يتحرر تفكير « المدرسيين » من الايمان بوجود قوى خفية . تنتج الظواهر وتسبقها في الوجود [2] وكان هذا التفكير وراء شبهات فلاسفة الاغريق والتابعين لهم في المسائل الدينية ، التي تقوم على اساس امكانية (اختراق) سنن الحياة ، والعمل

---

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٢٢٢ .
(٢) المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٢٢٤ .

بدون علة ثابتة وبالتالي انكار المعجزات انى كان نوعها ، والفكر القديم ينطوي على تناقض كبير فيما يخص موضوع العلة والمعلول حيث يبقى حائرا في تفسير حدوث الاشياء وتطورها واختلافها مع انها جميعا ناتجة من علة واحدة وثابتة وغير متطورة • وان العلة والمعلول لا بد ان يكونا من نوع واحد ، وهكذا الى آخر هذه المسائل التي تورطوا فيها بسبب غرورهم في الاعتقاد بفهم علاقات الكون وزعمهم بانهم استطاعوا كشف العلة فيها • هذا دون ان نتطرف في وسم الفكر القديم كله بهذه السمة اذ يوجد في الفكر القديم ومضات نور حدت من هذا الغرور المتطرف ، واعترفت بالجهل في مسألة العلاقات وعادت الى فكرة السبب •

بل وجد في القديم من نادى بطرح فكرة السبب واخذ بفكرة علاقة الضرورة (القانون) ولا ريب ان الرسالات السماوية قد ساهمت في هذا الاتجاه وفي الحد من غرور الانسان بفهمه للحياة •

نظرية السنة الالهية

والعلماء المسلمون الذين لم يتأثروا بالثقافة الاغريقية ، اجمعوا على ان العلاقة التي تربط بين الظاهرة والاخرى انما هي علاقة السنة الآلهية (وهي تعني نوعا معتدلا من القانون) ولا يدعون العلم بما وراء هذه السنة الا حسب ما تكشفه لهم التجارب القطعية • وفي القرآن الحكيم — توجيهات عديدة الى فكرة السنة وقد جاء في آية كريمة •

سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا •

وفكرة السنة تتميز :

أولا : بضمان الاستمرار حيث ان الخالق الزم الكون على المسير في هذا الطريق ولن ينحرف الكون عن هذا المسير (كما تقول الآية :

انك لن تجد لسنة الله لا تغييرا مطلقا ولا تغييرا نسبيا اي لا تبديلا ولا تحويلا) .

وبهذه الفكرة يخرج العلم من الايمان بالصدفة التي تتنافى كليا مع اسس العلم كما نضمن انتشار الظاهرة في عمقي الزمان والمكان .

ثانيا : انها تخلصنا من العقيدة بفكرة العلية التي تعني ان الظاهرة تسبب الاخرى وفكرة السبب التي تعني ان مجموعة ظواهر تسبب ظاهرة اخرى وتقربنا الى فكرة القانون التي سيأتي انشاء الله الحديث عنه ، وبذلك يطلق فكر الانسان حتى يبحث عن العلاقات بحرية اكثر وبنظرات صائبة .

ثالثا : تهدينا فكرة السنة الى حقيقة العقلانية في علاقات الكون بمعنى ان هناك نظاما عاما تسير ظواهر الكون جميعا وفق ذلك النظام وان طبائع الاشياء ومقاديرها وعلاقاتها كلها محكومة لذلك الهدف الكبير الذي يسير الكون اليه وهذه العقلانية التي يسميها البعض بفكرة وحدة الجمال مثل مذهب بلدوين (**Bal**dwine) المسمى بـ (**Pancalisme**) ويدعوها للاشيلية بمبدأ (الغائية) التي وضعها في مقابل مبدأ (الفاعلية) .

كما يدعوها كلود برنار بالصورة الموجهة (**idée directrice**) هذه العقلانية ليست فكرة تجريبية بل عقلية . كمبدأ الضرورة والاطلاق في العلاقات الكونية ولذلك فهي تفتح الطريق الى التجربة لمعرفة الصورة الصحيحة للاشياء وهي ضرورية لمعرفة الكون كفكرة الاطلاق تماما لانه ــ كما يقول للاشيلية : لا نستطيع ان نساير مبدء العلل الفاعلية اي مبدأ الجبرية الى نهايته بل لا بد ان يتدخل دائما

مبدأ النظام ، كي يعدل من شطحات المبدأ الاول ، حتى نـدرك الحقيقة الخارجية الادراك السليم [1] •

ثم ان فكرة العقلانية ، لا تختلف عن فكرة الضرورة في انهما معـا فكرتان عقليتان وغير تجريبيتين ابدا •

والسؤال ما هو الدليل على فكرة السنة ؟ قبل الاجابة على هـذا السؤال دعنا نستمر مع تاريخ الفكر البشري في موضوع • السبب بعد ان اوضحنا ان الانسان بدل ان يتدرج من بداية السلم اراد ان يقفز من اعلاه وبتعبير آخر بدل ان يسعى الى معرفة التتابع والقانون والسبب ثم العلة عكس فسببت له كارثة علمية •• والرسالات السماوية شرعت تهدي الانسان الى خطأه وكانت فكرة السنة التي اعتنقهـا العلمـاء المسلمون الذين لم يتأثروا بالثقـافة الغربية ولكن الغرب ظـل طـوال العصور الوسطى متشبثا بفكرة العلة •

ولم تكن طلائع الفلسفة الحديثة اسعد حظا في فهم السببية العلمية، فمثلا يفسر ديكارت الحركات الارادية لدى الانسان والحيـوان بوجود ما يطلق عليه اسم الارواح والعقول الحيوانية ، التي تنتقل مع الدم الى مختلف انحاء الجسم فتؤثر في الاعضاء بالحركة ، ويرجع الفضل الـى (بيكون) الذي نصح بالاقلاع عن البحث في الاسباب الفلسفيـة او اللاهوتية وحض على معرفة الشروط الطبيعية التي تسبق الظاهرة •

كذلك ساهم هيوم ـ الفيلسوف الانجليزي ـ في تطـوير معنى السببية وفي التمهيد لنشأة فكرة علمية عن السبب [2] •

واعاد هيوم الانسان الى درجة التتابع وكان بداية صعود الانسان على السلم في صورة واقعية بدل صعوده سابقا بطريقة خيالية •

---

(١) مناهج البحث العلمي الدكتور عبد الرحمن بدوي ص ١٧٥ .
(٢) المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٢٢٨ .

قال هيوم : ان ما يبدو لنا من وجود علاقة ضرورية بين الحوادث يمكن تفسيره باننا نلاحظ تتابع حادثتين في عدة حالات خاصة فيغلب على ظننا انه تتابع ضروري وان احديهما توجد الاخرى مع ان الفكرة الجوهرية في العلاقة السببية ليست هي انتاج احدى الظواهر لظاهرة اخرى على نحو ضروري وانما هي فكرة التتابع الزمني فقط بمعنى اننا اذا الفنا ان الظاهرة (ب) تتبع دائما الظاهرة (أ) قلنا ان (أ) هي السبب في وجود (ب) [1] الا ان (مل) جاء بعد (هيوم) ليحد من تطرف هيوم الذي انكر العلاقة السببية مرة واحدة فقال (مل) ان الطرق الاستقرائية تؤدي الى الكشف عن قضايا عامة ضرورية وهي العلاقات السببية بين الظواهر ، وعرف السبب بانه المجموعة الكاملة لجميع الشروط الايجابية والسلبية وكل انواع الظروف التي متى تحققت ترتبت عليها النتيجة بصفة مطردة .

وحيث ان (مل) يعترف بأنه من المستحيل تقريبا ان يهتدي الباحث الى جميع هذه الظروف التي تحدث الظاهرة فان ذلك يعني ان السبب الكامل لا يمكن معرفته اللهم الا اذا كانت الظاهرة ـ حسب رأي مل ـ مما يمكن ايجادها صناعيا ولكن يؤخذ على مل : انه حتى هذه الظاهرة لا يمكن ان نعرف السبب الكامل فيها . لان الظاهرة الواحدة تشترك في صنعها كل الظواهر المحيطة بها التي لا يمكن حصرها او معرفة مدى تأثيرها ولا يشكل عمل الانسان الا جزءاً بسيطا جداً منها . فخذ مثلا ظاهرة الزراعة نحن نستطيع ان نعرف انه متى دفنا البذرة في التراب وسقيناها وتعهدناها بالرعاية وكانت الظروف صالحة فانها تنبت ، ولكن لا نقدر أن نعرف ما هي الظروف المؤثرة في الزراعة بالضبط ؟ وكيف تكون صالحة ؟ ولو عرفنا الف ظرف بقي الف آخر لا

---

(١) المصدر ص ٢٢٨ .

نعرف عنه شيئا . لذلك لا يمكن التبجح بانا نستطيع ان نحيط علما بكل الظروف المحيطة بالظاهرة ، والشروط المؤثرة فيها ، والاسباب المؤدية اليها، انما تتمكن من تنمية معارفنا بالشروط شرطا شرطا وسببا سببا وبصورة دائمية دون ان نزعم ان قافلة العلم ستصل في يوم الى منتهى .

بين السبب والقانون

الا ان ما سبق لا يعني اننا نستعيض كليا عن السبب بفكرة القانون والتي يميزها عن فكرة السبب :

ان القانون هو البحث في الجوانب الخارجية للظاهرة ، بينما السبب هو البحث عن الجوانب الداخلية منها ، فالقانون يقول : ان ظاهرة المد ترتبط بعلاقة مطردة مع صعود القمر . وهذه العلاقة هي علاقة خارجية . اذ لا تعني سوى وجود ارتباط بين ظاهرة واخرى،بينما فكرة السبب تسعى لتحليل هذه العلاقة والاجابة عن هذا السؤال : لماذا المد يرتبط بالقمر ؟ والجواب لان القمر له جاذبية ، وللبحر امكانية الانجذاب ، وهذا هو السبب في جذب القمر لمياه البحر ، وهذا الكشف بيّن لنا قوة داخلية في القمر ، وقوة داخلية في البحر ، والفائدة التي قد نستفيدها من هكذا كشف هي ان نبدأ نعمم السبب على اماكن ثانية فنستفيد من معرفتنا بجاذبية القمر في جذب القمر للارض او للنجم المذيل وهكذا ، وقد قسم « لالاند » القوانين بانواع ستة وهي :

١ ـ الطبائع وتركيبات الاشياء ، مثل تركيب الجزئي او تركيب الذرة ، او تركيب اي عنصر كيمياوي ، وهذا اشبه شيء بالسبب .

٢ ـ الاضافات الثابتة الموجودة بين صفين او سلسلتين من الظواهر المعينة بالنسبة الى بعضها تبعا للدالة ص و (س) وذلك مثل الجاذبية وانكسار الضوء وما اشبه .

٣ ـ مقادير عددية ثابتة مثل سرعة الضوء وطول الموجة .

٤ ـ اطرادات بحيث توجد ظاهرة مع وجود ظاهرة اخرى . دون أن نعرف بالدقة : صلة علية بينهما ، كما نجد مثلا : ان الاجترار ينبعه كون الظلف مشقوقا .

٥ ـ احداث دورية ينظر فيها الى اوجه ثابتة في تطورها، بالنسبة الى مجاميع مشابهة كما يظهر ـ مثلا ـ في ظاهرة التيار ، أو ردود الفعل الكيماوية أو ظواهر الهدم والبناء بالنسبة الى الخلايا .

٦ ـ علاقات الاتجاه ، كما في القانون الثاني من قوانين علم القوى الحرارية المعروف بقانون (كارنو) ، وقانون نقصان الطاقة ، حيث يوجد هناك اتجاه نحو النقصان ابدا في تطور الظواهر ، ومثل قانون التطور الداروني ، (١) والسؤال الآن هل بامكاننا ان نتخلص من فكرة السبب كليا ؟

(أوجيست كنت) يقول نعم ويضيف : فما دام القانون يفسر الظواهر فمن العبث أن تتطلب من العلم أكثر من ذلك ، فمن البديهي أننا لا نستطيع الوقوف بدقة على ذلك التأثير المتبادل بين النجوم ، وعلى ثقل الاجسام الارضية ، وأن أية محاولة في هذا الصدد ستكون بالضرورة محاولة عابثة وغير مجدية تماما ، وأن العقول التي لا تربطها صلة بالدراسات العلمية ، هي وحدها التي تستطيع أن تشغل نفسها اليوم بمثل هذا الامر (٢) .

ولكن الواقع أن القانون هو خطوة في معرفة السبب ، وأن العلم يمكن أن يخطوا الى الامام ليصل الى معرفة السبب ، والعلم الحديث لا يبحث فقط عن الظواهر كيف ترتبط ببعضها ، دون أن يبحث أيضا عن

---

(١) راجع مناهج البحث العلمي ص ١٧٢ .
(٢) المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٢٣٣ .

أننا لماذا ترتبط ببعضها ؟ وما نجده في علم الكيمياء وعلم التاريخ وعلم الاقتصاد والاجتماع من البحث عن خلفيات الظواهر ، أفضل دليل على الصبغة العامة للعلم الحديث وأنها هي فهم الاسباب لا الظواهر فقط .

صحيح أن علم الفلك ـ الحديث الظهور نسبيا ، والذي يفتقر الى تجارب كثيرة أخرى ، حتى يتمكن من الوصول الى معرفة ظواهر الفلك والعلاقات الضرورية فيها ـ هذا العلم لا يتمكن من معرفة الاسباب الكامنة وراء هذه القوانين بسرعة الا أن علم التاريخ أو علم الاجتماع أو علم النفس يتمكن لا أقل من معرفة بعض الاسباب الداخلية التي تسبب هذه الظواهر .

اما بحث العلم عن القوانين فليس بحثا نهائيا . بل هو بحث موقت حتى يمهد له الطريق الى معرفة الاسباب بل ـ بعكس ما يقول كنت ـ أن الذي تربطه صلة وثيقة بالعلوم الحديثة يعلم أن هناك صلة قربى بين القانون والسبب بحيث يكاد يخفى الفارق بينهما وان الطريق يسير من السبب الى القانون ، ومن القانون الى السبب بصورة أمواج علمية متداخلة فلا يكاد العلم يكتشف قانونا حتى يبحث عن سببه واذا عرف السبب كشف له المسبب عن قانون آخر وهكذا .

بعد هذا الاستعراض يبقى السؤال الاهم هو : ما هو ضمان الاستقراء . وكيف نثبت أن الظاهرة التجريبية التي وقعت مرة سوف تقع كل مرة في كل زمان ومكان ، وقد سعى مناطقة كثيرون الوصول الى ضمان كاف يستندون اليه باطمئنان في هذا المجال وفيما يلي بعض هذه المساعي :

١ ـ أول من سعى الى ضمان الاستقراء بتحليل قضية العلية بطريقة عملية هو (لاشلييه) حيث انتهى الى تقرير مبدأين :

ألف : في كل سلسلة من الاحداث لا بد ان يعين وجود ظاهرة وجود ظاهرة أخرى .

باء : وجود ظاهرة في نظام معين لا يتعين تعيينا حقيقيا الا بالنسبة الى نظام الكون .

ويقصد من المبدأ الاول أن الظواهر الكونية مترابطة بحيث يستحيل أن تبدو ظاهرة دون ان تسبقها ظاهرة أخرى ودون أن تلحقها ظواهر ثانية ، وبهذا يكون الكون عبارة عن سلسلة من الظواهر المترابطة ولكن لا تبقى هذه الظواهر مترابطة بشكل سلسلة طويلة وبلا هدف ، بل يكون الترابط بشكل دائري ، يحده من كل جهة النظام العام ، الذي جعل للكون كله . وهذا هو معنى المبدأ الثاني ، الذي بدونه لا يمكن أن نحصل على العلم الحقيقي ، واذا اردنا ان نضرب لظواهر الكون مثلا لقلنا نفترض جسم انسان وفيه ما لا تحصى من الخلايا وكل خلية نفترض انها ظاهرة تحدث ، وتتعين بظاهرة اخرى ، التي هي هنا عبارة عن خلية ثانية (هذا هو المبدأ الاول) ولكن هل تستمر الخلايا في التكاثر الى ما لا نهاية ؟ طبعا « لا » بل سوف تتحدد الخلايا بقدرة الجسم على تحملها وبما في الجسم من ضوابط وقوانين عامة . تسبب في (تحديد) تسلسل الظواهر وهذا هو المبدا الثاني عند (لاشيلية) الذي يقول :

هذا المبدأ هو مبدأ الغائية ، والغائية هنا ليست بالمعنى المفهوم عادة من ان مجموعة اشياء تتجه نحو غاية نهائية ، وانما يقصد به ان ثمة نظاما يقتضي ترابط الاشياء على نحو ضروري، من شأنه أن يجعل الجزء الواحد يتوقف في تركيبه وطبيعته على الجزء الآخر وبتعبير آخر : اذا كونت الظواهر نظاما فان هذا النظام تقود فيه فكرة الكل فكرة الاجزاء ، وطبيعة الكل تحدد وجود الاجزاء [1] ولكن لاشيلية لم يبين لنا ــ بعد هذا الكلام

---

(١) مناهج البحث العلمي ص ١٧٤ .

كله ــ ما الدليل على صحة هذه الافتراضات ولماذا يجب علينا أن نعتقد أن الظواهر تعين بعضها وأنها تخضع لقانون عام ؟ وهل أننا أكتشفنا هذه الحقيقة بالتجربة أم بالعقل وكيف ؟

٢ ــ يبقى أن نسأل ما هو نظر الاسلام كمنهج للمعرفة في هذا المضمار .؟ (١)

قبل كل شيء يذكر الاسلام البشر بعقله ليتخذه مصباحا يكشف به غيب الحياة ، ــ وتماما كما أن كل شيء في البيت المظلم ينكشف بالمصباح ، والمصباح ذاته لا يعرف الا بنفسه بعد الالتفات اليه ــ فان الاسلام يعتبر العقل اول ما يعرف بيد ان معرفته لن تكون الا بذاته اذ كيف يتسنى للانسان أن يكشف العقل وهو لا يملكه ؟ بل كيف يكون العقل كاشفا للبشر عن كل شيء ولا يكون كاشفا عن ذاته ؟ هكذا يبدأ الاسلام معالجة أعقد مشكلة عند البشر من زاوية جديدة وبمنهج جديد وذلك حين يأمر الانسان بألا يحاول معرفة العقل الا بذات العقل . اذ انه سينحرف عن الطريق السليم لو أراد معرفته بالتوصيف أو بتصورات غريبة عنه ، فليس العقل بعيدا عن الانسان حتى يسعى الفرد الى معرفته بشيء غريب ، بل هو أقرب الى الفهم من أي شيء آخر ، لانه هو الذي يكشف الاشياء الأخر .

أن الكشف الذاتي الذي يتصف به العقل ، نابع من أن كل شيء ظاهر بسببه ، فكل ما هو منكشف للبشر وظاهر له ، آية من آيات وجوده ومن هنا كان على الانسان الغافل عن عقله أن يستثير في ذاته أكبر كمية ممكنة من معارفه ليجد انه لا يحيط بها علما لولا وجود (نور) لديه

---

(١) يقتبس ذلك من كتاب الفكر الاسلامي مواجهة حضارية (للمؤلف) الفصل الاول ــ عن المعرفة والتصورات البشرية .

بكشفها وهو العقل فالالتفات الى آثار العقل ، التي هي تلك المعارف التي يكشفها العقل للانسان هذا الالتفات هو آقرب وسيلة لمعرفته .

واذا استيقظ العقل في ذات الانسان كان من أبرز صفاته الايمان بذاته والثقة التامة بما يكشفه من حقائق .

خلاصة القول : ان الاسلام ينطلق من منهجه من قاعدتين :

١ ــ التذكرة بأن معرفة العقل هي بداية معرفة معارف الانسان الاخرى .

٢ ــ التوجيه بأن معرفة العقل لا تتم الا بالعقل نفسه وذلك عن طريق اثارة ومقارنة بعضها بالبعض .

وحين يتعرف الانسان على العقل ، يستطيع ان يميز العلم الصحيح عن الخيال الفارغ ، فالعقل يحكم باستحالة التناقض والتضاد ، وقبح الشر والظلم ، وبصحة الاشياء التي يحس بها الانسان ، وأخيرا يستطيع أن يرد كل حادثة الى سببها . كما يتأكد العقل من أي هاجس في النفس أنه حق أم باطل ، بعد أن يعيده الى مصدره .

والاسلام أولى جانب الحس أهمية مناسبة حيث دعا الى النظر في آيات الباري والسير في ارض الله ، ولكنه أولى العقل أكثر اهتمامه. لانه موجه الحس ولنفترض أننا أبعدنا العقل لحظة واحدة من مجال الحس لنرى كيف تتخبط في الضلالات حتى لا نستطيع كشف آية حقيقة ــ مهما كانت ضئيلة ــ بواسطة الحس وحده ، بل ان نكران العقل يدعونا الى التشكيك في وجود أية حقيقة وراء الحس ، بل قد ينتهي بنا الى الشك في ان الحس شيء نابع من الاعصاب ذاته ؟ بمعنى ان العين لا تبصر الحقائق الخارجية انما هي تصنع حقائق وتبصرها ؟! فان لم يكن لدينا نور يحكم بأن مصدر الاحساس لابد أن تكون حقيقة خارجية ــ لانه لا يمكن وجود سبب لها

ـ لو لم يكن هذا النور موجوداً لدينا فان ايـة حجة لا تقدر على اثبات الحقائق وراء الاحساس •

وصرح العلم ـ الذي نفتخر به اليوم ـ يقوم على أساس التجربة ، والتجربة تقوم على قاعدتين ، الحس والعقل ان الحيوان لا يمكنـه ان يكتشف من تجاربه علما ، مع أنه يحس ربما أشد وأقوى ، فالكلب ذو سمع شديد والصقر ذو بصر نافذ ، ولكنهما يفتقران الى التجارب لانهما يحسان فقط دون أن يعقلا (حسهما) •

ثم اننا لا نملك في أي قانون من قوانيننا العلمية ، التجربة الشاملة التي تحصي جميع أفراد الظاهرة ، دعنا نفترض قانون التجاذب الـذي بشر به (نيوتن) هل جرب مكتشفه كل تجارب الكون ؟ كـلا فهـذا مستحيل ، ان ما فعله لم يعد اجراء التجربة على بضعة حوادث حتى حصلت له القناعة التامة بأن أية حادثة أخرى لا تعدو أن تكون مثل تلك التـي جربها •

وهذه القناعة من أين حصلها بها ؟ من أين استطاع قياس ما يأتي بما مضى ؟ أفليس لحكم عقله بالمعادلة التالية :

ان التجربة الماضية دلت بطريق الحس على وجود تجاذب بين جسم وجسم مخصوصين ، وأن هذا التجاذب ليس صدفة وانما هو بسبب وجود علة في الاجسام ، وحسب عدة ملاحظات على أنواع من الاجسام عرفنـا وجود هذه العلة فيها ، فدل على أن كل الاجسام ذات قوة تتجاذب بها •

ترى كم حكما عقليا اشترك على اعطائنا هذا القانون العلمي ؟! ومع اننا لا نرتاب في هذه الاحكام فان أحدا منا لا يدعي أنه قـد جربها هي الاخرى وأنه لولا التجربة لم يكن يعترف بها !

خلاصة القول : ان الاسلام ـ حين يذكرنا بالعقل ، ويوجه الفرد

الى نوره وهداه ـ يؤمن العقل بذاته ، وبما يكشفه لنا وفي طليعته الايمان بسبدأ الثبات في الظواهر ، والذي يفيدنا في فكرة (السنة) الاسلامية . أن أبسط دليل على صحة فكرة السنة هو الضرورة العقلية التي تتسم بها هذه الفكرة ، وهذه الضرورة هي من مكتشفات العقل ، والعقل ذاته ثقة وايمان لا يمكن الشك فيه ، والدليل على ذلك ، هو ذاته ليس أكثر . من هنا نعرف أن نظرية (راسل) في فكرة القانون هي نظرية غير صحيحة .

يقول راسل :

ـ ان فكرة الضرورة فكرة عقلية انسانية، ومن ثم فان القول بوجودها في العلاقات السببية أو غيرها ، معناه أن الانسان يخلع على الطبيعة أرادة شبيهة بارادته .

وادعى راسل انه يمثل الفكرة العلمية المعاصرة واعتمـد على عدة أمثلة عجيبة لينكر وجود العلاقات السببية بين الاشياء الطبيعية فهو يريد منا ألا نستنبط مثلا من جر الحصان للعربة أو رفع الانسان لاحد الاثقال بيديه دليلا على وجود قوى في الطبيعة ، لان مثل هذه الافعال هي التي دفعت بالناس قديما وحديثا الى القول بوجود قوى مؤثرة في الطبيعة ، واذن لا سبيل الى فهم الطبيعة ـ في ظنه ـ الا اذا جردناها من تلك الفكرة الانسانية لان الطبيعة ليست ـ حسب خبرتنا الحسية ـ سوى حوادث تتعاقب او تتعارض دون أية ضرورة [1] وهنا ينبغي أن نقف قليلا لنتساءل

١ ـ ما هي الضرورة عند راسل وانصاره تلك التي ينكرها هـل معناها : أن الكرة التي تتدحرج أمام ضربـة اللاعب . ليست الضربـة علة مطلقة في دحرجتها نقول «نعم» ولكن أليس هناك واقع فرض حدوث هذه الظاهرة بحيث أنه لو تكرر لتكررت؟! اذا قال راسل لا فنحن نعارضه

---

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٢٥٧ .

وان قال نعم فنحن معه . وفعلا هو يؤمن بذلك حين يقول : ان الامر في الطبيعة ليس فوضى ، مع انه وصف العلاقة السببية بانها علاقة اطراد [1].

فاذا كانت علاقة اطراد فان هناك ضرورة في هذا الاطراد وهذا ما يجب أن نؤكد عليه من أن هناك شيئا يفرض هذا الاطراد .

٢ ــ ثم أن العقل يؤمن بالضرورة . ولذلك يثق ثقة كاملة لا ريب فيها ــ بحدوث ظاهرة عندما تحدث الظواهر ذات العلاقة السببية بها مثل ظهور الاحتراق لدى ظهور النار وموجبات الحرق .

ان راسل اراد ان يتوغل في فهم الضرورات التي يؤمن بها العقل فتعقد عبثا وكان من الافضل له أن يهتدي بنور العقل مباشرة ودون اللف والدوران .

القانون

قبلئذ فرقنا بين القانون والسبب وكان القانون هو التعبير عن العلاقات الخارجية للاشياء بينما السبب هو التعبير عن القوى الداخلية فيها .

وعلينا الآن أن نلقي نظرة خاطفة على أنواع القوانين ، في البدء ينقسم القانون الى :

أ ــ قوانين رياضية وهي التي تعبر عن طبيعة العلاقة دون أن تكون متجسدة في الاشياء . كالقوانين الحسابية والهندسية .

ب ــ قوانين طبيعية وهي التي تعبر عن علاقات الاشياء الواقعية ببعضها .

---

(١) المصدر ص ٢٥٧ .

(٢) المصدر ص ٢٥٨ .

أما عن القوانين الرياضية فالحديث مرهون بالفصل الخاص به من هذا الكتاب •

بينما القوانين الطبيعية تنقسم بدورها الى :

١ ـ الربط بين ظاهرتين تسبق الواحدة الثانية وتنعكس تغيرات الاولى على الاخرى ، كما يؤثر الماء في ذوبان السكر •

٢ ـ الربط بين ظاهرتين تتبادلان التأثير بينهما فكل منهما تؤثر في الثانية كالتفاعلات الكيمياوية بين المواد •

٣ ـ الربط بين ظاهرتين تقترنان في الوجود دون أن تؤثر أحديهما على الاخرى كاقتران السواد في البشرة بتجعيد الشعر مع ان كلتي الظاهرتين متأثرتان ليس ببعضهما بل كل واحدة بعامل ثالث والقسم الاول من القوانين هو القسم الذي يدور عنه حديث السبب عادة اذ نسمي الظاهرة المؤثرة بالسبب والظاهرة الثانية بالمسبب وقد تقدم في الفصل السابق حديث مطول عنه ويسمى هذا النوع بالقوانين السببية • بقي القسمان الآخران وهما : القوانين المقترنة والقوانين الوظيفية •

القوانين الوظيفية

التعريف العلمي لهذا القانون : أن كل ترابط بين ظاهرتين توجدان في آن واحد وتتغيران تغييرا نسبيا (١)• والفرق بين هذه القوانين والقوانين السببية أن القوانين السببية تهتم بالخواص الداخلية للاشياء • بينما هذه القوانين تحاول تجريد العلاقة أنى أمكن لتصبح أقرب الى العلاقات الرياضية •

فاذا كانت هناك ظاهرتان (أ) و (س) وكلما تغيرت (أ) تغير (س) عرفنا أن هناك علاقة عضوية بين (أ) و (س) •

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٢٤٥ .

وقد بدأت العلوم الطبيعية تهتم بالعلاقات الوظيفية لانها أكثر دقة من العلاقة السببية حيث انها يمكن ان تتحول الى رسم عددي كمي — وهذا هو الاتجاه السائد حاليا في العلوم المتقدمــة ، التي تحولت مــن الكيف الى الكم .

ولكن السؤال هو هل تستطيع العلــوم جميعا أن تتجه اتجــاها كميا ؟ مثلا المعارف فوق العلمية (الفلسفية) أو العلوم الانسانية أو حتى علم الحياة لا تتمكن حاليا أن تبلغ دقة العلوم الطبيعيــة الاستغناء عــن الكيف والحالة الى الكم والعدد .

ويرجع ذلك الى شدة تعقيد الظواهر الحيوية والانسانية والى عجز الباحث عن التفرقة بوضوح بين العوامل المؤثرة حقيقة وبين العوامل غير المؤثرة ، هذا الى أنه من العسير عليه أن يعزل أحدى الظواهر بطريــق التجربة كما يفعل عالم الطبيعة [1] . من هنا فالافضل أن نكتفي في مجال انعلوم الانسانية وما أشبه بالكيف والترابط السببي بشكل غامض .

القوانين المقترنة

وتعبر هذه القوانين عن ظاهرتين تقترنان في الوجود دون أن تكون أحديهما مؤثرة في الاخرى ، مثل قولنا : كل زنجي مجعد الشعر ، وهذه العلاقة تكتشف عادة قبل اكتشاف سائر القوانين اذ يعرف الانسان اولا أقتران ظاهرتين في الوجود ثم تتطور المعرفة المحدودة عنده الى العلــم بوجود علاقة عنصرية بينهما ، ثم تتطور المعرفة الى العلم بالسبب مثلا :

نحن نشاهد اولا اقتران صعود القمر الى السمــاء بصعود الماء في البحر ثم تتطور المعرفة ، حتى نعلم أن صعود القمر هــو السبب في مــد

---

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث .

البحر ـ ثم تتطور المعرفة الى العلم بأن الجاذبية القمرية هي السبب في مد مياه البحر ، ففي الحالة الاولى لاحظنا الاقتران في الوجود وفي الحالة الثانية علمنا الارتباط العضوي • وأخيرا عرفنا الارتباط السببي فهذه القوانين تعد مراحل للفكر البشري وحيث أن العلوم مختلفة من ناحية وصولها أو عدم وصولها الى بعض هذه المراحل فلذلك انقسم العلوم في القوانين •

صياغة القوانين

يتجه العلم الحديث الى التدقيق في صياغة القوانين والتعبير عنها ، ذلك لان كثيرا من الاخطاء العلمية كانت ناشئة من التعبير عن المعلومات ، فكانت المعلومات القليلة تعبر عنها بما يوهم أنها معلومات كثيرة •

فمثلا : يعلم الواحد منا وجود علاقة بين عشرة من الناس وبين البياض ولكنه يعبر عن هذه العلاقة بأكثر من حجمها فيقول : كل انسان أبيض • ويرجع الفضل في هذا التعميم الى ضعف قدرة الفرد على التعبير • اذ أنه حين يسأل كيف عبرت عن عشرة بالكل يقول : أليس معنى الكل (عشرة)؟

لذلك وجب أن نهتم في جعل صيغة القوانين مطابقة لحجم معارفنا عنها حتى لا تدخل في التعبير أكثر مما نعلمه يقينا وحين نجد في كثير من الكتب العلمية الحديثة أو القديمة تدقيقات في (معنى) الالفاظ خصوصا تلك الالفاظ المستخدمة في العلوم الطبيعية فانه اتجاه صحيح ، الهدف منه الدقة في التعبير عن القوانين ، كما أن الدعوة الحديثة التي أخذت تنصحنا الى ترويض العلوم جميعها ـ أي جعلها تتبع لغة الرموز تماما كما تفعل الرياضيات ـ هذه الفكرة انما نشأت بسبب الصعوبات التي يجدها الباحثون في التعبير عن القوانين ، حيث أن الالفاظ قد تخون ولا تقدر على (ضبط) المعلومات بالدقة الكافية ، من هنا وجب على الباحث أن

نكون دقيقا في صياغة القوانين التي يتوصل اليها حتى لا تعبر الا عن مقدار المعلومات وحدودها بالضبط ويمكن ذلك باتباع التعاليم التالية :

١ ــ لا بد من اتضاح الفكرة وبلورتها في الذهن ، بحيث يستشعر الباحث نفسه بحدود فكرته وأبعادها ويتم هذا النضج عادة عندما يقدر الباحث توضيح الفكرة بدون عناء للآخرين اذ قد يزعم الفرد ان معرفته بمواضيع ناضجة ولكنه يكتشف غير ذلك فور ما يسعى لشرح الموضوع للآخرين .

٢ ــ أعتماد الارقام والبيانات والنسب في التعبير عــن الحقيقة . حيث أنها تضع الباحث على مقربة من الواقع فمثلا : لو قلنا : ثلاثة من كل عشرة من أهل الكويت ــ هم من أصل سعودي كنا أقرب الى التعبير عن الحقيقة ، لو رسمنا خطا قصيرا والى جانب خط طويل للبيان عن نسبــة السعوديين في أهل الكويت . وهذا بدوره أضبط مما لو قلنا أقل مــن نصف أهل الكويت من أصل سعودي . وهو كذلك أضبط من القول أن بعض أهل الكويت من أصل سعودي .

٢ ــ اعتماد الارقام والبيانات والنسب في التعبــير عن الحقيقة . للفجوة الموجودة بين ما تدل عليه الارقام (أو الاحصائية) وبين الواقع ، فمثلا اذا اردنا التدليل على أن بعض أهل الكويت من اصل عربي خالص دون بعضهم الآخر ــ فأوردنا احصائية عن أهله النازحين من السعوديــة وقلنا أن ٣٠ ٪ من السعودية يوهمنا بأن الآخرين أي ٧٠ ٪ هم من أصل فارسي ، بينما الحقيقة : أن الاحصاء انما يكشف عن جانب من الحقيقة ، ولذلك يجب تنبيه القارىء عن علاقة الاحــصاء أو النسب ، بجوهــر القانون .

٣ ــ وفي الامور التي لا تخضع للارقام (كالقضايــا الاجتماعيــة والنفسية والمعارف الفلسفية) .

لا بد من اعتماد التعابير الواضحة والتدقيق فيها ونبذ التعابير الادبية الفضفاضة كالمصطلحات العلمية الغامضة ومن هنا : فان دراسةالرياضيات واللغة ، ضرورتان لفهم القوانين العلمية والتعبير عنها •

التركيب وهو نوعان :

ألف ــ التركيب العقلي :

وتعريفه أن تربط بين فكرتين لتكشف فكرة ثالثة • كما تربط بين (فكرة) أن الانسان عاقل و (فكرة) أن العاقل قادر على الاختراع لتكشف أن : الانسان قادر على الاختراع (وهذه فكرة ثالثة) •

وهذا التركيب بؤرة القياس المباشر وغير المباشر الذي تتحدث عنهما في فصل القياس •

بيد أن التركيب العقلي يعني أيضا افتراض خطة تركيب مادي قبل البدء به اذ ما من تركيب مادي في الواقع الا ويسبقه تركيب عقلي بمعنى أن الانسان يفكر في تركيب الاجزاء الى بعضها ثم يبدأ بذلك •

باء ــ التركيب المادي •

والهدف من التركيب المادي قد يكون معرفة الخصائص التيتنطوي عليها العناصر وهذه من أنواع التجربة الفجة • بينما قد تكون الغاية من التركيب المادي اثبات نظرية سابقة • كما اذا اردنا التحقق من فكرة ان الماء مركب من عنصري الاوكسجين والهيدروجين • هنالك أمامنا طريقتان للتثبت : الاولى : تحليل قدر من الماء الىعنصرين والثانية تركيبالعنصرين حتى يتحولان الى ماء وهذا النوع هو التركيب المادي !

ويمكن التمثيل له أيضا بالتأليف بين معادن مختلفة بنسب معينة من النحاس والرصاص والقصدير • وهذا النوع من التركيب التجريبي هام جداً باعتباره وسيلة الى الاختراع ، وهناك علاقة متبادلة بين التحليل والتركيب بمعنى أن كلا منهما يؤدي وظيفة الآخر ، ولذلك وجب ألا تنظر

اليهما كما لو كانوا عمليتين تختلف أحديهما عن الاخرى تماما ، بل على اعتبار أنهما مظهران لعملية واحدة بعينها ، وهي تمثل التفكير الانساني في جملته ، حقا قد يغلب أحد هذين المظهرين على الآخر ، ولكن ليس من الممكن أن يستقل أحدهما عن الآخر تماما ، فلا بد للتحليل من التركيب والعكس بالعكس ، فان الغلو في التحليل ينتهي بالمرء الى نسيان أن الظواهر الطبيعية ليست من البساطة الى الحد الذي يتصوره ، ولان الغلو في التركيب يؤدي الى وضع فروض سريعة تقوم على أساس الملاحظات الخاطئة والآراء الوهمية ٠

وقد استفادت العلوم الحديثة ، من عمليتي التحليل والتركيب ، في كافة الحقول ، وذلك بعد ان وضع قواعد خاصة بكل علم فيها وسوف تتحدث طويلا عنهما !

المنطق الإسلامي أصوله ومناهجه

القسم الخامس عن

مناهج العلوم الإنسانية

المناهج الاجتماعية

- بحوث تمهيدية
- تفصيل المناهج الاجتماعية

القسم الخامس عن مناهج العلوم الانسانية

المناهج الاجتماعية ـ البحث الاول

بحوث تمهيدية

- بماذا تميزت هذه المناهج
- ما هو علم الاجتماع ؟
- ما هي مناهج علم الاجتماع ؟
- دركايم والمنهج الاجتماعي
- مناهج دركايم الاجتماعية المقارنة ـ التغييرات المتساوقة ـ طريقة البواقي

أولا : لماذا تميزت هذه المناهج ؟ لعدة اسباب هي التالية :

١ ــ الانسان يختلف عن الطبيعة المحيطة به والمنهاج الذي يـدرس حياة الانسان ينبغي أن يختلف هو الآخر عن مناهـج دراسة الطبيعـة ، فالانسان مادة حية عاقلة ذات ارادة وتحدي ، ولا يخضع للدراسة بسهولة اذ هناك عوامل عديدة تدخل في هذه المواقف الاجتماعية والسلوكيةوهذه العوامل تشمل الجوانب الجغرافية والثقافية والاقتصادية والسياسيـة والاجتماعية والبيولوجية وغيرها ، وهذه تتداخل مع بعضها تداخلا عضويا ديناميكيا بحيث يصبح من العسير فصل أجزاء الموقف عن بعضها والتحكم فيها أو عزلها (١) .

٢ ــ أن الذي يدرس الانسان هو انسان مثلـه ، يخضع لـذات العوامل التي يخضع موضوعه لها . مما تؤثر على دراسته تأثيرا سلبيـا كبيرا ، وحسب تعبير بعضهم ان العلماء الاجتماعيين يهدفون الى تحقيق غاية غريبة ، فهم يريدون أن يكونوا موضوعيين في مجـال يمثل الجانب الذاتي من الحياة (٢) .

٣ ــ الانسان لا يزال عنصرا مجهولا بالقياس الى الطبيعة. وبالنسبة الى الحاجة الى التعرف عليه ، ففي نفس الوقت الذي تزداد الحاجة الى

---

(١) و (٢) اصول البحث العلمي ومناهجه ص ٣٠٩ ــ ٣١٠ .

معرفة الانسان مع أزدياد مشاكله ، يزداد الموضوع غموضا ، ولذلك فأن المصطلحات المستخدمة في العلـوم الاجتماعيـة لينـة مطاطـة مرنـة (Soft - Flexible) أمـا في العلـوم والتكنولوجيا فيطلـق على مصطلحاتها أنها صلبة (Hard) للدلالة على الدقـة في المقارنـة بـين المفاهيم [1] .

٤ ـ ولان العلوم الاجتماعية جديـدة فان الكمية المتوفرة مـن المعلومات قليلة فيها ، ولذلك فهي لا تستطيع أن تقارن بين مجموعة مـن الظواهر مجموعة ، نظيرة لها مقارنة تعطينا رؤية واضحة للحياة ، بعكس الظواهر الطبيعية التي أصبحت اليوم وبسبب كثرة الموضوعات خاضعة للمقارنة ـ وبالتالي تغييرات كمية محددة ، وهذه النقاط الاربع هي التي جعلت مناهج العلوم الاجتماعية مختلفة في كثير من التفاصيل وفي بعـض الاصول مع سائر العلوم الطبيعية .

العلوم الاجتماعية ما هي :

والعلوم الاجتماعية تشمل علـم الانسان Anthropology والاقتصاد ، وعلم السياسة ، وعلم الاجتماع ، ومعظم علـم النفس . ولكن لان علم الاجتماع أم لسائر العلوم تاريخيا وعلميا . ولان سائـر العلوم الاجتماعية منبعثة منه تقريبا فسوف نتحدث قليلا عنه للمحافظـة على التسلسل التاريخي للبحث .

ثانيا : علم الاجتماع ما هو ؟

يسعى الباحثون الى التعرف على عدة جوانب من الاجتماع. ويمكن أن نسمي جميعها بـ (علم الاجتماع) والجوانب هي :

---

(١) اصول البحث العلمي ومناهجه ص ٣٠٨ .

١ ــ التعرف على السنن والقوانين العامة التي تحكم حياة المجتمعات، من حيث وجودها وتماسكها ونموها وتطورها وانهيارها . وقد حاول (ابن خلدون) التعرف على هذه الناحية الهامة من حياة الانسان في مقدمته على التاريخ ، واستطاع أن يكتشف شيئا كثيرا مما يسميها بـ (السنن الاجتماعية) كما أن نظرات (كونت) في تطور المجتمعات من دينية الى فلسفية الى علمية ساعد على فهم هذه السنن ولكن الافضل أن ندعوا هذه المناهج بـ (علم فلسفة التاريخ) وقد سماه البعض بعلم الحضارة ، وهي تسمية عادلة .

٢ ــ التعرف على الخطوط العامة للنظم السليمة التي لا بد أن تسود المجتمعات :

وقد كانت محاولات رواد علم الاجتماع السابقون من أمثال أفلاطون وأرسطو مركزة للتعرف على هذه الناحية . ولذلك ناقشوا أنواعا من الدول الديمقراطية والارستقراطية ، والملكية وتحدثوا عنها وعما في كل واحدة منها من خير وشر . والافضل أن نلحق هذا البحث الى علم السياسة .

٣ ــ السعي وراء معرفة حالة المجتمعات الراهنة وما فيها من عوامل القوة وأسباب الضعف ، وذلك للكشف عن مشاكلها والبحث عن حلول متناسبة لها . وهذا البحث هو الذي لا بد أن نسميه بحق علم الاجتماع ، والذي يتميز عن غيره من العلوم بما يلي :

ألف ــ موضوع علم الاجتماع ليس الفرد كفرد وانما مجموعة أفراد .. والظواهر التي تدرس في هذا العلم ليست ماضية حتى نسميها بالتاريخ ، كما أنها لا تهدف معرفة النفسية التي يعيشها أبناء المجتمع ، لان دراسة النفسية هذه مرتبطة بعلم النفس الاجتماعي الذي يتنازل لعلم الاجتماع عن دراسة المشاكل المادية (مشكلة ــ التخلف العقلي ــ

والتفكك العاطفي ـ والفقر ـ والمرض ـ وأسبابها) كما يتنازل علم الاجتماع بدوره لعلم النفس الاجتماعي عن دراسة خلفيات السلوك السائد في أبناء المجتمع ، ولكن بالرغم من هذا التنازل المتبادل يبقى علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي مرتبطين ببعضها لفترة طويلة لزيادة المعونة المتبادلة بينهما مما أدى الى بعضهم (تارد) الى عدم التفريق بين العلمين [1] •

باء ـ ووسيلة علم الاجتماع المفضلة في التعرف على موضوعه هي العودة الى الظواهر والاحداث الاجتماعية الراهنة ومحاولة تفسيرها بما يتناسب مع المناهج العلمية العامة •

ولذلك أصبح علم الاجتماع يختلف في الموضوع والوسيلة عن غيره من العلوم خصوصا علم النفس الاجتماعي •

ثالثا : ما هي مناهج علم الاجتماع ؟

كان دوركايم من رواد علم الاجتماع الحديث ، وقد اختار لبحوثه تصلح بعد تغيير مناسب للعلوم الاجتماعية ألا أن هناك مناهج أقرب من غيرها الى هذه العلوم مثل منهاج المسح ، وفيما يلي نبين بعض المناهج العامة بعد تكييفها بما يتناسب مع العلوم البشرية ثم نستعرض منهاج المسح •

دوركايم ـ والمنهج الاجتماعي ـ

كان دوركايم من رواد علم الاجتماع الحديث ، وقد اختار لبحوثه برنامجا من أربع نقاط هي بمثابة أسس الفكر الاجتماعي

يجب أولا (أن يلاحظ الظواهر الاجتماعية على أنها أشياء) وتهدف هذه القاعدة الى ضرورة التخلص من طريقة تحليل المعاني الشائعة

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٤١٧ .

والافكار غير المحصة لان المعاني العامة التي يتداولهـا الناس بـصدد الظواهر الاجتماعية نشأت بطريقة غير علمية • ولـذا فهي لا تعبر تعبيرا صادقا عن حقيقة هذه الظواهر [1] •

ثانيا من الواجب (أن يتحرر عالم الاجتماع بصفة مطردة من كـل فكرة سابقة) [2] وكانت هذه هي نفس القاعدة التي أوجبها ديكارت على نفسه عندما أخـذ يشك في صدق الآراء التي سبق أن تلقاهـا عـن الآخريـن •

ثالثا يجب (أن ينحصر موضوع البحث في طائفة خاصة من الظواهر التي سبق تعريفها ببعض الخواص الخارجية المشتركة بينها) ومن الضروري أن ينصب البحث على جميع الظواهر التي تتوفر فيهـا شروط هـذا التعريف [3] •

ولذلك لا يجوز أن نهمل جانبا من الجوانب الاجتماعية ونقتصر على جوانب ثانية حيث أن طبيعة الظواهر الاجتماعية أنها متصلة ببعضهـا فأذا أهملنا جانبا ، كانت النتائج التي توصلنا اليها ناقصة هي الاخرى •

رابعا ـ يجب على عالم الاجتماع لدى شروعه في طائفة خاصة مـن الظواهر الاجتماعية (أن يبذل جهده في ملاحظة هذه الظواهر من الناحية التي تبدو فيها مستقلة من مظاهرها الفردية) ولذلك لا يجوز طرح نفسية الباحث على المشاكل • وذلك بدراسة المشاكل التي يعيشها الباحث نفسه وبالطريقة التي يعيشها •

وبالتالي يجب على الباحث في العلوم الانسانية أن يجهد نفسه كثيرا

---

(١) و (٢) المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٤٢٤ •

(٣) المصدر ص ٤٢٥ •

حتى يصبح مجردا عن موضوع بحثه لانه بشر وجزء من هذا الموضوع ، ولذلك يستصعب عليه أن يبقى بعيدا عنه ، وعن تبادل التأثير معه .

مناهج دوركايم ــ منهج المقارنــة

وأعتمد دوركايم على منهج المقارنة للكشف عن القوانين الاجتماعية وذلك لان المقارنة بين ظاهرتين أو بين موضوعــين تكشف كثيرا مــن العوامل المؤثرة فيهما . ولذلك فرق دركايم بين ظاهرة سليمة وظاهــرة مرضية في المجتمعات .

ويراد بالاولى كل ظاهرة توجد في سائر المجتمعات الشبيهة بالمجتمع الذي ندرسها فيه بشرط أن يكون وجودها في هذه المجتمعات كلها فــي مرحلة محددة من مراحل تطورها [1] .

أما الثانية فهي نقيضة للاولى وقواعد التفرقة ثلاثة :

١ ــ تعد الظاهرة الاجتماعية سليمة بالنسبة الى نموذج اجتماعــي معين وفي مرحلة معينة من مراحل تطوره أذا تحقق وجودها في أغلــب المجتمعات المتحدة معه في النوع وأذا لوحظت هذه المجتمعات في نــفس المرحلة المقبلة في أثناء تطورها هي الاخرى [2] .

٢ ــ ويمكن التحقق من صدق تنائج القاعدة السابقة ببيان أن عموم الظاهرة في نموذج اجتماعي معين يقوم على أساس من طبيعــة الشروط العامة التي تخضع لها الحياة الاجتماعية في هذا النموذج نفسه .

٣ وهذا التحقق ضروري اذا وجدت هذه الظاهرة في بعض أنواع المجتمعات التي لم تنته بعد من جميع مراحل تطورها [3] .

---

(١) المصدر ص ٤٢٥ .
(٢) المصدر ص ٤٢٦ .
(٣) المصدر ص ٤٢٨ .

منهج التغييرات المتساوقة

ويعتمد هذا المنهج على صلة التغيير في ظاهرة معينة ، بالتغيير في ظاهرة ثانية فكلما زادت تلك زادت هذه وكلما قلت تلك قلت هذه .

وقد أعتمد (دوركايم) على هذه الطريقة كثيرا ، وعبر عنها تعبيرا بليغا حين قال :

يكفي ان يلاحظ عالم الاجتماع ان ظاهرتين تتغيران تغيرا نسبيا في عدة حالات ، لكي يجزم بأنه (يوجد) أمام أحد القوانين الاجتماعية [1].

ويعدها (دوركايم) أفضل الطرق ، لانه يكفي أن يقارن الباحث بين التغييرات التي تطرأ على ظاهرتين بصورة مطردة ، لكي يحكم بوجود علاقة بينهما ، ولان هذه الطريقة توقفنا على وجود صلة وثيقة بين الظاهرتين نظرا لان تطور كل منهما راجع الى طبيعة صفاتها الذاتية [2] .

والواقع ان بساطة هذه الطريقة ، وسهولة معرفتها ، هي التي جعلت هذه الطريقة أفضل الطرق عند (دوركايم) وآخرين . وهي أشبه بطريقة الملاحظة ، بينما المناهج الاجتماعية الاخرى ، فيها الكثير من عناصر التجربة . ويجب أن نعلم أن الظواهر الاجتماعية لا تتطور دائما ، مثنى مثنى ، حتى تصح ملاحظة تغييرات ظاهرتين فقط ! بل يجب ملاحظة كافة الظواهر المحيطة ذات التأثير المباشر في الظاهرة موضوعة الدراسة ، حتى تصح مراقبة كل صلة بينها وبين التغيير في تلك الظواهر ، ثم أنه كلما تقدم علم الاجتماع، كلما قل اعتماده على هذه الطريقة، لانها أقرب الى الملاحظة منها الى التجربة ، وكثر أعتماده على سائر الطرق ، خصوصا الخاضعة للتجربة المباشرة .

---

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٤٣٢ .
(٢) المصدر ص ٤٣١ .

طريقة البواقي

وتعني : انه بعد معرفة سلسلة من الظواهر التي تسببت عن سلسلة مقابلة من العوامل ، ومعرفة صلة كل ظاهرة بعامل ، حتى اذا بقيت ظاهرة واحدة ، وعامل واحد ، نعرف أن هذه الظاهرة مسببة من ذاك العامل .

وفي حقل الاجتماع لو حددنا خمس ظواهر أجتماعية ، وعرفنا ارتباط أربعة منها بعوامل أجتماعية ، وبقيت ظاهرة واحدة ، كما بقي هناك عامل واحد ، فلا بد ان نربط بين هذا العامل وتلك الظاهرة .

وقد أعتمد (مورس) وهو تلميذ (دوركايم) على هذه الطريقة واعتبرها أفضل المناهج وقال :

ان علماء الاجتماع يتجهون مباشرة الى أوجه الشبه التي تكشف عنها طريقة التغيير النسبي ، لانهم لا يبحثون الا عن العناصر المشتركة ، أي العناصر المبتذلة ، في حين يجب البحث عن الفروق المميزة للمجتمعات والبيئات المختلفة ، وهذه الفروق هي التي يمكن الاهتداء بها الى معرفة القوانين . وقد انتقد دوركايم هذا المنهج وقال : أما طريقة البواقي ، فهي غير صالحة لانها لا تستخدم ألا في العلوم التجريبية التي قطعت شوطا كبيرا في تقدمها ، أي في العلوم التي تم الكشف فيها عن عدد كبير من القوانين ، بحيث أصبح من الممكن الكشف عن قوانين الظواهر التي بقيت بدون تغيير حتى الآن (٣) .

والواقع أن طريقة البواقي هي أصعب الطرق حتى في العلوم الطبيعية ، وما أشبه ، لانها تتطلب معرفة شاملة بالظواهر وبالعوامل المؤثرة فيها بشكل احصائي ، الا انها طريقة جيدة ، ويسمح لنا تقدم

---

(٣) المصدر ص ٤٣١ .

علم الاجتماع الحديث ، باستخدامها في بعض المجالات .

فهذه هي الطرق الجوهرية الاربع للتجربة ، والتي لا تعدو المناهج الاجتماعية الاخرى ، ـ التي سوف نتحدث عنها ـ لا تعدو أن تكون في جوهرها واحدة ، من هذه الطرق أو أكثر ، الا أنها تتميز بأنها أقرب الى علم الاجتماع ، وأكثر تكيفا مع موضوعاته .

القِسم الخامِس عَن مناهج العلوم الانسانية

المناهج الاجتماعية ـ البحث الثاني عن

تفصيل المناهج الاجتماعيّة

- كلمة البدء
- المسح (اقسام من المسح)
- الاحصاء (تجميع البيانات الاحصائية/ ادوات تجميع البيانات /الملاحظة/ المقابلة /عيوب الملاحظة/ تجهيز البيانات الاحصائية تحليل، البيانات الاحصائية/حساب الاحتمالات في الاحصاء/العينة)
- الوثائق الشخصية (المقابلة الشخصية/الوثائق)
- دراسة الحالة

كلمة البدء

اذا أبتغينا معرفة واقع مستشفى معين ، كم خطوة في الدراسة يجب ان نخطوها ؟

١ نشرع بدراسة صفات هذا المستشفى ، و (مسح) الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المرتبطة به [1] . لنتعرف : على درجة المستشفى بين المستشفيات، ومستوى الافراد فيه — من ناحية الغنى والفقر — ومستوى الاطباء المشرفين عليه وهكذا.

٢ — وندعم معارفنا عن ظروف المستشفى ، وطبيعته ، بالاحصاءات: كم سريرا فيه ؟ وكم رجلا غنيا ؟ وكم فردا فقيرا ؟ وكم يصرف فيه شهريا ؟ وهكذا .. اذ ان الاحصاء ، يجعلنا أقرب الى الحقيقة .

٣ — ونتصل بافراد المستشفى ، ونسألهم — مباشرة — عن مستواهم الاجتماعي ، وعن السبب الذي دعاهم لاختيار هذا المستشفى، وعن آرائهم في المستشفى .

وللمزيد من المعرفة نراجع سجلات المستشفى ، لنعرف مقدار التقدم في العلاج بالنسبة الى علاج كل فرد ، مما يساعدنا — بالطبع — في التعرف على وضع المستشفى (مما يعتبر جميعا وثائق شخصية) .

٤ — ولا يفوتنا البحث عن (تاريخ) الوضع في المستشفى ، واذا لم يكن له تاريخ طويل ، فلا بأس بمراقبة وضع المستشفى خلال فترة معينة

(١) اصول البحث العلمي ومناهجه ص ٢٧٩ للدكتور احمد بدر ...

لنعرف طبيعة المتغيرات فيه ، ان هناك احتمالات للخطأ يمكن ان ندرأها عن طريقة دراسة الحالة السابقة ، فمثلا : قد تلاحظ ان المستشفى تجاري، ومع ذلك يزدحم بالمرضى ، فنكون رأيا معينا فيه هو حسن ادارة المستشفى لهم ، ولكن يتبين ــ بدراسة التاريخ ــ ان المستشفى كان افضل وضعا سابقا ، والناس اقل اقبالا ، وكان السبب قلة الدعاية عنه ، اما الان فتغير الوضع بسبب صرف مبالغ طائلة ــ مثلا ــ للاعلام •

٥ ــ وبعد ان تتجمع الاوصاف الكيفية (المسح) والكمية (الاحصاء) ودراسة الاحوال الخاصة والداخلية (الوثائق الشخصية) والاوضاع السابقة (التاريخ) نلقي عليها جميعا ، نظرة واحدة لـ (دراسة الحالة) ، من حيث العموم ولمعرفة روابط البيانات بعضها ، واستنباط فكرة عامة عنها ••

هذه هي المراحل الخمس لدراسة اي موضوع اجتماعي وهي تتصل ببعضها وقد لا يمكن الاستغناء عنها او عن واحدة منها في اغلب الدراسات الهامة ، وهكذا فعل اغلب المهتمين بالدراسات الاجتماعية واليك بعض الامثلة الواقعية التي تلقي ضوءا على طبيعة المناهج الاجتماعية الحديثة :

أ ــ المصلح المعروف فريدريك ليبلاي Frederic Leplay)

انفق حوالي ربع قرن ــ من حياته ــ في التعرف على حياة الطبقات الفقيرة ، وملاحظة طرائق حياتهم •

وكان يأمل ان تكشف دراساته العناصر الاولية والضرورية التي توفر للاسرة وللمجتمع حياة الرفاهية السليمة ، وحتى يحقق هذا المثل : فقد عاش مع حوالي ثلاثمائة اسرة ، من اسر الطبقات العاملة في فرنسا وكانت طريقته المفضلة ان يعيش مع كل اسرة وقتا معينا ، وان يعوض

الاسرة ـــ ماديا ـــ نظير هذه الاقامة ، وكان يدرس مصادر دخل الاسرة بصفة عامة ، وكيفية تناولهم لامورهم المادية والمعيشية .

ونحن نلاحظ ان قيـام ليبلاي بادخـال اسلوب الملاحظة المباشرة والتفصيليـة ، لبعض الاسر الممثلة لقطاع معين ، يعتبر اسهامـا مبتكرا وجديـدا ، في دراسة المشاكل الاجتماعية ، كمـا وضع اسس استخدام الخطة العامة المفصلة واستخدام المقابلات والاستبانات ، ومراجعة سجل الحسابـات ، وغيرها من السجـلات ، لتحقيق بياناته ، كمـا استخدم (ليبلاي) دراسة الحالة ، والوصف الموضوعـي للتاريخ ، واوضـاع الافراد والجماعات [1] .

٢ ـــ تشارلز بوث (Char es - Boofh) كـان احد المصلحين الاجتماعيين ، وقد اوجـد اسلوب الدراسة الشاملة ، لحيـاة المجتمع ، وقد استعان (بوث) بعدد من المعاونين المقربين ، واستـأجر حجرة في الحي الذي يقوم بدراسته ، وذلك لملاحظة النشاطات المختلفـة لسكانه ، في جميع ساعات الليل والنهار ، وكان يعمـل معهم ، ويلبس مثلهم ، ايضا ويسعى وراء المعلومات عن طريق المقابلة المطولـة (تمكث احيانا من ١٨ الى ٢٠ ساعة) .

واعداد السجلات المكتوبـة ، واستطاع بذلك ان يعـد لمجموعة مدهشة من البيانات والاحصاءات المبوبة التي اظهر بها العلم الصلة الرقمية بين الفقر والبؤس ووالحرمان ، وبين دخل وراحة الطبقات العاملة .

هذي امثلة للمناهج الخاصة بالعلوم الاجتماعية ، ويجب ان نعترف بانها امثلة بدائية ولكنها تصلح ان تعطينا فكرة عامة عن هذه المناهج ، تمهيدا للخوض في تفاصيل المناهج فيما يلي : وهي خمسة مناهج ، واحد

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨٦ .

منها مرتبط بالتاريخ ـ ولذلك تؤخره الى الحديث عن التاريخ واما المناهج الاخرى فهي : المسح ـ والاحصاء ـ والوثائق الشخصية ـ (ثم التاريخ الذي نحذفه حاليا) ـ ودراسة الحالة .

الف : المسح

تعريفه : هو منهج يهتم بدراسة الظروف الاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية ، وغيرها في مجتمع معين بقصد تجميع الحقائق ، واستخلاص النتائج اللازمة ، لحل مشاكل هذا المجتمع [1] .

وضرورة المسح آتية بسبب ان الدراسة العلمية السليمة ، ينبغي ان تكون شاملة لكافة الظواهر المحيطة بالظاهرة لعل واحدة منها او اكثر ، تؤثر تأثيرا كبيرا في الظاهرة .

والمسح يعتمد على :

ألف ـ تجميع الحقائق الوصفية الدقيقة حول الموضوع فلو اردنا دراسة حالة مجتمع معين ، نجمع كل الحقائق المتصلة به من وضع المعيشة ـ البيئة الطبيعية ـ النظام السياسي ـ التقاليد المتبعة ، وهكذا .

باء ـ تحليل هذه الحقائق وربطها ببعضها او لا اقل تسجيلها في بيانات منسقة مثلا : في الموضوع السابق نربط بين النظام السياسي ، وبين التقاليد المتبعة ، كما نربط بين وضع المعيشة وبين البيئة الطبيعية ، والمسح قد يشمل جميع افراد المجتمع ، وقد نختار منهم طائفة متفرقة تمثل السكان كلهم ، فلو ابتغينا دراسة سكان مدينة القاهرة ، وما يتصل بعاداتهم وطرق تفكيرهم ، وطبيعة عيشهم ، كان من الصعب تحصيل

(١) اصول البحث العلمي ومناهجه ص ٢٧٩ .

الحقائق المتصلة بهم جميعا ، فلذلك نختار مـن كل منطقة من القـاهرة طائفة ، من مختلف قطاعاتهم الاغنياء ـ والفقراء ـ الكبار والصغار ـ الموظفون واصحاب المهن الحرة ـ المتعلمـون وغيرهم ـ حتى يمثـل هؤلاء جميعا اهل المنطقة .

اقسام من المسح

والمسح اقسام متنوعة لانه يهدف دراسة مواضيع شتى فقد يهـدف المسح توضيح طبيعة المجتمع بصورة عامة ، او جانب منه او توضيح حقل التربية والتعليم منه ، او الجانب السياسي منه او الجانب الاقتصادي منه فمثلا : دراسات الباحثين عن الجغرافيا الانسانية تعتبر نوعا متقدما مـن المسح الاجتماعي العام (اذ ان هـذه الدراسات لا تهـدف عادة وضع الفروض وتحليلها بقدر ما تحاول اعطاء قدر كبير من الحقائق الوصفيـة عن وضع مجتمعاتها) .

وبعض انواع المسح تهدف توضيح حقل معين من المجتمع وذلك ـ كالانواع التالية :

١ ـ « هناك دراسات عن عادات المشاهدين الاطفال للتلفزيون وهي التي قام بها بـول وينتي (Paul - Witty) وقد قـام هذا الباحث بنشر تقارير سنوية عن دراساته تلك وذلك منذ عام ١٩٥٠ ، وقد اشار في هذه التقارير الى الفترة التي يقضيها التلميذ امام شاشةالتلفزيون، والبرامج المفضلة لديه في المرحلة الاولية والثانوية ، وكذلك بالنسبـة لاباء التلاميذ ومعلميهم ، كما بذل هذا الباحث جهدا في ايجـاد وتوضيح العلاقة ، بين مشاهدة التلفزيون ، والذكاء القرائية او التحصيل العلمـي وغير ذلك من العوامل [٢] .

---

(٢) المصدر ص ٢٨١ .

٢ ــ ومن بين الدراسات الشهيرة (في المسح الهادف توضيح حقل من حقول المجتمع وهو هنا الحقل التعليمي) ذلك المسح الذي استغرق ست سنوات للتعرف على التحصيل العلمي المقارن للرياضيات في اثنــي عشر دولة واشترك في هذا المسح ١٣٢٠٠٠ طالب ١٣٠٠٠ مدرس ٥٠٠٠ مدرسة ٠

٣ ــ وهناك دراسات تقوم بها معاهد خاصة في العالم ، لمسح الحقل السياسي في المجتمع ، كتلك الدراسات الدورية التــي تقوم بها معهــد غالوب في الولايات المتحدة ، لتحديد اتجاهات الرأي السياسي في امريكا، ومنذ عام ١٦٠ بدأت الاستفتاءات الشعبية السياسية (والمسح السياسي) تتنبأ بدقة نسبية معقولة (١) والمسح المتكرر خلال فترة طويلة ، يفيد في توضيح علاقة الظاهرة ، بالمتغيرات من حولها ، فلو كررنا مسح القدرة على القراءة السليمة ، عند طلاب الابتدائية ٠ عشر مرات كل عام مــرة نعرف طبيعة المناهج الدراسية ومدى نموها ٠

باء ــ الاحصاء

لا فرق بين المسح والاحصاء ، الا ان المسح يتميز بالجوانب الوصفية الكيفية من الاشياء ، وفيه جانب شمول وعموم اذ انه يتناول عادة الظواهر الوصفية المرتبطة بالموضوع ، بينما الاحصاء يتركز على الجوانب الكمية العددية وفيه الاختصاص والتركيز وأيا كان الفرق فان الاحصاء سيبقى اداة فعالة من ادوات المسح اذ ان الحقائق الوصفية تعتمد كثيرا عــلى الاحصاءات الدقيقة ، بالرغم من انها تمتلك أدوات اخرى غــير الاحصاء والهدف من الاحصاء قد يكون مجرد معرفة طبيعية الظاهرة ، كما يهدف احصاء عدد التلاميذ في المدرسة توزيعهم على الصفوف او توزيع الكتب

---

(١) المصدر ص ٢٨٣ ٠

عليهم ، بينما قد يهدف الاستدلال بالظاهرة ، وبما فيها من ارقام واعداد على كل الظواهر المحيطة كما اذ ابتغينا من احصاء عدد الطلاب معرفة مستوى المدرسة في البلاد ، ومدى دلالة ذلك على الوضع التعليمي العام ، (اذا كان في الصف الواحد مثلا ٣٠ نعرف تقدم البلاد تعليميا بينما اذا كان ٦٠ طالبا نعرف تخلفها وهكذا) فالاحصاء ــ اذا ــ قسمان:

١ ــ الاحصاء الوصفي ، وهو الذي يهدف مجرد معرفة الظاهرة •

٢ ــ الاحصاء الاستدلالي : وهو الذي يهدف معرفة ظواهر مشابهة من خلال معرفة الظاهرة ، والاحصاء يجب الا يتم عشوائيا ، انما ضمن خطة يضعها الباحث وفق رؤيته الى المشكلة ، والفرضية التي يريد ان يتأكد من صحتها •

والاحصاء يتم عبر ثلاث مراحل : هي :

١ ــ جمع البيانات •

٢ ــ تجهيز البيانات •

٣ ــ تحليل البيانات •

جمع البيانات الاحصائية

وعملية الجمع [1] لا بد ان تتم بتحديد المعلومات التي يريد الباحث ان يجمعها من تحديد المجال الانساني ثم الحقل الخاص منه والذي يهدف الاحصاء التعرف عليه (مثلا : تحديد مجتمع الكويت ــ وحقل التعليم منه بالذات) ثم تحديد نوع الدراسة ، ومدى توسعها والهدف منها (اي طبيعة الفروض التي يراد معرفة صحتها) •• وتشمل عملية تجميع البيانات جانبين ــ تصميم العينة وادوات تجميع البيانات عنها :

---

(١) راجع بتفصيل الدكتور احمد حيدر اصول البحث العلمي ومناهجه .

اولا : تصميم العينة

لا بد ان يكون تصميم العينة بحيث تتوفر فيها عدة مميزات منها : ان تكون ممكنة البحث ، فلو أختار احد الباحثين لعينته ــ رجال الدولة الكبار ، الذين يصعب اعداد بيانات كافية عنهم فانه لا ينجح .

٢ ــ ولا بد ان تكون ادوات البحث المتوافرة لدى الباحث كافيــة لاستيعاب العينة فلا تكون العينة اكبر حجما من قدرات الباحث ، وقبل البدء بعملية الاحصاء لا بد ان يوفر الباحث كافة الوسائل التي تعينــه على دراسته (ابتداء من الاقلام والاوراق المتنوعة ، وانتهاء بكل ما كتب حول موضوع بحثه من قبل الدارسين السابقين) .

حتى اذا شرع في دراسته لا تقف امامه بعض العقبات الصغيرة التي تمنعه عن المتابعة ، ومعلوم ان الرصيد المالي جانب هام من وسيلة البحث التي يجب توفيرها سلفا .

٤ ــ واخيرا واهم من كل ما مضى : يجب ان يكون اختيار العينة بشكل تمثل المجموعة التي نريد بحثها .

واختيار العينة متعرض لاخطاء معينــة يجب الانتباه لها والتحصن ضدها وهي الاخطاء التالية :

١ ــ اخطاء ناتجة من التحيز في عملية الاختبار . فاذا كان الباحث يحب طائفة ، واختارهم لحبه لهم وكان يبغض طائفة ورفضها لكرهه لها او اذا كان يسهل عليه او يصعب عليه الاتصال بطائفة او باخرى ، فعاملها على اساس الصعوبة او اليسر ، فان العينة لا تكون ابدا ممثلة للمجتــع الذي يريد دراسته ، وهذا الخطأ ينتشر في تلك العينات التي يختــارها الباحث بنفسه دون تلك العينات التي تختاره له القرعة مثلا .

٢ ــ اخطاء الصدفة : كما اذا كانت العينة صغيرة الحجم، بالنسبة الى اصل الموضوع ، اذ هناك معادلة عكسية بين حجم العينة وبين اخطاء الصدفة ، فلو كانت العينة نصف المجموعة فان اخطاء الصدفة قليلة جدا بينما اذا كانت العينة تمثل فقط واحد من مائة من الموضوع فاناحتمالات الخطأ بالصدفة ترتفع كثيرا ، وذلك لان المحتمل ان تكون هذه العينة تتميز بأمور لا توجد (صدفة) في الموضوع الاصيل الذي لا بد ان تمثله العينة • وكيفية تجنب هذا الخطأ ان تكبر حجم العينة •

٣ ــ اخطاء الادات : وهي تأتي ــ عادة ــ اذا كانت الوسيلة التي تستخدم في دراسة العينة غير مقبولة ، مثلا اذا كنت تجري احاديث مع العينة بالهاتف وهم ينزعجون من ذلك فلا يمكن ان تجمع آراء صحيحة موضوعية لان الآراء التي يكونها الافراد في حالة الضجر غير موضوعية عادة •

وهذا صحيح ايضا في اختيار لغة التفاهم . والتعابير المستخدمة . والهيئة الخارجية للباحث حين المقابلة وما اشبه • واختيار العينة قسمان، فقسم تختار العينة ــ عشوائيا ــ وقسم يختار بسابق تصميم ، وعشوائية الاختيار (مثلا بالقرعة) تتميز بان خطأ التحيز لا يتدخل فيها • بينما تتميز طريقة الاختيار في تقليل نسبة الصدفة فيها [1] •

ثانيا : أدوات تجميع البيانات

هناك عدة وسائل لتجميع البيانات ، تتميز كل واحدة منها بميزة ، تتلائم مع طائفة من المواضيع اكثر من غيرها، لذلك يجب على الباحث ان يلاحظ موضوعه ، ثم يختار الاداة المناسبة له ، ونوصيه باختيار اكثر من اداة واحدة في ذلك اما الادوات فهي :

---

(١) راجع اقسام العينات بتفصيل المصدر السابق ص ٣٢٤ ص ٣٣١ .

١ ــ طريقة جمع البيانات عن الاشخاص تحريريا ، بالاجابة على اسئلة مكتوبة ، ومعدة سلفا بدقة وتسمى الاستبيان •

٢ ــ طريقة جمع البيانات عن الناس بالمقابلة الشخصية ، بغية الحصول على اجابات شفوية وتسمى المقابلة •

٣ ــ طريقة التعرف على اسلوب الناس على الطبيعة وفي الميدان وتسمى بالملاحظة •

هذا مجمل الطرق ــ اما التفصيل ففيما يلي :

الاستبيـــان

ويعني اعداد مجموعة اسئلة وارسالها الى طائفة مختارة من المجتمع، للاجابة عليها ، وكثيرا ما يقع الباحثون في اخطاء تؤثر على منهج الاستبيان ، وهذه الاخطاء هي التالية :

١ ــ السؤال عن معلومات مبتذلة • يمكن الحصول عليها من مصادر ثانية •

٢ ــ عدم تعليل الاستبيان بشكل يشجع الناس على الاجابة،فيجيب الواحد منهم تخلصا من السؤال ، لا اخلاصا للحقيقة •

٣ ــ غموض الاسئلة مما يحير المجيب حول المفهوم من الكلمات ، والفاظ الاسئلة ، ويشوش رؤيته حولها •

٤ ــ عدم توضيح المطلوب كتابة من المسؤول ، فقد يقتضي ان يجيب الفرد اجابة مفصلة ، بينما يكتفي في احيان ثانية الاجابة بالايجاب او السلب •

٥ ــ تطويل الاسئلة مما يسبب ضجر المسؤول !

٦ ــ املاء الجواب سلفا على الفرد ، وذلك في صياغــة السؤال ، بشكل يوحي باجابة معينة •

٧ ــ عــدم حســاب احتمــالات الاهمــال اذ ان كثـيرا مــن المسؤولين لا يجيبــون عن الاسئلــة رأسا ، فاذا اهملنــا حساب هذه الطائفة فربما نقع في اخطاء ، وذلك ان نختار مائة شخص مــن مختلف القطاعات ، ليجيبوا على الاسئلة ، فاذا كانت المئة كلها تمثل المجتمــع ، بحيث لو نقص العدد الى تسعين لا يمثل المجتمع ، وقعنا في خطأ من جراء سكوت ٢٥ ٪ منهم عن الاجابة من هنا يجب ان نحسب احتمــالات •• الاهمال ونختار مائة وخمسين لتمثيل المجتمع بحيث لو لم يجب ٢٥ ٪ يبقى لدينا مائة شخص •

المقابلــة

وهي تعني : تحديد مجموعة اسئلة ، وطرحها ــ شفويا ــ عــلى طائفة مختارة من المجتمع (تمثله تمثيلا صحيحا) بهدف التعرف عــلى الحقائق • وتتميز المقابلة عن الاستبيان الكتابي بما يلي :

١ ــ يمكن الحصول عن طريق المقابلة على المزيد من المعلومــات ، التي قد يتردد الناس عن الاجابة عليها كتابة • بينما يستخرجها الذييقوم بالمقابلة بطرق غير مباشرة •

٢ ــ يمكن ان تكون الاسئلة المكتوبة غامضة ، فتشوش الحقائــق كما سبق بينما طرف المقابلة يقوم عادة بتوضيح الاسئلة •

٣ ــ كما ان التشجيع على التكلمَ لا يتم في الاستبيان ، بالقدر الذي يتم بالمقابلة ، خصوصا اذا شرع المتحدث في جلب ثقة المستجوب قبــل البدء بالمقابلة ولكن ومن طرف آخر تتميز طريقة الاستبيان بما يلي :

١ ــ ان عملية الاستبيان اسهل واقل تكلفة بعكس المقابلــة التي تستغرق وقتا وجهدا كبيرين ، ويصرف اوقات الباحثين عبثا •

٢ ــ كثير من الناس تزيد قدرتهم على الكتابة ، عن قدرتهــم على التحديث ، وبالنسبة الى هؤلاء تعتبر طريقة الاستبيان افضل من طريقــة المقابلة •

٣ ــ الاستحياء من السائل قد يتسبب ــ في المقابلة ــ في السكوت عن العيوب ، والجوانب السلبية لحياة المستجوب الخاصة ، بينما قد لا تكون طريقة الاستبيان كذلك ••

والافضل الجمع بين طريقتي المقابلــة والاستبيان على ان نجعــل المقابلة متأخرة للتأكد من نتائج ودوافع الاستبيان ••

وهناك عدة اخطاء يجب ان يتجنبها الذي يقوم بالمقابلة وهي :

١ ــ الا يوجه السؤال الى الفرد ، في حشد من الناس ــ الذين قد يؤثر وجودهم على طبيعة الاجوبة ومدى دقتها •

٢ ــ ألا تكون الاسئلة غامضة حتى يتشوش ذهن المستجــوب ، فتكون اجابته كذلك غامضة • او خاطئة •

٣ ــ ألا يهمل الجوانب النفسية ، التي قد تعترض طريق الاسترسال في الجواب ، وبالعكس يجب ان يشعر المستجوب انه مساهم بفعاليــة في الدراسة ، وذلك بتوضيح هدف المقابلة ، ومدى المنافع الانسانية التــي تجتنى من المقابلة •

٤ ــ ألا يملي على المستجوب ، اجابة معينة ، من خلال طريقته فــي صياغة الاسئلة •

٥ ــ ألا يعتمــد على ذاكرتــه في تسجيل الاجوبة وانما يكتبهــا

بموضوعية ، واذا غمضت عليه اجابته عاد وسأل عنها مرة اخرى حتى لا يتسبب في الخطأ .

٦ ــ ألا يجعل الفرد يتهيب المقابلة ، وذلك بجعله يشعر انه امام عمل كبير ، وبالعكس يجعله يندفع الى الحديث بعفوية وحب وصراحة .

الملاحظـة

وهي تعني : ملاحظة طريقة الانسان في الحياة ــ مثلا اثناء مشاهدته للافلام ــ اثناء قيامه بالنشاط الرياضي ــ أثناء ادائه لوظائفه الاجتماعية وهكذا .. وهذه الملاحظة تستهدف بالطبع : التعرف على الاجابة عـن ذات الاسئلة التي اردنا الحصول على الاجابة عنها ــ سلفا ــ عن طريق الاستبيان والمقابلة ، ولكن طريقة الملاحظة اصعب واكثر شمولا . لانهـا تتصل ببعض الجوانب التي لا يحب الافراد الافصاح عنها ، بـل تتصل بجوانب ينتبه اليها الفرد نفسه ، لانه لا يعتني بها ، بعكس الباحث الذي يعتني بكل صغيرة وكبيرة من عادات الناس ، ثم ان الملاحظة تتطلب اقل عدد من المفحوصين بالقياس الى سائر ادوات الاختبار لانها اقرب الـى الحقيقة . وكما يقول الدكتور احمد حيدر :

« ويمكن تسهيل عمليـة تحليل النشاطـات المتعـددة المتعلقـة بالمفحوصين بواسطة وسيلة الملاحظة المنظمة عن طريق استخدام الاجهزة العلمية ، وادوات التصوير الحديثة الدقيقة لآلات التصوير المتحركـة ، وغيرها من الادوات ، والوسائل السمعية والبصرية ، بالاضافـة الـى المذكرات التفصيلية والخرائط التـي تشير الى علاقة البيئة الجغرافيـة بتوزيع السكان والموارد الطبيعية واستمارات البحث (وهي التي تحتوي على قائمة بالمواد المطلوبة ملاحظاتها ويمكن التأشير عليها بكلمة نعم/او

لا مثلا وتفيد هذه الاستثمارات في امكانية تحويل معلوماتها الى بيانات رقمية) •

هذا فضلا عن الاستعانة بنظام الفئات (وذلك لتصنيف السلوك في فئات تساعد الباحث على وصف المواقف الاجتماعية ، بطريقة كمية) كما قد يستعان ايضا بمقائيس التقدير ، وذلك لتسجيل درجة اسهام كل عضو من اعضاء الجماعة ، في المناقشة العامة •

فهو في هذه الحالة يستخدم ــ مثلا ــ مقياسا للتقدير يقسمه من صفر الى ١٠ أي يشمل من عدم المساهمة اطلاقا في المناقشة الى اقصى المقياس وهو المساهمة الكاملة في المناقشة وباقي النقط تدل على درجات مختلفة من البعد الذي يمكن ملاحظته ومعنى ذلك : ترجمة المواقف الاجتماعية او السياسية بطريقة كمية [1] » •

هذا وينبغي ان يعتمد الباحث في كل هذه الظروف على فكره وفطنته ••• حتى لا يصبح مجرد آلة التسجيل للملاحظة ، او مجرد عبد خاضع للارقام بل يقوم هو ايضا بدور المحلل والمتدبر ، حتى يوفر على نفسه كثيرا من الوقت والجهد واحتمالات الخطأ •

اخطاء الملاحظة

وهناك عدة اخطاء في الملاحظة ينبغي التحصن ضدها حتى تكون الملاحظة اقرب الى الحقيقة وهي :

١ ــ ينبغي توفير العفوية في الملاحظة ، حتى لا يشعر الفرد بانه تحت مظلة الملاحظة فيتكلف في السلوك ، على غير عاداته ، كما ان حضور اجهزة القياس المرتبطة بالملاحظة قد تقلل العفوية ايضا •

---

(١) المصدر ص ٣٤١ ص ــ ٣٤٢ •

٢ ـ ينبغي الا يعتمد الملاحظ على ذاكرته كثيرا ، بل يسجل ما يلاحظه فور حصوله عليها ، وبالدقة التامة ، وبدون التفسير ان كتابة التفسير في وقت تسجيل الملاحظة ، قد تسبب في اخطاء هي اولا التسرع وثانيا الرؤية الجزئية للسلوك ، وثالثا لان الملاحظ بشر يتأثر بالسلوك ، وينفعل بالتصرفات ، لذلك اذا اراد ان يفسر فانما يفسر في ظروف الانفعال فتزيد عنده احتمالات الخطأ .

٣ ـ ينبغي ان يعرف الملاحظ : اية معلومات مجهولة يريد دراستها، من موضوع ملاحظته ، حتى لا يضيع وقته في ملاحظة امور كان يمكن التعرف عليها بطرق اخرى ، كذلك يتفرغ للمعلومات الاساسية التي يجهلها .

٤ ـ وينبغي ان يعرف نوع الاجهزة والوسائل التي تنفعه في ملاحظته ، ففي كل حقل ينفع نوع خاص ومتميز من الاجهزة والوسائل دون غيرها ، كذلك يعتبر تحديد هذا النوع توفيرا للوقت والجهد والتردد ، حين تسجيل الملاحظة .

٥ ـ وينبغي ان يهيىء قائمتين : قائمة تسجيل الملاحظة ذاتها،وقائمة لتسجيل التفسيرات المرتبطة بها .

٦ ـ وينبغي ان يقسم البيانات التي يسجل عليها ملاحظاته الى مراحل ليكتب في كل مرحلة ، حالة ـ الفرد ـ موضوع ملاحظاته ـ في تلك المرحلة ، وذلك لضمان تدرج البحث ومرحليته .

٧ ـ يجب ان ينمي الباحث ـ في نفسه ـ القدرة على الملاحظة الدقيقة الشاملة بسرعة ، ذلك ان هذه القدرة يمكن تنميتها بالتركيز ، والانتباه ، والتجربة المكررة ، كما ان القدرة على استخدام الوسائل

بسرعة ومهارة يجب ان تنمى ــ هي الاخرى ــ عند الباحث حتى تقل عنده احتمالات الخطأ أيضا !

عيوب الملاحظة

هذا وللملاحظة عيوب ذاتية لذلك ينبغي الا يقتصر الباحث عليها ، انما يدعمها بالطرق الاخرى ، للاختبار والعيوب هي :

١ ــ لان كثيراً من الاحداث الهامة ــ التي تقع في حياة النـاس ــ تقع فجأة ودون سابق معرفة ، فالباحث الذي يهتم بهـذه الاحداث ، لا يستطيع تسجيل ردود فعل الافراد تجاهها ، عن طريق الملاحظة المباشرة •

وانما فقط عن طريق الاستبيان والمقابلة •

٢ ــ كما ان هناك انواعا من السلوك ، ذات طابع خاص ، لا يسمح ــ عادة للملاحظ ــ التعرف عليـه مباشرة ، كالسلوك البيتي لـلافراد فيجب ان يعتمد الباحث عليه بطرق اخرى •

٢ ــ ولان الملاحظة محدودة ــ بالوقت الذي تحدث فيه الاحداث ــ ولان كثيرا من الاحداث تقع خلال فترة عام او اكثر ، فان الملاحظـة المباشرة تصبح شبه مستحيلة في مثل هذه الاحداث •

٣ ــ كما ان ظروف الطقس وما اشبه تؤثر في الملاحظة وتصعب على الباحث متابعة احداث المفحوصين •••

تجهيز البيانات الاحصائية

بعد جمع البيانات من مصادر متعددة (الاستبيان ــ والمقابلـة ــ والملاحظة المباشرة) نشرع في تجهيز البيانات ، ويعني ذلك تهيئها لغرض الدراسة والتحليل • والتجهيز يتدرج في المراحل التالية :

ألف : المراجعة

١ ـ في البداية لا بد أن نعرف هل ان القدر المتجمع من المعلومات كاف في الايفاء بالغرض المطلوب ؟ وبالتالي : هل ينفع في الاجابة على الاسئلة التي وضعناها قبل عملية الاحصاء أم لا ؟ فاذا كانت كافية قمنا بالمرحلة التالية والا كملنا نقصها عن طريق تكرار عملية جمع البيانات ..

٢ ـ ثم ينبغي التعرف على معاني الالفاظ والكلمات التي استخدمت في البيانات ، حتى لا نفسرها تفسيرا عشوائيا متسرعا .

باء : التصنيف

١ ـ الهدف من التصنيف : هو تجميع البيانات المشابهة الى بعضها فمثلا : جعل ذوي الاعمار المتشابهة المتقاربة في فئة ، وذوي المهن الواحدة في فئة ، وهكذا ..

٢ ـ ومن الطبيعي ان الباحث يصنف الناس حسب اختلافهم في موضوع بحثه ، اي بالقياس الى الصفات التي قد تؤثر في نتيجة دراسته، مثلا لا يهتم الباحث الذي يهدف معرفة (مستوى التعليم في منطقته) لا يهتم كثيرا بما يأكل الافراد فلا يصنفهم على اساس من يأكل غالبا الرز ، ومن يأكل غالبا الخبز ، وهكذا فان عملية التصنيف مرتبطة منذ البدء بموضوع دراسة الباحث ، والهدف من وراء هذه الدراسة .

٣ ـ وهناك بعض التوجيهات التي تهم الباحثين في عملية التصنيف، فيما يلي نستعرض بعضا منها وهي :

● ألا يضع الباحث الفرد الواحدَ في عدة فئات ـ حتى اذا اشترك في عدة صفات ـ فاذا اراد ان يبحث المستوى الدراسي لبلد وصنف الناس الى محامين ودكاترة طب ، وكان هناك دكتور طب يحمل شهادة

الحقوق ايضا ، لا يضعه في مكانين اذ الغرض من التصنيف هو فرز المعلومات ، والذي لا يحصل باعادة ذكر الفرد في مقامين .

● ان يتبع الباحث نظاما سهلا للمراجعة ، مثلا نظام الحروف الهجائية او الارقام المتتالية او نظام العام والخاص ، (مثلا يكتب الدكاترة . ثم يقسم الى دكاترة طب ، وجراحة ، وطب اسنان ، والبيطرة ، والصيدلة ، و.و. ويقسم الطبيب الى اخصائي ، وغيره ، وهكذا ..) او نظام التفريع (تماما مثل الشجرة التي ترسم في بيان نسب القبائل) وبالطبع تصنيف كل شيء يتناسب مع طريقته الخاصة في البيان .

● ان يضع تعريفا مقتضبا عنده للفئات التي يصنف الناس اليها ، حتى لا يشتبه عند التصنيف ، فيضع بعض الناس في فئة اخرى ، مثلا : لا بد ان يعرف ان دكتور الطب هل يشمل الصيدلي أم لا ؟

● ان يضع رمزا مناسبا لكل فئة لتفيده في العملية التالية .

جيم : الترميز

ويدعي ايضا (بتفريغ البيانات) ويقصد منه : ان يبدل الباحث البيانات التي حصل عليها الى ارقام ورموز وصور ورسوم وخطوط بيانية ليسهل عليه مراجعتها ومقارنتها ببعضها وهكذا .

وهناك بعض الادوات الحديثة ، التي تستخدم في عملية الترميز « تفريغ البيانات » كالآلة التي تعتمد على التنقيب [1] .

---

(١) راجع كتب « مبادىء الاحصاء » لمؤلفه عبد المنعم ناصر الشافعي ط: القاهرة ١٩٦٠ ــ ومقدمة في الاحصاء الاجتماعي ج١ ص١ط القاهرة ١٩٦٣ ــ واصول البحث العلمي ومناهجه ــ باب الاحصاء ــ احمد بدر ــ الكويت ١٩٧٣ .

وينبغي استخدام الآلات والوسائل الحديثة لتقليل نسبة الخطأ ، ولتوفير الجهد خصوصا في الاحصاآت الكبيرة .

دال : محاسبة الاحتمالات

يعتمد الاحصاء على حساب نسبة احتمالات الخطأ في العملية الاحصائية ، وكلما ارتفع عدد مرات الاحصاء ، كلما قلت نسبة الاحتمالات اذ ان عملية الاحصاء تعتمد على التعميم والتعميم قد ينطلق من عدد كبير فيكون اقل خطأ ، وقد يعتمد على عدد صغير فيكون بعكس ذلك ، فمثلا: لو القينا على الارض عملة معدنية ، فيحتمل ان يكون في الوجه الظاهر الصورةوفيالوجه الباطن هو الرقم، وفي المرة الثانية : يكون نفسالاحتمال ممكنا . وبنسبة ٥٠ ٪ اي من دون ان يكون جانب من الاحتمالين مقدما على الجانب الثاني ، ولكن اذا القيناها ــ الف مرة ــ على الارض فـأن النتيجة ستكون في الاغلب الاكثر ان ٥٠٠ مرة وقعت العملة على الصورة و ٥٠٠ مرة على الرقم .

اذ ان نسبة المصادقة (او قانون الصدفة) تقتضي ان تكون نسبة الصدفة ٥٠ ٪ وهذه النسبة لا تظهر ــ عادة ــ في المرة الاولى والثانية ، ولكنها اذا ارتفعت الى الف مرة فانها تتبين ، والباحث يجب عليه ان يضع في حسابه ابدا نسبة الصدفة في عملية الاحصاء حتى يعرف مـدى صحة تنبأه على وجه التقريب . وكمثل لحساب هذه النسبة : نستطيع ان نذكر شركات التأمين على الحياة التي تقوم بتحليل سجلات واحصاءات الوفاة حتى تكتشف اعمار الناس بحساب الصدف ولذلك يستطيـع مستشار الشركة ان يحسب بشيء من الدقة ميعادِ موت اكثر الزبائن لا على تحديد اشخاصهم وتقسط على ايام حياتهم المقدار الذي يجب عليها ان تدفعـه لذويهم بعد الحياة .

ومن هنا ــ نعرف ان الاحداث التي لا يمكن التنبأ بها بالنسبة الى شخص واحد يمكن التنبأ بها بالنسبة الى جماعة وكلما كبرت الجماعة كلما قلت احتمالات الصدفة في حياتهم .

المتوسط الحسابي

ويستحسن في حساب الاحتمالات طريقة المتوسط الحسابي ، التي تجمع احتمالات مجموع المفردات ثم تقسم المجموع على عدد المفردات . مثلا : اذا مات عدة اشخاص ، في هذه الاعوام (٣٠ ــ ٣٥ ــ ٤٠ ــ ٤٥ ــ ٥٠ ــ ٦٠ ــ ٧٠ ــ ٨٠ ــ) فما هو المتوسط الحسابي لهم ؟ نعرف ذلك بجمع الاعداد ، (٣٠ + ٣٥ + ٤٠ + ٤٥ + ٤٠+٦٠+٧٠+ ٨٠ = ٤٠٠ ثم نقوم بتقسيمها على عدد الافراد (الموتى) وهو (٩) وهكذا ٤٠٠÷ ٩ ٤٤ ٤/٩ [1] والسؤال هل يكفي ان نعرف المتوسط الحسابي علميا ؟ بالطبع « لا » وانما لا بد ان نعرف قياس نسبة الصدفة التي يقع عليها هذا المتوسط اي ان نعرف كم رجلا يموت ــ عادة ــ في العام ــ ٤٤/٩ من عمرهم واذا مات في غير هذا العام ــ فعادة كم هو المسافة بين المتوسط الحسابي وبين الواقع الخارجي ؟ وبتعبير آخر :

« التعرف على الوسط الحسابي او الوسيط ، والمنوال لاي مجموعة من القياسات من شأنه ان يزود الباحث بمعلومات مفيدة تصف البيانات بالنسبة للنزعات المركزية ولكن الاحصائي لا يهتم بالنزعات المركزية ــ وحدها ــ ولكنه يهتم ايضا بكيفية تشتت او توزيع مختلف القياسات، في علاقاتها ــ بعضها ببعض ــ ومن اجل ذلك فان الاحصائي يستفيد مما يعرف باسم المنحنى المعتدل [2] .

---

(١) والرمز الرياضي الدال عليه هو المتوسط الحسابي = مجموع الكمية على عدد الكمية .

(٢) اصول البحث العلمي ومناهجه ص ٣٧٣ .

تحليل البيانات

بعد ان ينهي الباحث عملية جمع ثم تجهيز البيانات ، يشرع في تحليلها ــ علميا ــ وهي اخطر مرحلة في العملية الاحصائية اذ انها تخضع للتقدير السليم الذي لا بد ان يتحلى به الباحث ، حتى يعرف كيف ينتقل من الخاص ، (وهو هنا الاعداد الصامتة) الى العام (وهو هنا دلالة الاعداد على السنن والقوانين) وكلما كانت الاعداد ــ التي تم حصرها، وتجهيزها في العملية الاحصائية ، ــ كلما كانت اكبر واكثر تنوعا كلما كان التعميم اقرب الى الحقيقة .

ذلك لان كثيرا من الباحثين يتسرعون الى اصدار الاحكام العامة ، بعد ملاحظة مجموعة من الاعداد . بينما الافضل التريث حتى يتم الاطمئنان الى عدم وجود اية علة للظاهرة ، سوى ما توجد في الاعداد المحصورة بالاحصاء .

وابسط مثل للتعميم ما قامت به جمعية السرطان الامريكية من اعداد البيانات لعادات التدخين لعدد من الامريكيين بلغ (١٨٨/٠٠٠) فيما بين عامي ٥٠ ــ ٦٩ ثم بحثت الجمعية اسباب وفاة اعضاء هذه المجموعة ، وقد انتهت الجمعية بناءا على هذه الدراسة الى وجود ارتباطات واضحة ، تؤيد بشدة التعميم الذي استخلصته ، من ان التدخين ليسبب كلا من السرطان وامراض القلب (٣) .

هذه الدراسة قامت بالتعميم ، حيث لم تقم بدراسة كل الذين أصيبوا بالسرطان من جراء التدخين ، انما قامت بدراسة عينة منهم فكيف استطاعت الدراسة التعميم ، من عينة الى المجموع ؟

---

(٣) المصدر ص ٤٨٩ .

في الواقع : عملية التعميم ذاتها عملية عقلية بحتة لا يمكن ان تعلل، ولكن أهم عنصر فيها : هو تقليل احتمالات الصدفة الى ان تصل الى قريب من مستوى الصفر ، اي تصل الى ٠٠١٪ مما لا يضع العقل اي حساب علمي لمثل هذا الاحتمال فمثلا لو مات شخص بعد اصابته بجلطة قلبية ، فان احتمال ان يكون موته بهذا السبب او لسبب وجود انسداد في دماغه في ذات الوقت : هو ٥٠ ٪ ولكن هذا الاحتمال يهبط لو مات شخص آخر بجلطة قلبية الى ٢٥ ٪ اما في الشخص الثالث والرابع فان الاحتمال يهبط الى درجة تقترب الى الصفر ، مما لا يعتني به العقل ، وهكذا يعتمد التعميم على تقليل احتمالات العكس (او النفي) الى ان تصل الى حد لا يعتني به العقل .

وبالطبع لا يخضع اعتناء العقل وعدم اعتنائه بالاحتمال ، ولا يخضع لحساب رياضي ، بل لمجموعة احكام عقلية عفوية ، تشبه ومضات النور، التي تطلقها الشهب في السماء ، لا تخضع للحسبان [1] .

ومع ذلك فقد وضع بعض الباحثين طريقة علمية لقياس التعميم السليم ، وهو ما يسمى بـ (طريقة الغرض الصفري) وقد شرح لنا العالم فيشر كيفية اختبار الفرض عن طريق استخدام الطريقة الاحصائية كما يلي:

فهو يحدثنا عن سيدة تؤكد انها عندما تذوق كوبا من الشاي المخلوط باللبن ، فانها تستطيع ان تحدد ــ على وجه الدقة ــ اذا كان اللبن ، او الشاي ، هو الذي تم صبه في الكوب اولا ، وهناك على الاقل ثلاثة افتراضات مختلفة بناء على تأكيد هذه السيدة وهذه الافتراضات هي :

أ ــ ان لها هذه القدرة ــ التي تدعيها ، وفي هذه الحالة فانها

---

(١) راجع فصل ضمان الاطراد في القسم الخامس من هذا الكتاب .

تستطيع دائما ان تميز ومجرد خطأ واحد سيبطل الفرض [1] بينما نجاحها مئات او آلاف المرات سوف لا يثبت انها معصومة من الخطأ •

ب ــ ان لها بعض المواهب في هذا المضمار وان عليها ان تبرهن ، وتظهر بعض النجاح في التمييز ، ولكن الفرض في هذه الحالة يعتبر غامضا على الارجح •

ج ــ ليس لهذه السيدة قدرة على التمييز بين النوعين من الشاي ، واذا حدث انها ميزت بينهما فان ذلك سيكون محض مصادفة وهذا هو الفرض الصفري •

ولوضع قدرات هذه السيدة ، والفروض المبنية اعلاه موضع الاختبار ، فقد اعد (فيشر) ثمانية اكواب من الشاي ، وهذه الاكواب متشابهة على قدر الامكان ، في كل شيء ، فيما عدا ان اللبن قد صب اولا في اربعة اكواب ، والشاي قد صب اولا في الاربعة الاخرى ، ثم طلب فيشر من السيدة ان تقسم الاكواب الثمانية الى مجموعتين كل منهما اربعة اكواب ، بحيث يكون هذا التقسيم صحيحا ومطابقا لما قام به فعلا ان الفرص ــ ضد نجاحها في هذا العمل لمجرد التخمين ــ يمكن ان يحسب بنسبة ٧٠ الى واحد وبمعنى آخر ــ للفرض الصفري ــ يتوقع ان تقسم الاكواب الى مجموعتين ، بشكل صحيح ، مرة واحدة فقط في سبعين محاولة ونظرا لان الفرص ضد نجاحها كبيرة جدا ، فان اظهار قدرتها على التمييز الصحيح ، بفصل الاكواب في الجماعات الصحيحة من المحاولة الاولى سيكون برهانا مقبولا على موهبتها وحتى لو كانت الفرص ضد نجاحها ــ ليس اكثر من ٢٠ ــ الى ١ (٥ ٪ من مستوى الثقة) فأن فرص نجاحها تكون غير متوقعة ، وبالتالي فان الفرض الصفري

---

(١) طبعا هذا فيما لو افترضنا ان القدرة تنافي مع الخطأ ــ وتساوي العصمة .

ـ اذا نجحت في المحاولـة الاولى ـ يكـون باطلا في عرف كثير مـن الباحثين [1] ..

حساب الاحتمالات في الاحصاء

ان اي عملية احصائية ، تتضمن نسبة من احتمالات الخطأ ، بسبب الاخطاء التي تتضمنها طبيعة الاجابات الغامضة ، وغير الموضوعية ، مـن قبل الافراد ، او بسبب التصنيف السيء من قبل الباحثين ، واذا تراكمت الاحصاءات في مواضيع شتى ، واعتمد الباحث عليها اعتمادا كليا، تسبب ذلك في تراكم نسب الاخطاء ، وبالتالي في ان تكون النتيجة خاطئة ..

وكمثل لهذه الحقيقة ان ما قام به جمعية مكافحة السرطان الامريكية، من احصاء لاسباب الوفـاة لـ (١٨٨٠٠٠) امريـكي ممن يمـارسون التدخين ، كان يحتوي على نسبة من الخطأ ناشئة من :

١ ـ ان اسباب الوفاة غامضة ـ عادة ، والاجابة عليها من قبـل ذوي الميت ، والجهات المختصة لا تكون مضبوطة بالمائة مائة .

٢ ـ تصنيف الميت : انه من المتعودين على التدخين ، ام لا ؟ يخضع هذا التصنيف ، لرؤية الباحث ، وفيها نسبة محترمة من الخطأ .

٣ ـ هذا ، ان لم نقل في وجود نسبة من الخطأ ، في طريقة جمـع وفرز الاحصاءات ، واخذ المعدل منها .

هذا في احصائية واحدة فاذا كان لدينا بحث ، يعتمد على عشريـن عملية احصائية او اكثر ، فكم تتراكم نسبة الخطأ ؟ من هنا ينبغي الالتفات الى : ان الاحصائية ليست حجة قاطعة ، ويجب الا يعتمد عليها فقط انما ـ ايضا ـ يعتمد الباحث على عقله ورؤيته الدقيقة الى المشاكل واعتماده على عدة احصاءات متماثلة في موضوع واحد .

---

(١) المصدر ص ٣٩٠ .

واي عينة تمثل المجتمع ؟

ان استنتاج الباحث ، من عملية احصائية ، مرتبط بمدى صحة تمثيل العينة لذلك المجتمع ، وكلما كان المجتمع اكبر كانت العينة اكثر تمثيلا لانها تصبح بالطبع اكبر حجما : فمثلا اذا كان في المجتمع مليون انسان ، تكفي العينة التي تمثل ١٠ ٪ منه فقط ، وهو يعني مائة الف بل يكفي ٢ ٪ اي عشرون الفا • لان اختيار عشرين الفا ــ موزعين على المجتمع ــ يمثل عادة اتجاه المجتمع اما في المجتمع الصغير (الذي عدده مثلا لا يتجاوز ألفا) فانه لا يكفي قياس ١٠ ٪ اذ ان احتمالات الصدفة تزيد فيه بل لا بد ان نغطي في هذا المجتمع لا اقل من ٢٠ ٪ منه •

ولكي تكون العينة ممثلة للمجتمع ، ينبغي التوسل اما بالاختيار العشوائي (مثلا : نضع قصاصات ورق في كيس ثم نسحب منها فكلما صعد مع القصاصة ــ جربناه ــ وجعلناه جزء من العملية الاحصائية) •

٢ ــ او الاختيار الفئوي ، الذي يخضع لاختيار جماعات مختلفة مع بعضهم من المجتمع •• (نختار من الرجال والنساء والكبار والصغار وذوي الدخل المحدود والاغنياء) •

كما سبق الحديث عنه في (اختيار العينة) وهكذا تتم عملية التحليل • وهي آخر عملية في الاحصائية • وبعد الاحصاء لا بد ان ندرس الوثائق الشخصية •

الوثائق الشخصية

هل الانسان يصنع الاحداث من حوله ، ام الاحداث هي التي تصنع الانسان ؟ لا ريب ان الاحداث ــ ايضا ــ تصنع شخصية الانسان فليس

من فرد الا وتنعكس على شخصيته طبيعة الاحداث ــ شاء ام ابى ــ ونحن نستطيع ان نكشف من الاحداث الواقعة ، طبيعة الاشخاص التي ورائها، فاذا رأينا جريمة عرفنا ان صانعها مجرم ، واذا رأينا مستشفى عرفنا ان صاحبه عامل خير ، وبالعكس ايضا ممكن • اي من الممكن التعرف على الاحداث من خلال الاشخاص ، فاذا رأينا ازدياد المجرمين في بلد ، نعرف سوء الحالة الاقتصادية ، او سوء التربية في البلد ، كيف عرفنا ذلك ؟ انما من طبيعة الاشخاص الذين نجدهم في هــذا البلد • ودراسة الوثــائق الشخصية تهدف التعرف على الاحداث والوقائع من خلال دراسةالافراد والشخصيات •

وبالطبع ــ في العلوم الانسانية ــ تعتبر الوثائق الشخصية ، مــن اهم الوسائل التي تفتح الطريق امام الباحث ، الى معرفة الحقائق ، ولكن بشرط ان تدعم نتائج البحث الوثائقي الشخصي ، بالطرق الاجتمــاعية الاخرى ، وذلك لان العواطف والاحكام ــ غير الدقيقة ــ تدخــل في هذا المجال كثيرا •

وموضوع الوثائق الشخصية هو دراسة الفرد ، من حيث علاقتــه بالحدث ، وانعكاس الحدث عليه ، ودراسة الشخص يمكن ان تكــون بالطرق التالية :

١ ــ بالمقابلة الشخصية •

والمقابلة تستخدم في عدة موارد •• في الاحصاء ، وفــي دراسة الحالة ، وفي دراسة الشخصية ، والهدف منها في كل مورد ، يختلف وفق اختلاف المورد ، والمقابلة في الدراسة الشخصية تهدف :

١ ــ معرفة الحدث من خلال رأي الفرد • لكي يوضع هذا الرأي ــ المفسر ــ ضمن الآراء ، ــ والتي قد تساعد الباحث على تكوين رأي

صحيح للحدث ـ (وهذا في الواقع نوع من الاستشارة التي تعتمد على الحكمة المأثورة « اعقل الناس من جمع عقل الناس الى عقله ») •

٢ ـ معرفة الشخص من خلال رؤيته للحدث ، وذلك لان رؤية الناس الى الاحداث ، تختلف حسب تفاعلهم بها ، وتأثرهم منها وابسط مثل لذلك المشاهدون لفيلم ، يخالفون ، حسب تأثير الفيلم عليهم •

وهذا اهم طريق وثائقي شخصي للتعرف على الحدث من خلال الاشخاص •

٣ ـ محاولة التعرف على الاشخاص ، من خلال فلتات لسانهم ، وقسمات اوجههم ، وحركات نبضهم ، وما اشبه واوضح مثال لذلك اجهزة كشف الكذب ، التي تسجل التغييرات الداخلية التي ترافق تحدث الفرد عن موضوعه ، للكشف عن مقدار الصدق في كلامه ، وقد جاء في الحديث المأثور عن الامام امير المؤمنين ـ ع ـ « المرء مخبوء تحت لسانه ، وما اضمر امروء شيئا الا وظهر في فلتات لسانه وقسمات وجهه » •

وهذا الطريق يستخدم في المحاكم وما اشبه •

وافضل طريق للمقابلة الشخصية هي طريقة الحوار المفصل ، الذي يمنح الباحث الحصول على اكبر كمية ممكنة من الانعكاسات ، التي تركتها الاحداث على نفسية المتحدث ، كما ان المقابلة الشخصية في دراسة الحالة تكون اقرب الى الحالة الطبيعية للشخص في عدم التقيد بالرسميات ، وربما كان ذلك ما يميزها عن المقابلة ، كوسيلة لتجميع البيانات ، والمعلومات في طريقة المسح [1] وعلى الباحث أن يسجل ملاحظاته التي يستنتجها من خلال دراسته الشخص والمقابلة معه [2] •• واذا تعذر ذلك فيجب ان يكتب بعد المقابلة مباشرة

---

(١) المصدر ص ٣٠١

(٢) المصدر ص ٢٩٢ •

ومن المفضل ان تكون هذه المذكرات بكلمات المتحدث نفسه ويمكن للباحث المدرب أن يدون خلال مقابلته ومناقشته الحرة ما يريد كتابته ، دون أن يسبب قلقا للشخص الآخر ، ولكن الشيء الذي يجب أن تؤكده هو : ضرورة أكتمال ، وصحة المذكرات ـ بقدر الامكان ـ ذلك نظرا لان الباحث لا يعرف مقدما في جميع الظروف ـ اي البيانات ستثبت دلالتها ، وفائدتها ، بعد التحليل النهائي [1] .

ب ـ الوثائق

وتعني الوثائق : كلما يرتبط بالشخص من أشياء مكتوبة مثل دراسة مراحل الدراسة ، عند الفرد ، ودرجاته فيها ، ودراسة تقارير الرؤساء عليه ، في الدائرة ، ودراسة تقارير المباحث عنه في البلد ، وما أشبه. وهذه الوثائق : تلقي ضوءا على طبيعة الفرد ، ومدى تأثره بالاحداث ، وأبسط مثل لذلك دراسة درجات الاطفال اليتامى في المدارس ، لمعرفة مدى علاقة اليتم ، في تخلف الطفل ، أو دراسة حالة أبناء المطلقات في التعليم وهكذا ، والوثائق الشخصية قد تكون وثائق رسمية (كما نجد في الامثلة الماضية ـ درجات الامتحان في المدرسة ـ السلوك في الدائرة) وقد تكون وثائق غير رسمية (كالمؤلفات التي يكتبها الشخص ، وانطباع الصحف عنه ، حتى رسائله الخاصة الى أقاربه والمفكرات وما أشبه) وهناك بعض البحوث النافعة ، في مجال الوثائق الشخصية ، ترتبط ـ أساسا ـ ببحث الوثائق ككل وهي : مرتبطة بفصل التاريخ .

دراسة الحالة

وهذه آخر مرحلة من مراحل البحث الاجتماعي ، ودراسة الحالة تعني : أننا ـ بعد أن نجمع كل المصادر الاساسية لمعرفة الواقع الاجتماعي

---

(١) المصدر ص ٣٠١ .

الذي نحدده بدوره ، تحديداً علميا دقيقا ــ نبدأ بدراسةالموضوع اعتمادا على الوثائق ، والمصادر التي جمعناها » •

فدراسة الحالة هي : دراسة جامعة شاملةلحالة (أو موضوع معين)، بعد أن نجعل هذه الحالة (أو هذا الموضوع) ، مجال بحثنا ، ونجمع لها كل المصادر الممكنة للمعرفة ، (ومنها المصادر الاربع الماضية ابتداء من المسح ، فالاحصاء ، فالتاريخ ، وانتهاء بالوثائق الشخصية) •

وفي دراسة الحالة « يتم : فحص واختبار الموقف المركب ، أو مجموعة العوامل ، التي تتصل بسلوك معين ، في هذه الوحدة • وذلك بغرض الكشف عن العوامل ، التي تؤثر في الوحدة المحدودة أو الكشف عن العلاقات السببية بين أجزاء هذه الوحدة ، ثم الوصول الى تعميمات علمية متعلقة بها ، وبغيرها من الوحدات المشابهة » [1] •

وهذا يعني أن الفرق بين دراسة الحالة ، وبين الطرق المتقدمة : أن دراسة الحالة ، أشمل من الطرق الماضية ، وأنها تعتبر الموضوع كوحدة متماسكة •

« ويرجع شيوع استعمال منهج دراسة الحالة ــ خلال نصف القرن الماضي في نظر البعض ــ الى ظهور نظرية (الجشطلت)
التي لفتت الانتباه الى : ضرورة الانتباه بالموقف الكلي ، الذي يتفاعل فيه الكائن الحي ، واعتبار هذا الكائن الحي ، جزء من الموقف لا ينفصل عنه ، الا بقصد التحليل (وبصفة مؤقتة) فقط » [2] •

وهذا المنهج يتكامل مع سائر المناهج ، تكاملا حيويا ، اذ انه لا يعدو أن يكون معتمدا على سائر المناهج ، ورابطا بينها ربطا يجعل من موضوع الدراسة ، وحدة متناسقة ، وخطوات الحالة هي التالية :

---

(١) المصدر ص ٢٩٢ •
(٢) المصدر ص ٢٩٤ •

١ ــ تحديد الظاهرة التي يريد الباحث دراستها ، وجعلها وحــدة متماسكة ، بحيث تؤثر كل جهة فيها على الجهات الاخرى ، وهذه أهــم جانب من جوانب دراسة الحالة ، كما سبق وأن أشرنا اليه .

٢ ــ تحديد الوسائل الممكنة استخدامها في دراسة هذا الموضوع ، وهذه الوسائل هي الطرق السابقة التي أستعرضناها في مجــال البحث الاجتماعي ، مضافا اليها كل وسيلة مفيدة ، للبحث غيرها .

٣ ــ جمع كل المعلومات التي يجب توافرها للبحث أبتداء من المسح والاحصاء ، والوثائق الشخصية ، وما أشبه . حتى لا يحتاج الفرد ــ حينما يدرس الموضوع دراسة شاملة ــ الى مراجعة الجزئيات ، وحتى لا يجد أمامه فجوات علمية تفصل بينه وبين الدراسة التي يريد .

٤ ــ استخلاص النتائج ، والتعميم من خلال ربط المعلومات الكمية المتوافرة بالطرق السابقة ، ربطها ببعضها واتخاذ صورة عامة عن الحالة ، بأعتبارها وحدة موضوعية . وهذه الخطوة تشبه في المثل : باتخاذ صورة ذهنية عن التفاح بعد أن نكون قد رأينا ، لونها ولمسنا حجمها ، وشممنا رائحتها ، وتذوقنا طعمها ، كل هذه الاحاسيس، عرفناهامن خلال ممارستنا الحسية لها ، ثم اتخذنا (صورة ذهنية) عنها ، فسمينا جميع الاحاسيس (بالتفاحة) ، وهكذا نستطيع أن تتعرف ــ من خلال المسح والاحصاء ــ جوانب الشيء الكمية ومن التاريخ مواصفاته السابقة ، ومن الوثائــق الشخصية ، خلفياته السلوكية، فتأتي دراسة الحالة، تجميعا لهذه المعلومات المبعثرة ، كل ذلك بهدف معرفة العوامل الرئيسية ، التي تشترك في صنع هذه الحالة ، والمواصفات العامة التي تسببت من هذه العوامل ، فمثلا : اذا افترضنا ان الحالة التي نحب دراستها ، هي (مستوى مستشفى) فاننا نبدأ بالمسح ، والاحصاء ، وتجميع الوثائق الشخصية ، وتاريخ تطــور

المستشفى ، ثم نبدأ بدراسة الحالة ، لنعرف : هل هناك علاقة بين مستوى المستشفى الاقتصادي وبين الرعاية التمريضية فيه ؟ ، أم هناك علاقة بين اخلاص المشرفين وبين الرعاية التمريضية (سلوك الممرضين ، والممرضات تجاه المرض) . ان هذا الخط الاساسي ، الذي تتعرف عليه من خلال معرفة كافة جوانب الحالة ، من هنا « فان الباحث لا يهدف — عادة — من دراسة الحالة ، الى الوصف الدقيق للشخص ، أو للجماعة ، المفحوصة ، ولكنه يهدف — أيضا — الى التعرف على الاسباب الرئيسية ، التي أدت بالفرد أو الجماعة الى وضعها الحاضر »[1] .

وهناك بعض الاخطاء التي قد يقع فيها الباحث عند دراسته الحالة أهمها :

أن التعميم الذي يصل اليه الباحث قد لا يكون تعميما سليما ، بل متسرعا ، او ذاتيا ناتجا من آراء سابقة اتخذها الباحث عن ضالته ، قبل أن يبدأ بدراستها ، من هنا كان على الباحث : التحلي بمزيد من اليقظة والصبر ، اذ أن المصادر العلمية التي يجمعها الباحث ، قد لا تكون كافية لدراسة الحالة ، وفي هذه الحالة ، يجب على الباحث : أن يشبع موضوعه بالمصادر العلمية (المسح والاحصاء و.و ..) قبل البدء بدراسة الحالة ، والواقع ان أساليب دراسة الحالة ، لا تزال غير ناضجة ولكننا نستمر عليها ونصبر على علاتها حتى يطور علم المناهج أساليبه في دراسة الحالة. والله الموفق .

(١) المصدر ص ٢٩٩ .

القسم السادس عن مناهج التاريخ

دراسة مناهج التاريخ ـ البحث الاول عن

بحوث تمهيدية

- ما هو التاريخ
- موضوع « علم التاريخ »
- الهدف من دراسة التاريخ
(الاعتبار/العلم بالماضي/معرفة
سنن الحياة)
- التاريخ وفلسفة الحياة

ما هو التـاريخ

١ ــ ليس التاريخ مجرد حوادث ماضية ، تتلاحق على مسار الزمن كقطر المطر . انما هو تنظيم هذه الحوادث ، وتعليلها ، وتفسيرها. وبالرغم من ان التاريخ قد أستخدم في اللغة العربية ، للتعبير عن المعنى الاول فترانا نقول هذا موجود في التاريخ ، الا ان المصطلح العلمي لهذا اللفظ أقرب الى المعنى الثاني .

موضوع علم التاريخ

٢ ــ والحوادث التي وقعت في الماضي قد تتصل بالنشاط الانساني، اتصالا وثيقا ، وقد لا تتصل . وفيما اتصلت ، تسمي علمها بالتاريخ . (كتاريخ الملوك ، والشعوب ، والغزوات ، والعقائد و.) واذا لم تتصل ، فان للعلوم التي يعالجها أسماء أخرى (الجيولوجيا الباليستولوجيـا ــ التاريخ الطبيعي الانثروبولوجيا الاثنولوجيا) .

وقد كانت موضوعات هذه العلوم تختلط بموضوع علم التاريـخ كثيرا ــ بطبيعة اتصال النشاط البشري ، بكل العوامل المادية الاخرى ــ الا أن الوقت آن اليوم لفك أرتباط هذه الموضوعات عن بعضها ، وهكذا أصبح التاريخ ــ اليوم ــ محصورا بدراسة النشاط البشري، في الماضي « والواقع أنه ليس من تاريخ مضطر أنْ يبدأ صفحاته بالحديث عن أصل الكون والوجود أو يعد نقصا فيه أن يغفل طفرات أنـواع النبـات ،

والحيوان ، منذ ظهرت الحياة على هذا الكوكب ! » [1] ذلك لان الوقت قد تغير الآن من يوم كان من دأب المؤرخين السابقين أن يبدأوا تاريخهم بالحديث عن تاريخ الطبيعة ، وكيفية خلق السماوات والارض •

الهدف من دراسة التاريخ

٣ ـ هناك هدف سام لعلم التاريخ هو الوصول الى معرفة الوقائع والاحداث التاريخية التي وقعت في الماضي معرفة صادقة والغاية المتوخاة من هذه المعرفة هي :

آ ـ الاعتبار اذ ان نشاط الانسان محكوم برؤى لا يقدر الفرد على استيضاحها ، وبلورتها ، من دون معرفة التاريخ التي تعطيه تيارات ضوئية ، تكشف بطريقة أو بأخرى ، عواقب الاحداث التي يعانيها ، وأساسا شخصية الانسان لا تكونها الاحداث التي يعاصرها ، بقدر ما تكونها طريقة رد فعله تلقاء هذه الاحداث ، ونوعية رد الفعل محكومة بما يراه الفرد من عمل الاخرين ، سواء كان هؤلاء معاصرين له في الزمان ، (الافراد الاخرين الجماعات الاخرى والامم المتواجدة) أو كانوا سابقين له في الزمان ، كما في التاريخ • أن كل فرد من أبناء عالمنا الوسيع ، يحمل في شخصيته ، تراثا حضاريا كبيرا من تجارب وخبرات وعبر ، وتتوارث أجيال الانسان : هذا التراث الحضاري بطرق شتى اللغة، التربية، السلوك الاجتماعي ، والتاريخ طريق واحدة من هذه الطرق •

وهذا بالضبط معنى ما يقال التاريخ عبرة ، أي طريقة عبور من المجهول الى المعلوم ، اذ ان التجربة البشرية الماضية ، تعطي التجارب التالية : كثيرا من الوضوح والبلورة ، بالرغم من أنها لا تتكرر بالضبط •

---

(١) مجلة عالم الفكر الكويتية ص ١٧٧ المجلد الخامس العدد الاول ١٩٧٤م •

ولا تعني العبرة : أن التاريخ يفسر لنا : كامل العوامل ، والدوافع ، والاسباب التي تشترك في صنع احداث الحياة بحيث لا نحتاج ــ بعدها ــ الى أي من العلوم الاجتماعية البشرية ، كلا ! بل أنها تلقي ضوءا على تجارب الانسان المعاصر ، من خلال بيان التجارب المشابهة ، وتعطي الانسان ــ بالتالي ــ بصيرة في الحياة ، حيث يفتح العقل على الخطوط العريضة التي تسير عليها حياة البشر • بالرغم من أن الخطوط العريضة ــ وحدها ــ لا تكفي ، وعن هذا يقول و• ه• وولش : أن من وظائف التاريخ الكبرى هو أنه : يعرف الناس بزمانهم ، عن طريق رؤيتهم ، مقارنا بزمان آخر ، ويقول سترابر : أن دراسة التاريخ تعين الانسان على مواجهة المواقف الجديدة ، لا لانها تقدم له أساسا للتنبؤ بما سيكون ، ولكن لان الفهم الكامل للسلوك الانساني في الماضي ، يتيح الفرصة للعثور على عناصر مشتركة ، بين مشاكل الحاضر والمستقبل ، مما يجعل حلها حلا ذكيا امرا ممكنا [1] » ورويت الاسلام الى التاريخ هي أنهاعبرةوبصيرةوهدى وذلك يدعوا الانسان الى النظر في التاريخ ــ للاعتبار منه ويقول ربنا في كتابه :

ويقول هيجل (١٨٣٠ ــ ١٨٣١) ان تاريخ البشر كله ، يمكن أن يوصف بأنه : عملية طويلة ، استطاعت البشرية خلالها أن تحرز تقدما روحيا وأخلاقيا ، وهذا التقدم هو ما استطاع العقل البشري أن يحرزه في طريق معرفته لنفسه [٣] ومن هنا تأتي ضرورة دراسة التاريخ ، لانها حاجة بشرية ملحة ، يقول عن ذلك آرثر مارفيك في كتابه الشهير طبيعة التاريخ ص ١٤ يقول : واذن فالتبرير الاساسي للدراسة التاريخية ، هو : انها (ضرورية) فهي تسد حاجة غريزة انسانية أساسية ، تفي بحاجة أصيلة من حاجات البشر ، الذين يعيشون في المجتمع ثم يضيف قائلا :

---

(١) المصدر ص ٦٣ .

(٢) عالم الفكر ــ المجلد الخامس العدد الاول ص ٥٠ .

فالتاريخ : يقوم للانسان ، والجماعة البشرية ، بوظيفة فعليـة ، بمعنى أنه يسد حاجة المجتمع الى معرفة نفسه ، ورغبته في أن يفهم علاقته بالماضي ، وعلاقته بالمجتمعات الاخرى وثقافتها [1] . والذين يناقضون هذا الرأي ويقولون : (والحق ان الكثيرين يقرأون التاريخ ، ليتعلمـوا منه وليوعظوا به ، ولكنهم لا يتعلمون ولا يوعظون ، لان الانسان قـد يعجب بما يقرأ ، ويجد فيه متعة ، ولكنه لا يتعظ به ، لان الموعظة لا دخل لها في التجارب الانسانية [2] .

أن هؤلاء يخلطون بين (العلم) بسنن الحيـاة ، وبـين (تبصر) الخطوط العريضة لهذه السنن ، في سبيل الاعتبار بها ، ثم بين الاتعاظ ، كاملا ، وبين عدم الاتعاظ رأسا ، ولا ريب أن الانسان ينتفـع بـدراسة أحوال الاخرين ، وان لم يكن نفعا كاملا .

ومعرفة الحدث التاريخي ــ بالضبط وهي واحدة من عدة أهـداف يتوخاها التاريخ ــ هذه المعرفة تنفـع الانسان : في توفـير (العبـر) و (البصائر) له فمن شاء اعتبر وأستبصر ومن شاء كفر وأستكبر .

العلم بالمـاضي

٢ ــ وعندما تتوفر مجموعة من المعارف المرتبطة بالاحداث التاريخية ، يتهيأ للمؤرخ ، عمل جديد . هو : التعرف على الاسباب الكامنة وراء هذه الاحداث ، والعلاقة السببية التي تربط حدثا بآخر ، حيث أنه لا يمكـن الوصول الى هذه الغاية من دون تجميع معارف كثيفة ، تتكامل مع بعضها ، لتصل الى هذه الغاية . (كما سيأتي الحديث عنه ان شاء الله) .
من هنا نعلم : أن الغاية الاولى التي يتوخاها المؤرخ ــ وهي معرفة

---

(١) المصدر ص ٥٩ .
(٢) المصدر الدكتور حسين مؤنس .

الحدث بالضبط حيث ان « المرحلة الاولى من عمل المؤرخ تتناول تنظيم الوقائع ، وكشف تفاصيلها ، وتثبيت الحقائق المتصلة بها ، وبظروفها ، وهو عمل وصفي ولكنه ــ في الوقت نفسه ــ عمل علمي دقيق ، وعن هذا العمل بالذات تتكلم سلسلة المؤرخين العلميين » (١) .

وهذا الامر ، يتميز بكل ما يتميز به العلوم الاخرى ، اذ العلم ينبغي أن يحقق غاية نافعة ، عن طريق الفهم السليم ، والغاية هنا نافعة ، والطريق اليها علمي أيضا ، اذ يتبع المؤرخون ذات المناهج العلميــة ، التي يتبعها سائر العلماء ، للوصول الى معرفة الحدث التاريخي ، بالضبط ، ابتداء من الملاحظة ، والفرض ، والتثبت منه ، وانتهاء بالبرهان ، والذين يناقشون : في أن تكون معرفة الحدث علما ، ويقولون أن العلم الحقيقي ، هو الذي يكشف لنا عن علاقات ، وسنن ، ومبادىء عامة ، انهم خاطئون في تفسير العلم ، اذ العلم ليس سوى كشف الحقائق ، عن طريق الوسائل الصحيحة ، والمناهج السليمة ، والواقع ان التاريخ بهذا المعنى وجه أصيل من وجوه التجربة البشرية ، ومن دونه لا تتكامل التجربة الحضارية للانسان ابدا .

هذا مضافا الى أن معرفة الحدث خطوة في طريــق معرفــة السنن الكونية التي ورائها ــ أيضا ــ كما سيأتي باذن الله .

معرفة سنن الحياة

٣ ــ ويهدف التاريخ ــ ايضا ــ التعرف على السنن الفطرية ، التي تحكم حياة الانسان ، وذلك : ــ بعد أن تتراكم معارف علمية ثابتة عــن تسلسل الاحداث ــ يقوم التاريخ ــ بتحليلها ، وتركيبهــا ، وملاحظــة علاقاتها ببعضها ، ومن ثم نكتشف ما ورائها من قوانين ثابتة ، ومبادىء عامة . والتاريخ بهذا المعنى علم لا ريبَ فيه .

---

(١) المصدر السابق ص ١٩٠ الدكتور شاكر مصطفى .

يقول عن ذلك آرثر مافيا ان التاريخ يعني ــ ايضا ــ محاولة الانسان : وصف الماضي ، وتفسيره ، وهو كما قال الاستاذ باراكلاف (Barraclough) المحاولة التي تبذل : للكشف عن الاشياء المهمة في الماضي ، على اساس من شواهد جزئية ماضية [1] .

ان دراسة العلوم الاجتماعية (دراسة الاقتصاد ، الاجتماع ، التربية ، وسائر العلوم البشرية) . قد لا يمكن ان تتم بتجارب مصطنعة ، أو ملاحظة تجربة الانسان خلال فترة معينة اذ ان أثر بعض الظواهر قد لا يتوضح خلال هذه الفترة ثم الانسان لا يخضع بسهولة للتجربة كما تخضع المادة الطبيعية ولذلك يحاول الانسان الاستفادة من التاريخ لدراسة أثر الظواهر على سلوك الانسان ، وأثر سلوك الانسان على الظواهر .

والتاريخ ــ بهذا المعنى ــ جزء مكمل من العلوم البشرية ، اذ أن كل علم منها ، يمكنه أن يغني بحوثه عن طريق دراسة حوادث الماضي ، فمثلا علم الاقتصاد ، يمكنه أن يستفيد كثيرا من طريقة تعامل الناس في بلد خلال فترة معينة ، فلو استطاع الاقتصاديون : تجميع كل الظواهر الاقتصادية التي برزت في اميركا ، من يوم استقلاله ، وحتى اليوم ، فانهم يستطيعون معرفة الكثير الكثير ، من المبادىء الاقتصادية الهامة ، ولكن بالرغم من ان هذا الامر ممكن بالنسبة الى التاريخ الحديث ، لانه قريب ومدون ضمن وثائق لا تحصى ، فانه يبدو اليوم شبه مستحيل بالنسبة الى التاريخ القديم ، اذ لم تزل الظواهر التي وقعت في الماضي السحيق ، مجهولة ــ تقريبا ــ ولا يزال أمامنا طريق طويل للكشف عنها ، تماما ، ولكن بعد أن تكشف ــ كما يرجوها الانسان ، ويسعى اليها ــ فان كثيرا من العلوم ، والمعارف البشرية ، تستفيد استفادة كبيرة .

---

(١) المصدر السابق .

أن العمل العلمي للمؤرخ اليوم ، يتركز في الكشف عن أكبر كمية ممكنة من الحوادث ، ومن علاقاتها ببعضها ، حتى تتكامل في يوم وتكون تجربة حية للانسانية • تعطينا علما بمبادىء وقوانين كثيرة •

ولكن المشكلة التي قد يتورط فيها المؤرخ ، هي أنه قد يسعى لحل جميع الالغاز ، مرة واحدة ، مما يحدو به الى التسرع في الحكم ، شأنه شأن المؤرخين السابقين ، الذين جاؤوا بتفسيرات غريبة ــ جدا ــ لظواهر تاريخية ، وهناك ــ بالطبع ــ عدة أسباب لتعقد الالغاز ، ولكن أهمها جميعا هي : أن الحوادث التاريخية التي نقلت الينا ــ عبر الزمن الطويل ــ كانت نتيجة لتفاعل عدة عوامل ثقافية ــ سلوكية ــ أجتماعية ــ نفسية ــ أقتصادية ــ وسياسية ، والمؤرخ لا يكون بالطبع ملما بكل هذه العلوم ، فتأتي أحكامه مرتجلة في تفسير الحادثة تفسيرا علميا •

من هنا كان على المؤرخ : معرفة هذه الحقيقة البسيطة ، وهي : أن التاريخ يعني جميع العلوم البشرية ، مضافا اليها مرور الزمن • وكما أنه يجب الا يعطي لنفسه الحق ، في تفسير ظاهرة اقتصادية ، أو سياسية أو ما اشبه وقعت الآن تفسيرا علميا ، دون الرجوع الى مبادىء العلم التي تخصه ، ووسائل بحثه ، كذلك لا يمكنه أن يفسر الظاهرة التاريخية، التي تزيد غموضا ، بسبب مرور الزمن على الظواهر الحاضرة •

وتوضح لنا هذه الحقيقة : مدى ارتباط التاريخ العلمي ، بسائر العلوم البشرية ، ومدى الضرورة في الاستفادة المتبادلة بينها ، بأن ندرس الاقتصاد معتمدين على التغييرات التاريخية للاقتصاد البشري، كما ندرس التاريخ منطلقين من المبادىء الاقتصادية التي توصلنا اليها حاليا ، وكما في الاقتصاد ، كذلك في السياسة ، والاجتماع ، والثقافة ، وسائر العلوم البشرية •

من هنا يقول الدكتور شاكر مصطفى [1] « وانما ابتداء (المشكلة) على الطرف الآخر من المعرفة : طرف (الموضوع) الذي يسهل على كل فكر ان يدرك : أنه ـ لاتصاله بالطبيعة ، والانسان ، والحياة ـ فأنه أعقد بكثير وأوسع بكثير ، وفي كل الاتجاهات ، من أن تلملمه أو تحيط به الوسائل العادية المتداولة حتى اليوم ، للمعرفة العلمية » • ثم ينقل نصا من (سانتيانا) جاء فيه : أن العصب الحقيقي أو بالاحرى الديناميكية الكاملة للاحداث ، ليست هي على نطاق انساني ، انها ليست رائعة ، ولا يمكن أدراكها بالتخمين ، أو بالتكهن المثير ، او بالعبارات الاخلاقية ، انها الحياة الخاملة المعقدة في الطبيعة ، تلك العقدة الكبرى لكل الاصول والمشتقات !!

ولكن هل يعني ، تعقد الموضوع : الانكفاء كليا عن التاريخ ؟ طبعا لا انما يعني : المزيد من الجهود الرامية ، كشف حوادث التاريخ ، مضاءة بمبادىء العلوم التي تقدمنا فيها ، ولكي نصل ـ في يوم ـ الى مرحلة نستطيع فيها تكوين مبادىء عامة للتاريخ ، « وسيأتي يوم تنجلي فيه جميع الحقائق ، والوثائق القديمة ، وتترتب بفضل تنظيم العمل ، وتثبت الحوادث التي لم يعف أثرها عندئذ يتكون التاريخ •• [2] » •

ونعود فنقول أن التاريخ علم ، ولكنه علم حديث ناشىء ، بالنظر الى سائر العلوم ، وسبب حداثته : أن التاريخ القديم لم يكن مبتنيا على الاسس العلمية الثابتة ولا هادفا : معرفة المبادىء والقوانين التي تسير العالم •

التاريخ وفلسفة الحياة

ولكن هدف التاريخ قد لا يكون مجرد التعرف على الحدث

---

(١) المصدر ص ١٩٢ •
(٢) المصدر ص ١٨٩ نقلا عن لانجلوا ـ وسينيوبوس •

التاريخي ، أو حتى مجرد التعرف على الاسباب ، والعلل التي ورائها بل أكثر من ذلك بكثير ، وهو التعرف على فلسفة الحياة ككل .. وهذا الهدف ليس معتمدا على تحقيق الهدفين الماضيين ، بل هو هدف بذاته ، اذ قد يتم — مثلا — التعرف على الغابة ، وعلى ما فيها من روعة وجلال ، وما فيها من قدرات اقتصادية ، او اجتماعية ، من دون معرفة عدد الاشجار التي فيها ، ولا طبيعتها ، وخصائص وجودها ، كذلك يمكن ان تتعرف على الخطوط العامة التي سارت عليها البشرية في الماضي ، من دون ان نعلم — بالتفصيل — جميع الحوادث ، التي وقعت ، والاسباب الجزئية التي كانت ورائها . أننا لا نحتاج الى ذكاء عظيم ولا الى سعة اطلاع ، لنعرف تقدم الرسالة الاسلامية في فجر بعثها ، لان هذا التقدم ثابت بألف حادث تاريخي وحادث ، بالرغم من أن الحوادث ذاتها ، ليست علمية ، ولا ثابتة ، اذا لاحظناها بانفراد اذ انها — من حيث المجموع ثابتة، وذات دلالة لا ريب فيها : على ان الاسلام متقدم » كذلك لا نحتاج الى ذكاء عظيم ، لو اردنا تعليل هذا التقدم بصفة مجملة ، من خلال حوادث ثابتة — هي الاخرى — من حيث المجموع ، بالرغم من تسرب الشك الى كل واحدة منها ، اذا لوحظت بانفراد ، وفلسفة التاريخ لا تعتمد على الجزئيات ، بل على مجمل الدلالة العامة ، التي يمكننا أن نستفيدها منها .

وتناول فلسفة التاريخ هذه الاسئلة : هل للزمان بداية ونهاية ؟ وعند أية نقطة يبدأ الزمان ؟ هل عندما تهبط رسالات السماء ؟ أم عندما تقتضي التحولات الطبيعية في أشياء الكون فتنعكس بالطبع على الانسان؟ ثم هل التاريخ يتحرك باتجاه متقدم ابدا ؟ ام باتجاه دائري ابدا ؟ ام انه يمشي كالحية (خطوة الى الوراء خطوتين الى الامام) أم ماذا ؟؟

وما هي علاقة القيم بالحضارة والاجتماع بالتاريخ ؟ وما هي الديناميكية التاريخية ؟ وهل يمكننا وفق هذه الفلسفات أن تتنبأ

بمستقبل الحياة البشرية ؟ فهل ــ مثلا ــ بامكان مؤرخ مثل توينبي : أن يتنبأ بمستقبل حضارة الرجل الابيض وأنها تسير باتجاه عكسي؟ أن فلسفة التاريخ تهدف الاجابة على هذه الاسئلة ، من خلال الحوادث العامة ، التي يلاحظها المؤرخ ليرى فيها : الخطوط العريضة التي تربط بعضها ببعض [1] .

والفلسفة لها علاقة متبادلة مع العلوم ، فمن جهة تنفع الفلسفة العلوم حيث تثير أمامها أسئلة جديدة ، وتضع أمامها نقطة لا بد للعلوم أن تسعى للوصول اليها ، ومن جهة ثانية تنفع العلوم الفلسفة حيث تعطيها الوسائل ، والادوات التي تساعدها على رؤية الواقع ، وهكذا يتبادل العلم والفلسفة العون ، ولا يستغني أحدهما عن الآخر ، في كل الحقول ، وفي حقل التاريخ بالذات .

علاقة المناهج بالاهداف

٧ ــ حتى اللحظة عرفنا أن دراسة التاريخ تهدف ثلاثة أمور : ١ ــ العبرة والبصيرة العقلية ، ٢ ــ العلم ومعرفة القوانين التفصيلية ، ٣ ــ الفلسفة وفهم الخطوط العريضة لمسيرة البشر . ولكل واحدة من هذه الاهداف الثلاثة مناهج تخصه :

أ ــ فمنهج العبرة هو ربط الماضي بالحاضر ودراسة الحاضر على هدى الماضي . وهذا في الواقع منهج اخلاقي ، يعترض طريقه انطواء الفرد على ذاته ، ولا بد من التخلص منه عن طريق التعرف على العوامل النفسية التي تسبب الخطأ [2] .

---

(١) راجع المصدر من ص ٢١٥ الى ص ٢٤٤ .
(٢) راجع الفصل المختص بذلك فيما سبق عند الحديث عن عوامل الخطأ

ب ــ ومنهج الفلسفة ــ هو توضيح البصيرة عن طريق المناهج العقلية [1] .

ج ــ ومنهج العلم التاريخي وهو يشبه في خطوطه العريضة ، المناهج العلمية الآنفة الذكر ، (في هذا الفصل) ، ولكنه يتميز ببعض السمات التي لا بد من أستعراضها ، وهي : دراسة الوثائق التاريخية ، واستنباط الحوادث منها ، ثم تحليلها وتركيبها ، وفق رؤية واضحة الى التاريخ، ومن هنا راح بحثنا القادم يسير بالتدرج عبر هذه المراحل أبتداء من دراسة الوثائق التاريخية ، وانتهاء بالرؤية التاريخية انشاء الله .

---

(١) راجع الفصل المختص بذلك فيما سبق عند الحديث عن العقل .

القسم السادس عن مناهج التاريخ

دراسة مناهج التاريخ ـ البحث الثاني عن

دراسة الوثائق التاريخية

- كلمة البدء
- انواع من الوثائق
- ٣ عقبات في طريق الوثائق
- العلوم المساعدة
- نقد الوثائق
- نقد الوثيقة ماديا
- التزوير والتحريف/انتساب الوثيقة الى صاحبها كيف تكتشف التحريف
- شخصية صاحب الوثيقة (دواعي الكذب والسهو ـ الانتماء ـ العقدة والعقيدة التفاؤلية والتشاؤمية .
- النقل غير المباشر
- كيف نفهم لغة الوثيقة

كلمة البدء

١ ــ الوثائق هي : العناصر المتبقية من تجربة الانسان الماضي، سواءا كانت مادية ، أو أدبية ، وذلك كالمعابد ، والمقابر ، والتماثيل ، ونوعية أثاث البيوت ، والنقوش التي عليها ، والادوات ، والوسائل المستخدمة في حياتهم الخاصة ، وأيضا كالقصص والاساطير ، والآداب ، ودوائر المعارف ، والفلسفات ، والديانات ، والاخبار التي تشرح الماضي ، وبالتالي كل ما تبقى من السابقين من آثار مدونة على قرطاس أو ثابتة في الطبيعة .

٢ ــ واهمية الوثائق آتية من انها الخيط الوحيد المتبقى بأيدينا من الماضي ، ولا بد من الاعتناء بهذا الخيط لعلنا نستفيد منه أكبر فائدة ممكنة !

بالاضافة الى : أن الوثائق هي الطريق العلمي الوحيد ، في دراسة التاريخ ، بالرغم من أنها تنفع ــ أيضا ــ في سائر الدراسات الحديثة ، وقد سبق القول : بأن دراسة الوثائق ، واحدة من المناهج الخمس ، النافعة في دراسة العلوم البشرية » ومن هنا أصبحت الدراسة الوثائقية ، من الدراسات الهامة ، التي يوليها علم المناهج الحديثة ، أهمية قصوى ، لانها ذات فوائد في كافة الحقول ، وعلى سبيل المثل استطاع اخصائيو الشيفرة ، والكتابة السرية الاميركيون : أن يستعينوا بطرق البحث الوثائقي ، لحل شيفرة العدو ــ وبالتالي ــ ترجمة رسالاته العسكرية ،

خلال الحرب العالمية الثانية [1] . كما أن الدراسة الوثائقية : « يمكن أن تكون مفيدة في دراسة المسجلات – غير الانسانية ، ذات الاشكال المتعددة ففي الجيولوجيا – مثلا – يمكن دراسة تطور الارض ، عن طرائق تجميع ودراسة الصخور ، والحفريات من الطبقات المختلفة [2] .

٣ – وتهدف الدراسة الوثائقية : توفير عدد ضخم ، من المعلومات الجزئية الخاصة بالاحداث ، لتكون تمهيدا لتنظيمها في سجلات ، وملاحظتها مع بعضها ، لتكون – بالتالي – قادرة على اعطاء رؤية متكاملة الى الماضي ، من هنا نعرف : ان الدراسة الوثائقية هي الخطوة الاولى نحو فهم التاريخ ، فهما علميا سليما .

انواع من الوثائق

والوثائق النافعة أقسام متدرجة سوف نستعرضها فيما يلي الاهم فالاهم وهي :

أ – السجلات الرسمية :

وهي : كل كتابة تعتمدها جهة رسمية ، معترف بها قانونيا ، وذلك مثل قرارات المحاكم ، ومضابط الاجتماعات الرسمية ، والتقارير التي ترفعها اللجان ، في المنظمات والنوادي، والشهادة الشرعية الخاصة بالافراد مثل العقود ، والايقاعات ، والثقة بهذه الوثائق آتية من صعوبة التزوير فيها واللعب بها ، واهتمام الكاتب لها ، بالاضافة الى الضبط والدقة فيها.

ب – التقارير الصحيفية :

وهي التي تنشر – عادة – نصوص الاخبار ، مسجلة بذلك –

---

(١) اصول البحث العلمي ومناهجه ص ٢٣٥ .

(٢) المصدر ص ٢٣٦ .

الاحداث ــ ، تسجيلا دقيقيا نسبيا ، والبلاد التي تقل الرقابة فيها ، وفي الصحف التي يعتمد عليها الجمهور ، تزداد الثقة بالتقارير الصحفية ، ونشرات وكالات الانباء ، تشبه التقارير الصحفية ، الا أنها أكثر دقة وضبطا •

ج ــ كتابات شهود عيان •

وهي تحدث في القضايا الهامة التي يتبرع الناس بالكتابة عن مشاهداتهم ، أو يتحدثون الى من يكتبها ، وذلك مثل : الغزوات ، والحروب ، خصوصا الداخلية منها ، والتظاهرات ، والاحداث الطبيعية ، التي تصبح فيها شهادة شهود عيان أقوى وأوثق لها •

د ــ الرسائل والمفكرات :

وعند تاريخ الاشخاص ــ الذين تربطهم بالاحداث صلة وثيقة ــ (رؤساء ، مدراء ، قادة عسكريون و•••) لا بد لنا من مراجعة كتابات الاشخاص عن أنفسهم ، في الرسائل ، والمفكرات ، وما أشبه • وتشبه الرسائل والمفكرات التراجم ، والمذكرات ، انها ــ أيضا ــ تكشف عن وقائع خلفية ، قد لا يهتم بها المراقب العادي ، في حين ينتفع بها المؤرخ كثيرا •

هـ ــ الدراسات التاريخية :

وهي : الكتابات التي سجلها الافراد ، بقصد التاريخ • وبالطبع تختلف هذه الكتابات ــ من ناحية الثقة بها ــ من شخص الى آخر ، ومن عصر لآخر ، الا اننا اذا استخدمنا طرق النقد القادمة ، فسوف تتخلص من بعض احتمالات الكذب ! وبالتالي تزداد ثقتنا بها ، وتعتبر الدراسات الوصفية ، التي تمت في الماضي ، أهم الدراسات التاريخية ، اذ انها تتميز باهتمام الدارس ، وتتبعه ، الذي يكون عادة اكثر من اهتمام المؤرخ ،

وتتضمن الدراسات الوصفية بحوث الفقهاء السابقين حول المقادير ، والمكائيل ، والنقود ، وطرق التعامل • و•و• كما تتضمن دراسات الباحثين السابقين في مسح منطقة جغرافية او مسح حالة اجتماعية •

و ـ الكتابات الادبية :

كثير من التفاصيل التي لا يسجلها ـ عادة ـ المؤرخ ، يسجلها الشاعر ، والقصاص ، أو الموجه الاجتماعي ، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، وذلك من خلال عرضه للحوادث ، وتشبيهه له بشيء •

صحيح أن الشعراء ، والكتاب الموجهون ، لا يهدفون ـ عادة ـ تسجيل الوقائع ، ولذلك فهم لا يلتزمون بالدقة المطلوبة ، لفهم حدث تاريخي • الا أنه ـ بعد اسقاط المبالغات ، والتشبيهات ، غير الصحيحة ، وبعد فحص خلفية افكار الشاعر ، أو الموجه الاجتماعي ـ نستطيع أن نكتشف طبيعة العصر • فمثلا : المتنبي أرخ ـ بأشعاره ـ لحروب سيف الدولة ، ولما كانت تثير هذه الحروب من حماس وعواطف ، في نفوس المسلمين ، كما أرخ لمدى الترف الذي كان العصر قد تورط فيه •

ومن الطريف أن المؤرخين الجدد ، يعتمدون في تاريخهم للامة الاسلامية ، على كتب الادب ، والشعر ، أكثر من اعتمادهم على الكتب التاريخية لانها ـ والحق يقال ـ أكثر أستيعابا للوضع الاجتماعي من كتب التاريخ •

ز ـ الآثار الباقية على الطبيعة (الجيولوجية) :

الادوات ، والوسائل ، التي استخدمها الانسان ـ في الماضي ـ سواءا في كسبه ، ومعيشته ، أم في تأثيث بيته ، أم في حربه مع عدوه • كل تلك ، آثار باقية من الماضي على الطبيعة، وتعطينا فكرة عن آبائنا ، فمثلا : لما كشف الانسان عن أوراق البردى وعن آثار الفراعنة، وعن سر الكتابات

الهيروغلوفية ، استطاع : أن يعرف الكثير ، من عهود الفراعنة، وعن تاريخ مصر القديم • كما أدت التنقيبات عن أرض بابل، وما وجد فيها من كتابات وآثار الى معلومات وافرة عن تاريخ العراق القديم •

ويستخدم المؤرخ طرق البحث الوثائقي ، في دراسة الآثار الماضية ، بالرغم من أنها أصعب وأكثر غموضا من الكتابات التاريخية •

٥ ـ هذه هي الوثائق التاريخية ، التي تؤرخ ـ في الاغلب ـ عصرا معينا من عصور التاريخ ، وقبل كل شيء ينبغي أن يحصل عليها الباحث ، ويتأكد من توفير كل الكمية التي قد تنفعه في حقل بحثه ، اذ « من واجب هؤلاء الذين يريدون التخصص في البحوث التاريخية ، : ان يعطوا ـ مرحلة البحث عن الوثائق ، والرجوع الى الفهارس ـ حقها من الاهمية ، فلا يتسرعوا في اختيار موضوعات بحثهم، قبل التأكد من وجود الوثائق ، والمراجع ، التي تتصل بهذه الموضوعات » [1] •

عقبات في طريق الوثائق

والواقع اننا ولحسن الحظ ، أصبحنا في عصر يسهل على الباحث الحصول على الوثائق الكافية لبحثه ، وذلك بفضل المكتبات ، والمتاحف ، وبفضل جهود المتخصصين فيهما ، الا أنه لا يزال بعض الصعوبات ، تعترض طريق الباحثين عن الوثائق ، وأهمها ما يلي :

١ ـ « لا يمكن أن نعثر على الوثائق ، ونخرجها من خزائنها لنودعها في المكتبات العامة ، اذ من الواجب ان تصنف ، وتفهرس ، وتبين خصائص كل وثيقة ، أو مخطوطة منها ، بحيث يمكن الافادة منها ، وما زالت هناك للاسف مكتبات لم تصنف مخطوطاتها ووثائقها ، ولم توصف وصفا

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٤٦٧ •

دقيقا » [1] . وعلى الباحثين ان يقـوم بجهد مكثف ، في سبيل الحصول فهارس ، بل يبادر الى مضان الوثائق ، لعله يحصل على مزيد منها ، ولعل وثيقة واحدة ، تغني الباحث عن جهود كبيرة .

٢ ــ هناك مجموعات من الوثائق الميتة ، التي يحتكرها اصحابها ، ويساومون عليها ، وفي بعض بلادنا الشرقية ، لا يزال كثير مــن الناس يحتفظون بكنوز هائلة ، من الوثائق التاريخية ، التي لم تر النور وفي هذا المجال ينبغي أن يسعى الباحث للاطلاع عليها بأي طريقة ممكنة ، لان هذا الجهد ، قد يوفر عليه جهدا أكبر لو بقي من دون وثيقة ، وأراد كشف التاريخ بطرق أصعب كثيرا هي الاخرى .

٣ ــ ان الوثائق قد جمعت بشكل غير علمي ، اذ انهـا جمعت عــن طريق المشرفين على المكتبات ، ولاهداف ذاتية بحتة . بل أن كثيرا مــن الوثائق التافهة ، تكدست في المكتبة العربية على غير هدى مــن العلــم ، والمناهج العلمية ، وعلى ذلك : وجب على الباحث ألا يعتني بكل وثيقــة مبوبة ومطبوعة ، لانه قد توصله الوثائق المطبوعة ، غير النافعة ، الــى تكديس معلومات تافهة عن التاريخ ، في ذلك يقول (هالت كار) : البدعة الاساسية في القرن التاسع عشر : هي ان اعتقد النــاس : ان التــاريخ يتكون من التوفيق بين عدد كبير من الظواهر الموضوعية ، التي لا سبيل الى الطعن فيها ، ان كل من يدع نفسه تنزلق الى هذه البدعة ، يجب عليه ان يترك التاريخ باعتبار انه مهنة رديئة ، وعليه ان يتسرع في جمع طوابع البريد ، أو مجموعات من التحف القديمة ، أو ينتهي الى أحدى المصحات العقلية [2] .

---

(١) المصدر ص ٤٦٥ .
(٢) المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٤٦٧ .

أن هذه ثلاث عقبات تعترض طريق الفهم الصحيح للوثائق •

العلوم المساعدة

١ ــ لا ريب في : أن كل علم يزيد في قدرة الانسان على فهم موضوع العلوم الاخرى ، ولكن بعض العلوم ، يرتبط ببعضها ارتباطا وثيقا ، مما يجعلها وكأنها من تشكيلة واحدة من ذلك : العلوم الانسانية ، التي تعني : الاجتماع ، والسياسة ، والاقتصاد ، والنفس العام ، والتاريخ • ذلك لان هذه العلوم ، تهتم بدراسة خلفية السلوك الانساني ، وتحاول فهم (الانسان) من خلال نشاطاته ، أو بعض الظواهر المتأثرة به ، ومن هنا يكون دارس التاريخ ، محتاجا الى دراسة العلوم الانسانية الرديفة ، فالاجتماع ــ مثلا ــ ضروري في دراسة التاريخ، لان التاريخ ليس سوى دراسة الاجتماع في وقت ماض ، فلو كان المؤرخ في نفس العصر الذي سجله وكتب تاريخه ، لكان يسمي موضوع دراسته : بموضوع علم الاجتماع • وعلم السياسة يعتبر جزءا هاما من علم الاجتماع ، وكذلك الاقتصاد • أما علم النفس العام ، فهو دراسة دلالة التصرفات التي يقوم بها شخص ، أو جماعة ، على نوعية تفكيرهم ، ولا ريب أن المؤرخ، يحاول فهم خلفية سلوك الانسان ، في الماضي ، دون الاقتصار على معرفة سلوكه فقط •

ودراسة الوثيقة التاريخية ــ كما سيأتي ان شاء الله ــ لا تهتم فقط بدراسة عناصرها الخارجية بل تحاول فهم عناصرها وتقييمها من الداخل أيضا • ولذلك تكون معرفة العلوم الانسانية ذات علاقة وثيقة بدراسة الوثائق •

ولذلك : أوصى ابن خلدون ، المؤرخ : (بأن يحصل على ثقافة اجتماعية تعينه على فهم حوادث التاريخ) ونصح فريمان ، المؤرخ : بأن

يساهم في الحياة المعاصرة ، وأن يكتب عنها ، حتى يكون قادرا على فهم الماضي » .

كما « ينبغي للمؤرخ أن يلم بعلم الاقتصاد الماما، يمكنه من الوقوف على مدى تأثير العوامل الاقتصادية ، على مسار التاريخ . فنحن نعرف أن السياسة الداخلية لدولة من الدول ، تعتمد اعتماداً كبيرا على مدى ثرائها الطبيعي ، ونشاطها التجاري ، وطريقة توزيع الثروة الطبيعة في بلد ما ، تحدد عادة نوع الحكم فيها ، ومستوى الرخاء العام بها ، وعلاقة طوائفها ببعضها » (١) .

٢ ــ ولان أحداث التاريخ تقع على أرض معينة ، وفي مناخ طبيعي معين ، وتتأثر الاحداث البشرية بطبائع الارض ، وتطورات المناخ ، سواء من ناحية ثروات الارض الاقتصادية ، او حدودها مع سائر الاراضي ذات التأثير على السلم والحرب ، او حتى من جهة الحرارة واليبوسة فيها . لان أحداث التاريخ تقع على أرض معينة مما تؤثر فيها فان دراسة علم الجغرافيا ضرورية لفهم التاريخ ، ودراسة اللغات التي كتبت بها الوثائق التاريخية ضرورية أيضا ، وقد كشفت البحوث الحديثة عن اللغات القديمة ، كشفت النقاب عن اسرار هذه اللغات ، مما أعطتنا فرصا كبيرة لفهم التاريخ .

٣ ــ والمؤرخ بحاجة الى معرفة فقه اللغة ، وهو علم يعتني (بتطور المعاني التي عبرت عنها بألفاظ) حتى انك تجد : الكلمة الواحدة ، تدل على عدة معاني تاريخية ، حسب العصور المتلاحقة .

ووضع كلمة لتعبر عن مفهوم ، هذا الوضع ذاته ، يدل على تطور معين ، فاللغات التي لا نجد فيها كلمات تدل على المجردات ، او على

---

(١) عالم الفكر العدد الاول ــ ابريل ــ ١٩٧٤ ــ الدكتور محمد فؤاد حسين ص ١٣٥ .

الكليات ، وحتى على معنى للتناقض ، والوجـود ، هذه اللغات : تدل على مستوى هابط ، من التطور الحضاري ، بينما اللغات الغنيـة بهذه المفاهيم ، تدل على تقدم في الحضارة • و (فقه اللغة او علم اللغة) لم يزل في دور الطفولـة ، ولكنه اذا تقـدم ، نستطيع ــ آنئذ ــ كشف خلفيات فكرية واجتماعية كثيرة ، من وثيقة واحدة •

٤ ــ ومعرفة الادب ، هامـة ايضا ، بالنسبة الى المؤرخ ، اذ ان الادب ــ كما اللغة ــ مرآة صادقة للحياة الاجتماعية السائدة ، وهو الذي يكشف عن تطلعات المجتمع ، وأمانيه ، كما يكشف عن مستواه الفكري « وقد تكون مخلفات أديب واحد ، معينا هـائلا للمؤرخ ، يستقي منـه معلومات تاريخية هامـة ، لم تكن لتتـاح له ، لولا هذه المخلفات ، فاليـاذة هوميروس و (العمـل والايـام) لهيسبودس ، ومسرحيات ايسخلولوس ، وسوفوكليس ، ويوربيدس ، عند الاغريق القدماء ، وآثار دانتي الادبية ، التي ترجع الى أواخر العصور الوسطى، في ايطاليا ، ودراسة الادب الغربي الحديث ، كلهـا تعتبر من المصادر التي لا غنى عنها ، لمن يريـد التصدي للبحث في التاريـخ السياسي ، والاقتصادي ، والاجتماعي ، لتلك الازمـان » [1] • وكذلك كتـاب الاغاني ، وصبح الاعشى وما أشبه ، بالنسبة الى الادب العربي ، وكما الادب كذلك معرفة الرسوم، والآثار الفنية ، قد تكشف عن بعض جوانب المجتمع القديم •

٥ ــ وعلم الخطوط ، واحد من أهم الضرورات لفهم تاريخ بعض الوثائق ، اذ اننا عن طريق الخطوط ، نستطيع أن نعرف عصر أية وثيقة، فمثلا سوف تبقـى معلوماتنا ــ بالنسبـة الى البـلاد التـي خضعت

---

(١) المصدر ص ١٣٥ •

للعثمانيين ـ ستبقى قاصرة لو لم نعرف الخطوط القديمة التي دونت به وثائق النظم الادارية ، والمالية ، في ظل الحكم العثماني لهذه البلاد [1] .

ولا بد ان نضع ملاحظة في العلوم المساعدة لدراسة التاريخ ، وهي أن هذه العلوم ، تختلف ضروراتها ، حسب الموضوعة التاريخية التي يهدف الانسان دراستها ، فمنها ما تحتاج الى العلوم الانسانية ، اكثر من حاجتها الى الجغرافيا ، وعلم اللغات، وعلم الخطوط ، ـ كالفترة الاسلامية الاولى ـ ، ومنها بالعكس تماما : كالعهود الفرعونية واليونانية القديمة ، لذلك ينبغي ان يختار الباحث « الموضوعة التاريخية » ثم يفكر في العلوم المساعدة الاكثر ضرورة بالنسبة اليها ، ثم لا ينتظر تكميل تلك العلوم المساعدة ، بل يبدأ بحوثه جنبا الى جنب ، مع دراسة تلك العلوم ، لتكون دراسة التاريخ مجالا تطبيقيا حيويا ، بالنسبة الى العلوم المساعدة التي يدرسها .

كما تختلف أهمية العلوم المساعدة بالنظر الى نوع الدراسة التي يهدفها الباحث ، اذ من الباحثين من يوجه اهتمامه الى دراسة الوثائق من الناحية اللغوية الخارجية ، بينما يعتني آخرون بفحص محتويات الوثيقة الداخلية ، ويحاول ربط معلومات الوثيقة ببعضها ، للاستنتاج منها .

وقد برع ـ في كلا الجانبين ـ المسلمون السابقون ، الذين درسوا بشكل مسهب أحوال الرواة للوثائق كما درسوا نصوص الاحاديث ومنذ القرن الاول من الهجرة ، اختص طائفة كبيرة من العلماء المسلمين ، بعلم الرجال ، الذي يفحص « طرق نقل الحديث » بأساليب علمية بالغة الدقة ، كما اختص آخرون ، بعلم الاصول ، الذي يبحث عن محتويات النصوص .

---

(١) المصدر ص ١٣٤ .

وعلى الباحث في الوثائق الاسلامية ــ خصوصا الشرعية منها ــ أن يكون قادرا على مراجعة كتب الرجال ، وعلم الاصول ، وعارفا بأسلوب الاستفادة منهما ، في مجال تقييم الحديث ونقله .

نقد الوثائق

هناك اربع مراحل تتصل ببعضها ، حتى يحصل الباحث على معرفة واضحة للعصر التاريخي الذي يدرسه .

المرحلة الاولى ــ جمع الوثائق ودراستها من الناحية المادية .. وذلك باعتبار الوثيقة موضوعة مادية واجراء بحث عليها لمعرفة التطورات المادية التي طرء عليها . فمثلا لو حصلنا على كتاب مخطوط من ألف سنة. فلا بد ان نسأل انفسنا ــ ومن قبل كل شيء ــ هل تلف من هذا الكتاب شيء ؟ هل تساقطت حروفه مما يؤثر على المعنى وهل هو كتاب من ألف عام بالنظر الى ورقه ؟ وهكذا .. المرحلة الثانية دلالة لغة الوثيقة على المفاهيم التي قصدها الذي خلفها من ورائه . فلنفترض الوثيقة بأيدينا لوحة مرسومة فما هي لغة هذه اللوحة وما هي دلالات رسومها على قصد الراسم منها او اذا افترضنا الوثيقة نصا تاريخيا فما هي دلالة كلماته على قصد المؤلف لها ؟ وهكذا نحاول في هذه المرحلة ان نفهم بالضبط : المقصود منها المرحلة الثالثة : معرفة صاحب الوثيقة ومدى دلالة شهادته على الوضع الذي اراد تقييمه او الحدث التاريخي الذي اراد تسجيله . في هذه المرحلة نحن نتصور كاتب الوثيقة امامنا وهو يتحدث بلغة نفهمها بالضبط ، فنتسائل ما هو مدى صحة كلامه من عدة نواحي من ناحية صدقه او كذبه ، من ناحية قدرته على فهم الحقيقة التاريخية وعدم قدرته، ومن ناحية حدود الحقيقة التاريخية التي يسجلها ويشهد عليها .

المرحلة الرابعة وبعد ان نفهم بالضبط الحقيقة التاريخية ، لا بد ان

نركبها مع الحقائق التاريخية الاخرى لنعرف طبيعة الوضع التـاريخي معرفة شاملة . وهناك تنتهي وظيفة المؤرخ .

هذه هي المراحل الاربع التي لا بـد ان يتدرج عبرها المـوضوع المؤرخ . اذا دعنا نفصل هذه المراحل .

المرحلة الاولى : نقد الوثيقة ماديا

تتعرض الوثائق لعدة تغييرات من قبل الطبيعة او من قبل الانسان فعمليات الحفر والتنقيب تدل على ان هناك آثارا قديمة تعرضت لتلـف كلي او جزئي نتيجة تغييرات طبيعية ، كما أن هناك آثارا اخرى تعرضت للتغيير بسبب تزوير الناس لها .

كما ان الوثائق المكتوبة تتعرض ايضا لتلف طبيعي او بشري كمـا ان بعض الوثائق مزورة من اساسها .

من ذلك ما يذكره الدكتور احمد بدر في كتابه اصول البحث العلمي ومناهجه ص ٢٤٥ :

ومن اشهر قصص التزوير في التاريخ الغربي قصة التزوير المشهورة باسم هبة قسطنطين وقد حدثت في القرن الثامن ــ وعلى الارجـح ــ بواسطة احد رجال الكنيسة وقد خولت الوثيقة المزورة للامبراطـور : السلطة السياسية على جميع قطاعات ايطاليا ، هــذه وغيرها كثير مـن الوثائق المزورة والتي عرفت باسم الاحكام البابوية الزائفة وقد كشف عن زيفها في القرن الخامس عشر عالم الانسانيات الشهير لورنثيوس فالا ..»

وفي تاريخنا الاسلامي يعتبر اكبر عملية تزوير خلق ٥٠ صحابيا لم يكن لهم وجود خارجي في التاريخ واقحامهم في التاريخ لاسباب سياسية ومذهبية (راجع كتاب خمسون صحابيا مختلقا لمؤلفه العلامـة مرتضى العسكري) .

من هنا ينبغي ان يجهد الباحث في الوثيقة نفسه ليعلم هل ان الاثر الباقي في يده سليم منذ ان خلفه صاحبه ام تعاقبت عليه الايدي بالتغيير والتزوير ؟..

وفي سبيل الوصول الى هذه المعرفة لا بد ان يقارن بين هذا الاثر الباقي من هذا العهد ، وبين آثار مشابهة من ذات الفترة التاريخية ومـن فترات سابقة عليها ولاحقة لها .

كما يدرس نوع الاثر (مثلا الحجر المنقوش عليـه النحت . او الورق المكتوب عليه الوثيقة او الدواة المستخدمة في الكتابة) ليعلم هل كان هذا النوع متداولا في ذلك العصر ام لا ؟

(وفي كتاب مصطلح التاريخ للاستاذ اسد رستم ، مثال للمعانـاة التي لاقاها حين كلف بفحص احدى الوثائق المكتوبة ، ــ وكانت عبارة عن رسالة من عهد محمد علي ــ للوقوف على مدى صحتها وكيف اضطر الى فحص نوع الورق الـذي دونت عليه الوثيقة وفحص نـوع المداد ومقارنتها بمثيلاتها من الوثائق في اماكن مختلفة ، ودراسة عادات المراسلة والاسلوب واللغة وتاريخ ومكان الكتابة ، واتفاق ما جاء بها من الظروف التاريخية ، وذلك كله يبين لنا : مدى الصعوبة التي يجب على المؤرخ ان يواجهها ويتغلب عليها ليصل الى الحقيقة) [1] من هنا كان على الباحث ان يتأكد من صحة الوثيقة بعدة طرق هي التالية باختصار .

١ ــ المقارنة بين وثيقة مكتوبة بخط المؤلف ، وغيرها منقولة عنه ، ليعرف طبيعة تفكير الشخص ، وطريقة اسلوبه في عرض الموضوع فـي الوثيقة التي لا شك من ارتباطها بالمؤلف ، لقياسها على الوثيقة المشكوكة.

---

(١) المصدر ص ١٤٥ .

٢ ـ التحليل الكيمياوي للمادة التي كتبت عليها الوثيقة لمعرفة زمان ومكان صناعة الورق والدواة والقلم المستخدمات في رسم الوثيقة لمعرفة تاريخها بالضبط •

٣ ـ الاستعانة ـ لذلك ايضا ـ بالوسائل العلمية كالمعامل الكيمياوية والعدسات المكبرة والاشعة فوق البنفسجية وما اشبه •

٤ ـ التحليل الداخلي للوثيقة حيث نستطيع عن طريق معرفة ما اذا كانت الوثيقة صحيحة النسبة الى صاحبها المنسوب اليه ام لا ، وبهذه الطريقة كشف العلم عن زيف نسبة كتاب المضنون الى الغزالي ، حيث يختلف ـ في اسلوبه ـ عن اسلوب الغزالي ، ويستخدم الكتاب بعض الكلمات التي لا يستعملها الغزالي في اي من كتبه ، مثل عبارة حقيقة ودقيقة وما اشبه ، كما ان العلم كشف عن زيف نسبة الرسائل الشخصية الى لنكولن حيث ظهرت في الاسواق مليئة بالاخطاء ومن ابرزها : ان لينكولن كان قد اشار في بعضها الى كانساس باعتبارها ولاية امريكية ، في تاريخ لم تكن هذه الولاية قد انضمت الى الولايات المتحدة •

وفي تقييم النصوص الشرعية يستخدم الفقهاء هذا المقياس الداخلي كثيرا • حيث يمكنهم ان يتعرفوا على ضعف حديث مروي او ضعف كتاب منسوب الى احد العلماء السابقين بمجرد تحليل الكتاب داخليا •

كما انهم قد يستخدمون طريقة اخرى وهي اسلوب الحديث الادبي• ومقارنته باساليب سائر الوثائق مثلا : ان الادب الاسلامي الاصيل لا يستخدم كلمة « واجب الوجود » أو كلمة الوصول •• والعشق والحلول وما اشبه • من الكلمات التي اقحمت في الادب العربي منذ تسرب الافكار الصوفية ، ولهذا يعتبر وجود مثل هذه الكلمات في وثيقة معينة منسوبة الى النبي ـ ص ـ او الى أئمة المسلمين ـ ع ـ دليلا على أنها وثيقة مزورة •

٥ ــ نقد الاستعادة ــ فيما اذا كانت الوثيقة التي نريد نقدهــا ــ نسخة واحدة فقط • ولم تكن هذه النسخة بخط المؤلف ذاته • فهنــا يحتمل وجود اخطاء كثيرة للاستنساخ • منها اخطاء متعمدة • ومنهــا اخطاء سهوية • ومنها اخطاء فهم من قبلنا ولذلك فلا بد من معرفة كــاتب الوثيقة ومعرفة شخصيته لانها تساعدنا على التعرف على اخطائه المتعمدة التي من الممكن ان يقحمها في النسخــة لأنها تتنافى مع آرائه او مــع معتقداته الدينية ، علما بان كثيرا مــن كتاب النسخ ، كانوا يكتبونهــا لاستعمالاتهم الشخصية ، ولذلك فهم يستهينون ــ عادة ــ بتغيير بعض الالفاظ اعتمادا على انهم يستنكرون الصحيح منها ، والاخطاء التي تقع سهوا • قد تكون بسبب محاولة اصلاح النص جهــلا بمعناه الحقيقي • فاذا لم يعرف الناسخ ــ معنى كلمة عزر غيرها الى غرر اعتقــادا منه انه يصلح النص • وهو يفسده •

وقد تأتي بسبب تشتت باله ــ وتوزع اهتمامه مما قد يكشفــه بوضوح ــ فسيوليجيا ــ نظراً الــى الارتباط الوثيق بين الخط وبــين تفكير صاحبه ، ويمكن اصلاح هذه الاخطاء عن طريق مقارنة النسخ ــ من عدة وثائق وذلك للكشف عن الاخطاء العامة التي يقع فيها الناسخون عادة • مثل تكــرار الكلمات ــ او بعض المقاطــع وهو مــا يسمى بـ (Dittographie) او ذكــر مقطــع مــن المقاطــع المتكــررة دون المقاطــع الاخــرى وهــو مــا يسمونــه بــ (haplogruphie) والاخطاء في علامات الترقيم ووجود اخطاء عامة في استنساخ النصوص القديمة كان السبب في اهتمام بعض الباحثين ــ بوضع جداول لهذهالنوعية من الاخطاء مما يستعين به القارىء للإخطــاء • ومنها ما وضعه مــادفج (Madvigi) فيما يرتبط بالوثائــق اليونانيــة واللاتينيــة وسمــاه معجم (Critica Adversaria) ومما يؤسف له قلة اهتمام الباحثين

في اللغة العربية بهذه النوعية من المعاجم مع ان استنساخ اللغة العربية مر بأطوار عديدة وفي بعض هذه الاطوار لم تكن الكلمات تكتب بنقط او اعجام مما روج فيها اغلاطا كبيرة من نوع واحد ، وتعد كل نسخة او مجموعة نسخ كتبت عن الاصل ـ مباشرة او عن مصدر قريب من الاصل الاقرب فالاقرب ـ اهم من غيرها وبعد ذلك نقارن بين كل مجموعتين من النسخ ، لنعرف اقلها خطأ واضبطها كاتبا ، ونفضل واحدة على الاخرى بناء على مجموعة القواعد التي تقدمت او ستأتي انشاء الله .

ولا بد من الحذر من اعتبار اول نسخة تطيح في يد الباحث انها النسخة الاصيلة ، بل يجب اعتبارها واحدة من النسخ الخاضعة للشك والتثبت كما ان اقدم النسخ قد لا تكون افضل النسخ ، اذ المهم ان تكون النسخة قريبة الى النسخة الاصلية ، وحينئذ تكون افضل وأوثق .

كما ان الاغلبية لا تنفع هنا فاذا كانت اغلب النسخ (من ناحية الكمية) ، مكتوبة بشكل ، فلا بد ان نلاحظ الاقرب منها الى الحقيقة من جميع الوجوه ، وقد تكون مجموعة نسخ مكررة اي مأخوذة من نص واحد وحينئذ لا تحسب الا واحدة نظرا لاصلها .

ويكون افضل للباحث ان يقارن بين نسختين اصيلتين ، من ان يجلس امام مجموعة من النسخ المكررة ، ويقارن بينها ..

وملاحظة اخيرة : يجب الا يستهين الباحث في نقد الوثائق ومعرفة القراءة الصحيحة لها اذ ان ذلك قد ترتبط بموضوع هام ـ وكما يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي ـ (ان تصحيح النص له خطر ضخم فكثير من الاخطاء سواء من الناحية التاريخية ، والمذهبية لم يكن له من مصدر الا خطأ في النسخ ، وكثيرا ما اثارت ـ هذه الاخطاء في النسخ او عدم امكان القراءة الصحيحة للفظ ـ ما لا حصر له من المشاكل ، ولعل ابرز هذه المسائل في الفلسفة الاسلامية مشكلة قراءة فلسفة شرقية ، وعليها

يتوقف حل مسألة خطيرة هي مسألة قيام فلسفة اسلامية اصيلة او عـدم قيامها) [1] .

كما ان تعابير مختلفة في النصوص الفقهية تسببت في الجهل باحكام كثيرة ، بسبب رداءة الخطوط القديمة .

٦ ــ ترتيب الوثائق : فيمـا اذا كانت لدينا عدة نسخ من وثيقـة واحدة ، فلا بـد ان نسعى لترتيب النسخ حسب اقترابها الى النسخـة الاصلية او ابتعادها عنها .

من اجل ذلك ينبغي اولا : تصنيف النسخ العديدة وفق مصادرها المكتوبة عليها ، وذلك بان تتعرف على المجموعات التي تنتسب الى اصل واحد فنعتبرها نسخة واحدة ونستطيع ان نعرف ذلك بمقارنة الاخطـاء التي وقعت في كل مجموعة فاذا كانت اغلاطا متشابهة عرفنا ان النسخ هذه قد اخذت من نسخة واحدة.

بهذه العملية نقسم النسخ العديـدة الى مجموعات ، اخذت كـل مجموعة من الاصل او من مجموعة قريبة الى الاصل وكلما بعدنـا عن الاصل تاريخيا . كلما تعددت النسخ النوعية التي لا قيمة لها من الناحية النقدية .

المرحلة الثانية

دراسة لغة الوثيقة وسوف نبحث في ذلك في فصل قادم ان شاء الله.

---

(١) مناهج البحث العلمي ص ١٩٤ .

المرحلة الثالثة : التزوير والتحريف

متى تمت معرفة لغة الوثيقة ، ندخل في المرحلة الثالثة من البحث ، لنتعرف على عدة امور اهمها دفع شبهة التزوير والتحريف من الوثيقة •

١ ــ التزوير •

والتزوير في الوثيقة يعني : نسبة الكتاب الى غير مؤلفه • وضرورة البحث عن المؤلف واضحة ، اذ يختلف المؤلفون ثقة وعلما وصدقا واستيعابا للحدث عن بعضهم • فلا ريب ان الحادثة التي يرويها: شاهدها، يختلف درجة الصدق فيها عن الذي يرويها السامع عنها • كما ان وزير خارجية بلد ، لو كتب مذكراته ، يختلف من ناحية الثقة والاعتبار عن تلك المذكرات التي يكتبها رجل عادي • وهكذا وقد جرى ــ قديما وحديثا ــ عمليات تزوير وانتحال ، حيث كان المؤلف يكتب الكتاب وينسبه الى غيره ، ولعدة اسباب ودواعي آنية • مما فرضت على الباحث ان يبدء تحقيقه من نقطة الصفر ، فيشك في نسبة اية وثيقة الى صاحبها • ولا يعتقد بهذه النسبة من دون الثبوت العلمي •

ومن هنا كان علماء المسلمين يتشككون في اية وثيقة تاريخية من دون مرورها بعمليات اثبات صعبة •

ودواعي التزوير هي اولا قد يكون المؤلف قليل الشهرة فينسب كتابه الى رجل عظيم لتتداول افكاره بسرعة اعتمادا على اسم المؤلف المنسوب اليه كما نجد مثالا لذلك الكتب التافهة التي نسبت الى افلاطون من دون ان يكون قد كتبها •

وثانيا : من اجل رفع شأن الكاتب والاشادة بشخصيته • كما نسبت خطب كثيرة الى الخلفاء الامويين يعرف كذبها من اول نظرة •

ثالثا : من اجل اثبات مبدء او نفي مبدء ، كما ظهرت احاديث وخطب منسوبة الى الرسول ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ والتي سبــق وان اخبر عنها النبي ــ ص ــ بقوله ستكثر من بعدي القالة .

انتساب الوثيقة الى صاحبها

والدليــل على انتساب الوثيقة الــى صاحبها هو احد المؤشرات التالية :

١ ــ شهادة المؤلفين السابقين ــ بشرط ان يكونوا موثوقين أو تكون شهادتهم متواترة بشكل لا يدع للريب مكانا في صحة الشهادة ــ وذلك مثلما هو حادث مثلا . في نسبة كتاب الكافي في الحديث لصاحبه الكليني أو انتساب كتاب البخاري لصاحبه .

وقد تكون الشهادة مباشرة كما تحدث عادة بالنسبة الى كثير من كتب الفقه والحديث والرجال والتفسير وسائر العلوم الاسلامية التي توافرت الدواعي عند غالبية العلماء على معرفة المؤلفين لها .

ومن حسن الحظ : توافرت لدينا شهادات قطعية لصحة انتساب أكثر الكتب واهمها الى اصحابها وذلك بسبب انتباه علماء الفقه والحديث الى هذه الطريقة بحيث لم يكونوا يقبلون بأي كتاب ــ أو وثيقة من دون ان تدون عليها شهادات عديدة من ثقاة . وتوجد الآن في المكتبة الاسلامية رسالة تنسب الى استاذ البخاري ــ وقد سجل عليها توقيع اكثر من الف شاهد من كبار علماء الحديث والفقه .

وقد لا تتوافر الشهادة المباشرة ولكن توجد لدينا شهادة غير مباشرة مثل ان ينقل مؤلفون معاصرون أو شبه معاصرين ــ من الكتاب نصوصا مسهبة وينسبونها الى مؤلفه بصراحة . والنصوص تكون عادة دليــلا

كافيا على الوثيقة . اذ يستبعد ان يشترك مؤلفان في اختيار نفس الكلمات ونفس الوصف ـ وفي روايته لحادثة معينة مما يدل على ان الناقل قد نقل من صاحب الوثيقة فعلا (اذا وجد عدة كتاب يصفون نفس الحوادث فانهم لن يوجدوا في نفس الوضع لكي يصفونها على نمط واحد ولن يقولوا نفس الشيء وبنفس العبارات ، ونظرا لشدة تعقيد الاحداث التاريخية ، فمن المستبعد تماما ان ملاحظتين مستقلتين تصفان هذه الاحداث بنفس الطريقة [1] .

من هنا يمكن ان نعرف كيف يكون الاقتباس ـ دليلا على صحة انتساب الوثيقة الى مؤلفها ، بالرغم من ان هذه الطريقة تخضع هي الاخرى لصعوبات جمة . اذ قد نجد مثل ابن الراوندي الذي ينقل عن الجاحظ اقوالا كاذبة وغير موجودة في كتبه مما ينبغي ان نكون حذرين جدا في اخذ شهادة أي كان على صحة انتساب الوثيقة دون تحقيق في هوية هذا الشخص وفي مدى صدقه وكذبه .

٢) الخصائص اللغوية التي تتميز بها الوثيقة ، ونوعية التعابير والاساليب الادبية التي يستخدمها ، التي يستحيل عادة انتحالها أو اصطناعها ـ مثل : التعابير والاساليب البلاغية المتوافرة في كتاب نهج البلاغة ، التي لا تكون ـ بالضرورة ـ من وضع رجل ، انى كان عظيما لانها فوق مستوى الادباء ، ومعلوم انتسابه الى الامام علي ، بشهادة نوعية تعابيره ، وطريقة تفكيره مضافا بالطبع الى الشهادات التاريخية ، التي توافرت على صحة انتساب الخطب اليه [2] .

وقد استطاع الادباء المعاصرون من استخدام هذا المنهج ، لمعرفة

---

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٤٨٥ .

(٢) راجع كتاب مصادر نهج البلاغة ، للعلامة السيد عبد الزهراء .

الشعر الجاهلي ، وكشف اشعار جديدة عديدة منسوبة غلطا الى الشعر الجاهلي ، مثـل الاشعار التي اختلقها خلف بن الاحمر ، وأكثر الشعر المنسوب الى الهذليين .

وهذا المنهج الذي استخدم في هذا المجال كان بمعرفة طريقة التراكيب النحوية . واستخدامات حروف الجر والمسند والمسند اليه . ونوعية التشبيهات الادبية المستعملة عندهم وبالتالي : طريقة سردهم للحوادث ولا بد من التحذير الشديد في استخدام هذا المنهج اذ قد يكون المنتحل منتبها لبعض الخصائص ، مما يقلدها ايضا فينبغي ان تتعرف على المزيد من الخصائص والسمات التي تتوافر في الوثيقة الاصلية ، ولا نكتفي ببعض قليل منها .

ولا ريب ان هذا المنهج هام جدا في حقل معرفة الاحاديث الموضوعة خصوصا الاحاديث المطولـة التي تتوافر فيها سمات عديدة من ميزات أدب المتحدث .

٣) الخط المكتوب به الوثيقة ، باعتبار ان الخطوط اختلفت من عصر لعصر (فاذا وجدنا وثيقة من القرن الاول والثاني للاسلام ، مكتوبة بخط فارسي ، أو نسخي عادي ، فيجب ان تعد قطعا منحولة ، واذا وجدنا وثيقة في القرن الرابع مكتوبة بخط كوفي قديم ، قد خلا من النقـط والاعجام ، فليس من شك أو على الاقل فمن المرجح جدا ان تكون منحولة [١] .

٤) الخصائص الفكرية ، والمعارف المتوافرة في الوثيقة فلو كانت في وثيقة منسوبة الى القرون الوسطى ، افكار نعرف حدوثهـا في القرون المتأخرة ، أو الفاظ نعرف انها لم تستخدم الا في عصر متأخر فبالتأكيد

---

(١) مناهج البحث العلمي ص ١٩٦ .

نعرف ان النص منتحل • وبهذا عرفنا انتحال طائفة من الاشعار الجاهلية التي ضمت الافكار الاسلامية وفيها كانت تشير الوثيقة ، الى حادثة لم تكن قد وقعت في التاريخ المنتسب اليه الوثيقة ، كما نجد ذلك في الوثيقة المنسوبة الى ـ لنكولن ـ بالنسبة الى ولاية كانساس ، التي اشيرت اليها كولايه امريكية ، مع العلم انه في زمان الوثيقة لم تكن قد اصبحت ولاية امريكية •

٥) الاسم والتوقيع الموضوعين على الوثيقة : حيث انه يعد علامة واحدة وليست وحيدة للدلالة على الاسم الحقيقي للمؤلف والمشكلة في هذا المجال ان المؤلفين القدامى لا يذكرون اسماءهم على الوثائق •

٢ ـ التحريف

والتحريف قد يكون بالزيادة أو النقصان ، و (تصحيح) عبارات الوثيقة ، وفق ما تمليه اهواء الناسخ أو وفق ما يمليه جهله بالكلمة ، وقد يكون التحريف بالاكمال كما يكتب المؤلف الاصيل للوثيقة جزء ثم يأتي الناس ، كل يزيد فصلا عليه •

والتحريف بالمعنى الاول (الحشو والتصحيح) هو اصعب كشفا من كل من التزوير والتكميل ، وهذا النوع موجود بكثرة في النصوص الشرعية اذ كان جهل الرواة حينا ، واهوائهم احيانا تملي عليهم تحريف الكلمات ، وقد كانوا يغيرون نقطة فقط في كلمة فيتبدل المعنى كليا •

والطريقة السليمة للكشف عن التحريف هي البحث عن النسخة الاصلية ، حيث تبين التحريف فيه باختلاف الخط ، واذا فقدت النسخة الاصلية فبالمقارنة بين النسخ قد تسلسلت من نسخة واحدة ، فلا يبقى امامنا طريق الا النقد الداخلي للوثيقة للنظر هل المحتوى متناقض • أم انه غير متناقض • وهل الادب العام للكتاب يتناسب مع هذه الفقرة المقحمة فيه ام لا ؟ •

بهذه الطريقة نستطيع ان تتعرف بوضوح ، وبسهولة على خرافة تحريف القرآن الحكيم ، حيث لا يوجد في آياته الكريمة ، تناقضا في المحتوى ، أو في الادب ، وقصة الغرانيق التي حاول بعض المغرضين ، دسها في القرآن اكتشفت بسرعة ، لانها كانت تدعوا الى عبادة الاصنام ، والقرآن كله يدعوا الى التوحيد ، وادب تلك العبارات كانت مختلفة كليا عن أدب القرآن الكريم .

كيف نكتشف التحريف ؟

ولان الشريعة الاسلاميةعانت من مشكلة التحريف كثيرا ، خصوصا في أحاديث الرسول ــ ص ــ وأحاديث خلفائه المعصومين ــ ع ــ فقد وضعت عدة طرق للكشف عن التحريف منها :

١ ــ النقد الداخلي للنص لمعرفة صلته بالبصيرة العامة للشريعة ، ومدى موافقته للاصول الكلية فيها ، وفي ذلك قال الرسول ــ ص ــ في حجة الوداع : قد كثرت علي الكذبة وستكثر ، فمن كذب علي متعمدا فليتبوؤ مقعده من النار ، فاذا أتاكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله وسنتي ، فما وافق كتاب الله وسنتي فخذوا به وما خالف كتاب الله وسنتي ، فلا تأخذوا به (١) .

٢ ــ النقد الخارجي للنص لمعرفة الرواة . كما لخص الامام علي (ع) ذلك في حديثه الذي قسم الرواة عن الرسول (ص) الى أربعة : منافق ــ عرف من سلوكه العام اتباع اهوائه ــ وجاهل ــ لا يستوعب فكره العلوم ــ وناس ــ لا يسعه تذكر كل ما قيل له ــ ورابع ــ تقي عالم ذاكر ــ . وأمر الناس بالاخذ من الاخير (٢) .

---

(١) بحار الانوار للعلامة المجلسي ج٢ ص ٢٢٥ .
(٢) المصدر ص ٢٢٩ .

شخصية صاحب الوثيقة

بعد ان تتأكد من عدم وقوع تزوير او تحريف في الوثيقة ، لا بد أن تتأكد من شخصية صاحب الوثيقة ، لنعرف عدة نواحي منها :

١ ــ لنعرف : مستواه العلمي ، باعتبار ان ذلك يؤثر ــ مباشرة ــ على مدى اعتمادنا عليه اذ واضح : ان شهادة الجاهل ناقصة ولو كان صدوقا . وقد سبق ان الاسلام ــ حين يقسم الرواة الى أربعة ــ ينصح بعدم اتباع الجاهل ، والناسي ، لانهما قد يحذفان المهم ، ويساهما في غموض الحقيقة عنا ، من هنا يقول الحديث المأثور عن الامام الرضا ــ عليه السلام ــ عندما يستعرض طوائف العلماء « ... فاذا وجدتموه (العالم) يعف عن ذلك (الحرام) فرويدا لا يغركم ، حتى تنظروا ما عقده بعقله ، فما أكثر من ترك ذلك (الحرام) جميعا ، ثم لا يرجع الى عقل متين ، فيكون ما يفسده بجهله ، أكثر مما يصلحه بعقله » [1] .

٢ ــ لنعرف : مدى وثاقته اذ قد نجد بين المؤرخين من هو مولع بالكذب والتدجيل ، والاسلام يوجب رفض كلام الكاذب ، ورفض كلام اولئك الذين يروون عن الكاذبين ، وقد جاء في الحديث (السابق ذكره) فاذا وجدتم عقله متينا ، فرويدا لا يغرنكم ، حتى تنظروا : أمع هواه يكون على عقله ، أو يكون مع عقله على هواه ؟؟ وكيف محبته للرئاسات الباطلة وزهده فيها ؟ [2] .

٣ ــ لنعرف مدى الالتزام الديني عنده ، فانه قد يكون الشخص ثقة ولكنه فاسق في حياته الشخصية ، وحديث هذا النوع من الناس ، لا يرد كليا ، ولكنه يخضع لنقد شديد ، باعتبار ان السلوك الشخصي ،

---

(١) المصدر ص ٨٤ .
(٢) المصدر ص ٨٤ .

قد يؤثر في البحوث العلمية ، من هنا جاء في حـديث : أنظـروا الى ما في الاوعية (يقصد الرواة للاحاديث) فخذوها ثم صنفوها من الكـدرة تأخذونهـا ، بيضاء نقية صافيـة ، واياكم والاوعيـة فانها وعـاء سؤ فتنكبوها [1] • وجاء في حـديث آخر : خذوا الحق من أهل البـاطل • ولا تأخذوا الباطل من أهل الحق ، وكونوا نقاد الكلام » [2] •

٤ ــ لنعرف التزاماته المذهبية ، وميوله السياسية ، لنعرف بذلك : دوافعه العامة التي ستلقي بضلالها على كتاباته ، لانه قد يكون الكاتب : يلتزم بعقيدة، ويدافع عنها باخلاص ويرى من واجبه تغيير الحقائق وتشويهها والزيادة فيها من أجل دعم مذهبه • وحتى اليوم لا تزال أكثر الدراسات موضوعية ، متورطة في دعم الآراء الشاذة ــ بسبب من الميول السياسية او العقيدية ــ وعن طريق معرفة الشخص بميوله وعقائـده ، نستطيـع كشف الاتجاه العام في كتابه ، الذي قد يؤثر على موضوعيته •

والتعرف على شخصية كاتب الوثيقة مبدأ قديم لانه أيسر وأفضل طريقة لنقد الوثائق ، وقـد اهتم المسلمون بنقد الاحـاديث عن طريـق رواتها ، ونشأ ــ من ذلك ــ علم الرجال ، الذي يعني البحث عن رواة الحديث ، ومعرفة أحوالهم ووثائقهم • وقد برعوا في هذا الحقل ، حتى فاقوا كل الامم الاخرى ، ولدينا اليوم ، كتب علمية دقيقة للغاية ، تعنى بشؤون رواة الاحاديث ، وذلك منذ أكثر من (١٢) قرنا وربما تكـون خصوصيات أحوال الراوي ، قد بحثت فيها ، بشكـل يجعلنا وكأننـا نعاصره ، وعلى الباحث في التاريخ الاسلامي : مراجعة كتب الرجـال ، والاستناد عليها ، في تقييمه للكتب وللنصوص ، والا فسوف يكون بحثه ناقصا بالمرة !!

---

(١) المصدر ص ٩٣ •
(٢) المصدر ص ٩٦ •

دواعي الكذب والسهو

بعد التعرف على شخصية صاحب الوثيقة ، لا بد أن تتساءل : ما هي دواعي الكذب في كتاباته ؟ فاذا عرفناها ، استطعنا أن نكتشف مدى تواجد هذه الدواعي في الوثيقة تمهيدا لنقدها نقدا موضوعيا ، اذاً لنلقي نظرة على هذه الدواعي :

اولا/دواعي الكذب

بمراجعة الفصل الخاص بدواعي الخطأ من هذا الكتاب ، نعرف كثرة هذه الدواعي وتنوعها ، الا انها تنقسم الى عدة مجموعات .

١ ـ دواعي الحسد والمصلحة الشخصية

فمن أجل النيل من شخصية يحسدها المؤلف ، يقوم بعض الكتاب بتشويه الحقائق ، فترى أحدهم يناصب شخصية علمية مرموقة العداء ، والخلاف ، والمنافسة ، والجدل ، وكأنه بعث فرعونا ، له يناقضه في كل شيء قاله ، ويسفه كل عمل يعمله ، وقد يصبح العداء لشخصيته ، عقدة نفسية ، عند المؤلف ، فاذا به يخالفه لاشعوريا ، وعندئذ علينا عند دراسة وثيقة ان نتساءل : هل كان لصاحب الوثيقة حساسية تجاه مؤلف سابق او شخصية علمية معاصرة او أصحاب رأي محدد أم لا .

ومن هذا النوع قيام أصحاب المدارس الفكرية بمخالفة بعضهم والتفتيش عن أي دليل يناقضهم حتى ولو كان على حساب الموضوعية . فينبغي للباحث أن يتهم أصحاب الوثائق ـ اذا وصلوا عند حدود الحساسية بينهم وبين سائر العلماء . خصوصا وصفة الحسد والمغالبة هي أبرز صفات العلماء [1] الذميمة .

---

(١) جاء في حديث مأثور ان الله يعذب العلماء بالحسد المصدر ص ١٠٨ .

والدواعي المصلحية ترتبط أيضا بالفوائد المادية ، التي قد يستفيدها الكاتب من تزييف الحقيقـة ، مثـل أن يكون الداعـي الى التـأليف ـ أساسا ـ داعيا ماديا بحتا ، لتأييد سلطة او نظام او يكون البحث ممولا من قبل جهة خاصة من هذا النوع من التأليف أكثر دراسات المستشرقين الذين كتبوا دراساتهم من أجل نشر التحريفية في نفوس المسلمين • ومن الدواعي الشخصية : الغرور بذاته ، حيث انه قد يجره ذلك الى ادعـاء العلم بعض الحقائق من أجل تعظيم نفسه وتصويرها بمظهر العبقرية •

٢ ـ الاضطرار

اذا كان المؤلف يعيش في عهد ظالم ، وكان شخصيـة مرموقـة ، يراقب كتاباته فتنعكس على حياته فان دواعي الاضطرار قد تدفعـه الى اتخاذ مواقف معينة ، او تزييف حقائق كثيرة ، خشية الظالمين •

كما انه قد يضطر من تزييف الحقائق او نقلها ناقصة ، خشية الرأي العام ، كما يخشى الدارسون المخلصون ، في امريكا ، مقـاومة التيـار الصهيوني ، خشية انتقام الرأي العام المضلل منهم حتى ان أحدهم يصدر كتابا ، او يقوم ببحث علمي نزيـه ، فلا يلبث أن يكتب ردا على نفسه ، استسلاما لضغوط الرأي العام ، وفي التاريخ ـ كما الآن ـ نجد كثيرا من المؤلفين ناقضوا أنفسهم ، ومبادئهم اتقاء شر السلطان الجائر •

من هنا أصبح من قواعد النقد التاريخي ، لمذاهب الفقه والحديث، والفلسفة والكلام ، مراجعة رأي السلطان ، او رأي الجمهور لمعرفة ما اذا كان يوافق رأي الكتّاب أم لا ؟ فاذا كان يوافـق تضعف شهـادة الكتاب ، لانه قد يكون نابعا من التقية ، وخشية السلطان • وهذا أظهر شيئا فيما اذا كان المؤلف « ملحقا بحاشية ملك او أمير » فيضطـر الى تزييف الاخبار ، والوثائق لصالح الامير الذي هو من بطانته وهو أظهر

ما يكون في التواريخ التي تكتب أبان الحملات مثل أخبار فرواسار (Froissart) [1] .

٣ ـ الانتماء

والانتماء المذهبي ، والسياسي ، والحزبي ، قد يتسبب في تشويه الحقائق اذ يحرص المؤلف على ان يؤيد مذهبه او حزبه السياسي . وقد يندفع لاشعوريا الى هذا الاتجاه ، لان ثقافته موجهة فلا يستطيع رؤية الشيء من أبعاده المختلفة ، ويكثر هذا فيما اذا كان صاحب الوثيقة ، يشغل مركزا هاما ــ ضمن مجموعة معينة ــ كأن يكون رئيسا لحركة سياسية او عضوا بارزا في حكومة يكتب عنها ، ويحاول أن ينسب اليها كل مكرمة ــ دون أن ينتقد أي صفة منها ، ويبدو هذه السمة ظاهرة ، في الوثائق التي يضفي عليها صاحبها طابعا أدبيا منمقا . (يقول سنيوبوس : أن التشويه الخطابي ينحصر في ان ننسب الى الاشخاص مواقف وأفعال وعواطف وكلمات نبيلة ، وهذا استعداد طبيعي يوجد أيضا لدى الشبان الذين يبدأون في الكتابة ، ولدى الكتاب من أنصاف الهمج ، وهذا هو العيب المشترك بين أصحاب الحوليات في العصور الوسطى ... وأيا كان الامر ، فان هناك قاعدة منهجية ذهبية ، يمكن أستخدامها في مثل هذه الحالات وهي : (كلما كان الرأي الذي يؤكده صاحب الوثيقة ملفتا للنظر ، من الزاوية الفنية ، كان أكثر مدعاة الى الشك) [2] .

ثانيا : دواعي السهو

ودواعي السهو عديدة ، الا انها جميعا تندرج تحت الوقوع في

---

(١) مناهج البحث العلمي ص ٢١٢ .
(٢) المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٥٠٢ ــ ٥٠٣ .

الخطأ من دون سؤ نية وتشترك دواعي السهو في تجنب الحق ، وتسجيل الباطل ! وعلى الباحث أن يضع امكانية وقوع صاحب الوثيقة في السهو ــ يضعها ــ الاصل والقاعدة ، الى ان يثبت العكس ، وخلافا لما يقال عن المتهم : انه بريء حتى يثبت العكس . ان صاحب الوثيقة متهم الى ان تثبت براءته وطريقة كشف دواعي السهو المزيد من التدبر ، والبحث ، ودواعي السهو تجمعها الاصول التالية :

١ ــ عدم الامكانية

ان بعضا من الموضوعات التي يسجلها صاحب الوثيقة ، تتسم بصفة يستحيل ــ عادة ــ على الراوي أن يكون مشاهدا مباشرا لها ، وحينئذ تسقط قيمة الشهادة المباشرة فيها ، حتى ولو صرح بذلك صاحبها ، وذلك مثل الامور التالية :

الف ــ الحروب ، التي يستحيل أن يشاهد فرد واحد ، كل وقائعها، ويسجلها تسجيلا مباشرا ، لانها حوادث عديدة لا يحصيها فرد واحد .

باء ــ التطورات الاجتماعية التي تحتاج الى أجيال ، لايمكن أن يشهد عليها صاحب الوثيقة ، شهادة مباشرة ، لانها أطول من عمر الشخص .

جيم ــ « أن تكون الوقائع معقدة ، ومتشابكة ، او موجودة في أمكنة متعددة ، او تحتاج الى معونة الكثير من المخبرين او العيون ، والارصاد ، وتكون روايتهم ــ في هذه الحالة ــ مشوبا بالكثير من النقص ، لانه لم يستطع أن يشاهد الحادث كله جملة » [١] .

دال ــ إن يكون وقت تسجيل الحوادث بعيداً حدا ، عن وقت وقوعها ، مما يجعلنا نشك في قدرته على تجنب الدقة ، مثل ان يكون

---

(١) مناهج البحث العلمي ص ٢١٤ .

طفلا حين شاهد الحوادث ، ثم كتبها حين أصبح كهلا ، حيث ان الذاكرة تخون الانسان ــ خلال هذه الفترة الطويلة ــ .

هاء ــ ان تكون طبيعة الحوادث سرية ، مما يصعب الاطلاع عليها ، كالاتفاقات السرية ، والاجتماعات الخاصة ، وما أشبه . وبالتالي يجب ان يكون السؤال الاول الذي نوجهه الى أنفسنا أمام شهادة الفرد يكون عن امكانية الفرد لمباشرة الرؤية للحادثة [1] .

٢ ــ العقدة والعقيدة

اذا كان الشخص معقدا تلقاء فكرة او طائفة فان تعلمه للحوادث المرتبطة بهم يكون مصطبغا بعقدته . كذلك لو كانت للفرد رؤية وعقيدة سابقة تجاه حدث ثم رآه فانه يراه من خلال رؤيته . ولهذا نلاحظ مدى اختلاف الناس في نقل مشهد واحد كلهم أبصروه ولكن بعضهم نظر اليه من خلال عقدة سلبية تجاهه وبعضهم من خلال عقيدة ايجابية . وثالث نظر اليه نظرة موضوعية خالصة من العقدة او العقيدة وقد سبق وان تحدثنا عن تأثير الخلفية النفسية في مدى استيعاب الناصر للشيء [2] . وهنالك نقلنا تجربة الباحث الذي سأل عشرة أطفال عن منضده كانوا شاهدونها أمامهم فأشار اليها الباحث وسألهم ما هذا ؟

وكانت اجاباتهم متعددة ومختلفة حسب اختلاف الرؤية الخلفية من هنا يجب أن ندرس عقائد صاحب الوثيقة وحساسياته لكي تفهم احتمالات الخطأ السهوي المتوفرة عنده ودراسة آراء صاحب الوثيقة .

---

(١) مناهج البحث العلمي ص ٢١٤ .

(٢) انظر قسم كيف نتجنب الخطأ القسم الثالث ص ١٨٣ .

تفيدنا في تحديد الحالة العقلية التي رافقت صاحبها حين مشاهدة الحادث اذ ان الحالة العقلية تكون متأثرة عادة بالحالات النفسية .

٣ ـ التفاؤلية والتشاؤمية

نوع من العقيدة والعقدة . هي التفاؤلية والتشاؤمية التي قد يتميز بها صاحب الوثيقة تجاه الاحداث التي ينقلهـا . فمن المؤرخين من هو سريع اليقين حسن الظن بالآخرين . فلا يلبث اذا سمع حديثا من رجل لا يلبث أن يصدقه ويزعم انه صحيـح لحسن ظنه بهذا الرجل ويقينـه لكلامه .

ومن المؤرخين من هو شكاك . لا يعتقـد بالاحـداث . حتى اذا توافرت عنده أدلة كافية .

والرجل الاول لا يعتمد على ما يثبته . والرجل الثاني لا يعتمـد على ما ينفيه . لان الاول اذا أثبت حادثـة . نشك أن يكون قد توخى الدقة في نقله .. ونحتمل أن يكون قد اعتمد على كذاب ولذلك يرفض الفقه الاسلامي الاعتماد على رواة كانوا ينقلون الاحاديث عن الكذابين لان مجرد النقل عنم أعطانا نظرة خاصة اليهم . بأنهم كانوا يتساهلون في نقلهم ! والرجل الشكاك اذا نفى شيئا لا نعتبر نفيه شهادة . اذ يمكن ان تكون الادلة متوافرة الا انه ردها بطبيعـة الشك واذا أثبت الشكاك حادثة او نفاها المتفائل (الذي يسمى في عرف علم الاصول بالقطاع)ـ كان كلامهما شهادة قوية ويمكن ان نتعرف على صفة التفاؤلية او التشاؤمية عند صاحب الوثيقة . بملاحظة مجمـل احاديثه واخباره . ومقارنتها بما استطعنا كشفه من سائر الوثائق .

النقل غير المباشر

كان الحديث السابق كله حول النقل المبـاشر ، اي فيما اذا كـان

صاحب الوثيقة هو الشاهد على وقوع الحادثة ، ولكن ماذا اذا كان نقله عن آخرين ؟ وهو الذي يحدث عادة عند اكثر اصحاب الوثائق .

يهمنا في هذه الحالة : ان نفتش عن الناقل المباشر .. فاذا وجدناه . أجرينا عليه عملية النقد السابقة الذكر ، لانه من نوع الناقل المباشر .

ولكن يبقى السؤال : كيف السبيل الى معرفة الناقل المباشر ؟ هناك عدة طرق أهمها :

١ ـ الاعتماد على الرواية المتسلسلة ، وهـذه هي الطريقـة التي يعتمد عليها الفقه ، والسيرة ، والتفسير ، وبعض من التاريخ الاسلامي ، اذ يتدرج الكتّاب في نقلهم ، الروايـات ، او المشاهـد ـ عبر سلسلة الـرواة الموثوقين ـ (عن فلان ـ عن فلان ـ عن فلان و . و .) حتى يصلوا الى الناقل المباشر .

ولهذه الطريقة فنها الخاص . المسمى (بعلم الدراية) .. وتعني دراية الرواية .. ويعتمد أيضا على علم الرجـال حيث يقوم البـاحث بالبحث عن سند الاحاديث في هذا العلم .

٢ ـ فيما اذا كان كاتب الوثيقة ينقل كتابه ، نصا عن رجل آخر مجهول الهوية ، هو الذي لاحظ الامور ملاحظة مباشرة فليس أمامنا في هذه الحالة الا أن نجـري بعض عوامل النقـد ، وهي التي تجري على كاتب الوثيقة من خلال وثيقته فقط هذا بالطبع اذا كان النقل كتـابة ، ونقلا موسعا ، يسمح لنا بدراسة صاحب الملاحظة المبـاشرة من خـلال حديثه المطول .

٣ ـ اما اذا كان حديثا مقتضبا . او كان النقل شفويـا . فليس امامنا الا نقد الوثيقة من خلال أفكارها وذلك بالمقارنة مع وثائق أخرى عديدة ، فمثلا : لو نقل صاحب وثيقة : عن وقوع حادثة اغتيال خليفـة

بالسم نقلا عن رجل مجهول ، ثم نقل ــ نفس الحادثة ــ مؤرخون آخرون منفصلون عن بعضهم ــ أيضا ــ عن رجال مجهولين ، فان هذه الحادثة ــ بالضبط ــ تصبح معلومة أمامنا . اذ انها نقلت الينا بطرق عديدة ، ولا يعني هذا اننا اعتمدنا على نقل المجهول ، بل على تناقل الرواية باستفاضة من قبل عدد من الناس ، يصعب ــ عادة ــ تصديق اتفاقهم على الكذب . ومن هنا يحرص الرواة على نقل الاحاديث جميعا ، ضعيفها وموثوقها ، لان تراكم الاحاديث الضعيفة يجعلنا نثق بالواقعة التاريخية او بالنص الشرعي ، بالرغم من انها ــ كاحاد ــ لا تعني شيئا .

٤ ــ واذا نقل صاحب الوثيقة ، عن رجل او عن رجال عديدين : حادثة يصعب الكذب فيها ، لانها خارقة ، لو وقعت يعرفها الجميع ــ مثل وقوع زلزال ، او قتل شخصية مرموقة في مشهد عام او ما اشبه ــ فتكون الحادثة قريبة الى الصدق ، ولكن يجب الحذر من الحوادث ، التي ترتبط بنشرها : جهة دينية او سياسية ، فيصدقها الجمهور ، وكل منهم يزعم انه قد شاهدها ، بما يشبه أحلام اليقظة « ... مما يمكن أن نسميه الهذيان الاجتماعي ، حيث يتفق لاهل عصر معين تسيطر عليهم ، حالة نفسية غير عادية : أن يقرروا ملاحظة أشياء ، يمكن وضعها موضع الشك ، ومن ذلك ما قرره أهل العصور الوسطى، في اثناء الحروب الصليبية ، من رؤية الملائكة تحمل الصليب ، متجهة الى بيت المقدس ، وما كان يقرره عدد كبير من الباريسيين في اثناء الحروب الماضية ، من رؤية رجال المظلات يهبطون في سماء باريس » (١).

٥ ــ واذا كان صاحب الوثيقة ، قد عرف بالدقة المتناهية ، ونقل عن رجل او عدة رجال ، وصفهم بأنهم ثقاة ضابطون وعرفنا من رأيه في

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٥٠٥ .

التوثيق : انه يلتزم المقاييس العقلية ، التي نعرف نحن بدورنا صحتها ، تصبح روايته ــ بذاتها ــ دليلا على صحة نقله .

وهذا كثير الوقوع في الفقه الاسلامي [1] .

٥ ــ وفي غير هذه الحالة ، تتحول الوثيقة الى نوع من الحكاية او الاسطورة ، والتي تعتبر مستودع معلومات الشعوب عن الحوادث الماضية ، « وتكون ــ نوعا ــ من التاريخ الذي ــ كثيرا ما يكون ــ صادقا كل الصدق ، اكثر من التاريخ المكتوب ، وقد يكون معبرا او دالا ــ في ــ أحيان كثيرة ــ أكثر مما يدل عليه التاريخ المسجل ، لان فيها البساطة وبالتالي الصدق في التعبير » [2] .

كيف نفهم لغة الوثيقة

بعد أن ننتهي من نقد الوثائق ، سلبيا وخارجيا ، اي من خلال معرفة الناقل ، نسبة الوثيقة اليه ، وشخصيته وهل نقل الحادثة مباشرة او بصورة غير مباشرة . بعد هذه العملية ، نبدأ بمحاولة فهم الوثيقة داخليا وايجابيا ، وذلك بمحاولة فهم لغة الوثيقة والكلمات التي استعملت فيها (لكي نستعد لنقد عناصرها ، وترتيبها ، والاستدلال عليها ، لبناء فكرة متكاملة من التاريخ) ذلك لان اللغة تتبع المجتمع وتتبادل معه التأثير ، فتعكس : تطورات المجتمعات ، كما انها تؤثر فيه ، الى حد جعل بعض الكتاب ، يعبرون عن اللغة بأنها كائن حي متفاعل مع بعضها ومع ما حولها من أشياء ، ولذلك فان كلمات كثيرة تطورت عبر العصور فمثلا : تختلف اللغة اللاتينية الكلاسيكية اختلافا بيّنا ، عن اللغة اللاتينية ، في

---

(١) انظر كتاب مستدرك الوسائل ــ للعلامة النوري الجزء الثالث . باب من اجمعت العصابة على تصحيح ما يصح عنهم .

(٢) مناهج البحث العلمي ص ٢١٧ .

العصور الوسطى ، فيلاحظ مثلا : ان كلمة (Vel) كان معناها في اللغة اللاتينية الكلاسيكية (او) ولكن معناها في العصور الوسطى هو معنى (و) ، وفي اللغة العربية : نجد مثلا كلمة الحائط ، تعني في العصور القديمة معنى البستان ، بينما تعني اليوم الجدار [1] .

واختلاف معاني اللغة لا تنحصر في المفردات ، بل وايضا فيتركيبات الجمل ، وفي الرموز الادبية ، وفي التورية والايحاء !

لذلك يجب أن نفهم الوثيقة من خلال الامور التالية حيث تتساءل :

١ ـ ماذا يعني اللفظ حرفيا ؟
٢ ـ ماذا تعني الكلمة الواقعة في هذه التركيبة باعتبار ان تركيبة معينة ، قد تؤثر في معنى اللفظ ؟
٣ ـ وهل هناك تورية او ايماء ، او حتى دعابة في استخدام هذا اللفظ ؟ وهل هناك مبالغات كانت مشهورة آنئذ ؟ كما المبالغات التي كانت تنشر في الالقاب .

ودليل فهم الوثيقة أمور :

١ ـ أن نستخدم المعاجم ، خصوصا تلك التي تعني بتفسير اللغة ، وفق تطورها في العصور المختلفة ، وكذلك المعاجم التي كانت قد كتبت في عصر قريب ، من عصر الوثيقة ، او المعاجم الخاصة ، التي تعنى بتفسير الكلمات ، التي تمت ـ بصلة ـ الى الوثيقة ، مثل المعاجم الدينية ، او تفاسير الكتاب الكريم ، فيما يخص وثيقة تاريخية متصلة بالعصور الاولى للدولة الاسلامية ، او بالنسبة الى وثيقة دينية . والمهم في مراجعة المعجم اللغوي ، ليس معرفة موارد استخدام الكلمة بل

(١) مناهج البحث العلمي ص ٢٠٧ .

ـ وأيضا ـ • فهم المعنى الحقيقي للمادة اللغوية ، التي استقت سائر المعاني بلحاظها ، واعتمادا عليها (ففي مثل مشتقات كلمات الجن والجنين والجنان والجنون و •• و •• لا بد أن نستوحي منها جميعا ، معنى الستر ، الذي يعتبر المعنى الاصيل للمادة ، والذي اشتقت سائر الكلمات من أجلها وبلحاظها) • وفهم المعنى الاصيل ، مهم بالنسبة الى العربي الاصيل ، الذي لم يخالط ذهنيته الاستعمالات البعيدة عن المعنى الاصيل•

٢ ـ السياق

وقاعدة السياق قاعدة هامة في فهم المعاني ، وبهذه القاعدة تعلم كل واحد منا لغة أمه ، حيث شاهد الناس من حوله ، يستخدمون ألفاظا ، وكلمات في ظروف معينة ، فربط بين اللفظ ، وبين الحالة التي استخدم فيها ، فعرف بذلك المعنى • فمثلا : شاهد أحدا يقول (ماء) ويشير الى الماء ، وشاهد الثاني : انه يشرب الماء ثم يقول (ارتويت) او يقول : كنت (عطشان) فيعرف معنى الماء والارتواء والعطش •

ومن هنا كانت قاعدة السياق هي الوسيلة لتكوين حالة (التبادر) والذي يعني وجود علاقة شرطية في ذهن السامع بين اللفظ وبين معناه ، وهو ـ أي التبادر ـ أهم وسيلة لفهم وتحديد المعنى الحقيقي للفظ عند أهل اللغة !

واذا كان السياق ذا أهمية في فهم لغة الام ، فانه ذات أهمية مشابهة في فهم النصوص الغامضة منها ، ولذلك استند العرب الى السياق ، في فهم متشابهات القرآن الحكيم ، وجاء في بعض النصوص ما مضمونه « القرآن يفسر بعضه بعضا » •

وقد سئل رجل الامام عليا ـ ع ـ عن معنى كلمة (أبّا) في الآية

الكريمة (وفاكهة وأبّا) فقال له : معناها موجود في الآيــة ذاتها ، حيث يقول الله بعدئذ (متاعا لكــم ولأنعامكم) فالفاكهة ــ متاعا لكــم ــ والأبُ لأنعامكم .

والسياق لا يفيدنا فقط في مجال فهــم معنى اللفظ ، بل وأيضا في تحديد هذا المعنى ، اذ (يجب أن لا تفهم عبارة او كلمة الا وفقا للسياق الذي توجد به ، فكثيرا ما تختلف معاني العبارات وبالاحرى ، معــاني الكلمات ، وفقا لاختلاف الاماكن التي تستخــدم فيها وتبعا لاختــلاف الاشارات ، الى كل من الحالات [1] .

٣ ــ المقارنة

والمقارنة هي نوع من السياق ، بفارق ان السياق قد يكون غامضا ، مثل ان تكون الكلمة الغامضة هي عصب الجملة فليس لا تفهم الكلمة فقط ، بل وينسحب الغموض الى الجملة كلها ! فنلجأ الى المقارنة . وذلك بالبحث عن هذه الكلمة الغامضة في سائر اقسام الوثيقة . وعن طريق السيــاق نحاول فهم معنى الكلمة هناك ، ثم نقيس المعنى المفهوم الى الجملة الغامضة

وهذه الطريقة قد تكشف عن تحديد المعنى الذي يقصـــده مؤلف الوثيقة من الكلمة اذ يختلف المؤلفون في مقصودهم من الكلمة فلكل من الشخصيات الخلاقة من الناحية الفكرية معجمها الخاص ، الذي يتميز عن المعجم العام ، لعامة الناس ، ونستطيع ان نكون هذا المعجم باستخلاص المواضيع المختلفة ، التي استعمل فيها اللفظة الواحدة ، وعلى اساسها تحدد معاني الالفاظ العديدة .

---

(١) مناهج البحث العلمي ص ٢٠٧ .

وبهذه المقارنة يستند الفقه الاسلامي في تفسير الحديث ، الذي يعتبر دليلا من اربعة ادلة على الحكم الشرعي •

٤ ــ القياس الى لغة العصر

يستخدم كل عصر لغة معبرة ، مختلفة عن العصور الاخرى لا نعني اختلاف اللغة من عربية الى فارسية مثلا • بل اختلاف اللغة داخل اطار العربية ذاتها بان تكون المصطلحات تركيب جمل والمقصود من التشبيهات ــ مختلفة من عصر لآخر •

وهناك معاجم في اللغة الانكليزية تبين تطور معاني اللغات من عهد لعهد ــ وبالرجوع الى هذه المعاجم يقدر الباحث ان يعرف بسهولة : معنى وثيقة كتبت من قبل قرن تقريبا ، ولكن لا يوجد لدينا قاموس هكذا •

الا اننا يمكننا ان نتعرف على مصطلحات القرون الماضية ، بالمقارنة الطويلة بين مجموعة وثائق وصلت الينا من ذلك العصر ، فمثلا : نستطيع ان نعرف المعاني المقصودة من كلمات القرآن الحكيم ــ الذي هبط باللسان العربي قبل اربعة عشر قرنا ــ بالعودة الى شعر العرب يوم نزل القرآن والى خطب الرسول ــص ــ ، والى كلمات الاصحاب ، ان هذه المراجعة الطويلة والشاقة ، هي التي جابهها المفسرون في فهمهم لبعض الكلمات القرآنية ، كما ان الفقهاء ــ الذين يريدون استنباط احكام الدين بالعودة الى النصوص الشرعية التي كتبت في تاريخ قديم عليهم ان يراجعوا المزيد من النصوص ، ليعرفوا عن طريق المقارنة معنى الكلمات الدارجة يومئذ ومعانيها المحددة • من هنا جاء في الحديث : من فسر القرآن بعضه ببعض توفى الحق ، ومن هنا قيل : القرآن يفسر بعضه بعضا • وجاء عن الائمة المعصومين ــع ــ ما يفيد : الحديث يفسر بعضه بعضا ••

وفي عهود متأخرة يهون الخطب وجود قواميس لغوية في كل عصر تفسر – لا اقل – الكلمات الدارجة في ذلك العهد فمثلا : القاموس المحيط (للفيروز آبادي) يعرفنا بمعاني الكلمات في الوثائق التي كتبت في عهده ، أو في عهد قريب منه •

من هنا نعلم : ان دراسة الآثار المادية التي خلقها الانسان كالعمائر والتماثيل وغيرها ، تكون عادة أيسر من دراسة الآثار المدونة ، او المسجلة بالكتابة والسبب في ذلك واضح تماما وهو ان العلاقة بين الآثار واصحابها تكون دائما ماثلة امام المؤرخ ، فهذا المعبد قد أقيم لاجراء الطقوس الدينية وهذا المنزل قد شيدللسكنى وتلكالمقبرة قد أعدت للحياةالاخرى وهكذا•

اما الآثار المسجلة ، فأمرها مختلف انها مجرد أثر عقلي ونفسي لكاتبها •

٥ – لحن القول

اذا قام شخص بعمل شاذ لا يتناسب وسائر اعماله التي تتعهدها منه فأمامنا واحد من تسفيرين لعمله هذا (١) انه ناشيء عن خلل عصبي تعرض له (٢) انه نابع من حكمة بعيدة لما نبلغ نحن مداها ، وبالطبع يكون التفسير الثاني هو الذي نلجأ اليه ممن عهدنا منه الحكمة وبعد النظر في كل اعماله •

وكما في الاعمال كذلك في الاقوال فقد يتحدث الشخص بما يبدو انه شذوذ لا يتناسب وسائر كلماته ، فاذا كان المتكلم بليغا حكيما وخبيرا بأدب الحديث وكان كلامه في مقام لا يحتمل السهو واللغو واللامبالاة فسوف لا تجد تفسيرا معقولا لشذوذه سوى انه يشير الى حكمة بعيدة وفكرة عميقة لم يشأ المتحدث – لسبب من الاسباب – ان يفصح عنها وهذا يسمى بـ (لحن القول) •

وبالنسبة الى الوثيقة فقد نستطيع ان تتعرف عن طريق لحن القول على بعض المعاني العميقة اذا رأينا في الوثيقة (تغييرا متعمدا) لا نجد تفسيرا ظاهرا له الا الاشارة الى موضوع معين لم يشأ المتحدث الافصاح عنها فـ (كنى) عنه كناية •

وبالطبع لا يعني هذا ان كل تغيير يمكن تفسيره هكذا بل يعني ان تغيير دفة الحديث يثير فينا التساؤل بالغاية من ورائه •

القسم السادس عن مناهج التاريخ

دراسة مناهج التاريخ ـ البحث الثالث عن

فلسفة التاريخ

- آراء في فلسفة التاريخ
- الحتمية التاريخية (حتمية دورية ـ حتمية مثالية غيبية ـ حتمية مادية طبيعية)
- الحتمية التاريخية وارادة التحدي .
- هذه حتميات التاريخ (حتمية الحرية البشرية/حتمية الكسب والجزاء/حدود الحرية)
- فصول الصراع .
- الظلم الذاتي

كلمة البدء

الحق هو فلسفة الاسلام في الحياة ، جميعا وفي التاريخ خصوصا !

والحرية البشرية بعض الحق الذي يسود الحياة ، وفي محور الحق والحرية ، تسير حياة البشرية الآن وفي الماضي ومستقبلا •

والحق يعني :

آ ــ المادة بكل ما فيها من عناصر ، وضغوط وشهوات وأهواء ؛ المادة بكل أنواعها •

ب ــ السنن التي تحكم المادة ، غرائز المادة ، طبائعها ، قوانينها ، ونظمها الشاملة والخاصة ، وبهذا المعنى الشامل تسع كلمة الحق ــ التي جاءت عنوانا لهذه الفلسفة ــ لكثير من الوقائع التي اكتشفها ، كثير من فلاسفة التاريخ • (كما سيأتي انشاء الله) •

ولكن بعضا من هؤلاء فقط ، استطاعوا أن يكتشفوا الحرية ، التي ــ بالرغم من انها حق ايضا ــ فانها حقيقــة مائزة في تاريخ الانسان ، وفي كل الجوانب المرتبطة به • الحرية البشرية التي تختار الحق ، او تختــار الباطل ، تسير باتجاه السنن ، او اتجاه معاكس لها ، تلك الحرية التــي تجعل تاريخ الانسان متميزا عن الطبيعة ، وتجعل العلــوم البشرية غير العلوم الرياضية ، هذه الحرية هي المفقودة في أكثر فلسفات التاريخ ، بعد هذه التقدمة المختصرة ، دعنا نتحدث بشيء من التفصيل عــن فلسفات التاريخ في آراء العلماء •

هناك اسئلة مثارة في فلسفة التاريخ هي ــ في الواقع ــ تشكل موضوع هذا الحقل . والاسئلة هي :[1]

---

(١) حددنا الاسئلة، وفق رؤيتنا فيأولويات التدرجفي المسائلالتاريخية، وهناك تسلسل آخر اتبعها الدكتور عبد الرحمن بدوي في كلمته عن « احدث النظريات في فلسفة التاريخ » المنشورة في مجلة عالم الفكر (المجلد الخامس العدد الاول ص ٢١٦) ونحن اذ نذكر نص تقسيمه لا بد أن نلاحظ انه راعى المسائل العلمية) بينما راعينا الجانب الفلسفي في تقسيمنا الآنف الذكر . يقول الدكتور البدوي عن مشاكل التاريخ انها التالية :

(١) مشكلة النسبية في التاريخ ، وبخاصة ما يتعلق منها بالقيم فأفضت الى نظريات دلتاي في نقد العقل التاريخي سنة ١٨٣٩/١٩١١ ــ وبدلتاي تبدء فلسفة التاريخ المعاصر ، ونظريات اشبنلجر في نسبية القيم الى الحضارة المنبثقة فيها . وآراء ماكس فيبر (سنة ١٨٦٤ ــ ١٩٢٠) في الربط بين التاريخ والاجتماع وما ذهبت اليه المادية التاريخية عند كارل ماركس سنة ١٨١٨/١٨٨٣) وفردريك انجلز (١٨٢٠/١٨٩٥) من الربط بين الاقتصاد المادي ، والتاريخي ، وما قال به (كارل ماهيم) من اجتماعية المعرفة ، وآراء بنتدوكروتشو (١٨٦٦/١٩٥٢) في التاريخية المطلقة .

(٢) وثانيها : مشكلة العلية المطلقة في التاريخ وتندرج تحتها الاشكالات، والخواطر التي حفلت بها دراسات توينبي (ولد سنة ١٨٨٩) وكارل هوبر .

(٣) وثالثها : مشكلة التقدم والتخلف في مجرى التاريخ هل هناك خط للتقدم يستمر قدما ، او ثم تقدم وتخلف ، دون قاعدة ، ولا قانون، وما من فيلسوف في التاريخ الا وتعرض لهذه المشكلة اما الماما واما تفصيلا .

(٤) ورابعها : امكان التنبوء ، بما سيكون عليه التاريخ ، وفي هذا ذهب

١ ـ الحتمية التاريخية ، فهل هناك حتميات تاريخية تسير البشريـة في اتجاه معين ؟

٢ ـ هـل يمكن كشف هـذه الحتمية والتنبـوء عـلى اساسها بالمستقبل ؟

٣ ـ هل التاريخ البشري في تقدم مستمر •• في خط صاعد • او في طريق دائري •

الحتمية التاريخية

هناك نظرية ، الدورات التاريخية ، التي تتصور الجماعات البشرية ـ تماما ـ كالكائنات الحية ، في انها تخضع لدورة حياتية معينة ابتداء من الصبا ، الى عهد الشيخوخة ، ومرورا بعهد الشباب والفتوة ، وقـد راقت هذه النظرية كثيرا من الفلاسفـة والمؤرخين القدماء والجـدد • والحتميات التاريخية تختلف الى :

ألف ـ حتمية دورية حيث تقوم فلسفة التاريخ (عند هيردر) على القول باننا لا بد ان ندرس الماضي ، لنفهم مشاكل اليوم والغد وقد شابه ابن خلدون ، في تشبيه الجماعات الانسانية بالمخلوقات الحية ، وقال : بأن لها هي الاخرى اعمارا من الطفولة ، والفتوة والشيخوخة ، وقد حاول ان يثبت في كتابه المسمى « آراء عن فلسفة التاريخ الانسانية » : ان التاريخ،

البعض الى التفائلية والبعض الآخر الى التشاؤم والبعض الثالث زعم انه بمعزل عن كليهما وانه تنبأ تنبئات موضوعية غير تقويمية ، ومـن الذين برزوا في هذا المجال توكفيل (١٨٥٩/٩٨٠٥) ويعقوب بوركهرت (١٨٩٧/١٨١٨) وفريدرش نيتشة (١٩٠٠/١٨٤٤) واخيرا كـارل سيرز (١٩٦٩/١٨٨٣) •

يخضع لقوانين كتلك التي تخضع لها الاشياء والطبيعة ، وقد قال : بأن التاريخ يسير في خط تقدمي واحد [1] .

ب ـ حتمية مثالية غيبية

يقول هيجل (الذي يعتبر رائد الفلسفة المثالية الحديثة والحتمية الدينية التاريخية) يقول : ان التاريخ ـ على هذا الاعتبار ـ ان هو الا عملية طويلة مقدرة بقدر يأخذ فيها كل حادث او طرف مكانه ومبرراته ، على ضوء مسار التاريخ في مجموعه وهنا يتفق هيجل مع (رانكة) الذي قال : ان الدول افكار الله ويريد بذلك : انها تقوم بتقدير الله سبحانه [2]

ج ـ مادية طبيعية ، واصحاب هذا الرأي : (جعلوا رأيهم الحديث عن العوامل الداخلية ، التي تدفع الانسان ، او الجماعات البشرية ، الى الحركة وكلها ـ في نظرهم ـ عوامل مادية اي انهم نظروا الى التاريخ البشري وكأنه فرع من فروع التاريخ الطبيعي [3] . ومن هؤلاء الناس (كارل ماركس) صاحب الحتمية التاريخية الاقتصادية حيث (يرى ماركس : ان التاريخ تحكمه قوانين يدركها العقل الانساني ، وهذه القوانين حتمية اي انها تفرض نفسها لانها ناتجة عن حركة التاريخ نفسه، واذا ادرك الانسان هذه القوانين استطاع ان يقرر صورة مستقبل الجماعة الانسانية ... ويقول : ان الاحوال والاوضاع الاقتصادية لاي جماعة هي التي تحدد صورة نظامها ، وكل مظاهر حضارتها ، فاذا اردنا ان نفهم نظام اي مجتمع ، ونظامه السياسي او حتى عقيدته الدينية ، واتجاه

---

(1) عالم الفكر ـ المجلد الخامس العدد الاول عن كلمة الدكتور حسين مؤنس ص ٧٦ ..
(2) المصدر ص ٨١ .
(3) المصدر ص ٨٢ .

الفني ، والفكري ، فلننظر اولا الى نظامه الاقتصادي ، واساس النظام الاقتصادي هو الانتاج ، ونوعه ، واساليبه ، وطريقة استعمال أو توزيع ثمراته ، والانتاج نفسه سواء اكان يدويا بدائيا او آليا متطورا لا يظل — دائما — على مستوى واحد ، واسلوب واحد ، فهو يتطور دائما .

الحتمية التاريخية وارادة التحدي

وهناك حتميات تاريخية اخرى . الا انها بحاجة الى وقفة نظر وملاحظة هي :

اننا تحدثنا في فصول سابقة ، عن مدى تأثير العوامل المادية ، والاجتماعية ، والشهوات ، والاهواء ، في تحديد مسير الانسان ، والانسان ، هو الانسان في الماضي ومستقبلا وكما ان انسان اليوم تتنازعه تلك العوامل المادية ، والاجتماعية ، والنفسية ، ويؤثر كل واحد عليه تأثيرا متناسبا مع ظروفه ، وتركيبته الوراثية ، وقوة ذلك العامل، ومدى استجابة الفرد له فكذلك انسان الماضي والمجتمع البشري هو مجموعة افراد ، والعوامل المؤثرة في كل فرد فرد تؤثر بالطبع في الافراد ككل ولا ريب ان من اهم العوامل المؤثرة في الفرد ، هو الاقتصاد ووسائل الانتاج، وكيفية توزيع الثروة ، وروح المجتمع الذي يعيش فيه من صباوة ، او شباب او شيخوخة [١] .

ولكن السؤال هو : هل هذا تأثير حتمي في حياة الانسان ؟

مما يجعل الحياة البشرية ، كالطبيعة ذات وتر واحد تسير عليه ابدا؟ وبالتالي هل هناك علل تاريخية ؟ هذا ما لا نقبل به . اذ اننا نعرف — يقينا — وجود تحد ارادي للانسان ، يعلو على مقتضيات الاقتصاد ، ووسائل

---

(١) سنتحدث انشاء الله عن الروح الاجتماعية .

الأنتاج ، والاجتماع وروح العصر ، وان وجود قدرة أعلى للفرد على تحدي العوامل المؤثرة فيه • دليل على وجود ذات القدرة في البشرية ايضا ، وبالتالي ان كل عصر تاريخي هو عصر فريد ، لانه يتكون بالمزيج من تفاعل وتشابك العوامل ، ومن قدر غير مقدر — سلفا — من ارادة البشرية الحرة التي تختار اما الخضوع للعوامل او تحديها •

كيف تختار المجموعة البشرية طريقها باتجاه او ضد العوامل ؟ هذا امر مرتبط بدراسة المؤرخ لكل عصر عصر (وسنتحدث عنه انشاء الله عند الحديث عن روح الحضارة) ولكن الحرية موجودة دائما وفي كل العصور وبهذا نعرف : ان القانون التاريخي ، يختلف عن القانون الطبيعي، في ان الطبيعة لا تستطيع ان تغير من مسارها منذ خلقها الله ، بينما الانسان بالعكس ، عن هذه الحقيقة يقول كارل سيرز : ان الانسان ليس تاريخا الا باعتباره موجودا مزودا بعقل ، لا بوصفه موجودا طبيعيا ، ونحن بوصفنا اناسا لا نكون ميسورين لانفسنا الا في التاريخ ، — لكن فيما هو جوهري لنا — لا بوصفنا موضوعا للبحث ، فنحن لا نصير موضوعا للبحث ، الا بوصفنا طبيعة ، وقانونا عاما ، وحقيقة واقعية تجريبية خاصة ، وفي التاريخ نحن نلقي انفسنا بوصفنا (حرية ووجود وعقل) وجادين في اتخاذ القرارات ، وذوي استقلال عن العالم ، وما يواجهنا في التاريخ ، لان الطبيعة هو هذا السر المزدوج الانتقال المفاجيء الى الحرية وانكشاف الوجود في الشعور الانساني [1] •

وبسبب هذه الحرية الانسانية ، التي تتجلى في التاريخ ، فنحن نحبه لاننا نحب الابداع ، والتحدي ، والخلق ، وفي التاريخ ومضات من الابداع والتحدي والخلق ، وهذه الومضات هي احب الومضات الى

---

(١) المصدر ص ٢٣٧ ...

قلوبنا ، لانها تعطي التاريخ : الفردية التي هي لمسة انسانية ، لمسة من الاختيار ، والصنع ، والذاتية ، لكن هذه الحرية لا تنافي مع القانون التاريخي ، لان القانون التاريخي هو في الواقع قانون اجتماعي انساني ، والقانون الاجتماعي ليس فيه حتمية القانون الطبيعي ، بل فيه نسبة محتومة من احتمال التحدي ، من قبل الانسان ، الذي يتميز بالحرية في تصرفاته ، ولذلك فالقانون لا يبحث عن (العلة) ، بل عن (المقتضي) والذي يعني زيادة نسبة الاحتمالات في جانب ، ضد جانب آخر ، وبتعبير آخر : وجود ظروف: ضاغطة تهيىء في جانب ، ضد جانب آخر ، وبتعبير فوجود طبقية في المجتمع تهيء الظروف لاختيار الطبقة المقهورة المستضعفة: الثورة ضد الطبقة القاهرة الظالمة •• لا لانها تحتم عليهم لان الحتمية لا تصدق باستمرار ••

من هنا نعلم ان علينا ان نفتش عن سنن التاريخ ولكن مع المحافظة على نسبة التحدي ، التي قد توجد في الانسان باتجاه معاكس للسنة ، وهذا هو ما فعله كبار المؤرخين الجدد ، اذ انهم لم يحاولوا ــ كما حاول بعض فلاسفة التاريخ في القرن السابق ــ ان يدرسوا التاريخ كأنه نموذج واحد فقط ، وخاضع لسنن حتمية قاهرة لا تتغير ، بل درسوه على اساس كتاب متعدد الاوجه • فمثلا توينبي الذي درس احدى وعشرين حضارة اصيلة ، درسها دراسة مستوفاة ، باحثا في كل حضارة عن روحها ولبابها، وميزاتها ، وسماتها ، ثم ادلى برأيه في الحضارة ، وهو رأي معتدل نوع ما ، اذ انه لا ينسى التنويه بدور الارادة البشرية ، اذ انه استنبط من خلال دراسته : (ان تاريخ كل امة من الامم التي اختارها موضوعا لدراسته : انما هو استجابة لتحدي الظروف التي وجدت فيها [1] • ان الاستجابة لا تقع بطريقة عشوائية او حتمية ، بل بوعي وارادة حرة •

---

(1) المصدر ص ١٠٥ •

« وعند دراسة توينبي للحضارات التي اختارها ، تبين ان المجموعات البشرية التي تقودها جماعات من القادة واصحاب الرأي وهؤلاء هم الذين يقودون الجماعة ، في استجابتها للتحدي ، ويحددون نوع هذه الاستجابة بحسب ملكاتهم فاذا كانت استجابتهم قائمة على ابتداع الوسائل التي تمكن الجماعة من التغلب على المصاعب التي تواجهها ، والسير الى الامام كانت هذه الجماعة موفقة وسار تاريخ الجماعة الى الامام لان الاستجابة كانت ابتكارية ، او ابتداعية ، ولا تزال الامة في صعود وتقدم ما دام قادتها محتفظين بالقدرة على الاستجابة الابتداعية ، فاذا عجزوا عن ذلك اخذ سير الجماعة كلها يتلكأ ويتراخى وربما توقف » وبينما كان اسبنجلر ــ مثل ابن خلدون ــ يرى : ان الاستجابة الابتداعية تصل الى ذروتها ثم تتوقف » اي ان موت الحضارات لامفر منه ، يرى توينبي : انه من الممكن ان تستمر الحضارة في الاستجابة الابتداعية ولا تموت بذلك (1) .

من هنا نعلم : ان حرية الانسان هي التي تصنع التاريخ ، وان ما يسمى بالحتمية التاريخية ، الاقتصادية ، او النفسية المثالية ، او الحضارية الدورية ، انما هي مقتضيات تهيء الجو لقيام الانسان ، باستثمار حريته، واتخاذ قرار محدد . وان قراره هو الذي يصنع التاريخ اخيرا . ولكن هل يعني هذا ان ليس هناك اية حتمية في مسار التاريخ ؟

هذه : حتميات التاريخ

هناك عدة حتميات هي :

١ ــ حتمية الحرية البشرية . التي لا يمكن ان تموت رغم كل ضغوط التاريخ عليها ، وهذا ما تحدثنا عنه ــ سلفا ــ والقرآن الحكيم .

---

(1) المصدر ص ١٠٦ .

يذكرنا في آياته ، بهذه الحرية في مناسبات ، مرة حين يتحدث عن افراد تحدوا واقع امتهم الفاسد ، وتطلعوا الى الامام ، اولئك الابطال استثمروا حريتهم وخرجوا عن قوقعة الظروف الى رحاب الانسانية .

فقد قال ربنا :

ضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون اذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ، ونجني من فرعون وعمله .

ولم يقبل ربنا تبرير الظالمين انفسهم بانهم كانوا مستضعفين ، بل قال لهم (كما جاء في القرآن) :

« الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي انفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين في الارض قالوا : ألم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟! فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا (النساء ــ ٩٧) .

وقال القرآن للمسلمين بصراحة :

ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين ، ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا منكم ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . (آل عمران ــ ١٣٩ ــ ١٤٠) ولولا الحرية لما تقدمت البشرية بوصة واحدة . ولما كانت ثورات تقدمية . ولا ابداع ولا مبادهة .

ان ثورة الانسان هي استثمار لحريته . ضد افكار ونظم (وحتميات سائدة !!) وهي بذلك تحد لضغط الظروف . وهي دليل الحرية .

٢ ــ حتمية الكسب والجزاء . والكسب والجزاء هما معا محور « الحق والحرية » في الحياة ، الحرية في ان تتخذ قرارا . والحق . هو ان تتلقى جزاء قرارك ان خيرا فخير وان شرا فشر يقول الله : ام لم ينبأ بما في صحف موسى ، وابراهيم الذي وفى ، الا تزر وازرة وزر اخرى .

وان ليس للانسان الا مـا سعى وان سعيه سوف يرى ثـم يجزأه الجزاء الاوفى .

كل شخص « حر » في ان يتخذ موقفا (وحتى لو لم يتخذ موقفا في الحياة فان عدم اتخاذه الموقف هو بذاته موقف اختاره بحريته) ولـكن الحق هو ان يجزى بما قام به . وحين تتراكم اعمال الناس ، ومكـاسبهم الخيرة ، فان حتمية سنة الحق تقضي فيهم ، بتفجير حضارة تتنـاسب ، ومدى ما قدموه من عمل خير ، بينما يقتضي الحق . وسنة الحتميـة في الحياة : انه اذا تراكمت مكتسبات الافراد السيئة ، انفجرت فيهم بشكـل مآسي مدمرة ، تنهي حضارتهم ، ويرثها الآخرون ، بجهودهم ، ومساعيهم وهذه الحتمية تقضي بعودة الانسان ، الى الحق مكرها ان لم يعد اليـه طوعا . والتاريخ انما هو مجموعة مسيرات من الحق الى الباطل ، بحرية الانسان وسوء اختياره ، ومن الباطل الى الحق . بحرية الانسان وحسن اختياره ، او رغما عليه وكرها ، ذلك ان الحق هو سنة الحياة ، التي لـن تجد لها تبديلا ولن تجد لها تحويلا .

٣ ـ حدود الحرية وان كانت الحرية ممنوحة للانسان ليختار طريقه، فان هذه الحرية محددة في اطار معين، وضمن فترة محددة ولذلك .

١ ـ حين تظلم فئة فئـة اخرى . وتسلب منهـا حقها . وتسرق حريتها . وتنتشر الطبقية في الامة، فان الفئة المحرومة انما سحقت بحريتها، وعدم دفاعها عن ذاتها . ولكن الفئة الظالمة لن تبقى تستمر فـي استغلال حريتها المحدودة اذ الله لم يهملها بل انه امهلها فقط ، لذلك فانه يتدخل غيبيا . لينهي الباطل ويعيد الحق . يقول ربنا :

نحن نقص عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق . لقوم يؤمنون .

ان فرعون علا في الارض. وجعل أهلها شيعاء يستضعف طائفة منهم يذبح ابنائهم ويستحي نساءهم انه كان عاليا من المسرفين . ونريد ان نمن

على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين • ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون •

هذه خلاصة القصة : هناك فرعون اختار طريق البـاطل (والظلم) ولكن لم تستمر لفرعون حريتـه بل تدخلت سنة اللـه التي أرادت (في مواجهة ارادة فرعون) ان تري فرعون ان الطائفة المستضعفة قادرة على استرجاع حقوقها •

هذه فلسفة صراع الطبقات ، حيث ان الفئة المغلوبة المستغلـة تقاوم الفئة (التي غالبا ما يمثلها فرد) الظالمة المستغلة • والنهاية ستكون انتصار تلك الفئة على هذه لانها خالفت سنة الحق ، فاعيدت اليه كرها ، ولـكن كيف يتم فصول هذا الصراع •

فصول الصراع

تجري فصول هذا الصراع اولا ــ بطريقة واعية • حيث يبتـدء بوجود فكرة ثورية في الامة ، بحيث تكون هذه الفكرة ، وسيلة يقظـة ، واداة تنظيم ، ومنظار رؤية • ودون هذه الفكرة لا تستيقظ الامـة ، ولا تستطيع تكوين رؤية ، ولا اداة تنظيم •

ثانيا : تتبلور هذه الفكرة في روع قائد ، يقوم باستقطاب مـأساة الطائفة المستضعفة ، ويفجرها ضد الطغاة ، وكما هو معروف ان مؤرخين كثيرين ، اكدوا على دور هذين الامرين ، في توجيه التاريخ •

وعنهما يقول ربنا ــ وهو يصف لنـا واقعة الصراع بـين موسى وفرعون ، وما ورائه من الصراع بين فئة ظالمـة ، واخرى مستضعفة • فيقول :

١ ــ طسم ، تلك آيات الكتاب المبين ، نتلوا عليك مـن نبأ موسى وفرعون بالحق ، لقوم يؤمنون :

١ ـ ان فرعون علا في الارض وجعل اهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناء هم ويستحي نساءهم ، انه كان عاليا من المفسدين ..

٢ ـ ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الارض ونري فرعون وهامان وجنودهما ، منهم ما كانوا يحذرون .

٣ ـ واوحينا الى ام موسى : ان ارضعيه ، فاذا خفت عليه فالقيه في اليم ، ولا تخافي ، ولا تحزني ، انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين فالتقطه آل فرعون ، ليكون لهم عدوا وحزنا ان فرعون ، وهامان ، وجنودهما كانوا خاطئين ، وقالت امرأة فرعون ، قرة عين لي ولك ، لا تقتلوه ، عسى ان ينفعنا ، او نتخذه ولدا وهم لا يشعرون ... وحرمنا عليه المراضع من قبل ، فقالت : هل ادلكم على اهل بيت يكفلونه لكم ، وهم له ناصحون ، فرددناه الى امه كي تقر عينها ، ولا تحزن ، ولتعلم ان وعد الله حق ، ولكن اكثرهم لا يعلمون ..

٤ ـ ولما بلغ اشده واستوى ، آتيناه حكما وعلما . وكذلك نجزي المحسنين .

٥ ـ ودخل المدينة على حين غفلة من اهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان، هذا من شيعته وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذي من شيعته ، على الذي من عدوه ، فوكزه موسى ، فقضى عليه ، قال : هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين . (القصص ١ ـ ١٥) .

في بداية القصة يذكرنا القرآن بأن الحق ، هو عنوان القصة ، وخلاصة عبرتها ، حين يقول سبحانه : تتلو عليك من نبأ موسى وفرعون (بالحق) لقوم يؤمنون ، ثم تسرد القصة تاريخ حضارة من اعرق حضارات الارض ، وعبر فصولها الخمس ، (التي

فرقناها للتوضيح) هناك دكتاتور علا في الارض ، ان لهذا الفرد ــ الذي قاد طبقة المترفين ضد طبقة المستضعفين ــ ان له اثره الحاسم ، في توجيه مسار التاريخ ، بالرغم من ان وزيره (هامان) وجنودهما ساهموا في صنع التاريخ ايضا ٠٠ولكن البصيرة القرآنية تذكرنا بدور الفرد القائد ، ــ هنا ــ كما تذكرنا بدوره ، في الطرف الآخر لابراز دور القيادة ، وايضا دور المسؤلية الفردية ، التي يتحملها الانسان تجاه قراراته ، فليس فرعون، بعيدا عن المسؤولية لان الجهاز الذي ركب هو على رأسه كان فاسدا ، فقراراته ــ اذا ــ كانت جبرية كلا ٠٠ كما ان موسى ــ ع ــ ليس مجرد آلة في مركبة التاريخ ، بل هو انسان حر اراد الثورة فثار ٠

٢ ــ ولكن الى متى يظل الانسان (فرعون) حرا في معاكسة نظام الحق في الحياة ؟ بالطبع ليس الى ما لا نهاية ، كما كان يظن هو ووزيره وجنودهما ، ولذلك كانوا خاطئين ، فهناك ارادة حرة ، فوق ارادة فرعون الحرة ، هي ارادة الحق ٠ ارادة السنة الالهية ٠ (ونريد ان نمن على الذين استضعفوا) ويقول القرآن استضعفوا ، ولا يقول الضعفاء لان الله لم يخلق البشر فريقا ضعفاء ، وفريقا اقوياء ، انما الناس ــ بعملهم ــ يستضعفون بعضا ٠ ولا يستضعف احد الا بسوء اختياره ، اذ انه قد اوتي ــ هو ايضا ــ قدرة على مقاومة الضعف متى ما شاء ٠

٣ ــ كيف تتحقق ارادة الحق في دحر المفسدين ؟ في البدء باصطناع (انسان ــ انسان) يجد انسانيته ، ويستعيد حريته ، ويقاوم المستعبدين والعبيد معا ، يقاوم اولئك لانهم سلبوا حرية هؤلاء ، ويقاوم هؤلاء لانهم سمحوا لهم بذلك ، ولم يستعيدوا حريتهم بالعنف ، لذلك (وأوحينا الى ام موسى ان ارضعيه ، فاذا خفت عليه فالقيه في اليم ٠٠) ٠ وموسى الذي استعاد حريته ، ربي في جو موبوء بالفساد ، في بيت الجريمة والاسراف ، في بيت فرعون بالذات ٠ ولم تكن له اية مصلحة في معاداة

النظام ، الا انه كان ثائرا (بحريته) ، وضد مصالح اعدائه ، ومصالحه الوقتية ايضا .

٤ ــ ولان الممارسة النضالية تعطي الانسان رؤية واضحة . ولان موسى كان محسنا فان الله اعطاه حكما وعلما .. الحكم لكي لا يحيد عن صراط الحق ، والعلم لكي يقود قيادة حسنة ، الحكم : رؤية ثورية . والعلم ، قيادة علمية .. وهذه هي الفكرة الحضارية ، التي تحتاجها الامم ، في نهضتها ، وهي : النظرية الثورية التي لا بد منها في قيام الطبقة المستضعفة ، ضد اعدائها المستغلين ، وهي ضرورة لا تقل اهمية عن ضرورة القائد ، الحكيم العليم .

٥ ــ وبدء ثورته . باستخدام العنف ، ضد الطبقة المستغلة ، دفاعا عن الطبقة المحرومة .

(.. ودخل المدينة على حين غفلة من اهلها ..) . ان العنف يبدء مع الثورة بشكل بسيط ، ولكنه يتصاعد بسرعة هائلة وفي بعض الاوقات من دون ارادة من صاحبه .

الظلم الذاتي

الظلم الاجتماعي (الذي يعني توزيع الناس شيعا وفئات ، متناحرة) ليس السبب الوحيد لنهاية الامم ، بل هناك ايضا : الظلم الذاتي الذي ينهي حياة الامم ايضا ، فالابتعاد عن نهج الله في الحياة ، وعدم التفكير الجدي في الطريق السليم للعيش ، قد يتسبب في نهاية الحضارة . نهاية متدرجة او صاعقة . فاذا انتشر الفساد ، سادت الميوعة ، واذا سادت الميوعة ، فقدت الامة التماسك الداخلي ، وتفسخت وانتهت ، وهذه الحالة هي التي يعبر عنها بعض المؤرخين بـ (حالة الشيخوخة) في الحضارة ،

حيث يسترسل افراد الامة في الاسراف في الملذات الآنية ، ناسين اهدافهم في الحياة ، ومن ذلك رأى اشبنجلر : « تشابها بين قيام الحضارات ، ونموها ، ووصولها الى القوة ، ثم انحدارها (في) عملية بيولوجية شبيهة بما يجري على الكائنات الحيةفي تطورطبيعي عضوي، بالضبط كما قال ابن خلدون [١] •• ولكن اشبنجلر ذهب في تشبيه دورة الحضارات ، بدورة حياة الكائن الحي الى مدى مسرف في البعد ، فان التطابق بين حياة الامم ــ كما قلنا ــ غير موجود الا في الظاهر فقط [٢] •

وقد استطاع توينبي ــ الذي اخذ من ابن خلدون ، ومن ملاحظاته لعشرين حضارة في التاريخ ــ اخذ فكرة دور الحضارة استطاع ان يستعدل نظريته ، بما يتناسب ووجدان الانسان : انه حر ، ومسؤل ، عن تصرفاته ، فقال : ان من الممكن ان تستمر الحضارة في الاستجابة الابتداعية ، ولا تموت بذلك [٣] •

والواقع : ان الكائن الحي ، مضطر للتدرج وفق مراحل الحياة ، منذ الطفولة الى الفتوة والشيخوخة ، ولكن الامة لا تتحرك من دون ارادة ابنائها ، وتحركهم ووجود فكرة صالحة فيهم •

الظلم الذاتي في القرآن

وقد ضرب الله لنا مثلا بقوم لوط الذين انتشرت فيهم الميوعة وانهت حياتهم فقال سبحانه : كذبت قوم لوط المرسلين :

١ ــ اذ قال لهم اخوهم لوط : ألا تتقون ، اني لكم رسول امين ، فاتقوا الله واطيعون ، وما اسألكم عليه من اجر ان اجري الا على رب العالمين •

(١) المصدر ص ١٠٣ •
(٢) المصدر ص ١٠٤ •
(٣) المصدر ص ١٠٦ •

٢ ــ أتأتون الذكران من العالمين ، وتذرون ما خلق لكم ربكم من ازواجكم !! بل انتم قوم عادون ٠

٣ ــ قالوا لئن لم تنته يا لوط ، لتكونن من المخرجين قال : انــي لعملكم من القالين رب نجني ، واهلي مما يعملون ٠

٤ ــ فنجيناه واهله اجمعــين الا عجوزا في الغابرين ، ثم دمرنــا الآخرين ، وامطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين (١٦٠/١٧٣ الشعراء)٠

ثم ضرب الله لنا مثلا باصحاب الايكة (الذين انتشر فيهم الفساد الاقتصادي ، والاجتماعي ، فانهى حضارتهم ايضا) فقال : كذب الايكــة المرسلين :

١ ــ اذ قال لهم شعيب : الا تتقون ! اني لكم رسول امين ، فاتقوا الله واطيعون ، وما اسئلكم عليه من اجر ، ان اجري الا على رب العالمين٠

٢ ــ اوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخسوا الناس اشيائهم، ولا تعثوا في الارض مفسدين ، واتقوا الذي خلقكم والجبلة الاولين ٠

٢ ــ قالوا انما انت من المسحرين ، وما انت الا بشر مثلنــا ، وان نظنك لمن الكاذبين ، فاسقط علينا كسفا من السماء ان كنت من الصادقين٠٠

٣ ــ قال ربي اعلم بما تعملون ، فكذبوه ، فاخذهم عذاب يــوم الظلة ، انه كان عذاب يوم عظيم ٠ (الشعراء) (١٨٩/١٧٦) وكــانت نهاية حضارة اصحاب الايكة صاعقة ، اذ انهم نشروا الفساد ، وكان ذلك نوعا من الظلم الذاتي ، الذي لا بد ان يقابل بعودة جبرية الى الحــق ، بارادة فوقية لا تقهر ، ومثل آخر ضرب الله لنا في واقع قوم هود (عاد) وحضارتهم انتهت في عز شبابها ، وكان الظلم الذاتي عندهم متمثلا فــي التجبر على الناس ، والاعتداء على الشعوب المستضعفة ، ويبدو ان قوم

هود • ما عانوا من طبقية داخلية ، تفتت وحدتهم ، ولا عانوا من فساد اجتماعي او خلقي ، انما كانت حضارتهم خالية من الهدف الرسالي وكانت عنصرية متعجرفة ، وقد انتهت حضارتهم نهاية صاعقة ، فقال عنها ربنا : كذبت عاد المرسلين •

١ ـ اذ قال لهم اخوهم هود : الا تتقون ! اني لكم رسول امين • فاتقوا الله واطيعون • وما اسئلكم عليه من اجر ، ان اجري الا على رب العالمين •

٢ ـ اتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لكم لعلكم تخلدون ، واذا بطشتم بطشتم جبارين ، فاتقوا الله واطيعون واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون أمدكم بانعام وبنين ، وجنات وعيون ، اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم •

٣ ـ قالوا : سواء علينا ، اوعظت ام لم تكن من الواعظين ، ان هذا الا خلق الاولين ، وما نحن بمعذبين •

٤ ـ فكذبوه ، فاهلكناهم ، ان في ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين (١٢٤ ـ ١٣٩ ـ الشعراء) •

ان عادا دون غيرهم كانوا مغرورين بقوتهم ، ودون غيرهم قالوا لرسولهم : ان افكارك رجعية • ودون غيرهم بطشوا بطش الجبارين ، انهم كانوا في عنفوان شبابهم • ولكنهم انتهوا •

هذه جميعا نماذج من ظلم الانسان لذاته ، التي مارسها بحريته التامة ، ولكن سنة الحق تدخلت ، وبعد انذار بالغ ونافذ انهت حضارتهم واعادت الحياة الى مجراها المستقيم •

التنبؤ بالمستقبل

بالطبع ضرورة دراسة التاريخ ، ودراسة فلسفته ، هي من اجل

ضرورة توضيح الرؤية الى المستقبل ، وليست لمجرد اشباع شهوة الاطلاع، ودون التنبوء بالمستقبل، بشكل من الاشكال، لا يمكن الانتفاع بالتاريخ، ولكن هذا الهدف ، لا يتحقق بشكل مطلق ولا بشكل دائم • بل يرتبط •

١ ـ اولا : بفهم جميع او اهم العوامل الاساسية التي تؤثر في الانسان !

٢ ـ بفهم الواقع الحاضر وموقع الانسان من مراحل التاريخ ، بعد فهم هذه الحقائق ، يستطيع المؤرخ ، او الفيلسوف ، التنبؤ بالمستقبل، مع وضع احتمالات واستخدامات الانسان لحريته، وتحديها لمسيرة التاريخ •

من هنا فان التشاؤم المطلق ـ كالتفاؤل المطلق ـ في حقل التنبؤ بالمستقبل غلط •

فالتاريخ ليس كتابا واحدا • تعيد الاحداث طباعته انما هي كتب عديدة ، وكل كتاب يطبع مرة واحدة ، وقد يؤلف من جديد ، ولكنه لا يطبع منه نسخة اخرى ، ابدا ، وفي حدود هذا المفهوم يصح القول « التاريخ يعيد نفسه » •

مسار التاريخ

لكل مجموعة احداث تاريخية ، صبغة خاصة ، تجعلها **وكأنها حدث** واحد فقط ، له بداية ونهاية ، ويمكن ان نشرحها بشكل خاص ومتميز لها (١) •

وهذا يعني عدة امور :

---

(١) وقد اشار القرآن الى هذه الحقيقة حينما قسم التاريخ امما وجعل لكل امة بداية ونهاية فجاء فيه مثلا . الى اجل مسمى . ومتعناهم الى حين .

١ ــ ان لكل مجموعة احداث تاريخية ، صلة داخلية تربطها ببعضها، وعلينا ان نتوسع في دراسة هذه المجموعة ، حتى نصل الى تلك الصلة الداخلية ، التي قد نسميها مجازا بروح المجموعة • انه ــ لكي نفهم تاريخ حضارة ما ــ علينا أولا أن نقرأ عنها في توسع ، حتى نهتدي الى روحها ، ولبابها وهذا هو مفتاح فهمها [١] •

٢ ــ اهم شيء رابط بين احداث هذه الفترة ، هي سيادة فكرة معينة لا تكون الرابطة ــ بين الافراد والطبقات الموجودة ــ داخل الامة فقط ، بل ــ وايضا ــ تكون المفتاح ــ لفهم الاحداث التي تقع ضمن الفترة ، ويقول توينبي : ان النموذج العادي للتفكك الاجتماعي من الحضارات ، يأخذ صورة انشقاق في صفوف الجماعة ، وظهور الطبقة العاملة الى الميدان ، وتحديها للقوة الحاكمة ، ويقترن ذلك بعجز هذه الطبقة (الحاكمة) عن الثبات ، لذلك التحدي ، بسبب التصدع في بنيانها، وعجزها عن الاستجابة ــ ابداعيا ــ للتحدي ، وشيئا فشيئا ، تفقد القيادة سيادتها ، وتميل الامور الى الغموض [٢] •

ولكن هل ظهور الطبقة العاملة ، هي الميزة الوحيدة للتصدع الحضاري ، كما حدث في روسيا القيصرية ؟ ام ان هناك تصدعا من نوع آخر ، يحدث بين فئات متناحرة ، لكل واحد منها مصالحها ، وحقوقها ،

---

(١) عن هذه الروح يقول اشبنجلر : ان الفترة الاولى من حياة ، اي حضارة ، تشبه العصور الوسطى ، الاوربية ، وهي ــ في نظره ــ مرحلة طفولة او صبوة لم تدخل في مرحلة الوعي لنفسها والتنبه الى قواها ، ثم تبدء ــ بعد ذلك ــ مرحلة الضعف والهبوط واننا نستطيع ان نستشف روح كل حضارة في معاملات الناس في نطاق اي حضارة في كيانها من قوة ، وما تمر فيه من مراحل العمر . المصدر ص ١٠٤ .

(٢) المصدر ص ١٠٦ •

وطبقاتها ، وقيادتها ، كالتي حدثت في الامــة الاسلامية بعد أفــول نجم حضارتها حيث اصبحت ــ كما قال الشاعر ــ :

وتفرقوا شيعا ، فكل قبيلــة فيها امير المؤمنين ومنبر ؟

وقد تبقى الوحدة قائمة ، ولكن وحدة جمود فتأسن الامة ويتفشى فيها اللامبالاة والميوعة و... حتى يأتيها ــ من الخارج ــ من يطلق عليها رصاصة الرحمة ، وتنتهي ، كما حدث في الامبراطورية الفارسية ، بعــد ظهور الاسلام .

٣ ــ وهذه الروح الحضارية ، تبدء من نقطة زمانية ومكانية معينة، وتندفع في كل اتجاه ــ عمقا وانتشارا ــ ثم يتبدء بالتلاشي والضعف حتى تنطفىء شعلتها وتبرد حرارتها ، الا اذا وجدت فكرة اخرى ، او وجــد من يجدد الفكرة الاولى .

والاندفاعة الاولى تنطلق من احد عاملين :

الف ــ من ظهور عامل فجائي غيبي . (ظهور نبي مبعوث من الله).
باء ــ من تحدى امة قوية لهذه الامة . او احتكاكها بها ، وبعــد وجود احد العاملين ، تنبعث في الامة روح جديدة ، اهم ميزاتها : الثقــة بالذات ، وبالقدرات والمواهب الكامنة في الانسان كانسان ، وهذه الثقة لا تحدث في الامة الا بعد القدرة على تحدي حواجز الخوف ، والتهيب، وهذه القدرة مرتبطة ــ بدورها ــ بوجود تطلع في الامة (او في الافراد) حيث ان هذا التطلع يجعل الانسان ، يرتفع الى مستوى رفيع ، فيكتشف عن طريق الممارسة الجهادية ــ من اجل الوصول الى اهدافه التي يتطلع اليها ــ يكتشف مواهبه وقدراته . وقد اشار القرآن الحكيم الى هــذه الحقيقة ، حين امر الله بالتوكل عليه . وقد تنبه الى هذه الحقيقة، المؤرخ والفيلسوف ابن خلدون ، حين اشار في تحليله الى ان الامم في صعودهــا

تتطلع نفوس اهلها الى عظائم الامور ، وتستسهل الصعاب ، وفي ايــام هبوطها تسقط همم اهلها ، وتصعب عليهم الصغائر » [١] .

ودور الايمان بالله ــ دور اساسي في بناء كبرى حضارات الارض، لانه كان يعطي الانسان ، تطلعا الى اعلى كمال في الكون ، وهو الله .

بيد ان هذا التطلع لا يدوم في الامــة طويلا ، انه يبدء في الضعف والانحلال الى ان يخبوا تماما فتنتهي الامة انتهاء عمليا .

ولان التطلع يعطي الافراد اهدافا محددة ، فهم يملكون بصيرة في الحياة ، يعرفون بالضبط ماذا عليهم ان يعملوا ؟ كما يعرفون مــن هــم أعداءهم ؟ ومن هم أصدقاءهم ؟ وما هي مصالحهم ؟ وما هي ضدها ؟ ولكن حين يضعف تطلعهم تضعف بصيرتهم ، فيتخبطون خبط عشواء ، ويختلفون ويتناحرون ، ثم ينطوون على ذاتهم ، في غيبوبة تشبه غيبوبة الموت، اللهم الا اذا تحركت ارادتهم الحرة ، واخذوا يقاومون ضعفهم بتجديد تطلعهم، فيعتمد قدرتهم او ضعفهم آنئذ بمدى ارادتهم .

---

(١) المصدر ص ١٠٢ .

القسم السابع عن :

مناهج القياس

- تعاريف لا بد منها
- الاستدلال أقسامه وشروطه
- المنطق الرياضي (الرمزي)

القسم السابع عن مناهج القياس

البحث الاول

تعاريف لا بدّ منها

كلمة البدء .
١/التصور ٢/اللغة ٣/الكلي والجزئي ٤/اسم الذات واسم المعنى ٥/المفهوم والمصداق ٦/النفي والاثبات ٧/التقابل وانواعه الثلاث ٨/التضايف ومنطق العلاقات ٩/المفهوم والمصداق ١٠/بين المفهوم والمصداق ١١/ما هي المفاهيم ١٢/علاقة التصورات ببعضها ١٣/الكليات الخمس ١٤/ التعريف اقسامه وشروطه (اقسام التعريف شروط التعريف) ١٥/بين القسمة والتصنيف ١٦/الاحكام والقضايا ١٧/الاستغراق ١٨/القضية الشرطية ١٩/الاحكام بين تحليلية وتركيبية /٢٠ تقابل القضايا .

كلمة البدء

عندما تحدثنا عن تطور الفكر المنطقي بينا شيئا عن المنطق الاستنباطي (القياس/الاستدلال) وقلنا :

ان جوهر هذا المنطق هو ان خطأ الانسان ينشىء من بلبلة العمليات الفكرية التي يجريها فاذا انتظمت هذه العمليات انتهت الاخطاء •

متى تنتهي بلبلة عمليات الفكر ؟

عندما نضع قواعد ثابتة للاستدلال ولكن هذه القواعد لا تفهم الا اذا عرفنا ــ سلفا ــ تعاريف اولية ومصطلحات دقيقة •• (وهذا ما تتحدث عنه في هذا البحث) ثم عرفنا شروط الاستدلال الصحيح (وهذا ما تتحدث عنه في البحث القادم) •

ولقد سبق الحديث مفصلا عن المنطق الرمزي وقلنا ــ آنئذ ــ انه التطور الطبيعي للمنطق الاستدلالي وانه سوف يسهل عمليات الذهن الاستدلالية (وهذا هو موضوع البحث الاخير من هذا القسم) •

التصور :

١ ــ ما هي الوحدة الفكرية التي هي أصل كل فكرة وعلم ؟•• قالوا : انما هي التصورات ، والسؤال الثاني : من اين تأتي هذه التصورات ؟ قالوا : تأتي من الاحساس ، وفريق قالوا : الاحساس يلعب دورا ثانويا في ذلك ، انما الافكار السابقة التي يحملها معه الوليد ، هي

التي تشكل ماهية التصورات الاولية ! مـن انصار هذا القول حديثـا (ديكارت ، وكانت) وقديما (افلاطون) بينما من انصار القـول الاول (لوك وهيوم)

اللغـة

٢ ــ واللغة هي الظرف الطبيعي للتصورات البشرية ، لذلك يولي علم المنطق اهتماما خاصا باللغة ، وبتراكيب الالفاظ لا بما انها حقائق (كما يفعل المختصون بالقواعد اللغوية) بل بما انها كاشفات عن حقائق •

الكلي والجزئي

٣ ــ وكل تصور قد يكون كليا وقد يكون جزئيا • الـكلي شيء يصدق على كثيرين كالانسان ، يصدق على اكثر من فرد واحد ، بينمـا الجزئي لا يصدق الا على فرد واحد • مثل « علي » •

وتسمى اسماء الجموع (مثل قوم) احيانا بالاسماء الكلية، واحيانا بالاسماء الجزئية •

واسم الجمع هو الاسم الذي ينطبق على مجموعة مـن الاشيـاء المفردة ، ككل ، مميزا لها عن غيرها من المجموعات ، بينما لا ينطبق على كل فرد من افراد هذه المجموعة على حده مثل الامة وفرقة •

ولكن ــ منعا للبس والخلط في تقسيمات الحدود ــ يدعـو بعض المناطقة ، وفي مقدمتهم كينز : الى ان يكـون الفيصل هو الاستعمـال الجمعي ، او الاستعمال الاستقرائي العام ، (الاول مثل دلالة قوم على الافراد ، الثاني مثل دلالة الانسان عليهم) ولهذه التفرقة ــ بين الاستعمال الجمعي ، والاستعمال الاستقرائي ــ اهمية كبرى في ممـارسة العمليات المنطقية ، فينبغي للبـاحث ان ينظر بعمق الى حقيقة استعمـال الحـد

المنطقي ، والا يكتفي بالتسليم بالايحاء العام للمعنى ، وهناك يستطيع ان يعرف سر المغالطة في عرض الحجج ، والسفسطة التي هـي التلاعب في استخدام الكلمـة ، بمعنيين مختلفين في آن واحد ، وهو ما يطلق عليه المدرسيون : اغلوطة التقسيم ومثالها الخمسة زوج وفرد ، فهذا لا يصدق مفترقا لان الخمسة ليست زوجا بل فرد فقط ولكنـه يصدق مجتمعا اذ (الواو للجمع لا للتفصيل فهذا كقولنا : البيت لبن وجص ، وليس كمـا نقول : الكلمة اسم وفعل) •

٤ ـ اسم الذات واسم المعنى • ما دل على شيء ثابت فهـو اسم ذات ، وما دل على شيء مجرد فهو اسم معنى ، وبتعبير آخر التصور الذي يدل على شيء معين (اي على عينة هذا الشيء) فهو اسم ذات ، وما يدل على تجريد فهو اسم معنى ، وبالتالي : ما يدل على شيء ، فهو اسم ذات، وما يدل على صفة ، فهو اسم معنى • ونحن بحاجة الـى بعض الشرح لنوضح الفرق بين اسم الذات واسم المعنى وهو : ان نظر المتكلـم قد يكون الى الشيء بما هو ثابت ، وموضوع ، واصل ، واساس ، وقـد يكون بما هو متحرك ، ومحمول ، وفرع وبناء ، مترتب على غيره فالاول يدعى باسم ذات ، والثاني يدعى باسم معنى •

في الوقت الذي قد يكون الشيء الواحد ، يدعى في جملـة اسم ذات ، وفي جملة ثانية اسم معنى ، مثلا الشجاعة في هاتين الجملتين الاولى « علي شجاع » الثانية « الشجاعة عظيمـة » ففي الاولى كانت كلمـة الشجاعة اسم معنى ، بينما تحولت الى اسم ذات في الثانية والمعنى واحد الا انه في الاول قصد منه جانب الحركة والصفة اي الشجاعة بما انهـا صفة متفرعة على شيء آخر (هو الانسان) وفي الثانية قصد منه جانب الثبوت والموضوعية ، اي الشجاعـة بما انها ذات يترتب عليهـا صفـة العظمة ••

٥ ــ بين المفهوم والمصداق • واسم الذات هو المصداق بينما اسم المعنى هو المفهوم • اذ ان الصفة التي تترتب على شيء (المحمول) اقرب انى الاجمال منه الــى الوضوح بينما تتوضح فيما تتجسد في الواقــع الخارجي اي في الذات •

والمفهوم هو المعنى بما هو في الذهن • بينما المصداق هــو المعنى بما هو في الواقع الخارجي •

٦ ــ بين النفي والاثبات • الثبوت هو وجود صفة لشيء ، بينمــا النفي هو عدم ثبوتها فالحق ثبوت ، واللاحق نفي ، والحياة ثبوت شيء، واللا حياة نفي ، وهكذا •• واللاحياة واللاحق ليست حقائق مفهوميــة ، بينما قد تكون حقائق مصداقية ، فما هو مفهوم لاحق ؟ انه بالتأكيد جانب اعتباري مستنبط من مفهوم الحق ، بينما في الواقــع الخارجي يتجسد اللاحق في الباطل ، وهو شيء موجود وثابت •

واللغة العربية اقرب الى الواقع حيث لا تستخدم كثيرا ادوات النفي، بقدر ما تضع للمنفيات اسماء تخصها لتدل على الواقع الخارجي منهــا بوضوح تام فمثلا لا تقول لا حق بل تقول باطل ، وتقول الموت • بدل ان تقول لا حياة وهكذا •

٧ ــ التقابل وانواعها الثلاث •

يعني التقابل ان يكون تصور ما نفيا لتصور آخر ، بشكــل مــن اشكال النفي ، وانواعه ثلاثة : التناقض ، والتضاد ، والتضايف •

الف ــ التناقض : وهو ان يكون احدهما ــ اعتبارا ــ نفيا كاملا للآخر بحيث لا يمكن ان يصدقا معا ، او يكذبا معا ، مثل الحق واللاحق الصدق واللاصدق ، والانسان واللاانسان •

باء التضاد : وهو ان يكون احد الشيئين منافيا للآخر ، وليس نفيا له لذلك قد لا يوجد احـدهما • ولكن لا يمكن ان يوجـدا معا مثلا : الابيض والاسود ، فقد يكون الشيء اسودا او ابيضا او يكون بلـون ثالث كالاحمر ، ولكن لا يمكن ان يكون الشيء اسودا وابيضا معا ومن جهة واحدة •

جيم ـ التضايف : وهو ان يكون الشيء ليس نفيا للشيء ولا منافيا له ولكن علة لتصوره • وبذلك لا يمكن ان يجمع معه كيف ذلك ؟ مثل : الاب والابن • اذ ان تصور الابن نـاشيء مـن تصور الاب (والعكس صحيح ايضا) ولذلك لا يمكن ان يجتمعا فيكون الشخص الواحد ابـا وأبنا من جهة واحدة •

وكذلك فوق وتحت ، وما اشبه ، وتعريفه المنطقي هو : المتضايفان : هما اللذان لا غنى لتصور احدهما عن الآخر !

التضايف ومنطق العلاقات

٨ ـ لقد اولى المنطق الحديث اهتماما كبيرا بعلاقة التضايف،حيث اضاف الى التضايف اقساما جديدة وهي الاقسام التي تتصل ببعضهـا بأكثر من واسطة ، وهي التي تشكل مادة المنطق الرمزي الحديث، وكمثل نستطيع ان نقول ان المنطق القديم كان يعرف في التضايف الاقسام التي تتصـل ببعضها بعلاقة مباشرة مثـل الاب والابن وفـوق وتحـت وما اشبه •• بينما المنطق الحديث يضيف الى هذه العلاقة بعض العلاقات الاخرى ، مثل علاقة الابن بالجد ، فيقول اذا كان زيد ابا لعمر ، وعمر ابا لمحمد ، فان زيدا جد لمحمد ، واذا كان هذا تحت هذا ، وهذا ـ بدوره ـ

مساو لسطح ذاك ، فان هذا غير مساو لسطح ذاك وهكذا • وفيما يلي نضرب بعض الامثلة لمنطق العلاقات :

ألف ــ علاقة التماثل •• كقولنا زيد ذكي بمثل ذكاء مصطفى وهذا يمكن عكسه كان نقول ومصطفى ذكي بمثل ذكاء زيد •

باء ــ علاقة اللاتماثل كقولنا محمد ابن علي • اذ لا يمكن ان نعكسه فنقول وعلي ابن محمد •

جيم ــ علاقة التعدي : وهي التوصل الى حكم من خلال حكم آخر يتوسط بينهما مثل عادل إذكى مــن مصطفى ومصطفى اذكى مــن علي وبالطبع تكون النتيجة : ان عادل اذكى من علي •

دال ــ علاقة اللاتعدي ، الذكاء صفة تتعدى ، بينما الصداقة صفة لا تتعدى ، ففي المثل السابق لو استبدلنا صفة الصداقة مكــان صفــة الذكاء ، وقلنا عادل صديق مصطفى ، ومصطفى صديق علي لا يصح ان نستنتج ونقول اذا عادل صديق علي •

٩ ــ المفهوم والمصداق • المفهــوم هي الصفات التــي تميز بعض الاشياء عن غيرها ، فاذا تجمعت هذه الصفات حول بعضها • ودلت على شيء واحد اصبح لدينا مفهوما ذهنيا عن هذا الشيء ، وعندمــا تتــرك الذهن ، لندخل الحياة الخارجية•وننظر الى ما يهدي اليه عليه هذا المفهوم، نسميه مصداقا فالانسان قد ننظر اليه على انه مجموعة صفات ، وحــدود ومميزات متجمعة فنسميه لذلك مفهوم الانسان ، بينما قد ننظر اليه على انه اسم لزيد ، وعمر ومن اشبه ، فنسميه المصداق • والمفهوم قد يدخل فيه صفات جوهرية لها تأثير في اصل المفهوم ، كصفة النطق • بالنسبــة الى الانسان مثلا • وقد يدخل فيه صفات خارجية لا ترتبط باصل مفهوم

الانسان بحيث لو لم تكن هذه الصفة موجودة اذا لكنا نسميه انسانا ايضا مثل صفة الضحك مثلا فهي صفات عرضية .

١٠ ــ بين المفهوم والمصداق . يعتقد المنطقيون ان الصلة بين المفهوم والمصداق علاقة عكسية فكلما زاد هذا نقص ذاك فلو قلنا في تحديد مفهوم ما موجود يمشي لكان يشمل كثيرا من الاشياء بينما لو قلنا موجود يمشي ويتكلم اقتصر على الانسان اما اذا اضفنا الى ذلك القول يمشي ويتكلم ويكتب لكان يشمل فقط بعض افراد الانسان .

١١ ــ والمفاهيم . لا تختلف بالالفاظ والمعاني بقدر اختلافها بالاستعمال ، وقد ارتأى (جون ستيوارت مل) انه يتعين علينا تقسيم الاسماء الى اسماء ذات مفهوم واسماء لا مفهوم لها ، فالاولى تدل على موضوعات ، وتحتوي صفات مميزة ، لتلك الموضوعات بينما الثانية ليست كذلك انما تدل على الموضوعات او تدل على الصفات فقط دون ان تحتوي على صفات مميزة . وطبقا لتقسيم مل يكون الشيء اما له مفهوم أولا (الف) وإما له مفهوم قسمان (١) التصورات والحدود الكلية كالحيوان والنبات والانسان فانها تدل على موضوعات وتنطوي على صفات مميزة لتلك الموضوعات ، (٢) الحدود الجزئية . كمقصف وفندق وحديقة فانها تدل على موضوعاتها لاحتوائها على صفات مميزة لها ولا يفترق القسمان عن بعضهما الا بالكلية والجزئية ، (باء) وما لا مفهوم لها هي كاسماء الاعلام التي هي اشبه بالاشارات مثل زيد وعادل وما اشبه .

ملاحظة : الواقع ان الفرق بين النوعين السابقين غير صحيح اذ انه اذا كان الفرق دلالة الاسم اللغوية على شيء ، فان الاسم يدل على الشخص لا على مفهوم . وهذا رأينا في الحروف والكلمات ايضا انها جميعا اشارات الى المصاديق الخارجية لا المفاهيم فالكلية ، منها اشارة الى المصاديق ، بعد اعتبار خصوصية الافراد ملغاة وغير مقصودة . بينما

الجزئية تدل على الاسم الخاص بعد اعتبار اموره المشتركة ملغاة واموره الخاصة معتبرة • فكما اننا ــ حين نقول الانسان ــ نسقط من حسابنا : ان هذا الانسان حيوان ، ونام ، وجسم ، وموجود ، ونركز نظرنـا على الخصوصيات الانسانية التي فيه ــ فاننا حين نقول الانسان : نريد ان نلغي عمومية الانسان منه ونركز على خصوصية وجوده وحتى في ذلك الوقت نحن نضطر الى الغاء خصوصياته الاخرى مثلا انه طفل او كهل ، حتـى او ميت ، رئيس او مرؤوس ، وهكذا ••

والحقيقة ان هذا البحث يشكل زاوية مهمـة من البحث ، اذ اننا نعلم ان التصورات تلعب دورا بارزا في تشكيل القضيـة الاستدلالية • ونعلم من جهة ثانيـة ان التصورات لها جانبـان : المفهوم والمصداق ، فيبقى السؤال اي واحد من هذين الجانبين ذات اهمية كبرى في عمليات الاستدلال المفهوم او المصداق • بهذا قال فريق وبذاك قال فريق والواقع ان حقيقة العلم هو الكشف عن الواقع الخارجي وهو الـذي ينفعنـا في الكشف عن امور جديدة ، لذلك فالمصداق ذات قيمة اساسية في الوصول الى الحكم الصحيح • ونوضح هذه الفكرة بنقـاط هي ايضا توضـح العلاقة بين المفهوم والمصداق •

(١) المفاهيم مقتبسة من المصاديق لا العكس فلوجود فوارق مميزة بين مصداق الانسان (اي بين الانسان الخارجي) وبـين مصداق القرد اصبحت لكل واحد منهما صفات مميزة وبالتالي مفهوما محددا مختلفـا عن مفهوم الآخر ولذلك حين نقـول الانسان ناطـق لا نقصد مفهـوم الانسان الا بقدر ما يعكس مصداقه الخارجي •

٢ ــ وصحيح ان كلمة الانسان لم تصدق على الانسان الخارجي الا بعد ان تميز في اذهاننا عن القرد وبالتالي بعد ان حددناها اخترنا لها

مفهوما محدداً • الا انه لم تصدق كلمة الانسان ــ بعدئذ ــ على ذلك المفهوم الذهني ، بل على ما ورائه من مصداق خارجي ولم تكن المفهوم الا طريقا مؤديا اليه !

وما دامت البشرية كانت مشغولة بالمفاهيم دون المصاديق فان علومه قد تجمدت والعلوم الطبيعية قد حققت التقدم في ميادينها المختلفة بفضل التفسير الكمي اي بعد ان قامت ابحاثها على اساس المصداق ، لا على اساس المفهوم الذي يسمى ، بالتفسير الكيفي • الا ان التفسير الكمي لا ينحي تنحية تامة الجانب الكيفي [1] •

وقد صدق (جان مارتيان) حين قال : لا يعني نظرنا للتصور من جانب ما صدقه اننا نسلبه مفهومه او نعتبره مجرد مجموعة من الافراد اننا لو فعلنا ذلك لقضينا عليه كتصور •

واضيف الى قوله اننا حين نفعل ذلك نجعل التصور في مكانه المناسب وهو ان يكون مجرد رمز يشير الى واقع خارجي !

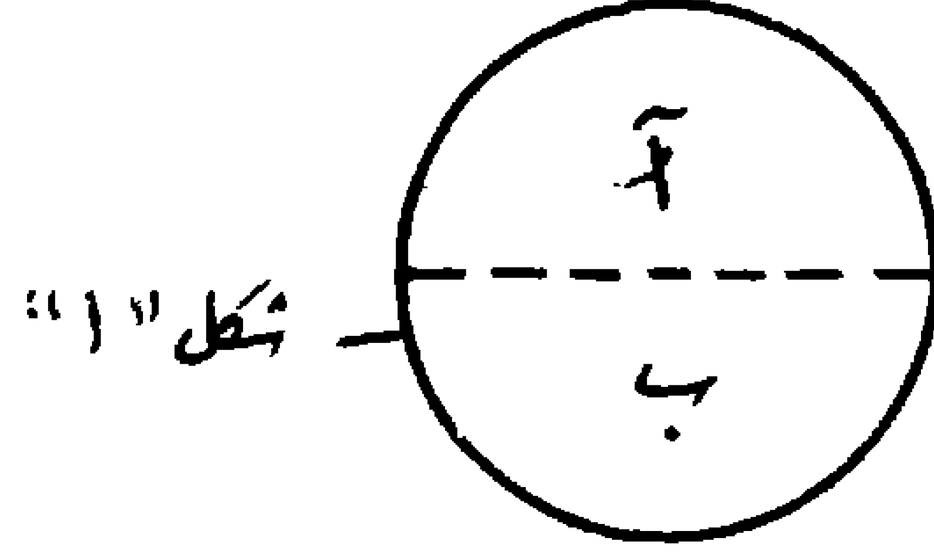
١٢ ــ علاقة التصورات ببعضها • ما هي علاقة تصور بآخر ــ وبالتالي ما هي علاقة مصداق بآخر ، قد يكون واحدا من خمس علاقات •

الف ــ التساوي • باء ــ علاقة الكبير بالصغير • جيم ــ علاقة الكل بالجزء • دال ــ علاقة الفرد بالفرد • هاء ــ علاقة الكلي بالكلي •

---

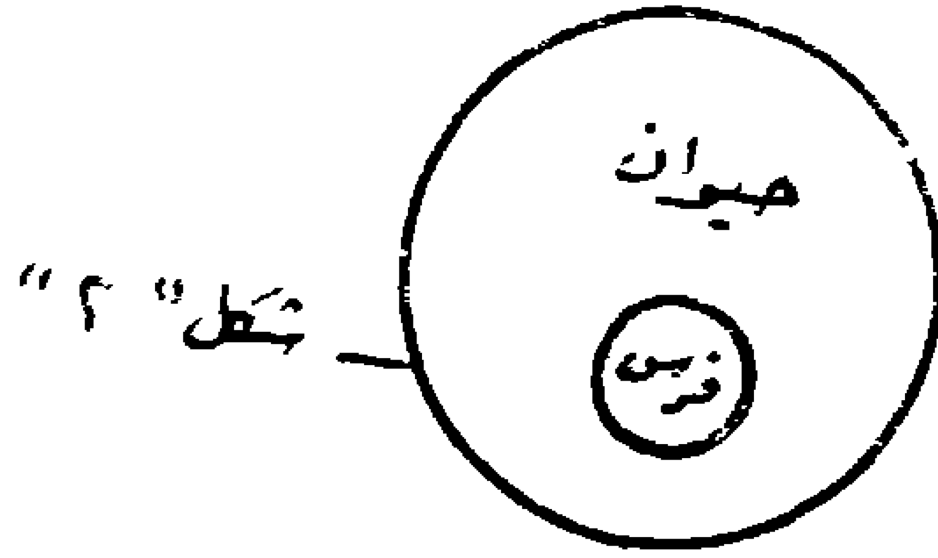
(١) اعتقد ان التفسير الكيفي هو التفسير الكمي ولكن في مرحلة غامضة منه كما ان التفسير الكمي لا يعدو ان يكون تفسيرا كيفيا واضحا . فمثلا : اختلاف نسبة الاحرار في اللون قد تكون واضحة فنقول . احمر بنسبة ٥٠٪ او بنسبة ٥٪ ولكن قد تكون غير واضحة فنقول شديد الحمرة او خفيف الحمرة فالشديد والخفيف هو تفسير كيفي بينما النسبة تفسير كمي ولا يفرقان الا في امر واحد هو وضوح النسبة وعدم وضوحها .

وقد وضع شوبنهاور دوائر لتوضيح هذه العلاقات ببعضها توضيحا كاملا : والدوائر هي التالية •



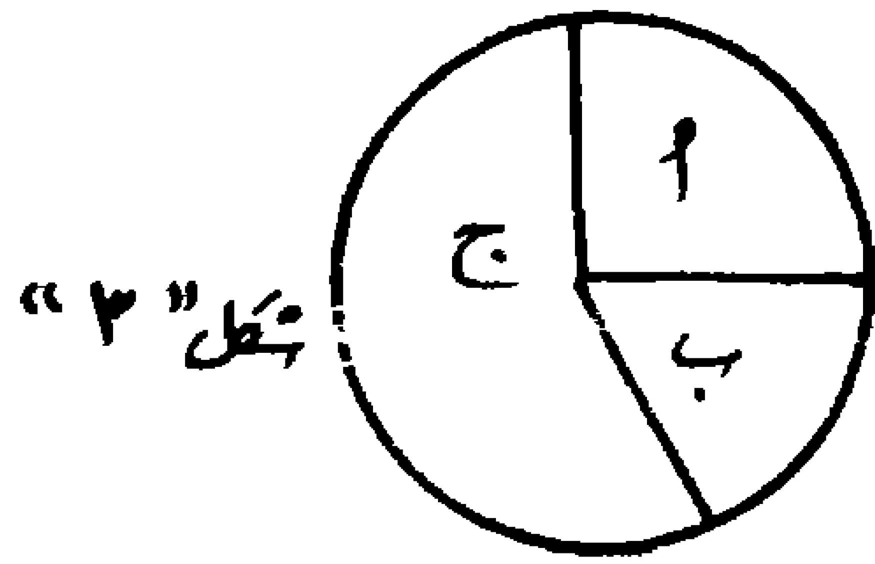
الشكل « ١ »

ان علاقة (ألف) بـ (باء) علاقة متساوية ومثاله النار والحرارة •



الشكل « ٢ »

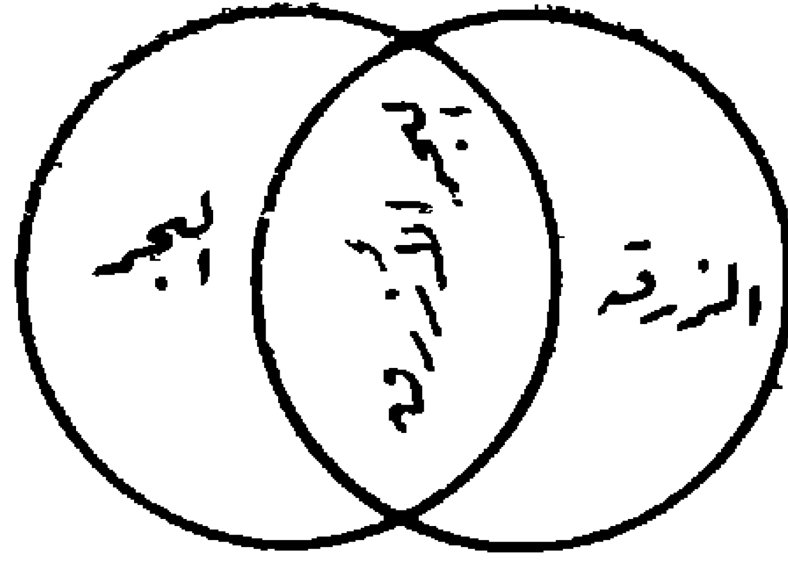
الدائرة الصغيرة بعض الدائرة الكبيرة ــ الدائرة الصغيرة لا تشمل كل افراد الدائرة الكبيرة ولا عكس •



الشكل « ٣ »

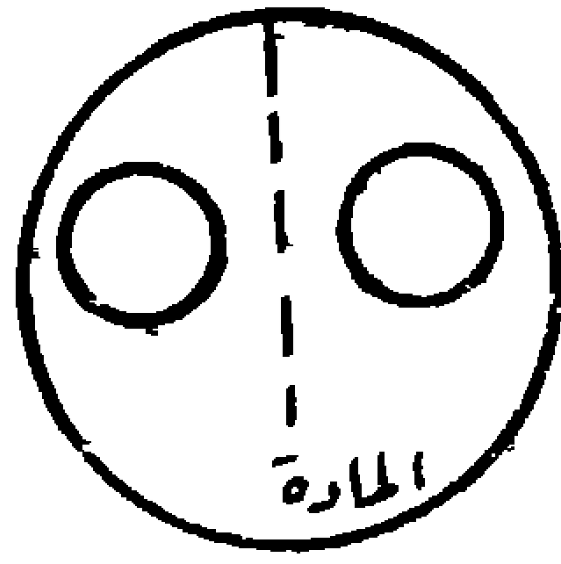
ان علاقة أ ــ مع ــ ب ــ علاقة الفرد بالفرد ولكنهما يندرجان بالنهاية في تصور واحد مشترك والزاوية الحادة والمنفرجة التي خلقها الخطوط ضمن هذه الدائرة • هي التصور الواحد المشترك بينهما

الشكل « ٤ »



ان علاقة الزرقة بالبحر علاقة الاجتماع مرة والافتراق مرتين عندما يكون البحر ازرق يجتمعان وعندما تكون السماء زرقاء توجد زرقــة ولا يوجد بحر وحين يكون البحر اسود يوجد بحر ولا توجد زرقة •

الشكل « ٥ »



علاقة التراب بالماء • علاقة الضد بالضد ولكن تجمعهما علاقة أكبر منهما تسمى بالمادة فكل واحد منهما جزء من المادة ، هذه العلاقات ذات اسماء اخرى في المنطق القديم ولكننا نعرض عنها ايجازا •

١٣ ــ الكليات الخمس • اذا اعتبرنا الحيوان بجميع انواعه مــادة لبحثنــا وموضوعا لحديثنا فان الانسان الذي هو بعض افــراده بعض بحثنا وبعض حديثنا • ولا بد ان يكون بين الانسان وبــين سائر اقسام الحيوان فوارق مميزة • هذه الفوارق قد تكون فوارق فاصلة حــاسمة واساسية • وقد تكون مجرد فوارق ظاهرية ، هذه الفوارق تشبه الــى حد بعيد الفوارق التي توجد بــين طوائف الانسان الهندي الآسيــوي والاوربي والافريقي مثلا • وهي ايضا فوارق اساسية وغير اساسية هذه الفوارق تسمى اذا كانت اساسية بـ فصلا لانها تفصل بين نوعــين مــن الانسان ، بينما اذا كانت تافهة تسمى عرضا • لانها لا تفصل بين نوعــين بينما فــوارق الانسان الاساسية مع سائر الحيوانــات تسمى « عرضا

عاما » اما الانسان ، فهو جنس ـ يحتوي على نوعين ، او اكثر ، من انواع الافراد ، بينما الحيوان ايضا جنس ، ولكنه جنس عام ، لانه اكبر من الانسان وهذا اساس تقسيمات الكليات الخمس التي نشير اليها فيما يلي :

١ ـ الجنس ـ وهو الشيء الذي يشمل عدة اشياء متنوعة كالانسان الذي يشمل الافريقي والآسيوي والاوربي .

٢ ـ النوع وهو الشيء الذي يشمل عدة افراد مثل الآسيوي ، ولكنه ـ في ذات الوقت ـ لا يشمل الافريقي والاوربي .

٣ ـ الفصل ـ وهو الفارق الاساسي الذي يفصل بين الانواع ، مثل الارض (آسيا) التي تفرق بين نوعين من البشر .

٤ ـ الخاصة ـ وهو الفارق غير الاساسي الذي يميز بين نوعين مثل التحدث واللون .

٥ ـ العرض العام ـ وهو الفارق الذي لا يميز ابدا نوعا ، عن نوع ، لا من قريب ولا من بعيد ، فلو قلنا مثلا : الانسان الافريقي يتكلم فهو بالطبع لا يميز الافريقي عن غيره ، بل هو مجرد عرض عام او صفة تلحق الانسان ، والجنس كما سبق قد يكون جنسا عاما مثل الحيوان ، نسبة الى الآسيوي ، وقد يكون جنسا قريبا ، مثل الانسان بالنسبة الى الآسيوي [1] .

---

(١) مبدأ التفكير في وضع الكليات الخمس كان الزعم بان الفوارق التي تفرق بين شيء وآخر فوارق ثانية وفاصلة . وكان في هذا التفكير كثير من الجهل . والذي نعرفه اليوم هو : ان الاجناس تتعرض بالدوام للتطور والتغيير ، وانه لا يفصل عن بعضها خطوط وهمية ، نسميها بالتعاريف ، مهما تكن دقيقة وعلمية ، وانه لا يمكن ان ندعي اننا عرفنا اي شيء حتى نضع له تحديدا وتعريفا تاما ، كما كان يدعي منطق آرسطو الشكلي قديما . (لمزيد من الاطلاع راجع مقدمة كتابنا هذا) .

١٤ ــ التعريف ــ اقسامه وشروطه . ما هو التعريف ؟ انــه تعبير آخر عن المعرف واوضح واكثر تفصيلا واقرب معرفة والتعاريف تختلف قربا وبعدا اكملها اكثرها فائدة وتحقيقا للهدف منها وهو معرفة الانسان.

والتعريف الحقيقي للاشياء غير ممكن اذ ان العلم بحقيقة الاشيــاء غير ممكن واذا امكن فــلا يمكن التعبير عنــه بوضوح كــاف . الا ان التعريف يهدف منه المساعدة في معرفة الاشياء ، والتعريف الــذي يحقق هذا الهدف يعتبر اكثر كمالا من غيره ، سواءا كان تعريفا بالاشارة ، او بالمرادف ، او بالاقل ، الا ان المناطقة قسموا التعريف اقساما نجري عليها ، لانها تمثل ــ في الواقع ــ شرحا لغالبيــة التعاريف الناجحة ، وان كنــا ننتظر ان يتقدم العلم في هذا الحقل بالذات ليجد تعاريف افضل وشروطا اوفر .

اقسام التعريف

١ ــ الحد التام ــ وهو التعريف المشتمل عــلى الجنس القريب ، والفصل القريب ، فعند تعريف الانسان تقول : الانسان حيوان عاقل ، او مدني بالطبع ، او ما اشبه .

٢ ــ الحد الناقص ــ وهو التعريف الشامل للفوارق المميزة بــين الشيء ، وسائر الاشياء ، ولكن لا تشمل جميع الخصائص الذاتية فيه ، مثل تعريف الشيء بالفصل القريب ، والجنس البعيد ، كما تقول : الانسان ــ جسم ناطق . فانه لا يشمل الخصائص الحيوانية الذاتية التي شملهــا التعريف السابق .

٣ ــ الرسم التام ــ وهو التعريف الـذي يشمل بعض خصائصه ومميزاته مضافا الى الصفة الذاتية غير الفاصلة بينه وبين سائر الانواع مثل ان نقول الانسان حيوان ضاحك ، اذ الحيوانية تستعمل خصائص الانسان الذاتية ولكن الضحك ليس فصلا ذاتيا للانسان بل هو خاصة ٠

٤ ــ الرسم الناقص يشبه الرسم التام في انه يبـين بعض خصائص الانسان غير الذاتية ، وغير الفاصلة ، مثل الضحك ولكنه يفترق عنه في ان الرسم الناقص لا يشمل خصائص الانسان الذاتية مثل الحيوانية فهو كان يقول الانسان ضاحك او جسم ضاحك ففي الرسم الناقص لا تبين حيوانية الانسان وهي التي تشمـل خصائصه الذاتيـة ولا يبن نطقه وهو فارقه الفاصل ٠ (فصله) ٠

٥ ــ التعريف بالاشارة مثل ان نقول الانسان هو هذا ونشير الى رجل يسعى بين ايدينا ٠

٦ ــ التعريف بالمثال ــ مثل ان نقول الانسان مثل زيـد وعمـر ومحمد و٠و٠

٧ ــ التعريف بالمرادف مثل أن نقول الانسان بشر ٠

شروط التعريف

١ ــ اول الشروط الا يكون المعرف اضيق من المعرف ففي تعريفنا للانسان ، اذا قلنا انه حيوان يقود السيارة فان تعريفنا اضيق مما نريـد تعريفه فهو ناقص ٠

٢ ــ الا يكون التعريف اوسع مــن المعرف فاذا قلنــا في تعريف الانسان بانه جسم حي كان ناقصا • والتعريف الكامل هو القول بانــه حيوان ناطق لانه لا اضيق من المعرف ولا اوسع منه ، وانما مساو له تماما ويعبر المناطقة عن هذين الشرطين بالقول ان التعريف يجب ان يكون جامعا مانعا اي جامعا لافراد الماهية ومانعا عن الافراد التي ليس منها •

٣ ــ الا يدخل في التعريف ذات المعرف ، او جزء اساسي منه، فاذا عرفت الانسان : بانه حيوان انساني ، فقد اخطأت التعريف وهكــذا لو قلت في الاجابة على هذا السؤال : ما هو العمارة ذات طوابق ؟ فعرفتهــا انها بناية ذات طوابق •

٤ ــ الا تستخدم في التعاريف كلمات غامضة تكون هي بدورهــا بحاجة الى معرف آخر ففي تعريفــك للنار لا تقل انها اسطقس فــوق الاسطقسات (كما عرفها بعضهم) •

٥ ــ الا يكون التعريف سلبيا فلا تقل في تعريف النهار انــه ليس بليل ، اللهم الا اذا كان المعرف (بالفتح) ذاته سلبيا فاذا اردت ان تعرف الظلام قلت انه ليس بضياء • وكذلك لو اردنا تعريف الايمان للكــافر وكذلك سائر الاشياء التــي تعجز اللغة من استيعابها كالاحساس بالحب والقلق والكراهية •

لو اردنا تعريف الايمان للكافر وكذلك سائر الاشياء التــي تعجز اللغة من استيعابها كالاحساس بالحب والقلق والكراهية •

بين القسمة والتصنيف

١٥ ــ حين تقول ان الانسان اما آسيوي او افريقي ، فانك تقــوم بعملية تقسيم ، بينما اذا قلت الآسيوي والافريقي من انــواع الانسان فانك قمت بعملية تصنيف والفرق انكَ في الحالة الاولى • فرقت بــين افراد او انواعفصيلة واحدة ، وفي الحالة الثانية جمعت صنفين تحــت

عنوان واحد ، والصعوبة الناشئة في هاتين العمليتين آتية من عدم معرفة خصائص الانواع معرفة تجعلنا نضعها فيما يماثلها بالضبط فانت لا تعرف خصائص سيارة مثلا : فلا تعرف هل انها من سيارات بيجو او فيات او فولكس فاذا عرفت خصائصها انتهت المشكلة .

ولقد ضرب احد الباحثين مثلا لذلك بعالم يملك مكتبة ضخمة ، يعرف بالضبط خصائص كل كتاب فيجعله مع ما يماثله من الكتب ولكنه اذا اعطي الخادم فرصة تصنيف الكتب ، فلانه يعجز عن معرفة خصائص الكتب ، فسوف يصنفها على اساس الاحجام او الالوان او اناقة الطبع ، او اي شيء آخر غير الخصائص الطبيعية لها .

لذلك كان علينا ان نبحث طويلا قبل ان نضع اي موجود ضمن اشباهه من النوع الواحد ، والتقسيم نوعان الاول العادي والثاني الثنائي [1] (ألف) وللتقسيم العادي قواعده الضرورية وهي :

١ ــ ان يكون اساس القسمة واحدا في كل خطوة فلو قلنا مثلا . الانسان اما آسيوي او افريقي لا نقول بعدئذ والآسيوي اما قارىء او جاهل ، اذ ان اساس القسمة بعدئذ في البند الاول كانت الارض (آسيا وافريقيا) وفي الثانية لا يجوز ان يكون صفات الافراد (الجهل والعلم) وهكذا . وهذا ما يتسبب في الاغلوطة المعروفة باغلوطة التقسيم المعترض.

٢ ــ ان تستنفذ الانواع الاعلى قبل ان ننزل الى الانواع الادنى ــ طبعا هذا شرط غالبي .

٣ ــ الا نتجاهل خطوة في التقسيم ، بل نحاول الهبوط خطوة فخطوة ، حتى نصل الى النتيجة السليمة .

---

(١) التقسيم العادي هو التقسيم حسب خصائص الاشياء حسبما مر منا في الامثلة المتقدمة بينما التقسيم الثنائي غيره ويأتي الحديث عنه .

باء ـ التقسيم الثنائي • التقسيم الثنائي يعني التقسيم حسب جانب من الخصائص على ان يكون الجانب الثاني نفيا لهذا الجانب وسلبا له • ومثاله الانسان اما آسيوي او افريقي وغير الآسيوي اما افريقي او غير افريقي وهكذا •• وهذا النوع من القسمة قليل الفائدة في الحقول العلمية اذ لا يحصل منه في نهاية الشوط الا ما يعرف سلبيا ، اي نصل بالنهاية ـ مثلا ـ الى ان انواعا من الانسان لا افريقي ، وهذا التعريف ناقص كما سبق •

ويجب ان يكون التقسيم طريقا لنا الى سرعة الفهم ، اما اذا سبب التقسيم مزيدا من التعقيد فهو مستهجن • لذلك يجب على الباحث ان يقتصر في التقسيم على الانواع التي تنقسم وفق اسس معقولة ومفيدة علميا •

١٦ ـ الاحكام والقضايا

الف ـ ما هو الحكم ـ ؟ لا يعني الحكم العلم بحقيقة شيء انما يعني : اعتبار القضية انها قد انتهت عند حده ، وكانها وصلت الى شاطىء العلم ولذلك فاننا نحكم باشياء مظنونة ، بل نحكم باشياء خاطئة لاسباب فنية • كان نريد ان تتعرف على نتيجتها •

وهكذا يكون الحكم • هو نهاية مرحلة فكرية تعتبر ولاسباب ذاتية او موضوعية ، وكأن القضية أصبحت معلومة ، ومنتهية من البحث •

ويأتي الحكم مرتبا على نتيجة احكام اخرى مهما كانت عناصر الحكم بسيطة ، فاذا قلنا مثلا ، السكر حلو • فهو حكم يأتي نتيجة تصورين لا اكثر ، ولكنه في الواقع ناشيء من احكام اخرى هي ، مثلا ان الحلو هو احساس شيق مصدره شيء خارجي وموقعه طرفي اللسان، وان السكر شيء ابيض يتخذ من قصب وهكذا •

كما يصبح الحكم تصوراً • في احكام جديدة • ولهـذا الارتبـاط الموجود بين التصورات لا يمكن ان نزعم ان الاحكام كلها تامة وحقيقية بل ولا واحدة منها •

والقضية هي المرحلة النهائية التي تصلنا الى الحكم •

فالقضية كانها ترتيب للعناصر بحيث تورث اعتباراً حكمياً •

باء ـ اقسام القضايا يقسم المنطق الشكلي القضية الى كلي وجزئي وسالب وموجب ويضع لكل واحد منها اسما ورمزاً • نصطلح عليهما ايضا وهي حسب الترتيب •

١ ـ القضية الكلية الموجبة مثالها • كل انسان فان • ورمزها (ك) ورمزها باللغة اللاتينية . A ـ والكلمـة • المفضلة الدالـة عليها غالبا (كل) •

٢ ـ القضية الكلية السالبة مثالها ليس الانسان بجماد رمزها (ل) و (E) والكلمة الدالة عليها (لا) •

٣ ـ القضية الجزئية الموجبة مثالها : بعض الانسان كـانت رمزها (ب) و (P) والكلمة الدالة عليها بعض ،

٤ ـ القضية الجزئية السالبة مثالها : ليس بعض الناس علمـاء • ورمزها (س) و (O) والكلمة الدالة عليها (ليس بعض) •

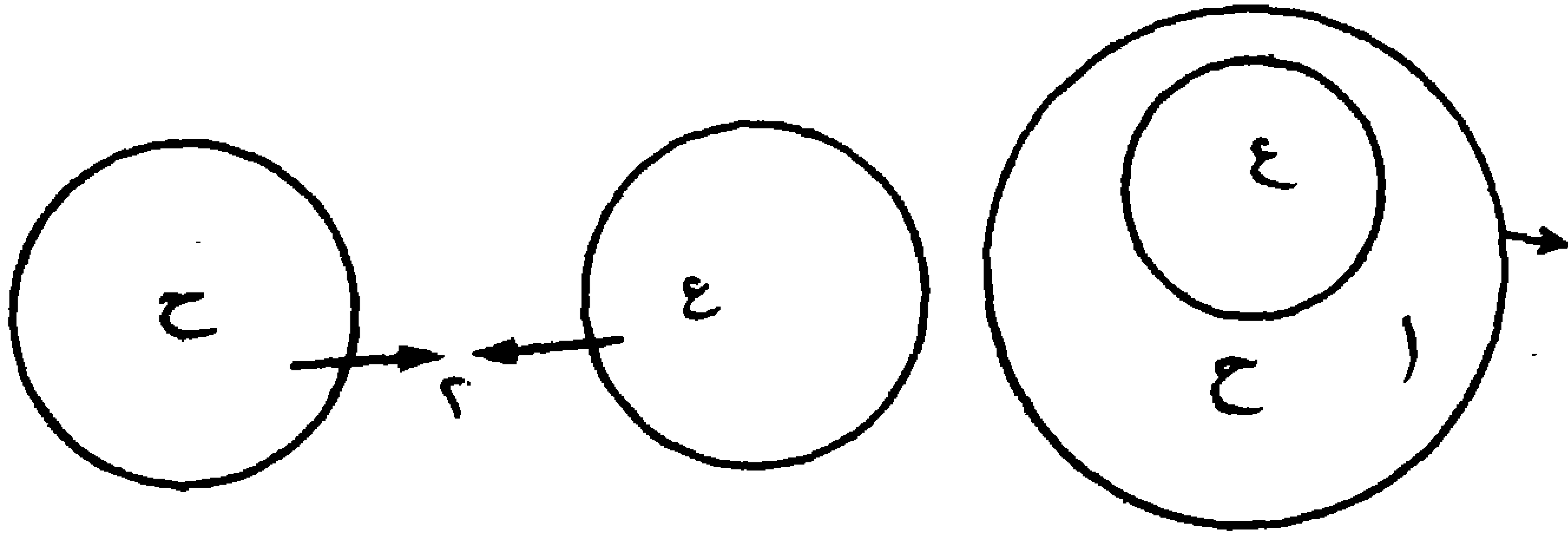
وفيما وراء هذه الاقسام الاربع للقضايا ، يوجـد قسمان آخران يندرجان بالتالي تحت واحدة منها ، وهما (الف) القضية المهملة وهـي التي لم يصرح في عبارة القضية بطبيعتها مثل ان نقول : الانسان ميـت والانسان يكتب • ومرد هذه القضية ـ في الواقع ـ الى احدى قضيتين اما الكلية ، او الجزئية ، ففي الواقع كل انسان يمـوت وبعض الانسان

يكتب (باء) القضية الشخصية مثل : علي بن ابي طالب امام ، وهـذه قضية كلية في حدود الموضوع اي كل علي بن ابي طالب (أي علي أقصده) امام • فليس هو امام في بعض حالاته •

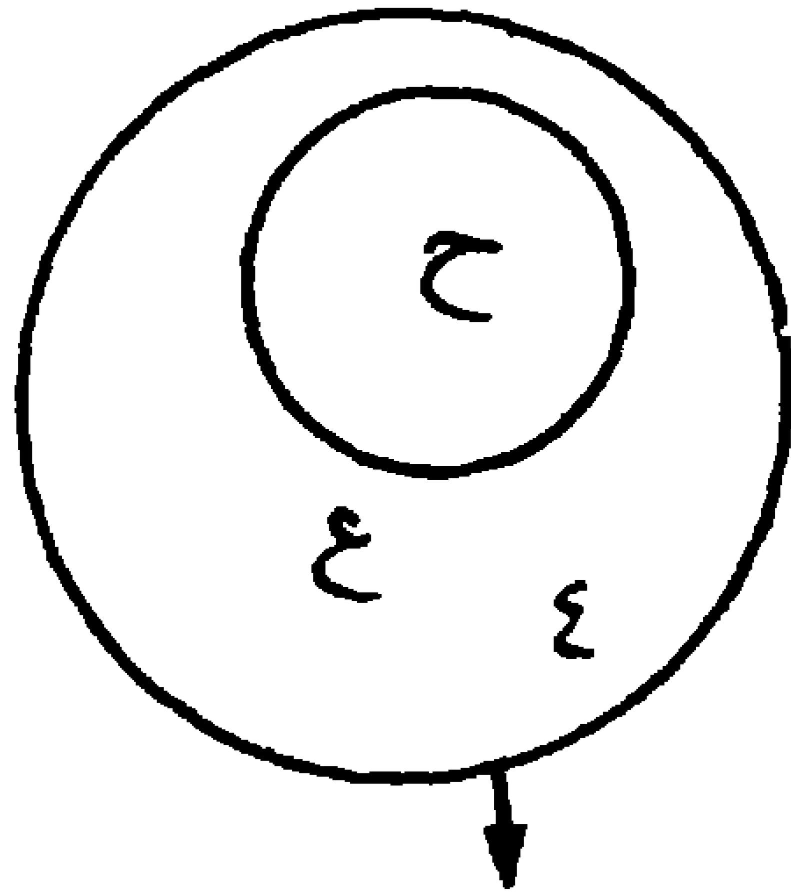
١٧ ــ الاستغراق • استغراق التعريف في معناه : ان تشمل الكلمة كل افرادها في المقصود ، فمثلا لو قلنا الانسان فان يجب ان يكون كـل افراد الانسان داخلا في حكم الفناء ، اما العكس اي هل يجب ان يكون كل فان هو انسان ــ فلا • اذ ان الاستغراق • انما هو في المـوضوع ، وليس في المحمول ، فليست الجملة هكذا كل انسان كل فان • ومثـل هذا نجده في القضية السالبة الكليـة ففي القول لا بحر عذب ــ نجـد الاستغراق في كلتا الناحيتين ناحية •• الموضوع والمحمـول معا • اذ لا بحر عذب ولا عذب بحر فكل بحر مر • وكل عذب ماء • غير بحر وهكذا بينما في القضايا الجزئية الموجبة نجد العكس من هذا تماما ، فلا الحكـم ولا الموضوع مستغرقان في بعضهما فحين نقول بعض الناس ماتوا لا يعني شمول الموت ، للناس (اذ بقي بعضهم احياء) كما لا يعني شمول الناس للموت اذ يشمل الموت غير الناس ايضا (اذ بعض الحيوانات ايضا مات) وفيما يخص القضية الجزئية السالبة (س) بعكس القضية الكلية الموجبة اذ انها بحكم جزئيتها لا تستغرق في الموضوع وبحكم انها سالبة تستغرق في المحمول (اذ كل نفي مستغرق في ذاته) وكمثل اذا قلنا : ليس بعض الناس كتابا • ففيما يخص الناس ــ لا يصدق بالطبع عليه الحكم كليا • اذ بعض الناس ايضا كتاب • اما فيما يخص الكتاب ، فالحكم النـافي منسحب ، تماما • على هذا البعض بمعنى اننا ننفي كل نوع من الكتابـة عن هؤلاء ، فاذا كان هذا البعض يعرف ــ مثلا ــ نوعا من الكتابة فهل تصح القضية ؟ طبعا لا •

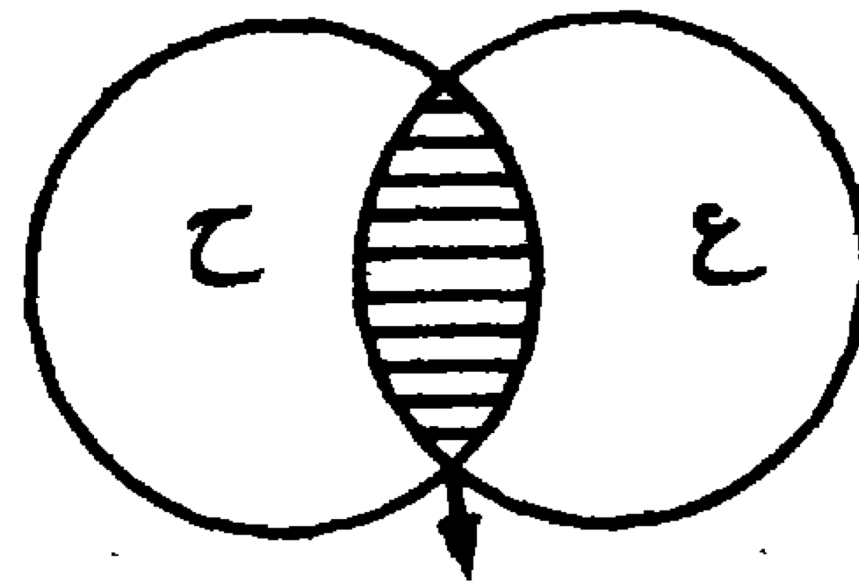
وقد قــام (اويلز ١٧٠٧/٨٣) برسم دوائر تمثــل الاستغراق او عدمه .

القضية الكلية
السالبة
ل - E



القضية الجزئية
الموجبة ـ ب ـ I





ك - A
القضية الكلية
الموجبة

س ـ ٥
القضية الجزئية السالبة

الملاحظ : ان الموضوع مستغرق في الدائرة الاولى في المحمــول بينما المحمول يشمل على مساحات لا يصل اليها حدود الموضوع .

بينما في الدائرة الثانية كل منهما يستغرق كل الدائرة ، وفي الدائرة

الثالثة لا يستغرق اي واحد منهما الثانية بل يتحدان في جزء واحد فقط •
وفي الدائرة الاخيرة المحمول ـ يستغرق الموضوع بينما لا يستغرق المحمول بعكس الدائرة الاولى •

القضية الشرطية

١٨ ـ القضية الشرطية حين نربط موضوعا بحكم • نسمي العملية بقضية حملية • بينما لو ربطنا القضية بالقضية سميناها قضية شرطية فاذا قلنا الشمس طالعة • كانت قضية حملية كذلك لو قلنا النهار موجود كانت قضية حملية أخرى اما لو قلنا : اذا كانت الشمس طالعة فالنهار موجود كانت قضية شرطية • القضية الشرطية هي : قضية مركبة من قضيتين حمليتين ـ على الاقل ـ تكون احديهما شرطا لوجود الاخرى •

والقسم الاول ـ من هذه القضية يسمى مقدما والقسم الثاني يسمى تاليا •

والقضية الشرطية تنقسم بدورها الى نوعين متصلة ومنفصلة :

ألف ـ القضية الشرطية المتصلة : وهي التي يكون المقدم شرطا في وجوب الثاني •

باء ـ القضية الشرطية المنفصلة : وهي التي يكون وجود المقدم سببا لعدم وجود التالي مثلا : العدد اما زوج او فرد وصورة القضية في الاصل هكذا اذا كان العدد زوجا فلا يكون فردا • واذا كان فردا فلا يكون زوجا وهكذا •

اقسام الشرطية المنفصلة

ويقسم المناطقة القضية الشرطية المنفصلة ـ الى عدة اقسام هي التالية :

ألف ــ انفصال النقيض (ويسمى مانعة الجمع والخلو) مثــل : الناس اما مؤمنون او كافرون ٠

فلا يمكن ان يوجدا معا ولا يمكن ان يعدما معا ٠

باء ــ انفصال الضد ٠ (ويسمى مانعة الجمع) مثل ان نقول ذهب فلان اليوم اما الى بيروت او الى لندن ــ فلا يمكن ان يوجدا معا ولكن يمكن الا يوجدا معا مثل ان يكون فلان قد ذهب اليوم الى باريس ٠

جيم ــ انفصال الند (ويسمى مانعة الخلو) مثل : تعلم اما النحو او الرياضيات فلا يمكن ان لا تتعلم واحدا منهما في الوقت الذي يمكن ان تتعلم الاثنين معا ٠

١٩ ــ الاحكام بين تحليلية وتركيبية ٠ قسم بعض المناطقة الاحكام الى تحليلية وتركيبية وذلك :

ألف ــ في المثل : الجسم ممتد هنا الحكم تحليلي ، لانه لا يعطينا فكرة جديدة ، بل يوضح لنا طبيعة الموضوع وكذلك قولنا الواحد نصف الاثنين والانسان يشبه الانسان ، وهكذا ٠٠

باء ــ في المثل : الجسم ذات جاذبية ٠ الحكم تركيبي لان الجاذبية ليست من مفهومات الجسم ولا من موضحاته بل من الصفات التي لا بد ان نفهمها من الخارج ونحملها على الجسم ٠

والتعاريف ــ وان كانت بصيغة القضية ــ فهي احكام تحليليــة ، وليست بذات قيمة علمية ، لانها لا تزيدنا معرفة جديدة ٠

٢٠ ــ تقابل القضايا ٠ عرفنا فيما سبق ان القضايا على انواع:سالبة وموجبة كلية وجزئية ٠ فما هو وجه الصدق والكذب بينهما ٠٠ بمعنى انه اذا صدق احديهما ــ فاي واحدة ٠ تصبح كــاذبة وايها تصبح مجهولة وايها تصبح صادقة يقينا ٠

لكي نعرف هذا التقابل لا بد ان نمثل له مثلا • واضحا ومعروفا • المثل :

١ ــ (كل انسان ناطق) نحن نعلم ان هذه قضية كلية موجبة• ولكن يمكن ان نفترض وجوها اخرى لها بالضبط :

٢ ــ ونقول : بعض الانسان ــ ناطق (موجبة جزئية I ــ ب) •

٣ ــ ونقول : ليس من الانسان ــ بناطق (سالبة كلية/ل) •

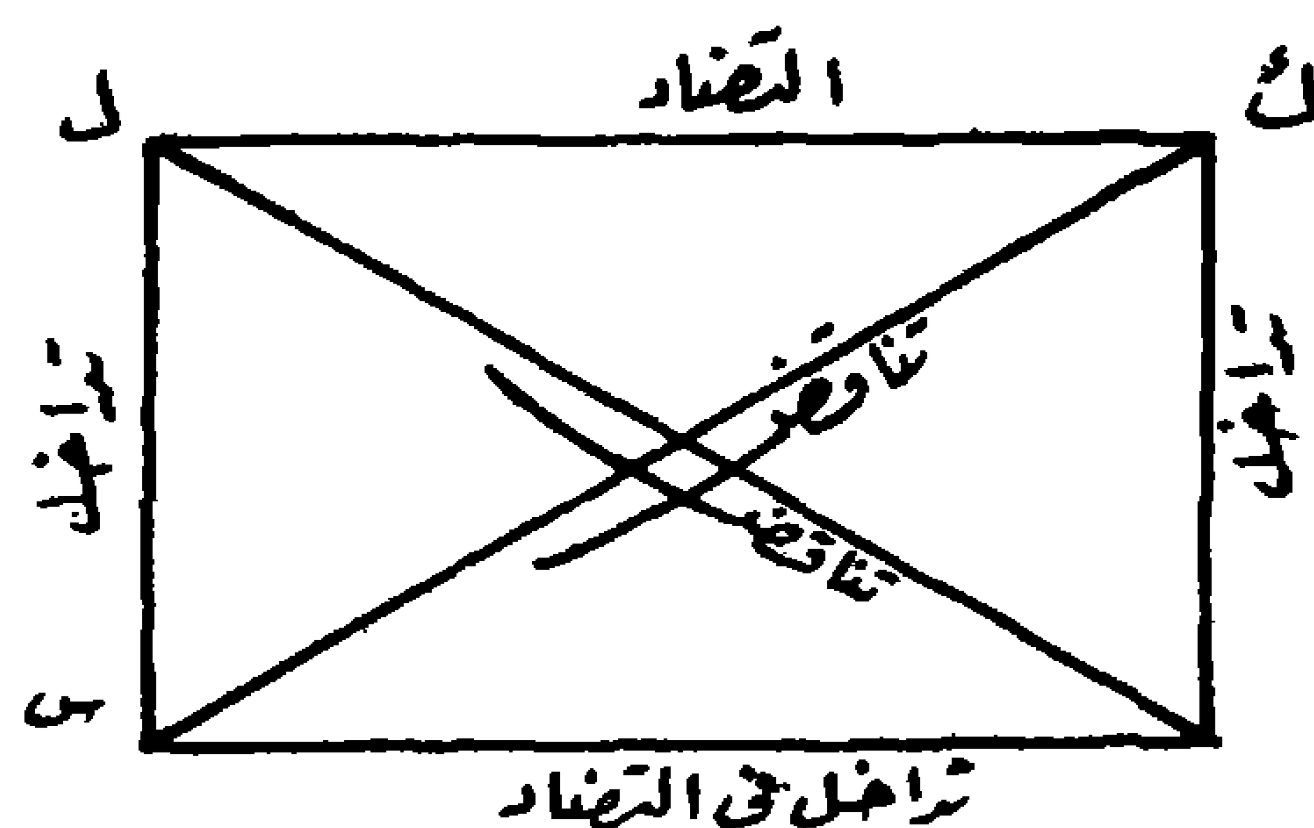
٤ ــ او نقول : ليس بعض الانسان ــ بناطق (سالبة جزئية/س) •
من هذه الامثلة الاربع نستطيع ان نعرف درجة التقابل بينها • فحيث ان المثل الاول صحيح فالمثل الثاني صحيح ايضا • اذ ان الكل يحتوي على الجزء ويزيد عليه فالموجبة الجزئية جزء من الموجبة الكلية •

ولكن هل العكس ايضا صحيح اي هل الموجبة الكلية جزء من الموجبة الجزئية ؟ طبعا لا • ولذلك ليس دائما يتفقان في الحكم • فاذا قلنا مثلا : بعض الناس مجانين ، فهل نستطيع ان نحكم ان كلهم مجانين ؟ طبعا لا ولكن ، يبقى الاجزاء الباقية غير معروفة لنا : ولذلك فانه اذا اصبحت الموجبة الجزئية صحيحة تصبح الموجبة الكلية مجهولة وعندما نفترض جدلا صحة هذا الفرض : ليس من الانسان بناطق فمن المؤكد انه يتنافى مع قولنا كل انسان ناطق (اي ان السالبة الكلية تتنافى مع الموجبة الكلية) والسؤال : هل انها تتنافى ايضا مع القول : بعض الانسان ناطق؟ الجواب نعم اذ ليس من المعقول الا يكون اي واحد من افراد الانسان بناطق (كما هو مفهوم القضية السالبة الكلية) • ثم يكون بعض الانسان ناطقا ، اذا السالبة الكلية تتنافى مع الموجبة الجزئية •

يبقى ان نعرف انه اذا كان بعض الناس فقط ليس بناطق فماذا تكون النتيجة : النتيجة اننا لا نعرف آنئذ حالة البقية من القضية اي انه هل ان

(بعض الناس ناطق) صحيح ام لا ؟ لا يفهم هذا من القضية ، وايضا : هل ان (ليس من الانسان بناطق) صحيح ام لا ؟ ايضا لا نعرف ، فتكـون النتيجة اذا كانت السالبة الجزئية صحيحة ، فان الموجبة الجزئية،والسالبة الكلية ، قد تكونان صحيحتين ايضا ، وقد تكونان باطلتين •

ونذكر في المربع التالي شكل تقابل القضايا •



والجدول التالي يبين بوضوح اكثر عناصر هذا الشكل •

١ ــ اذا كانت الكلية الموجبة (ك) في قضية صادقة مثل (كل انسان ناطق) فان السالبـة الكلية (ل) فيها كاذبة مثـل (لا انسان بنـاطق) بينما الموجبة الجزئية (ب) صادقة مثل (بعض الانسان ناطق) اما السالبة الجزئية (س) فهو كاذبة ايضا مثل (بعض الانسان ليس بناطق) •••

اذا ــ ك ــ صادقة ــ ل كاذبة ب صادقة س كاذبة •

٢ ــ واذا كانت الكلية السالبة (ل) في قضية صادقة مثل (ليس من الانسان بحمار) فان الكلية الموجبة (ك) كاذبة بالطبع مثل (كل انسان حمار) وكذلك الموجبة الجزئية (ب) كاذبة (بعض الانسان حمار) بينما الجزئية السالبة (س) صادقة مثل (ليس بعض الانسان بحمار) •

اذا : اذا كانت ل صادقة •• ك كاذبة ب كاذبة س صادقة •

٣ ــ اذا كانت الجزئية الموجبة (ب) في قضية صادقة مثــل (بعض الناس ادباء) فان الكلية الموجبة (ك) مجهولة اذ لم يذكر في النص هــل (ان البعض الآخر ادباء ام لا) فلا نعلم بالتالي : هل صحيح كل النــاس ادباء ام لا بينما بالتأكيد السالبة الكلية (ل) كاذبة مثل : (ليس من الناس بأديب) اما السالبة الجزئية (س) فلا نعلم امرها كذلك فلا نعلم هل صحيح (بعض الناس ليسوا بادباء ؟) .

اذا ــ ب صادقة .. ك مجهولة ل . كاذبة س مجهولة .

٤ ــ اذا كانت الجزئية السالبة (ب س) صادقة مثل .. ليس بعض الناس قادة ــ فان الكلية الموجبة (ك) كاذبة مثل كل الناس قادة ــ بينما الكلية السالبة (ل) مجهولة فلا نعلم هل صحيح ليس من الناس بقادة ام لا ... (وطبعا لم يذكر ذلك في متن القضية) وكذلك الجزئية الموجبــة ــ فهي مجهولة ايضا فلا نعلم : هل ان بعض الناس قــادة ام لا اذا : ــ ب س صادقة . ك كاذبة ل مجهولة ب مجهولة .

هذا عن القضايا الصادقة ويعرف منها القضايا الكاذبة وعلاقتهــا بالصادقة وغيرها والجدول التالي يختصر ذلك :

اذا كانت :

١ ــ ك .. كاذبة .. ل .. مجهولة ب مجهولة س صادقة .
٢ ــ ل .. كاذبة .. ك مجهولة ب .. صادقة س .. مجهولة .
٣ ــ ب .. كاذبة ل كاذبة ل .. صادقة س .. صادقة .
٤ ــ س .. كاذبة .. ك صادقة ل كاذبة ب .. صادقة .

القسم السابع عن مناهج القياس

البحث الثاني عن :

الاستدلال أقسامه وشروطه

- الاستدلال المباشر (نقض المحمول / العكس المستوي/عكس النقيض مخالف او موافق . النقض التام ونقض الموضوع /الفائدة المتوخاة من الاستدلال المباشر)
- الاستدلال غير المباشر (مصطلحات القياس/شروط القياس/كم الاقيسه شروط الكيف)
- الاشكال الاربعة (انواع الاشكال الاربعة شروط الشكل الاول/شروط الشكل الثاني/شروط الشكل الثالث/شروط الشكل الرابع)

الاستدلال المباشر

حين نستنتج من قضية واحدة فقط ـ قضية اخرى نسمي العملية (الاستدلال المباشر) وحين نستنتجها من قضيتين او أكثر نسميها (الاستدلال غير المباشر) •

الف/الاستدلال المباشر

كشرط اساسي في اي استدلال ينبغي رعاية هذا الامر الا يكون في القضية المستدل اليها شيء زائد عن القضية المستدل منها ـ وبالتالي (لا يكون المدعي أكثر من الدليل) •

فاذا كان في القضية (آ) استغراق يمكن ان يكون في القضية (ب) استغراق كما يمكن بالطبع الا يكون استغراق اما اذا كانت القضية (آ) مستغرقة فهل يمكن ان تكون القضية (ب) مستغرقة بالطبع لا •

وينقسم الاستدلال المباشر قسمين ـ نقض المحمول ـ العكس المستوى :

الف ـ نقض المحمول :

مع مراعاة شروط ثلاثة • نستطيع الحصول على نقض المحمول وهي :

١ ـ ان تكون القضية قضيتان مُتحدتي الموضوع والمحمول •

٢ ـ ان يكون محمول الثانية نقيض المحمول في الاولى (اضافة لا مثلا الى المحمول في الثانية او حذف لا هذه) •

٣ ــ ان ينعكس كيف القضية من الاولى الى الثانية ففي الاولى اذا كانت ايجابية تكون الثانية سالبة ! والمثل يأتي آنئذ كالتالي وبالترتيب •

الف ــ الانسان ناطق

(باء) (ليس من) الانسان) لا) ناطق •

والتعريف المنطقي لهذه العملية هو : النقض في المحمول وهو : استدلال مباشر تتوصل به من قضية الى قضية اخرى محمولها نقيض المحمول الاصلي •

والامثلة التالية توضيح لهذه العملية :

١ ــ كل مجتهد مثاب (ك) لا مجتهد غير مثاب (ل) •

٢ ــ لا مجرم هارب (ل) كل مجرم غير هارب (ك) •

٣ ــ بعض الناس ادباء (ب) ليس بعض الناس غير ادباء (س) •

٤ ــ ليس بعض الناس ادباء (س) بعض الناس غير ادباء (ب) •

ان الشروط الآنفة الذكر قد توفرت جميعا في هذه القضايا ، فالموضوع والمحمول متحدان في الشطرين ، والمحمول في الثانية ــ منقوض (غير مثاب ــ غير هارب ــ غير ادباء ــ غير ادباء) (وكيف القضية) [1] متحول مع الاحتفاظ بشرط الاستغراق اي اذا امعنت النظر رأيت ان القضية الثانية من ناحية الافراد الذين تشملهم كالقضية الاولى تماما ! فالكلية تقابل الكلية • والجزئية تعاكس الجزئية وهكذا •

العكس المستوى

التعريف المنطقي لهذه العملية هو : العكس : استدلال مباشر ، تستدل فيه من قضية على اخرى ، بشرط ان يكون موضوع الثانيةمحمول

(١) كيف القضية يعني كيفيتها من ناحية النفي او الاثبات يعني انها نافية ام مثبتة .

الاولى » فالموضوع يكون ــ وفق هذا التعريف ــ محمولا في القضية الثانية ويكون المحمول موضوعا والشرط الاساسي هو ان نلاحظ الاستغراق في القضية الاولى في الموضوع والمحمول معا • فلا بأس بالعكس بدون اي تغيير في (كم) (١) القضية مثلا : لا راهب متزوج • لماذا لان القضية الاولى (ل) مستغرقة في الموضوع والمحمول معا • اذ ان النفي استغراق والقضية بذاتها (ل) قضية سالبة •

اما لو لم يكن كذلك ــ بل كان الموضوع فقط مستغرقا •• في المحمول دون العكس فلا نستطيع ان نعكس الا اذا غيرنا (كم) القضية اي بدلنا الكلية الى جزئية وكمثل كل انسان حيوان لا يكون عكسها الا (بعض الحيوان انسان) •

والموجبة الجزئية غير مستغرقة لا في الموضوع ولا في المحمول فيمكن عكسها كذلك ــ بدون الاستغراق ــ مثلا : بعض افراد الانسان ــ ابيض نعكسها بعض ما هو ابيض انسان •

تبقى السالبة الجزئية لا يمكن ان نعكسها اذ ان المحمول حين يأتي مكان الموضوع ويدخل عليه النفي يصبح مستغرقا في الموضوع الذي يصبح آنئذ محمولا له ــ فيكون العكس اوسع استغراقا من اصل القضية وبالتالي يكون الاستدلال المباشر فاقدا لشرط المطابقة في الاستغراق •

مثاله : ليس بعض الناس • ادباء • عكسه • ليس بعض الادباء اناسا ؟ فهل هذا صحيح ؟ كلا •

لذلك قالت المناطقة ليس للسالبة الجزئية عكس •

---

(١) كم القضية يعني ناحية الاستغراق وعدم الاستغراق اي الجزئية والكلية في القضية .

امثلة العكس المستوى

القضية الاصلية

١ ـ كل عالم مثابر في عمله ـ (ك)
٢ ـ لا مؤمن متكبر (ل)
٣ ـ بعض العلماء فقراء (ب)
٤ ـ ليس بعض العلماء قادة (س)

القضية المعكوسة

بعض المثابرين في اعمالهم علماء (ب) ..
لا متكبر مؤمن .... (ل) ..
بعض الفقراء علماء .... (ب) ..
لا عكس لها ..

عكس النقيض مخالف او موافق

في القضايا السابقة . وجدنا شيئين : عكسا ونقضا ، فهل نستطيع ان نجمع بينهما لنحصل على العكس النقيض ؟ ان ذلك يستوجب منا عمليتين متلاحقتين الاولى : النقض الثانية العكس . وكمثل اذا كانت قضيتنا هذه (لا جبان جريء) فكيف يمكن نقضها ؟

(راجع القاعدة السابقة : ننقض المحمول ونغير كيف القضية) فكيف تصبح ؟: كل الجبناء غير جريئين (هذا مجرد نقض للقضية الاولى) ثم اذا اردنا عكس هذه القضية فكيف تصبح ؟ (راجع قاعدة العكس : اجعل المحمول موضوعا . ولاحظ استغراق القضية) اليس تصبح : بعض غير الجريئين جبناء . (باعتبار ان الكلية الموجبة تعكس بجزئية موجبة)

ثم اذا اردنا ان ننقض هذه القضية الاخيرة مرة اخرى . فكيف تصبح ؟ (راجع مرة اخرى قاعدة النقض) تصبح : ليس بعض غير الجريئين غير جبناء .

ماذا كانت القضية الاولى ألم تكن : لا جبان وجريء وماذا اصبحت لدينا بعد عمليات العكس والنقض المتكرر ؟ أليس (بعض غير الجريئين غير جبناء) لاحظ انهما متوافقتان من حيث السلب والايجاب ـ بينما القضية المعكوسة بالنقض كانت ايجابية . والقضية الاصلية سلبية . اذا : هناك مخالفة بينهما .

فالعكس بالنقض قسمان مخالف وموافق .

اذا : يمكننا ان نعكس القضية ، منقوضة المحمول ، وان ننقض محمول القضية ، المعكوسة ، فنعكس ثم ننقض ، او ننقض ثم نعكس ، وذلك لكي نحصل على اشكال جديدة من الاستدلال المباشر ، والجدول التالي يزودنا ببعض الامثلة الموضحة .

عكس النقض

القضية الاصلية
(ك) كل انسان ناطق (ح)
(ل) لا انسان قرد
(س) ليس بعض المرضى ادعياء
(ب) بعض المرضى ادعياء
عكس النقض المخالف
(ل) لا غير ناطق انسان (ك)
(ب) بعض غير القرد انسان
(ب) بعض غير الادعياء مرضى

عكس النقض الموافق
(ك) كل غير ناطق غير انسان
(س) ليس بعض غير القرد غير انسان
(س) ليس بعض غير الادعياء بغير مرضي
والسؤال لماذا لا ينقض عكس القضية الاخيرة ؟ للاجابة يجب ان نعرف انه حين ننقض هذه القضية نحصل على هذا الشكل (ليس بعض المرضى غير ادعياء) • وهذه جزئية سالبة وقد سبقت قاعدة تقول ان الجزئية السالبة لا عكس لها !

النقض التام ونقض الموضوع

بسبب عمليات النقض والعكس المتكررة • قد نصل الى قضية نرى ان موضوعها هو نقيض موضوع القضية الاصلية او حتى ان موضوعها ومحمولها نقيض لموضوع ومحمول القضية الاصلية • والاول يسمى بنقض الموضوع • والثاني يسمى بنقض تام • والطريق الى ذلك العكس والنقض المتكررين • لا فرق • انما بعض القضايا لا يمكن نقض موضوعها وليس لها نقض تام • كيف ذلك • لانه نصل فيها في بعض الطريق الى السالبة الجزئية وحيث انها لا عكس لها • نقف عندها • وقبل ان نمثل لهذه القضية • لا بد ان نضرب مثلا لنقض الموضوع وللنقض التام •
١ ــ القضية الاصلية (ل)
٢ ــ حين نعكس هذه نحصل على (ل) ايضا
٣ ــ واذا نقضنا المحمول فالنتيجة هي (ك)
٤ ــ ثم اذا عكسنا عكسا مستويا تصبح (ب)
وهذه نقض الموضوع اذ ان موضوع القضية الاصلية هو انسان بينما موضوع القضية الرابعة هو (غير انسان) وهو بالطبع نقيضه والآن فلنستمر •

٥ ــ واذا نقضنا القضية الرابعة تأتي (س)
(ع) ــ (ح)
لا انسان بقرد •
لا قرد بانسان (ح) + (ع)
كل قرد غير انسان (ح) + (ع)
بعض غير الانسان قرد • (ع) (ح)
ليس بعض غير الانسان غير قرد (ح) (ع)

وذلك يعني اننا حصلنا في الخامسة على قضية موضوعها ومحمولها نقيض موضوع ومحمول القضية الاصلية ، اذا حصلنا على النقض التام •• والسؤال هل اننا نستطيع أن تتقدم خطوة اخرى والجواب لا• اذ ان آخر قضية حصلنا عليها كانت قضية سالبة جزئية وهي لا عكس لها ؟

وهكذا نصل الى هذه القاعدة وهي : اذا اردنا الحصول على نقض الموضوع او النقض التام (ونقض الموضوع والمحمول معا) فلا بــد ان نبدأ بعمليات عكس ونقض متكررة ومتلاحقة ، وذلك بان نبدأ بالعكس ثم ننقضه او نبدأ بالنقض ثم نعكسه متبعين في كل ذلك قواعــد العكس والنقض السابقة والتي من بينها عدم عكس القضية الجزئية السالبة فاذا وصلنا في طريقنا الى قضية سالبة جزئية وقفنا عندها ، ولا نعكس ونقول ــ بأسف ــ ان قضيتنا الاصلية لا تملك نقض الموضوع او النقض التام• وفيما يلي نثبت جدولا بالنقص والعكس المتلاحقين بدون ذكر المحتويات بل نكتفي بذكر (ع) رمزا للموضوع و (ح) رمزاً للمحمول ــ وع يعني الموضوع المنقوض وح يعني المحمول المنقوض •

القضية الأصلية	(ك) ع ح	(ل) ع ح	(ب) ع ح	(س) ع ح
العكس المستوى	(ب) ح ع	ل ح ع		ب ح ع
نقض المحمول	(ل) ع ح	ك ع ع	س ع ح	ب ع ح
نقيض العكس المستوى	(س) ح ع/	ك ح/ ع	س ح ع	
عكس النقيض المخالف	(ل) ح/ ع/	ب ح/ ع		ب ح/ ع
عكس النقيض الموافق	ك ح/ ع/	س ح/ ع/		س ع/ ح/
نقض الموضوع	س ع/ ح	ع/ ح		
النقض التام	(ب) ع/ ح/	س ع/ ح/		

الفائدة المتوخاة من الاستدلال المباشر

الفائدة المتوخاة من الاستدلال المباشر ليست الحصول على فكرة جديدة اذ ان الفكرة الجديدة لا نجدها في مطلق اقسام المنطق القياسي • انما الفائدة الاهم والاعظم من هذا النوع من المنطق هو توضيح علاقة الافكار ببعضها كما سبقت الاشارة اليها فهو ليس الا مجرد بحث في ربط الافكار ، ويبحث عن الاشكال والقوالب وليس المحتويات والمعاني وعلى ذلك فان الاستدلال المباشر يحتوي ايضا على تعميق نظرنا الى علاقة الفكرة بما يشابهها كالعكس والنقض في المحمول وما اشبه !

٢٢/الاستدلال (غير المباشر) القياسي

بعد الحديث عن الاستدلال المباشر ، ينبغي القاء نظرة على الاستدلال غير المباشر ، والذي يسمى بالاستدلال القياسي ويمثل جوهر المنطق القديم ، والذي كان طريقا الى المنطلق الرياضي الحديث •

وهذا الاستدلال بقدر ما هو ، هام فهو بسيط اذ ان كل شخص اوتي قدرا من الادراك يقوم يوميا • بمئات التطبيقات لانواع الاستدلال

غير المباشر ، فكل منا حين يقوم من نومه ويلاحظ الساعة ، وانها تشير الى السابعة صباحا مثلا يفكر هذه هي الساعة السابعة صباحا ، وفي كل ساعة سابعة صباحا يجب ان اقوم .

طبعا هذا التفكير لا يجري بهذه الطريقة البطيئة بل بسرعة الضوء ، لذلك بمجرد ان يعرف الشخص ان الساعة تشير الى السابعة يقفز من فراشه .

لذلك تذوب الاشكال الاستدلالية في التفكير السريع ، وكأنها لم تكن ، والنقد الصحيح الذي وجهه ديكارت وانصاره على المنطق الشكلي لم يكن بسبب بطلان هذا المنطق بل بسبب بداهته وانه لا يحتاج الى بيان لان الانسان يمارسه عمليا ويوميا .

مصطلحات القياس

في البدء نلقي نظرة على مصطلحات المنطقيين في القياس . وقبلئذ : نستعرض بعض الامثلة .

١ ــ كل مسلم حسن الاخلاق ــ فعلي حسن الاخلاق وعلي مسلم.

٢ ــ ليس بمسلم من يغش المسلمين ــ كل من يعامل بالزنا ليس بمسلم . كل من يعامل بالربا يغش المسلمين .

٣ ــ كل مسلم تقي . بعض المسلمين تجار بعض التجار اتقياء .

٤ ــ كل مسلم صادق ليس بصادق من يخلف الوعد ، ليس من يخلف الوعد بمسلم .

هذه الامثلة الاربعة . تشترك في عدة اشياء بالرغم من اختلافها في اشياء اخرى ــ فتشترك في ان لكل واحد منها كلمات مكررة في الجملتين

الاولى والثانية ــ والنتيجة التي سوف نرمز اليها بـ (ف) هي بدورها تكرار لبعض ما في الجملتين •• وترتيب هذه العبارات المكررة هو الذي يتغير من جملة لاخرى وبسبب هذا التغيير يختلف اسمها ويجعلنا نحصل على اشكال القياس الاربعة ، اما اسماء هذه الجمل تفصيلا فهي :

١ ــ كل جملة تحتوي على فقرتين (موضوع ومحمول) ويرمز عادة للاول بـ (ع) وللثاني بـ (ح) والاسم الذي يطلق على الموضوع والمحمول بالتناوب هو (الحد) فالحد هي الكلمة في الجملة سواء كان الموضوع او المحمول •

٢ ــ والنتيجة هي ايضا مركبة من حدين (او من الموضوع والمحمول) ولكل واحد من هذين الحدين ــ في النتيجة ــ اسم ، فالموضوع اسمه (الحد الاصغر) والمحمول اسمه (الحد الاكبر) •

٣ ــ واذا لاحظت في الامثلة الماضية ترى ان النتيجة هي تكرار لبعض ما في الجمل السابقة ، وحسب ترتيب محمول النتيجة او موضوعها ــ ترتيبهما ــ في المقدمتين ، تختلف اسمائهما ، والمقدمة التي تحتوي على محمول النتيجة تسمى (المقدمة الكبرى) بينما التي تحتوي على موضوع النتيجة تسمى (المقدمة الصغرى) •

٤ ــ بقي ان نعرف ان هناك كلمة او (حد) تتكرر في المقدمتين معا ولكنها تختفي في النتيجة ان تلك الكلمة تسمى (الحد الاوسط) •

الحد الاوسط

القضية مركبة من ثلاث جمل ولها اسماء ، الجملة الاولى اسمها (المقدمة الاولى) الجملة الثانية اسمها (المقدمة الثانية) والجملة الثالثة اسمها (النتيجة) •

دعنا نطبق هذه المصطلحات على المثال الاول من امثلتنا السابقة .

١ ــ المقدمة الكبرى ، الجملة الاولى (الحد الاكبر) أ=ح ــ كل مسلم ــ حسن الخلق . (الحد الاوسط) (الحد الاكبر) .

٢ ــ المقدمة الصغرى ، الجملة الثانية (الحد الاصغر) ع=أ وعلي مسلم (الحد الاصغر) (الحد الاوسط) ..

٣ ــ النتيجة الجملة الثالثة ع=ح علي حسن الاخلاق . (الحد الاصغر (ع) (الحد الاكبر (ح) .

شروط القياس

وللقياس ثلاثة انواع من الشروط : نوع يرتبط باصل القياس ونوع يرتبط بكم القياس (الاستغراق وعدمه) ونوع ثالث يرتبط بكيف القياس (الايجاب والنفي) .

ألف ــ بناء الاقيسة

يشترط في اصل بناء الاقيسة ما يلي :

١ ــ يجب ان يشمل كل قياس على ثلاث قضايا لا اقل ولا اكثر . اذ اثنتان مرتبطتان ببعضها (مقدمتان) والثالثة تأتي نتيجة عنهما !

اما الاكثر . فانه اذا كانت فهي اما اغلوطة واما اكثر من قياس مثلا : الواحد . نصف الاثنين . والاثنين نصف الاربعة وكل نصف النصف نصف فالواحد نصف الاربعة هذه اغلوطة .

ومثلا : الاربعة . زائدا اربعة تساوي ٨ والاثنين زائدا ستة يساوي

٨ فالاثنين زائدا ستة يساوي اربعة زائدا اربعة هكذا :

٤+٤=٨ ، ٢+٦= ٨ ، ٢+٦=٤+٤

هذه ليست اغلوطة • ولكنها قياسان في قياس اذ نحن بحاجة الى رابطة فكرية لنعرف ان مساو المساوي ــ مساو لنصنع قياسا هكذا •

٤+٤=٨،٢+٦=٨ وكل مساو المساوي مساو ــ وهذا مساو المساو والنتيجة ان (٢+٦=٤+٤) •

لاحظ اننا بدون هذه القاعدة لا نستطيع اخذ هذه النتيجة اذ يمكن ان تتورط في الاغلوطة السابقة التي تكتب هكذا :

١/٢ و ٢/٤ اذا ١/٤

٢ ــ يجب ان تكون كل قضية داخلة في بناء القياس مسورة باحدى الانماط السابقة (كلبس) •

فالقضايا غير المسورة لا تنتج شيئا مثلا :

انسان فان ــ

وفان هالك لا ينتج : انسان • هالك •

اذ قد يكون سور المقدمتين بعض فتكون المقدمتان جزئيتين فلا تنتجان شيئا اذ تكون صورة القياس حينئذ هكذا •

بعض افراد الانسان فانون • وبعض الفانين هالكون •

وليست لهذه القضية نتيجة اذ قد يكون بعض الفانين غير بعض الناس •

باء ــ كم الاقيسة

بالنظر الى الكم يجب •

٣ ــ ان يكون الحد الاوسط مستغرقا • في احدى المقدمتين • فلو كانت المقدمتان جزئية موجبة مثلا لا يمكن اخذ النتيجة منها • كما سبق آنفا • الا ان بعض المناطقة (هاملتون) يقول انه لا داعي لاشتراط استغراق الحد الاوسط استغراقا تاما بل يكفي ان يكون الاستغراق اكثر

من نصف الافراد كي يصح القياس ولهذا يعدل هذا الشرط على النحـو التالـي ، « يجب ان يكون كم الحـد مقدرا في وظيفتـه (في الكبرى والصغرى) اكبر من كم الحد نفسه مستغرقا » ويضرب مثلا .

١ ــ معظم الناس مرتكبون للخطايا .
٢ ــ نصف الناس ناجين من العقاب الآلهي .
٣ ــ بعض مرتكبي الخطايا سينجون من العقاب الآلهي [1] .

الا ان الحقيقة ان هذه كلها قضايا كلية . اذ القضية الكلية ليست فقط القضية المسورة بكل ، بل بأي سور يشمل جميع الافراد الداخلين تحته ، فاغلب الناس سور كما ان نصف الناس . او ربع الناس سور .

٤ ــ الا يستغرق حد في النتيجة ، ما لم يكن مستغرقا فـي احدى المقدمتين ، ولتوضيح هذا الشرط لا بد ان نقول : ان النتيجة ــ كما نعلم ــ هي موجودة في المقدمات ولكنهـا خافية بعض الشيء هنـاك وتظهر ــ جلية ــ في النهاية ، وهي قد تكون : جزئية وقد تكون كليـة وفـي الكلية . تنقسم الى كلية في كلية ، وكلية في جزئية ، اي انه قد يكون كل من المحمول والموضوع مستغرقين في بعضهما وقـد لا تكون مثلا قـد نقول : كل انسان كل ناطق .

وقد نقول : كل انسان حيوان (اي بعض انواع الحيوان) .

بعد هذه التقدمة الواضحة قد تكون النتيجة اكبر من حجم المقدمات في احد حديها فلا تصح وكمثل :

آ ــ اذا قلنا : بعض الرجال فقراء .
وليس من الفقراء سعداء .
اذن فليس من الرجال سعداء .

---

(١) د. بدوي المنطق الصوري والرياضي ص ١٦٧ .

فهو قياس باطل ليس فقط لان الذوق السليم يلفظ رأسا بل لانـه ايضا يفقد هذا الشرط الهام كيف ذلك ؟ ان النتيجة السالبة مستغرقة في المحمول (فلو كان بعض السعداء رجالا لم تصح جملة : فليس من الرجال سعداء) بينما المحمول سعداء لم يحظ بالاستغراق في المقدمة الاولى (التي تسمى بالمقدمة الكبرى) فكانت النتيجة اكبر من المقدمة .. اذ المحمول لم يستغرق في المقدمة واستغرق في النتيجة .

لذلك قالوا : اذا كانت النتيجة سالبة . يجب ان يكـون الاكبر (المحمول) مستغرقا في المقدمة .

ولذلك ايضا لم يصح تركيب السالبة مع الجزئية الموجبـة لانتاج القياس (كما يأتي) .

ب ــ واذا قلنا : بعض الاغنياء سعداء .
وكل السعداء اصحاء .
اذن فكل الاغنياء اصحاء .

فهذا القياس غير صحيح . لماذا ؟ لانه من الممكن ان يوجد غني غير سعيد وبالتالي غير صحيح فكيف تحكم بان كل غني صحيح ؟ وبتطبيق القاعدة : الاغنياء (الاصغر) غير مستغرق في المقدمة (الصغرى) فـلا يكون مستغرقا في النتيجة لهذا قالوا : اذا كان الاصغر موضوعـا فـي جزئية صغرى لا يمكن ان تكون النتيجة كلية .

كذلـك لا يصح القياس لو كـان الاصغر محمـولا في المقدمـة (الجزئية) .

ج ــ مثل ما اذا قلنا : بعض السعداء اغنياء .
وكل السعداء اصحاء .
اذا فكل الاغنياء اصحاء .

شروط الكيف

الشرط الاول

٥ ــ يجب ان تكون احدى المقدمتين موجبة • فلا نتيجة صحيحة مع المقدمتين السالبتين •

والسبب بسيط هو ان السالبة تنفي الموضوع عن الحكم (الرابط) ومع نفي الموضوع عن الحكم لا يرتبط الموضوعان ببعضهما (برابط) اذ الرابط انفصل عنهما جميعا ، فمثلا : لو قلنا ــ ليس العاقل حمارا •

نفينا العقل عن الحمار ، ثم لو قلنا : وليس البقر عاقلا نفينا ــ مرة اخرى ــ العقل عن البقر ، فالعقل لا يكون رابطا بين الحمار والبقر لانه لا يوجد في اي منهما فكيف يكون رابطا بينهما ؟

ولكن هذا الشرط انما هو في النفي الحقيقي أما النفي الذي يتحول الى ايجاب مثل المقاييس فقد تكون السالبتان منتجة • مثاله : ليس زيد أكبر من عمر ــ وليس خالد اكبر ــ من زيد ــ فليس خالد اكبر من عمر و •

النتيجة معقولة • مع ان القضيتين سالبتان ولكن لا تناقض هذه القاعدة اذ ان مآل هذه القضية الى قضيتين والمحذوف منهما : هو المعقول : وكل من ليس اكبر من شخص ليس اكبر منه فهو ليس اكبر •

ومثال آخر له : ليس مأذنة الازهر اطول من برج القاهرة وليس برج القاهرة اطول من الاهرام فليست مأذنة الازهر اطول من الاهرام وببساطة نكتشف ان كيف تؤل هذين النفيين الى اثبات •

الشرط الثاني

٦ ـ اذا كانت احدى المقدمتين سالبة جائت النتيجة مثلها سالبة فلا نتيجة ايجابية مع مقدمة سالبة والسبب ان الموضوع قد انفصل عن المحمول في احدى المقدمتين . فلا يمكن ان نوصلهما ببعضهما . ومثاله : كل انسان عاقل وليس كل عاقل عالما فليس كل انسان عالما .

الشرط الثالث

٧ ـ اذا كانت المقدمتان موجبتين جاءت النتيجة موجبة ايضا مثلا اذا قلنا : كل انسان عاقل وكل عاقل ـ ناطق ـ لا يمكن ان نقول : فليس كل انسان ناطق . لانه كذب .

٢٣/الاشكال الاربعة

قلنا سابقا ان للقياس حدا اوسط تظهر في المقدمتين معا ، ثم يختفي في النتيجة ، ويمثل دور الرابط بين المقدمة الاولى والثانية ، ولنضع له رمزا (أ)

واذا كان القياس : مركبا من مقدمتين ، في كل مقدمة موضوع ، ومحمول ، فان المقدمتين فيهما موضوعان ومحمولان ، (المجموع اربعة) والحد الاوسط (أ) يوضع مكان اثنين من هذه الاربع بالطبع وحسب ترتيبه يختلف شكل القياس . وفيما يلي نذكر رموزا لذلك ثم نبدلها الى أقيسة حقيقية ، وهي التالية (نرمز للحد الوسط بـ (أ) وللموضوع في النتيجة الذي يسمى بالحد الاصغر بـ (ع) وبالمحمول في النتيجة ويسمى بالاكبر بـ (ح) .

١ ـ أ ـ ح و ع ـ أ ـ ع ـ ح
٢ ـ ح ـ أ و ع ـ أ ـ ع ـ ح
٣ ـ أ ح و أ ـ ع ـ ع ـ ح
٤ ـ ح ـ أ و أ ـ ع ـ ع ـ ح

ترى ان الفرق بين هذه الاشكال ليس الا واقع (أ) و(ح) و(ع) فالشكل الاول نرى الكبرى فيه (وهي المقدمة التي تحتوي على محمول النتيجة) في المقدمة الاولى • والصغرى في المقدمة الثانية ونرى الحد الاوسط انه موضوع في الكبرى ، ومحمول في الصغرى ، مثاله :

كل انسان ناطق ، وزيد انسان فزيد ناطق •

وفي الشكل الثاني وضع الحد الاوسط ، محمولا في المقدمتين معا ومثاله •

لا جبان بصادق وكل مؤمن صادق فلا مؤمن بجبان •

وفي الشكل الثالث : وضع الحد الاوسط موضوعا في المقدمتين ، ومثاله •

كل انسان ناطق كل انسان حي بعض الاحياء ناطقون

وفي الشكل الرابع وضع الحد الاوسط في المقدمة الاولى محمولا وفي المقدمة الثانية موضوعا (بعكس الشكل الاول) ومثاله : كل فدائي شجاع ولا شجاع غدار : فلا فدائي غدار •

انواع الاشكال الاربعة

يمكن لنا تقسيم الاشكال الاربعة للمنطق نظريا ستة عشر قسما اما عمليا فلا تصح منها سوى ثمانية اقسام الاقسام النظرية ناتجة من ان كل واحد من المقدمة الاولى والثانية (الكبرى والصغرى) قد تكون من

ناحية الكم جزئية او كلية ومـن حيث الكيف موجبة او سالبة فتـأتي النتيجة ١٦ هكذا (الرمز الاول للمقدمـة الاولى • والثاني للمقدمـة الثانيـة) •

كا ـ كل ـ كب ـ كس ـ لك ـ لل ـ لب ـ لس •
بك ـ بل ـ بب ـ بس ـ سك ـ سل ـ سب ـ سس •

واما الاقسام الثمانية الصحيحة من هذه الانواع ! فهي ناتجة مـن حذف ما لا يجتمع فيها الشروط المتقدمة ! وهي ثمانية كالتالية •

ألف ـ ما يفقد اشتراط الا تكون المقدمتان سالبتين : وهي لل ـ لس ـ سل (س س مكرر) •

باء ـ ما يفقد شرط ان تكون احدى المقدمتين على الاقل كلية ـ وهي ـ بب ـ سب ـ بس ـ سس •

د ـ ما يفقد شرطا مفاده اذا كانت المقدمة الاولى جزئية لا يمكن ان تكون المقدمة الثانية سالبة ! (وهو بل) •

وتبقى بعدئذ ثمانية اقسام صحيحة ومستوفاة للشروط السابقـة وهي التالية :

١ (كك) ٢ (كل) ٣ (كب) ٤ (كس)
٥ (لك) ٦ (لب) ٧ (بك) ٨ (سك)

تطبيق الشروط في الشكل الاول

تلك الشروط السابقة التي سبق القول فيها حين تطبق على الاشكال الاربعة للقياس • نعرف ان بعض هذه الاشكال الاربعة للقياس غير سليمة وهذه المعرفة هي الغاية ـ المتوخاة ـ من وراء ذكر تلك الشروط ونبدء بعرض كل واحد من الاشكال • الصحيح منها والغلط :

الشكـل الاول

صورته : ع ـ أ = أح •• أذن عح ومثاله : محمد أنسان وكـل أنسان فان محمد فان » في هذا الشكل تشترط شروط

(أ) أن تكون المقدمة الصغرى موجبة وهي التي فيها ع (وهـي أولى المقدمتين في المثل) والسبب انها لو جاءت سالبة افتقـدت شرط الاستغراق ، اذ ان النتيجة تأتي سالبة ـ حسب القاعدة التي قلنا فيها : انه لو كانت احدى المقدمتين سالبة جاءت النتيجة (ايضا سالبة) ـ واذا جاءت النتيجة سالبة : فبحكم أن السالبة بطبيعتها أستغراقيـة يكـون المحمول مستغرقا في الموضوع في النتيجة بينما ليست مستغرقة في المقدمة أذ المفروض أن المقدمة الكبرى تستغرق موضوعها في المحمول ولا يعني ذلك حصر المحمول بالموضوع وأستغراقه فيه وهذا خرق للقاعدة الثالثة السابقة ولتوضيح هذا الشرط نضرب مثلا :

محمد عالم وكل عالم كاتب اذن فمحمد كاتب • هذه صحيحة لان المقدمة الصغرى (الاولى) موجبة • ولكن لو حولناها سالبة • فهل هي صحيحة لننظر : ليس محمد بعالم كل عالم كاتب فليس محمد بكاتب هل هذا صحيح كلا : اذ اننا لا ندري • فقد يكون هناك كاتب غير عالم ، اذ هذا لم يذكر في القياس • واذا نستطيع أن نستنتج مـن هذا القيـاس ان محمدا ليس بكاتب •

(ب) يجب أن تكون المقدمة الكبرى كلية ، والسبب أن المقدمـة الصغرى ما دامت موجبة كان الحد الاوسط الدي يعتبر محمولها لا يكون مستغرقا اذ الموجبة اذا كانت كلية تفيد استغراق الموضوع في المحمـول لا المحمول في الموضوع (فكل محمد أنسان يدل على أن محمداً لا يكون الا انسانا ولا يدل على أن الانسان لا يكون الا محمدا) •

فأذا كانت الكبرى جزئية فلا يكون فيها أي نوع من الاستغراق ، وحينئذ تفقد شرطا أساسيا هو (القاعدة الثالثة) التي قلنا فيها الحد الاوسط يجب أن تستغرق في أحدى المقدمتين اذ هو في الصغرى محمول وبالتالي غير مستغرق وفي الكبرى على فرض أن تكون جزئية موضوع غير مستغرق .

نعرف من نتيجة كل ذلك أن الضروب المحتملة من الشكل الاول هي ستة اثنتان منها ضعيفتان وأربعة قويتان

ألف ــ الضروب القوية هي :

كككك ــ كبب ــ للل ــ لبس .

باء ــ الضربان الضعيفان هي :

ككب ــ لكس .

والسبب في ضعفهما أنهما يتدخلان مع الشكلين بالترتيب ككك ــ لكل ــ فمثلا : نستطيع أن نقول : (ك كل محمد أنسان) (ك وكل أنسان فان) ، (ب فمحمد فان) فيكون الشكل ككب بينما نستطيع أيضا أن نقول كل محمد أنسان وكل أنسان فان فتكون النتيجة ككك . وهي أقوى من ككب وأيضا كما نستطيع أن نقول : (ك كل أنسان ناطق) (ل وليس من الانسان بقرد) (س فبعض الانسان ليس بقرد) (لكي تكون القضية كلس) يمكن أن نأتي بالنتيجة فليس من الانسان بقرد (لتكون القضية ــ ك لل) .

وواضح أن النتيجة الكلية خير من النتيجة الجزئية لذلك كان هذان النوعان ضعيفين .

شروط الشكل الثاني

صورة هذا الشكل هكذا ح = أ وع = أ

ع = ح

ومثاله : لا جبان بمنتصر وكل مؤمن منتصر ، لا مؤمن بجبان وشروطه

(١) يجب ان تكون احدى المقدمتين سالبة والا : لم يستغرق الحد الاوسط في أي واحدة من المقدمتين • وذلك لانه من جهة لا يفهم من الموجبة استغراق المحمول في الموضوع كما سبق ومن جهة ثانية حيث أن الحد الاوسط محمول في كلتا المقدمتين فاذا كانت المقدمتان موجبتين لم يستغرق ولا في واحدة وهذا مناف للقاعدة (٣) فلا يصح اذن ان نقول كل عنصري فاسق وكل زان فاسق ونأخذ هذه النتيجة كل عنصري زان •

(٢) المقدمة الكبرى : لا بد أن تأتي كلية لانه ما دامت الصغرى سالبة ، تأتي النتيجة سالبة ، والنتيجة السالبة تعني استغراق الموضوع في المحمول (بطبيعة السلب) فاذا كانت الكبرى جزئية لم يكن الموضوع فيها (الذي هو المحمول في النتيجة أي الحد الاكبر) مستغرقا فيها وهذا ينافي القاعدة الرابعة •

مثال ذلك لو قلنا : لا جبان بمنتصر = وبعض المؤمنين منتصرون لا ينتج لا جبان بمؤمن لانه يمكن أن يكون بعض المؤمنين ــ وهم غير المنتصرين ــ جبناء • فكيف نقول لا جبان بمؤمن ؟

وبسبب هذين الشرطين ، لا بد أن نستبعد طائفة من قياسات الشكل الثاني • وهي : (كك) و (كب) و (بك) كلها (طبقا للقاعدة الاولى) ونستبعد (س ك) (طبقا للقاعدة الثانية) وتبقى لدينا ستة ضروب ، اثنتان منهما متداخلتان كما سبق وتبقى أربع نذكرها مع ذكر الاثنتين بين قوسين وهي كلل ــ (كلس) ــ لكل (لكس) ــ لبس ــ كسس •

شروط الشكل الثالث

صورته : أ = ح وأ = ع أذن ع = ح ومثاله : كل مسلم تقـي بعض المسلمين تجار : بعض التجار أتقياء ، وعندما نطبق الشروط الماضية نستخلص في هذا الشكل شرطين :

(١) أن تكون المقدمة الصغرى (الثانية) موجبة لانها لو جـاءت سالبة فهل تأتي المقدمة الكبرى (الاولى) سالبة أيضا ؟ واذا ينافي قاعدتنا السابقة وان : لا انتاج بين سالبتين أو تأتي موجبة ، واذا فهـل تـأتي النتيجة موجبة (وهذا لا يمكن اذ القاعدة السابقـة توجب أن تكون نتيجتها سالبة) واذا جاءت النتيجة سالبة • فمعناهـا : أن المـوضوع يستغرق في المحمول وهذا يستلزم بالتالي ان يكون منافيا للقاعدة (ان الحد لا يستغرق في النتيجة الا اذا كان مستغرقا في احـدى المقدمتين) وذلك لان المحمول في المقدمتين الكبرى غير مستغرق لانها من الشكل الاول •

(٢) يجب ان تكون النتيجة جزئية والسبب ذات السبـب الآنف الذكر اذ انها لو كـانت كلية ، لكان الموضوع مستغرقا في محمـول ، النتيجة وهو في جملة موجبة والموجبة لا تستغرق في المحمول •

اذا لا يمكن تشكيل قياس من الشكل الثـالث من كـل ــ و كـ س (لانهما سالبتان) ولا العكس لكـ ــ سكـ وتبقى الصور التالية: كـكـب ــ كـبب ــ بكـب ــ لكـس ــ لبس ــ سكـس •

شروط الشكل الرابع

صورته : ح =أ وآ = ع = ع = ح

مثاله : كل مسلم صادق ، ليس بصادق من يخلف الوعد اذن ليس من يخلف الوعد بمسلم ! أما الشروط فثلاثة كالتالية :

(١) اذا كانت أحدى المقدمتين سالبة فلا يمكن أن تـأتي المقدمة الكبرى (التي تحتوي على محمول النتيجة) جزئية والسبب كما سبق (في الشكل الثالث والاول) ان المحمـول في النتيجـة مستغرق بينمـا ليس مستغرقا في المقدمة الكبرى لانها جزئية والجزئية لا تستغرق نعم اذا كانت كلية استغرقت لان المحمول موضوع في تلك المقدمة .

(٢) أذا كانت المقدمة الكبرى موجبة فان موضوعها لا يستغرق في المحمول (والمحمول هنا هو الحد الاوسط) فلا يمكن أن تكـون المقدمة الصغرى ــ جزئية ــ واذا لا ينتج (لقاعـدة ضرورة استغـراق الحد الاوسط في احدى المقدمتين) .

(٣) واذا كانت المقدمة الصغرى موجبة فان النتيجة تكون جزئية ، والسبب أن الحد الاصغر يأتي محمولا في المقدمة الصغرى ، واذا كانت موجبة فأن الموجبة لا تستغرق المحمول ، وحيث أن ذات الكلمة موضوع في النتيجة فلا يمكن أن تكون كلية اذ الكلية تستوجب الاستغراق وهـو غير موجود في المقدمة ، فيأتي القاعدة (٤) ووفقا لهذه الشروط تستبعد عدة صور من هذا الشكل هي (كس ــ سك ــ كب ــ كلك) ...

والصور الصحيحة هي : ككب ــ كلل ــ لكس ــ لبس ــ بكب ــ أما الضعيف فهو (كلس) .

هذه هي الاشكال الاربعة وهذه شروطها .

القسم السابع عن مناهج القياس

البحث الثالث عن :

المنطق الرياضي

- كلمة البدء
- تحديد المحمول
- بين الكلمات والرموز (رموز الاضافات/ اضافة التماثل/أضافة التعدي/التضايف المشترك/التضايف المترابط
- دور الاضافات في القضايا
- الحساب المنطقي (الاضافات المنطقية حساب الاصناف)
- الرموز في القضايا الحملية الجبر المنطقي
- قواعد تجربة فن في حساب القضايا القضايا والدوال (عن القضية/عن الدوال القضائية)

كلمة البدء :

عندما تحدثنا عن المنطق الصوري استعرضنا المراحل التي تطور عبرها هذا المنطق حتى وصل الى شكله الرياضي المتقدم حاليا . وذلك بفضل مجموعة كبيرة من العلماء ابتداء من ليبينتس وانتهاء برسل .

يبقى الآن أن نعيد بعض ما ذكرنا تذكرة وتوضيحا لما بين بأيدينا من المنطق الرياضي .

قلنا أن الفكر الحديث يميل الى تفسير الاشياء كميا عدديا بينما كان الفكر القديم يفسرها كيفيا . وتدخل العدد في كل العلوم الحديثة حتى كاد يدخل مجالات انسانية مثل علم النفس .

وشعار العلم في هذا الاتجاه كان قول جاليلو : الطبيعة مكتوبة بلغة رياضية .

وكان بين المنطق الصوري القديم والرياضيات العددية أخوة قديمة ولعدة أسباب أهمها : أن كلا العلمين يميل نحو الصورية والتجريد ولا يعني بالاشياء كأشياء واقعية بل كرموز لا بد أن تكتشف ما بينها من نسب ، وعلاقات ، والهدف الذي توخاه كل من العلمين — المنطق والرياضيات — هو الربط الصحيح بين الاشياء ، عن طريق عمليات فكرية بسيطة ، تخضع لقواعد ثابتة وتتم بالطرق الآلية ، بعيدة عن حقائق الاشياء في الواقع الخارجي ، لكن يجب أن لا ينسينا هذا أن بين المنطق الصوري والرياضي فوارق عديدة ولهذا لا نستطيع الاستغناء بواحد عن الاخر فالمنطق الحديث :

١ ـ أوغل في التجريد والصورية •
٢ ـ ووسع ميادين البحث الى آفاق جديدة •
٣ ـ وعنى بتجديد مناهجه ، وجعلها أدق من المنطق الصوري •

بينما المنطق القديم :

١ ـ كان مقصورا على نوع واحد من الاستدلال ، وهو الاستدلال القياسي ، بينما المنطق الحديث اكتشف انواعا جديدة من الاستدلال مثل اضافة الموصول والعطف وحروف الجر والحال ، واكتشف العلاقة بين القضايا ، بينما المنطق القديم يعتني فقط بعلاقة الحدود (لتركيب قضية واحدة) •

٢ ـ واستطاع المنطق الحديث التخلص من ثقل اللفظ ، فاستغنى عنه بالرمز ، ووضع سلسلة مطولة من الرموز ، تعبر عن الآفاق الجديدة في الاستدلال ، ووضع لغة رمزية ، يمكن أن تتحول الى لغة العلم •

٣ ـ وبحث عن بعض المشاكل التي عجز عن حلها المنطق القديم ، مثل نظرية كم المحمول الثانية •

ولذلك يحاول كثير من أنصار المنطق الرياضي الى توسعة أفقه الى حد يصبح معه لغة العلوم كلها ، وهذا الى جنب وجود دراسة منتظمة للمنطق الصوري الذي يميز بطبيعة هذا الوضع عن المنطق الرياضي لانه بقي وافيا لمجال محدود بل ولمرحلة بدائية محدودة •

تحديد المحمول

لان نظرية تحديد المحمول كانت تاريخيا الخطوة الاولى على درب المنطق الرياضي والتي استتبعت سائر الخطوات آليا فان البحث عنها في البداية يبدو تدرجا معقولا •

تبدأ هذه النظرية من عدة مسلمات • هي التالية :

(١) لو حللنا عملية الفكر في اثناء الحكم ، الذي يعبر عنه بالقضية، لوجدنا أننا لا بد ان نعرف قبل أن نحكم على شيء بشيء أن هناك صنفا يدخل ضمنه موضوع معين ، فمثلا قبل أن نحكم بأن الانسان حيوان ، لا بد أن نعرف أمرين ، الاول : أن هناك صنفا يسمى بالحيوان ، والثاني : أن الانسان داخل ضمن هذا الصنف •

اذا معرفة الصنف جزء من الحكم ، والسؤال عن الحيـوان يدخل ضمن السؤال عن الانسان لأنه صنفه • وفي قولنا : الانسان حيوان » لا يكفي أن نعرف كم انسان هو حيوان ؟ بل لا بد أيضا أن نعرف كم حيوان هو انسان ؟ فهل كل انسان هو كل حيوان ام ان كـل حيوان هو بعض الانسان • أم العكس هو الصحيح !

(٢) والقضية ــ في المنطق القديم ــ تحدد كمية الموضوع، دون كمية المحمول ، فمثلا • هاتان القضيتان متشابهتان في المنطق القديم من ناحية التعبير ، بالرغم من اختلافهما من ناحية كمية المحمول ، وهما :

الانسان حيوان ، والمثلث ذو ثلاثة اضلاع بينما القضية الاولى تعني أن كل انسان هو بعض اصناف الحيوان، وتعني القضية الثانية : أن كل مثلث هو ذو ثلاثة أضلاع وكل ذي ثلاثة أضلاع هو ــ بالمقابل ــ مثلث أيضا ، والتعبير واحد •

(٣)ولكن حين عجز المنطق القديم عن تحديد كمية المحمول فهل أن هذه الكمية زالت عن الفكر أيضا ؟ كلا بل انها ــ كما يزعم هاملتـون ــ موجودة ابدا في الفكر ، وتسأل اذا كانت تلك موجودة في الفكر فلمـاذا لا تعبر عنها اللغة العادية والجواب ان اللغة العادية (كما يزعـم تلميـذ

هاملتون بينز) كثيرة الايجاز ، ولكن يجب علينا ـ كما يضيف بينز ـ أن نميز بين الاغراض التي تهدف اليها كل من اللغة العادية والمنطقية على التوالي ، فبينما الاولى لا تقصد غير عرض مضمون الفكرة بوضوح ، تقصد الثانية عرض مضمون الفكرة بدقة ، ولهذا كان من الضروري أن نعبر عن كمية المحمول في المنطق دون اللغة العادية (١) •

اعتمادا على هذه النقاط • وضع المنطق الحديث نظرية كم المحمول• التي استهدفت تحديد كمية المحمول ومدى شمول الموضوع له ، وبذلك قسمت القضايا من أربع الى ثمان • بينما كان المنطق القديم يقسم القضايا الى موجبة وسالبة وكلا منها الى جزئية وكلية •

يقسم هذا المنطق كل واحد من هذه الاربع ، الى جزئي المحمول وكلي المحمول فتتحول القضايا الاربع الماضية الى ما يلي :

(١) الموجبة الكلية ـ كلية المحمول وفيها يكون الموضوع مستغرقا في المحمول والمحمول مستغرقا في الموضوع مثل : كل مثلث ذو أضلاع ثلاث ورمزها (٧) (٢) (كـ)

(٢) الموجبة الكلية ـ جزئية المحمول وفيها يستغرق الموضوع في المحمول بلا عكس مثل كل أنسان حيوان ورمزها (A) (كـ) •

(٣) الموجبة الجزئية ـ كلية المحمول ، وفيها لا يستغرق الموضوع في المحمول بينما يستغرق المحمول في الموضوع مثل : بعض الاشكال الهندسية ـ مثلث ، ورمزها (Y) (كا) •

---

(١) نعتمد في كتابة هذا الفصل في الاكثر على كتاب ! المنطق الصوري والرياضي للدكتور عبد الرحمن بدوي •
(٢) الرموز العربية من المؤلف •

(٤) الموجبة الجزئية ــ جزئية المحمول : وفيها لا يستغرق واحد من المحمول أو الموضوع في بعضهما مثل : بعض الاشكال المتساوية الاضلاع هي مثلثات • (بعضها أيضا غير مثلثات ــ وبعض المثلثات ليست متساوية الاضلاع) ويرمز اليه (أ) (ب) •

(٥) السالبة الكلية ــ كلية المحمول وهي تسلب الموضوع عن أفراد المحمول جميعا • بحيث لا يكون فرد من الموضوع مرتبطا بأي فرد من المحمول مثل : لا مثلث مربع ويرمز اليه ــ (E) (ل)

(٦) السالبة الكلية ــ جزئية المحمول وهي التي تسلب كل الموضوع عن المحمول ككل دون أن تسلبه عن أفراده جميعا مثل : ليست المثلثات كل متساويات الاضلاع ويرمز اليها بــ (N) (ل) •

(٧) السالبة الجزئية ــ كلية المحمول وهي التي تسلب بعض الموضوع عن جميع أفراد المحمول مثل ليست بعض الثدييات ذوات الاربع ويرمز اليها بــ (O) (لا) •

(٨) السالبة الجزئية ــ جزئية المحمول وفيها يكون جزء من الموضوع مسلوبا عن المحمول ككل وليس عن كل أفراد المحمول مثل : ليس بعض ذوات الاربع كل الثدييات • ويرمز اليها بــ (W) (س) •

وقد أنتقد بعض المناطقة نظرية تحديد كمية المحمول وقالوا : أن هذه النظرية تخلط بين قضية واحدة ــ وبين قضيتين ــ فقولنا كل أ = كل ح هو في الواقع تعبير موجز عن قضيتين هما : كل أ = ح وكل ح = أ ، وذلك لان سياق الحكم هو بيان نسبة الموضوع الى المحمول ، وليس أبدا بيان نسبة المحمول الى الموضوع ، وفي هذا الاعتراض الاخير يقول

(مل) : أكرر النداء الى ضمير كل قارىء هل حين يحكم بأن كل الثيران مجترة يلقي أدنى انتباه الى مسألة ان هناك شيئا آخر يجتر وهـل هـذا الاعتبار موجود في ذهنه على وجه الاطلاق أو أي أعتبار آخر غير أعتبار الموضوع الذي يحكم عليه حين الحكم ٠

والواقع ان هذا الاعتراض صحيح اذا كان الهدف من المنطق شيئا يساوي ـــ الادب ـــ ويعني بشؤون التعابير اللفظية اما اذا كان الهـدف من المنطق معرفة النسبة بين موضوعين ـــ بل معرفة العلاقة بين رمزين عن موضوعين ، كما هو الاتجاه الرياضي في المنطق ، فانه مما لا ريب فيه أن بيان كم المحمول هو المتناسب معه وهو الادق تعبيرا من التعابير العرفية ٠ وكفى به فخرا أنه يدمج قضيتين في قضية واحدة (كما قال المعترض الاول)٠

بين الكلمات والرموز

الكلمات تعني بحقيقة الاشياء ، وواقعها الخارجي بينما الرموز تعني بماهيتها وصورها ، وبالتالي علاقاتها ، فلا يمكن أن نستغني عن الواحدة بالاخرى بل لكي نفهم الكلمات بدقة ـ ونفهم الرموز بعمق ، فأنا نحتاج الى فهم الجانب الرمزي من الكلمات والجانب التجسيدي من الرموز •

نماذج من الرموز / واليك طائفة من الرموز الاكثر شياعا :

في الاصناف

ا ب ، < . د . صنف	أ · < . ب المتضمنة في ب
آ ، نفي الصنف ا	
ا+ب حاصل الجمع المنطقي للصنفين اـب	(.) صفر الصنف بغير افراد
ا=ب افراد صنف هم افراد صنف آخر	(ا) الصنف الحاوي لجميع الافراد

في القضايا

ق،ت،ص اي قضية	ق،ت اي ق تستلزم ت
قَ، نقيض القضية ت	(.) صفر القضية الكاذبة
ق+ت حاصل الجمع المنطقي لقضيتين او القول بهما انفصالا	(١) القضية الصادقة ق≡ت القضيتان ق،ت
ق : ت حاصل الضرب المنطقي او القول بهما معا	صادقتان معا او كاذبتان معا او ق مكافئة للقضية ت

رموز الاضافات

ما هي الاضافة

أشياء هذا الكون ذات علاقة ببعضها • واللغات تعبر عن هـذه العلاقات • ببعض الكلمات • التي تبين لنا نوع هذه العلاقة فمثلا هناك علاقة بين زيد وعمر • وهي أنهما من أب واحد • وأن زيدا اكبر سنا من أخيه بينما أخوه أصبح وجها منه هذه العلاقات تعبر عنها اللغة بالقول :

زيد (أخ) لعمرو ــ وزيد أكبر من عمر ــ وعمرو أجمل من زيد •

هذه تسمى (الاضافة) التي يمكن تعريفها : بأنها التعبير عن علاقة شيئين ببعضهما ، مما يكون فيه أشارة الى شيء آخر مثلا حين نقول : أخ نعرف أن هناك شخصا آخر ــ هو أخوه ، وحين نقول أكبر نعرف أن هناك أصغر •

بفارق انه حين نقول : أخ فالثاني ايضا أخ بينما اذا قلنا اكبر فالثاني لا يكون أكبر أيضا بل أصغر • فالاول متماثل والثاني غير متماثل ــ ومثل الاول اضافات « صديق / مصاحب / شريك و•و• وهي : أضافات متعدية ومثل الثاني أب / محب / أحسن • وهكذا •

وقد تكون الاضافة بين شيئين بينما قد تكون بين عدة أشياء مثل ان نقول زيد اعطى الفقير دينارا فهنا نجد اضافة (او علاقة) بين ثلاثة اشياء زيد / فقير / دينار • وهي علاقة العطاء • وهذه الاضافة هي بعض ما تسمى في المنطق القديم بالرابطة اذ الرابطة هي بدورها نوع من اضافة شيء الى شيء •

والاضافات أنواع • ولكل نوع منها رمز ــ وهي التماثل / والتعدي / والتضايف •

اضافة التماثل

هذه الاضافة هي التي تكون نسبة كل واحد منهما الى الآخر واحدة حيث تستطيع أن تنسب العلاقة الى هذا الطرف أو ذاك الطرف بنفس التعبير • فتقول مثلا زيد أخ لعمرو ــ وعمرو أخ لزيد ، ــ زيد شبيه عمرو خلقا • وبتعبير آخر لو عكست الاضافة التماثلية رأيت المعكوسة صحيحة أيضا ، بينما العلاقة اللاتماثلية ليست كذلك بل علاقة أحدهما ليست عين علاقة الثانية بل قد تكون عكسها ، مثل زيد أبو خالد ، فليس من الصحيح ان تعكس وتقول فخالد ابو زيد (بل ابنه) ومثل آخر ــ

زيد يحب خالدا . لا يصح دائما العكس (خالد يحب زيدا) أذ قد لا يحبه خالد ، وقد يحبه ، فالاضافة هنا أيضا لا تماثلية .

٢ ـ اضافة التعدي ـ

أضافة التعدي ، هي الاضافة التي اذا وجدت بين أول وثان ثم وجدت بين ثان وثالث فأنها توجد بين الاول والثالث . فمثلا : أذا قلنا زيد أكبر من أخيه عمرو ، ثم قلنا وعمرو أكبر من أخيه خالد ، فيكون من الصحيح الاستنتاج بأن زيدا أكبر من خالد . لان اضافتها متعدية .

٣ ـ التضايف المشترك ـ

التضايف المشترك هو وجود علاقة بين شيئين من جهة وبين واحد منهما وطرف ثالث من جهة أخرى مثلا : نقول : زيد صديق علي هذه الصداقة الموجودة بين علي وزيد قد توجد أيضا بين علي ورجل آخر ولان الاضافة تتحقق بين شيئين ، وكل واحد منهما قد تكون له ذات العلاقة مع شيء آخر ، وقد لا تكون ـ فأن هذه الاضافة تنقسم من هذه الناحية الى أقسام ثلاثة ...

١ ـ الاشتراك من جانبين كالمثال الماضي ، اذ كل من زيد وعلي يمكن أن يصادقا رجالا آخرين .

٢ ـ الاشتراك من جانب واحد فقط مثل هذا المثل : زيد ابن عمرو فقد يكون عمرو أبا لزيد ولكن هل يمكن أن يكون زيد أبنا لغيرعمرو كلا: ويسمى هذا القسم باضافة الواحد والكثير ولعكسه يقال اضافة الكثير والواحد .

٣ ـ عدم الاشتراك أبدا في التضايف مثل : عشرة أكبر بواحد من تسعة حيث ان العشرة لا يمكن ان تكون اكبر باثنين من تسعة، ولا التسعة يمكن ان تكون ناقصة من عشرة باثنين ، وتسمى هذه الاضافة باضافة الواحد ـ واحد .

٤ ـ التضايف المترابط

الواحد أصغر من العشرة ، والعشرة اذا أكبر من الواحد ، وكل عدد أما أكبر أو أصغر من العدد الآخر ، ولكن ليس هذا التضايف موجود دائما بين كل شيئين فليس مثلا يجب أن يكون الاشياء أما أصغر أو أكبر من الثاني بل قد تكون متساوية .

دور الاضافات في القضايا

لان الرابط الذي يدور عليه صحة الاستنتاج هو نوع من هذه الاضافة فعلينا أن نعرف نوع الاضافة ، فقد تكون عميقة وغير قادرة على الانتاج فيبطل الاستدلال فمثلا :

١ ـ في الاستدلال المباشر ، لا يمكن ان نعكس عكسا بسيطا الا اذا كانت الاضافة تماثلية فلا نقدر ان نقول : زيد أب لعمرو / وعمروأ ب لزيد . لان الابوة اضافة لا تماثلية . وكذلك لا نستطيع ان نقول في عكس كل الشعراء فنانون . كل الفنانون شعراء اذ الاضافة لا تماثلية والسبب واضح اذ العلاقة بين ان يكون كل افراد نوع ، من صنف معين لا يستوجب أن يكون كل أفراد الصنف في النوع أيضا .

بينما نستطيع ان نقول في عكس بعض الشعراء فنانون ، بعض الفنانين شعراء ، اذ علاقة البعضية تماثلية فاذا كان بعض انواع الانسان حيوان فبعض الحيوان انسان ايضا .

٢ ـ وفي الاستدلال غير المباشر يجب أن تكون الرابطة من نوع التعدي فمثلا : لا يمكن أن نقول : زيد أب لعمرو وعمرو أب لخالد فزيد اب لخالد . كلا أنه جده لا أبوه ، وموضع بطلان القياس ، أنه غير متعدى . بينما يصح أن نقول .. زيد أكبر (سنا) من عمرو ، وعمرو أكبر من خالد ، اذن زيد اكبر من خالد ، وسبب الصحة : ان الاضافة متعدية .

٣ ـ وكذلك يصح الاستدلال في الاضافات المتعدية بشكل متسلسل (منصولة النتيجة) مثل أن تقول : الغدر كذب ـ والكذب اثم ـ والاثم في النار • اذن فالغدر في النار •

الحساب المنطقي

لا يمكن فصل المفهوم عن المصداق كما سبق ، انما يمكن تركيز النظر الى أحدهما مؤقتا دون الآخر ـ فمثلا لو قلنا انسان فتارة تتوجه الى جانب الصفات الانسانية الموجودة بالطبع في الافراد • فنكون قد ركزنا النظر في المفهوم ، أكثر من تركيزنا في المصداق ، وتارة نقصد بكلمة الانسان الافراد المتصفين بالصفات الانسانية فنكون تركيزنا على المصداق والمنطق الحديث يبني أساسه على الجانب الثاني فلذلك يصنف المفاهيم ، على أساس أفرادها ، فيسمى الانسان ، صنفا من أصناف الحيوان ، يقصد بذلك أن الانسان هو مجموعة أفراد مشتركين في صفات الانسانية ، بينما الحيوان مجموعة أفراد مشتركين في الصفات الحيوانية •

وعلى هذا يبني أساسه فيقول :

(العمليات المنطقية) ١ / حين نوضح علاقة أي صنف بالآخر فهناك عدة علاقات يمكن أن نحصلها ـ منها علاقة (و) ـ فنقول مثلا : الشعراء والخطباء ، وهذا يعني الشعراء الخطباء والذي يعني بدوره ، وجود صنف مركب فيه صفات الشعراء والخطباء ، وبالطبع لا يوجد من هذا الصنف ـ الذي يجمع خصائص الشعراء والخطباء معا ـ أفراد كثيرون •

بينما لو قلنا الشعراء أو الخطباء فان هناك عددا هائلا من هذين الصنفين ـ والقسم الاول يسمى الضرب المنطقي بينما يسمى القسم الثاني الجمع المنطقي • والقسم الاول يقلل من عدد الافراد بينما القسم الثاني يضاعف منه لذلك قالوا : حاصل الضرب المنطقي أصغر صنف

يتضمن كلا من الصنفين المجموعين كما أن حاصل الجمع المنطقي هو أكبر صنف يتضمن واحدا منهما ويرمز للضرب المنطقي هكذا ا × ب ويختصر أ ب ، ويرمز للجمع (أ + ب) وقد يـؤدي الضرب المنطقي الى صنـف لا افراد له ــ في الواقـع الخـارجي أو لا افراد لـه عقليا ، فمثـلا : لو قلنا : جاء فقهاء المسلمين المسيحيون لم يكن له افراد : اذ لا يكـون شخص فقيها مسلما ومسيحيا في لحظة واحدة ــ ولو قلنا : الدائرة المربعة كان لا افراد له ايضا اذ لا يجتمعان عقليا بالرغم مـن انه حاصل الضرب المنطقي ! ولان هذا الصنف لا أفراد له أساسا نسميه بصنف الصفر ــ فيكون نتيجة ضرب الدائرة (أ) في (×) المربع (ب) هو (=) الصفر (٠) هكذا (أ × ب = ٠) ٠

الصنف ومسلوبه

نقيض كل صنف ٠ يسمى مسلوب الصنف فنقيض الذكـور وهو الذي تقرأه لا ذكور يسمى مسلوب صنف الذكور وهذا المسلوب يكون أناثا ٠ لانه ليس في صنف البشر غير الذكور والاناث فحين نفينا الذكور جاء الاناث ٠ وهكذا العكس ٠

ويرمز للصنف بـ (أ) مثلا ويرمز لمسلوبه بـ (ا) بفتحة علـى الحرف ــ ويقرأ (لا ــ أ) وبالتأكيد أن لا أ هو صنف آخر اذا هنـاك ثلاث عمليات منطقية تشبه العمليات الحسابية الضرب والجمع والسلب ، والنتيجة التي تتوخاها بين هذه العمليات هو تحصيل صنف جديد بجمع أو ضرب أو سلب صنف من الاصناف ٠

الاضافات المنطقية

والاضافات المنطقية هي ملاحظة العلاقة بين صنف وآخر والنتيجـة

المتوخاة منها : تحصيل قضية من القضايا اذ القضية هي التعبير عن علاقة شيء بشيء وهي أقسام كثيرة منها وأهمها :

الاندراج

اذا كان كل فرد من صنف مندرجا تماما في صنف آخر حدثت بين الصنفين اضافة الاندراج فمثلا : كل فرد من أبناء البشر مندرج في صنف الحيوان فالاضافة بين البشر والحيوان أضافة اندراجية ويعبر عنها بالجملة البشر حيوان ويعبر عن هذه الاضافة منطقيا بالرمز (<) فيقال البشر < حيوان ولدى تبديل الكلمات أيضا الى رموز يصبح أ < ب والاضافة هذه متعدية • أذ كل صنف في شيء ضمن صنف ذلك الشيء • فالانسان الحيوان ــ هو الانسان باعتبار انه حيوان والتعبير عنه هكذا أ < ب وب < ح ــ أذن أ < ح ــ (الانسان حيوان ــ الحيوان نام ــ فالانسان نام) ولكن ليست هذه الاضافة تماثلية فليس كل أنسان حيوان يمكن عكسه ــ كل حيوان أنسان •

اضافة التساوي

بينما هناك اضافات اندراجية متساوية وتماثلية • مثلا : الانسان ناطق عكسه صحيح أيضا الناطق أنسان ــ وهذه الاضافة يرمز اليها بــ (=) هكذا (أ = ب) وهذا يعني أن كل ألف باء (أ < ب) وكل باء ألف (ب<أ) ورمز التساوي بين صنفين هو (=) بينما رمز التساوي بين القضيتين هو ≡ مثلا نقول :

ق (أ = ب) ≡ ق (أ < ب) ق• (ب < أ) •

والملاحظ أننا وضعنا (•) بين القضيتين الاخيرتين فهي تعني جمع القضيتين •

هذا حديث عن العمليات والاضافات المنطقية يبقى أن نعرف المبادىء التي يعتمد عليها الحساب المنطقي • وكما قلنا سلفا • الحساب المنطقي قسمان حساب الاصناف وحساب القضايا •

حساب الاصناف

من المبادىء الاساسية التي يعتمد عليها هذا الحساب هو عشر مبادىء ثابتة وأساسية ، ولكل منها رمز معين :

١ ـ مبدأ الذاتية :

ويعني أن كل شيء هو نفسه ، أو بالاحرى مساو لنفسه • ويرمز بالطبع برمز = هكذا (أ = أ) •

٢ ـ مبدأ التناقض :

ويعني أنه لا يمكن جمع شيء ولا شيء في مكانواحد ، أو بالاحرى نتيجة هذا الجمع هو صفر • هكذا (ا آ = ٠) •

٣ ـ مبدأ الثالث المرفوع :

كل شيء أما هو في صنف أو في نقيضه ـ فألف اما ب أو لا ب ـ هكذا (ا = آ =) •

٤ ـ مبدأ التعويض :

ويعني أن كل شيء تساوى كل شيء يمكن تبديله عنه وتعويضه به • فالانسان ناطق • يمكن تعويضه بالناطق أنسان ويرمز اليه (ا + ب = ب + ا) •

٥ ــ مبدأ التجميع :

وهو المبدأ الذي تجمع فيه بين حد وآخر برابطة ، مثلا : (أنسان وفنان) ــ ورمزها (أ ب) والحد (فنان عالم) ورمزها (ب ح) تجمعهما رابطة هي (عالم أنسان) ورمزها ع = أ فتكون النتيجة (أ ب) ح = أ (ب ح) ومثل آخر في عملية الجمع المنطقي (أما أحمر وأمــا أخضر) أو أصفر = أحمر او (أمــا أخضر أو أصفر) ورمزها (ا + ب) + ح = ا + (ب + ح) •

مبــدا الاستغراق :

بمعنى أن حدا يستغرق في حد آخر ــ مثلا : (أنسان أو فــرس) وحيوان ، يستغرق في حد آخر هو (أنسان وحيوان ــ أو فرس وحيوان) ورمزها هكذا :

(ا + ب) ح = آ ح + ب ح •

مبدأ تحصيل الحاصل :

وهو المبدأ الذي يشير الى أن محتوى كلمة هو محتوى كلمة أخرى مثالها = انسان وانسان = انسان ورمزها •

(اا = ا) •

مبدأ الاستنفــاد :

وهو المبدأ الذي يعني أن الشيء يساوي أفراده مثلا : أنسان أو انسان مهندس يساوي انسان ورمزها (ا + اب = ا) •

مبدأ التبسيط :

وهو يعني ان الشيء يساويً بعض أفراده مثلا : انسان فنان بعض من أنسان اذا فهو يساوي انسان ورمزها : (ا ب $<$ ا) •

مبدأ التركب :

ويقوم بتركيب حدين أو عمليتين • مثلا : الحيوان بعض الاجسام، والانسان بعض الفانين • اذا الحيوان الانسان بعض من الاجسام الفانين •
(باعتبار ان الحيوان بعض من جسم • وباعتبار الانسان بعض من فان) ورمزها : (ا < ب) • (ح < د ا) (ا ح < ب د) •

مبدأ القــاس :

هذا المبدأ يشير الى أن المتضمن في شيء يساوي المتضمن منه ــ فمثلا : أذا كان الانسان متضمنا في حيوان ، وكان الحيوان متضمنا فــي جسم فالانسان اذا ــ متضمن في الجسم • ورمزها : (ا ≻ ب) • (ب ≻ ح) س (ا ≻ ح) •

الرموز في القضايا الحملية

القضايا الحملية الاربع التي سبقت في المنطق الشكلي القديم • يمكن أن نعبر عنها تعبيرا رمزيا وذلك اعتمادا على نظام الرمــوز المــاضي ، فلنبدأ بهذه القضايا واحدة واحدة •

(١) كل (أ هي ب) هذه القضية نرمز اليها بعدة طرق فنستطيع أن نقول : (ا ≻ ب) كذلك يمكن أن نقول (ا ب = ا) بأعتبار أن كل أفراد ا مندرجة في ب ــ كما يمكن أن نقول : ا بَ = • اذ ان (ا) يساوي (ب) ولا يساوي لا ب (بَ) اذ ليس من افراد (ا) الا وهو (ب) وليس لا ب وعليه •

(كل أ هي ب) ≡ (ا < ب) ≡ (ا بَ)

(٢) القضية (لا ا هي ب) يمكن ان نرمز اليها هكذا : ا < بَ

اذ ليس من الالف باء • اذاً كل ألف يساوي لا ب ويرمز اليه هكذا : (ا بَ = ا) وايضا يرمز اليه هكذا : (ا ب = •)

فعليـه :

(لا أ هي ب) ≡ (أ < بَ) ≡ (ا ب = ٠)

(٣) القضية : (بعض ا هي ب) قضية جزئية تنفي كلية متناقضة فهي تنفي القضية (لا ا هي ب) وهذه نرمز اليها هكذا : (أ) < ب (بَ) لهذا فالقضية الجزئية (بعض ا هي ب) ترمز اليها هكذا :

(أ) < بَ أو هكذا : (أ ب ≠ صفر).

(٤) اما القضية الجزئية السالبة (ليس بعض ا هي ب) يجب ان تنفي هذه القضية الموجبة الكلية التي ترمي اليها (ا<ب) ولهذا فيمكن ان نرمز للقضية الجزئية السالبة هكذا (ا< ب) أو (اب ≠٠)

الجبر المنطقي

اذا كان من الممكن تحويل الكلمات الى رموز وتحويل القضايا الى حسابات فان من الممكن ــ ايضا ــ الاستنتاج من القضايا بمعادلات جبرية وذلك وفقا لواحدة من المعادلتين التاليتين :

(١) عبر عن موضوعك في صيغة معادلات او لا معادلات احد طرفيها العدد صفر ، وهذا ممكن لانه نستطيع عمليا تحويل اي معادلة الى ان تكون نتيجتها الصفر ، وذلك بضرب كل طرف من طرفي المعادلة في مسلوب الطرف الآخر ثم نجمع حاصلي الضرب ونجعل الناتج صفراء

ومثال ذلك :

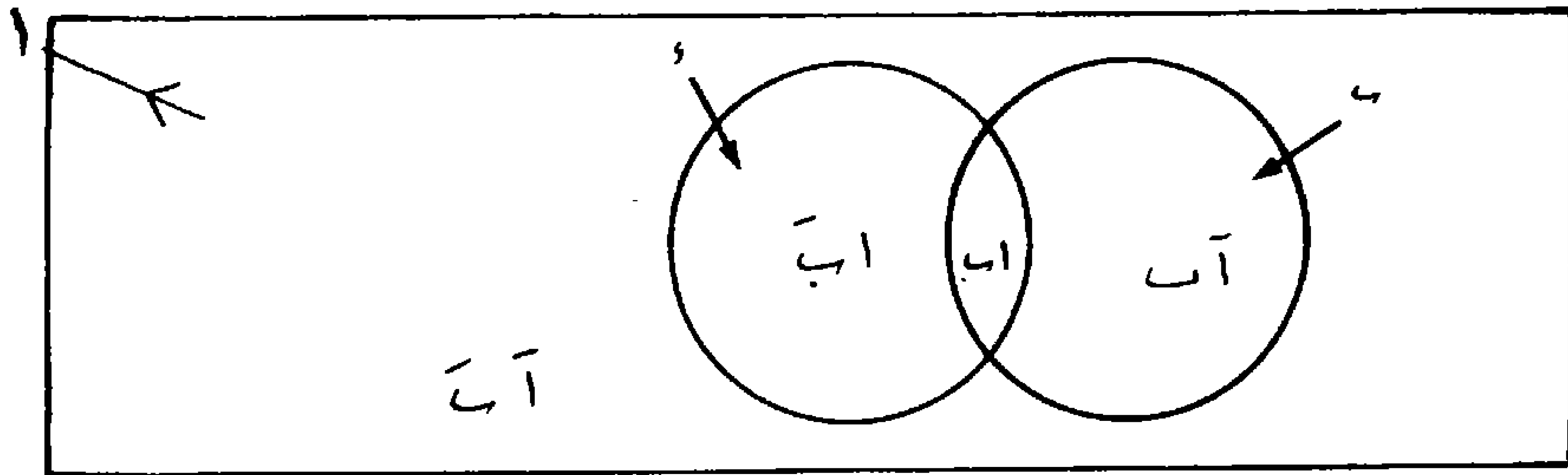
ألف/ا = ب يعادل ا بَ + ا ب = ٠ باء/ا ≠ ب تعادل ا بَ + ا ب ≠

(٢) وفي تركيب المعادلات التي يكون احد طرفيها العدد صفر ، اجمع دائما ، ذلك لان أ + ب = صفر تعادل الزوج / ١ = صفر ، و ب = صفر ـ أي (لا أ هي ب) ـ و (لا ب هي ا) فاذا يمكن جمع كل معادلة نتيجتها العدد صفر مع معادلة أخرى مثلها ، وذلك دون ان نفقد شيئا ، وذلك بعكس الضرب اذ معناه ـ لدى التدبر ـ هو اختيار الفرد المشترك بينهما ، وهو لا يوجد في كل واحد . فالعلماء والشعراء لا يوجد في العلماء فقط ولا في الشعراء فقط بينما العلماء والشعراء يوجد في كل طائفة من طائفتي العلماء او الشعراء .

قواعد تجربة (فن)

(١) نرسم دائرة او مستطيل يمثل الوجود كله . لنجعله اطارا لسائر الاشكال التي نرسمها للدلالة على سائر المصاديق وعلاقاتها ببعضها .

وأهمية رسم دائرة كبرى تمثل العالم او الوجود والتي نرمز اليها بـ (أ) . هي ايضاح علاقة المصاديق ببعضها وبما يحوط بها من العالم.
ثم نرسم دوائر تبين علاقة المصاديق ببعضها فمثلا في موضوع علاقة البحر بالزرقة . والتي هي علاقة قد توجد في البحر الازرق . وقد تنعدم في السماء الزرقاء او البحر غير الازرق . (تتفق مرة وتتفرق مرتين) والتي نرمز اليها بـ (أ) و (ب) نرسمها هكذا :



الشكل المستطيل هو العالم ، الدائرة الاولى تمثل رمز الزرقة (ب) والثانية رمز البحر (أ) • وهما يجتمعان في جزء هو (أ ب) ويفترقان في جزئين (اَ ب) ويقرأ لا أ ــ ب وايضا في ا بَ) ويقرأ أ و لا ب • وبتعبير آخر يفترقان في الازرق غير البحر وفي البحر غير الازرق •

اما وراء الدائرتين فهو يعني الشيء الذي لا هو بحر ولا هو أزرق (الصحراء) وهو الذي نرمز اليه اَ بَ

اذاً الشكل السابق يمثل :

أ = ا ب + آ ب + ا بَ + اَ بَ

بعد هذا نبدأ برسم دوائر على ثلاثة صور بيضاء ومعلم وذات نجمة وكل صورة من هذه الثلاثة ذات مدلول •

١ ــ الدائرة البيضاء ، او المساحة البيضاء من الدائرة ، تدل على السكوت عن محتواها • هل هي موجودة ام لا •

٢ ــ الدائرة المعلّمة ، (او مخططة) او المساحة المعلمة من الدائرة ، تدل على انها غير موجودة ، (منفية / سالبة) •

٣ ــ الدائرة ذات النجمة ، او المساحة الموضوعة فيها النجمة ، تدل على انها موجودة •

وكمثل اذا قلنا : « كل انسان حيوان » فهذا يدل على ان لا انسان غير حيوان ، كما ان القضية ساكتة : (منفية / سالبة) عما اذا كان كل حيوان انسان أم لا •

ولدى الرسم : نرسم مساحة بيضاء للدلالة على السكوت عن ان كل حيوان انسان أم لا •

ونرسم مساحة معلمة للدلالة على انه ليس هناك انسان غير حيوان•

ونرسم مساحة ذات نجمة للدلالة على ان بعض الانسان حيوان •

واذا أردنا ان نرسم كل القضايا الاربع (أ/ب/د/س) والتي رموزها هي التالية :

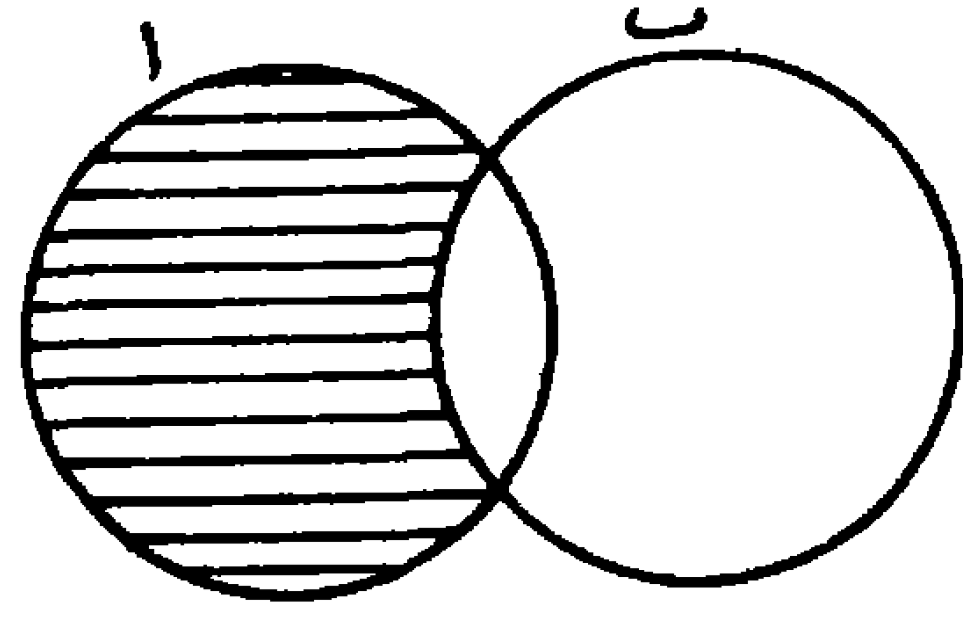
ك كل أ هي ب / ا بَ = صفر •

ل لا أ هي ب / اَ ب = صفر •

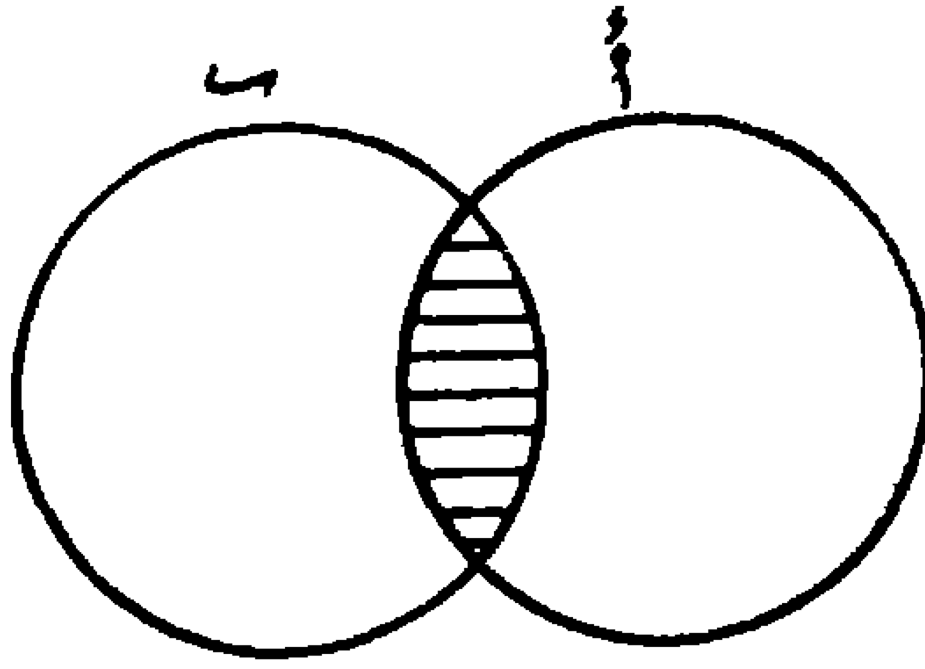
ب بعض ا هي ب / ا ب ≠ صفر •

س بعض ا ليست ب / ا ب ≠ صفر •

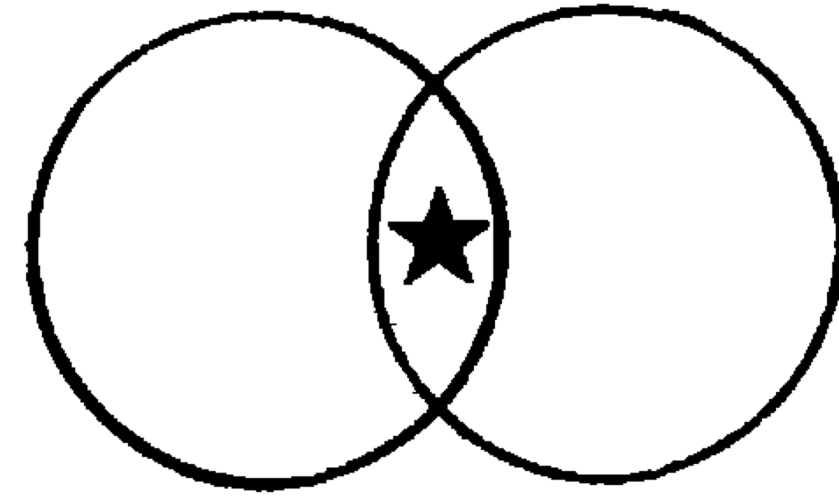
اذا أردنا أن نرسمها وفق المقياس السابق فسوف تكون الاشكال هكذا :



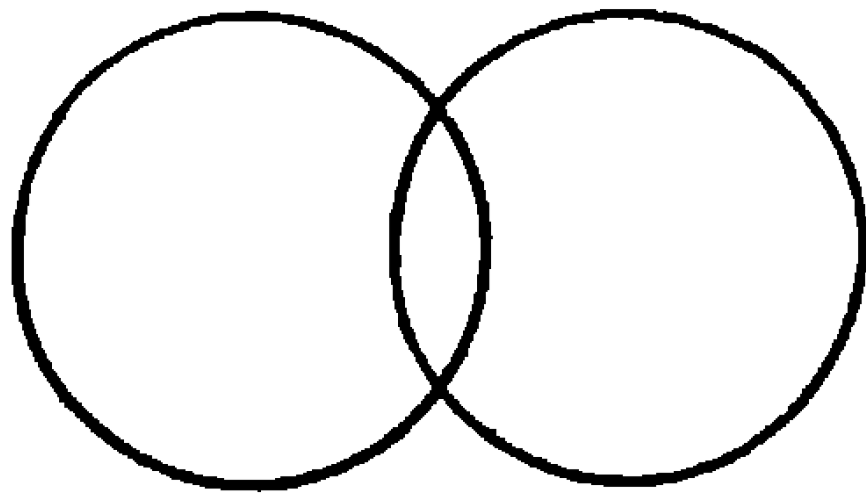
كل ا هي ب / ا بَ = صفر



لا ا هي ب / اَب = صفر



بعض ا هي ب / اَ ب = صفر



بعض ا ليست ب / ا ب = صفر

بهذه الطريقة نستطيع ان نكتشف مقدار المعلوم ومقدار المجهول من القضايا الاربع •

وبهذه الطريقة نكتشف مدى صحة الأستدلال المباشر ، ويمكن سد الثغرة التي كانت موجودة في الاستدلال المباشر في المنطق القديم • كيف ذلك • نحن بحاجة الى معرفة عدة حقائق • قبل ان نكتشف هذه الثغرة •

١ ـ المنطق القديم لم يكن يتحدث عن الاشكال بعيدة عن الواقع، اذ مع حذف الواقع لا يبقى اي سبب • لاستحالة اجتماع المتناقضين وارتفاعهما ، او اجتماع المتضادين ، أترى ما هي العلة في استحالة اجتماع العمليتين التاليتين • كل عنقاء حيوان ليس من العنقاء بحيوان • اذا كانت العنقاء اساسا لا وجود لها ولم يمكن افتراض وجودها •

٢ ـ ولا يتحدث المنطق القديم عن القضايا وما اشبه بشرط الوجود الخارجي لها ايضا • فليس من الضروري وجود الحكومة الديمقراطية • خارجا حين نقول • كل حكومة ديمقراطية • تؤمن بمبدإ الانتخاب •

٣ ـ فما هي اذا علاقة الصور والاشكال والقضايا و•و• بالواقع الخارجي ••؟

انها علاقة افتراض وجوده • اي على اساس وجود عنقاء لا يمكن ان تكون والا تكون من صنف الحيوان •

ولذلك لا تحتاج القضايا في المنطق القديم الى الاستقراء التجريبي• بل يجوز ان يغلق المنطقي على نفسه • الابواب • ويضع اشكالا منطقية تتبع اشكالا •

٤ ـ الا ان افتراض الوجود قد يورطنا في مطب منطقي • وذلك في المثل التالي :

اذا قلنا : (لا رياضي اكتشف طريقة تربيع الدائرة) فهل هذه القضية صحيحة ام لا ؟ بالطبع صحيحة • ولكنها تصبح اغلوطة اذا اجرينا عليها

عدة عمليات من الاستدلال المباشر • فقلنا :

(عند العكس المستوى) لا واحد من الذين اكتشفوا طريقة لتربيع الدائرة هو لا رياضي •

(وعند العكس المستوى) بعض الـلا رياضيين اكتشف طريقـة لتربيع الدائرة •

هنا بالطبع نصل الى الاغلوطة • فهل اكتشف بعض الناس طريقـة لتربيع الدائرة (اي جعل الدائرة مربعة) •

ويبقى سؤال : هل تجنب المنطق الرمزي هذه المغالطة ؟ يجيـب انصار هذا المنطق بـ (نعم) والسبب : يقولون : ان المنطق الرمزي يلاحظ جانب الوجود في العكس • فلا يعكس مطلقا • بل فقط اذا كان العكس في ذات القضية • موجودا وفي مثلنا السابق لا يعكس المنطق الرمـزي قضية لا رياضي اكتشف طريقة لتربيع الدائرة • اذ ان هذه القضية • لا تحمل في ذاتها مفهوم عكسها بل تنطق فقط بظاهرها • وهو لا ريـاضي اكتشف طريقة لتربيع الدائرة بعكس القضية ليس من الحمار بانسان • فانها تحمل في ذاتها عكسها وهو ليس من الانسان بحمار وبتفصيل اكثر:

١ ـ هناك قضايا لا تضمن الوجود الخارجي مثل قضية (ك) اب= صفر اذ لا تعني هذه القضية الا شيئا واحدا هو : انه لا يوجد اي شيء ينتسب الى الصنف (أ) ولا ينتسب الى الصنف (ب) وتسكت القضية عن وجود موضوعات تنتسب الى كلا الصنفين •

ومثل آخر : القضية (ل) اب=صفر تعني انه لا يوجد اي موضوع ينتسب الى ا ب معا دون ان يقول بالطبع هل هناك موضوعات تنتسب الى واحدة منهما •

٢ ـ وهناك قضايـا تتضمن الناحيـة الوجودية فمثلا القضيـة

(ب) ا ب ≠ صفر تتحدث عن « وجود » صنف ينتسب الى ا ب معا .
وبالضبط تتحدث عن « عدم » فراغ الصنف الذي ينتسب الى ا ب معا .

كذلك قضية (س) ا بَ ≠ صفر تقول بوجود موضوعات تنتسب الى ا دون ان تنتسب الى ب

بعد هذا التقسيم نقول : الاستدلالات اقسام منها صحيحة ومنها غير صحيحة .

أ ــ الاستدلال المتقابل بالتناقض صحيح فمثلا : اذا صحت القضية ا ب=صفر فلا بد ان تكون القضية المتناقضة معها كاذبة وهي قضية ا بَ ≠ صفر كما أن القضية ا بَ ≠ إذا كانت صحيحة القضية ا ب=صفر كاذبة لماذا : لان هاتين القضيتين متعارضتين في الوجود والعدم الاولى تقول : ليس من فئة تنتسب الى ا ب والثانية تقول : كل فئة تنتسب الى ا تنتسب الى ب ..

وكذلك القضية ا ب=صفر تتناقض مع قضية اب≠ صفر .
فاذا صدقت احديهما كذبت الاخرى . وعليه فيمكننا ان نستدل استدلالا مباشرا من قضية على عكسها المتناقض معها .

ب ــ اما الاستدلال بالتضاد فهو غير صحيح اذ يمكن ان يجتمع الضدان في العدم . فلا يكون احدهما موجود ابدا .

فيمكن ان يكون الشيء احمر او ازرق كما يمكن ان يكون اصفر اي لا احمر ولا أزرق . فاذا لم يكن الشيء احمر لا يعني انه سيكون ازرق .

وبتعبير رمزي :

اذا كانت ا = صفر فإن ب ≠ صفر .

∴ بَ = صفر ∴ ا بَ = صفر[1] .

ج ـ اما العكس البسيط فهو سيكون صحيحا • لانــه ليس الا تعبيرا آخر عن القضية المعكوسة •

وكذلك نقض المحمول • الذي ليس هو الآخر الا تعبيرا آخر عن ذات الفكرة •

حساب القضايا

حساب القضايا هو نوع من حساب الاصناف • اذ يمكن ان نجري عليه ذات القواعد ، والرموز ، التي اجريناها على حساب الاصناف ، مع فارق ان الرمز في حساب الافراد يدل على صنف ، بينما في حساب القضايا يدل على القضية •

فمثلا كنا سابقا نقول ا،ب،ج • ونعني صنف الانسان والحيوان • ولكنا اذا استخدمنا ذات الرمــوز في حساب القضايا فانا سنعني بهــا اصناف انواع القضايا •

فلو قلنــا : (ا) يساوي الانسان • و (آ) يساوي لا انسان ففــي القضايا • (ا) يساوي القضية صادقة و (آ) يساوي • القضية كاذبة • الا ان هناك بعض القواعد الاضافية والرموز الاضافية جعلت حساب القضية فصلا بذاته • وقبل ان نبين هذه القواعد والرموز نحتاج الى :

---

(١) هذا في حالة ان يكون ا = صفر اذ آنئذ يكون . ا ب = صفر و ا ب = صفر اما اذا كنا نعلم بوجود صنف ا بمعنى اذا كان ا ـ صفر فان المعادلة تتغير ويمكن الاستدلال آنئذ اذ يكون اب = صفر متضمنا اب = صفر ، ويكون اب ـ صفر تتضمن اب ـ صفر . ومن هنا نستنتج انه اذا كانت ابت صفر وكانت ا = صفر فان ات ـ صفر وذلك لانه اذا كانت اب = صفر (ـ ٤ ـ) وكانت ا ـ صفر فانت ـ صفر اذا ت ـ صفر ا ـ ت ـ صفر ـ صفر ات ـ صفر

١ ـ اذا كان الانسان فان فأن الحياة تنقرض •

اذا كان الله فان فأن الحياة تنقرض •

اذا كان العدد ٧ فان فأن الحياة تنقرض •

هذه ثلاث قضايا نرمز اليها جميعا بهذه الرموز •

« اذا كانت ا هي ب فان ح هي د » انك ترى ان رمزي (ا) و (ب) هما رمزان متغيران ، فقد يكونان صادقين كالمثل الاول ، اذ الانسان يفنى، وقد يكونان غير ذلك كالمثل الثاني والثالث ••

الا ان علاقة الرموز ببعضها ، ستظل ذات العلاقة ، انما مفهوم الرمز • او مدلول الرمز متغير ، وتبعا لهذا التغير • تصبح القضية صادقة او كاذبة •

والتعابير التي تدل على الاشياء ، وهي بدورها قد تصدق وقد تكذب ، هذه التعابير تسمى بـ (الدوال) لان ورائها مدلولات ، او قيم متغيرة ، وغير ثابتة ، وتسمى هذه النوعية من القضايا بالدوال القضائية •

٢ ـ في مقابل هذا النوع من القضايا نوع آخر ، تسمى بـ (القضية) بالمعنى الضيق ، وهي ليست سوى علاقات لا بد ان تصدق دائما او تكذب دائما ، مع قطع النظر عما تدل عليها هذه العلاقات من اشياء ورائها •

تماما كعلاقة الكل بالجزء ، والنقيض بالنقيض ، والضد بالضد ، وحيث ان هناك « قوانين جبرية » تحكم هذه العلاقة مع قطع النظر عن طبيعة الكل والجزء •• كان انسان ام حيوان ام حجر وتسمى هذه القضية بـ (الجبر ذو القيمتين) •

وسوف نستعرض بعض قوانين هذا الجبر • لاهميته •

الجبر الذي يحكم هذا النوع من القضايا هــو ان (آ اما=صفر او=١) (اي صنف الف اما صفر او موجود) وكل الانظمة الرمزية التي سبق وان قلناها في حساب الاصناف تأتي هنا ، اللهم الا في طبيعة الرموز، التي لا بد ان نصطلح عليها ببعض الرموز لنفرق بين حساب الاصنــاف وحساب القضايا وهذه هي التالية :

١ ــ في حساب الاصناف كنا نستخدم ابج اما هنا فنقول ق‌ت‌ص ــ

٢ ــ وهناك كنا نستخدم آ • للدلالة على سالب ١ وكنا نقرأ لا أ اما هنا فنستخدم ــ ونقرءه لا قضية ••

٣ ــ وللدلالة على ان صنفا هو داخل في صنف آخر كنا نرمز هكذا ١ $<$ ب

اما هنا فنرمز للدلالة على علاقة قضية بأخرى في الصدق والكــذب وانها ان كانت صادقة تلك ، كانت هذه صادقة ، واذا كانت كاذبة، كانت هذه ايضا كاذبة ، فنكتب هكذا (ق) ت (ق) ت •

٤ ــ وفي مكان ا+ب التي كانت تــدل على معنى او نكتب ق٧ت للدلالة على ان احدى القضيتين صادقة اما ق او ت •

٥ ــ وبدلا من العلامة ا=ب الدالة على التساوي نضيف الى رمز التساوي شخطة هكذا $\equiv$ وترمز الى ان (ق) تكافيء (ت) في الصدو والكذب •

الــدوال القضائية

اما القسم الاول من نوعي القضية فان فيها كما سبق جزءان جــزء

ثابت وهو الجزء الذي يبين علاقة الرمز بالرمز وجزء متغير وهو الذي يدل على القيم التي وراءها •

وللدلالـة على الجزء الثابت من الدالة القضائيـة يستخدم الرمز (F Y Q) او (د• ذ• ر) كما يستخدم للدلالة على الجزءالمتغير من الدالة القضائية رمز (X.Y . Z) او (س• ص•ع) •

وتبعا لجزئي القضية « الثابت » و « المتغير » يمكن ان يـوصف القضية بالصدق او الكذب فالنسبة الى الجزء الثابت تصبح حالة الدالة القضائية • كحالة الجبر ذو قيمتين (النوع السابق) حيث تتصف الدالة القضائية بالصدق دائما او الكذب دائما فمثلا لا يمكن ان يكونالقضيتان التاليتان الا كاذبة دائما او صادقة دائما •

اذا كانت الشمس طالعة فالنهار موجود • اذا كانت الشمس طالعة فالنهار غير موجود • لان احديهما ضد الاخرى اما بالنسبة الـى الجزء المتغير من الدالة القضائية ، فان اتصافها بالصدق او الكذب ، مرتبـط بقيم القضية ، فاحيانا تكون صادقة ، واحيانا كاذبة ، ونرمز اليها آنئـذ بـ (س، ذ س دائما او د•س احيانا) بالنسبة الى الصدق • او نقـول • (س د • س دائما • او د•س احيانا) بالنسبة الى الكذب • يعني كاذبـة دائما او احيانا • ولا فرق في الدالة القضائية بان تكون الرموز فيها دالة على اسماء او اوصاف • اذ انها هي الاخرى قد تكون صادقة او كاذبة •

وقد وضع رسل (Ruesll) رمزين لحاصل الضرب المنطقي • وهما X · Q X

١ ــ لحاصل الضرب المنطقي ويمكن ترجمته بـ («س» • د س) اي صادقة بالنسبة الى كل قيم س د س •

٢ ــ X Q X E لحاصل الجمع المنطقي ويمكـن ترجمته بـ

« (م س) • د س » يعني ان « د س صادقة بالنسبة الى اشياء كاذبة بالنسبة الى اشياء أخرى » •

فمثلا اذا كانت قيمة الدالة القضائية : هو الناطق (يرمز اليه بـ «د» في الدالة القضائية) •

فان الدالة القضائية « (س) • د س تعني ان كل شيء هو ناطق • بينما (م س) • دس » تدل على أن هناك أشياء ناطقة (اي الانسان) •

وكل القوانين والانظمة الرمزية التي تحدثنا عنها سابقا ، بالنسبة الى الاصناف ، صالحة للدالة القضائية • لانها يمكن اعتبارها صنفا من الاصناف •

المصــادر الدينيــة

١ ــ القرآن الكريم
٢ ــ بحار الانوار للعلامة محمد باقر المجلسي : الجزء الاول الطبعة الثانية
٣ ــ » » الجزء الثاني »
٤ ــ » » الجزء الخامس »
٥ ــ » » الجزء الرابع عشر »
٦ ــ » » الجزء الخامس عشر »
٧ ــ » » الجزء السابععشر الطبعة الاولى
٨ ــ » » الجزء السابع والسبعين الطبعة الثانية
٩ ــ ميزان المطالب ج طهراني الجزء الاول والثاني الطبعة الثانيــة
١٠ ــ بحوث في العلم العلامة محمد كاظم المدرسي مخطوط
١١ ــ بحوث في القرآن الحكيم والفكر الاسلامي مواجهة حضارية للمؤلف
١٢ ــ الكافي للعلامة الكليني
١٣ ــ غرر الحكم
١٤ ــ الجعفريات
١٥ ــ لئالي الاخبار
١٦ ــ مكارم الاخــلاق
١٧ ــ مستدرك وسائل الشيعة للعلامة النوري الجزء الثالث
١٨ ــ المستطرف
١٩ ــ وسائل الشيعة للعلامة العاملي الجزء الخامس
٢٠ ــ خصائص التصور الاسلامي للسيد قطب
٢١ ــ منية المريد للشهيد الشيخ زين الدين العاملي
٢٢ ــ سفينة البحار للعلامة الشيخ عباس القمي الجزءان
٢٣ ــ الطفل بين الوراثة والتربية للعلامة محمد تقي الفلسفي
٢٤ ــ مصادر نهج البلاغة للسيد عبد الزهراء

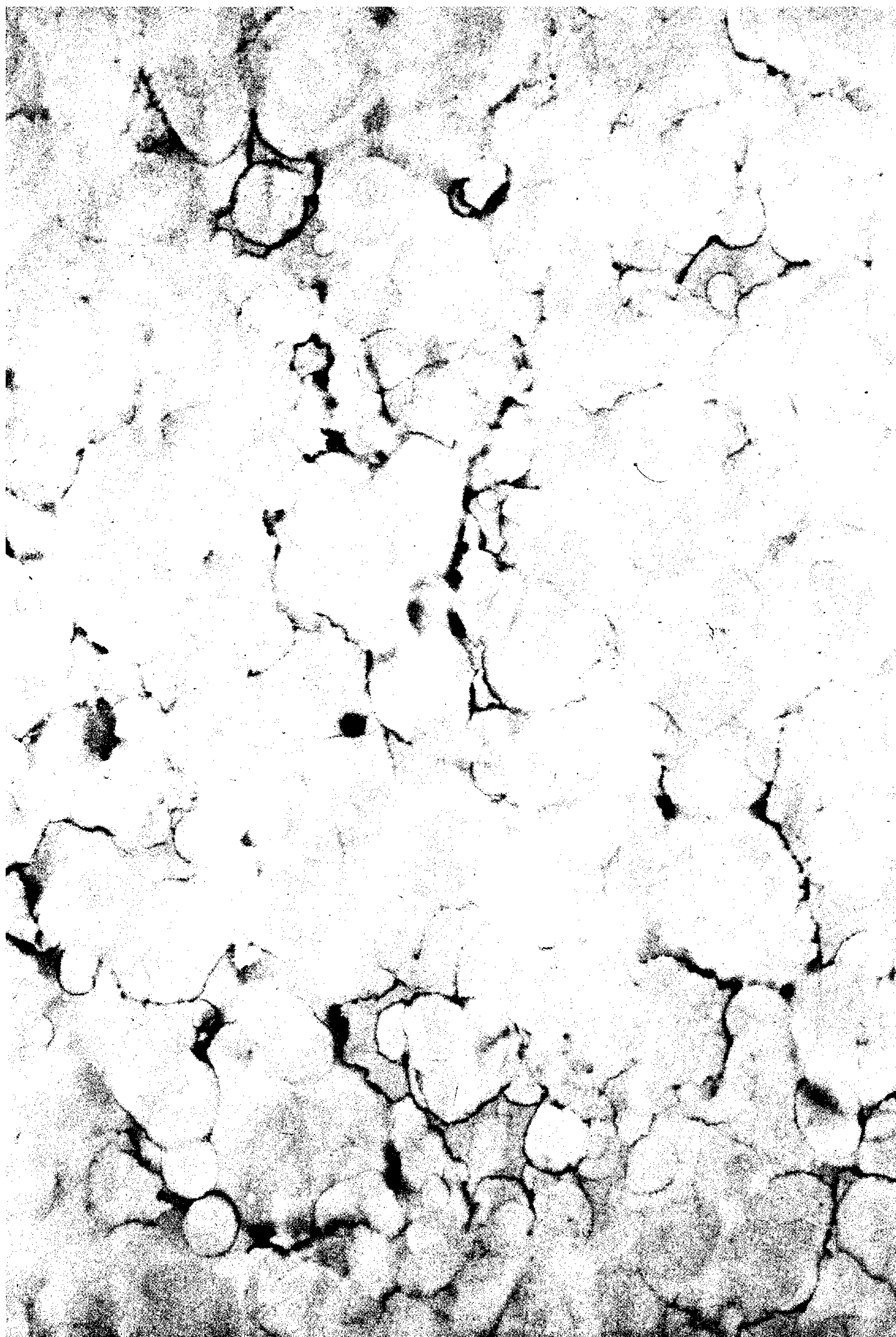
المصادر العلميـة

٢٥ ـ علم الاجتماع والفلسفة الدكتور قباري محمد اسماعيل ثلاثة اجزاء
٢٦ ـ المنطق الصوري منذ ارسطو حتى عصورنا الحاضرة د. علي سامي النشار
٢٧ ـ المنطق نظرية البحث جون ديوي ترجمة د. زكي نجيب محمود
٢٨ ـ نشأة الفلسفة العلمية هانز ريشنباخ
٢٩ ـ المنطق الحديث ومناهج البحث د. قاسم
٣٠ ـ مبادىء علم النفس العام د. يوسف مراد
٣١ ـ اصول البحث العلمي ومناهجه د. احمد حيدر
٣٢ ـ مناهج البحث العلمي د. عبد الرحمن بدوي
٣٣ ـ عصر الايدلوجيات هنري أيكن
٣٤ ـ الانسان ذلك المجهول الكسيس كاريل
٣٥ ـ مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي
٣٦ ـ ديمقراطية القومية العربية د. محمد عبدالله العربي
٣٧ ـ رينه ديكارت
٣٨ ـ غسل الدماغ د. فخري الدباغ
٣٩ ـ اللامنتمي ولسن
٤٠ ـ الثائرون بريان كروزير
٤٢ ـ المادية الجدلية والمثالية البرجوازية برتراند رسل وآخرون
٤٣ ـ العمل والمخ
٤٤ ـ مغامرات العقل س. أ هابا كاوا الاستاذ لفنون اللغة في جامعة سان فرانسيسكو
٤٥ ـ لمن ترهقهم الحياة هارولد فينك
٤٦ ـ صفة العلم
٤٧ ـ التفكير د. سيد احمد عثمان ود. فؤاد عبد اللطيف
٤٨ ـ نظريات الشخصية ـ المقدمة ـ للمؤلفين د. هول وج. لندزي
٤٩ ـ مبادىء الاحصاء عبد المنعم ناصر الشافعي
٥٠ ـ مقدمة في الاحصاء الاجتماعي
٥١ ـ مجلة عالم الفكر ـ الكويتية ـ ١٩٧٤ المجلد الخامس العدد الاول
٥٢ ـ المنطق الصوري والرياضي د. عبد الرحمن بدوي
٥٣ ـ المنطق ومناهج البحث
٥٤ ـ ميادين علم النفس الجزء الاول والثاني

المصادر باللغة الفارسية

٥٥ ـ عقدة حقارت
٥٦ ـ روانشناسي اجتماعي
٥٧ ـ عقل كامل
٥٨ ـ راه ورسم زندكي الكسيس كاريل
٥٩ ـ جه ميدانيم ؟ تربيت اطفال دشوار
٦٠ ـ » » ؟ بيماريماي روحي وعصبي
٦١ ـ جغرافياي انساني عمومي د. كاظم وديعي
٦٢ ـ ما وفرزندان مـا

محتويات الكتاب






Bibliotheca Alexandrina
05597072